



Bibliotheca Alexandrina



0109132



إهداء الكتاب

بكل خضوع وخشوع ، أقدم كتابي هذا إلى سيدنا محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم .
إلى من أنزل عليه الفرقان ونشر لواء الإسلام وقضى على الشرك وعبادة
الأصنام ، وعلم الخلق كيف يعملون لدنياهم الآنية وآخرتهم الباقية .
إلى نور الهدى الذى بلغ من حُسن الخلق ورُجحان العقل وثبات العقيدة ،
غايةً ليس وراءها مُطْلَعٌ لناظر ، ولا نهايةً لاستزيد ، ولا فوقها مُرْتَقَى لهمة .
من أثنى عليه ربُّ العالمين فقال : (وَإِنَّكَ لَمَعْلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .
هذه يارسول الله سيرتك الطاهرة العطرة ، أرجو أن تنال عطفك وتحظى
برضاك . فإنى لم أريد غير وجه الله الكريم والتبرك برسوله الأمين . وخدمة
المسلمين أجمعين .

مُقَدِّمَةٌ كتاب محمد رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من الكتب الإسلامية التي كتب لها التوفيق ، وقوبلت بالقبطة والرضا ، وانتشرت في جميع العالم الإسلامي ، وانتفع بها طلاب التاريخ العربي ، ومحبو السيرة الحمديّة ، كتاب « محمد رسول الله » للأستاذ محمد رضا .

جمع هذا الكتاب ما تفرق في الكتب من سيرة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، وما اشتملت عليه من معان رفيعة ، وأعمال جليلة ، تدل على رضة قدر ، وعلو همة ، وقوة عزيمته لم تتح لغيره .

ولم يكن جمع مثل هذا الكتاب بالهين ، ولكن الأستاذ محمد رضا عكف سنين طويلة على دراسة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، لا في كتب السيرة الخسب ، ولكن أيضا في كتب التاريخ ، والتفسير ، وشروح الأحاديث ، ومعاجم اللغة ، وتراجم الرجال ، وأيضا فيما كتبه المستشرقون : لئنصفون منهم والمفرضون ، ولم يفته أن يفند أقوال المفرضين من هؤلاء ، ويهدم ما ينشره المعضلون من مفتريات وأكاذيب .

وعلى الرغم من أن الإحاطة بالسيرة الحمديّة مهمة شاقّة ، فإن الأستاذ محمد رضا قد بذل الجهد ، وأفرغ الوسع في جمع سنتها . وقد قال مقدمته :

« وحقت مختلف الروايات ، فلم أثبت إلا ما صح منها ، وما أجمع عليه أكابر الصحابة والعلماء ، وذكرت الآيات عند المناسبات حتى تعلم أسباب النزول . وشرحت مواقع البلدان والفترات ، والألفاظ اللغوية ، وقيدت الوقائع بالتواريخ الهجرية مع ما يقابلها من السنين الميلادية .

ولم أترك صحابيا ذكر في كتابي هذا إلا كتبت نبذة عن ترجمته ؛ لتعرف سيرته وعلاقته بالحوادث ، فجاء الكتاب بعون الله مرجعا تاريخيا ، وبحسن عليا ، مدعما بالأدلة القاطعة ، معززا بالحجج الدامغة مؤيدا بكتاب الله عز وجل ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . »

فهو كتاب ، لا غرو أن جاء جامعا لسيرة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأيضا فإنه كتاب إسلامي لم يقتصر على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، بل تعرض لدفع ما يوجهه أعداء الإسلام إلى الإسلام من شبه ومغاض خفية ، لا يستطيع غير العلماء ردّها .

وقد اضطر المؤلف في بعض المناسبات أن يترجم العبارات التي يقصد بها الطعن في تعاليم الإسلام ونبى الإسلام ليطالع الناس على مقاصد المستشرقين المفرضين ونواياهم الخبيثة .

وقد شارك المؤلف بقسط وافر في الرد على المستشرقين المفرضين ، والمبشرين المضللين ، لأنه يرى أن ترك هذه الشبهات تنتشر بين المسلمين مما يزيد ضررها ، ويفسح المجال لأعداء الإسلام فيزداد شرهم ، وتستشري مصائبهم . وقد أحسن صنعا بما فعل .

ومن هنا كتب لهذا الكتاب القيم النجاح ، وانتشر في البلاد الإسلامية انتشاراً استنفدت طبعاته الثلاث في مدة وجيزة .

الطبعة الأولى : كانت في مايو سنة ١٩٣٤ .

الطبعة الثانية : كانت في أكتوبر سنة ١٩٣٧ وقد اشتملت على زيادات وتحقيقات لم تكن في الأولى .

الطبعة الثالثة : كانت في نوفمبر سنة ١٩٤٨ وقد اشتملت على زيادات مهمة وتحقيقات لم تكن في الطبعة الأولى ، ولا في الثانية . ولولا قيام الحرب العالمية الثانية الذي عطل الطبعة الثالثة — رغم فساد الطبعة الثانية — بسبب عدم الورق ، لتقدمت الطبعة الثالثة عن موعدها بسنين كثيرة .

. وكانت وفاة المؤلف من أقوى الأسباب التي أخرت طبع الكتاب الطبعة الرابعة رغم فساد الطبعة الثالثة منذ سنين كثيرة .

الطبعة الرابعة سنة ١٩٦١ وهي هذه التي تقدم بها هذا الكتاب لقراء العربية ومحبي السيرة الحمديّة ليجدوا فيه أوثق المصادر ، وأصوب الآراء لسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ولو قدر لهذه الطبعة وما يستجد بعدها من الطباعات أن تخرج والمؤلف على قيد الحياة لأضاف إليها من بحوثه وتحقيقاته الشيء الكثير ، رحمه الله وشكر له .

ولقد كان « لنار إحياء الكتب العربية » الفضل في إخراج هذا الكتاب الجليل ، والعناية بطبعه وتصحيحه علمياً وفنياً ونشره في البلاد الإسلامية وتقديمه إلى القراء في نظام عصري جميل ، كما دلتها في كل ما تخرجه من كتب مما يزيد رغبة القراء في الإقبال على اقتناء مطبوعاتها . وهامى تقدمه إلى قراء السيرة في طبعته الخامسة سنة ١٩٦٦ .

والله يوفق العاملين لتحقيق السيرة الحمديّة ، وإظهار أجداد الأمة العزيزة

الطاهر أحمد الزاوي

شوال سنة ١٣٨٥
فبراير سنة ١٩٦٦

كلمة عن بلاد العرب

بلاد العرب هي شبه جزيرة في الطرف الجنوبي الغربي لقارة آسيا ، يحدها شمالاً ، الشام وفلسطين والجزيرة ، وجنوباً ، خليج عدن والمحيط الهندي . وشرقاً ، خليج عُمان والخليج الفارسي . وغرباً ، خليج ومضيق باب المندب والبحر الأحمر وترعة السويس .

ويبلغ مجموع مساحة شبه جزيرة العرب مليون ميل مربع ، وأعظم طول لها ١٤٠٠ ميل من العقبة إلى عدن .

وبلاد العرب عبارة عن هضبة تنحدر نحو الشرق . وجوؤها حار ويبلغ عدد سكانها نحو سبعة ملايين وهي موطن الساميين . وينقسم إلى عدة أقسام ، أشهرها ، اليمن والحجاز وتهامة ونجد واليمامة وبلاد البحرين . وتنقسم بلاد اليمن إلى خمسة أقسام : حضرموت وشحر ومهرة وعُمان ونجران .

ويقال إن سبب تسمية « حضرموت » بهذا الاسم ، هو أن حضرموت بن قحطان كان أول من نزلها . وكان اسمه عامراً وإذا حضر حرباً أ كثر فيها القتل . نصاروا يقولون عنه ، حضرموت . فأطلق هذا الاسم على الأرض التي كانت تسكنها قبيلته . ثم أطلق بعد ذلك على جهة متسعة شرقي عدن بالقرب من البحر وهي كثيرة الرمال . ويقال إن بها قبر هود عليه السلام . ويقال إن اليمن سمي بذلك لوقوعه عن يمين الكعبة إذا استقبلت المشرق . ومن أشهر مدن اليمن (صنعاء) وهي قاعدته . وكانت عاصمة ملوك اليمن . وبقرها معادن للفحم الحجري لم تستعمل الآن . وهي حسنة الأسواق واسعة التجارة وبقرها مدينة (مأرب) المسماة (سبأ) نسبة لعبد شمس الملقب بسبأ . يقال إنه بنى هناك سداً عظيمًا وساق إليه السيول من مكان بعيد . وشيد جزءاً كبيراً من المدينة على السد المذكور . وفي بعض السنين تراكت الأمطار فدفت السد وهلك خلق كثير . فسمى السيل (سيل العرم) والعرم هو الذي لا يطافى دفعه . وفي تلك الجهات كتابات بالحرف المسند المعروف بالخط الحميري .

ومن مدن اليمن (صعدة) إلى الشمال الغربي من صنعاء .

و (زيد) إلى الغرب من صنعاء و (بيت الفقيه)

وبلاد الحجاز واقعة في شمالي اليمن ، شرقي البحر الأحمر . وتمتد إلى خليج العقبة ، وعلى ساحلها جزائر صغيرة تلجئ إليها صغار السفن عند الحاجة . وسمى « حجازاً » لوقوعه بين نجد وتهامة .

وأشهر بلاد الحجاز ، مكة المسماة قديماً عند علماء الإغريق (ماكورايا) . والمدينة المنورة - مدينة الرسول - وكانت تسمى مدينة (يثرب) وبها قبر الرسول صلى الله عليه وسلم . وفي شمالها ، جبل (أحد) ويقال للمدينة طيبة

ولها أسماء كثيرة (والطائف) بلدة خصبة، طيبة المناخ، كثيرة البساتين والعيون والجداول واقعة شرقي مكة . ومن أشهر بلاده خير ، وهي واقعة بالشمال الشرقي من المدينة على طريق قوافل الشام . وبها سبعة حصون مشهورة عند العرب وهي : ناعم والقموص ، حصن أبي الحقيق . وحصن الشق وحصن النطايط . وحصن السلام وحصن الوطيح وحصن الكتبية . وتوصف خير بكثرة الحيات .

وقسم تهامة ، وهو على ساحل البحر الأحمر بين اليمن جنوبا والحجاز شمالا . وسميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها .

ونجد ، وهو جنوبي الشام وغربي العراق وشرقي الحجاز وشمالى اليمامة . وأراضيها خصبة وقاعدتها مدينة (الرياض) وكانت مركزاً للوهابيين . وهدمها الرحوم إبراهيم باشا . وإلى الشمال منها ، جبل شمر أى جبل (طى) قصبتها مدينة الحائل . وأشهر مدنها (أبانا) وهي التي ولد فيها محمد بن عبد الوهاب ، شيخ مذهب الوهابية .

وقسم اليمامة . وهو بين نجد واليمن ، ويتصل بالبحرين شرقاً ، والحجاز غرباً . ومن مدنه (اليمامة) وكانت مدينة عظيمة ، ذات مياه ونخل . وهي مدينة مسيلة الكذاب .

ومن أشهر نفور بلاد العرب ، (عَدَن) وهي على الساحل الجنوبي من بلاد العرب ، واسعة التجارة . ونجما . وهي من الثغور الشهيرة على البحر الأحمر والمركز الأصلي لتجارة اليمن .

والخديدة . وهي من أشهر مدن اليمن ، واقعة على البحر الأحمر . وتبرسو عليها سفن حجاج الهند . وجدة . على ساحل الحجاز على بعد ٦٥ ميلاً غربي مكة . وهي أحسن نفور البحر الأحمر .

والعرب أقدم الأمم بعد الطوفان وتنسب إلى يقطان أو قحطان . وامتاز العرب بالقوة والشجاعة . وقد قسم المؤرخون العرب إلى ثلاثة أقسام : بائدة وعاربة ومستعربة .

أما البائدة ، فهم العرب الأول الذين ذهب عنا تفاصيل أخبارهم لقدم عهدهم واقطاع العلم بآثارهم وهم عاد وثمود وطسم وجديس وجُرم الأولى . وكانت مواطن عاد بأحفاف الرمل بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر . ولما انتحلوا عبادة الأصنام أبادهم الله . وأما ثمود فكانت ديارهم بالحجر ووادي القرى بين الحجاز والشام . وكانوا يعبتون بيوتهم في الجبال وكانوا أهل كفر وبغى . وأما جدیس فكانت ديارهم باليمامة وهي إذذاك من أخصب البلاد وأمرها وأكثرها ثمراً وحداثق وقصوراً وأما جُرم الأولى ، فكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالمبرانية فكانوا على عهد عاد واندثروا .

وأما جُرم الثانية ، فهم من ولد قحطان ، وبهم اتصل إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام . وكانت

مساكن بنى قحطان بالحجاز ولما أسكن إبراهيم الخليل ابنه إسماعيل في مكة نشأ بينهم وتزوج منهم وصار يطلق على أولاده العرب المستعربة . لأن أصل إسماعيل ولسانه كان عبرانياً ولذلك قيل له ولولده (العرب) .

وأما العرب العاربة ، فهم بنو سبأ . واسم سبأ عبد شمس . وقالوا إنه لما أكثرت الغزو والسبي ، سمى (سبأ) وهو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان . وكان لسبأ عدة أولاد ، منهم حمير وكهلان وعمر وأشعر وعاملة ، بنو سبأ . وجميع قبائل العرب باليمن وملوكها التابعة من ولد سبأ ، وجميع تبابعة اليمن من ولد حمير بن سبأ خلا عمران وأخيه موزقياء فإنهما ابنا عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلب بن مازن بن الأزرد . والأزد من ولد كهلان بن سبأ . وقيل لهم (عاربة) لنزولهم بالبادية مع العرب البائدة وتخلطهم بأخلاقهم .

أما من حيث المعتقد في الجاهلية ، فكانت العرب أصنافاً : فنصف أنكروا الخالق والبعث وقالوا بالطبع والحين والدمر الفنى كما أخبر الله عنهم في كتابه العزيز :

(وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحى وما يهلكنا إلا الدهر) وصنف اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث . وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله (أضيئنا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد) .

وصنف عبدوا الأصنام . وكانت أصنامهم مختصة بالقبائل . فكان ود لكتب وهو بدومة الجندل ، وسُواع لهذيل . ويفوث ويعوق لذحج وقبائل من اليمن . ونسر لذى الكلاع بأرض حمير ، ويعوق لهمدان . واللات لثقيف بالطائف . والعزى لقريش وبنى كنانة . ومناة للأوس والخزرج . وهبل أعظم أصنامهم وكان على ظهر الكعبة . وكان إساف ونائلة بين الصفا والمروة . وكان منهم من يميل إلى اليهودية . ومنهم من يميل إلى النصرانية . ومنهم من يميل إلى الصابئة ويعتقد في أنواء المنازل . وكان منهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الجن . وكانت علومهم : علم الأنساب والأنواء والتواريخ وتعبير الرؤيا . وكانت الجاهلية تفعل أشياء جاءت الشريعة الإسلامية بها . فكانوا لا ينكحون الأمهات والبنات ، وكان أقبح شيء عندهم الجمع بين الأختين وكانوا يعيبون المتزوج بامرأه أخيه ويسمونه (الضيزن) وكانوا يحجون البيت ويعتصرون ويحرمون يطوفون ويسعون ويقفون المواقف كلها ، ويرمون الحجارة ، وكانوا يكبسون في كل ثلاثة أعوام شهراً ويفتسلون من الجنابة الخ .

وملوك التبابعة هم بنو حمير ، وقيل لهم تبابعة لأنه يتبع بعضهم بعضاً ، كلما هلك واحد منهم ، قام آخر . ولم يكونوا يسمون الملك منهم يتبع حتى يملك اليمن والشعر وحضر موت .

ولم تزل تتوالى الملوك على حمير حتى صار الملك إلى ذى نواس سنة ٤٨٠ م واسمه زُرعة . ولما تغلب على ملك آباءه التبابعة تسمى (يوسف) وتغصب لدين اليهودية وحمل عليه قبائل اليمن فاستجمعت معه حمير على ذلك ، وأراد أهل نجران عليها وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية ، وكان هذا الدين وقع إليهم قديماً من بقية أصحاب الحواريين . ولما كان ذو نواس يدين باليهودية ويتغصب لها ، اتخذ أخنوخاً وأضرمه ناراً ، وكان كل من

لم يهود ألقاه في الأخدود . قيل له (صاحب الأخدود) ويقال : إن رجلاً من أهل نجران أفلت من القتل وسار حتى قدم على قيصر ، صاحب الروم يستنصره على ذى نواس . فبعث إلى ملك الحبشة يأمره بنصره . فخاربه النجاشي وهزمه واقرض أمر التبابعة سنة ٥٢٩ م ودخل أرباط اليمن بالحبشة وأذل حمير وهدم حصون الملك . وعلى ذلك انتهى ملك حمير من اليمن مدة ذى نواس . وبعد ذلك خرج على أرباط أحد رؤساء الحبشة وحاربه وقتله ، ثم أقاموا أبرهة ملكاً وهو الملقب (بالأشرم) وسيأتي ذكره في قصة القيل . ولما مات أبرهة ، تولى بعده ابنه يكسوم سنة ٥٧١ م وأذل حمير وقبائل اليمن .

هذا ملخص عن بلاد العرب وتاريخها تقدمه للقراء . وبعدئذ نبدأ بذكر السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ؟

نسب الشريف

صلى الله عليه وسلم

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف^(١) بن قصي^(٢) بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤي^(٣) بن غالب بن فهر^(٤) بن مالك بن النضر^(٥) بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس^(٦) بن مضر^(٧) بن زرار^(٨) بن معد^(٩) بن عدنان^(١٠)

إن نسب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لا يختلف النسابون فيه إلى معد بن عدنان كما هو مذكور هاهنا وإنما اختلف النسابون من عدنان إلى إسماعيل ، لكنهم أجمعوا على أنه ينتهي إلى إسماعيل . وكره الإمام مالك رفع النسب إلى آدم لعدم ثبوته ، وعن ابن عباس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ١١ بلغ نسبه الكرم إلى عدنان قال « من هاهنا كذب النسابون » .

ومُضَر وريسة م صريح ولد إسماعيل باتفاق جميع أهل النسب .

وهذا النسب أشرف الأنساب . عن العباس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم ، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » . وعن وائلة بن الأسقع رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله اصطفى

(١) مناف اسم صنم أضيف إلى عبد كما يقولون : عبد يثوث ، وعبد العزى ، وعبد اللات . (٢) قصي يقال اسمه زيد ويقال اسمه جمع . (٣) لؤي تصغير لأى وهو الثور الوحشى ، وقد يكون تصغير لأى وهو البطء . والمفهور فيه الهمزة (٤) فهر : الحجير على مقدار ملء الكف يذكر ويؤث (٥) النضر : الذهب الأحمر (٦) إلياس يختلف فيه : فمنهم من يقول إلياس موافق للفى هو خلاف الرجاء ، وهو مصدر يئس ، قيل سمي بذلك لأنه ولد بعد ذكر سن أبيه ، وبضمهم يقول فيه إلياس بكسر الهمزة (٧) مضر : الأبيض مشتق من اللبن الماضر وهو الحامض (٨) زرار : من التزارة وهى القلة (٩) معد : من محمد إذا اشتد (١٠) عدنان : مأخوذ من عدن في السكان إذا أقام فيه ، ومنه جنات عدن أى جنات إمامة وخلود .

من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفي من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفي من بنى كنانة قريشاً ، واصطفي من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم .

مناقب أجداده

صلى الله عليه وسلم

النبي صلى الله عليه وسلم من سلالة آباء كرام ، وكلهم سادة وقادة ، ولم يكن مكان مكين ومقام بين العرب عظيم . وقد اشتهروا بالحكمة والشجاعة والإقدام والكرم كما يتبين ذلك مما ذكره باختصار من مناقبهم وأخبارهم .

قد كان (معد) صاحب حروب وغارات على بنى إسماعيل ، ولم يحارب أحداً إلا رجيع بالنصر . وهو أبو العرب .

وكان (نزار) أجل أهل زمانه وأرجحهم عقلاً .

وكان (مضر) جميلاً كذلك . ولم يره أحد إلا أحبه ، ومن حكمه المأثورة :

« خير الخير أمجله ، فاحملوا أنفسكم على مكروها ، واصرفوها عن هواها فيما أفسدها ، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فواق . »

والفواق ما بين الحلبتين . ومضر أول من حدا للإبل وكان من أحسن الناس صوتاً .

وكان (إلياس) في العرب مثل لقمان الحكيم

« من يزرع خيراً يحصد غبطة ، ومن يزرع »

وأما (فهر) فإليه جماع قريش ، وما كان فوق مهر « يا من »

فهر كريماً يفتش على حاجة المحتاج فيسدها بماله ، وهو الجلد السادس لأبي عبيدة بن الجراح .

(كمب) وهو الجلد الثامن لعمرو بن الخطاب رضي الله عنه . كان يجمع قومه يوم العروبة أي يوم الرحمة وهو يوم الجمعة ، فيعظهم ويذكرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، وينبئهم بأنه من ولده ويأمرهم باتباعه .

(مروة) وهو الجلد السادس لرسول الله صلى الله عليه وسلم والجلد السادس أيضاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وفي مرة أيضاً يجتمع نسب الإمام مالك بنسب الرسول صلى الله عليه وسلم .

(كلاب) اسمه حكيم ، وقيل عروة . وتب كلاب لأنه كان يكثر الصيد بالكلاب ، وهو الجلد الثالث لأمته صلى الله عليه وسلم فهو ملتقى نسب أبيه بنسب أمه . وقيل : إنه أول من سعى الأثر العريضة المستعملة إلى الآن .

(قصي) ولد حوالي سنة ٤٠٠ م اسمه زيد ، ويقال له مُجَمِّع وبه جمع الله القبائل من قريش في مكة بعد تفرقها فأنزلهم أبلح مكة، وكان بعضهم في الشام بمرووس الجبال بمكة، قسم منازلهم فسمى مجعاً، وهذا عمل جليل وفضل عظيم لا يتم إلا على يد ذوى النفوس الأبية والهم العالية . وقصّي أول من أوقد ناراً للزلفة وكانت توقد حتى يراهم من دفع من عرفة . وهو أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم . وقيل إنما لُقّب قصياً لأنه أبعد عن أهله ووطنه مع أمه بعد وفاة أبيه ، فإنها تزوجت ربيعة بن حرام فرحل بها إلى الشام . وفيه يقول حنيفة بن غاتم :

أبوكم قصي كان بدعي مجعاً به جمع الله القبائل من فهر

وكان إلى قصي في الجاهلية حجابة البيت^(١) وسقاية الحاج^(٢) وإطعامه المسى بالرفادة^(٣) ، والندوة وهي الشورى لا يتم أمر إلا في بيته ، ولا يقد عقد نكاح إلا في داره ولا يقد لواء حرب إلا فيها ، فكان بيته عبارة عن ناد للعرب ، بل هو ملجؤهم في جميع المشكلات سواء كانت هذه المشكلات قومية أو شخصية . ولما حضرته الوفاة نهى بنيهِ عن الخمر ، ولا بد أنه أدرك مضرته فنهى أحب الناس إليه عن احتسابها . وتوفي قصي عام ٤٨٠ فمات ٨٠ عاماً .

ومن كلامه الدال على تجاربه ورجاحة عقله :

« من أكرم لثماً شاركه في لؤمه ، ومن استحسن قبيحاً ترك إلى قبحه . ومن لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان . ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان . والحسود هو العدو الخفي » وإذا كنا نحكم على الإنسان بكلامه فهذا يدل على أن قصياً كان ينفذ اللؤم والقبح بفضاً شديداً ، وكان شجاعاً كارهاً للفرور والحسد .

(عبد مناف) اسمه للنيرة وكان يقال له « قر البطحاء » لحسنه وجماله ، وكانت قريش تسميه الفياض لكرمه ، وهو الجد الرابع لعثمان بن عفان والجد التاسع للإمام الشافعي .

(هاشم) واسمه عمرو بن عبد مناف، ويقال له عمرو الملا لعلو رتبته ، وهو أخو عبد شمس ، وقد ساد قومه بعد أبيه عبد مناف ، وقد وقعت مجاعة شديدة في قريش بسبب جذب شديد حصل لهم ، فخرج هاشم إلى الشام فاشترى دقيقاً وكمكاً وقدم به مكة في الموسم فهشم الخبز والكمك ونحر جُزْراً^(٤) وجعل ذلك ثريداً وأطعم الناس حتى

(١) الحجابة هي سدة البيت : أي تولية مفتاح بيت الله تعالى (٢) السقاية : سقى الحجيج كلهم الماء العذب ، وكان عزيزاً بمكة يجلب إليها من الخارج فيسقي الحاج منه وينذ لهم الثمر والزيب فيسقيهم الماء ، وكانت وظيفة لهم . (٣) الرفادة : إطعام الطعام لساير الحاج تعد لهم الأسطة في أيام الحج ، وكانت السقاية والرفادة مستمرة إلى أيام الخلفاء ومن بعدهم من الملوك والسلاطين ، وكان قصي يعلم الحاج لأنهم ضيوفه .

(٤) جزر جمع جزور ، من الإبل ، ويقع على الذكر والأنثى .

أشبههم فسمى بذلك « هاشماً » وكان يقال له « أبو البطحاء » و « سيد البطحاء » . والبطحاء مسيل الوادي - ولم تنزل مائدته منصوبة في السراء والضراء ، وكان موسراً يؤدي الحق ويؤمن الخائف . وهو أول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، فكان يرحل في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة ، وفي الصيف إلى الشام . قال الشاعر :

عمروالذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون بحفاف
سُنَّتْ إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصيف

وقد جاء ذكر الرحلتين في القرآن الكريم بسورة « قريش » قال تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ لِيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ . ومات هاشم بغزة من أرض الشام تاجراً سنة ٥١٠ م .

(عبد المطلب) وأمه سلى بنت زيد التجارية . واسم عبد المطلب شيبة الحمد لأنه ولد له شيبة ، مع رجاء حمد الناس له ، وإنما قيل له عبد المطلب لأن عمه المطلب أوقفه خلفه وكان بهيئة رثة لفقره فقيل له من هذا ؟ قال : عبدى ، حياء من سأله ، وكان عبد المطلب محاب الدعوة . وكان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال ، وهذا إحساس لطيف ورفق بالحيوان الأعجم ؛ ولذا كان يقال له « مطعم الطير » ويقال له « الفياض » . وكان مفزع قريش في النوائب وملجأهم في الأمور وشريفهم وسيدهم كما لا وفعالا ؛ وهو أول من تخت (تعبد) بحراء . كان إذا دخل شهر رمضان ؛ صعد حراء وأطعم المساكين ؛ وعاش مائة وعشرين سنة أو أكثر وقد انتهت إليه الرئاسة بعد عمه المطلب . وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبنى ؛ ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيات الأمور . ورفض عبد المطلب في نهاية عمره عبادة الأصنام ووحد الله . وقال دغفل النسابة : إن عبد المطلب كان أبيض ، مديد القامة حسن الوجه في جبينه نور النبوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد غاب . وهو الذي كشف عن زمزم بئر إسماعيل ؛ وأقام سقايتها للحجاج ؛ فكانت له نفراً وعزاً على قريش وعلى سائر العرب .

وكان يكرم النبي صلى الله عليه وسلم ويمظمه وهو صغير ويقول « إن لابني هذا لثأراً عظيماً » وذلك مما كان يسمعه من الكهان والرهبان قبل مولده وبعده . وكانت كنية عبد المطلب « أبا الحارث » كني بذلك لأن الأكبر من ولده الذكور كان اسمه الحارث .

أولاد عبد المطلب : أعمام رسول الله وعماته

أولاد عبد المطلب عشرة ذكور : عبد الله وأبو طالب « واسمه عبد مناف » والزيير (أمهم فاطمة بنت عمرو الخزومية) . العباس - جد الخلفاء العباسيين - وضرار (أمهما ثبلة العمرية) - حمزة والقوم (أمهما هالة بنت وهب)

أبو لمب وهو عبد العزى (أمه لبنى الخزاعية) الحارث (أمه صفية من بنى عامر بن صعصعة) الغيداق (أمه ممنة) واسمه حجل .

وست نسوة وهن : صفية وأم حكيم البيضاء وعاتكة وأميمة وأروى وبرة^(١) .
أما (عبد الله) فهو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ويكنى أبا قثم وقيل أبا محمد وقيل أبا أحمد وهو أصغر أولاد عبد المطلب .

وقيل إن عبد المطلب أول من خضب بالوسمة أى السواد لأن الشيب أسرع إليه وكان إذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم المساكين جميع الشهر ؛ وكان صعوده للتغلى عن الناس يتفكر فى جلال الله وعظمته .
ويؤثر عن عبد المطلب سنن جاء القرآن وجاءت السنة بها . منها الوفاء بالنذر ؛ والمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ؛ والنهى عن قتل الموءودة وتحريم المحرم والزنا والحد عليه وألا يطوف بالبيت عريان ؛ وتعظيم الأثمة الحرم . وهو أول من سنّ دية النفس مائة من الإبل فجرت فى قريش ، ثم نشأت فى العرب وأقرها رسول الله .

وكان نديته فى الجاهلية حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف والد أبى سفيان ، وكان فى جوار عبد المطلب يهودى فأغلظ ذلك اليهودى القول على حرب فى سوق من أسواق تهامة فأغرى عليه حرب من قتله ؛ فلما علم عبد المطلب بذلك ترك منادمة تحرب ؛ ولم يفارقه حتى أخذ منه مائة ناقة دفعها لابن عم اليهودى حفظاً لجواره . ثم تادم عبد الله بن جدعان التيمي .

نذر عبد المطلب

جد النبي صلى الله عليه وسلم

كان عبد المطلب نذر حين لقي من قريش العنت^(٢) فى حفر بئر زمزم لئن ولد له عشرة نفر وبلغوا معه حتى يتموه لينحرن أحدهم عند الكعبة لله تعالى ؛ ولم يكن له ولد إلا الحارث .

وقد ارتاب بعضهم فى حكاية هذا النذر ؛ لكننا لا نرى مندوحة عن ذكرها لأنها وردت فى أمهات كتب التاريخ التى استقيناه منها ، فقد رواها ابن إسحاق ونقلها الطبرى وابن الأثير وابن سعد فى طبقاته .

ولما بلغ أولاد عبد المطلب عشرة وعرف أنهم سيمنونهم أخبرهم بنذره فأطاعوه وقالوا كيف نصنع ؟ قال يأخذ

(١) لم يسلم من أعمام رسول الله إلا حزة والبار ، وأسلمت عمته صفية لإجاءا وهى أم الزبير بن العوام ، وعاشت كثيراً وتوفيت سنة عشرين فى خلافة عمر بن الخطاب ، ولها ثلاث وسبعون سنة .
(٢) العنت : الوقوع فى أمر شاق .

كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه^(١) فملأوا وأنوه بالقدح؛ فدخلوا على هبل في جوف الكعبة وكان أعظم أصنامهم؛ وهو على بئر يجمع فيه ما يهدى إلى الكعبة؛ قال عبد المطلب لصاحب القدح اضرب على بئر هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذره الذي نذر؛ وكان عبد الله أصغر إخوته وأحبهم إلى أبيه؛ فلما أخذ صاحب القدح يضرب؛ قام عبد المطلب يدعو الله تعالى؛ ثم ضرب صاحب القدح فخرج قدح عبد الله؛ فأخذ عبد المطلب بيده ثم أقبل إلى (إساف ونائلة) وهما الصنمان اللذان ينحر الناس عندهما. قامت قريش من أنديةها فقالوا ماذا تريد أن تصنع؟ قال أذبحه، فقالت قريش وبنوه: والله لا ندعك تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه، ولئن فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتي بابنه حتى يذبحه. فقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم: والله لا تذبحه حتى تعذر فيه فإن كن فداؤه بأموالنا فديناه. وقالت قريش وبنوه لا تفعل، وانطلق إلى كاهنة بالحجر فسلمها، فإن أمرتك بذبحة ذبحته، وإن أمرتك بمالك وله فيه فرج قبلته. فانطلقوا حتى أتوها بخير قصص عليها عبد المطلب خبره، فقالت لهم ارجعوا اليوم حتى يأتي نبي نأبى فأسأله، فرجعوا عنها، ثم غلوا عليها فقالت: نعم قد جاءني الخبر فكم دية الرجل عنكم؟ قالوا: عشرة من الإبل وكانت كذلك، قالت ارجعوا إلى بلادكم وقربوا عشراً من الإبل واضربوا عليها وعليه بالقدح، فإن خرج على صاحبكم فزيدوا في الإبل عشراً ثم اضربوا أيضاً حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فأنعروها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم.

فخرجوا حتى أتوا مكة ثم قربوا عبد الله وعشراً من الإبل فخرجت القدح على عبد الله، فزادوا عشراً فخرجت القدح على عبد الله. فما برحوا يزيدون عشراً وتخرج القدح على عبد الله حتى بلغت الإبل مئة ثم ضربت فخرجت القدح على الإبل فقال من حضر قد رضى ربك يا عبد المطلب. فقال عبد المطلب لا والله حتى أضرب ثلاث مرات فضربوا ثلاثاً فخرجت القدح على الإبل فنهزت. ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا سبع.

إن خروج القدح على عبد الله في كل مرة حتى بلغت الإبل مئة من غرائب الصدف، ولولا معارضة قريش وبنيه ومشورة الكاهنة لذهب عبد الله قرباناً لنذر عبد المطلب. ولكن شاء الله سبحانه وتعالى أن يحفظ أبا محمد حتى يظهر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قد التجأ عبد المطلب إلى هذا النذر لما عارضه عدى بن نوفل بن عبد مناف في حفر زمزم وآذاه وقال له: «يا عبد المطلب أنت طيل علينا وأنت فذل لاولادك؟» فقال «أبائنا تعبنا في فؤاد الله لنن آتاني الله عشرة من الولد ذكوراً لأنحرن أحدهم عند الكعبة» وقيل سفه عليه وعلى ابنه ناس من قريش ونازعوها وقاتلوا فاشتدت بذلك بلواه وكان معه ولده الحارث ولم يكن له سواه، فنذر ذلك النذر الذي ذكرناه.

(١) القدح: هو السهم الذي لا نسل فيه.

انصرف عبدالمطلب بعد أن نحر الإبل آخذاً بيد ابنته عبدالله فر بهلى امرأة من بنى أسد بن عبدالمزى بن قصو وهي عند الكعبة، قالت له حين نظرت إلى وجهه أين تذهب يا عبد الله؟ قال مع أبى، قالت لك مثل الإبل التي نحرمت عنك وقع على الآن فأبى وقال إن معى أبى لا أستطيع خلافة ولا فراقه، وكان عبد الله أحسن رجل رؤى في قريش، وكان ذا عفة وسماحة. وكانت ولادة عبد الله نحو سنة ٥٤٥ م.

زواج عبد الله

خرج عبدالمطلب بمبدا لله يريد تزويجه حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو يومئذ سيد بنى زهم سناً وشرفاً، فزوجه ابنته آمنة بنت وهب^(١) وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم فانتقل النور منه إليها، ثم خرج من عندها فتأتى المرأة التي عرضت عليه نفسها فقال: «مالك لا تعرضين على اليوم ما كذت عرضت على بالأمس؟» فقالت له: فارقك النور الذي كان معك بالأمس. فليس لي بك اليوم حاجة^(٢) وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل - وكان قد تنصر واتبع الكتب - أنه كان لهذه الأمة نبي. وكان تزويج عبد الله من آمنة بعد خفر زمزم بشهر سنين، وكان اسم عبد الله عبد الدار، فلما كان في السنة التي فدى فيها قال عبد المطلب «هذا عبد الله» فسماه يومئذ كذلك.

وبعد زواج عبد الله بقليل خرج من مكة قاصداً الشام في تجارة وبعد أوبته منها، نزل بالمدينة وهو مريض وبها أخواله من بنى النجار، فأقام عندهم شهراً وهو مريض وتوفى لشهرين من الحمل بابنه محمد صلى الله عليه وآله ودفن في دار النابتة^(٣) في الدار الصغرى إذا دخلت الدار على يسارك في البيت وله خمس وعشرون سنة، وهو هو المشهور. وقيل ثمان وعشرون سنة. وترك عبدالله جاريته أم أيمن بركة الحبشية، وخمسة جمال وقطعة من غنم وقد رثته آمنة بهذه الأبيات:

عفا جانبُ البطحاء من آل هاشم وجاور لحداً خارجاً في الغمام
دعته المنالما دعوةً فأجابها وما تركت في الناس مثلاً ابن هاشم
عشيّة راحوا يحملون سريره نساورة أصحابه في التراحم
فإن تك غائله للنون وريبها فقد كان معطاء كثير التراحم

إن آمنة وعبد الله لم يلبا غير رسول الله ولم يتزوج عبد الله غير آمنة، ولم يتزوج آمنة غيره.

(١) تجتمع آمنة هي وعبد الله في كلاب

(٢) إن عرض عبد الله نفسه على المرأة لم يكن لريبة بل ليستبين الأمر الذي دعاها إلى بذل القدر الكثير من الإبل في مقابلة الغنى على خلاف عادة النساء مع الرجال.

(٣) هو رجل من بنى عدى بن النجار

أصحاب الفيل

من الحوادث المهمة التي وقعت عام مولده صلى الله عليه وسلم حوالى سنة ٥٧٠ م قدوم أبرهة الأشرم ملك اليمن إلى مكة لهدم الكعبة وهذه خلاصتها :

إن الحبشة ملكوا اليمن بعد حمير فلما صار الملك إلى أبرهة بن الضباح الأشرم ، بنى كنيسة عظيمة بصنماء إلى جنب عُمدان يقال لها القائس^(١) لم ير مثلها في زمانها بناها بالرخام وجيد الخشب للذهب وقصد أن يصرف حج العرب إليها ويبطل الكعبة ، فلما تحدث العرب بذلك غضب رجل من النساء من بني ققيم بن عدى : ابن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر .

والنساء الذين كانوا ينسبون المشهور على العرب في الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من الأشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر ، فقيه أنزل الله تبارك وتعالى « إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُخَالِفُونَ عَامًّا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًّا لِيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ » قال ابن هشام ليواطئوا ليوافقوا . وكان أول من نسا الشهر على العرب فأحلت منها ما حل وحرمت منها ما حرم القليس وهو حذيفة بن عبد الله بن ققيم ، وأول الأشهر الحرم « الحرم » . فخرج الكنانى حتى أتى القائس « الكنيسة » وتغوط فيها ليلاً ثم خرج فلحق بأرضه ، فلما أخبر بذلك أبرهة غضب وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه (وسمى هذا العام بعام الفيل) فلما وصل إلى الطائف بعد أن هزم من تعرض له من العرب ، بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود إلى مكة فساد أموال أهلها وأصاب فيها مائتي بغير لعبد المطلب بن هاشم وأحضرها إلى أبرهة ، وأرسل أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وقال له سل عن سيد أهل هذا البلد وشر يفهم ، فسأل فقيل له عبد المطلب فقال له إن الملك يقول إنى لم آت الحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت . فقال له عبد المطلب والله ما نريد حربه ولا لنا بذلك طاقة . هذا يد الله الحرام ويد خليله إبراهيم فإن لم يمنعه منه فهو بيته وحرمة وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . ثم انطلق عبد المطلب مع رسول أبرهة إليه فلما استؤذن لعبد المطلب قالوا لأبرهة هذا سيد قريش فأذن له فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلس تحته وكره أن تراه الحبشة معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريرة فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال له : حاجتك ؟ فذكر عبد المطلب أبا عره التي أخذت له ، فقال أبرهة : قد كنت أعجبني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتك ،

(١) القليس كجديز مشتق من قلس الشيء إذا ارتفع ، وقد خربت هذه الكنيسة في زمن السفاح أول خلفاء بني العباس فإنه أمر عامله على اليمن فأخذ خشبها المرصع بالذهب والآلات المنقضة التي تساوى قناطر من الذهب ، لحصل له منها مال عظيم وحبش عفا رسمها واقطع خبرها واندرست آثارها .

أنكلمني عن مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتك هو دينك ودين آباءك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ قال له عبد المطلب : أنا رب الابل وإن للبيت رباً سيمنعه ، فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل فانصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز بالجبال والشعاب تخوفاً عليهم معرفة الجيش^(١) وقد كانوا أكثر من قريش عدداً . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجيشه . فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لَهُمْ إِنْ الْعَبْدُ يَنْعِي رَحْلَهُ فَاَمْنٌ حِلَالُكَ^(٢)
لَا يَنْسِلُ بَيْنَ صُلَيْبِهِمْ وَمَحْلَمٍ غَدَوْاً مَحَالُكَ^(٣)
إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَقَدْ اَتَيْنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَأَ لَكَ

فلما تهيأ أبرهة لدخول مكة وهياً فيه الأعظم (محموداً) وهو مجمع على هدم البيت فكانوا كلما وجهوا الفيل إلى مكة برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى سائر الجهات قام يهرول . ويقال كان عدد الفيلة في هذه الموقعة ثلاثة عشر فيلاً . وبينما هم كذلك أرسل الله عليهم طيراً أبابيل من البحر^(٤) أمثال الخطاطيف مع كل طائر ثلاثة أحجار ، واحد في منقاره واثنان في رجليه فذقهم بها وهي مثل الحصص والقدس لا تصيب أحداً منهم إلا هلك . وليس كلهم أصابت . ثم أرسل الله تعالى سَيْلاً فألقاهم في البحر والذي سلم منهم ولّى هارباً مع أبرهة إلى اليمن بيندر الطريق وأصيب أبرهة بتساقط أعضائه وخرجوا به معهم تتساقط أعضاؤه حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر في يات حتى انصدع صدره عن قلبه . وقيل أول مارؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام . ولما مات أبرهة ، ملك مكانه ابنه يكسوم سنة ٥٧١ م .

ونظراً لأهمية هذا الحادث صار العرب يؤرخون به ؛ إذ لو قلب أبرهة على قريش وتم له هدم الكعبة لأدخلت الديانة المسيحية مكة وأرغم العرب على اعتناقها ؛ لأن اليمن كانت تابعة لأمراء الحبشة المسيحيين وأرغم كثير من أهلها سواء من عباد الأصنام أو اليهود على اعتناق المسيحية وكانت قريش تؤرخ السنين بموت قصي بن كلاب لجلالة قصي . فلما كان عام الفيل أرخت به .

وقد ذكرت حادثة الفيل في القرآن قال تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ

(١) معرفة الجيش : شدته .

(٢) لاهم أصله « اللهم » فإن العرب تحذف الألف واللام وتكتفي بما يلي . والحلال - بكسر الحاء - جمع حلة وهي جماعة البيوت . والحلال - بفتح الحاء - خلاف الحرام .

(٣) الحال : القوة والعبدة . والغدو أصله الند .

(٤) الأبايل : الجماعات ، ولم يتكلم لها العرب بواحد ، قال بعضهم واحده لبيل ولبول .

كَتَبَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ .»

يخبر الله تعالى رسوله بما حدث لأصحاب الفيل أى الجيش الذى سار لهدم الكعبة ، ومعهم الفيل وما كان من انهزامهم بما سلطه الله عليهم من جماعات الطير ترمى المدو بحجارة من سجيل . وتفسير السجيل ، طين يابس أو متحجر . وورد ذكر السجيل أيضا فى القرآن فى سورة الحجر ، قال تعالى : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ » أى على قوم لوط . وقال فى سورة هود « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ » .

وقد أخطأ من فسرهُ بالميكروب . لأن اللفظ لا يفيد ذلك فى اللغة . وقد فتكت هذه الأحجار الصغيرة بالجيش المهاجم فساد مهزوما من غير أن يبلغ مأربه . وجعلهم كعصف مأكول أى كورق زرع تأكله الدواب . فلما أصيبوا بهذه الحجارة نسقطت لحومهم فإن قيل : كيف يتصور أن هذه الحجارة الصغيرة تقتك بالجيش ؟ فهذه قدرة الله سبحانه وتعالى ، وقد كان قادراً على أن يهزمهم ويردهم من غير أن يسلط عليهم الطير ولكنه جعل ذلك سبباً .

وبانهزام الحبشة كما تقدم حفظ الله بيته الحرام من أن يهدم ، وقد صار فيما بعد قبلة المسلمين فى جميع أقطار الأرض .

مولده

صلى الله عليه وسلم

٢٠ أغسطس سنة ٥٧٠ م

ولد النبي صلى الله عليه وسلم فى فجر يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ٢٠ أغسطس سنة ٥٧٠ م (وأهل مكة يزورون موضع مولده فى هذا الوقت) فى عام الفيل . ولأربعين سنة خلت من حكم كسرى أنوشروان خسرو بن قباد بن فيروز بمكة^(١) فى المكان المعروف بسوق الليل فى الدار التى صارت تدعى بدار محمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج بن يوسف وأدخل ذلك البيت فى الدار حتى أخرجه الخيزران أم الهادى والرشيد فجعلته مسجداً يصلى فيه وكانت قبل ذلك لعقيل بن أبى طالب . ونزل على يد الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف فى قابلته ، رافقاً بصره إلى السماء واضحاً يده بالأرض وكانت أمه تحدث أنها لم تجد حين حملت به ما تجد الحوامل من

(١) كان علماء الجغرافيا من الإغريق يملفون على اسم مكة ما كورابا Makoraba

تقل ولا وحم ولا غير ذلك . ولما ولدته أمه عليه الصلاة والسلام أرسلت إلى جده وكان يطوف بالبيت تلك الليلة فجاء إليها فقالت له يا أبا الحارث ولد لك مولود عجيب . فذعر عبد المطلب وقال أليس بشراً سوياً ؟ فقالت نعم ولكن سقط ساجداً ثم رفع رأسه وأصبعيه إلى السماء فأخرجته ونظر إليه وأخذه ودخل به الكعبة وعوده ودعاه ثم خرج ودفعه إليها . وهو الذي سماه محمداً . فقيل كيف سميت بهذا الاسم وليس لأحد من آبائك ؟ قال إنني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم . وكانت تلك السنة التي حمل فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم سنة الفتن والابتهاج فإن قريشا كانت قبل ذلك في جذب وضيق عظيم فاخضرت الأرض وحملت الأشجار وأتاهم الرغد في تلك السنة . ومن عجيب ما وقع عند ولادته ماروى من ارتجاج إيوان كسرى وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفها وذلك إشارة إلى أنه لم يبق من ملوكهم المستبدين بالملك إلا أربعة عشر ملكاً . فهلك عشرة في أربع سنين وهلك أربعة إلى زمن عثمان رضي الله عنه . وغيب بحيرة طبرية بفلسطين^(١) إشارة إلى أنه يحصل لأصحابها بأس شديد ، وخود نار فارس وكان على ما يقال لها ألف عام لم تحمد كما رواه البيهقي وأبو نعيم والخراطي في الهواتف وابن عساكر . ومن ذلك أيضاً ما وقع من زيادة حراسة السماء بالشهب وقطع رصد الشياطين ومنعهم من استراذ السمع . ولقد أحسن الشفراطيسي حيث قال :

ضاعت لمولدهم الآفاق واتصلت شرى الهواتف في الإشراف والطفل^(٢)
 وصرح كسرى تداعى من قواعده وانقض منكر الأرجاء ذاميل
 ونار فارس لم توقدوا خمدت مذ ألف عام ونهر القوم لم يسيل
 خرت لبعثه الأوثان وانبعثت ثواقب الشهب ترمى الجن بالشهب

وينسب بعضهم ذلك إلى أنه حدث في ذلك الوقت زلزال عظيم . قال اليعقوبي في تاريخه : « وأصاب الناس زلزلة عمت جميع الدنيا » الخ . ويروى أن الرشيد أراد هدم إيوان كسرى فقال له وزيره يحيى بن خالويه : يا أمير المؤمنين ، لا تهدم بناء هو آية الإسلام . وقال البوصيري في الحمزية :

وتداعى إيوان كسرى ولولا آية منك ماتداعى البناء
 وغدا كل بيت نار وفيه . كربة من خودها وبلاء
 وعيون للفرس غارت فهل كان لنيرانهم بها إطفاء

وفي سابع يوم من ولادته صلى الله عليه وسلم عرق^(٣) عنه جده بكبش .

(١) بحيث صارت يابسة

(٢) الهواتف : جمع هاتف وهو ما يسمع صوته ولا يرى شخصه

(٣) يقال عرق عن ابنه : أي ذبح عنه شاة .

الاحتفال بمولده

صلى الله عليه وسلم

قال الإمام أبو شامة شيخ النووى : ومن أحسن ما ابتدئ في زماننا ما يُفعل كل عام في اليوم الموافق ليوم مولده صلى الله عليه وسلم من الصدقات والمعروف وإظهار الزينة والسرور . فإن ذلك مع ما فيه من الإحسان للفقراء ، مشعر بمحبة النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه في قلب فاعل ذلك وشكر الله تعالى على ما منَّ به من إيجاد رسوله صلى الله عليه وسلم الذى أرسله رحمة للعالمين .

قال السخاوى : إن عمل المولد حدث بعد القرون الثلاثة ثم ما زال أهل الإسلام في سائر الأقطار ولندن الكبار يعملون المولد ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات ويعتنون بقراءة مولده الكريم ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عظيم . وقال ابن الجوزى : من خواصه أنه أمان في ذلك العام وبشرى عاجلة بنيل البقية والمرام . وأول من أحدثه من الملوك ، الملك المظفر أبو سعيد صاحب إربل ، وألف له الحافظ بن دحية تأليفاً أسماه « التنوير في مولد البشير النذير » فأجازه الملك المظفر بألف دينار . وصنع الملك المظفر المولد وكان يعمل في ربيع الأول ويحتفل به احتفالاً هائلاً ، وكان ثمهماً شجاعاً بطالاً عادلاً . وقيل إنه كان يصرف على المولد ثلاثمائة ألف دينار .

وكان السلطان أبو حمو موسى صاحب تلمسان يحتفل ليلة المولد غاية الاحتفال كما كان ملوك المغرب والأندلس في ذلك العصر وما قبله . ومن احتفاله له ما حكاه الحافظ سيدى أبو عبد الله التنسى ، ثم التلمسانى في كتابه « راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح » وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح ونصه . إنه كان يقيم ليلة الميلاد النبوى على صاحبه الصلاة والسلام بمشورة من تلمسان الحروسة مدعاة حفلة يحشر فيها الناس خاصة وعامة فما شئت من تمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة ، وبسط موشاة ووسائد بالذهب مغشاة ، وشمع كالأسطوانات وموائد كالهالات ، ومباخر منصوبة كالقباب يخالها المبصر تبراً مذاباً ، ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة كأنها أزهار الربيع المنمنمة ، فتشبهها الأنف وتستهلكها النواظر ويخالط حسن رباها الأرواح ويخامر رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال وقد علت الجميع أبهة الوقار والإجلال . وبعقب ذلك يحتفل المستمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومفكرات ترغب في الإقلاع عن الآثام يخرجون فيها من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب ، وبالقرب من السلطان رضوان الله تعالى عليه خزانة المنجاة قد زخرفت كأنها حلة يمانية لها أبواب موجهة على عدد ساعات الليل الزمانية فهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها وفتح عند ذلك باب من أبوابها وبرزت منه جارية صورت في أحسن صورة ،

في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ويسراه على فيها كالمؤدية بالبايعة حق الخلافة . هكذا حالم إلى انبلج عموود الصباح ونداء المنادى حتى على الفلاح . انتهى .

وفي زماننا هذا يحتفل المسلمون بيوم مولده صلى الله عليه وسلم في جميع الأمم الإسلامية . وفي القطر المصري تنلى الأذكار وتوزع الصدقات على الفقراء والمحتاجين . وفي القاهرة يتحرك موكب أرباب الطارق بعد الظاهر أمام المحافظة ويسير قاصداً ميدان الاحتفال بالعباسية مجتازاً شوارع تحت الربع فالسكينة فالنورية فيدان الإشراف فالحمين فالحسينية فالعباسية ويشدد الزحام في هذه الشوارع ويتقدم الموكب كوكبة من فرسان رجال الشرطة وتحف به من الجانبين قوة من رجال الجيش . وقد جرت عادة الحكومة أن تحتفل بهذا اليوم المبارك احتفالاً رسمياً في العباسية حيث تقام سرادقات للوزارات ويتوجه جلالة الملك أو نائبه إلى مكان الاحتفال وهناك يستعرض الحاميا المصرية على أثر وصوله ، ثم ينتقل إلى السرايق ويستقبل رجال الطرق الصوفية بأعلامهم وبعدئذ يقصد سرادق شيخ مشايخ الطرق الصوفية فيستمع لتلاوة القصة النبوية وبعد سماعها يخضع على تاليها الخامة الملكية وتدار المرطبات والحلوى على الحاضرين ثم ينصرف بعد ذلك بموكبه الحافل أثناء قصف المدافع . وفي المساء تنار الزينات القائمة على السرايق وتطلق الإلحاب النارية البديعة ، وفي الصباح تعطل الحكومة وزاراتها ومصالحها وتنلى القصة النبوية الشريفة في المشهد الحسيني بحضور محافظ مصر . وقد أبطلت بدع كثيرة بفضل عناية رجال الدين وبقطة رجال الإدارة .

هذا ولا نزل نطالب ولاية الأمور بمنع كل ما يخالف الدين من آثام ومما يجرى في الموالد عادة لأن ذلك يشوه محاسن الإسلام ويفسد المقاصد الشريفة من إقامة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أسماء

صلى الله عليه وسلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لى أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر . وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمي . وأنا العاقب (والعاقب الذى ليس بعده نبى) وقال : « أنا محمد . وأنا أحمد . وأنا نبى الرحمة ونبى التوبة . وأنا القفى وأنا الحاشر وأنا نبى الملاحم » وفى التهذيب سَمَّاهُ الله عز وجل فى القرآن رسولا ، نبيا أميا ، شاهدا ، مبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله ياذنه وسراجا منيرا . ورءوقا رحيا . وجعله رحمة ونعمة وهاديا صلى الله عليه وسلم . ومن أسمائه الفاتح . وطه . ويس . وعبد الله وخاتم الأنبياء والمختار . وكنيته أبو القاسم وكناه جبريل « أبا إبراهيم » .

مرضعاته

صلى الله عليه وسلم

أرضعته صلى الله عليه وسلم من النساء ثمان وقل أكثر ، أولاهن أمه آمنة ثم ثويبة الأسلمية جارية عمه أبي لهب التي أعتقها حين بشرته بولادته أياماً قبل قدوم حليلة . وخولة بنت المنذر وأم أيمن . وامرأة سعدية غير حليلة ، وثلاث نسوة من العواتك .

وأكثرهن إرضاعاً له حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية وتكنى أم كبشة . وكان من عادة العرب إذ ولد لهم مولود أن ياتمسوا له مرضعة من غير قبياتهم ليكون أنجب للولد وأفصح له . فجاءت نسوة من بني سعد إلى مكة ياتمنس الرضعاء ومعهن حليلة السعدية في سنة شديدة القحط . فكل امرأة أخذت رضيعاً إلا حليلة وقد كانت تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها - الحارث بن عبد العزى - وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد ابن بكر ياتمنس الرضعاء . قالت : وهي سنة شهباء^(١) لم تبق لنا شيئاً ، فخرجت على أتان لي قراء^(٢) معنا مشارف^(٣) لنا والله ما تبض^(٤) بقطرة وما تنام ليلنا من صبينا^(٥) الذي معنا من بكائه من الجوع . ما في ثديي ما يفنيه وما في شارفنا ما يغذيه ولكننا كنا نرجو الفيت والفرج . فخرجت على أتانى تلك فلقد أدمت^(٦) بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجزاً^(٧) حتى قدمنا مكة ناتمنس الرضعاء فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً قتل زوجي والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلا أخذه . فقال لا بأس عليك أن تفعل عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . فذهبت إليه فأخذه وما حانى على أخذه إلا أنى لم أجده غيره ، فلما أخذه رجعت به إلى رحلي فلما وضعته في حجرى أقبل على ثديي بما شاء من لبن فشرب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى ثم تأما وما كنا ننام منه قبل ذلك ، وقام زوجي إلى شارفنا فإذا إنها لحافل^(٨) فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رياً فبتنا بخير ليلة ، وقال صاحبي حين أصبحنا ، تعلمي والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة قتلت والله إنى لأرجو ذلك ، ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته عليها معي فوالله لقطعت بالركب . الا يقدر عليه شيء من حُرْم حتى إن صواحي ليقلن لي

(١) سنة شهباء : معنى سنة الجذب والقحط لأن الأرض تكون فيها ييبساً . (٢) على أتان لي قراء : الأتانى من الحمر ، والقراء القوم الذين ياتمنس الرضعاء . (٣) المشارف - بضم الميم - : الناقة المسنة . (٤) ما تبض : معناه لا ترضع . (٥) اسم هذا الصبي عبد الله بن الحارث وهو أخو رسول الله من الرضاعة وأخواته غير أنيسة بنت الحارث وجذيمة بنت الحارث وهي النسياء غلب ذلك على اسمها فلا تعرف في قومها إلا به وهم لحليلة . (٦) أدمت بالركب أى أطلت عليهم المسافة لتهمهم عليها ، مأخوذ من الشيء الدائم . (٧) العجز - بفتح العين والجيم - : الهزال . (٨) الحافل : الممتلئة الضرع من اللبن .

يا ابنة أبى ذؤيب ويحك اربى علينا^(١) أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ فأقول لمن بلى والله إنها لى فيقان والله إن لها شأنًا . ثم قدمنا منازلنا فى بلاد بنى سعد وما أعلم أرضًا من أرض الله أجذب منها فكانت غنى تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لبنًا فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطارة لبن ولا يجدها فى ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب فتروح أغنامهم جياعًا وما تبض بقطارة لبن وتروح غنى شباعًا لبنًا فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفراً^(٢) قدمنا به على أمه ونحن أحرص شئ على مكثه فينا لما كنا نرى من بركته فلم نزل بها حتى رده معنا .

شق الصدر

قالت حليلة فرجنا فوالله إنه بعد مقدمنا بأشهر مع أخيه لى بهم لنا^(٣) خاف بيوتنا إذا أتاننا أخوه يشتد فقال لى ولأبيه ذاك أجنى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجماه فشقا بطنه فهما يسوطانه^(٤) قالت ففرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائما منتقمًا وجهه^(٥) فالتزمته والتزمه أبوه قتلنا له مالك يا بنى ؟ قال جاء نى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجما نى وشقا بطنى فالتسما فيه شيئًا لأدرى ماهو ؟

قالت فرجنا إلى خبائنا وقال لى أبوه يا حليلة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقه بأهله قبل أن يظهر ذلك به . فاحتماناه قدمنا به على أمه . قالت ما أقدمك به يا ذائر^(٦) وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟ قلت قد بلغ الله بابنى وقضيت الذى على وتخوفت الأحداث عليه فأدبته إليك كما تحبين . قالت ما هذا شأنه فاصدقنى خبرك قالت فلم تدعنى حتى أخبرتها . قالت أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قلت نعم . قالت كلا والله مالا شيطان عليه من سبيل ، وإن لابنى لشأنًا أفلا أخبرك خبره ؟ قلت بلى . قالت رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أض لى به قصور بصرى^(٧) من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ووا حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء . دعيه عنك وانطالق راشدة كان أول ماشق صدره عا الصلاة والسلام فى السنة الثالثة من عمره وقيل فى الرابعة وذلك لتطهيره وإخراج حظ الشيطان منه . وشق صدره صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء كما رواه البخارى . ويقول مؤرخو الافرنج ومنهم

(١) اربى علينا أى اعطى علينا بالرفق وعدم الشدة فى السير .

(٢) حتى كان غلامًا جفراً أى غليظًا شديدًا .

(٣) البهم يفتح الباء : الصغار من الغنم واحداً همزة (٤) فهما يسوطانه . يقال سطلت اللبن والدلم وغيرها أسوطه إذا ضربت به

بعض وحركته . واسم العود الذى يضرب به المسوط (٥) منتقمًا وجهه : أى متفبرًا (٦) يا ذائر . أصل الظئر الناقة التى تعط

(٧) بصرى — بضم الباء — مدينة من أرض الشام

الأستاذ نيكولسون في كتابه تاريخ أدب العرب صفحة (١٤٧ - ١٤٨) طبعة ١٩٠٧ وكذا الأستاذ موير في كتابه « حياة محمد » إن هذه نوبة صرعية ، وهذا مردود لأنه لم تشاهد فيه علامات الصرع طول عمره .

ولم قصة إرضاعه صلى الله عليه وسلم يشير صاحب الحمزية حيث يقول :

وبدت في رضاعه معجزات	ليس فيها عن العميون خفاء
إذ أبتهدلته مرضعات	قلن ما في اليقيم عنا غناء
فأنته من آل سعد فتاة	قد أبتها لفقرها الرضاء
أرضعته لبانها فستبها	وبنها ألبانها الشاء
أصبحت شولا عجافاً وأمت	ما بها شائل ولا عجفاء
أخصب العيش عندها بعد محل	إذ غدا للنبي منها غداء
يا لها منة لقد ضوعف الأج	ر عليها من جنسها والجزاء
وإذا سخر الإله أناساً	لسعيد فإنهم سعداء

الحض على قتله صغيراً

وكانت حليلة كلام جماعة من اليهود وحدثهم بشأنه صلى الله عليه وسلم ، حضوا على قتله وكما عرضته على العرافين في الأسواق ، صاحوا بقتله وكانوا يقولون اقتلوا هذا الصبي فليقتل أهل دينكم وليكرم من أصنامكم وليظهرن أمره عليكم . وعن حليلة رضى الله عنها أنه مر بها جماعة من اليهود فقالت ألا يتحدثون عن ابني هذا حملته أمه كذا ووضعت كذا ورأت عند ولادته كذا وذكرت لهم كل ما سمعته من أمه وكل ما رآته هي بعد أن أخذته وأسندت الجميع إلى نفسها كأنها هي التي حملته ووضعت . قال أولئك اليهود بعضهم لبعض اقتلوه فقالوا أو يتيم هو ؟ فقالت لا . هذا أبوه وأنا أمه . فقالوا لو كان يتيماً قتلناه لأن ذلك عندهم من علامات نبوته . وعن حليلة أيضاً رضى الله عنها أنها نزلت به صلى الله عليه وسلم بسوق عكاظ وكان سوقاً للجاهلية بين الطائف ونخلة ، الحبل المعروف ، كانت العرب إذا قصدت الحج أقامت بهذا السوق شهر شوال يتفخرون ويتناشدون الأشعار ، ويبيعون ويشتررون . فلما وصلت به حليلة سوق عكاظ رآه كاهن من الكهان فقال : يا أهل عكاظ اقتلوا هذا الغلام فإن له ملكاً فالت به وحادث عن الطريق فأنجاه الله .

وقد رأت حليلة السعدية من النبي صلى الله عليه وسلم الخير والبركة وأسعدها الله بالإسلام هي وزوجها وبنوها .

وفاة آمنة

بعد أن ردت حليلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرجت به أمه مرة إلى المدينة سنة ٥٧٥ - ٥٧٦ م لزيارة أخواله من بني النجار أي أخوال جده عبد المطلب فرضت وهي راجعة به وماتت ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة وعمره ست سنين وكان عمر آمنة حين وفاتها ثلاثين سنة .

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زار قبر أمه بالأبواء في ألف مَقْنَعٍ فبكى وبكى أي في ألف فارس منطى بالسلاح .

لخصته أم أيمن بركة الحبشية التي ورثها من أبيه^(١) وحملته إلى جده عبد المطلب بن هاشم الذي كان يحبه ويكرمه فقد كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه . فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم :

« دعوا ابني فوالله إن له لشأناً » .

ثم يجلسه معه عليه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع .
وبوفاة أمه صار يتيماً وقد أُشير إلى يتيمه في القرآن قال تعالى : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى) وفي السنة التي استقل جده صلى الله عليه وسلم فيها بكفاله رمد الرسول رمداً شديداً .

عبد المطلب

يهي سيف بن ذي يزن

لما ظهر سيف بن ذي يزن الحميري بالحبشة وذلك بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم أتمه وفود العرب وأشرفها وكان من جملتهم وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم وأميه بن عبد شمس وأسد ابن عبد العزى وعبد الله بن جُدعان قدموا عليه وهو في قصر يقال له عُمدان - بضم الغين - فطلبوا الإذن عليه فأذن لهم ونكلم عبد المطلب مهتناً . ولما فرغ أدناه وقربه ثم استنفضوا إلى دار الضيافة وقاموا ببابه شهراً لا يصلون إليه ولا يؤذن لهم في الانصراف . ثم اتقوا إليهم انتباهة فدعا بعبد المطلب من بينهم فخلاه وأدنى مجلسه وقال^(٢) :

(١) أسلمت أم أيمن قديماً أول ظهور الإسلام وهاجرت إلى الحبشة وإلى المدينة وبايعت رسول الله وكان عليه السلام يقول : « أم أيمن أمي بعد أمي » وكان يزورها في بيتها . ولما قبض رسول الله بكى ، فقيل لها ما يبكيك على رسول الله ؟ فقالت إني علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم سيמות ولكن أبكى على الوحي الذي رفع عنا .

(٢) راجع الجزء الأول من العقد الفريد لابن عبد ربه والجزء الأول من تاريخ ابن عساکر .

يا عبد المطلب إني مفوض إليك من على أمراً لو غيرك كان لم أبح له به ولكني رأيتك معدته فأطعمتك عليه فليكن مصوناً حتى يأذن الله فيه فإن الله بالغ أمره . إني أجد في العلم الحزون والكتاب المكنون الذي ادخرناه لأنفسنا واحتجبتناه دون غيرنا خيراً عظيماً وخطراً جسيماً فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس كافة ولرمطاك عامة ولنفسك خاصة .

قال عبد المطلب :

« مثلك يا أيها الملك بر ، وسر ، وبشر ، ما هو ؟ فذاك أهل الوبر زمراً بعد زمر » .

قال ابن ذى يزن :

« إذا ولد مولود بتهامة^(١) . بين كتفيه شامة . كانت له الإمامة . إلى يوم القيامة »

قال عبد المطلب :

« أبيت اللعن لقد أبت بخير ما آب به أحد فلو لا إجلال الملك لسألته عما ساره إلى ما ازداد به سروراً »

قال ابن ذى يزن :

« هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد . يموت أبوه وأمه . ويكفله جده وعمه وقد وجدناه مراراً والله باعته جهاراً ، وجاعل له منا أنصاراً يمز بهم أوليائه . ويذل بهم أعداءه . ويفتح كرائم الأرض . ويضرب بهم الناس عن عرض . يخذم الأديان . ويكسر الأوثان ويعبد الرحمن . قوله حكم وفصل . وأمره حزم وعدل يأمر بالمعروف ويعمله . وينهى عن المنكر ويبطله » .

قال عبد المطلب :

« طال عمرك . ودام ملكك . وعلا جددك . وعز فخرك . فهل الملك يسرني بأن يوضح فيه بعض

الإيضاح ؟ » .

قال ابن ذى يزن :

« والبيت ذى الطنب . والعلامات والنصب . إنك يا عبد المطلب لجدد من غير كذب » .

نفر عبد المطلب ساجداً . وقال ابن ذى يزن :

« ارفع رأسك . تلج صدرك . وعلا أمرك . فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك ؟ » .

قال عبد المطلب :

« أيها الملك . كان لي ابن كنت له محباً وعليه حدياً مشفقاً . فزوجته كريمة من كرائم قومه . يقال لها آمنة

(١) تهامة بالكسر سميت تهامة لفسدة حرها وركود ريحها ، من الهم وهو شدة الحر . يحدها بحر القلزم غرباً والحجاز شمالاً واليمن جنوباً .

بنت وهب بن عبد مناف . فجاءت بعلام بين كتفيه شامة فيه كل ما ذكرت من علامة ، مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه » .

قال ابن ذى يزن :

« إن الذى قلت لك كما قلت . فاحفظ ابنتك واحذر اليهود فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا . اطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك فإنى لست آمن أن تدخلهم النفاسة من أن تكون لكم الرئاسة . فيبغون لك الفوائل وينصبون لك الحبالل وهم فاعلون وأبناؤهم ، ولولا أنى أعلم أن الموت يجتاحى قبل مبعثه لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير يثرب دار مهاجرة . فإنى أجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق أن يثرب دار هجرته ، وبيت نصرته ، ولولا أنى أقيه الآفات ، وأحذر عليه الماهات لأعلنت على حداثة سنه وأوطأت أقدام العرب عقبه ولكنى صارف إليك ذلك عن تقصير منى بمن معك » .

ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشر إماء سود وخمسة أرطال فضة وحلتين من حل اليمن وكرش مملوء عنبراً ، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال :

« إذا حال الحول فأبشئ بما يكون من أمره » .

فما حال الحول حتى مات ابن ذى يزن . فكان عبد المطلب بن هاشم يقول « يامعشر قريش لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى فساد ولكن يغبطنى بما يبقى لى ذكره وفخره ولعقبى . » فإذا قالوا له وما ذاك قال سيظهر بعد حين اه .

وفى أسد الغابة أن سيف بن ذى يزن أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره جده عبد المطلب بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

كانت اليمن تابعة للحبشة فكره أهلها حكمهم ونهض سيف بن ذى يزن لا سترداد عرش آبائه فسعى لدى الإمبراطورية الرومانية لشد أزره فلم يفلح فالتجأ إلى ملك الفرس فأمدّه بجيش فخارب الحبشة واتصرعها وبقتل وألها الذى كان يدعى مسروقاً وذلك حوالى سنة ٥٧٥ م ويوافق العام الذى توفيت فيه آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فليس هناك اعتراض على ذهاب الوفود العربية لتهنئة ابن ذى يزن من الوجهة التاريخية . أضف إلى ذلك أن الواجب يقضى على رؤساء العرب بذلك لقرابتهم وجوارهم واشترائهم صالحيهم التجارية لأنهم كانوا يرحلون إلى اليمن للتجارة فى الشتاء كما كانوا يرحلون إلى الشام صيفاً .

وقد اعترض الأستاذ « فيل » Wel على صحة القصة المتقدمة من الوجهة التاريخية وفيما شرحه الأستاذ « برسيغال » M.C. de perceval رد على اعتراضه لأنه أثبت انهزام الحبشة لأول مرة فى سنة ٥٧٥ م وإن كانت لم تعرد نهائياً من اليمن إلا سنة ٥٩٧ م . أما الأستاذ موير فإنه لم يستطع تكذيب ذهاب الوفود ومعهم

- ٢٩ -

عبد المطلب (الذى كان وقتئذ حاكم مكة) تكذيباً باتاً بل قال إن القصة تشمل مبالغات كثيرة فيما يتعلق بالإخبار عن النبي المنتظر وهذا ما جعله يرتاب فيها . على أن المتتبع للسيرة النبوية يجد أن هذه القصة ليست فريدة في بابها من حيث الإخبار برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن ما أخبر به سيف عبد المطلب قاله بحيرا لأبي طالب وعرفه سلمان الفارسي وأذاعه أحبار اليهود مما سنعتي بذكره منفصلاً في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى .

ولعل ما أخبر به ابن ذى القرن عبد المطلب كان من الأسباب التي جعلت عبد المطلب بكرم النبي صلى الله عليه وسلم ويقول لأولاده إذا نَحَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مجلسه لصغره : (دعوا ابني فوالله إن له لشأناً) .

إن الطفل الصغير ، ذا المستقبل العظيم ، تظهر عليه آيات العظمة والذكاء منذ نعومة أظفاره . ويكون له جاذبية خاصة تميزه عن سائر الأطفال بل تميزه عن إخوته إذا كان له إخوة . ويكون محبوباً مفضلاً على غيره أنما حل . وهذا هو شأن عظماء الرجال كما تلونا من سيرهم .

فكان عبد المطلب ، جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يرعاه رعاية خاصة ويؤثره على أولاده بسبب تلك الجاذبية والعظمة الكامنة فيه منذ الصغر . وهذه العظمة كانت تزداد وصوحاً كلما ترعرع وكبر . وقد ثبت بما رواه الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له جاذبية غريبة فكانوا يحبونه محبة فائقة ولا يخالفون له أمراً .

إن عبد المطلب لم يكن يعلم أن محمداً ، ذلك الطفل الصغير ، سيكون رسول الله ، لكنه كان يشعر في قرارة نفسه بتلك الجاذبية التي لازمتها طول مدة حياته وتلك العظمة الكامنة فيه . وهذا هو السر في محبته وشدة رعايته له ولا سيما أن عبد المطلب كان رجلاً عظيماً جليلاً ذا فطنة وفراسة فكان يقول لأولاده (دعوا ابني فوالله إن له لشأناً) .

وفاة جده عبد المطلب

سنة ٥٧٨ م

وكفالة عمه أبي طالب

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانى سنوات توفى جده عبد المطلب بمكة سنة ٥٧٨ م بعد عام الفيل ثمانى سنين وله عشر ومائة سنة . وقيل أكثر من ذلك وكان رسول الله يبكى خاف سريره ودفن بالحجون ، فجعل يأعلى مكة عنده مدافن أهلها عند قبر جده قصى . ولما حضرته الوفاة أوصى به إلى عمه شقيق أبيه « أبى طالب » واسمه عبد مناف وعبد الكعبة وكان كريماً لكنه كان فقيراً كثير الأولاد . وكان يرى منه صلى الله عليه وسلم الخير والبركة ويحبه حباً شديداً ولذا لا ينام إلا إلى جنبه ويخرج به متى خرج . وأوصى عبد المطلب إلى أبى طالب أيضاً بسقاية زمزم وإلى ابنه الزبير بالحكومة وأمر الكعبة .

وفى هذه السنة مات حاتم الطائى وكسرى أنوشروان .

وقد أخرج ابن عساکر عن جلهمة بن عرفطة قال :

قدمت مكة وهم فى قحط فقالت قريش : يا أبا طالب أقحط الوادى وأجذب فہم فاستسقى نجرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجى تجلت عنه سحابة قماء حوله أغيلة (جمع غلام مصغر) فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولأذ الغلام بأصبعة (أشار بأصبعة إلى السماء كالتضرع المتجى) وما فى السماء قزعة (قطعة من سحاب) فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغلق واغدودق (كثر مطره) وانفجر الوادى وأخصب الذادى وفى ذلك يقول أبو طالب مادحاً النبى صلى الله عليه وسلم :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم فہم عنده فى نعمة وفواضل

(الثمال) بكسر المثلثة للجبأ والفيث وقيل المظم فى الشدة . (عصمة للأرامل) أى يمنعهم من الضياع والحاجة .

هذان بيتان من قصيدة طويلة لأبى طالب ^(١) . وقد شاهد أبو طالب هذا الاستسقاء فنظم هذه القصيدة وقد

شاهده مرة أخرى قبل هذه ، فروى الخطابى حديثاً فيه أن قريشاً تناوبت عليهم سنو جذب فى حياة عبد المطلب فارتقى هو ومن حضره من قريش أبا قبيس (بالتصغير اسم الجبل المشرف على مكة) فقام عبد المطلب واعتضده

(١) ذكر القصيدة ابن إسحاق وهى أكبر من ثمانين بيتاً .

صلى الله عليه وسلم فرضه على عاتقه وهو يومئذ غلام فقال أبيع أو قرب ثم دعا فسقوا في الحال فقد شاهد أبو طالب مادله على ما قال أعنى قوله :

« وأبيض يستسقى الغمام بوجهه »

وكان الاستسقاء في الجاهلية الأولى بخلاف هذه الطريقة فكانوا إذا تناهت عليهم الأزمات واشتد الجذب واحتاجوا إلى الأمطار يجمعون بقرأ. معلقة في أذنانها وعراقيها السلع والعشر^(١) ويصعدون بها إلى جبل وعمر يشعلون فيها النار ويفرقون بينها وبين أولادها ويسوقون البقر إلى ناحية المغرب دون سائر الجهات وتسمى هذه النار التي يشعلونها نار استمطار قال ابن أبي الحديد وإنما ضرموا النيران في أذنان البقر تناولاً للبرق بالنار ويضجون بالدعاء والتضرع وكانوا يرون ذلك من الأسباب المتوصل بها إلى نزول الغيث .

كان عبد الله أبو رسول الله وأبو طالب من أم واحدة وروى أن أبا طالب قال لأخيه العباس ألا أخبرك عن محمد بما رأيته منه فقال بلى قال : إني ضمته إلى فكنت لا أفارقه ساعة من ليل ولا نهار ولا آتمن عليه أحداً . إني كنت أنومه في فراشي فأمرته ليلة أن يخلع ثيابه وينام معي فرأيت الكرامة في وجهه لكنه كره أن يخالفني وقل ياعمه اصرف بوجهك عني حتى أخلع ثيابي إذ لا ينبغي لأحد أن ينظر إلى جسدي فتعجبت من قوله وصرفت بصري حتى دخل الفراش فلما دخلت معه الفراش إذا بيني وبينه ثوب والله ما أدخلته فراشي فإذا هو في غاية اللين وطيب الرائحة كأنه غمس في المسك فجهدت لأنظر إلى جسده فما كنت أرى شيئاً وكثيراً ما كنت أفتقده من فراشي فإذا قمت لأطلبه ناداني ها أنا ياعم فأرجع ولقد كنت كثيراً ما أسمع منه كلاماً يعجبني وذلك عند مضى بعض الليل ، وكنا لا نسي على الطعام والشراب ولا نحمد بعده وكان يقول في أول الطعام باسم الله الأحد فإذا فرغ من طعامه قال الحمد لله فتعجبت منه ثم لم أر منه كذبة ولا ضحكاً ولا جاهلية ولا وقف مع صبيان يلعبون^(٢)

(١) السلع والعصر : نوعان من الشجر .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ٥٦٨ ، ٥٦٩ طبعة سنة ١٣٧٨ هـ .

السفر إلى الشام

سنة ٥٨٢ م

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة سنة ، خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام في ركب للتجارة سنة ٥٨٢ م فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وهي قسبة حوران وكانت في ذلك الوقت قسبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان وكان بصرى زاهب يقال له بَحِيرَا في صومعة له . وكان ذا علم من أهل النصرانية ولم يزل في تلك الصومعة زاهباً ، إليه يصير علمهم عن كتاب يتوارثونه كابراً عن كابر .

فلما نزلوا ذلك العام ببَحِيرَا وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام نزلوا به قريباً من صومعته . فصنع لهم طعاماً كثيراً وذلك عن شيء رآه وهو في صومعته .

قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة وتهشرت أغصانها (مالت) على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها .

فلما رأى ذلك بِحِيرَا نزل من صومعته وقد أمر بذلك الطعام فصنع ثم أرسل إليهم فقال : إني صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش . فأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحرکم .

قال له رجل منهم والله يا بِحِيرَا إن لك لشأناً اليوم ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم ؟ قال له بِحِيرَا صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلون منه كلكم . فاجتمعوا وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحدائثه في رجال القوم تحت الشجرة . فلما نظر بِحِيرَا في القوم ولم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده قال يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي ، قالوا يا بِحِيرَا ما تخلف عنك أحد ينبني له أن يأتيتك إلا غلاماً وهو أحدث القوم سنّاً فتخلف في رحالهم . فقال لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم ثم قام إليه رجل من قريش فاحتضنه وأجلسه مع القوم . فلما رآه بِحِيرَا جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بِحِيرَا فقال يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ؟ وإنما قال له بِحِيرَا ذلك لأنه سمع قومه يخلفون بهما فأبى رسول الله أن يستحلفه بهما ، فقال له بِحِيرَا فبالله إلا أخبرتنى عما أسألك عنه ؟ فقال له : سئلي عما بدا لك . فجعل يسأله عن أشياء من حاله

ومن نومه وهيئته فجعل رسول الله يخبره بخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه وكان مثل أثر الحجمة (يعنى أثر الحجمة القابضة على اللحم حتى يكون ناتئا) فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب فقال له ما هذا الغلام منك؟ قال أبى . قال له بحيرا ما هو بابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً . قال فإنه ابن أخى . قال فما فعل أبوه قال مات وأمه حبلى به . قال صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت ليبغته شراً فإنه كائن له شأن عظيم فأسرع به إلى بلده . فخرج به عسه أبوه طالب سرياً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارتها بالشام^(١)

إن بحيرا لما عرف رسول الله تخوف عليه من اليهود فتصح لأبى طالب بالرجوع به سرياً والحفاظة عليه . وقدرت حليمة أن اليهود كانوا إذا رأوه وعرفوه حض بعضهم بعضاً على قتله حتى إنها كانت تضطر إلى الاختفاء به والابتعاد عنهم . وعلى كل حال كانوا ينتظرون في ذلك الوقت ظهور نبي وكان بعض المتعمقين في الدين يعرفون علامات ذلك النبي ، وسنذكر فيما بعد أوصافه صلى الله عليه وسلم المذكورة في التوراة ولا شك أن عالماً مثل بحيرا كان يعرفها .

الرد على مستر موير

قال مستر ويليام موير في كتابه (حياة محمد) بشأن رحلته صلى الله عليه وسلم مع عمه إلى الشام :
« إن جميع الذين دونوا سيرة الرسول قد ذكروا تفاصيل كثيرة مضحكة عن هذه الرحلة تدل على عظمة نبوته المنتظرة » .

ثم أورد قصة سفره كما ذكرت في هذا الكتاب وكما ذكرها المؤرخون . وإنا لا ندرى لماذا كانت هذه التفاصيل مضحكة في نظر مستر موير ! إنه يعترف بأن جميع المؤرخين رووا هذه التفاصيل ولا شك أنه يستقى منهم سيرة الرسول . ومن بينهم من يعتمد عليه ويحتج بكلامه ويرفض ما يريد رفضه إذا لم تكن الحادثة أو الرواية واردة في كتبهم أو إذا طرأ تحريف في نص كلامهم ، فهو يعول مثلاً على ابن إسحاق وعلى الطبري والواقدي وغيرهم فكان الواجب عليه باعتبار كونه مؤرخاً أن يقر هذه التفاصيل التي ذكرها جميع المؤرخين بلا استثناء . هذا وليس لديه رواية أثبت من روايتهم تعارض أو تنفي ما ذكروه : أما كون هذه التفاصيل مضحكة ، فهذا ما لم يقل به أحد من أكابر المؤرخين الذين استمد منهم مادته . وكان ينبغى عليه أن يقدر موقفه ويعلم أنه إنما يكتب تاريخ نبي لا شخص عادى . فالأنبياء والرسل تقع في حياتهم أمور خارقة تدل على

(١) راجع قصة بحيرا في سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري وطبقات ابن سعد . ولا صحة لما زعمه الدكتور اشبرنجير من أن أبا طالب رد محمداً مع بحيرا إلى مكة . - Dr. Sprenger • Ile, p. 79 .

نبوتهم وتأييد رسالتهم فالتى تقع قبل النبوة كالحوارق التى حدثت فى مولده صلى الله عليه وسلم وما شاهدته حليلة من تيسير الرزق والبركة وشق الصدر وما حدث أثناء سفره إلى الشام تسمى إرهابات ، والتى تقع بعد النبوة تسمى معجزات . وكرامات الأولياء كمعجزات الأنبياء غير أنهم لم يدعوا النبوة . ويجب الإيمان بالأولياء قال تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ولا شك أن محمداً صلى الله عليه وسلم وقعت منه خوارق العادات قبل النبوة وبعدها ولا سبيل إلى إنكار مجموع إرهاباته ومعجزاته (أولاً من الوجهة التاريخية لأن معاصريه وكبار الصحابة قد شاهدوها ورووها ورواها عنهم كبار المؤرخين ولو أبطلوا مشاهدتهم وروايتهم لم يبق للتاريخ قيمة) ثانياً من الوجهة الدينية لأن الدين يقر معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ، فمن ذلك معجزات عيسى عليه السلام فإنه تكلم فى المهد صبياً وأبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الميت ومع ذلك لم يقل أحد من المسلمين إن هذه أمور مضحكة ، وكذا معجزات موسى عليه السلام وهى مذكورة فى التوراة والقرآن .

وفى العالم أناس ليسوا بأنبياء ولا أولياء تراهم فى كل زمان ممتازين على أبناء جيلهم يأتون أعمالا يستحيل على غيرهم الإتيان بمثلها . ولقد شاهدنا فى مصر فتى أمياً من أبناء أحد للزارعين ذاع صيته ونشرت الجرائد صورة هذا الطفل بضرب أرقاماً طوالاً وينطق بالجواب الصحيح بسهولة وبسرعة مدهشة من غير أن يخطط بقلم ، وقد رأيت شخصياً أكثر من مرة وحار فيه علماء الرياضة وامتحنه كبار رجال الحكومة والصحافة . فهذا إنسان عادى له موهبة خاصة أذهلت عقول الخاصة . فكيف يمكن إنكار هذه الموهبة المارقة والفتى لا يزل حياً بين ظهرانيه يغل المسائل فى الطرق ويجيب كل سائل^(١) .

فإذا جاء رجل مثل مستر موير بعد ذلك بجيل أو أكثر وزعم أن هذه خرافة مضحكة ابتدعها المصريون ، يثير ذلك شيئاً من الحقيقة .

وقد تواترت الروايات أن زكريا عليه السلام كان يجد عند مريم فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء فثبت أن الذى ظهر فى حق مريم كان فضلاً خارقاً للعادة . ولم يقل أحد إن ذلك مضحك .

ويروى أن عيسى عليه السلام لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات أخذوا يتعنتون عليه وطلبوه بخافى فأتاهم طيناً وصورة ثم نفخ فيه فإذا هو بطير بين السماء والأرض قال تعالى (أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله) فهل قال أحد إن هذا أمر مضحك ؟! فلماذا يستبعدون الإرهابات والمعجزات على رسول الله ؟ وروى القرآن أن عيسى تكلم فى المهد . وقد سأله الحواريون أن ينزل عليهم مائدة من السماء فسأل عيسى الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء تكون عيداً لهم وآية من الله فاستجاب الله دعاه . فهل قال المسلمون إن هذا مضحك ؟!

(١) كان هذا الغلام حياً فى أيام المؤلف .

من هو بحيرا ؟

كان بحيرا الذى مر ذكره راهباً مسيحياً فى الشام فى ذلك الوقت وقد ذكر فى الآداب البيزنطية أنه راهب نسطورى على مذهب أريوس ونسطور، وكان ينكر لاهوت المسيح ويقول إن تسميته بإله غير جائزة بل يجب أن يدعى كلمة وأن تدعى والدته مريم والدته الناسوت الذى هو مظهر الكلمة السامى لا والدته الله وكان بحيرا قمياً عالمياً فلكياً منجماً وقد اتخذ صومعته. بقرب الطريق للوصول إلى الشام وأقام هناك مدة تمر عليه العربان والقوافل فكان يأمرهم بعبادة الله الواحد وينهاهم عن عبادة الأصنام، له تلميذ اسمه مذهب، وكان من جملة المتعلمين له سلمان الفارسي قبل إسلامه، ولإسلامه قصة غريبة ستذكر فى موضعها.

قال مذهب : إن بحيرا توفى قتيلاً بدسيسة بعض يهود أشرار، ومعنى بحيرا فى السريانية عالم متبحر^(١) وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية أن اسم بحيرا مشتق من الكلمة الآرامية بحيرا ومعناها المنتخب فهو لقب له، قيل : إن اسم بحيرا المسيحى هو سرجيوس أو جرجيوس.

رعية رسول الله الغنم بمكة^(٢)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من نبي إلا قد رعى الغنم » قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال « وأنا ». وقال « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم » قال له أصحابه : وأنت يا رسول الله ؟ قال « وأنا رعيتهما لأهل مكة بالقراريط^(٣) » وعن جابر بن عبد الله قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نجنى الكبش^(٤) فقال : عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه فإني كنت أجنيه إذ كنت راعى الغنم، قلنا وكنت ترعى الغنم يا رسول الله ؟ قال نعم وما من نبي إلا قد رعاها. قيل : من حكم ذلك أن راعى الغنم التى هى من أضعف البهائم تسكن فى قلبه الرأفة واللعاف فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هذب أولاً.

(١) راجع بحيرا فى دائرة المعارف العربية للبستاني

(٢) راجع طبقات ابن سعد الجزء الأول.

(٣) القراريط هى أجزاء من الدرامم والدنانير تشتري بها الحوائج المنيرة. وقيل : إن القراريط موضع.

(٤) قال ابن سيده : الكبش بالفتح نضيج ثمر الأراك.

حرب الفجار^(١)

(٥٨٠ - ٥٩٠)

أيام الفجار أربعة فالفجار الأول كان بين كنانة وهوازن . والثاني بين قريش وكنانة والثالث بين كنانة وبنى نصر بن معاوية ولم يكن فيه كبير قتال ، والفجار الأخير بين قريش وكنانة كلها وهوازن وكان بين هذا الأخير ومبعث النبي صلى الله عليه وسلم خمس وعشرون سنة . وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم الفجار الأخير وهو ابن خمس عشرة سنة وكان سببها أن النعمان بن المنذر أمير الحيرة بعث بلطيمة^(٢) له إلى سوق عكاظ للتجارة وأجارها له عروة الرجال من بنى هوازن فنزلوا على ماء يقال له أوراء ، فوثب البرأض ، خليع من بنى كنانة على عروة فقتله وهرب إلى خيبر فاستخفى بها ولقى بشر بن أبي خازم الأسدي الشاعر فأخبره الخبر وأمره أن يعا ذلك عبد الله بن جدعان وهشام بن المغيرة وحرب بن أمية ونوفل بن معاوية الديلي وباعاء بن قيس . فوافى عكاظ فأخبرهم فخرجوا موافقين منكشفين إلى الحرم وبلغ قيساً الخبر آخر ذلك اليوم فقال أبو براء رئيس هوازن : ما كد من قريش إلا في خدعة فخرجوا في آثارهم فأدركوهم وقد دخلوا الحرم فناداهم رجل من بنى عامر يقال له الأدرم بن شعيب بأعلى صوته : إن ميعاد ما بيننا وبينكم هذه الليالي من قابل وأنا لا نأتى في جمع .

ولم تبق تلك السنة سوق عكاظ^(٣) فكثرت قريش وغبرها من كنانة وأسد بن خزيمة ومن لحق بهم من الأحابيش سنة يتأهبون لهذه الحرب وتأهبت قيس عيلان ، ثم حضروا من قابل ورؤساء قريش : عبد الله بن جدعان وهشام ابن المغيرة وحرب بن أمية وأبو أحبيحة سعيد بن العاص وعتبة بن ربيعة والعاص بن وائل ومعمر بن حبيب الجمحي وعكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار وخرجوا متساندين^(٤) ويقال بل أمرهم إلى عبد الله ابن جدعان وكان في قيس أبو براء عامر بن مالك بن جعفر وسبيع وربيعة ابنا معاوية النضري ودريد بن الصمة ومسعود ابن معتب وأبو عروة بن مسعود وعوف بن أبي حارثة المري وعباس بن رعل السلي . وهؤلاء هم الرؤساء والقادة .

(١) الفجار بكسر الفاء بمعنى المناجزة كالقتال والمقاتلة ، وذلك أن قتالا كان في الشهر الحرام ففجروا فيه (٢) اللطيمة : الإبل تحمل التجارة كالإبل والبز وأشباههما .

(٣) عكاظ . قال الليث : سمى عكاظ عكاظاً لأن العرب كانت تجتمع فيه فيسقط بعضهم بعضاً بالانفجار أى يدعك . وعكاظ فلان خصمه بالبدع والحجج عكظاً . وحكى السهيلي ، كانوا يتفاخرون في سوق عكاظ إذا اجتمعوا . وعكاظ اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سنة ويتفاخرون بها ويحضرها شعراؤهم وينشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون . قال الواقدي : عكاظ بين نخلة والطائف . وذو الحجاز خلف عرنة . ومجنة بحر الظهران . وهذه أسواق قريش والعرب ولم يكن فيها أعظم من عكاظ . قالوا كانت العرب تقيم سوق عكاظ شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم فيها عشرين يوماً من ذي القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذي الحجاز فتقيم فيها إلى أيام الحج .

(٤) أى ليس لهم أمير واحد يجمعهم

ويقال بل كان أمرهم جميعاً إلى براء وكانت الراية بيده وهو الذي سوى صفوفهم فالتقوا فكانت الدبرة (الهزيمة) أول النهار لقيس وكنانة على هوازن ومن سوى إليهم . ثم صارت الدبرة آخر النهار لقريش وكنانة على قيس قتلهم قتلاً ذريعاً حتى نادى عتبة بن ربيعة يومئذ - وإنه لشاب ما كالت له ثلاثون سنة - إلى الصالح فاصطاحوا على أن يمدوا القتلى وودت قريش لقيس ما قتلت فضلاً عن قتلاهم ووضعت الحرب أوزارها فانصرفت قريش وقيس .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الفجار فقال « قد حضرت مع عموقي ورميت فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فمات » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كنت أنبل على أعمامى » يعنى أنالهم النبيل .

حلف الفضول^(١)

كان حلف الفضول منصرف قريش من الفجار وكان أشرف حلف . وأول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً فتعاقدوا وتعاهدوا بالله لسكونن مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه ما بل بحر صوفة ، وفي التآخي في المماش ، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أحب أن لي بحلف حضرتي في دار ابن جدعان حمر النعم وإنى أعذر به هاشم وزهرة وتيم . تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم ما بل بحر صوفة ولو دعيت به لأجبت وهو حلف الفضول » .

هل سافر النبي إلى اليمن ؟

قال الأستاذ فيل الأمانى Well إن رسول الله سافر في السادسة عشرة من عمره إلى اليمن مع عمه الزبير في رحلة تجارية . ورد عليه الدكتور اشبرنجر Dr Sprenger إن هذا الخبر ليس له أساس صحيح وإنه لم يجده في الكتب الموثوق بها . والحقيقة كما قال الدكتور اشبرنجر . نعم قد ذكر العابري رواية جاء فيها أن خديجة إنما كانت استأجرت رسول الله ورجلا آخر من قريش إلى سوق حياشة بتهمامة الخ ، غير أنه جاء في العابري بعد ذلك أن الواقدي قال « فكل هذا خطأ والمشهور رواية ابن إسحاق وهي رحلته إلى الشام » كذلك لم يسافر الرسول إلى الحبشة بطريق البحر ولا إلى فارس ولا إلى مصر فكل هذا من الأوهام الكاذبة .

(١) الحلف أصله المعاهدة والمعامدة على التعاقد والتعاقد والاتفاق فأكأن منه في الجاهلية على الذن والقتال والغارات فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام فذلك الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأيا حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة » يريد المعاهدة على الخير ونصرة الحق .

ابتعاده صلى الله عليه وسلم عن معائب الجاهلية

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره كشف العورة قبل البعثة . وسمع وهو صغير من دار من دور مكة غناء وصوت دفوف في حفلة زواج فنام فما أيقظه إلا حر الشمس ، وكان يأبى أن يحضر مع قومه العيد الذي كانوا يقيمونه لصنم يقال له (بوانة) حتى غضب عليه عمه أبو طالب وعمانه . ولم يذق شيئاً ذبح على الأصنام حتى أكرمه الله برسالته . ولم يدخل في يهودية أو نصرانية ، واعتزل الأوثان ونهى عن الوأد^(١) وكان يحبها وإذا أراد أحد ذلك أخذ اللوؤدة من أيها وتسكفها . ولم ياعب اليسر ولم يشرب خمرأ قط مع أنها كانت منتشرة إلا أن تحريم الخمر ليس من خصائصه صلى الله عليه وسلم بل حرّمها على نفسه كثير في الجاهلية لما في شربها من آفات وسينات ، وحرّمها من أجداده صلى الله عليه وسلم قصى وعبد المطلب . لكن الإسلام حرّمها تحريراً عاماً وسنّ عقوبة لشاربها .

وعادة وأد البنات من أفظع الجرائم التي تقشعر منها الأبدان فحرّمها واستأصل شأقتها الإسلام وطهر العرب منها . قال تعالى في سورة التكوير : (وَإِذَا لِلْمُؤَدَّةِ سِتْلَتٌ بَأَى ذَنْبٍ قُتِلَتْ) .

الى حلة الثانية

إلى الشام ٥٩٥ م

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة ، قال له أبو طالب أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا وهذه غير قومك^(٢) وقد حضر خروجها إلى الشام وخديجة بنت خويلد تبعت رجلاً من قومك في غير أنها فلو جئتها فرضت عليها نفسك لأسرعت إليك . وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له فأرسلت إليه في ذلك وقالت له أنا أعطيك ضف ما أعطى رجلاً من قومك . فخرج مع غلامها ميسرة وجعل عمومته يوصون به أهل العير حتى قدم بصرى^(٣) من الشام وهي مدينة على طريق دمشق فنزلا في ظل شجرة ، فقال نسطور الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي . ثم قال لميسرة : أفى عيني حمره ؟ قال : نعم لا تفارقه . قال : هو نبي وهو آخر الأنبياء . وكان ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتد الحر ، يرى ملكين يظلال رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشمس فوعى ذلك كله ميسرة وباعوا تجارتهم وربحوا ضفف ما كانوا يربحون ، فلما رجعوا أخبرها ميسرة بما قال الراهب نسطور . فلما رأت خديجة الربح الكثير أضففت له ضفف ما سمت له .

(١) الوأد : هو أن يمد الرجل إلى ابنته فيقذفها في حفرة من الأرض ويهيل عليها التراب ثم يدعها إلى أن تموت . والقبائل التي عرف عنها الوأد ربيعة وكندة وتميم وبعض أفراد من القبائل الأخرى . وكان صعصة بن ناجية التميمي يبذل المال في سبيل شراء المولودة ليخلصها من الوأد وكان زيد بن عمرو بن قيل القرشي يمنع ذلك أيضاً .

(٢) العير ، الإبل التي تحمل اللبن (٣) Bosra

قال مستر موير عند ذكر هذه الرحلة « إن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن في وقت من الأوقات طامعاً في الغنى ، إنما كان سعيه لغيره ولو ترك الأمر لنفسه لآثر أن يعيش في هدوء وسلام قائماً بحالته ولما فكر في رحلة كهذه ، ولكن ! اعرض عليه عمه السفر شعرت نفسه الكريمة بضرورة تفريج كربة عمه فأجاب طلبه مسروراً » .

تزوج رسول الله

خديجة رضى الله عنها

كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة غنية جميلة من أواسط قريش نسباً وأعظامهم شرقاً ، وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة وبسيدة قريش . وقد عرض كثيرون عليها الزواج فلم تقبل . فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من رحلته إلى الشام ، أرسلت إليه من يرغبه في الزواج وقيل : إنها أرسلت أختها وقيل : أرسلت نفيسة مولاة لها . قال : ما يبدى ما أتزوج به . فقالت : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : فن هي ؟ قالت له : خديجة . قال : فأنا أفعل . فذهبت فأخبرت خديجة فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمومته فزوجه أحدهم . قال عمرو بن أسد : « هذا البضع لا يقرع أنه »^(١) . وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة . وذلك بعد عودته من الشام بشهرين .

وقد حضر رؤساء مضر وحضر أبو بكر رضى الله عنه ذلك الميثاق قال أبو طالب :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئى معد (معدنه) وعنصر مضر (أصله) وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا الحكم على الناس . ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به شرقاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً ، فإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل . ومحمد من قد عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله كذا^(٢) ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم » . فلما أتم أبو طالب الخطبة تكلم ورقة بن نوفل ابن عم خديجة فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عدت فنحن سادة العرب وآدمنا وأتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم ولا يرد أحد من الناس نفركم ونسركم ؛ وقد رغبتنا في الاتصال بمحبلكم وشرفكم فاشهدوا

(١) أى لا يضرب أنه لكونه كريماً لأن غير الكريم إذا أراد ركوب الناقة الكريمة يضرب أنه ليرتدع بحلاف الكريم .

(٢) أصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة أوقية ونصفاً من الذهب والأوقية أربعون درهماً شرعياً ، وقيل : كان صداقها عشرين بكرة (البكرة الأثني من الإبل) ولا منافاة لجواز كون البكرات عوضاً عن ذلك القدر .

على معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على كذا » ثم سكت .
قال أبو طالب : قد أحببت أن بشركك عمها . فقال عمها عمرو بن أسد :
« انهبوا على يامعشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد » فقبل النبي صلى الله عليه وسلم النكاح وشهد على ذلك صناديد قريش .

وأولم عليها صلى الله عليه وسلم فنحر جزوراً وقيل جزورين وأطعم الناس وأمرت خديجة جواربها أن يرقصن ويضربن الدفوف ، وفرح أبو طالب فرحاً شديداً وقال : الحمد لله الذى أذهب عنا الكرب ودفع عنا الغموم ، وهى أول ولبة أولها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الواقدي : ويقولون أيضاً إن خديجة أرسلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تدعوه إلى نفسها (نعى التزويج) وكانت امرأة ذات شرف وكان كل قرشي حريصاً على نكاحها قد بذلوا الأموال لو طعموا بذلك فدعت أباهما فسقته خيراً حتى ثمل ونحرت بقره وخلقته بخلق وألبسته حلة حبرة ثم أرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمومته فدخلوا عليه فزوجه . فلما سما قال : ما هذا العقير وما هذا العبير وما هذا الحبير ؟ قالت : زوجتى محمد بن عبد الله . قال : ما فعلت ، أتى أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل . قال الواقدي : وهذا غلط والتبث عندنا المحفوظ من حديث محمد بن عبد الله بن مسلم عن أبيه عن محمد بن جبير بن مطعم ومن حديث ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، ومن حديث ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس « أن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أباهما (خويلد بن أسد) مات قبل الفجار ^(١) » .

تزوج خديجة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهى بكر - عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ثم هلك عنها وتزوجها بعده أبو هالة النباش بن زرارة .

وولدت خديجة لعتيق ، هند بنت عتيق وولدت لأبى هالة هند بنت أبى هالة وهالة بن أبى هالة ، فهند بنت عتيق وهند وهالة ابنا أبى هالة وكلهم إخوة أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من خديجة .
وبعد زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بخديجة لم يسافر فى رحلة للتجارة بل أقام بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة .

وولدت خديجة لرسول الله جميع ولده إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية . فأكبر أولاده القاسم وبه كان يكنى « أبا القاسم » ثم الطيب ، ثم الطاهر ، ثم رقية ، ثم زينب ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة . قال الواقدي : ولم أر أصحابنا يثبتون الطيب ويقولون هو الطاهر .

(١) راجع أيضاً طبقات ابن سعد الجزء الأول طبع ليدن ص ٨٥ وقال الحلبي فى سيرته « وفى كون الزوج لها أباهما خويلد أو كونه حضر تزويجها نظر لأن المحفوظ عن أهل العلم أن خويلد بن أسد مات قبل حرب الفجار » .

تجديد بناء الكعبة

سنة ٦٠٥ م

الكعبة هي بيت الله الحرام ، وهو بناء مزيج الشكل في وسط المسجد الحرام ، بابه مرتفع على الأرض نحو قامة . وقد بنى الكعبة إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وهو رسول من أولى العزم أرسله الله إلى الكلدانيين في جنوب بابل وكانوا يعبدون النجوم والأوثان . ثم ترك إبراهيم قومدين عصوه وهاجر إلى مدين وهناك أمره الله تعالى بالهجرة بولده إسماعيل ^(١) وأمه هاجر إلى بلاد العرب فقصدها مكة ثم أمره الله ببناء الكعبة . قال السيد الإمام التقي القاسي : بناء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام الكعبة ثابت بالكتاب والسنة . وروى الأزرق في تاريخه عن ابن إسحاق أن الخليل عليه الصلاة والسلام لما بنى البيت جعل طوله في السماء تسع أذرع وجعل طوله في الأرض من قبل وجه البيت الشريف من الحجر الأسود إلى الركن الشامي اثنتين وثلاثين ذراعاً وجعل عرضه في الأرض من قبل الميزاب من الركن الشامي إلى الركن الغربي الذي يسمى الآن الركن العراقي اثنتين وعشرين ذراعاً وجعل طوله في الأرض من جانب ظهر البيت الشريف من الركن الغربي المذكور إلى الركن اليماني إحدى وثلاثين ذراعاً وجعل عرضه في الأرض من الركن اليماني إلى الحجر الأسود عشرين ذراعاً ، وجعل الباب لاصقاً بالأرض غير مرتفع عنها ولا مبوب حتى جعل لها تيج الحيرى باباً .

ومقام إبراهيم عليه السلام بإزاء وسط البيت الذي فيه الباب . قال ياقوت في معجم البلدان : إن خصائص الكعبة كثيرة وفضائلها لا تحصى ولا يسع كتابنا هذا إحصاء الفضائل وليست أمة في الأرض إلا وهي تعظم ذلك البيت وتعترف بقدمه وفضله وأنه من بناء إبراهيم حتى اليهود والنصارى والمجوس والصابئة . وقد بقيت الكعبة على هيئتها من عمارة إبراهيم عليه السلام إلى أن بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خمساً وثلاثين سنة من عمره فخافت قريش أن تهدم جدارها بسيل دخلها بعد حريق أصابها وكانت رضماً ^(٢) فوق القامة وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة ^(٣) فتخطت نخرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش فابتاعوا خشبها وأعدوه لتسقيفها .

(١) إسماعيل أكبر ولد إبراهيم كان اسمه اسمويل فحرب ، وأمه هاجر من القبط من قرية أمام العري قرية من فسطاط مصر هاجر إبراهيم إلى مكة ومعه إسماعيل وهو ابن ستين وأمه هاجر ثم انصرف إبراهيم إلى الشام ، وإسماعيل أول من تكلم بالعربية وهو ابن ثلاث عشرة سنة وكان كلام الناس قبل ذلك العبرانية . ولما بلغ إسماعيل عشرين توفيت أمه هاجر وهي ابنة تسعين سنة فدفنها إسماعيل في العجر وأوحى الله إلى إبراهيم أن يبني البيت فبناه معه وبولى إسماعيل يده فدفن داخل الحجر مما يلي الكعبة مع أمه هاجر .

(٢) الرضم أن تتضد الحجارة بعضها على بعض من غير ملاط .

(٣) في حديث بناء الكعبة عن وهب بن منبه - أن سفينة حطتها الريح إلى الشامية وهو مرفأ السفن من ساحل بحر العجاز وكان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة . ومعنى حطتها الريح : دفنها .

وكان بمكة نجار يدعى باقوم مولى سعيد بن العامى وصانع المنبر الشريف فأمروه أن يلى بناء الكعبة وكان صلى الله عليه وسلم ينقل الحجارة معهم فلما بلغ البناء موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يضع الحجر موضعه وأرادت كل قبيلة رفعه وتواعدوا للقتال ثم تشاوروا بينهم فعملوا أول من يدخل من باب بنى شيبه يقضى بينهم . فكان أول من دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه ، قالوا هذا الأمين رضينا به وأخبروه الخبر فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه وبسطه على الأرض ثم أخذ الحجر فوضعه فيه ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفقوه . ففعلوا فلما بانوا موضعه ، وضعه هو بيده الشريفة فرضوا بذلك وانتهوا عن الشرور . وكانت قریش تسمو رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحي الأمين . لوقاره وهديه وصدق لمجته وبعده عن الأدناس . وفى كتاب تهذيب الأسماء أن أول امرأة عربية كست الكعبة الحرير ، نذيلة أم العباس وسببه أن العباس ضاع وهو صغير فنذرت إن وجدته أن تكسوها فوجدته ففعلت .

تسميته بالأمين

صلى الله عليه وسلم

جاء فى دائرة المعارف البريطانية فى ترجمة حياته صلى الله عليه وسلم أن تسميته بالأمين مأخوذة من اسم أمه (آمنة) وإن كان العرب لا يحملون علاقة بينهما فى هذه التسمية . هذا ما زعمه كاتب الترجمة فى دائرة المعارف البريطانية فهو يريد أن يقول إن العرب لم يسموه أميناً لأمانته بل لأن اسم والدته آمنة فلا نحر ولا فضل . والحقيقة التاريخية هى أنه صلى الله عليه وسلم سمي أميناً لأمانته ولذا استخدمته خديجة فى تجارتها فربحت ربحاً طائلاً ثم تزوجته لفتها به ، وكانوا يستأمنونه على ودائعهم وقد جعله قومه حكماً بينهم فى بناء الكعبة عن طيب نفس . قال للسيو سيديو Sédillot فى كتابه تاريخ العرب ^(١) « ولما بلغ محمد من العمر خمساً وعشرين سنة استحق بحسن سيرته واستقامة سلوكه مع الناس أن يلقب (بالأمين) وقال موير Muir ^(٢) إنه لقب بالأمين بإجماع أهل بلده لشرف أخلاقه . وكتب لفظة أمين بالإنجليزية هكذا Faithful .

وكان أهل مكة يستأمنونه صلى الله عليه وسلم ويودعون عنده ودائعهم إلى أن هاجر إلى المدينة وترك علياً مكانه فبقى حتى رد الودائع إلى أربابها ثم هاجر .

أ (١) الطبعة الثانية سنة ١٨٧٧ الجزء الأول صفحة ٥٨ (٢) كتاب تاريخ حياة محمد صفحة ٢٠ طبعة سنة ١٩١٢

خلقه صلى الله عليه وسلم

في طفولته وشبابه

الأخبار عن حاله صلى الله عليه وسلم في طفولته قليلة غير مستفيضة لعدم العناية بتدوين السيرة وقتئذ . ونذكر هنا أنه كان صلى الله عليه وسلم في صغره يامع ذات مره مع غلمان قريش فكانوا يحملون الحجارة في أزرم فتبدو عوراتهم ، فخالقهم صلى الله عليه وسلم وصار يحملها على رقبته لئلا ترى عورته .

وعن عليّ - رضي الله عنه - قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما هممت بقبيح مما هم به أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بالنبوة إلا مرتين من الدهر كلتاها عصمني الله عز وجل من فعلهما : قلت لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لأهله يرعاها : أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان^(١) قال : نعم ، فلما جئت أدنى دار من مكة سمعت غناء وصوت دفوف ومزايير . قلت : ما هذا ؟ قالوا : فلان تزوج فلانة . فلهوت بذلك الصوت حتى غلبني النوم فمت ، فما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي . فقال : ما فعلت ؟ فأخبرته ، ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك .

إن الله تعالى إذا أراد أن يحفظ شخصاً ، سد عليه أبواب اللامى والفساد وأوجه العقبات في طريقها وصدّه عن سبيلها بكيفية لا تخاطر على بال . لذلك سلط جل شأنه عليه صلى الله عليه وسلم النعاس حتى لا يشاهد شيئاً مما كان يجري في أفراح الجاهلية من لهو وفرح وخر وما شاكل ذلك ، ليبقى نقيّاً طاهراً من كل شائبة بل من كل ريبة .

وعن أم أيمن قالت : كانوا في الجاهلية يحملون لهم عيداً عند بوانة ، وهو صنم من أصنام مكة تعبده قريش وتعظمه وتنسك أي تذبج له وتحاف عنده وتمسك عليه يوماً إلى الليل في كل سنة ، فكان أبو طالب يحضر مع قومه ويكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد معه فيأبى ذلك . قالت حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن عليه أشد الغضب وجعان بقلن : إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا وما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً فلم يزالوا به حتى ذهب معهم . ثم رجع فرعاً مرعوباً . فقال : ما دهاك ؟ قال : إني أخشى أن يكون بي لم (أى لمة وهى اللس من الشيطان) قلن : ما كان الله ليبتيك

بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك . فما الذى رأيت ؟ فقال : إني كلما ذنوت من صنم تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : « ورائك يا محمد لا تمسه » قالت : فما عاد إلى عيديم حتى تنبأ صلى الله عليه وسلم .

ولم يذق صلى الله عليه وسلم شيئاً ذبح على الأصنام . وقيل له عليه الصلاة والسلام : هل عبدت وثناً قط ؟ قال : لا . قالوا : هل شربت خمرأ ؟ قال : ما زلت أعرف أن الذى هُم عليه كفر . وما كنت أدرى ما الكتاب ولا الإيمان (أى كيفية الدعوة إليهما) . وعنه صلى الله عليه وسلم : لما نشأتُ بفضت إلى الأصنام والشعر .

وكان عليه الصلاة والسلام يرعى النعم فى صفره لزيادة الرحمة فى قلبه فكان يرحلها لأهل مكة كما تقدم . وحضر النبى صلى الله عليه وسلم حرب الفجار . قيل وكان له من العمر ١٤ سنة وكان يناول عموته السهام .

وحضر صلى الله عليه وسلم حلف الفضول :

ولما سافر إلى الشام فى تجارة لخديجة - رضى الله عنها - ظهرت أمانته ونجح فى تجارته ورجع ربحاً طائلاً . قال ميسرة غلام خديجة : يا محمد اتجرنا لخديجة (كذا سفرة) ما رأينا ربحاً قط أكثر من هذا الربح . وقد أحبه ميسرة حباً عظيماً لما رآه من أمانته وحسن أخلاقه .

وما يدل على رجاحة عقله وحضور بديهته لحل المشكلات ، الطريقة التى ابتكرها لإثراء المتنازعين فى وضع الحجر الأسود .

وقد وثقت به خديجة لما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه فاستأجرته ليتاجر لها وضاعفت له الأجر وكانت - رضى الله عنها - امرأة عاقلة شريفة فلما عاد صلى الله عليه وسلم وأخبرها غلامها عن حميد صفاته دعتة عليه الصلاة والسلام وقالت له : إني رغبة فيك لترايتك منى وشرتك فى قومك وأمانتك عندهم وحسن خلقك وصدق حديثك ثم عرضت عليه نفسها فلما تزوجها كان مثال الزوج الصالح وكان موضع احترامها وتقديرها . يدل على ذلك قولها له بعد نزول الوحي وهى تهدي روعه : « والله لا ينزلك الله أبداً . إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » وقد كانت أول من آمن به . وقال رسول الله فى حقها : « أفضل نساء الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم (امرأة فرعون) . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يثنى عليها كثيراً أمام عائشة - رضى الله عنها - حتى أدركتها الغيرة . فالوافق بينهما فى المعيشة الزوجية كان بالغاً حده ولا شك أن هذا من حسن الخلق وصفاء السيرة والسريرة . ولما أدركت عائشة رضى الله عنها - الغيرة من حسن ثنائه صلى الله عليه وسلم على خديجة قالت : هل كانت

إلا مجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها . فغضب رسول الله حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال : « لا والله ما بدلتني الله خيراً منها . آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقني وكذبني الناس ، وواستني في ما لما إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء » قالت عائشة قلت في نفسي لأذكركما بسيرة أبدأ . فكان عليه السلام متجلياً في صفه وشبابه بخير الخلال وأجل الصفات . بعيداً عن الشبهات .

رسالة محمد

صلى الله عليه وسلم

إتباعها من التوراة والإنجيل

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة ماسخاً بشريعته الشرائع الماضية ، قال تعالى . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَمْلِكُونَ ﴾
سورة سبأ
وقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾

سورة الفرقان

وقد وردت البشارة به في التوراة والإنجيل والزبور

فجاء في قول يوحنا حكاية عن المسيح عليه السلام (ص ١٤ ف ١٥) ما يأتي :

(إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الآب فيعطيك فارقليطاً آخر ليكن معكم إلى الأبد . روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكن معكم وفيكم) .

وفي ص ١٦ ف ٥ : (وأما الآن فأنا ماض إلى الذي أرسلني وليس أحد منكم يسألني أين تمضي لكن لأنني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم لكنني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطق لأنه إن لم أنطق لا يأتكم الفارقليط . لكن إن ذهبت أرسله إليكم . وفي جاء ذلك يسكت العالم على خطيئته وعلى بر وعلى دينونة . أما على الخطيئة فلا أنهم لا يؤمنون بي ، وأما على بر فلا أني ذاهب إلى أبي ولا تروني أيضاً . وأما على دينونة فلا أن رئيس هذا العالم قد دين . إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية . ذلك يمجدي لأنه لا يأخذ مما لي ويخبركم)

إن هذه الترجمة رديئة فالأسلوب ضعيف والألفاظ مكررة تكراراً لا يسوغ له والجل مفككة خالية

من الروح ولذا لا يتأثر منها القارئ وترجمة الفارقليط أو البارقليط بالعربية (أحمد) كما قال تعالى في كتاب العزيز: (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) ^(١) وقد تصرف المترجمون في هذه اللفظة فكانوا تارة يفتقرونها عن اللغات الثلاث الأصلية وهي: العبرانية والكلدانية واليونانية بالعرزي وأخرى بالخالص أو يكتبونها البارقليط كما هي :

ومن يقرأ هذه النصوص وينعم النظر في معناها ومرباها يجد أن عيسى عليه السلام بشر برسالة نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام فسماه فارقليطاً آخر يعنى رسولا غيره تبقى شريعته إلى قيام الساعة ولا يأتي بعده نبي ولا رسول . وقال إنه إن لم ينطق لا يأتي الفارقليط وقد بكت النبي صلى الله عليه وسلم النصارى واليهود الذين أنكروا نبوة المسيح وأسأوا إليه وحرفوا دينه وقد أرشد النبي عليه الصلاة والسلام الناس كافة إلى الحق وكاز لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به أى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، وثبت أنه أخبر بأمور آتية وقد وقع ما أخبر به وتجدد عيسى عليه السلام وتدل آيات القرآن الكريم على ما ورد في الإنجيل فإن النبي صلى الله عليه وسلم (الفارقليط الذى أتى بعد عيسى عليه السلام) لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به وأنه يرشد إلى الحق . قال تعالى : (قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ) . وإذا كان الفارقليط لا يشير إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإلى من يشير إذن ؟ وأين الذى جاء بعد عيسى عليه السلام ؟ ومن هو الذى بكت العالم على خطيئته ومن هو روح الحق الذى لا يتكلم من نفسه الخ ، أليس هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء في وصية موسى الكليم عليه السلام كما في ص ٢٣ ف ٢ : من التثنية ولفظه :
(قال جاء الرب من سيناء وأشرق من ساعير واستعان من فاران ومعه ألوف الأطهار في يمينه سنة من نار . أحب الشعوب جميع الأطهار بيده والذين يقتربون من رجله يقبلون من تعليمه) ،
هذه الوصية هي آخر وصايا موسى عليه السلام . وقد أخبر بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ووضح لهم أن

(١) سورة الصف . وقد سأل المرحوم الشيخ عبد الوهاب الزجار الدكتور كارلو نلينو المستشرق الإيطالى عن معنى كلمة بارقليط فقال : إن معناها « الذى له حمد كبير » وهذا يوافق أفضل التفسير من حمد .

الله جاء من سيناء^(١) وأوصاكم بواسطتي باتباع التوراة ويستشرق عليكم بواسطة عيسى من ساعير وهي جبال فلسطين فلم يبق إلا أن يستعلن من جبال فاران (والمراد بها مكة وهي البلدة التي سكنها إسماعيل) وألوف الأطنار هم الصعابة رضوان الله عليهم . في يمينه سنة من نار وهي الشريعة الإسلامية لأنها أحرقت للمشركين . ولما كان من المهم أن نعرف مكان فاران التي وردت في وصية موسى بحثت عنها في أشهر المراجع الموثوق بها فقد جاء في معجم ياقوت جزء ٦ صفحة ٣٢٣ طبع مصر سنة ١٣٢٤ (فاران هي من أسماء مكة ورد ذكرها في التوراة فيل هي اسم لجبال مكة) وجاء في كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني طبع ليدن ١٨٨٣ صفحة ١٧٠ : وأما معدن فران فإنه نسب إلى قرآن بن يلى بن عمرو كما قيل في جبال الحرم جبال فاران وذكرت بذلك في التوراة وهي نسبة إلى فاران بن عمليق . وجاء في كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام تأليف قطب الدين النهرواني المسكي طبع ليدنيك سنة ١٨٥٧ ص ١٨ عند ذكر أسماء مكة ما يأتي :

(ومن أسمائها كوئي لأن كوئي اسم لخل من قيعمان وفاران والمقدسة وقرية النمل لكثرة نملها والحاطمة لحطامها للجبابرة والوادي والحرم الخ) فلم يبق شك في أن فاران جبال بمكة أو هي مكة نفسها سميت باسم تلك الجبال .

وجاء في سفر أشعيا الإصحاح الحادى والأربعين (أنصتى إلى أيتها الجزائر ولتجدد القبائل قوة ليقربوا ثم يتكلموا . لتتقدم معاً إلى الحاكمة من أنهض من المشرق الذى يلاقيه النصر عند رجله دفع أمامه أمماً وعلى ملوك سلطه . جعلهم كالتراب بسيفه وكالغش للسندرى بقوسه . طردهم : مر سالسا في طريق لم يسلكه برجله من فعل وصنع داعياً الأجيال من البدء أنا الرب الأول ومع الآخرين أنا هو) والمراد بالقبائل قبائل العرب وصاحب السيف والقوس هو محمد صلى الله عليه وسلم فإن عيسى لم يحارب أصلاً .

وجاء في الفصل ١٨ من الكتاب الخامس من سفر التثنية أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام (قل لبني إسرائيل إني أقيم لهم آخر الزمان نبياً مثلك من بني إخوتهم) وكل نبى بعث بعد موسى كان من بني إسرائيل وآخرهم عيسى عليه السلام فلم يبق أن يكون من بني إخوتهم إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم ولد لإسماعيل وإسماعيل أخو إسحاق وإسحاق جد بني إسرائيل فهذه هي الأخوة التي ذكرت في التوراة ولو كانت هذه البشارة بنبي من أنبياء بني إسرائيل لم يكن لذكر إخوتهم معنى .

وجاء في كتاب الرؤيا للنسوب إلى يوحنا الإنجيلي في ص ١٩ ف ١١ ما نصه : (ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض عليه يدعى أميناً صادقاً وبالعدل يحكم ويحارب وعينه كذهب نار وعلى رأسه تيجان

(١) يريد بجميعه ظهور دينه وتوحيده بما أوحى إلى موسى بـسيناء .

كثيرة وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو) وهناك قال إنه يحارب ولا شك أنه محمد صلى الله عليه وسلم . وقد كان يدعى قبل الرسالة بالأمين الصادق كما أسلفنا .

وجاء في رؤيا يوحنا اللاهوتي ص ١٩ ف ١٥ (ومن فيه يخرج سيف ماض لكي يضرب به الأمم وهو سير عام بصا من حديد وهو يدوس معصرة خمر سنخ و غضب الله القادر على كل شيء) والمراد من قوله يخرج من فيه سيف ماض الخ هو القرآن الكريم . وقد داس النبي صلى الله عليه وسلم معصرة خمر أعنى أنه حرم الخمر تحريماً قطعياً . أما عيسى فقد روى عنه المسيحيون أنه قلب الماء خمرأ في عرس قانا وروى عنه أنه قال عن الخمر إنها دمه .

هذه النصوص المذكورة في التوراة والإنجيل ناطقة برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، لهذا لما كان بحيرا الراهب متبحراً في علم النصرانية قد عرف النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره برسالته مما اطلع عليه في الكتب المقدسة فقيها أوصافه عليه الصلاة والسلام وشيء من إرهاباته ومعجزاته وكانت حليلة السعدية تعرض النبي صلى الله عليه وسلم على اليهود والكهنة وتحدثهم بشأنه فيعرفونه من أوصافه وأحواله وقد أخبر برسالته عليه الصلاة والسلام ورقة بن نوفل ابن عم خديجة وكان شيخاً نصرانياً عند ما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى من الوحي إذ قال له « هذا هو الناموس الذي نزل الله على موسى » إلى آخر ما قال مما سيأتي ذكره في موضعه . هذا وقد أئذ اليهود برسول الله صلى الله عليه وسلم وإليك ما جاء في سيرة ابن هشام :

إنذار يهود

برسول الله صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه لنا ما كنا نسمع من رجال يهود وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور فإذا قلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن تقتلكم معه قتل عاد وإرم فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله أجبناه حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمننا به وكفروا به وفيهم نزلت هذه الآيات من البقرة : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَّا نَزَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ عَلَى الْكَافِرِينَ) قال ابن هشام : يستفتحون : يستنصرون ، ويستفتحون أيضاً يتصاحون . وفي كتاب الله تعالى : (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) .

قال ابن إسحاق : وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف بن محمود بن لبيد بن عبد الأشهل عن

سلمة بن سلامة بن وقش وكان سلمة من أصحاب بدر . قال كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل قال فخرج علينا يوماً من يثبه حتى وقف على بني عبد الأشهل قال سلمة وأنا يومئذ من أحدث من فيه سنًا على بردة لي مضطجع فيها بفناء أهلي فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار قال فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوئان لا يرون أن بعثًا كائن بعد الموت . فقالوا له ويحك يا فلان أترى هذا كائنًا أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ويمجزون فيها بأعمالهم ؟ قال : نعم والذي يُحاف به . ولو دان له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدار يجمونه ثم يدخلونه إياه فيطينونه عليه بأن ينجو من تلك النار غدًا . فقالوا له ويحك يا فلان فما آية ذلك ؟ قال : نبي مبعوث من نحو هذه البلاد وأشار بيده إلى مكة واليمن . قالوا : ومتى تراه ؟ قال : فنظر إلى وأنا أحدثهم سنًا . قال : إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه . قال سلمة فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم وهو حي بين أظهرنا فآمننا به وكفر به بغيا وحسدًا . قال : فقلنا له ويحك يا فلان ألسنت بالذي قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال : بلى ولكن ليس به . قال ابن إسحاق وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال : قال لي هل تدري عم كان إسلام نعلبة بن سعية وأسد بن عبيد نفر من همل إخوة بني قريظة كانوا معهم في جاهليتهم ثم كانوا سادتهم في الإسلام ، قال قلت لا والله . قال فإن رجلا من يهود من أهل الشام يقال له ابن الهيثبان قدم علينا قبل الإسلام بسنين فحل بين أظهرنا لا والله ما رأينا رجلا قط لا يصلي أفضل منه فأقام عندنا فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له اخرج يا ابن الهيثبان فاستسقى لنا فيقول لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة فنقول له كم ؟ فيقول صاعًا من تمر أو مدّين من شعير قال فنخرجها ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقى الله لنا فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ونسقى . قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثا ثم حضرته الوفاة عندنا فلما عرف أنه ميت قال : يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الحمر والخمر إلى أرض البؤس والجوع ؟ قلنا أنت أعلم . قال فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانه وهذه البلدة مهاجرة فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه وقد أظلم زمانه فلا تُسبِقن إليه : يا معشر يهود فإنه يبعث بسفك الدماء وسبي الذراري والنساء من خالقه فلا يمنعنكم ذلك منه . فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصر بني قريظة قال هؤلاء الفتية - وكانوا شبابًا أحداثًا - يا بني قريظة والله إنه للنبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيثبان ، قالوا ليس به ، قالوا بلى والله إنه هو بصفته ، فنزلوا فأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهلهم . قال ابن إسحاق فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود .

قال تعالى يوبخ أهل الكتاب على كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وجحودهم نبوته (يا أهل الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ) أي تشهدون أن نعت محمد في كتابكم ثم تكفرون به ولا تؤمنون به وأنتم تهودونه عندكم في التوراة والإنجيل النبي والأُمي .

سلمان الفارسي

وقصة إسلامه

سلمان الفارسي أبو عبد الله ويعرف بسلمان الخير مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصله من جى وهو مدينة أصفهان وكان اسمه قبل الإسلام مابه بن بوذخشان بن مورسلان بن بهبوزان بن فيروز بن سهرك من ولا أب للث وكان يبلاد فارس مجوسياً سادن النار^(١). وكان أبوه مجوسياً فانفق أنه هرب منه يوماً ولحق بالرهبار وصحبهم ثم قدم الحجاز عند ظهور النبي مع العرب فباعوه إلى يهودى من قريظة فأتى به المدينة فلما دخلها النبي أسلم وشهد معه أكثر المتخاض. وأول مشاهدته وقعة الخندق وكان من فضلاء الصحابة وزهادهم وعلمائهم وذوى القربى من الرسول وهو الذى أشار على الرسول بحفر الخندق حين جاءت الأحزاب، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلمان منا أهل البيت » وكان يعمل الخوص بيده ويأكل من ثمنه وآخى الرسول بينه وبين أبا البرداء وروى عنه جماعة من العلماء. توفى سنة ٣٥ للهجرة وقيل ٣٤ ودفن فى المدائن شرق بغداد وله مقام إزا إيوان كسرى يزار حتى الآن ويعرف بمقام سلمان بالك وهو لفظة فارسية معناها الطاهر. قيل عاش ١٥٠ سنة وقيل أكثر من ذلك وهو من معمرى العرب.

وهذه قصة إسلامه عن ابن عباس رضى الله عنه .

عن ابن عباس رضى الله عنه قال حدثنى سلمان الفارسي وأنا أسمع من فيه قال : كنت رجلاً من أهل فارس من أصحابه من جى ابن رجل من دهاقينها^(٢) وكنت أحب خلق الله إليه فأجلسنى فى البيت كالجوارى فاجتهدت فى الفارسية^(٣) وكان أبى صاحب ضيعة وكان له بناء يعالجه فقال لى يوماً يا بنى قد شغلنى ما ترى فانطلق إلى الضيعة ولا تحتبس فتشغلنى عن كل ضيعة بهى بك : فخرجت لذلك فمررت بكنيسة النصارى وهم يصلون فقلت إليهم وأعجبني أمرهم وقلت هذا والله خير من ديننا فأقمت عندهم حتى غابت الشمس لا أنا أتيت الضيعة ولا رجعت إليه فاستبطأنى وبعث رسلاً فى طلبى وقد قلت للنصارى حين أعجبني أمرهم أين أصل هذا الدين ؟ قالوا بالشام فرجعت إلى والدى . قال يا بنى قد بعثت إليك رسلاً . قلت مررت بقوم يصلون بكنيسة فأعجبني ما رأيت من أمرهم وعلمت أن دينهم خير من ديننا . قال يا بنى دينك ودين آبائك خير من دينهم فقلت كلا والله نخافى وقيدنى فبعثت إلى النصارى وأعلمتهم ما وافقنى من أمرهم وسألتهم لإعلاى من يريد الشام ففعلوا فألقيت الحديد من رجلى وخرجت معهم حتى أتيت الشام فسألتهم عن عالمهم فقالوا الأستاذ فأتيته فأخبرته وقالت

(٢) دهاقين جمع دهقان وهو شيخ القرية

(١) راجع سيرة ابن هشام وأسد الغابة لابن الأثير

(٣) ولى حديث على بن جابر « لى المجوسية »

أكون معك . أخدمك وأصلي معك . قال أقم . فكشيت مع رجل سوء كان يأمرهم بالصدقة فإذا أعطوه شيئاً أمسكه لنفسه حتى جمع سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً^(١) فتوفي فأخبرتهم بخبره فزجروني فللأثم على ماله فضلبوه ولم يغيبوه ورجعوه وأجلسوا مكانه رجلاً فاضلاً في دينه زهداً ورغبة في الآخرة وصلاً فألقى الله حبه في قلبي حتى حضرته الوفاة فقلت أوصني فذكر رجلاً بالموصل وكنا على أمر واحد حتى هلك فأنيت بالموصل فقلت الرجل فأخبرته بخبري وأن فلانا أمرني بإتيانك فقال : أقم فوجدته على سبيله وأمره حتى حضرته الوفاة . فقلت له أوصني ، قال : ما أعرف أحداً على ما نحن عليه إلا رجلاً بمورية فأنيت بمورية^(٢) فأخبرته بخبري فأمرني بالمقام وثاب لي شيئاً واتخذت غنيمة وبقرات فحضرته الوفاة فقلت إلى من توصي بي ؟ فقال : لا أعلم أحداً اليوم على مثل ما كنا عليه ولكن قد أظلك نبيٌ يبعث بدين إبراهيم الحنيفية . مهاجرة بأرض ذات نخل وبه آيات وعلامات لا تخفى ، بين منكبيه خاتم النبوة يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة فإن استطعت فتخلص إليه فتوفي فر بي ركب من العرب من بني كلاب فقلت أصحابكم وأعطيكم بقراتي وغنمي هذه وتحملوني إلى بلادكم فحملوني إلى وادي القرى فباعوني من رجل من اليهود . فرأيت النخل فعلمت أنه البلد الذي وصف لي فأقمت عند الذي اشترايتي وقدم عليه رجل من بني قريظة فاشتراني منه وقدم بي المدينة ففرقتها بصفتها فأقمت معه أعمل في نخله وبعث الله نبيه ﷺ وغفقت عن ذلك حتى قدم المدينة فنزل في بني عمرو بن عوف . فإني لنى رأس نخلة إذ أقبل ابن عم لصاحبي^(٣) ، فقال أي فلان فإني فلان فإني قيلة^(٤) سررت بهم آنفاً وهم مجتمعون على رجل قدم عليهم من مكة يزعم أنه نبيٌ . فوالله ما هو إلا أن سمعها ، فأخذني القر فرجفت في النخلة حتى كدت أسقط ونزلت سريعاً فأقبلت على عملي حتى أمسيت فجمعت شيئاً فأنيت به وهو بقاء عند أصحابه . فقلت اجتمع عندي شيء أردت أن أتصدق به فبلغني أنك رجل صالح ومعك رجال من أصحابك ذوو حاجة فرأيتهم أحق به فوضعت بين يديه فكف يده وقال لأصحابه كلوا فأكلوا . فقلت هذه واحدة ، ورجعت وتحول إلى المدينة فجمعت شيئاً فأنيت به فقلت أحببت كرامتك فأهديت لك هدية وليست بصدقة فد يده فأكل وأكل أصحابه فقلت هاتان اثنتان ، ورجعت فأنيت به وقد تبع جنازة في بقيع الفرق^(٥) وحوله أصحابه . فسلمت وتحولت أنظر إلى الخاتم في ظهره فعلم ما أردت فألقى رداءه فرأيت الخاتم فقبلته وبكيت فأجلسني بين يديه فحدثته بشأني كله كما حدثتك يا ابن عباس ، فأعجبني ذلك وأحب أن يسمعه أصحابه ففانني معه بدر وأحد بالرق فقال لي : كاتب

(١) الورق بكسر الراء مفتوحاً ما قبلها : الفضة

(٢) عمورية بفتح أوله وتشديد ثانيه : بلد من بلاد الروم فتحها المتصم سنة ٢٢٣ هجرية

(٣) كان ذلك في يوم الجمعة ١٦ من ربيع الأول بعد وصول رسول الله إلى المدينة بأربعة أيام (٢ يولية سنة ٦٢٢ م)

(٤) بني قيلة : يريد عرب المدينة

(٥) بقيع الفرق : أصل البقيع في اللغة الموضع الذي فيه أروم الشجر من صروب شتى وبه سمي بقيع الفرق . والفرق كبار

الموسج ، وبقيع الفرق هو مقبرة أهل المدينة وهي داخل المدينة

يا سلمان عن نفسك فلم أزل بهما حتى كاتبت على أن أغرس له ثلاثمائة ودية^(١) وعلى أربعين أوقية من ذهب فقال النبي صلى الله عليه وسلم أبعينوا أخاكم بالنخل فأعانوني بالخمس والعشر حتى اجتمع لي فقال لي انظر لها ولا نضع منها شيئاً حتى أضعه بيدي فقلت فأعانني أصحابي حتى فرغت فأتيته فكنت آتية بالنخلة فيضعها ويسوي عليها تراباً فأنصرف . والذي بعثه بالحق فما مات منها واحدة وبقي الذهب فيينا هو قاعد إذ أتاه رجل من أصحابه بمثل البيضة من ذهب أصابه من بعض المعادن . فقال ادع سلمان المسكين الفارسي المكاتب . فقال أد هذه فقلت يا رسول الله وأين تقع هذه مما على^(٢) ؟

هذه قصة سلمان الفارسي وهي كما يتضح للقارئ المنصف معقولة وليس فيها شيء من المبالغة ، ويلاحظ أن سلمان كان من صفره ميالا إلا التدين والتقشف فصاحب كبار أهل الدين وتعلم منهم وهذه النصة تدل على صدق رسالة نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام ، لأن سلمان ما عرف النبي إلا بالعلامات التي أخبره بها صاحبه بعمورية ولم يسل إلا بعد أن تحقق صحة هذه العلامات فيه صلى الله عليه وسلم . ومن الحق من ترجمة حياة سلمان أن أباه كان مجوسياً من بلاد الفرس وأنه هرب منه ولحق بالهربان وصاحبهم واحداً بعد واحد إلى أن لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم .

ونلاحظ أن سلمان لم يذكر أسماء الهربان أو الأساقفة الذين كان يلزمهم وإن كان قد ذكر بلادهم . وشهد رسول الله سلمان الفارسي بالطهارة والحفظ الإلهي والعصمة حيث قال : « سلمان منا أهل البيت » وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كان الإيمان باثريا لثله رجال من فارس » وأشار إلى سلمان الفارسي .

وكان سلمان من خيار الصحابة وزهادهم وفضلائهم وذوى القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأتت عائشة كان سلمان مجلس من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالليل حتى كان يغلبنا على رسول الله . وسئل على عن سلمان ، فقال ، علم العلم الأول والعلم الآخر وهو بحر لا ينزف وهو منا أهل البيت وهو الذي أشار على رسول الله بحجر الخندق لما جاءت الأحزاب . فأمر رسول الله بحفره فاحتسب المهاجرون والأنصار في سلمان وكان رجلاً قويا . وتوفي سنة ٣٥ هـ في آخر خلافة عثمان وقيل إنه عاش ٣٥ سنة فأما ٢٥٠ فلا يشكون فيه .

من تسمى في الجاهلية بمحمد

كانت العرب تسمع من أهل الكتاب ومن الكهان أن نبياً يبعث من العرب اسمه (محمد) فسمى

(١) الودية : واحدة الودي : صغار فيل النخل

(٢) راجع الجزء الثاني من أسد الغابة لابن الأثير

من بلغه ذلك من العرب ولده محمداً طمعاً في النبوة . سعى محمد بن الخزاعي بن خزابة من بني ذكوان من بني سليم طمعاً في النبوة فأتى أبرهة باليمن فكان معه على دينه حتى مات فلما وجه قال أخوه قيس بن خزاعي :
فذلكم ذو التاج . منا محمد ورايته في حومة الحرب تحقق
وكان في بني تميم محمد بن سفيان بن مجاشع وكان أسقفاً قيل لأبيه إنه يكون للعرب نبياً اسمه محمد فسماه محمداً .
ومحمد الجشعي في بني سواة . ومحمد الأسيدى ومحمد الققيبي سموهم طمعاً في النبوة .
هذا ما وجدته في طبقات ابن سعد فليرجع إليه من شاء . ومن هذا كله يتضح أنهم كانوا ينتظرون ظهور نبى في ذلك الزمان .

عبادة الأصنام والأوثان

الصنم ينحت من خشب ويصاغ من فضة ونحاس . والجمع أصنام . وقيل هو ما كان له جسم أو صورة ، فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن . قال ابن الأثير : الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ماله جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة آدمى تعمل وتنصب فتعبد ، والصنم : الصورة بلا جثة . ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقهما على المعنيين . قال وقد يطلق الوثن على غير الصورة ^(١) .
الوثنية ببلاذ العرب ترجع إلى عهد بعيد جداً . قيل إن إسماعيل بن إبراهيم الماسكن مكة وولد له بها أولاد كثيرة حتى ملأوا مكة ونفوا من كان بها من العماليق ، ضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والمداوات وأخرج بعضهم بعضاً فتنسحوا في البلاد لالتماس المعاش ^(٢) .
وكان الذى حدا بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظن من مكة ظان إلا احتمال معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصباية بمكة فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم وصباية بالحرم وحجاً له . وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل .
ثم أدى بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم وانتجشوا ^(٣) ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما بقى فيهم من ذكرها وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه .
وكان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام فنصب الأوثان وسلب السائبة ووصل الوصيلة وبخر البحيرة

(١) راجع لسان العرب (٢) كتاب الأصنام لأبي النضر هشام (٣) استخرجوا .

وحى الحامية ، عمرو بن ربيعة ، وهو لُحَيّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي وهو أبو خزاعة .
وكانت أم عمرو بن لُحَيّ فهبرة بنت عمرو بن الحارث .
وكان الحارث هو الذى بلى أمر الكعبة فلما بلغ عمرو بن لُحَيّ نازعه فى الولاية وقاتل جرهما بيني إسماعيل
فظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة ونفاهم من بلاد مكة وتولى حجابة البيت بعدهم .
ثم إنه مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : إن بالبلقاء من الشام حجة ^(١) إن أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها
فبرأ ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستسقى بها المطر ونستنصر بها على العدو .
فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة . وقيل إنهم أعطوه صنماً يقال له هُبَل فقدم بهمكة
فوضعه عند الكعبة فكان أول صنم وضع بمكة .

قال ابن هشام : فحدثنا الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : رفعتلى النار
فرايت عمراً (أى عمرو بن لُحَيّ) رجلاً قصيراً أحمر أزرق يمر قُصْبُفى النار . قلت : من هذا ؟ قيل هذا عمرو بن
لُحَيّ أول من بحر البحيرة ووصل الوصيلة وسَيَّب السائبة وحى الحامية وغير دين إبراهيم ودعا العرب إلى
عبادة الأوثان .

وقد جاء فى القرآن ذكر الأصنام الخمسة التى كان يعبدها قوم نوح ؛ قال تعالى :
﴿ قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا
وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَفُوتَ وَيَعُوقُ وَنَسَرُوا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ
الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ .
ولم يرد ذكر هُبَل فى القرآن .

ويقال إن هذه الأصنام وجدها عمرو بن لُحَيّ فى ساحل جُدة وفرقها فأتخذتها العرب آلهة .
ومن الأصنام المشهورة القديمة إساف ونائلة عبادتها خزاعة وقريش ومن حج البيت بعدد من العرب وكانوا
ينحرون وبذبحون عندها .

ومَنَاء كان منصوباً على ساحل البحر من ناحية الشمال بقديد بين مكة والمدينة وكانت العرب جميعاً تعظمه
وتذبح حوله ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج . وقد ورد ذكر مناة فى القرآن . قال تعالى ﴿ وَمَنَاءَ
النَّائِلَةِ إِلَّا خُرُوسَى ﴾ .

وكانت لهذيل وخزاعة . وقد هدمها على رضى الله عنه عند فتح مكة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .
والفلس وهو صنم طيئ هدمه على رضى الله عنه بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) الحجة : مائة حارة ينسب بها .

واللات (تأنيث الله) وهى أحدث من مناة وكانت صخرة مربعة وكانت قریش كلها تعظمها وهى بالطائف ذكرها الله فى القرآن فقال ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴾ ولم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبه فهدمها وأحرقها بالنار . والطاغية هى اللات كانوا يقولون لها الربة . وجاء فى قاموس الإسلام ^(١) « أن هيرودت لم يشر إلى الكعبة لكنه ذكر اللات وقال إنها من أعظم آلهة العرب وهذا دليل قوى على وجود ذلك الصنم المسمى باللات وقد كان من معبودات ذلك الزمن » .

ومن أصنامهم العزى (تأنيث الأعز) والأعز بمعنى العزيز ويقال إنها أحدث من اللات ومناة . كانت بوادى نخلة الشامية وكانت أعظم الأصنام عند قریش وكانوا يزورونها ويهدون لها ويقرّبون عندها بالذبح . قال ابن حبيب : العزى شجرة كانت بنخلة عندها وثن تعبده غطّان . وفى التنزيل ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ .

ولم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم فهاجها وغيرها من الأصنام ونهاهم عن عبادتها ونزل القرآن فيها فاشتد ذلك على قریش، ومرض أبو أحيحة سميد بن العاصى بن أمية بن عبدشمس بن عبد مناف مرضه الذى مات فيه فدخل عليه فدخل عليه أبو لهب فوجده يبكى فقال له ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ أمن الموت تبكى ولا بد منه ؟ فقال : لا ولكنى أخاف ألا تعبد (العزى) بعدى ! فقال له أبو لهب : ما عبدت فى حياتك لأجلك ولا تترك عبادتها بعدك لموتك . فقال أبو أحيحة : الآن علمت أن لى خليفة وأعجبه شدة نصبه فى عبادتها ^(٢) . وتدل القصة على شدة التمسك بعبادة الأصنام . وكان بعضهم يعبد الملائكة وكانوا يقولون : الملائكة بنات الله . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴾ .

فلما افتتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة ، بعث خالد بن الوليد فهدم العزى ، وكانت لقریش أصنام حول الكعبة وفى جوفها وكان أعظامها عندهم هبل . قيل إنه كان من عقيق أحر على صورة الإنسان مكسور البدين . أدركته قریش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب وكان أول من نصبه خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر وكان يقال له هبل خزيمه وعنده ضرب عبد المطلب على ابنه عبد الله بالقداح . ومن الأصنام التى كانت عند الكعبة إساف ونائلة فلما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة أخرجت من المسجد وأحرقت وكان يبلغ عددها ٣٦٠ صنماً . ومن أصنامهم مناف . وكان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به وإذا قدم من سفره ، كان أول ما يصنع الرجل إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً وكانوا يسمون الحجارة التى ينصبونها حول الحرم « الأنصاب » .

(1) Dictionary of Islam by Hughes p 292. 2nd edition

(٢) راجع معجم البلدان (عزى) وكتاب الأصنام لابن السكيت ص ٢٣ .

ومن أصنامهم : ذو الخلصة وسعد وذو الكفين وذو الشرى والأقيصر وسعير وعيانس والأسحم والأثم وأوال وباجر والبجة والبعيم وبلج وبوانة وتيم وجريش ، وعبدة الأصنام ينكبون بعث الأجساد . وكان من العرب من يعتقد التناسخ وتنقل الأرواح في الأجساد وكانوا يعتقدون وقوع المسخ ونسبوا أكثر الأمراض إلى الجن وعبدها بعضهم ومن هذا يرى أن آلهة العرب كانت متعددة .

الأربعة الباحثون عن دين إبراهيم

قد استنكر بعض العرب عبادة الأصنام وأدرك أنها لا تنفع ولا تضر وذلك في الجاهلية قبل أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد حدث أنه بينما كانت قريش مجتمعمة يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم يعتكفون عناء ويدورون به وكان ذلك عيداً لهم كل سنة، إذ خالص منهم أربعة وهم : ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وعبيدا ابن جحش بن رئاب وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى وزيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى فها بعضهم لبعض تعلموا والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين إبراهيم ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا ينف ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شيء . ففرقوا في البلدان ياتمسون الحثيفية، دين إبراهيم ١ — فأما ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب في أهلها حتى علم من أهل الكتاب .

٢ — وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة ابنة أبي سفيان مسلمة ثم تنصر وفارق الإسلام حتى هلك هناك نصرانياً . وخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على امرأته أم حبيبة .

٣ — وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ، ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده .

٤ — وأما زيد بن عمرو بن نفيل ، فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان .

الرد على مستر كانون سل

قال مستر كانون سل في كتابه « حياة محمد ^(١) » (قال زيد وأصحابه إنهم رغبوا في اتباع دين إبراهيم . ويظن أن محمداً أخذ منهم هذه الفكرة) ثم قال : (بقي زيد حنيفاً وعاب على أهل مكة عبادة الأصنام فأثار ذلك غضبه

(1) The Life of Muhammad by The Rev. Canon Sell,

فأرغم على ترك مكة والإقامة في جبل حراء وبعد أن أمضى هنالك زمناً يفكر ، توفي ودفن بأسفل الجبل وقد كان له تأثير عظيم في محمد الذي كان يحل شأنه ويقدره قدره . ولا ريب أن هؤلاء الرجال وأمثالهم من ذوى العقول الراجحة كانوا كثيراً ما يتشاورون ويتجادلون فيما وصلت إليه حالة العرب الاجتماعية من الانحطاط وبأسفون لا تنشر الوثنية وضعف مركزهم السياسى . ولم ينجح عثمان بن الحويرث في تأسيس سلطة مركزية لاعتماده على دولة أجنبية - الامبراطورية الرومانية - ومع ذلك كانت الحاجة تدعو إلى وجود سلطة مركزية والاعتراف بالكعبة وجعلها قوة دينية للعرب جميعاً ، فكيف الوصول إلى ذلك ؟ وكيف يمكن إبطال عبادة الأصنام ؟ إلى أن قال وهنا سنحت الفرصة لظهور نبي وقد كان الاستعداد لظهوره قريباً وما لبث أن ظهر نبي قوى الشخصية ذو فطنة سياسية فائقة برسالة محدودة للأمة العربية اه هذا مازعه مستر كانون سل . فنقول :

نعم إن هؤلاء تحدثوا في أمر انتشار عبادة الأصنام وأخذوا يبحثون عن الدين الصحيح لكن محادثتهم كانت قليلة . وليس لها شأن ولم يبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجتمع بهم ويحدثهم في شؤون العرب الدينية أو السياسية وقد كان زيد بن عمرو مضطهداً ولجأ إلى حراء لكن لم تكن له اجتماعات برسول الله حتى يقال إنه تذاكر معه مسائل الدين وترك في نفسه أثراً عميقاً أو أنه أخذ منه الفكرة لأن المسألة ليست مسألة اقتباس فكرة فالقرآن وما حواه من فصاحة وبلاغة خارقة وحكم بالغة وأمثال محكمة وذكر أحوال الماضين من أنبياء وأمم وأنباء المستقبل وعلاقة الإنسان بخالقه وعلاقته بغيره والتشريع العظيم الشأن الذى صار موضوع بحث الأئمة المجتهدين والعلماء الأعلام - لا يكون مصدره اجتماع زيد بن عمرو برسول الله مصادفة في حراء أو في الطريق . ثم إننا فوق ذلك لا نعلم من تاريخ رسول الله أنه كان يتذاكر مع رجال أو كانوا يعلمونه من صغره إلى أن صار نبياً بل الثابت أنه كان أمياً لا يدرى ما الكتابة والقراءة ولا الدين وأصوله حتى أوحى إليه ثم إن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن محدودة للأمة العربية كما ظن سل وأمثاله بل كانت رسالته عامة بنص القرآن ؛ قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

وإليك ترجمة حياة زيد بن عمرو إتماماً للبحث :

^(١) ترجمة زيد بن عمرو

هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرظ بن رزاح بن عدى بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك القرشى العدوى والد سعيد بن زيد أحد العشرة وابن عم عمر بن الخطاب يجتمع هو وعمر في نفيل . سئل عنه النبي صلى الله عليه وسلم فقال « يبعث أمة وحده يوم القيامة » وكان يتعبد في الجاهلية ويطلب دين إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم ويوحده الله تعالى ويقول إلهي إله إبراهيم ودينى دين

(١) راجع أسد الغابة

إبراهيم وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : (الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأبنت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله تعالى) إنكاراً لذلك وإعظاماً له وكان لا يأكل مما ذبح على النصب (الأوثان) واجتمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بزید بن عمرو بأسفل بلدح^(١) قبل أن يوحى إليه وكان يحى المودة . وعن زید بن حارثة قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً حاراً من أيام مكة وهو مردف فلقينا زید ابن عمرو بن نفيل فحى كل واحد منا صاحبه فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا زید مالى أرى قومك قد شنفوا لك^(٢) قال والله يا محمد إن ذلك لغير نائلة ترة لى فيهم ولكن خرجت أبتغى هذا الدين حتى أقدم على أخبار خير فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به فقلت ما هذا الدين الذى أبتغى . فخرجت فقال لى شيخ منهم إنك لتسأل عن دين ما نعلم أحداً يعبد الله به إلا شيخاً بالحيرة . قال فخرجت حتى أقدم عليه فلما رآنى قال ممن أنت ؟ قلت أنا من أهل بيت الله من أهل الشوك والقرظ . قال إن الذى تطالب قد ظهر ببلادك . قد بُعث نبي قد طلع نجمه وجميع من رأيتهم فى ضلال قال فلم أحس بشئ .

قال زید بن حارثة ومات زید بن عمرو وأنزل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي فى زید « إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده » .

وقال أبو بكر الصديق يذكر اجتماعه بزید بن عمرو :

« كنت جالساً بفناء الكعبة وكان زید بن عمرو بن نفيل قاعداً . فر به أمية بن أبى الصلت فقال ، كيف أصبحت يا باغى الخير ؟ قال ، بخير . قال هل وجدت ؟ قال لا ولم آل من طلب . قال :

كل دين يوم القيامة إلا ما قضى الله والخليفة بور

أما إن هذا النبي الذى ينتظر منا أو منكم أو من أهل فلسطين ؟ قال ولم أكن سمعت من قبل ذلك بنبي ينتظر أو يُبعث . فخرجت أريد ورقة بن نوفل وكان كثير النظر فى السماء ، كثير همهمة الصدر . فاستوقفته ثم قصصت عليه الحديث . قال : نعم يا ابن أخى . أبى أهل الكتاب والعلماء إلا أن هذا النبي الذى ينتظر من أوسط العرب نسبا . ولى علم بالنسب ، وقومك أوسط العرب نسبا . قلت يا عم ، وما يقول النبي ؟ قال : يقول ما قيل له (أى ما يوحى إليه) إلا أنه لا ظلم ولا ظالم . فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، آمنتُ وصدقت . » .

وعن أسماء بنت أبى بكر قالت : لقد رأيت زید بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش والذى نفس زید بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى . وكان يقول : اللهم لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكنى لأعلمه ثم يسجد على راحته . وقال ابن إسحاق : حدثنى بعض آل زید كان إذا دخل الكعبة قال : « لبيك حقاً حقاً ، تعبداً ورقاً . عذت بما عاذ به إبراهيم » ويقول وهو قائم « أننى لك عانى

(١) بلدح واد قبل مكة من جهة الغرب (٢) أى أفضوك

راغم . مهما تجشمني فإني جاشم . البر أبني لا للال وهل مهجر كن قال ؟ » وكان الخطاب بن نفيل قد آذى زيد ابن عمرو بن نفيل حتى خرج إلى أعلى مكة فنزل حراء مقابل مكة ووكّل به الخطاب شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفهاءهم فلا يتركونه يدخل مكة وكان لا يدخلها إلا سرّاً منهم فإذا علموا به آذّنوا به الخطاب فأخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم على فراقهم . وتوفي زيد قبل مبث النبي صلى الله عليه وسلم^(١) فرثاه ورقة بن نوفل :

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما تجنبت تنوراً من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثلها وتركل أوئان الطوائى كما هيا
وقد يدرك الإنسان رحمة ربه ولو كان تحت الأرض ستين واديا

وكان يقول « يامعشر قريش إياكم والرياء فإنه بورث الفقر » .
هذه ترجمة زيد بن عمرو وهو مع اعتناقه دين إبراهيم هرباً من الوثنية لم يكن يعلم أحب الوجوه إلى الله تعالى ليعبده به ولم يذكر أنه اجتمع برسول الله غير مرة ولا بأبي بكر غير المرة التي ذكرناها .

بدء الوحي

٦ أغسطس سنة ٦١٠ م

لما قربت أيام الوحي حُبب إليه صلى الله عليه وسلم الخلوة فكان يختلئ في غار حراء ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد ثم يرجع إلى أهله فيتزود لثلاثها ، وكانت عبادته على دين إبراهيم عليه السلام وقيل كان يتعبد إلهاماً من الله ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وكانت تلك الرؤيا الصادقة مقدمات الوحي .
قيل مدتها ستة أشهر .

فلما تم له أربعون سنة جاءه جبريل بالنبوة وذلك في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده ، فيكون عمره إذ ذاك أربعين سنة قمرية وستة أشهر وثمانية أيام ، وذلك يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠ م وهو بغار حراء .

نجا في صحيح البخاري عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت :

« أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرؤيا الصالحة في النوم^(٢) فكان لا يرى رؤيا إلا

(١) وفي تاريخ القرون الوسطى للجامعة كامبردج أن زيدا مات في صبا النبي (صلى الله عليه وسلم) .
(٢) إن عائشة لم تذكر هذه القصة لكن الظاهر أنها سمعت ذلك منه صلى الله عليه وسلم لقولها قال فأخذني فغطى . وكانت مدة الرؤيا ستة أشهر وحيث أن يكون ابتداء النبوة بالرؤيا حصل في شهر ربيع الأول وهو شهر مولده

جاءت مثل فلَق الصبح^(١) ثم حُبب إليه الخلاء^(٢) وكان يخلو بغار حراء^(٣) فيتحنث فيه - وهو التعمد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع^(٤) إلى أهله ويتزود لذلك^(٥) ثم يرجع إلى خديجة فيتزود أمثلها حتى جاءه الحق^(٦) وهو في غار حراء فجاءه الملك^(٧) فقال له اقرأ ، قال ما أنا بقارى^(٨) فأخذني فغطى^(٩) حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني . قال اقرأ قلت ما أنا بقارى فأخذني فغطى الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارى فأخذني فغطى الثالثة^(١٠) ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم . فرجع بها^(١١) رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال زملوني ، زملوني^(١٢) فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيتُ على نفسي^(١٣) . قالت خديجة : كلا والله ما يُخزيك الله أبداً^(١٤) ، إنك لتصل الرحم^(١٥) وتحمل الكل^(١٦) وتكسبُ المعدوم^(١٧) وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني . فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمى . قالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك^(١٨) فقال لي ورقة يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس^(١٩) الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً^(٢٠) ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك^(٢١) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يخرجني ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت

-
- (١) كضياء الصبح (٢) بمعنى الخلوة أى الاختلاء (٣) حراء جبل بينه وبين مكة ثلاثة أميال على يسار الذهاب إلى مي ، والغار قبة فيه وهو أول موضع نزل فيه القرآن (٤) يحن ويشتاق ويرجع (٥) يتخذ الزاد للخلوة أو التعمد (٦) هو الوحي (٧) جاءه الوحي يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان (٨) مانانية وفى رواية كيف أقرأ أو ماذا أقرأ فتسكون ما استهامة (٩) صمى وعصرنى (١٠) ذكر السهيل أن الغط ثلاثا إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم يحصل له شدائد ثلاث ثم يحصل له الفرج بعد ذلك فكانت الأولى لإدخال قريش له صلى الله عليه وسلم في الشعب والتضييق عليه والثانية اتحاقهم على قتله صلى الله عليه وسلم والثالثة خروجه من أحب البلاد إليه (١١) أى بالآيات (١٢) أى لفتونى لشدة مله من هول الأمر . والعادة جارية بسكون الربعة بالتلف . (١٣) الموت أو المرض لشدة الرعب (١٤) أى ما يفضحك الله (١٥) القرابة (١٦) وهو الذى يستقل بأمره . (١٧) أى تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك . (١٨) تعنى النبي صلى الله عليه وسلم لأن الأب الثالث لورقة هو الأخ للأب الرابع لرسول الله صلى الله عليه وسلم . أو قاله على سبيل الاحترام . (١٩) صاحب الوحي والمراد به جبريل عليه الصلاة والسلام . وأهل الكتاب يسمونه الناموس الأكبر . (٢٠) أى في مدة النبوة . (٢١) أى يا ليتنى كنت شابا عند ظهور نبوتك حتى أقوى على المبالغة في نصرتك . والمذبح هو الصغير من البهائم ، واستمير للانسان . (٢٢) من مكة .

به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا^(١) ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي^(٢) .
 أول ما نزل عليه صلى الله عليه وسلم من القرآن « اقرأ » كما صح ذلك عن عائشة وروى ذلك عن أبي موسى الأشعري وعبيد بن حمير . قال النووي : وهو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف .

النبي المنتظر

اتفق مؤرخو العرب وأصحاب السير أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون ظهور نبي في ذلك الزمان وكانوا يعلمون أوصافه وأحواله . من ذلك أنهم ذكروا :

(١) أنه ثبت بالأخبار القريبة من التواتر أن شقا وسطيحًا كانا كاهنين يخبران بظهور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قبل زمان ظهوره .

(٢) قصة حليلة السعدية وأنها كانت تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليهود كلما مر بها جماعة منهم وتحدثهم بشأنه فكانوا يحضون على قتله فتهرب منهم .

(٣) أنهم اتفقوا على أن بحيرا الراهب عرف الرسول بعلامات فيه وقال لأبي طالب « ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لبيغته شرًا فإنه كائن له شأن عظيم فأسرع به إلى بلده » .

(٤) في سيرة ابن هشام فصل عن إنذار يهود برسول الله قلا عن رواية ابن إسحاق فليراجع في موضعه وقد أوردته في هذا الكتاب .

(٥) قصة سلمان الفارسي الذي أسلم بعد أن استدلى على رسول الله بعلامات كان يعرفها من الراهب الذي صحبه أخيرًا . وقصة إسلام سلمان مشهورة ومذكورة في المصادر المعتبرة التي يؤمل عليها المؤرخون ولا يمكن أن تكون مختلفة ، فقد رواها ابن عباس عن لسان سلمان الفارسي نفسه . والقصة مذكورة في هذا الكتاب أيضًا لأهميتها .

(٦) إسلام عبد الله بن سلام بن الحارث فإنه كان حبرًا عالمًا . قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكل له فكنت مسرًا لذلك صامتًا عليه حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة إلى آخر ما قال مما هو مذكور في هذا الكتاب قلا عن سيرة ابن هشام .

(٧) كانت العرب تسمع من أهل الكتاب ومن الكهان أن نبيًا يبعث في العرب اسمه محمد فسمى

(١) أي بالغًا شديدًا وهذا ظاهر في أنه أقر بنبوته ولكنه مات قبل الدعوة إلى الإسلام فيكون مثل بحيرا ،

ودفن بمكة .

(٢) أي احتبس ثلاث سنين .

من بلغه ذلك من العرب ولده محمداً طمعاً في النبوة ، وقد ذكرت في كتابي هذا أسماء بعضهم قتيلاً عن طبقان ابن سعد كاتب الواقدي .

(٨) ما جاء في صحيح البخاري في باب بدء الوحي من أن ورقة بن نوفل (ذلك الشيخ العالم بالنصرانية والذي كان يكتب الإنجيل بالبرانية) قال لرسول الله حين عرضته عليه خديجة : « هذا الناموس الذي نزل على موسى » الخ .

(٩) أن النبي صلى الله عليه وسلم لما جمع بني قينقاع - وهم طائفة من اليهود - قال لهم : « يا معشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النعمة وأسلموا فإنكم قد عرقتهم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله إليكم » ،

(١٠) كان قيس بن نُسْبة في الجاهلية منجماً متفلسفاً واعداً بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم فاتاه فقال له يا محمد ما كَحَلَّةُ ؟ فقال : السماء . قال : وما مَحَلَّةُ ؟ فقال : الأرض . فأمن به وقال لا يعرف هذا إلا نبي . فقال - قيس في ذلك :

تَابَتْ دِينَ مُحَمَّدٍ وَرَضِيَتْهُ كُلُّ الرُّضَا لِأَمَانَتِي وَلِدِينِي
مَا زِلْتُ آمُلُهُ وَأَرْقُبُ وَقْتَهُ وَاللَّهِ قَدَرُ أَنَّهُ يَهْدِينِي
أَعْنَى ابْنِ أَمَنَةٍ الْأَمِينِ وَمَنْ بِهِ أَرْجُو التَّخْلَصَ مِنْ عَذَابِ الْهُونِ
فَكَانَ قَوْمٌ قَيْسٌ إِذَا وَرَدُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ لَهُمْ « كَيْفَ حَبْرُكُمْ ^(١) » .

كل هذا وغيره يؤيد أنهم كانوا ينتظرون نبياً يظهر في ذلك الزمان وليس ذلك بمستغرب فإن البشارة به صلى الله عليه وسلم قد وردت في التوراة والإنجيل وقد أثبتنا ذلك في فصل سابق من هذا الكتاب مستشهدين بآيات من الكتاب المقدس المطبوع باللغة العربية (راجع ص ٥٧ - ٦٠) فلا بد أن أهل الكتاب في ذلك الزمان كانت لديهم كتب أخرى ألفها علماءهم شرحاً للكتاب المقدس فاستقوا منها تلك المعلومات والعلامات التي عرفوا بها صفة رسول الله وموطنه وزمنه واضطهاد قومه له وهجرته . إننا نرجح ذلك بل نؤكد أنه إذا كنا قد استخرجنا من الكتاب المقدس المطبوع في أيامنا آيات تبشر برسالة صلى الله عليه وسلم وتصفه وتصف شريعته وموطنه وأصحابه فلا بد أن يكون أهل الكتاب قديماً - ولا سيما العلماء منهم - قد اطلعوا في النسخ العبرية القديمة التي كانت لديهم ، ولم تتوصل إليها ، على معلومات أوفى خاصة بالرسول تعد غريبة بالنسبة لنا . هذا ما يستنتجه المؤرخ النصف ، بل هذا ما يتبادر إلى ذهن من تتبع سيرة الرسول .

أما مستر موير فإنه انبرى في الجزء الثاني من كتابه يكذب جميع المصادر التاريخية ويرفض ما جاء فيها من

(١) المخصص لابن سيده الجزء التاسع . ص ٧ طبعة بولاق سنة ١٣١٩ هـ

أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون نبياً يبعث ، زاعماً أن هذه الروايات لا أساس لها من الصحة وأنها من مخترعات المؤرخين لأنه لو اعترف بصحتها أو بصحة بعضها لوجب عليه أن يعترف برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، في حين أنه حاول في جميع ما كتبه واستنبطه إثبات أنه لم يكن نبياً بل كان رجلاً يدعى النبوة لبسط نفوذه .

النبي الأمي

أول ما نزل عليه صلى الله عليه وسلم من القرآن « اقرأ » كما صح ذلك عن عائشة وروى ذلك عن أبي موسى الأشعري ، وعبيد بن عمير . قال النووي وهو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف . وقوله « ما أنا بقارى » أى إلى أمي فلا أقرأ الكتب . قال الزجاج : الأمي الذى على خلقه الأمة لم يتعلم الكتاب فهو على جبلته . وفي التنزيل العزيز ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي ﴾ سورة البقرة . فعنى الأميين فى هذه الآية الذين لا معرفة لهم بقراءة ولا كتابة .

قال أبو إسحاق : معنى الأمي المنسوب إلى ما عليه جملة أمه أى لا يكتب وهو فى أنه لا يكتب أمي لأن الكتابة مكتسبة فكأنه نسب إلى ما يولد عليه . أى على ما ولدته أمه عليه . وكانت الكتابة فى العرب من أهل الطائف تعلموها من رجل من أهل الحيرة وأخذها أهل الحيرة عن أهل الأنبار . وفى الحديث « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » أراد على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب فهم على جبلتهم الأولى . وفى الحديث « بعثت إلى أمة أمية » قيل للعرب الأميون لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة . هذا معنى كلمة « أمي » فى اللغة العربية وهكذا كان يفهمها العرب .

قال تعالى فى سورة الأعراف ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُثُهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَقْلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ ﴾ الآية . قال الفخر الرازى فى تفسيره : « فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرأون والنبي عليه الصلاة والسلام كان كذلك ، فلهذا السبب وصفه بكونه أمياً . قال أهل التحقيق وكونه أمياً بهذا التفسير كان من جملة معجزاته وبيانه من وجوه :

(الأول) أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوماً مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته . والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فإنه لا بد أن يزيد فيها بالقليل والكثير . ثم إنه عليه الصلاة والسلام - مع أنه ما كان يكتب وما كان يقرأ - يتلو كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير فكان ذلك من المعجزات ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (سَنَقُرُّكَ فَلَا تَنْسَى) .

(الثانى) أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متبهاً فى أنه ربما طالع الأولين فحصل هذه العلوم

من تلك المطالعة ، فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

(الثالث) أن تعلم الخط شئ سهل فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعى . فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم . ثم إنه تعالى آتاه علوم الأولين والآخرين وأعطاه من الحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر ومع تلك القوة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلاً وفهماً فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جاريًا مجرى الجمع بين الضدين وذلك من الأمور الغارقة للعادة وجار مجرى المعجزات « اهـ .

وقد طالعت ما كتبه الذين تعرضوا لهذا البحث من الافرنج الذين ترجوا حياة النبي صلى الله عليه وسلم فوجدت تحبطاً مدهشاً فقد بحث الأستاذ نولكه الألماني في كتابه « تاريخ القرآن ^(١) » هل كان النبي يعرف القراءة والكتابة ؟ فلم يجزم بشئ . بيد أنه زعم أن لفظة « أمي » المذكورة في القرآن لا تدل على أنه يجمل القراءة والكتابة بل تفيد أنه لا يعرف الأسفار القديمة !!

والثابت من التاريخ والقرآن والحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يعرف القراءة والكتابة بالرغم من أن بعض المستشرقين يحاولون أن يثبتوا عكس ذلك من غير برهان . إنهم يستنتجون بعقولهم . ليتعجبوا ما شاءوا من أميته ولكن يجب عليهم أن يعترفوا بأنه ما كان يعلم القراءة والكتابة . وجاء في قاموس الإسلام ^(٢) : « ومع ذلك فن الحقيق أنه (النبي صلى الله عليه وسلم) كان يتظاهر بأنه يجمل القراءة والكتابة كي يجمل إنشاء القرآن معجزاً » .

فهل بعد ذلك تعسف لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ أو يكتب لتحدث بذلك أصحابه وأعداؤه ، ولما أمكن أن يكون سرّاً مكتوماً طويلاً حياته خصوصاً أن جميع صفات النبي وأعماله قد روتها الصحابة بالتفصيل حتى خصوصياته في منزله مع نسائه . على أن النصفين من مؤرخي الافرنج وفلاسفتهم قد اعترفوا بأमितه فن ذلك ما كتبه للسيو سيديو في كتابه « تاريخ العرب » الجزء الأول ص ٥٩ من الطبعة الثانية . .

« ولما كان (رسول الله صلى الله عليه وسلم) غير متعلم مثل أبناء وطنه كان لا يعرف القراءة » .

(1) Geschichte des Qorans

(2) Dictionary of Islam by Thomas Patrick Hughes. 2nd, edition, p. 392

وقال الفيلسوف الأنجليزى توماس كارليل فى كتاب الأبطال الذى عني بترجمته الأستاذ محمد السباعى رحمه الله :

« ثم لا ننسى شيئاً آخر وهو أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك فى بلاد العرب . ويظهر لى أن الحقيقة هى أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها » .

وجاء فى كتاب الإسلام تأليف الكونت هنرى دى كاسترى ترجمة للرحوم أحمد فتحي زغلول باشا :
« إن محمداً ما كان ليقرأ أو ليكتب بل كان - كما وصف نفسه مراراً - نبياً أمياً ، وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه . ولا شك أنه يستحيل على رجل فى الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان ، على أن القراءة والكتابة كانت معدومة فى ذلك الحين من تلك الأقطار الخ » .
ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً احتاج إلى كتاب يكتبون له وقد ذكرهم الحافظ أبو القاسم فى تاريخ دمشق ، وروى ذلك كله بأسانيدهم وهم :

أبو بكر الصديق . وعمر بن الخطاب . وعثمان وعلى . والزيير . وأبي بن كعب بن قيس وزيد بن ثابت . ومعاوية بن أبي سفيان . ومحمد بن مسلمة . والأرقم بن أبي الأرقم وأبان بن سعيد بن العاص وأخوه خالد بن سعيد وثابت بن قيس . وحنظلة بن الربيع . وخالد بن الوليد . وعبد الله بن الأرقم . وعبد الله بن زيد بن عبد ربه . والعلاء بن عتبة . والمغيرة بن شعبة . والسجل . وزاد غيره شرحبيل بن حسنة . وقالوا وكان أكثرهم كتابة زيد بن ثابت ومعاوية رضى الله عنهم .

وسبأنى فى غزوة أحد أن العباس كان بمكة وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً يخبره بجمع قريش وخروجهم . فلما جاء كتاب العباس وكان أرسله مع رجل من بنى غفار ، فك رسول الله ختمه ودفعه لأبي بن كعب فقرأه عليه فاستكتم أياً^(١) .

فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف القراءة لما دفع كتاباً يحوى أخباراً سرية إلى أحد لقراءته .
قال زيد بن ثابت رضى الله عنه : كنت جار رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان إذا نزل عليه الوحي بعث إلى فكاتبته له .

وذكر ابن ماكولا أن تميم بن جراشة وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه أنه قال : قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم فى وفد ثقيف . فأسلمناه وسألناه أن يكتب لنا كتاباً فيه شروط فقال اكتبوا ما بدا لكم

(١) راجع السيرة النبوية لهطلان . الجزء الأول ٢٥٨ طبعة المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٥ هـ

ثم اتفوني به فسألناه في كتابنا أن يحلّ لنا الربا والزنا فأبى عليّ أن يكتب لنا فسألنا خالد بن سعيد بن العاص فقال له عليّ: تدرى ما تكتب؟ قال أكتب ما قالوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بأمره . فذهبنا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال للقارئ اقرأ . فلما انتهى إلى الربا قال : ضع يدي عليها فوضع يده فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ الآية . ثم محاه وألقت علينا السكينة فما راجعناه فلما بلغ « الزنا » وضع يده عليها وقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّناَ إِنَّه كَانَ فَاحِشَةً ﴾ الآية ثم محاه وأمر بكتابنا أن ينسخ لنا ^(١) .

وقد زعم بعضهم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتلو الكتب الدينية القديمة ومنها استقى معلوماته ، وهذا الزعم لا أساس له ، إذ لم يمكن في جزيرة العرب كتب دينية باللغة العربية في ذلك الوقت . ومن المؤكد أنه ما كان يعرف أى لغة من اللغات الأجنبية .

وقد قيل أيضاً إنه صلى الله عليه وسلم اقتبس بعض تعاليم المسيحية أثناء سفره إلى الشام عند ما كان يتاجر ، وبديهي أن التاجر للعربي الذي لا يعرف اللغة الآرامية واليونانية كان يتعذر عليه الحصول على معلومات دينية من مسيحي الشام . أما الذين كانوا يتكلمون العربية من هؤلاء المسيحيين فقد كانوا جهالاً أميين . وأما ما قيل من أن ورقة بن نوفل ترجم جزءاً من الكتب المسيحية إلى العربية فغير محتمل بامرة ^(٢) ومع ذلك يزعم درمنغم في كتابه « حياة محمد » أن ورقة ترجم الأنجيل إلى العربية وهذا زعم لا أساس له إنما هو مجرد ظن .

فالمستشرقون الذين زعموا أن رسول الله كان يعرف القراءة والكتابة غضوا الطرف عن الآيات التي صرحت بأنه كان أمياً . ذلك لأنهم وجدوا أن القرآن معجز ويحتوي على قصص للماضين وعلى شريعة عظيمة فقت كل الشرائع وفيه عظات باللغة وحكم وأمثال رائعة وأن أبناء هذا العصر مع تقدم العلوم والفنون وانتشار الجامعات لم يستطيعوا أن يضعوا شريعة للناس كالشريعة الإسلامية ولا آداباً وأخلاقاً كالآداب والأخلاق الواردة في القرآن ، فهم لهم الأمر وتحيروا وقالوا في أنفسهم من أين جاء لمحمد (صلى الله عليه وسلم) هذا العلم كله ، وكيف كان أمياً ؟ فإن قيل لم هذا دليل على نبوته وأنه صلى الله عليه وسلم كان يوحى إليه ، لم يسلموا لأنهم لو سلموا بنزول الوحي عليه لزمهم التصديق برسائله تخلصاً من هذا المأزق ، ونفوا عنه الأمية وقالوا إنه كان يقرأ ويكتب

(١) راجع أسد الغابة الجزء الأول « تميم بن جراحة » .

(٢) راجع الجزء الثاني من كتاب تاريخ القرون الوسطى لجامعة كامبردج ص (٣٠٥ ، ٣٠٦) .

ويتلو الكتب القديمة ولما وجدوا أن التاريخ لا يساعدهم على هذا الزعم لأن معاصريه صلى الله عليه وسلم أقرؤا أنه كان أمياً وأن ذلك يطابق ما جاء في القرآن ، قال قائلهم إنه كان يخفى أمره ويحكم عن الناس (وعن الناس جميعاً حتى عن زوجاته وأولاده وجميع أصحابه !) علمه بالقراءة والكتابة . وهذا قول مصحك لأن الذي يقرأ ويكتب لا بد أن يراه أحد بل يراه كثير من الناس ، فإن هذا أمر لا يمكن إخفاؤه كالأكل والشرب . هذه هي الحقيقة وهذا ما نفتقد وما يجب أن يعتقده كل باحث في السيرة المحمدية .
والشريعة الإسلامية .

فترة الوحي^(١)

جاء في صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما^(٢) وهو يحدث عن فترة الوحي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه : بينا أنا أهشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك^(٣) الذى جاءنى بجراى جالس على كرسى بين السماء والأرض فربعت منه فرجعت^(٤) فقلت زملونى زملونى فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ^(٥) قُمْ فَأَنْذِرْ^(٦) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَتَيْبَاكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ^(٧) فَاهْجُرْ ﴾ فخمى ألوحى^(٨) وتتابع .

قال ابن إسحاق : ابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل فى شهر رمضان بقول الله تعالى : ﴿ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ . نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ حَمِّمُوا الْكِتَابِ الْآمِينَ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ اتَّخَذَ الْأَجْمَعُونَ ﴾ وذلك ملحق رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركون ببدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان .

ولما فتر الوحي حزن النبي صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس الجبال فكلمه أوفى على

(١) فترة الوحي : احتباس الوحي عن النزول .

(٢) توفى جابر بعد أن عمى سنة أربع وسبعين وهو آخر الصحابة موتاً بالمدينة وله فى البخارى تسعون حديثاً .

(٣) جبريل (٤) إلى أهلى بسبب الرعب . (٥) التدبير والزميل بمعنى واحد .

(٦) اقتصر على الإنذار لأن التدبير لما يكون من دخل فى الإسلام ولم يكن إذ ذاك من دخل فيه .

(٧) الأوثان . (٨) كثر نزول الوحي بعد هذه الآية .

ذروة جبل لسكى يلقى نفسه منه تبدي له جبريل فقال يا محمد إنك رسول الله حقاً . فيسكن لذلك جأشه وتقرن . وكانت مدة فترة الوحي ثلاث سنين كما جزم به ابن إسحاق ثم نزل عليه جبريل بسورة الضحى يقسم له ربه ، و الذى أكرمه بما أكرمه به ، ماودعه وما قللاه ، فقال تعالى :

﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ، وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى . وَلَسَوْ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ يعرفه الله ما قطعه قطع للودع وما أبغضه .

روى أن الوحي لما تأخر عنه قال للمشركون إن محمداً ودعه ربه وقللاه فنزلات ردوا عليهم : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ فإنها باقية خالصة من الشوائب وهذه فانية مشوبة بالمضار .

أول من آمن به

أول من آمن به من الرجال البالغين الأحرار أبو بكر ، ومن الصبيان علي ، ومن النساء خديجة ، ومن المو زيد بن حارثة ، ومن العبيد بلال بن رباح الحبشى .

قال أهل الأثر وعلماء السير إن أول الناس إيماناً به صلى الله عليه وسلم على الإطلاق خديجة رضى الله عنه وصلى رسول الله معها آخر يوم الاثنين وهو أول يوم من صلاته وكانت الصلاة وقتئذ ركعتين بالنساء وركعتين بالمشى .

وكان علي بن أبى طالب رضى الله عنه لم يبلغ الحلم حين أسلم وكان ابن عشر سنين وكان عند النبي صلى عليه وسلم قبل أن يوحى إليه يطعمه ويقوم بأمره وهو أصغر إخوته وسيأتى سبب إسلامه رضى الله عنه فى ترجمة حياته . .

وأول من أسلم من النساء بعد خديجة أم أيمن وأم الفضل زوج العباس وأسماء بنت أبى بكر وأم جبر فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب .

أبو بكر الصديق

وإسلامه

هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى القرشي التيمي .

ولد أبو بكر سنة ٥٧٣ م وهو أول الخلفاء وأمه أم الخير سلى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، وهي ابنة عم أبي قحافة وهو صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار وفي الهجرة والخليفة بعده . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروى عنه عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وحذيفة وزيد بن ثابت وغيرهم . وقبل اختلاف في اسمه قيل كان عبد الكعبة فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله . وقيل إن أهله سموه عبد الله ولا يبعد ذلك لأن التسمية بعبد الله كانت موجودة قبل الإسلام ويقال له عتيق أيضاً . واختلفوا في السبب الذي قيل له لأجله « عتيق » فقال بعضهم قيل له عتيق لحسن وجهه وجماله . قاله الليث بن سعد وجماعة معه . وقال الزبير بن بكار وجماعة معه إنما قيل له عتيق لأنه لم يكن في نسبه شيء يعاب به . وقيل إنما سمي عتيقاً لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أنت عتيق الله من النار » وعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له « أنت عتيق من النار » فيومئذ سمي عتيقاً . وقيل له « الصديق » أيضاً . قالت عائشة رضي الله عنها : لما أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى أصبح يحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كان قد آمن وصدق وفتنوا به ، فقال أبو بكر إني لأصدقكم فيها هو أبعد من ذلك . أصدقه بخبر السماء غدوة أو روحة . فلذلك سمي أبو بكر الصديق ، وقال أبو محجن الثقفي :

وسميت صديقاً وكل مهاجر سواك يسمى باسمه غير منكسر

سبقت إلى الإسلام والله شاهد وكنت جليساً في العرش المشهر

وكان رضي الله عنه صديقاً لرسول الله قبل البعثة وهو أصغر منه سنّاً بثلاث سنوات ، وكان يكثر غشيانته في منزله ومحادثته وقيل كنى بأبي بكر لا بشكاره الخصال الحميدة فلما أسلم آزر النبي صلى الله عليه وسلم في نصر دين الله تعالى بنفسه وماله وكان له لما أسلم أربعون ألف درهم أنفقها في سبيل الله مع ما كسب من التجارة . قال تعالى : ﴿ وَسَيَجْزِيهَا الَّذِي يُوْفِّي مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ وقد أجمع المفسرون على أن المراد منه أبو بكر ؛ قال الفخر الرازي ردّاً على من قال إنها نزلت في حق علي رضي الله عنه :

« ولما ذكر ذلك بعضهم في محضرى قلت أقيم الدلالة العقلية على أن المراد من هذه الآية أبو بكر .
وتقريرها أن المراد من هذا الأتى هو أفضل الخلق فإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد هو أبو بكر فهاتان
المتقدمتان متى صحتا صح للقصود إلى أن قال - لأن الأمة مجمعة على أن أفضل الخلق بعد رسول الله إما أبو بكر
أو على - ولا يمكن حمل هذه الآية على علي بن أبي طالب فتعين حملها على أبي بكر . وإنما قلنا لا يمكن حملها على
علي بن أبي طالب لأنه قال في صفة هذا الأتى « وما لأحد عنده من نعمة تجزى » وهذا الوصف لا يصدق على
علي بن أبي طالب لأنه كان في تربية النبي صلى الله عليه وسلم ولأنه أخذه من أبيه وكان يطعمه ويسقيه ويكسوه
ويربيه وكان الرسول منما عليه نعمة يجب جزاؤها . أما أبو بكر فلم يكن للنبي عليه السلام عليه نعمة دنيوية بل
أبو بكر كان ينفق على الرسول عليه السلام . بل كان للرسول عليه السلام عليه نعمة الهداية والإرشاد إلى الدين
إلا أن هذا لا يجزى لقوله تعالى : « ما أسألكم عليه من أجر » والمذكور هاهنا ليس مطلق النعمة بل نعمة
تجزى فعلنا أن هذه الآية لا تصالح لعللى رضى الله عنه ،

كان أن أبو بكر رضى الله عنه من رؤساء قريش في الجاهلية محبباً فيهم مؤلفاً لهم وكان إليه الأشتاق في
الجاهلية^(١) كان إذا حمل شيئاً صدقته قريش وأمضوا حملته وحالة من قام معه وإن احتملها غيره خذله ولم
يصدقوه فلما جاء الإسلام سبق إليه وأسلم على يده جماعة لمحبتهم له وميلهم إليه حتى إنه أسلم على يده خمسة من
العشرة وقد ذهب جماعة إلى أنه أول من أسلم . قال الشعبي سألت ابن عباس من أول من أسلم ؟ قال أبو بكر ،
أما سمعت قول حسان :

إذا تذكرت شجواً من أخى ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعل
خير البرية ألقاها وأعد لها بعد النبي وأوقاها بما حملا
والثاني التالى الحمود مشهده وأول الناس قدماً صدق الرسلا

وكان أعلم العرب بأنساب قريش وما كان فيها من خير ونسب وكان تاجراً ذا نروة طائلة وكرماً حسن المجالس
عالمًا بتعبير الرؤيا ، وأما أسلم جعل يدعو الناس إلى الإسلام . قال ابن إسحاق باننى أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبرة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر رضى الله عنه ما علم
عنه حين ذكرته له أى أنه بادر به . ونزل فيه وفي عمر « وشاورهم فى الأمر » فكان أبو بكر بمنزلة الوزير
من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يشاوره فى أموره كلها ولما اشتد أذى كفار قريش لم يهاجر إلى
الحبشة مع المهاجرين بل بقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجر معه إلى المدينة تاركاً عياله وأولاده

وأقام معه في الغار ثلاثة أيام . قال الله تعالى : ﴿ تَائِيْ اٰثْنَيْنِ اِذْ هُمَا فِي الْغَارِ اِذْ يَقُوْلُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ اِنَّ اِلٰهَ مَعَنَا ۝ ﴾ .

ولما كانت الهجرة جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر وهو نائم فأيقظه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أذن لي في الخروج قالت عائشة فلقد رأيت أبا بكر يبكي من الفرح ، ثم خرجا حتى دخلا الغار فأقاما فيه ثلاثة أيام . قال تعالى : ﴿ اِلَّا تَنْصُرُوْهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّٰهُ اِذْ اَخْرَجَهُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا تَائِيْ اٰثْنَيْنِ اِذْ هُمَا فِي الْغَارِ اِذْ يَقُوْلُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ اِنَّ اِلٰهَ مَعَنَا ۝ ﴾ سورة التوبة .

وقد دلت هذه الآية على فضيلة أبي بكر لأن رسول الله لولا ثقته التامة بأبي بكر لما استصحبه في هجرته واستخلصه لنفسه وكل من سوى أبي بكر فارق رسول الله وأنه تعالى سماه ثاني اثنين . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرمه ويحبه ويعرف أصحابه مكانه ويثني عليه في وجهه ، واستخلفه في الصلاة وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرأ وأحداً والخندق وبيعة الرضوان بالحديبية وخيبر وفتح مكة وحنيناً والطائف وتبوك وحجة الوداع .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً » ، ودفع أبو بكر عقبة ابن أبي معيط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خنق رسول الله وهو يصلي عند الكعبة خنقاً شديداً وقال : « يا قوم أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » وأعتق أبو بكر سبعة كانوا يمدبون في الله تعالى منهم بلال وعاصم بن فهيرة . وكان أبو بكر إذا مدح قال « اللهم أنت أعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعاني خيراً مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون » وهذا من تواضعه رضي الله عنه ، وما يدل على قوة إرادة أبي بكر ما قاله أبو السفر وهو : دخلوا على أبي بكر في مرضه فقالوا يا خليفة رسول الله ألا ندعوك طبيباً ينظر إليك ؟ قال : قد نظر إلى . قالوا : ما قال ؟ قال : « إني فعّال لما أريد » .

قال عمر رضي الله عنه : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ووافق ذلك ما لا عندي فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته ، فحُت بنصف مالي . فقال : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت مثله . وجاء أبو بكر بكل ما عنده فقال يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك ؟ قال أبقيت لهم الله ورسوله . قلت لا أسبقه إلى ذيء أبداً .

ومن أخبار تواضعه رضي الله عنه أنه كان يحلب للحج أغنامهم ، فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحج : الآن لا يحلب لنا منائحننا ، فسمعها أبو بكر فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لكم وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه ، فكان يحلب لهم ، فربما قال للجارية أتحيين أن أرشي لك أو أن أصرح ؟ فأى ذلك قالت فمل .

والآن يقولون إننا في عصر المدنية والديمقراطية ومع هذا تجد الموظف الصغير يأنف أن يكلم الناس أو يقضى حوائجهم .

وعن سالم بن عبيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد مرضه أغمى عليه فلما أفاق قال : مروا بلالا فليؤذن ومروا أبا بكر فليصل بالناس ؟ قال ثم أغمى عليه فقالت عائشة إن أبي رجل أسيف فلو أمرت غيره . فقال أقيمت الصلاة ؟ فقالت عائشة : يا رسول الله إن أبي رجل أسيف فلو أمرت غيره . قال : إن كن صواحبات يوسف مروا بلالا فليؤذن ومروا أبا بكر فليصل بالناس . ثم أفاق فقال : أقيمت الصلاة ؟ قالوا : نعم . قال ادعوا لي إنساناً أعتمد عليه فجاءت بريرة وإنسان آخر فانطلقوا يمشون به وإن رجليه تخطان في الأرض ، فأجلسوه إلى جنب أبي بكر فذهب أبو بكر يتأخر فحبسه حتى فرغ الناس فلما توفي - قال وكانوا قوماً أميين لم يكن فيهم نبي قبله - قال عمر : لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا . فقالوا له اذهب إلى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فادعه يعني أبا بكر . فذهبت : فوجدته في المسجد قال : فأجهشت أبكى . قال : لعل نبي الله توفي . قلت : إن عمر قال لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا . قال : فأخذ بساعدي ثم أقبل يمشي حتى دخل فأوسعوا له فأكب على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كاد وجهه يمس وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر نفسه حتى استبان أنه توفي . فقال : إنك ميت وإنهم ميتون ، قالوا يا صاحب يا رسول الله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم : فعلوا أنه كما قال .

قال ابن إسحاق توفي أبو بكر رضى الله عنه يوم الجمعة لسبع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة (٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤) وصلى عليه عمر بن الخطاب .

توفي بعد النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين وأشهر بالمدينة وهو ابن ثلاث وستين سنة . وكان أبو بكر رجلاً أبيض نحيفاً خفيف العارضين أخنى معروق الوجه غائر العينين . ناثى الجبهة . عارى الأشاجع . يحنض بالحناء والكتم ، وكان أول من أسلم من الرجال وأسلم أبواه . له ولو لديه ولولده وولدولده صحبة رضى الله عنهم ، واختلف في سبب موته . فقيل إنه مات مسموماً . وقيل إنه اغتسل في يوم بارد فحم خمسة عشر يوماً ثم مات بعدها ، وقيل إنه مات كدأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذه ترجمة حياة أبي بكر أثبتناها هنا بمناسبة إسلامه وما كان له من الشأن العظيم والقدر الرفيع ، ولأنه قد بذل المجهود في نصرة الرسول فدل بذلك على غاية الوفاء ومنتهى الإخلاص . ولم يكن - رضى الله عنه - رجلاً ضعيفاً كما ظن بعض المستشرقين ، بل كان شجاعاً وكان مع شجاعته مخلصاً لإبائى بالأهوال ويحتمل المشقات كما يستفاد من سيرته ، فبقى مع الرسول ولم يهاجر إلى الحبشة مع المهاجرين عند اشتداد أذى الكفار على المسلمين ، ولما دعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة معه بكى من فرط السرور واشترك معه في غزواته ، وهو ممن ثبت مع رسول الله

في غزوة أحد . ولما توفي النبي فقد الناس صوابهم وقال عمر : من قال : إن محمداً مات ضربته بسيفي هذا . أما أبو بكر فملك شعوره ولم يفقده وقع المصاب الجلال صوابه ، فقال : إنك ميت وإنهم ميتون ، وسيأتي تفصيل ذلك عند ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا كانت هذه مواقف ضعف وخلال وهن فأين مواطن القوة ؟ ولم نذكر هنا أعماله الجليلة في خلافته^(١) ، (راجع كتاب أبي بكر الصديق للمؤلف) .

يقول هؤلاء المستشرقون إنه كان يصدق الرسول تصديقاً أعمى وإنه كان كالنساء سريع البكاء ، وهو قول عجيب ، فكيف لا يصدق الرسول وهو يعلم أنه صادق لا يكذب ، بل هو أعلم خلق الله بصدقه عليه الصلاة والسلام لصحبته له تلك الصفة الطويلة . إن تصديقه لرسول الله في كل ما قال نتيجة الثقة به ولأجل هذه الثقة المتينة كان لا يتردد في التصديق به ، ولأجلها تحمل معه الشدائد والاضطهادات ، ولأجلها أفق أمواله كل هذا شأن العاقل الذي إذا ثبت بيقينه على أساس قوى لم يبال بما يصادفه من عقبات في سبيل نصرته الحق . أما بكاؤه عند سماع القرآن فهذا أظهر دليل على إخلاصه وتوقد ذكائه وقوة فهمه لكلام الله عز وجل إذ بقدر الفهم يكون التأثير ، وقد أجمعوا على كثرة علمه ووفور عقله وفهمه وزهده وتواضعه .

كلماته المأثورة

كان رضى الله عنه يقول :

« أ كسب الكياسة التقوى ، وأحق الحق الفجور ، وأصدق الصدق الأمانة ، وأكذب الكذب الخيانة إن العبد إذا داخله العجب بشيء من زينة الدنيا مقتته الله تعالى حتى يفارق تلك الزينة . ليتني كنت شجرة أعصد ثم تؤكل . وكان يأخذ بطرف لسانه ويقول : هذا الذي أوردني للموارد » .
وقال : « لاخير في قول لايراد به وجه الله ولا في مال لاينفق منه في سبيل الله . ولا فيمن يغلب جهله حله . ولا فيمن لا يخاف في الله لومة لائم » .

« وجدنا السكرم في التقوى والغناء في اليقين والشرف في التواضع » .

« من مقت نفسه في ذات الله ، أمنه الله من مقتته » .

« فاز بالمروءة من امتطى التفاضل ، وهان على القربى من عرف باللباج »

« إياكم والفخر . وما نغر من خاق من تراب ثم إليه يعود ، ثم يأكله الدود » .

« لاخير في خير بعده النار . ولا بشر في شر بعده الجنة » .

(١) كانت مدة خلافة أبي بكر سنتين قضى فيها على المريدن قضاء مبرما وأخضع بي عسان وبني ظب وهرم البرس ودخل جيوشه عاصمهم وتقلب على العراق وجهاز جيشاً يبلغ عدده ثلاثين ألفاً لمحاربة الروم في الشام — كل ذلك في سنتين .

على ابن أبي طالب وإسلامه

على بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد سنة ٦٠٠ - ٦٠١ بعد الميلاد وأم على فاطمة بنت أسد بن هاشم وكنيته أبو الحسن وصهر رسول الله على ابنته فاطمة وأبو السبطين. وهو أوا هاشمي ولد من هاشميين . والخليفة الرابع وأول خليفة من بني هاشم وكان حين أسلم لم يبلغ الحلم . وقال ابن إسحق إنه كان يومئذ ابن عشر سنين وكان في كفالة النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى إليه لأن قريناً أصابتهم أزه شديدة وكان أبو طالب كثير العيال قليل المال فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وضمه إليه وأخذ العيام جعفرأ وضمه إليه تخفيفاً عن أبي طالب ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه .

وسبب إسلامه أنه دخل على النبي ﷺ ومعه خديجة رضى الله عنها وها يصليان سواء . فقال : ما هذا ؟ فقال رسول الله ﷺ : دين الله الذي اصطفاه لنفسه وبعث به رسله ، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عباد والكفر باللات والعزى فقال على رضى الله عنه : هذا أمر لم أسمع به من قبل اليوم فلست بقاض أمراً حو أحدث أبا طالب . وكره رسول الله ﷺ أن يفشى سره قبل أن يستعلن أمره . فقال له يا على إذ لم تسلم فأكن هذا . فكش على ليته ثم إن الله تعالى هداه إلى الإسلام فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ فأسلم على يديه^(١) وكان على رضى الله عنه يحنى إسلامه خوفاً من أبيه إلى أن اطلع عليه وأمره بالثبات عليه فأظهره حينئذ . أ. أبو طالب فلم يرض أن يفارق دين آبائه ، وعن أنس بن مالك قال : بعث النبي ﷺ يوم الاثنين وأسلم على يو الثلاثاء . وأمره رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه ليلة خرج مهاجراً وقال : إن قريناً لم يقدوني ما رأوا فاضطجع على فراشه . وسيأتى ذكر ذلك عند الكلام على الهجرة ، ثم لحق برسول الله بالمدينة بعد قضاء ديور رسول الله ورد الودائع التي كانت عنده ، فلما وصل إليها كانت قدماء قد ورمتا من المشى وكاتتا تقطران دما فاعتنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكى رحمة لما أصاب قدميه وثقل في يديه ومسح بهما رجليه ودعا له بالعافية ف يشتكهما حتى استشهد رضى الله عنه . وشهد بدرأ وغيرها من المشاهد ، ولم يشهد غزوة تبوك لا غير لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه على أهله . وأصابته يوم أحد ست عشرة ضربة . وكان على رضى الله عنه مع شجاعة الفاتمة علماً .

واستخلف على رضى الله عنه ، وبويع بالمدينة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قتل عثمان وذلك

(١) لم يكن على رضى الله عنه حين أسلم يبلغ الحلم وكان يومئذ ابن عشر سنين وعلى ذلك لم يعبد الأصنام وقيل كان عمره ثمانى سنين .

في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة خمس وثلاثين (٢٤ يونيو ٦٥٦) .

قتله رضى الله عنه

انتدب ثلاثة نفر من الخوارج : عبد الرحمن بن ملجم المرادى وهو من حمير وعداده في بني مراد وهو حليف بني جبلة ، من كندة ، والبرك بن عبد الله التميمي ، وعمرو بن بكير التميمي ، فاجتمعوا بمكة وتعاهدوا وتعاقدوا اليقنان هؤلاء الثلاثة على بني أبي طالب ومعاوية وعمرو بن العاص ويريدون العباد منهم . قال ابن ملجم أنا لكم بعلى ، وقال البرك أنا لكم بمعاوية ، وقال عمرو بن بكير أنا أكفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا على ذلك وتعاقدوا عليه وتوافقوا ألا ينكص منهم رجل عن صاحبه الذي سمي له ويتوجه له حتى يقتله أو يموت دونه . فحددوا ليلة سبع عشرة من رمضان ثم توجه كل رجل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه . فقدم عبد الرحمن بن ملجم الكوفة فلقى أصحابه من الخوارج فكاتفهم ما يريد وكان يزورهم ويوزرونه فزار يوماً نقرأ من بني تيمم الرباب فرأى امرأة منهم يقال لها قطام بنت سخبة بن عدى بن عامر بن عوف بن ثعلبة بن سعد بن ذهل بن تيمم الرباب وكان على قتل أبائها وأخاها بالنهر وان فاعجبته نخطبها . فقالت لا أتزوجك حتى تسمى لى . فقال لاتسألين شيئاً إلا أعطيتك . فقالت : ثلاثة آلاف وقتل على بن أبي طالب . فقال : والله ماجاء بى إلى هذا المصر إلا قتل على وقد أعطيتك ماسألت : ولقى ابن ملجم شبيب بن بجرة الأشجى فأعلمه ما يريد ودعاه أن يكون معه فأجابه إلى ذلك وظل ابن ملجم تلك الليلة التي عزم فيها أن يقتل علياً في صبيحتها بناجى الأشعث بن قيس الكندى في مسجده حتى طلع الفجر . فقال له الأشعث ، فضحك الصبح فقام ابن ملجم الكندى وشبيب بن بجرة فأخذ أسيفهما ثم حاءا حتى جاسا في مقابل السدة التي يخرج منها على . فلما خرج اعترضه الرجلان فضرب الاثنان بسيفيهما ، فأما سيف ابن ملجم فأصاب جبهته إلى قرنه ووصل إلى دماغه وكان قد سن سيفه شهراً . وأما سيف شبيب فوقع في الطاق فسمع على يقول لا يفوتكم الرجل وشد الناس عليهما من كل جانب . فأما شبيب فأفلت وأخذ ابن ملجم فأدخل على على فقال « أطيبوا طعامه وألينوا فراشه فإن أعش فأنا ولى دمي عفو أو قصاص ، وإن أمت فألحقوه بى أخاصمه عند رب العالمين » ضرب على رضى الله عنه في السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين (٢٤ يناير سنة ٦٦١) واستشهد بعد ذلك بثلاثة أيام ودفن بالكوفة ليلة الأحد التاسع عشر من شهر رمضان وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر . وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة على الأصح وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر . قال على الباقر كان على آدم اللون مقبل العينين عظيمهما ذا بطن . أصابع . ربعة لا ينحضب . وقال أبو إسحاق السبيعي رأيت أبيض الرأس واللحية وكان ربما خضب لحيته . وقال أبو رجاء العطارى : رأيت علياً ربعة صمخ البطن . كبير اللحية قد ملأت صدره . أصابع شديد الصلح .

هذا وقد اقتضت في تاريخ حياة علي رضي الله عنه على هذا القدر الضروري لأن المقام لا يسمع أكثر من ذلك (راجع كتاب « الإمام علي بن أبي طالب » رضي الله عنه للؤلؤف) .

زيد بن حارثة

وإسلامه

زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد المزي . وقع في نسبه خلاف وتغيير وزيادة وقص وهو أشهر موالى رسول الله . ويقال له حب رسول الله وهبته خديجة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة وهو ابن ثمان سنين وأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبناه وذلك أن أباه قد وجد (حزن) لفقده وجداً شديداً وكان قد أخذ في السبي . فلما علم أبوه أنه بمكة قدمها ليفديه فدخل حارثة وأخوه كعب على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن عبد المطلب ، يا ابن هاشم ، يا ابن سيد قومه ! جئناك في ابنا عندك فامن علينا وأحسن إلينا في فدائيه . فقال من هو ؟ قال : زيد بن حارثة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلا غير ذلك ؟ قال ما هو ؟ قال : ادعوه وخبروه فإن اختاركم فهو لكم وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً . قال قد زدتنا على النصف وأحسن فتدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم . هذا أبي وهذا عمي ، قال : فأنما من قد عرفت ورأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترها . قال : ما أريدها وما أنا بالذي أختار عليك أحداً . أنت منى مكان الأب والعم . قال : ويحك يا زيد أختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وأهل بيتك ؟ قال نعم . ورأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أخرجه إلى الحجر فقال يا من حضر اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وأرثه . فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما وانصرفا^(١) وهاجر زيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وشهد بدر وأحداً والخندق والحديبية وخيبر وكان هو البشير إلى المدينة بنصر المؤمنين يوم بدر ، وكان من الرعاة المذكورين وزوجه رسول الله ﷺ مولاته أم أيمن فولدت له أسامة ، وتزوج زينب بنت جحش أم المؤمنين^(٢) ثم طلقها ثم تزوجها رسول الله ﷺ . وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : « لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ فإن رسول الله ﷺ لما تزوجها - يعني

(١) زيد بن حارثة من أبوين مسيحين لكنه لم يكن يعلم شيئاً عن المسيحية لأنه سبي صغيراً ووهبته خديجة للنبي قبل النبوة وهو ابن ثمان سنين .

(٢) وهي ابنة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

زينب - قالوا إنه تزوج حليمة ابنة فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ وكان زيد يقال له زيد بن محمد فأنزل الله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ الآية .

قال العلماء ولم يذكر الله عز وجل في القرآن باسمه العلم من أصحاب نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم إلا زيدا في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا ﴾ .

وآخى رسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين حمزة . وأرسله رسول الله أخيراً أميراً على الجيش في غزوة مؤتة قاتل فيها حتى قتل وذلك في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة ، وكان زيد أبيض أحمر وكان ابنه أسامة آدم شديد الأدمة (أى أسمر) .

الدعوة إلى الإسلام خفية

بعد أن نزلت سورة « يا أيها المدثر » أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى الله تعالى وتتابع الوحي . ونزل هذه السورة ابتداء رسالته صلى الله عليه وسلم فهي متأخرة عن نبوته ، وصار عليه الصلاة والسلام يدعو الناس إلى الإسلام خفية ثلاث سنين لعدم الأمر بالإظهار إلى أن أمر بإظهار الدعوة وكان من أسلم إذا أراد الصلاة ذهب إل بعض الشعاب ليستخفي بصلاته من الشركين حتى اطلع نفر من الشركين على سعد بن أبي وقاص وهو في نفر من المسلمين يصلون في بعض الشعاب فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون وقاتلهم فضرب سعد رجلاً منهم فشججه وهو أول دم أهرق في الإسلام . فعند ذلك دخل رسول الله ﷺ هو وأصحابه دار الأرقم مستخفين بصلاتهم وعبادتهم إلى أن أمره الله تعالى بإظهار الدين . ودار الأرقم هي دار للأرقم بن أبي الأرقم من السابقين في الإسلام وهي في أصل الصفا .

وقد أسلم من الصحابة بدعاء أبي بكر : عثمان بن عفان . والزبير بن العوام . وعبد الرحمن بن عوف . وسعد بن أبي وقاص . وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا^(١) وهنا يجب أن نذكر شيئاً عنهم لرفعة شأنهم :

١ - عثمان بن عفان هو الخليفة الثالث . هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ويقال له ذو النورين لأنه تزوج بنتي رسول الله ﷺ رقية ثم أم كلثوم بعد وفاة رقية . ولد في السنة السادسة بعد الفيل وقتل شهيداً يوم الجمعة لثمان عشرة خلون من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وهو ابن ٨٢ سنة وكانت خلافته ثنتي عشرة سنة . وفي زمنه كانت غزوة الإسكندرية ثم ساور ثم إفريقية ثم قبرس وإصطخر الآخرة وفارس الأولى ثم خوز وفارس الآخرة ثم طبرستان ودارا بجورد وكرمان وسجستان ثم الأسود في البحر وغيرهن ثم مرو .

(١) كان كل من أبي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عوف ، وكان الزبير جزارا وسعد بن أبي وقاص يصنع النبل .

وكان رضى الله عنه حسن الوجه رقيق البشرة كث اللحية أسمر كثير الشعر بين الطويل والقصير وكان محبباً من قريش^(١) . .

٢ - الزبير بن العوام أمه صفية بنت عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أخى خديجة بنت خويلد زوجة النبي وكان عمره حين أسلم اثنتى عشرة سنة ، وهو أحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة فى أحدهم : عثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف . هاجر الزبير إلى الحبشة ثم إلى المدينة وهو أول من سل سيقاً فى سبيل الله . شهد بدرأً وأحدأً والخندق والحديبية وخيبر وفتح مكة وحصار الطائف والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وشهد اليرموك وفتح مصر . وكان أسمر ربة معتدل اللحم حفيف اللحية . وكان الزبير يوم الجمل قد ترك القتال وانصرف فلقته جماعة من النوغاء قتلوه بوادى السباع بناحية البصرة وقبره هناك ، قتل فى جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وكان عمره حينئذ سبعا وستين وقيل ستاً وستين سنة .

٣ - عبد الرحمن بن عوف ولد بعد الفيل بعشر سنين قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم . أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة الذين هم أهل الشورى الذين أوصى إليهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالخلافة . هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة وشهد مع رسول الله بدرأً وأحدأً والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد . وجرح يوم أحد إحدى وعشرين جراحة وجرح فى رجله وسقطت ثنيتاه . وكان كثير الإفاق فى سبيل الله . أعتق فى يوم واحد ثلاثين عبداً . وكان كثير المال محظوظاً فى التجارة ، غنياً . وكان أبيض مشرباً بحمرة ، حسن الوجه ، رقيق البشرة أعين أهدب الأنفأر أقنى له جمة ضخمة الكفين غليظ الأصابع لاتغير بشعره . توفى سنة ثنتين وثلاثين وهو ابن ثنتين وسبعين ودفن بالبقيع .

٤ - سعد بن أبى وقاص - وكان عمره حين أسلم تسع عشرة سنة وهو أحد العشرة وأحد الستة أصحاب الشورى وهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله وأول من أراق دمأ فى سبيل الله هاجر إلى المدينة قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها . شهد مع رسول الله بدرأً وأحدأً والخندق وسائر المشاهد وكان يقال له فارس الإسلام . وأبلى يوم أحد بلاء شديداً وكان مجاب الدعوة . استعمله عمر بن الخطاب على الجيوش التى بعثها إلى بلاد الفرس ، وكان أمير الجيش الذى هزم الفرس بالقادسية وبجولاء وغنمهم وفتح مدائن كسرى وبنى الكوفة وولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه العراق . ورمى سعد يوم أحد ألف سهم . ولما قتل عثمان رضى الله عنه اعتزل سعد الفتن فلم يقاتل فى شئ من تلك الحروب . توفى سنة خمس وخمسين بقصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة ودفن بالبقيع وكان آدم طوالاً ذاهماً .

(١) راجع كتاب « عثمان بن عفان » للمؤلف .

ه — طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى وسماه رسول الله ﷺ
طلحة الخير وطلحة الجود وهو من المهاجرين الأولين لم يشهد بدرًا وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد : قتل يوم
الجلل لمشر خلون من جمادى الأولى سنة ست وثلاثين . وكان عمره أربعاً وستين سنة وقبره بالبصرة مشهور
يزار ويتبرك به .

هذا جزء يسير من تراجم الخمسة الذين أسلموا بدعاء أبي بكر ، وهم من الرجال الذين ذاع صيتهم في الإسلام
لما قاموا به من جلائل الأعمال ، وقد أسلم بعد هؤلاء أبو عبيدة الجراح واسمه عامر بن عبد الله بن الجراح
ابن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وعثمان
ابن مظعون وأخوه قدامة وعبد الله ابنا مظعون ، وعبيدة بن الحارث وسعيد بن زيد وامراته فاطمة بنت الخطاب
وأسماء بنت أبي بكر وعائشة بنت أبي بكر وهي صغيرة وخباب بن الارت حليف بنى زهرة وعمر بن أبي وقاص
أخو سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود ومسعود بن القارى وهو مسعود بن ربيعة وسليط بن عمر وأخوه
حاطب بن عمر وعياش بن أبي ربيعة بن للغيرة وامراته أسماء بنت سلامة وخنيس بن حذافة بن قيس وعامر
ابن ربيعة وعبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد بن جحش وجعفر بن أبي طالب وامراته أسماء بنت عميس وحاطب
ابن الحارث وغيرهم .

الرد على مسترمرجوليوت

قدمنا أن عثمان بن عفان قد أسلم إجابة لدعوة أبي بكر لكن الأستاذ مرجوليوت في كتابه محمد ^(١) يزعم
أن سبب إسلامه أنه كان يحب رقية بنت رسول الله ﷺ ويريد أن يتزوجها . فلما بلغه أنها خطبت لغيره
حزن وأخبر أبا بكر بما بلغه وصادف مرور رسول الله ﷺ فأسرَّ أبو بكر كلمات في أذن الرسول وبذلك انتهى
الأمر وأسلم عثمان وتزوج رقية ، ولم يذكر لنا مسترمرجوليوت المصدر الذى استقى منه هذا الخبر حتى نناقشه ونفنده
فما كل رواية يؤخذ بها ويعول عليها . ثم يمرض بعد ذلك إلى خالد بن سعيد وسبب إسلامه . فقد كان خالد من
السابقين إلى الإسلام فكان ثالثاً أو رابعاً وقيل كان خامساً في الإسلام . وسبب إسلامه أنه رأى في النوم
أنه وقف على شفير النار فذكر من سعتها ما الله أعلم به وكان أباه يدفعه فيها ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم
آخذاً بحقويه ^(٢) لا يقع فيها فزع من نومه وقال : أحلف إنها لرؤيا حق ولقى أبا بكر رضى الله عنه فذكر
ذلك له . فقال له أبو بكر أريد بك خيراً ، هذا رسول الله ﷺ فأنبئة فإنك ستقتبعه في الإسلام الذى يحجزك من

(١) Mohammed by D. S. Marglouth, 3 rd edition, Page 97

(٢) الحفوان بالكسر والفتح : الحاصرتان .

أن تقع في النار وأبوك واقع فيها فلقى رسول الله ﷺ وهو بأجباد^(١) فقال : يا محمد إلى من تدعو ؟ قال : أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضرب ولا ينفع ولا يدرى من عبده ممن لم يعبد . قال خالد فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فسر رسول الله ﷺ بإسلامه . وبعد أن ذكر مرجوليوت رؤيا خالد باختصار وتعبير أبي بكر لها وأن هذه الرؤيا كانت سبب إسلام خالد بن سعيد ، تساءل هل الناس حقيقة يحملون هكذا ؟ لكنه قال « إن فلا ماريون وميرز (Flammarion and Myers) يجهلان نعم إنهم يرون مثل ذلك » وهما من العلماء المشهورين . والمدهش أن الأستاذ مرجوليوت لا يعلم أن الناس يرون أحلاماً هكذا مع إقرار علماء النفس في أوروبا وأمريكا بذلك . والأحلام على العموم شائعة بين الناس وليست رؤيا خالد من الأحلام المستغربة حتى يشك فيها مثل مرجوليوت . أما إذا كان الشك لفرض فهذا أمر آخر .

إن الناس يرون أحلاماً يتحقق بعضها وبعضها يحتاج إلى تأويل . ويستبعد جداً أن يقص إنسان حلماً مختلفاً وليس للأحلام حدود أو ضوابط حتى يقال إن هذا حلم وهذا ليس بحلم . فلا محل لتحكم مستر مرجوليوت واستنكاره رؤيا خالد بن سعيد للنار . وهذا يوسف عليه السلام ورؤياه التي قصها على أبيه فقد تحققت بعد أربعين عاماً وما رآه الفتيان اللذان كانا معه في السجن مما ورد ذكره في القرآن فقد عبّر يوسف عليه السلام رؤياهما وتحققت حسب تعبيره ، إذ عاد أحدهما إلى مركزه السابق لدى الملك وأعدم الآخر . إلا أن مستر مرجوليوت غرضه التهم على الإسلام لا استنكار الأحلام . وهذا لا يليق بمستشرق مثله .

إيذاء المشرّكين

لأبي بكر الصديق

عبادة الأصنام مع أنها واضحة البطلان فإن العرب كانوا متمسكين بها تمسكاً شديداً لرسوخها في نفوسهم منذ زمن طويل فلا يطيقون سماع من يعيبها أو يظعن فيها بل لا يقبلون إرشاد ناصح يخاطبهم بالحسنى ويناقشهم بالعقل والبرهان . فإذا قيل لهم كيف تعبدون الحجارة التي لا تنفع ولا تضر ، ولا تبصر ولا تسمع ، ولا تعلم من يعبدها ، ومن لا يعبدها ، ثارت ثأرتهم . وقالوا : هذا ما وجدنا عليه آباءنا واعتدوا على أعز الناس لديهم وأشرفهم وأعقلهم وأسماهم أخلاقاً . فلم يكن من الحكمة وأصالة الرأي أن يجهر النبي ﷺ وأصحابه القليلون بالإسلام ويؤدوا شعائركم الدينية أمام أمة بأسرها متعصبة لدينها الوثني تعصباً أعمى .

وقد أدرك بعض أفراد بعقلهم الثاقب وفطرتهم السليمة أن قومهم في خطأ مبين فمنهم من مات وهو منكر

(١) أجباد ، محلة بمكة .

لعبادة الأصنام قبل الإسلام . ومنهم من آمن برسول الله عند ما بلغته رسالته كسلمان الفارسي أو عند ما دعاه رسول الله إلى اتباع الدين القويم كأبي بكر ، ومن أسلم بدعائه وغيرهم ولم يبالوا بما يصيبهم من سخط قومهم وإيذائهم مع ما يعلمونه من قلة عدد المؤمنين في بادئ الأمر .

فما وقع لأبي بكر رضي الله عنه من الأذية ما ذكره بعضهم كما في السيرة الحلبية أن رسول الله ﷺ لما دخل دار الأرقم ليعبد الله هو ومن معه من أصحابه سرّاً ألح أبو بكر رضي الله عنه في الظهور ^(١) قال له النبي ﷺ يا أبا بكر إنا قليل . فلم يزل به حتى خرج رسول الله ﷺ جالس ودعا إلى رسول الله . فهو أول خطيب دعا إلى الله تعالى ، فنار المشركون على أبي بكر رضي الله عنه وعلى المسلمين يضربونهم فضربوه ضرباً مبرحاً ، ووطئ أبو بكر بالأرجل وضرب ضرباً شديداً . وصار عتبة بن ربيعة ^(٢) يضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين ويحرفهما إلى وجهه حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه فجاءت بنو تميم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر إلى أن أدخلوه منزله ولا يشكون في موته . ثم رجعوا فدخلوا المسجد فقالوا والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة . ثم رجعوا إلى أبي بكر وصار والده أبو قحافة وبنو تميم يكلمونه فلا يجيب حتى آخر النهار . ثم تكلم وقال : ما فعل رسول الله ﷺ فمذلوهم فصار يكرر ذلك . قالت أمه والله ما لي علم بصاحبك . قال : اذهبي إلى أم جميل فاسأليها عنه فخرجت إليها وفات لها أن تسأل عن محمد بن عبد الله . قالت لا أعرف محمداً ولا أبا بكر . ثم قالت تريدن أن أخرج معك ؟ قالت نعم . فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر فوجدته صريعاً فصاحت وقالت : إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق . وإني لأرجو أن ينتقم الله منهم ، قال لها أبو بكر رضي الله عنه : ما فعل رسول الله ﷺ . فقالت له هذه أمك تسمع . قال فلا عين عليك منها : أي إنها لا تنفسي شرك . قالت : سالم هو في دار الأرقم . قال والله لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتى رسول الله ﷺ ، قالت أمه فأملئناه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجنا به يتسكى على حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرق له رقة شديدة وأكب عليه يغبله وأكب عليه المسلمون كذلك . قال بأبي أنت وأمي يارسول الله ما بي من بأس إلا ما نال الناس من وجهي وهذه أمي برة بولدها فعسى الله أن يستنقذها بك من النار ، فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت .

(١) هذا دليل على أن أبا بكر لم يكن ضعيفاً لأنه لو كان كذلك لما ألح في الظهور وهو يعلم عداة قريش للمسلمين ودليل على قوة إيمانه بصدق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) عتبة بن ربيعة قتله حمزة بن عبد المطلب يوم بدر كانراً .

لاشك أن المسلمين في ذلك الوقت كانوا في خطر شديد . فقد كان لا يهدأ للمشركين بال إلا إذا أساءوا إليهم ولذلك كان الاستخفاء في غاية الحكمة . وبقي المسلمون مستخفين في دار الأرقم حتى كملوا أربعين رجلا ، وكان آخرهم إسلاما عمر بن الخطاب . فلما كملوا به أربعين خرجوا وأظهروا إسلامهم .

تلك شجاعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقوة إيمانه وصدق يقينه . لقد وقف أمام المشركين وجهاً لوجه ولم يبال بكثرتهم وعرض حياته الغالية للخطر ليدعوهم إلى الحق ، إلى عبادة الله الواحد القهار ونبذ الشرك وخلق الوثنية فأصيب بشر ما يصاب به إنسان وكاد يقضى عليه ، فلما أفاق كان أول ما تلفظ به السؤال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم ترشح نفسه وتطمئن حتى رآه بعينه سالماً معافاً . فأين هذا من الذين يخالفون عقائدهم ويميلون مع الأهواء وينضمون إلى من يأنسون فيه القوة ويمنون على الباطل لناع مؤقت لا يلبث أن يزول ؟

لو كان المسلمون في بادئ أمرهم متهاونين مذبذبين لما ثبتت دعائم الإسلام وصار قوى الأركان ، منيف البنيان . بل لقبر في مهده ، لكنه ارتفع على كواهل رجال أقوياء صادقين أدهشوا العالم بأعمالهم وجهادهم حتى خضعت لهم أم الأرض ! فبمثل عمل هؤلاء فليهدد المصلحون .

إظهار الإسلام

سنة ٦١٣ م

أمر الله سبحانه وتعالى النبي صلى الله عليه وسلم أن يصدع بما جاءه منه ، وأن يدعو الناس إليه وبأمرهم به . وكان بين إخفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستناره به وبين أمر الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين من بعثته ، ثم قال الله تعالى له ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ^(١) ﴾ أي لا تبال بهم ولا تلتفت إلى لومهم إليك على إظهار الدعوة . وقال تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ^(٢) ﴾ . فصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا ^(٣) . فقال : يا معشر قريش . قسأت قريش محمد على الصفا يهتف . فأقبلوا واجتمعوا . فقالوا : مالك يا محمد ؟ قال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونني ؟ قالوا نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط . قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . يا بني عبد المطلب . يا بني عبد مناف . يا بني زهرة . حتى عدد الأنفاذ من قريش . إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً

(١) سورة الحجر .

(٢) سورة الشعراء .

(٣) مكان مرتفع في أسفل جبل أبي قيس في مواجهة الكعبة من الجهة الشرقية .

إلا أن تقولوا لا إله إلا الله . قال أبو لهب « نبأ لك سائر اليوم . ألهذا جمعنا » ؟ فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ السورة كلها . فلما سمع أبو لهب قوله ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ قال إن كان ما يقول محمد حقاً افتديت منه بمالي وولدي فنزل ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ وكان أبو لهب إذا سأله وفد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنه ساحر ومجنون لينصرفوا عنه قبل لقائه . وقد أغضبت هذه السورة أبا لهب فأظهر شدة العداوة وصار متهماً فلم يقبل قوله في رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانه خاب سعيه وبطل غرضه . وروى عن طارق الحاربي أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في السوق يقول : أيها الناس : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ورجل خلفه يرميه بالحجارة وقد أدمى عقيقه . ويقول لا تطيعوه فإنه كذاب . قلت من هذا ؟ قالوا محمد وعنه أبو لهب . أما امرأته فهي أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان بن حرب عمة معاوية فكانت أيضاً في غاية العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وترمى الشوك في طريقه .

وعن الزهري أنه قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام سرا وجهراً فاستجاب الله من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به وكفار قريش غير منكرين لما يقول . فكان إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه أنه غلام بنى عبد المطلب يكلم من السماء فكان ذلك حتى عاب آلهم التي يبيدونها وذكر هلاك آبائهم الذين مانوا على الكفر فشنقوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك وعداؤه .

وعن ابن عتبة أنه قال : لما أظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ومن معه وفشا أمره بمكة ودعا بعضهم بعضاً فكان أبو بكر يدعو ناحية سراً، وكان سعيد بن زيد مثل ذلك، وكان عثمان مثل ذلك ، وكان عمر وحمزة بن عبد المطلب وأبو عبيدة بن الجراح يدعون علانية، فغضبت قريش من ذلك وظهر منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم الحسد والبغى وأشخص به منهم رجال فبادوه وتستر آخرون وهم على ذلك الرأي إلا أنهم ينزهون أنفسهم عن القيام والإشخاص برسول الله ﷺ . وكان أهل العداوة والمباذاة لرسول الله ﷺ وأصحابه الذين يطلبون الخصومة والجلد : أبو جهل بن هشام وأبو لهب بن عبد المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن قيس بن عدى وهو ابن الغليظة ، والوليد بن المغيرة وأبي بن خلف، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والعاص بن وائل ، والنضر بن الحارث ومنبه بن الحجاج وزهير بن أبي أمية والسائب بن صيفى بن عابد ، والأسود بن عبد الأسد ، والعاص بن سعيد بن العاص ، والعاص بن هاشم وعقبة بن أبي معيط ، وأبو الأصدى الهذلي والحكم بن أبي العاص وعدى بن الحمراء . وذلك أنهم كانوا جيرانهم . والذين كانت تنتهي عداوة رسول الله ﷺ إليهم أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط . وكان عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب أهل عداوة ولكنهم لم يشخصوا بالنبي صلى الله عليه وسلم نحو قريش ولم يسلم منهم أحد إلا أبو سفيان ^(١) .

(١) راجع طبقات ابن سعد .

عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن

كان أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود ، اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ : فقالوا والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط . فن رجل يسلمهم ؟ فقال عبد الله بن مسعود^(١) : أنا . فقالوا إنا نخشاهم عليه إنما نريد رجلاً له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوه . فقال دعوني ؛ فإن الله سيمنعني ، فلما عبد الله حتى أتى للقام في الضحى وقريش في أندية حتى قام عند اللقام . فقال رافعاً صوته ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ . فاستقبلها قراء بها فتأملوا . فجعلوا يقولون : ما يقول ابن أم عبد ؟ ثم قالوا إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد . فقاموا فجعلوا يضربون في وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ . ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه . فقالوا : هذا الذي خشينا عليك . فقال : ما كان أعداء الله قط أهون علي منهم الآن ، ولئن شتمت غديتهم بمثلي غداً . قالوا حسبك قد أسمعهم ما يكرهون .

وقيل إن أبا جهل لطمه فشق أذنه وأدماه فانصرف وعينه تدمع فلما رآه النبي عليه السلام رق قلبه وأطرق رأسه مغموماً . فإذا جبريل عليه السلام يحىء ضاحكاً مستبشراً فقال يا جبريل تضحك وابن مسعود يبكي ؟ فقال : ستعلم ، فلما ظفر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ في الجهاد ، فقال عليه السلام : خذ رمحك والتمس في الجرحى من كان به رمق فاقتله فإنك تنال ثواب المجاهدين . فأخذ يطالع القتلى فإذا أبو جهل مصروع مخور ، فخاف أن تكون به قوة فيؤذيه فوضع الرمح على منخره من بعيد فطعنه^(٢) .

الضرب والشتم حيلة الجاهل المتعصبين

إن كفار قريش ، لم يفكروا في مناقشة ما يسمعون من الآيات القرآنية التي كان يتلوها رسول الله ﷺ وأصحابه ، بل كانوا يتهمونهم بالكذب تارة أو بالجنون أو بالسحر ويضربون من يجهر بالقرآن . وهذا سلاح الضعيف الجاهل . إن رسول الله كان يعيب آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ويقول : إنها أصنام صنعتوها بأيديكم وهي لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر . فتركوها واعبدوا الله خالق السموات والأرض وبيد لهم

(١) كان عبد الله بن مسعود قصيراً جداً طوله نحو ذراع خفيف اللحم دقيق الرجلين . يقال إن عبد الله سادس من أسلم . وقد هاجر الهجرتين وشهد بدرًا وأحدًا والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد مع رسول الله .

(٢) تفسير الفخر الرازي جزء ٦ ص ٥٨٥ .

صفاته وقدرته جل شأنه ، فلولاً رسوخ العقيدة الباطلة في نفوسهم ، والعقائد الباطلة القديمة ، تشل عقل معتقها ، نقول لولا رسوخ العقيدة ، لحكموا عقولهم وبادروا إلى الإيمان بالله : لكن عزّ عليهم أن يأتي رجل منهم ويتهمهم بالكفر والضلال ويعيب تلك الآلهة القديمة التي وجدوا آباءهم وأجدادهم يسجدون لها ويقدمون لها الذبائح والهدايا . فالتجأوا إلى الضرب والشتم وهذا شأن كل جاهل متعصب . ولما دخل رسول الله مكة فاتحاً وأمر بهدم تلك الأصنام التي كانوا يمتدنون أنها مقدسة لا يقدر أحد على إيصال الأذى إليها ، وهدمت بالفعل ووجد أن لا حول لها ولا قوة وقتل من كان فيها من المشعوذين ، أيقنوا أنهم كانوا في ضلال مبين فقال الرسول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ فاللهم طهر قلوبنا من الشرك وأمتنا مسلمين .

القرآن يحير أبواب العرب

تحيرت أبواب العرب في القرآن الذي نزل بانتمهم وهم أهل فصاحة وبلاغة . وخشيت قريش أن ينتشر الإسلام وينتصر النبي ﷺ بدبنه على الأصنام . فاتفقوا على إطلاق اسم على رسول الله ﷺ ينفر القبائل منه ، ويشوه سمعته ، ويكون عقبة في سبيل نشر دعوته . ذلك أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه ثمر من قريش وكان ذا سن فيهم . وقد حضر الموسم قال لهم : يامعشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم . وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه . وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً . فقالوا : فانت يا أبا عبد شمس قل وأقم لنا رأياً قل به . قال : بل أنتم قولوا أسمع . قالوا فنقول كاهن قال والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزومة الكاهن ولا سجمه^(١) قالوا فنقول مجنون قال ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته^(٢) . قالوا فنقول شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، مقبوضه ، ومبسوطه^(٣) فما هو بالشعر . قالوا فنقول ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرم فما هو بنفته ولا عتده^(٤) . قالوا فما قول يا أبا عبد شمس؟ قال والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق^(٥) . وإن فرعه لجناة^(٦) وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف

(١) الزمومة كلام خفى لا يفهم . والسجم أن يكون الكلام المنشور له نهايات كنهايات الشعر

(٢) يخنقه . يريد الاختناق الذي يصيب المجنون . والخنالج : اختلاج الأعضاء وتحركها عن غير إرادة . والوسوسة ما يلقيه الشيطان في نفس الإنسان .

(٣) هذه كلها أنواع من الشعر (٤) إشارة إلى ما كان يعمل الساحر من أن يعقد خيطاً ينفث عليه . ومنه قوله تعالى : « ومن

شمر النوائف في القصد » يعني الباحرات (٥) المذق الكثير الثعب والأطراف في الأرض .

(٦) أي فيه ثمر يجنى .

أنه باطل ، وإن أقرب القول لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، ففترقوا عنه بذلك . فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا للموسم لا يمر أحد إلا حذروه إياه . لكن النتيجة جاءت عكس ذلك فقد انتشر ذكره صلى الله عليه وسلم في بلاد العرب .

وقد كان ضماد بن نعلبة الأزدي صديقاً للنبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية . وكان رجلاً يتطرب ويرقى ويطلب العلم . فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون إن محمداً مجنون . فجاءه وقال إني راق فهل بك من شيء فأريته ؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم بقوله : « الحمد لله نحمده ونستعينه . من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد » ، فقال له ضماد أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعاد من النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً . فقال : والله لقد سمعت قول الكهنة ، وسمعت قول السحرة ، وسمعت قول الشعراء ، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات لقد بلغت ناعوس البحر^(١) فد يدك أبايكم على الإسلام فد النبي صلى الله عليه وسلم يده فبايحه وأسلم .

وهكذا أخفق مساعده وسقط إفاكهم والحسود لا يسود ، والكذب لا تقوم له قائمة فلا بد أن يسود الحق ويكتسح الباطل أملاه .

قريش تفاوض أبا طالب

في أمر رسول الله ﷺ

المفاوضة الأولى

لما رأت قريش أن أبا طالب قد قام دون النبي ﷺ ولم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشرافهم إلى أبي طالب : عتبة وشيبة ابنا ربيعة . وأبو البختري بن هشام . والأسود بن المطلب ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، والعاص بن وائل السهمي ونبيه ومنبه ابن الحجاج ، وغيرهم . فقالوا يا أبا طالب : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تحل بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه . فقال لهم أبو طالب قولا جميلا ، وردهم ردًا رقيقاً ، فانصرفوا عنه ومضى رسول الله ﷺ لما هو عليه . هذه هي المفاوضة الأولى ، لكنها لم تنم شيئاً ، إذ ظل الرسول يدعو إلى عبادة الله كما كان .

(١) هكذا جاء في رواية مسلم « ناعوس البحر » وفي غيره « قاموس البحر » وهو الصحيح كما في الروايات الأخرى . وقاموس البحر : وسطه ولبته . والمعنى بلغت غاية الغايات .

المفاوضة الثانية

ثم لما تباعد الرجال وتضاغنوا ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ فكروا في مفاوضة أبي طالب مرة أخرى . فمشوا إليه وقالوا : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا وإنا قد اشتبهناك أن ننمى ابن أخيك فلم تفعل . وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آلهتنا وآبائنا ، وتسفيه أحلامنا حتى تسكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين أو كما قالوا ، ثم انصرفوا عنه . ومعنى ذلك أنهم هددوا أبا طالب في هذه المرة وأظهروا له العداوة ، فعظم عليه فراق قومه وعداوتهم له ، ولم تطب نفسه بإسلام رسول الله ﷺ وخذلانه ، فبعث إلى رسول الله ﷺ فأعلمه بما قالت قريش ، وقال له أبق على نفسك وعلى ولا تحماني من الأمر مالا أطيق . فظن رسول الله ﷺ أن عمه قد خذله وضعف عن نصرته . فقال له « يا عماء والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه متركته » ثم بكى رسول الله ﷺ وقام . فلما ولي ناداه أبو طالب فأقبل عليه وقال : (اذهب يا ابن أخي قل ما أحببت فوالله لا أسلك لشيء أبداً) فتدبر أيها القارئ في قوة رسول الله ﷺ تلك القوة المعنوية العظيمة أمام شعب معاند وشدة تمسكه بمبدئه إلى النهاية ١١

المفاوضة الثالثة

أصر أبو طالب على الدفاع عن ابن أخيه قياماً بالواجب عليه نحو من تربى في كفاله ونشأ في بيته وعملاً بالمرءة . ولكنه مع ذلك بقي على دينه ولم يعتنق الإسلام لذلك صارت مهمته شاقة ومركزه حرجاً فأمامه قريش متعصبة لدينها وقد أغضبها قيام محمد صلى الله عليه وسلم بنشر الإسلام ومحاربة الأصنام ، وصاحب الدعوة لا يثنيه عن القيام بما أمر به سخرية ساخر أو اضطهاد مضطهد فلو أن أبا طالب أسلم لكان دفاعه أعظم وحجته أبلغ أمام العرب وأحكم ، ولكنه ظل على دين آبائه ودافع عن رسول الله ﷺ لاعتن عقيدة بل أداء لواجب القرابة . وفي هذه المرة مشوا إلى أبي طالب بعبارة بن الوليد . فقالوا : يا أبا طالب هذا حمارة بن الوليد فتى قريش وأشعرهم وأجملهم نخذه فلك عقله ونصرته فاتخذ ولدأ وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي سفه أحلامنا وخالف دينك ودين آباءك وفرت جماعة قومك تقتله فإنما رجل برجل . فقال والله لبئس ماتسو موتى ! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبداً يقال المظلم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف : لقد أنصفك قومك ومأراك تريد أن تقبل منهم شيئاً . فقال والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم على فاصنع ما بدا لك . وكل عاقل يرى أن ما عرضته قريش على أبي طالب في غاية السخف لكنهم كانوا يتلمسون الحيل للخلاص من صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم بأي حال فلما يسوا من إجابة طابعهم اشتدت قريش على من

أسلم فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم . وقام أبو طالب في بني هاشم فدعاهم إلى منع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابوا إلى ذلك .

تعذيب المسلمين

أخذت قريش تؤذي النبي ﷺ وتؤذي من آمن به حتى عذبوا جماعة من المستضعفين عذاباً شديداً يدل على مبلغ تعصبهم وقسوتهم .

فن الذين عذبوا لأجل إسلامهم بلال بن رباح الحبشي مولى أبي بكر . وكان أبوه من سبي الحبشة وأمه حامية سبية أيضاً وهو من مولدى الشراء وكنيته أبو عبد الله نصار بلال لأمية بن خلف الجحفي فكان إذا حيت الشمس وقت الظهيرة يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره ^(١) ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره ويقول لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فكان بلال وهو في هذه الحال يقول : « أحد . أحد » فرآه أبو بكر يعذب ، قال لأمية بن خلف الجحفي ألا تنقي الله في هذا المسكين ؟ قال أنت أفسدته فأقذه فقال : عندي غلام على دينك أسود أجلد من هذا أعطيك به قال : قبلت ، فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذ بلالاً فأعنته . وقيل اشتراه أبو بكر بخمس أواق . أما أمية بن خلف قتلته بلال ، واشترك معه معاذ بن عفراء وخارجة بن زيد وحبيب بن أساف . قال ابن إسحاق : أما ابنه علي قتلته عمار بن ياسر وحبيب بن أساف وذلك في موقعة بدر . ومن المدعيين - عمار بن ياسر أبو اليقظان العنسي وهو بطن من مراد . وعنس هذا أسلم هو وأبوه وأمه وأسلم قديماً ورسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم بعد بضعة وثلاثين رجلاً . أسلم هو وضمهيب في يوم واحد . وكان ياسر حليفاً لبني مخزوم فكانوا يخرجون عماراً وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حيت الرمضاء يعذبونهم بحر الرمضاء فرّ بهم النبي صلى الله عليه وسلم . قال : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » فمات ياسر في العذاب وأغلظت امرأته سمية القول لأبي جهل فطعنها في فرجها بحربة فماتت ١١ وهي أول شهيد في الإسلام وشددوا العذاب على عمار بالحرقارة وبوضع الصخر في شدة الحر على صدره تارة أخرى . قالوا لا تركك حتى تسب محمداً وقول في اللات والعزى خيراً . ففعل ففركوه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم يبكي قال : ما وراءك ؟ قال شرب يارسول الله كان الأمر كذا وكذا فقال : فكيف تجد قلبك ؟ قال أجده مطمئناً بالإيمان قال ياعمار إن عادوا فعد . فأنزل الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ .

ومنهم خبّاب بن الارت وكان إسلامه قديماً . قيل سادس ستة قبل دخول رسول الله دار الأرقم فأخذه الكفار

(١) ويكنى ذلك تعذيباً لشدة حر مكة في فصل الصيف .

وعذبه عذاباً شديداً فكانوا يعرفونه ويلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالرصف وهى الحجارة الحماة بالنار ولووا رأسه فلم يجيبهم إلى شيء مما أرادوا وهاجر وشهد الشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل الكوفة ومات سنة سبع وثلاثين . وقال على رضى الله عنه : رحمه الله إن خبأ بك أسلم راغباً وهاجر طائعاً وعاش مجاهداً وابتنى فى جسمه ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً .

ومنهم صهيب بن سنان الرومى كناه رسول الله ﷺ « أبا يحيى » قبل أن يولد له . وكان ممن يعذب فى الله فعذب عذاباً شديداً فلما أراد الهجرة منعتة قريش فاقتدى نفسه منهم بماله أجمع وجعله عمر بن الخطاب عند موته يصلى بالناس إلى أن يستخلف بعض أهل الشورى .

ومنهم عامر بن فهيرة مولى الطفيل بن عبد الله . وكان الطفيل أخا عائشة لأما أم رومان أسلم قديماً قبل دخول رسول الله دار الأرقم وكان من المستضعفين يعذب فى الله فلم يرجع عن دينه واشتراه أبو بكر وأعتقه . ولما خرج رسول الله وأبو بكر إلى القارمهاجرين أمر أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة أن يروح بنهم أبى بكر عليهم وكان يرعاها وهاجر معها إلى المدينة يخدمهما . وشهد عامر بدرًا وأحدًا وقتل يوم بدر معونة سنة أربع من الهجرة وهو ابن أربعين سنة .

ومنهم ليبة جارية بنى مؤمل بن حبيب بن كعب أسلمت قبل إسلام عمر بن الخطاب وكان يعذبها حتى تقتن ثم يدعها ويقول إني لم أدعك إلا سامة فتقول كذلك يفعل الله بك إن لم تسلم فاشترها أبو بكر فأعتقها . هذه أمثلة ذكرت ليتضح للقارئ اشتداد العذاب على هؤلاء المساكين رجالاً ونساء

ومما أصاب النبي ﷺ من الإيذاء ما قاله ابن عمر كفى البخارى : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عتبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله فلف ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه فدفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى رواية ثم قال : أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ! وفى رواية البخارى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند الكعبة وجمع من قريش فى مجالسهم إذ قال قائل منهم ألا تنظرون إلى هذا المرائى ؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعبد إلى فرثها ودمها وسلاها فيجىء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه . فانبعث أشقام فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه وثبت النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك فانطلق منطلق إلى فاطمة فأقبلت تسعى وثبت النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً حتى ألقته عليهم تسبهم . فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم عليك بقريش ، ثم سعى فقال اللهم عليك بعمر بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأممية بن خلف وعتبة بن أبى معيط وعمارة بن الوليد وقد سقطوا جميعهم صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى قليب بدر . أما عتبة بن أبى معيط فكان من أسرى بدر وأمر رسول الله بقتله .

ما عرضته قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال عتبة بن ربيعة يوماً وهو جالس في نادي قريش والنبي عليه الصلاة والسلام جالس في المسجد وحده، يأمعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكله وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنمطيه أيها شاء ويكف عنا وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرُونَ . فقالوا بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلّمه . فقام إليه عتبة حتى جالس إلى رسول الله فقال يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السّطة في العشيرة^(١) والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفّنت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم كفّرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً ننظر فيها لعلك تقبل منا بعضها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع . قال يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مآلاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مآلاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا تقطع أمراً دونك وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك رتيّاً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم . قال فاسمع مني قال : أفعل قال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حَمْ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ سورة فصلت ، ثم مضى رسول الله فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها عتبة منه أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد . ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحاف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورأيتني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة . يأمعشر قريش أطيعوني واجعلوها بي . خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه . فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فلكم ملككم وعزه عزمكم وكنتم أسعد الناس به . قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأي فيه فاصنعوا ما بدا لكم^(٢) .

(١) السطة مثل العدة بمعنى الوسط ، الخيار . قال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » .

(٢) راجع سيرة ابن هشام .

لقد ظن أبو الوليد في بادئ الأمر أن النبي ﷺ قبل ما يعرضه عليه من مال وجاه وملك فأظهر له استعداد قريش لمنحه كل ما يبغي على ألا يتعرض لدينهم ولا يدعوهم إلى ترك عبادة الأصنام . فحين ذلك لأن الإنسان ولا سيما الفقير المحتاج يطعم في المال وتفره أهبة الملك فيثبت بهما ويسعى إليهما ما وجد للسعي سبيلا ولو كان أبو الوليد عرض ذلك كله أو بعضه على غير النبي ﷺ لا غبط به واتفق مع قريش في الحال وأراح نفسه وأصحابه من العناء والإيذاء والتعذيب والتهديد بالقتل في كل وقت . ولكن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن طامحا إلى شيء من ذلك أصلا ولم يسكن في وسعه أن يتنحى عن الدعوة إلى الإسلام مهما حاولت قريش صرفه عنها . ألا ترى أنه قال لعمه أبي طالب « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . وما ذلك إلا لأن الله سبحانه قد أمره بنشر الدعوة حيث قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ وقال عز شأنه ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أى اصبر على مشاق التكاليف وأذى الشركين . فكيف بعد هذا الأمر الإلهي تخور عزيمته وتفترق قوته ولا يصبر على كل ما يصيبه من الإيذاء ؟ بل كيف يغتر بحطام الدنيا وينخدع لما تعرضه عليه قريش من ملك وجاه ومال .

ولما رأت قريش أن رسول الله قد رفض ما عرضوه عليه قالوا له يا محمد إن كنت غير قابل منا شيئا بما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيّق بداء ولا أقل ماء ولا أشد عيشا منا فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فامسّر عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا وليسط لنا بلادنا وليخرق لنا فيها أسهرا كأسيار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخا صدق فتسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألتك صدقناك وعرفنا منزلتك من الله وأنه بعثك رسولا كما تقول . فقال ما بهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من الله بما بعثني به وقد بعثكم ما أرسلت به فإن قبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم . قالوا فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جنازا وقصورا وكنوزا من ذهب ونفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق وتنافس الماعش كما نلتهمه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم . فقال لهم رسول الله ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا . وما بعثت إليكم بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا - أو كما قال - فإن قبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم . قالوا فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل . فقال رسول الله ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل . قالوا يا محمد فاعلم ربك أنا سنجالس معك ونسألك عما سألتك عنه

ونطلب منك ما نطلب فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم تقبل منك ما جئنا به ، إنه قد بلغنا أنك إنما يملك هذا رجل بالهامة^(١) يقال له الرحمن وإنا لا نؤمن بالرحمن أبداً قد اعتذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو نهلكنا . وقال قائلهم نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله . وقال قائلهم لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلاً . فلما قالوا ذلك لرسول الله قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته عائكة بنت عبد المطلب فقال يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويقبلوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تجعل لهم بعض ما يخوفهم به من العذاب فلم تفعل ثم قال له فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتى معك بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول . وإيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك !! ثم انصرف رسول الله إلى أهله حزناً أسفاً لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ولما رأى من مبادئهم إياه^(٢) .

إن هذه المطالب التي طلبتها قريش من النبي ﷺ مطالب مدهشة تدل على شدة تمنيتهم وعنادهم وعلى أنهم لا يريدون أن يؤمنوا إلا إذا شاهدوا المستحيلات ورأوا خوارق العادات ولذلك سألوا رسول الله أشياء عجيبة لا تخطر على البال بقصد تعجيزه والتشهير به فسألوه أن يغير طبيعة بلادهم فيسير الجبال ويفجر الأنهار ويحيى الموتى أو أن يجعل الله له الجنان والقصور ويعطيه الكنوز . فهذه مطالب عبادة المادة عباد الأصنام . ثم ما أسخف مأسأله عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة الذي طلب أن يتخذ النبي عليه الصلاة والسلام سلماً إلى السماء ويأتى بصك وأربعة ملائكة يشهدون معه على صحة ما يقول . ولماذا كل هذا ؟ ليؤمن عبد الله بن أبي أمية ! هذا وقد قاسى الأنبياء صلوات الله عليهم الصعاب في سبيل هداية الكفار الذين كانوا يرمونهم بالضللال والسفاهة والجنون والسحر . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فبماذا أجابوه على ذلك ؟ ﴿ قَالَ آتَاكُمْ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

ولما دعا هود عليه السلام قومه إلى عبادة الله رموه بالسفاهة والكذب . قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

(١) الهامة ويقال لها العروش باعتبار موقعها من المين كنها معترضة . فهي بين نجد وتهامة والبحرين وعمان والشعر وحضرموت وسبأ ، وهى مقام مهيبة الكذاب .

(٢) راجع سيرة ابن هشام . وسأيت ذكر إسلام عبد الله بن أبي أمية عند فتح مكة .

ولما أظهر موسى عليه السلام المعجزة وألقى العصا فاقبلت ثعباناً ادعوا أنه ساحر . قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَى
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ . قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ
هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فالتعننون لا يؤمنون مهما رأوا من الآيات اليبينات وخوارق العادات ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا
تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فهل بعد ذلك مكابرة وإصرار على
الكفر ١٩ .

حماقة أبي جهل .

لما عاد رسول الله أسفاً من عناد قومه وتشبههم بالكفر قال أبو جهل : يامعشر قريش إن محمداً قد أتى
إلا ما ترون من عيب ديننا وشم آباءنا وتسفيه آلهتنا ، وإنى أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله فإذا
سجد في صلاته فضخت به رأسه ، ومن هذا تظهر شدة عداوة أبي جهل للنبي ﷺ وهذه العداوة أخرجه عن حد
العقل فأخذ يسلك سلوك الجهال ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذ النبي من شره ونجاه من غدره .
كان أبو جهل فرعون هذه الأمة اسمه عمرو بن هشام ، قتل يوم بدر كافراً وكانت بدر في السنة الثانية من
الهجرة . قتله عمرو بن الجوح وابن عفراء الأنصاريان ، وكانا حديثين وحديثهما في الصحيح مشهور . وفي كتب
السنن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه مقتولاً قال : (قتل فرعون هذه الأمة) وقد كان سبي الخلق
فظماً غليظ القلب . فمن ذلك أنه ظلم تاجراً قدم من زبيد بثلاثة أجمال حسان فسامها منه أبو جهل بثلث أثمانها
ثم لم يسما لأجله سائماً فأكد عليه سلطته ولم ينصفه غير رسول الله لأنه لا اله إلا الله حتى ألحقه برضاه وأخذها رسول
الله فباع جليلين باليمن وأفضل بغيراً باعوه وأعطى أرامل بن عبد المطلب ثمنه . وكان وصياً على يتيماً فأكمل ماله وطرده
فاستعان اليتيم بالنبي صلى الله عليه وسلم ففشى معه ورد إليه ماله منه .
وابتاع من شخص يقال له الأراشي أجمالاً بأثمانها فلما استعان الرجل برسول الله وذكر له أنه غريب
وابن سبيل وأن أبا جهل غلبه على حقه قام معه إلى أبي جهل وضرب عليه بابه فقال من هذا ؟ قال محمد فخرج إليه
وقد امتنع لونه . فقال أعط هذا الرجل حقه فامتلأ رعباً وأعطى الرجل حقه . هذا هو أبو جهل وهذا يتي من
غلغلته وجوره وهضمه للحقوق .

وفي كتاب قاموس الإسلام الطبعة الثانية سنة ١٨٩٦ ص ٨ « إن أبا جهل كان غوراً فاجراً » .

قريش تمتحن رسول الله ﷺ

لم تكتف قريش بهذا كله بل أرادوا إحراجة عليه الصلاة والسلام بالأسئلة فبعثوا النضر بن الحارث^(١) وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما سلام عن محمد وصفا لم صفته وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء . فخرجا حتى قدما للمدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفا لم أمره وأخبراهم ببعض قوله وقالوا لهم إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاثة نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل . وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم . سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجب . وسلوه عن رجل طوآف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه . وسلوه عن الروح وما هي . فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي وإن لم يفعل فهو رجل متقول . فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة على قريش فقالا بامعشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد . قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء فإن أخبركم عنها فهو نبي وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب . وعن رجل كان طوآفا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها . وأخبرنا عن الروح وما هي ؟

فقال لهم رسول الله ﷺ أخبركم بما سألتكم عنه غداً ولم يستثن . فانصرفوا عنه فكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه وحياً ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشئ مما سألناه عنه . فشق على الرسول تأخير الوحي وما يتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبريل بسورة أصحاب الكهف فيها معانيته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سأله عنه .

قال المفسرون إن القوم لما سألوا النبي ﷺ عن المسائل الثلاث قال عليه السلام أجيبكم عنها غداً ولم يثل إن شاء الله ، فاحتبس الوحي خمسة عشر يوماً ثم نزل قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ والسبب في أنه لا بد من ذكر هذا القول - إن شاء الله - هو أن الإنسان إذا قال سأفعل الفعل الغداني غداً لم يبعد أن يموت قبل مجيء الغد ولم يبعد أيضاً لو بقي حياً أن يموت عن ذلك الفعل نتي من العوائق فإذا كان لم يقل إن شاء الله صار كاذباً في ذلك الوعد ، والكذب منفرٌ وذلك لا يليق بالأنبياء عليهم السلام .

(١) صحة نسبه : النضر بن الحارث بن علقمة بن كلفة ، بخلاف مارواه ابن إسحاق ، ثم ابن منده وأبو نعيم عن ابن إسحاق من أنه كلفة بن علقمة . وأجمع أهل السير على أنه قتل يوم بدر كافراً . قتله على بن أبي طالب .

جاء جبريل من الله عز وجل بخبر ما سأله عنه ، قال تعالى في شأن الفتية ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا كَجِبًا ﴾ وقال فيما سأله عنه من أمر الرجل الطواف ﴿ وَسَأَلُواكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ إلى آخر القصة .

وقال تعالى فيما سأله عنه من أمر الروح ﴿ وَسَأَلُواكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

وقد أيد هذه الرواية الدكتور ولفسون الإسرائيلي مدرس اللغات السامية بالجامعة المصرية ودار العلوم قال في رسالته (تاريخ اليهود في بلاد العرب) صفحة ٩٨ ما يأتي :

« وينفي بعض المستشرقين صحة هذه القصة الخطيرة دون أن يأتوا بدليل نطمئن إليه . والحق أن من العسير إنكار رواية تاريخية كانت سبباً في نزول سورة الكهف والآيات الخاصة بالروح وذى القرنين وعندنا دليل يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الرواية من المحتمل أن تكون واقعية ^(١) وهي أن في التلمود قصة مشهورة تشبه قصة أهل الكهف ومن هذه القصة أخذ أخبار اليهود الأسئلة التي وجهوها للرسول بواسطة وفد قريش . ويؤيد هذه القصة مذهبنا إليه من أنه لم يكن بمكة أحد من اليهود ؛ إذ لو وجد منهم في مكة ما أوفد قريش وفدهم إلى المدينة لیسألوا أخبار اليهود عن شأن النبي وإذا وجد منهم أحد فلا بد أن يكون غير عالم » .

وأُنزل الله عليه ﷺ فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وبعث من مضى من آياتهم من اللوتى ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْقُرْآنُ عَلَى السَّمَاءِ لَفَلَدَّ بِهَا السَّمَاءُ وَرَأَى الْبَشَرُ نَجْمًا ﴾ من اللوتى ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْقُرْآنُ عَلَى السَّمَاءِ لَفَلَدَّ بِهَا السَّمَاءُ وَرَأَى الْبَشَرُ نَجْمًا ﴾ أى لا أصنع من ذلك إلا ما شئت .

وأُنزل عليه في قولهم خذ لنفسك ما سأله أن يأخذ لنفسه أن يجعل له جناتاً وقصوراً وكنوزاً ويبيع مملكتاً بصدقه بما يقول ويرد عنه ، ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُبَلِّغُنَا إِلَيْهِ كَلِمَاتِهِمْ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ

(١) قوله من المحتمل أن تكون واقعية - تعبير ضعيف لأنه يرد على المستشرقين الذين أنكروا هذه الرواية بلا بينة ويشبهها بأنها لها شبهة في التلمود فكان الأجدر به أن يقول « إنها واقعية » ولا بد أن نذكر أن الأستاذ مرجوليوت أنكر صدور هذه الأسئلة من اليهود وعدا ذلك فقد أخطأ وقال : « الإسكندر الأكبر » بدلا من ذى القرنين . وفرق بين الاثنين فالأول رومي والثاني عني كما أثبت ذلك المقرزي وغيره . واسم ذى القرنين الصعب بن ذى رائد بن الحارث الراش بن الهمام ذى سدد . وقد أخطأ المفسرون والمؤرخون الذين قالوا : إن ذا القرنين هو الاسكندر المقدوني .

إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ، أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا . تَبَارَكَ
الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ﴿ أَنْ تَمْشِيَ فِي الْأَسْوَاقِ وَتَلْتَمِسَ لِلْعَاشِ ﴾ ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴾ .

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِيمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمِيَّةٍ : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا
أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا
أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى
نُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾

وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِمْ إِنْ أَدْعَانَا أَنْتَ إِنَّمَا يَمْلِكُ رَجُلٌ بِالْإِمَامَةِ يُقَالُ لَهُ الرَّجْمُ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِهِ أَبَدًا ﴿ كَذَلِكَ
أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ
هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ مَتَابٌ ﴾ .

وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ فِيمَا قَالَ أَبُو جَهْلٍ وَمَاهِمٌ بِهِ : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ
عَلَى الْهَدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى . أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى كَلَّا لَئِنْ لَمْ
يَنْتَهَ لِنَسْفَعَنَّ بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ
وَاقْتَرِبْ ﴾ .

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِيمَا عَرَضُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَمَوْ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى
اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

إسلام جابر بن عبد الله

بحث الأستاذ مرحوليوت وأجهد نفسه في البحث على ما يظهر في كتابه (محمد) صفحة ١٠٦ عن الأساندة
الذين كانوا يعلمون رسول الله الكتب المقدسة فقال ما ترجمته :

« كَانَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَوْلَى بَنِي عَبْدِ الدَّارِ يَهُودِيًّا صَانِعًا فِي مَكَّةَ فَكَانَ يَجْلِسُ هُوَ وَيَاسِرُ - يَهُودِي
آخِر - يَقْرَأُ الْكِتَابَ الْقُدْسَ أَثْنَاءَ اشْتِغَالِهِمَا بِالتَّجَارَةِ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَمُرُّ عَلَيْهِمَا وَيَسْتَمِعُ مِنْهُمَا » وَمَعْنَى ذَلِكَ
حَسَبَ رَأْيِهِ أَنَّهُ كَوْنُ أَفْكَارِهِ الْخَاصَّةِ بِالتَّوْرَةِ مِنْ سَمَاعِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ يَتْلُو عَلَيْهِ لَكِنِّهِ قَالَ بَعْدُ
« إِنْ جَابِرًا اعْتَنَقَ الْإِسْلَامَ عِنْدَ سَمَاعِهِ النَّبِيَّ يَقْرَأُ سُورَةَ يُوسُفَ » فَلِذَا كَانَ جَابِرُ الْيَهُودِي قَدْ أَسْلَمَ عِنْدَ سَمَاعِهِ

قصة يوسف وهى فى التوراة التى كان يتلوها على النبى صلى الله عليه وسلم كما ادعى فلا بد أن القصة المذكورة فى القرآن بغاية الدقة والإحكام والتفصيل الدهش حتى إنها حيرت لب جابر الذى ذكره مرجوليوت كعلم لرسول الله ، على أن الأستاذ مرجوليوت اعترف بإسلام جابر لأنه مذكور فى كتب السير ، وإنا نعد إسلامه دليلاً على إيجاز القرآن الكريم وعلى أنه منزل على رسول الله . أما ياسر فقد أسلم أيضاً وعذب لإسلامه عذاباً شديداً حتى مات .

وقال الأستاذ مرجوليوت « ويُظن أن الجزء الخاص بالمسيحية فى القرآن قد تعلمه النبى من صهيبي الذى أسلم قديماً وقد كان رومياً من الموصل » وإنا نقول إن إسلام هؤلاء دليل على رسالة رسول الله وصدقته وقد أسلم صهيبي ورسول الله فى دار الأرقم وكان من المستضعفين بمكة للمؤمنين فى الله عز وجل وهاجر إلى المدينة وشهد للمشاهد كلها مع رسول الله . هذا وقد ذكرنا أن الأستاذ نولدكه اعترف بأن رسول الله ما كان يعرف الأسفار القديمة . وما قاله مرجوليوت قاله كفار فريش قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ قال الكلبي ومقاتل نزلت فى النضر بن الحارث فهو الذى قال هذا القول وأعانه عليه قوم آخرون ، يعنى عداساً مولى حويطب بن عبد العزى ويساراً غلام عامر بن الحضرمي وجبراً مولى عامر وهؤلاء الثلاثة كانوا من أهل الكتاب وكانوا يقرأون التوراة ويحدثون أحاديث منها فلما أسلموا كان النبى صلى الله عليه وسلم يتمهدم ومن أجل ذلك قال النضر ما قال .

الهجرة الأولى إلى الحبشة

شهر رجب السنة الخامسة من المبعث (سنة ٦١٥ م)

لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء والعذاب وما هو فيه من العافية لمكانه من الله عز وجل ودفاع أبى طالب عنه وأنه لا يقدر أن يمنعهم قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » ومكث هو فلم يبرح يلبس إلى الله سرّاً وجهرّاً .

وكان اسم النجاشي وقتئذ أحممة بن أبجر ، ومعنى أحممة بالعربية عطية . والنجاشي اسم لكل ملك على الحبشة وكان الأحباش مسيحيين نسطوريين فخرج المهاجرون متسللين سرّاً وذلك فى شهر رجب سنة خمس من بعد النبوة (سنة ٦١٥ م) .

وكان الذين خرجوا اثني عشر رجلاً وأربع نسوة حتى انتهوا إلى الشعيبة^(١) ، فنهزم الراكب للمثني ، ووفق الله

(١) تصغير شعبة فى مكة قبل جدة .

للمسلمين ساعة جاءوا سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة وخرجت قريش في أثرهم حتى جاءوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحداً . فكان خروجهم سرّاً .

قالوا قدمنا أرض الحبشة فجاورنا بها خير جار ، أمنا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه . وكانت الحبشة متجرراً لقريش يتجرون فيها ويمجدون فيها رزقاً وأمناً حسناً .

كان عدد المهاجرين قليلاً ولكن كان لهجرتهم هذه شأن عظيم في تاريخ الإسلام فإنها كانت برهاناً ساطعاً لأهل مكة على مبلغ إخلاص المسلمين وتفانيهم في احتمال ما يصيبهم من المشقات والخسائر في سبيل تمسكهم بعتيق دينهم . وكانت هذه الهجرة الأولى مقدمة للهجرة الثانية إلى الحبشة ثم الهجرة إلى المدينة . وهذه أسماء المهاجرين والمهاجرات : .
 عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله . أبو حذيفة بن عتبة ومعه امرأته سهيلة بنت سهيل . مصعب بن عمير . الزبير بن العوام . عبد الرحمن بن عوف . أبو سلمة بن عبد الأسد ومعه امرأته : أم سلمة . عثمان بن مظعون . عبد الله بن مسعود . عامر بن ربيعة ومعه امرأته : ليلى بنت أبي هيثم . أبو سبرة . حاطب بن عمرو . سهيل بن بيضاء وهو سهيل بن وهب .

شفاعة الغرانيق

افتراء الزنادقة على رسول الله ﷺ

روى بعض المؤرخين ونقل عنهم المفسرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى من قومه كفّاً عنه ، جالس خالياً وتمنى فقال لبيته لا ينزل عليّ شيء ينفرهم عني وقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ودنا منهم ودنوا منه فجلس يوماً مجلساً في ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ حتى بلغ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ ألقى الشيطان كلمتين على لسانه : « تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى » فتكلم رسول الله ﷺ بها ثم مضى فقرأ السورة كلها وسجد وسجد القوم جميعاً ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود ، ويقال إن أبا أحبيحة سعيد ابن العاص أخذ تراباً ورفع إلى جبهته فسجد بجايه وكان شيخاً كبيراً فبعض الناس يقول إنما الذي رفع التراب الوليد وبعضهم يقول أحبيحة ، وبعضهم يقول كلاهما فعل ذلك فرضوا بما تكلم به رسول الله وقالوا قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق . ولكن آلمتنا هذه تشفع لنا عنده وأما إذا جعلت لها نصيباً فنحن معك . فكبر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم من قولهم حتى نجاس في البيت ، فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة

(١) الغرانيق في الأصل الذكور من طير الماء واحدها غرنوق وغرنيق ، سمي به لبياضه وقيل هو الكرك . والغرنوق أيضاً الغاب الأبيض الناعم . وكانوا يزعمون أن الأصنام تهرجهم إلى الله وتشفع لهم فشبهت بالطيور التي تلو في السماء وترتفع .

قال جبريل ما جئتكم بهاتين الكلمتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قلتُ على الله ما لم يقل فأوحى الله إليه ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَإَإِلَيْكَ لَيَفْتَرِيَنَّ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخْذُوكَ خَلِيلًا﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ .

نقل هذه الرواية ابن سعد في طبقاته عن عبد الله بن حنطب . وقد قال الترمذي إن عبد الله بن حنطب لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم أخرجه الثلاثة^(١) . أما الآية التي قيل إنها نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال على الله ما لم يقل بذكره شفاعة الغرائيق وهي : ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَإِلَيْكَ﴾ الآية فلم تنزل بهذه المناسبة . فقد قال ابن عباس في رواية عطاء ، نزلت هذه الآية في وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه شططا وقالوا متعنا باللات سنة وحرم واديننا كما حرمت مكة من شجرها وطيرها ووحشها فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبههم فكرروا ذلك الالتماس وقالوا إنا نحب أن تعرف العرب فضلنا عليهم فإن كرهت ما نقول وخشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا قتل الله أمرني بذلك فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وداخلهم الطمع فصاح عليهم عمر وقال أما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٢) .

وروى صاحب الكشف أنهم جاءوا بكتابهم فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله إلى ثقيف لا يعشرون ولا يحشرون ، ولا يجبون ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قالوا للكانت أكتب ولا يجبون والكانت ينظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقام عمر بن الخطاب وسل سيفه وقال : أسعرت قلب نبينا يامعشر قريش أسعر الله قلوبكم نارا . فقالوا لسننا نكلمك إنما نكلم محمدا . فنزلت هذه الآية . وهذه القصة إنما وقعت بالمدينة فلماذا السبب قالوا إن هذه الآية مدنية .

وذكر الطبري مسألة شفاعة الغرائيق فقال : حدثني محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد اللدني عن محمد بن كعب القرظي . ثم سرد رواية محمد بن كعب القرظي بما يقارب رواية عبد الله بن حنطب التي نقلناها عن طبقات ابن سعد إلا أنه قال فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ أَلَّى الشَّيْطَانُ فِي أُمْلِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فأذهب الله عز وجل عن نبيه الحزن وآمنه من الذي كان يخاف ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم لأنها الغرائيق العالوان شفاعتهن ترجى بقول الله عز وجل حين ذكرت اللات والعزى ومناة الثلاثة الأخرى ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾^(٣) إِنْ هِيَ إِلَّا أُنْثَى سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿لِمَنْ يَشَاءُ

(١) راجع الجزء الثالث من كتاب أسد الغامة .

(٢) تفسير الفخر الرازي . (٣) أي عواها .

وَيُرْوَى فِي أَيِّ فَكَيْفٍ تَنْفَعُ شَفَاعَةُ آلِهِمْ عِنْدَهُ الْح.

أما محمد بن كعب القرظي - منسوب إلى بنى قريظة الطائفة المعروفة من اليهود - فهو تابعي توفي سنة ثمان ومائة . جاء في مهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ما يأتي :

« وما تقدم نقله عن قتيبة من أنه ولد في عهد النبي ﷺ لا حقيقة له وإنما الذي ولد في عهده هو أبوه قد ذكروا أنه من سبي قريظة ممن لم يحتلم ولم ينبت نخلوا سبيله . حكى ذلك البخاري في ترجمة محمد . قال الفخر الرازي في تفسيره الآية المتقدمة بعد أن ذكر قصة شفاعة الغرائيق : هذه رواية عامة للمفسرين الظاهريين . أما أهل التحقيق فقد قالوا : هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول . أما القرآن فمن وجوه :

أحدها - قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ وثانيها - قوله ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ .

وثالثها - قوله ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ فلو أنه قرأ عقيب هذه الآية تلك الغرائيق العلاء ، لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال . وذلك لا يقوله مسلم .

ورابعها - قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنْ آلِذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لَتُنْفِتِرَ عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَا تُخَذِّلُكَ خَلِيلًا ﴾ وكلمة كاد معناها قرب أن يكون الأمر كذلك مع أنه لم يحصل .

وخامسها - قوله ﴿ وَلَوْ لَا أَنْ مَبْتَئْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْنِهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ وكلمة لولا نفيد انتفاء الشيء لوجود غيره فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل لوجود التثبيت .

وسادسها - قوله ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ .

وسابعها - قوله ﴿ سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ .

أما السنة فهي ما روى عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال : هذا من وضع الزنادقة وصنف فيه كتاباً . .

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم في أن رواية هذه القصة مطعون فيها . وأيضاً قد روى البخاري في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والشركون والإنس والجن وليس فيها حديث الغرائيق .

وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها ألبتة حديث الغرائيق . وأما المعقول فمن وجوه :

أحدها - أن من جوز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الأوثان قد كفر لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان .

وثانيها — أنه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الأمر أن يصلي ويقرأ القرآن عند الكعبة أمناً أذى المشركين له حتى كانوا ربما مدوا أيديهم إليه وإنما كان يصلي إذا لم يحضروها ليلاً أو في أوقات خلوة وذلك يبطل قولهم .

وثالثها — أن معاداتهم الرسول كانت أعظم من أن يقرأوا بهذا القدر من القراءة دون أن يفنوا على حقيقة الأمر فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خروا سجداً مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم ؟
رابعاً — قوله : ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ وذلك لأن أحكام الآيات يلزم التمايل به الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها فإذا أراد الله لحكم الآيات لتلا بتليس .
ماليس بقرآن بالقرآن فبان يمنع الشيطان من ذلك أصلاً أولى .

وخامسها — وهو أقوى الوجوه — أنا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ فإنه لا فرق في العقل بين النقصان من الوحي وبين الزيادة فيه . فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة وكل ما في الباب أن جمعاً من المفسرين ذكروها هنا لكنهم ما بلغوا حد التواتر وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية للتواتر .

ثم ذكر الفخر الرازي تفصيلات أخرى فلتراجع . وإنما نعتقد أن هذه القصة باطلة ومندسوسة ومن وضع الزنادقة الذين يريدون بالإسلام سوءاً ومع هذا فليس من المعقول أن يعترف النبي ﷺ بشفاعة الغرائيق وهو يدعو إلى عبادة الله تعالى ويحارب الأصنام ولو كان الشيطان له سلطان عليه ﷺ بدرجة أنه على عليه ويحرك لسانه بالكفر لكان العوبة له ليس في هذه القصة قط بل في غيرها أيضاً ، والنبي معصوم من الشيطان . قال البيضاوي في تفسيره بعد ذكر قصة الغرائيق : (ثم نبه جبريل فاعتم به فعزاه الله بهذه الآية وهو مردود عند الحقيقين وإن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الإيمان عن المنزل فيه) قال إسماعيل القنوي في حاشيته : وهو مردود عند الحقيقين ، بل يجب أن يكون مردوداً عند جميع المسلمين لما عرفته من أمارات الكذب . قوله وإن صح إلح إشارة إلى منع صحته رواية لما قاله القاضي عياض في الشفاء إنه لم يوجد في شيء من الكتب المعتمدة بسند صحيح وقال إنه من وضع الزنادقة . وقال القاضي عياض إن هذا الحديث لم يخرج أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل وإنما أولع به المنسرون والمؤرخون الملونون بكل غريب .

قال ابن حزم في كتاب الملل والنحل جزء ٤ ص ٢٣ : وأما الحديث الذي فيه وأنهم الغرائيق العلأ وأن شفاعتهم لترجي فكذب بحت لأنه لم يصح قط من طريق النقل ولا معنى للاشتغال به إذ وضع الكتاب لا يسجز عنه أحد .

وقال البيهقي : رواة هذه القصة كلهم مطعون فيهم . وقال الإمام النووي نقلا عنه وأما ما يرويه الأخباريون والمفسرون أن سبب سجود المشركين مع رسول الله صل الله عليه وسلم ماجرى على لسانه من الثناء على آلهتهم فباطل لا يصح منه شيء لا من جهة النقل ولا من جهة العقل لأن مدح إله غير الله كفر ولا يصلح نسبة ذلك إلى رسول الله ﷺ ولا أن يقوله الشيطان على لسانه ﷺ ولا يصح تسلط الشيطان عليه وإلا لزم عدم الوثوق بالوحي . اهـ .

وقال الألوسي في تفسيره : « وأقبح الأقوال التي رأيناها في هذا الباب وأظهرها فساداً أنه ﷺ أدخل تلك الكلمة من تلقاء نفسه حرصاً على إيمان قومه ثم رجع عنها . ويجب على قائل ذلك التوبة ، كبرت كلمة خرجت من أفواههم إن يقولون إلا كذباً . وقريب منه ما قيل إنها كانت قرآناً منزلاً في وصف للملائكة عليهم السلام . فلما توم المشركون أنه يريد عليه الصلاة والسلام مدح آلهتهم بها نسخت . وأنت تعلم أن تفسير الآية أي قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ الخ ، لا يتوقف على ثبوت أصل لهذه القصة » .

أما معنى قوله تعالى في سورة الحجج : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ﴾ الخ الآية إن الرسل الذين أرسلهم الله تعالى ، وإن عصمهم عن الخطأ مع العلم فلم يعصمهم عن جواز السهو وسوسة الشيطان بل حالهم في جواز ذلك كحال سائر البشر . فالآية ليست بخصوص قصة الغرانيق بل هي بخصوص وسوسة الشيطان على العموم للأنبياء والرسل فالواجب ألا يتبعوا إلا فيما يفعلونه عن علم . فذلك هو الحكم . وقال أبو مسلم معنى الآية أنه لم يرسل نبياً إلا إذا تمى كأنه قيل وما أرسلنا إلى البشر ملكاً . وما أرسلنا إليهم نبياً إلا منهم وما أرسلنا نبياً خلا عند تلاوته الوحي من وسوسة الشيطان وأن يلقى في خاطره ما يضاد الوحي ويشغله عن حفظه فيثبت الله النبي على الوحي وعلى حفظه ويعلم صواب ذلك وبطلان ما يكون من الشيطان . قال وفيما تقدم من قوله ﴿ قُلْ بَشَرٌ مِثْلُ النَّاسِ ﴾ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿ ﴾ تقوية لهذا التأويل فكأنه تعالى أمره أن يقول للكافرين أما نذير لكم لكني من البشر لا من الملائكة ولم يرسل الله تعالى مثلي ملكاً بل أرسل رجالاً فقد يوسوس الشيطان إليهم .

فأمثال هذه القصص المدسوسة المكذوبة على رسول الله هي التي جعلت للطاعنين في الإسلام مجالاً للنقد وتشويه الحقائق وتقييح الحاسن ، وقد حشرت في كتبنا من غير تحقيق . وهاك دليلاً آخر على كذب هذه القصة من الوجهة التاريخية وهو :

... إن الهجرة الأولى إلى الحبشة كانت في رجب سنة خمس من النبوة وكانت السجدة في رمضان من السنة

نفسها^(١) أى قبل إسلام وعمر لأنها أسلمت في السنة السادسة^(٢) .

وقد أجمع المؤرخون على أن المسلمين قبل إسلام عمر كانوا يستنخفون في دار الأرقم ويؤدون شعائرهم الدينية في منازلهم ، وكان أصحاب النبي ﷺ لا يقدرّون أن يصلّوا عند الكعبة حتى أسلم عمر . فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلوا معه واتفقوا على تسميته « الفاروق » .

فإذا كان المسلمون قبل إسلام عمر ما كانوا يستطيعون الصلاة عند الكعبة فكيف مع هذا يقال إن رسول الله سجد عند الكعبة وسجد معه القوم جميعاً ؟؟ الحقيقة أن الرواية كذب واختلاق محض .

قال موير في الجزء الثاني من حياة محمد : إن حمزة وعمر أسلمتا في السنة السادسة من النبوة ، وقال إن المسلمين لم يعودوا يحرقون صلاتهم في منازلهم بل كانوا بعدئذ يجتمعون حول الكعبة ويصلّون وهم آمنون مطمئنون . إن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة عادوا إلى مكة بسبب ما بلغهم من تحسن الأحوال أو أنهم سمعوا إشاعة كاذبة تعامد عنهم قدموا في شوال سنة خمس إلا أنه لم يدخل أحد منهم إلا بجوار عثمان بن مظعون فإنه دخل بلا جوار ومكث قليلاً ثم أسرع الرجوع إلى الحبشة لأن المسلمين كانوا لا يزالون يضطهدون وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعيب الأصنام .

فكل هذه البراهين تؤيد أن قصة شفاعة الغرائق أو أن النبي ﷺ ذكر آلهة قريش بخير ، افتراء واختلاق ولا يمكن أن يصدق هذه القصة أحد من المؤرخين المحققين . وقد ذكرت في كتاب تاريخ القرون الوسطى للجامعة كامبردج الجزء الثاني ص (٣١٠ ، ٣١١)^(٣) باعتبار أنها صحيحة . وأنه ﷺ ندم على ما قال ونسخ ما ألقي الشيطان على لسانه ، واستنتج الكاتب أنه (عليه الصلاة والسلام) لم يكن يعتقد أنه إنما ينبع أسراً إلهياً سواء عند تلفظه بهذه الكلمات أو عند عدوله عنها . لكنه علق في الهامش بما يأتي :

« إن كثيراً من المحققين المسلمين يعتبرون هذه القصة خرافية وهذا ما كان ينتظر منهم . لكن من المدهش أن مؤرخاً غير متحيز مثل (كاتاني) ينكرها أيضاً » .

وأنا أقول لا وجه للمهشة لأن المؤرخ الذي يقدر موقفه ولا يتحيز لأحد يعترف بالحقيقة بنص النظر عن أى اعتبار آخر فإذا كان الأستاذ (كاتاني) وهو ذلك المؤرخ الإيطالي الكبير الذي يصدر المؤلفات الضخمة عن تاريخ الإسلام ينكر هذه القصة فما ذلك إلا أنه لم يرد أن يثبت إلا ما وصل إليه تحقيقه في هذه المسألة دون تحيز .

(١) راجع الجزء الأول من طبقات ابن سعد طبع ليدن سنة ١٩١٧ ص ١٣٨ .
(٢) راجع تهذيب الأسماء للنووي طبع جوتنجن ص ٤٤٩ وراجع ابن إسحاق وكتاب موير الجزء الثاني وراجع فاموس الإسلام

Dictionary of Islam p. 650

(3) Cambridge Medieval History vol 2 (1913) pp. 310-311

إسلام حمزة

حمزة بن عبد المطلب . وأمه هالة بنت وهب ، وهو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخوه من الرضاعة أرضعتها ثويبة مولاة أبي لهب . وكان رضى الله عنه أسن من رسول الله بسنتين ، وهو سيد الشهداء وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة . أسلم سنة ست من النبوة وكنيته أبو عماره وكان شجاعاً ، محارباً ، قوى الجسم ، طويل القامة .

وكان سبب إسلامه أن أبا جهل اعترض رسول الله ﷺ فأذاه وشتمه ونال منه ما يكره من العيب لدينه والتضعيف له فلم يكلمه رسول الله ﷺ وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان التيمي في مسكن لها فوق الصفا تسمع ذلك ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد قريش عند الكعبة فجالس معهم ولم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له فكان إذا رجع من قنصه لم يرجع إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحلث معهم ، وكان أعز قريش وأشدّها شكيمه وكان يومئذ مشركاً على دين قومه . فلما مر بالمؤلة وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع إلى بيته قالت له يا أبا عماره لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد من أبي الحكم آنفاً ؛ وجده ها هنا فأذاه وشتمه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد . فاحتمل حمزة الغضب فخرج سريماً لا يقف على أحد كما يصنع ، يريد الطواف بالبيت معداً لأبى جهل أن يقع به . فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها ضربة شجها بها شجة منكروة وقامت رجال من قريش من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، قالوا ما نراك يا حمزة إلا قد صبأت^(١) . فقال حمزة وما يمنعني وقد استبان لي منه ذلك . أنا أشهد أنه رسول الله ﷺ وأن الذي يقوله الحق فوالله لا أنزع فامنعوني إن كنتم صادقين . قال أبو جهل دعوا أبا عماره فإني والله لقد سبيت ابن أخيه سباً قبيحاً وثبت حمزة على إسلامه . فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا يقتولونه به ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا وأبلى فيها بلاء عظيماً مشهوراً . وقاتل يوم بدر بسيفين وشهد أحداً قتل بها يوم السبت النصف من شوال من السنة الثالثة من الهجرة بعد أن قتل من المشركين قبل أن يقتل أحداً وثلاثين نفساً وبينما كان يقاتل إذ عثر عثرة وقع فيها على ظهره فأنكشف الدرع عن بطنه فزرقه^(٢) وحشى الحبشى مولى جبير بن مطعم بحربة قتله ، ومثل به المشركون وبجمع قتل المسلمين وجعل نساء

(١) كان يقال للرجل إذا أسلم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم قد صبأ ، يمتنع أنه خرج من دين إلى دين كما تصبأ النجوم أي تخرج من مطالعها . وكانت العرب تسمى النبي صلى الله عليه وسلم الصابي لأنهم اعتبروه خارجاً من دين قريش إلى الإسلام .

(٢) زرقه : رماه بالزرق .

المشركين ، هند وصواحباتها يمدعن أنوف المسلمين وآذانهم ويقرن بطونهم ، وبقرت هند بطن حمزة رضى الله عنه فأخرجت كبده فجعلت تلوكها فلم تسفها فلفظتها . قال النبي صلى الله عليه وسلم « لو دخل بطنها لم تمسها النار » وبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رآه قتيلاً . ومع ذلك عفا رسول الله عن هند يوم الفتح . ودفن عند أحد في موضعه وكان عمره تسعا وخمسين سنة وكان حمزة أول شهيد صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عمر بن الخطاب

وسبب إسلامه

عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى وأمه حنتمة بنت هاشم . ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة . روى عن عمر أنه قال ولدت بعد الفجار الأعظم بأربع سنين ويوافق مولده سنة ٥٨١ م . وكان مديدا القامة . ناجراً مشهوراً من أشرف قريش . وكانت إليه السفارة في الجاهلية ، وذلك أن قريشاً إذا وقعت بينهم حرب أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيراً ، وإن نافروهم منافراً أو فاخرهم فافخرهم منافراً به وبعثوه منافراً ومفاخرأً ، والبعث رسول الله صل الله عليه وسلم كان شديداً عليه وعلى المسلمين . وقد ذكرنا أنه كان يعذب جارية بنى مؤمل للإسلامها فاشتراها أبو بكر وأعتقها .

إسلامه رضى الله عنه

عن ابن عباس أنه قال : « أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة ثم إن عمر أسلم فصاروا أربعين » وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر ابن الخطاب أو عمرو بن هشام » يعنى أبا جهل .

وحكى عمر عن سبب إسلامه فقال :

كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ فبينما أنا في يوم حار شديد الحر بالهجرة في بعض طارق مكة إذ لقيني رجل من قريش فقال أين تذهب يا ابن الخطاب أنت تزعم أنك هكنا وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك ؟ قال قلت وما ذاك ؟ قال أختك قد صبت ^(١) فرجعت مغضبا . وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان من طعامه ، وقد كان ضم إلى زوج أختي رجلين

(١) أخت عمر فاطمة بنت الخطاب ، أسلمت قبله هي و زوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل . وقد تقدم الكلام عن زيد وهو أحد الأربعة الباحثين عن دين إبراهيم قبل رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا غرابة إذا بدر سعيد إلى اعتناق الإسلام فإن أباه كان في الجاهلية رفض عبادة الأصنام وبحث عن خير الأديان .

فجئت حتى قرعت الباب . فقيل من هذا ؟ قلت ابن الخطاب . وكان القوم جلوساً يقرأون في صحيفة معهم . فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم فقامت المرأة ففتحت لي . قلت : يا عدوة نفسها قد بلغني أنك صباأت . قال فأرفع شيئاً في يدي فأضربها به فسال الدم فلما رأت المرأة الدم بككت ثم قالت يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل قد أسلمت . فدخلت وأنا منفضب فجلست على السرير فنظرت فإذا بكتاب في ناحية البيت . قلت ما هذا الكتاب ؟ أعطنيه . وكان عمر كاتباً . فقالت لا أعطيك ، لست من أهله . أئت لا تفتسل من الجنابة ولا تتطهر وهذا لا يحسن إلا للمطهرون . قال لم أزل بها حتى أعطتنيه . بعد أن اغتسل . فإذا فيه (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) . فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي ثم رجعت إلى نفسي فإذا فيها (سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) قال فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ثم ترجع إلى نفسي حتى بلغت (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقِذُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخَافِينَ فِيهِ) حتى بلغت إلى قوله (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) قال قلت أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه مني وحمدوا الله عز وجل ، ثم قالوا يا ابن الخطاب أبشرفان رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال : اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين إما عمرو بن هشام وإما عمر بن الخطاب . وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك فأبشروا . قال فلما عرفوا مني الصدق قلت لهم أخبروني بمكان رسول الله ﷺ . فقالوا هو في بيت في أسفل الصفا وصفوه . فخرجت حتى قرعت الباب قيل من هذا ؟ قلت ابن الخطاب ، قل وقد عرفوا شدي على رسول الله ﷺ ولم يعلموا بإسلامي فما اجتراً أحد منهم أن يفتح الباب . فقال رسول الله ﷺ : افتحوا له فإنه إن يرد الله به خيراً يهده . ففتحوا لي وأخذ رجلان بعضدي حتى دنوت من النبي ﷺ فقال أرسلوه فأرسلوني فجلست بين يديه فأخذ بجميع قبضتي فجذبني إليه . ثم قال : أسلم يا ابن الخطاب اللهم اهده ، قل قلت أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة .

وكان إسلام عمر في السنة السادسة من النبوة ، وكان في السادسة والعشرين من عمره بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام . وسماه رسول الله ﷺ الفاروق لأنه لما أسلم قال لرسول الله : ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا ؟ قال : بلى والذي نفسي بيده إنكم لعلى الحق إن متتم أو حييتم قال فقالت فقيم الاختفاء ! والذي بعثك بالحق لتخرجن ، فأخرجناه في صفتين حمزة في أحدها وأنا في الآخر حتى دخلنا المسجد فنظرت إلى قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصيبهم مثلاً ، فسماني رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم الفاروق ، وفرق بين الحق والباطل . قال عمر رضي الله عنه : لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم عداوة حتى آتته فأخبرته أني أسلمت . قال قلت أبو جهل ، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه فخرج إلى أبو جهل . فقال مرحباً ما جاء بك ؟ قال جئت لأخبرك أني آمنت

بالله وبرسوله محمد وصدقت بما جاء به . فضرب الباب في وجهي وقال : قبحك الله وقبح ما جئت به فكان إسلام عمر ضربة قاضية على أبي جهل^(١) .

ولا شك أن عمر رضى الله عنه قد أسلم لما قرأ آي الذكر الحكيم مع أنه كان قبل إسلامه يعذب جارية بنى مؤمل لإسلامها أشد العذاب بلا رحمة ولا شفقة ولا يتركها إلا إذا ملّ وكلّ ، وهذا يدل على أنه كان شديد البغض للإسلام شديد التعصب لدينه ، وقد تعدى على أخته وشجها ، ولم يكن أحد يتصور أن صاحب هذا الخلق الشديد الحائق على الإسلام والمسلمين والمعتدى على الرجال والنساء بالتعذيب والضرب يسلم بمجرد قراءته آي القرآن . نعم لم يكن أحد يتصور ذلك لكن لما كان القرآن ليس كلام البشر بل كلام الله سبحانه وتعالى كان له تأثير عجيب في النفوس ، ولا بد أن سامعه يرق قلبه مهما كان قاسياً . لذلك لم يسع عمر بن الخطاب هذا العربي الصميم إلا الاعتراف بأن ما تلاه هو كلام الله سبحانه وتعالى وليس في استطاعة البشر الإنيان بمثله فعذني بما جاء به محمد ﷺ وإن في ذلك لعبرة لأولي الأبواب . وعمر رضى الله عنه ثاني الخلفاء الراشدين وقد ضرب المثل الأعلى بعده وزهده^(٢) .

قال علي رضى الله عنه : ما علمت أحداً هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه واتنقى في يده أسهماً ، وأتى الكعبة وأشرف قريش بفنائها فطاف سبعاً ثم صلى ركعتين عند المقام ثم أتى حلقهم واحدة واحدة وقال : شأهت الوجوه ، من أراد أن تشكاه أمه ويستم ولده وترمل زوجته فليأخفني وراء هذا الوادى فاتبه أحد منهم .

ومن مناقب عمر بن الخطاب العظيمة رضى الله عنه أن الوحي نزل على وفق قوله في آيات كثيرة منها :
(١) آية أخذ الفداء عن أسارى بدر (٢) آية تحريم الخمر (٣) آية تحويل القبلة (٤) آية أمر النساء بالحجاب (٥) النهي عن القيام على قبر من مات من المنافقين .

وطعن عمر رضى الله عنه يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من شهر ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ودفن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين (يوافق سنة ٦٤٤ م) وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح المشهور .

والذى طعن عمر : المايج أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة وهو قائم في صلاة الصبح حين أحرم بالصلاة طعنه بسكين ذات طرفين فضربه في كتفه وخاصرته وقيل ضربه ضربات فقال : الحمد لله الذى لم يجعل منيى بيد رجل يدعى الإسلام . والظاهر أن المايج هذا كان مجنوناً لأنه طعن مع عمر ثلاثة عشر رجلاً . توفي منهم سبعة وعاش الباقيون ، ولما أحس أنه مقتول قتل نفسه .

(١) أبو جهل عم عمر . (٢) للمؤلف كتاب واف في سيرته رضى الله عنه .

وكانت خلافته - رضى الله عنه - عشر سنين وخمسة أشهر وواحدًا وعشرين يوماً وثبت في صحيح البخارى وغيره أنه أول من جمع الناس لصلاة التراويح فجمعهم على أبى بن كعب بن قيس رضى الله عنه ، وأجمع المسلمون في زمنه وبعده على استحبابها . وروى عن على رضى الله عنه أنه مر على المساجد في رمضان وفيها القناديل فقال : « نُورُ الله على عمر قبره كما نور علينا مساجدنا » .

قال الغزالي رحمه الله : لما ولى عمر رضى الله عنه الخلافة ، كانت له زوجة يحبها فطلقها خيفة أن تشير عليه بشقاعة في باطل فيطيعها ويطلب رضاها ، وذلك لشدة تمسكه بالعدل .

الهجرة الثانية

إلى الحبشة

لما قدم أصحاب النبي ﷺ مكة من الهجرة الأولى (بسبب إسلام عمر وإظهار الإسلام) اشتد عليهم قومهم وسطت بهم عشائرم ولقوا منهم أذى شديداً فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية . فكانت خروجتهم الآخرة أعظمها مشقة ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً ونالوم بالأذى واشتد عليهم ما بانهم عن النجاشي من حسن جواره لهم ، وتخوفوا من حماية دولة أجنبية قوية للمسلمين المهاجرين . فقال عثمان يارسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى النجاشي ولست معنا . فقال رسول الله ﷺ أنتم مهاجرون إلى الله وإلى لكم هاتان الهجرة جميعاً قال عثمان فحسبنا يارسول الله . وكان عدة من خرج في هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلاً ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية وسبعاً غرائب ، فأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشي في أحسن جوار . فلما سمعوا بمهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً ومن النساء ثمانى نسوة فأت منهم رجلان بمكة وحبس بمكة سبعة نفر .

حصار الشعب وخبر الصحيفة

(مقاطعة رسول الله وأتباعه)

لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلباً أصابوا به أمناً وقراراً وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة مع رسول الله ﷺ وجعل الإسلام ينتشر في القبائل ، اجتمعوا واتصروا أن يكتبوا كتاباً يتعاهدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا يناكحهم ولا يبايعهم ولا يخاطبهم ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل . أعنى أنهم اتفقوا وتعاهدوا على مقاطعتهم مقاطعة تامة اتصافاً منهم لإسلامهم ودفاعهم عن رسول الله ﷺ وكتبوا بذلك صحيفة توكيداً لأنفسهم

وعلقوها في جوف الكعبة هلال الحرم سنة سبع من النبوة (٦١٧ م) . وكانت الصحيفة مكتوبة بخط بنيض ابن عامر بن هاشم فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فشلت يده . وانحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبي طالب في شعبه مع بني هاشم وخرج أبو لهب إلى قريش فظاهروهم على بني هاشم وبني المطلب وقطعوا عنهم الليرة والمادة فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى بلغوا الجهد وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب . فن قريش من سره ذلك ومنهم من ساءه وقال انظروا ما أصاب بنيض بن عامر فأقاموا في الشعب ثلاث سنين حتى أنفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ماله وأنفق أبو طالب ماله وأنفقت خديجة مالها وصاروا إلى حد الضر والفاقة . ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم وأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من جور وظلم وبقي ما كان فيها من ذكر الله ، فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب فذكر أبو طالب لإخوته وخرجوا إلى المسجد . فقال أبو طالب لكفار قريش إن ابن أخي قد أخبرني - ولم يكن يكذبني - قط أن الله قد ساطع على صحيفتكم الأرضة فلحست ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم وبقي ما كان فيها من ذكر الله ، فإن كان ابن أخي صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم وإن كان كاذباً دفعته إليكم فتتلموه أو استحييتموه . قالوا: قد أنصفتنا فأرسلوا إلى الصحيفة فتتجوها فإذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقط في أيديهم ونكسوا على رؤوسهم . فقال أبو طالب علام نمحس ونحصر وقد بان الأمر ، ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة والكعبة فقال : اللهم انصرنا ممن ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل ما يحرم الله منا ثم انصرفوا إلى الشعب . وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببني هاشم وكان فيهم مطعم بن عدي وعدى بن قيس وزمعة بن الأسود وأبو البختری بن هشام وزهير ابن أبي أمية فلبسوا السلاح ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب فأمرهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا . فلما رأت قريش ذلك سقط في أيديهم وعرفوا أن لن يسلوهم وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة .

وفي سيرة ابن هشام أنهم أقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا لا يصل إليهم شيء إلا سراً مستخفياً به من أراد صلته من قريش . وقد كان أبو جهل بن هشام فيما يذكرون لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد وهي عند رسول الله ومعه في الشعب فتعلق به وقال أتذهب بالعلماء إلى بني هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، فجاءه أبو البختری وقال طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خلّ سبيل الرجل . فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه . فأخذله أبو البختری حتى بعير فضر به فشهجه ووطئه وطقاً شديداً وحزّة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك وهم بكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيشتوا بهم ، ورسول الله على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً وسمعاً وجهاراً مبادياً بأمر الله لا يتقى فيه أحداً من الناس . هذا ومن المدحش أن مرجوليوث

يقول إن أبا جهل كان مشهوراً بالعقل والذكاء^(١) ، وهل تدري لماذا أيها القارىء ؟ لأنه كان معادياً لرسول الله لأن أعماله وصفاته التي ذكرناها لا تدل على أنه كان عاقلاً ذكياً . إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو العرب إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم في دنياهم وأخراهم . كان يدعو إلى عبادة الله الواحد ، وإلى نبذ عبادة الحجارة . ومعنى ذلك أنه كان يعمل على انتشالهم من الانحطاط الديني الذي كانوا غارقين فيه ورفعهم إلى أعلى المراتب وأسمى العقائد . وعدا ذلك لقد كان عليه الصلاة والسلام يهذبهم ويعلمهم مكارم الأخلاق ويثبت في نفوسهم الآداب الاجتماعية العالية ، فهل يقال عن رجل اتصف بشدة عدوانه لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنه عاقل ! ثم إن مرجوليوت يظهر حنقه على من أساموا ولا سيما إذا كانوا من الأبطال الأشداء فيرميهم بأوصاف ذميمة منفرة^(٢) .

الطفيل بن عمرو الدوسي

شاعر يحكم عقله ويسلم

كانت قريش إذا سمعت بقدوم أحد من العرب يقابلونه ويحذرونه من رسول الله ويصفونه بكل نقیصة خشية أن يسلم ويعود إلى بلاده ويدعوهم إلى الإسلام ، لكن الطفيل بن عمرو الدوسي لم يعبأ بتحذيرهم بل حكم عقله وتقابل مع رسول الله وسمع منه القرآن ففكر فيه وتذوقه لأنه شاعر فأسلم وهذه قصته :

هو الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبد الله ابن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن نصر بن الأزد الدوسي . يلقب ذا النون .

كان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدث أنه قدم مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها فمشى إليه رجال من قريش وكان الطفيل شريفاً شاعراً لبيباً . فقالوا يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل بين أظهرنا قد أعضل بنا^(٣) ، وفرق جماعتنا وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبينه وبين زوجته ، وإنما نخشى عليك وعلى قومك فلا تكلمه ولا تسمع منه . قال فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه حتى حشوت أذني كرسفاً^(٤) ، فرقاً أن يباغني من قوله وأنا أريد أن لا أسمع . قال : فتدوت إلى المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة قال فقامت قريباً منه فأبى الله إلا أن يسمعني قوله . فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت في نفسي وائسكل أمي ، والله إنني لرجل شاعر لبيب ما ينحني على الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ إن كان الذي يأتي حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته ، فكنت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت يا محمد إن قومك قالوا لي كذا وكذا ثم إن الله أبى إلا أن أسمع قولك فسمعت قولاً حسناً فاعرض على أمرك .

(١) راجع هذا الكتاب صفحة ١٦٢ (٢) قد أعضل بنا : أى اشتد أمره (٣) الكرسف - بضم الكاف - : القطن .

فعرض على الإسلام وتلا على القرآن فوالله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه فأسلمت وقالت يارسول الله إني امرؤ مطاع في قومي وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أَدْعُوهم إليه . فقال اللهم اجعل له آية . قال : فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية تطلعي على الحاضر^(١) وقع نور بين عيني مثل المصباح فقلت اللهم في غير وجهي فإني أخشى أن يظنوها ، ثلثة لفرأى دينهم فتحوّل في رأس سوطي فجعل الحاضرون يترامون ذلك النور في سوطي كاتنديل الملق وأنا أهبط إليهم من الثنية فلما نزلت أتاني أبي وكان شيخاً كبيراً فقلت إليك عني يأب فقلت منك ولست مني . قال ولم أي بني ؟ قلت إني أسلمت . قال أي بني فديني دينك . فأسلم . ثم أتتني صاحبتني فقلت لها مثل ذلك فأسلمت . وقالت أيتخاف على من ذى الشرى ، صنم لهم - فقلت لا . أنا ضامن لذلك . ثم دعوت دوساً فأبطأوا عن الإسلام . فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فقلت يارسول الله قد غلبني على دوس الربا فادع الله عليهم . فقال اللهم اهد دوساً إلي . ارجع إلى قومك فادعهم وارق بهم ، قال فرجعت فلم أزل بأرض قومي دوساً أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وقضى بداراً وأحداً وانخلى ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي ورسول الله ﷺ بخير حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين يتناً من دوس ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخير فأسلمهم لنا مع المسلمين . ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ حتى فتح الله عز وجل عليه مكة فقلت يارسول الله ابعتني إلى ذى الكفين - صنم همرو بن حمّة - حتى أحرقه . فخرج إليه فجعل طفيل يقول وهو يجرقه وكان من خشب :

يا ذا الكفين لست من عبّادكا * ميلادنا أقدم من ميلادكا * إني حشوت النار في قوادكا

ثم رجع طفيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم^(٢).

وفاة أبي طالب

سنة ٦٢٠ م

كان أبو طالب بن عبد المطلب من أشد الناس دفاعاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن نفسه لم تطاوعه على اعتناق الإسلام وفراق دين آبائه . روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مازالت قریش كاعقة^(٣)ني حتى مات عمي وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يسلم عمه لأنه هو الذي كفله وذاد عنه إلى آخر لحظة من حياته . ولما اشتد مرضه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعم ، قلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة (يعني قل الشهادة)

(١) الثنية : الطريق في الجبل . والحاضر : القوم النازلون على الماء (٢) راجع أسد الغابة والبردة النبوية لابن هشام .

(٣) السكاعة : جمع كائع ، وهو الجبان . أراد أنهم كانوا يجنبون عن أذى النبي في حياته .

قال له أبو طالب : يا ابن أخى لولا مخافة المسبة وأن تظن قريش إنما قتلها جزءاً من الموت لقلتها فأُنزل الله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ سورة القصص . قال الزجاج أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه رسول الله أن يقول لا إله إلا الله فأبى أن يقولها خشية أن يعيره قريش على أن الذى منعه من الإسلام هو خوف اللام والشم وأنه فارق دين آبائه واتبع دين ابن أخيه وقد ربه صغيراً ، فالشهور أنه مات كافراً وكان له من الولد جعفر وعلى وعقيل وطالب وأم هانىء واسمها فاخنة وجمانة وكلهم أعقب إلا طالباً . وكان أبو طالب أعرج وتوفى بعد النبوة بعشر سنين وقبل الهجرة بثلاث سنين بالغاً من العمر نحو ثمانين سنة . وقالت الشيعة إن أبا طالب مات مسلماً .

وفى أسد الغابة - لما اشتد بأبى طالب مرضه دعا بنى عبد المطلب فقال : إنكم لن تزالوا بخير ما سمعتم قول محمد واتبعتم أمره فاتبعوه وصدقوه ترشدوا . ولما مات أبو طالب قال له رسول الله ﷺ - رحمك الله وغفر لك لا أزال أستغفر لك حتى ينهائى الله . فأخذ المسلمون يستغفرون لموتاهم الذين ماتوا وهم مشركون فأُنزل الله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ .

وفاة خديجة

سنة ٦٢٠ م

توفيت خديجة زوج رسول الله بعد أبى طالب بثلاثة أيام وقيل بأكثر من ذلك . فى شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين ولها خمس وستون سنة وكان مقامها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما تزوجها أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر ودفنها رسول الله ﷺ بالحجون ولم تكن الصلاة على الجنازة يومئذ . وحزن عليها النبي وتزل فى حفرتها . وتتابعت على رسول الله بموت أبى طالب وخديجة المصائب لأنهما كانا من أشد المعضدين له المدافعين عنه فاشتد أذى قريش عليه حتى نثر بعضهم التراب على رأسه وطرح بعضهم عليه سلى الشاة وهو يصلى (السلى الجلدة التى يكون فيها الولد) وسمى العام الذى مات فيه أبو طالب وخديجة « عام الحزن » ولم ينس رسول الله محبته لخديجة بعد وفاتها وكان دائماً يثنى عليها ولم يتزوج عليها حتى مات إكراماً لها . وقد كانت مثال الزوجة الصالحة الوفية ، فبذلت نفسها وما لها لرسول الله وصدقته حين نزل عليه الوحي .

سفرة إلى الطائف

الطائف بلدة فى الحجاز على مسافة ٦٥ ميلاً جنوباً شرقياً من مكة ، وهى مشهورة بجودة مناخها وخصب أرضها .

وفوا كهها ولا سيما العنب والبرقوق والرمان والخوخ وبها مياه جارية ويضرب بعنبها المثل في الحسن وربما جدد الماء فيها في الشتاء . والجبل الذي هي عليه يقال له (غزوان) وهي مصيف أغنياء مكة^(١) ، ومقر عبادة العزى وقديسافر إليها النبي ﷺ ثلاث بقين من شوال سنة عشر من المبعث (يناير - فبراير سنة ٦٢٠ م) ومعه مولاة زيد بن حارثة يلتبس من ثقيف النصر فعمد إلى جماعة من أنصار ثقيف ودعاهم إلى الله فقال واحد منهم : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الآخر والله لا أكلمك أبداً لأنك إن كنت رسولا من الله كما تقول لأنك أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك . وأغروا بسفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويرمونهم بالحجارة ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وأجأوه إلى حائط وقد أدموا رجليه فلما اطمأن ورجع عنه السفهاء قال عليه الصلوات والسلام : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس . اللهم يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلمني ؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع ، إني أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك » وهذا الدعاء مشهور بدعاء الطائف . فلما رأى ابنا ربيعة عتبة وشيبة مالتي رسول الله ﷺ تحركت له رحمهما فدعوا له غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس . فقالا له : خذ قطعاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال ، باسم الله . فنظر عداس إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة . قال له رسول الله ﷺ ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس وما دينك ؟ قال أنا نصراني وأنا رجل من أهل نينوى^(٢) ، فقال له رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال له وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال رسول الله ﷺ ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي . فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ وقبل رأسه بيده ورجليه . فقال ابنا ربيعة أخدما لصاحبه : أما غلامك قد أفسده عليك . فاما جاءهما عداس قالوا له : ويلك يا عداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال ياسيدي ما في الأرض خير من هذا الرجل . لقد خبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي ؟ فقالا : ويحك يا عداس لا يصرفك عن دينك فإن دينك خير من دينه . ثم إن رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يؤس من خير ثقيف فوجد قومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه إلا قليلاً مستضعفين ممن آمن به . وفي الطبري : أن بعضهم ذكر أن رسول الله ﷺ لما انصرف من الطائف مريراً مكة مر به بعض أهل مكة فقال رسول الله ﷺ : هل أنت مبلغ عني رسالة أرسلك بها ؟

(١) وكان يطلق اسم الطائف على ما اكتنمها من البلاد واسمها القديم « وج » ثم سميت بالطائف بحائطها الطيف بها . وموقعها يطم . من جبل غزوان وهو أبعد مكان في الحجاز لأن الثلج يقع أحياناً على ذروة الجبل فوق البلدة .

(٢) قرية يونس بن متى عليه السلام بالموصل .

قال : نعم . قال : ائت الأحنس بن شريق^(١) قل له يقول لك محمد هل أنت مجبرى حتى أبلغ رسالة ربى ؟ قال فأتاه فقال له ذلك . فقال الأحنس : إن الحليف لا يجبر على الصريح . فأتى النبی ﷺ فأخبره . قال : تعود ؟ قال : نعم . قال : ائت سهيل بن عمرو قل له إن محمداً يقول لك هل أنت مجبرى حتى أبلغ رسالات ربى ؟ فأتاه فقال له ذلك . فقال إن بنى عامر بن لؤى لا يجبر على بنى كعب . فرجع إلى النبی ﷺ فأخبره . قال : تعود ؟ قال : نعم . قال : أنت المظعم بن عدى قل له إن محمداً يقول لك : هل أنت مجبرى حتى أبلغ رسالات ربى ؟ قال : نعم فليدخل . فرجع إليه الرجل فأخبره ، وأصبح المظعم قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه فدخلوا المسجد . فلما رآه أبو جهل قال : أجبير أم متابع ، قال : بل مجبر . قال : قد أجرنا من أجرنا . فدخل النبی ﷺ مكة وأقام بها ، فدخل يوماً المسجد الحرام والمشركون عند الكعبة فلما رآه أبو جهل قال : هذا نبيكم يا بنى عبد مناف . قال عتبة بن ربيعة : وما تنكر أن يكون منا نبى أو ملك ؟ فأخبر بذلك النبی ﷺ أو سمعه فأتاهم فقال : أما أنت يا عتبة بن ربيعة فو الله ما حميت الله ولا لرسوله ولكن حميت لأنفك . وأما أنت يا أبا جهل فو الله لا يأتى عليك غير كبير من الدهر حتى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً . وأما أنتم يامعشر الملأ من قريش فو الله لا يأتى عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون .

ويقال إن رسول الله صلى الله وسلم أقام بالطائف عشرة أيام ، وظاهر أن الذى دعاه إلى السفر هو التماس النصرة ، ولكنهم خذلوه وما التمس النصرة من ثقيف إلا بعد أن توفى أبو طالب وخديجة . أضف إلى ذلك أن فريقاً من المسلمين هاجروا إلى الحبشة ، ولما عاد من الطائف لم يستطع دخول مكة إلا بجوار رجل كالمظعم بن عدى .

وفى رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطائف مر به نفر من جن أهل نصيبين اليمين وهو يقرأ سورة (الجن) فاستمعوا له وآمنوا به ، ولم يشعر بهم صلى الله عليه وسلم حتى نزل عليه ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ . وكانوا سبعة وقيل أكثر .

الإسراء والمعراج

سنة ٦٢١ - م

كان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، وبه جزم ابن حزم في ليلة سبع وعشرين من شهر رجب وهو المشهور وعليه عمل الناس وكان ليلة الاثنين . وكان بعد خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف .

كان الإسراء إلى بيت المقدس والمعراج إلى السموات ، وفرضت عليه في تلك الليلة الصلوات الخمس وقد ذكر

(١) هو ابن أبي شريق

الإسراء في القرآن . قال تعالى :

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

واختلف في كيفية الإسراء فالأكثر من طوائف المسلمين اتفقوا على أنه أسرى بجسد رسول الله ﷺ^(١) والأقلون قالوا إنه ما أسرى إلا بروحه . حكى عن محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن حذيفة أنه قال: ذلك رؤيا وأنه ما قد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما أسرى بروحه . حكى هذا القول أيضا عن عائشة رضي الله عنها وعن معاوية رضي الله عنه وحديث عائشة ليس بالثابت لأنها لم تكن حينئذ زوجته . قال النسفي وكان الإسراء في اليقظة . وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : والله ما قد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه . وعن معاوية مثله ، وعلى الأول الجمهور إذ لا فضيلة للحالم ولا مزية للنائم .

وافق الأكثر من طوائف المسلمين على أنه أسرى بجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصحيح . جاء في زاد للماد لابن قيم الجوزية :

« وقد نقل ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية أنهما قالا : إنما كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده ، ونقل عن الحسن البصري نحو ذلك . ولكن ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال كان الإسراء مناماً وبين أن يقال كان بروحه دون جسده وبينهما فرق عظيم . وعائشة ومعاوية لم يقلوا كان مناماً وإنما قالا أسرى بروحه ولم يفقد جسده و فرق بين الأمرين فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم في الصور المحسوسة فيرى كأنه عرج به إلى السماء أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض وروحه لم تصد ولم تذهب وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال . والذين قالوا عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم طائفتان : طائفة قالت عرج بروحه ولم يفقد جسده ، وطائفة قالت عرج بروحه ولم يفقد بدنه ، وهؤلاء لم يريدوا أن للعراج كان مناماً وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسرى بها وعرج بها حقيقة وباشرت من جنس ما تابشر به بعد للفارقة ، وكان حالها في ذلك كحالها بعد للفارقة في صعودها إلى السموات سماء سماء حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فتقف بين يدي الله سبحانه وتعالى فيأمرها بما يشاء ثم تنزل إلى الأرض ، فالتى كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء أكل مما يحصل للروح عند للفارقة . ومعلوم أن هذا الأمر فوق ما يراه النائم » الخ فالإسراء ما كان مناماً قطعاً لأنه لو كان مناماً لما كذب المشركون فإن من الناس من يرى أنه صعد إلى السماء أو قطع مسافات شاسعة لا يتصورها العقل ، وليس المنام معجزة خارقة للمادة ، والروح في المنام لا تفارق الجسم

(١) وفي الشفا للقاضي عياض : ذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفي اليقظة وهذا هو الحق وهذا قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبي هريرة ومالك بن حصص وأبي جة البدرى وابن مسعود والضحاك وسعيد بن جبيرة وقادة وابن السيب وابن شهاب وابن زيد والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج

كذلك لو كان الإسراء مناماً لصرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١)

والطبرى فى تفسيره ينكر أن الإسراء كان بالروح فقط وقد رد على من قال بذلك فقال :

« والصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال : إن الله أسرى بعبد محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله حمّله على البراق حتى أتاه به وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل فأراه ما أراه من الآيات ، ولا معنى لقول من قال أسرى بروحه دون جسده لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن فى ذلك ما يوجب أن يكون دليلاً على نبوته ولا حجة له على رسالته ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك يدفعون به عن صدقه فيه إذ لم يكن منكراً عندهم ولا عند أحد من ذوى الفطرة الصحيحة من بنى آدم أن يرى الرأى منهم فى المنام ما على مسيرة سنة فكيف ماهو على مسيرة شهر أو أقل ، إلى أن قال : ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق إذ كانت الدواب لا تحمل إلا الأجسام إلا أن يقول قائل إن معنى قولنا أسرى بروحه رأى فى المنام أنه أسرى بجسده على البراق فيكذب حينئذ بمعنى الأخبار التى رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جبريل حمّله على البراق لأن ذلك إذا كان مناماً على رأى صاحب هذا القول ولم تكن الروح عنده مما يركب الدواب ولم يحمل على البراق جسم النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم على قوله حمل على البراق لا جسمه ولا شيء منه وصار الأمر عنده كبعض أحلام النائمين وذلك دفع لظاهر التنزيل وما تنابعت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءت به الآثار عن الأئمة من الصحابة والتابعين »

ومما قاله الفخر الرازى فى تفسيره : قال أهل التحقيق إن الذى يدل على أنه تعالى أسرى بروح محمد وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى القرآن والخبر . أما القرآن فهذه الآية . وتقرير الدليل أن العبد اسم لجموع الجسد والروح فوجب أن يكون الإسراء حاصلًا لجموع الجسد والروح الخ وأما الخبر فهو الحديث للروى فى الصحاح وهو مشهور وهو يدل على الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ثم منه إلى السموات اه .

والمراجع به صلى الله عليه وسلم إلى السموات ليطام على عجائب الملكوت كما قال تعالى : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ وإلا فالله تعالى لا يحويه زمان ولا مكان ورأى ربه تلك الليلة وأوحى إلى عبده ما أوحى وفرض عليه خمس صلوات وجمع له الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فصلى بهم فى بيت المقدس ثم استقبلوه فى السموات ورجع صلى الله عليه وسلم من ليالته إلى مكة . وقد أنكر المسيحيون إسراء رسول الله ومراحه وليس ذلك بمستغرب منهم ، إنما الغريب أنهم يؤمنون بقيام المسيح وصعوده إلى السماء ، فى آخر إنجيل مرقس :

(ثم إن الرب بعد ما كلمهم ، ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله)

(١) ذهب فريق من المعتزلة إلى القول بأنه أسرى به فى النوم لاقى البقطة ، خلافاً لأهل السنة والجماعة

وجاء في آخر إنجيل لوقا:

(وفيما هو « المسيح » يباركهم ، انفرد عنهم وأصعد إلى السماء)

تأثير خبر الإسراء

في قريش

لما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الناس بما رآه فصدقه الصديق وكل من آمن به إيماناً قوياً وارتدّ ناس ممن آمن به . وكذبه الكفار واستوصفوه مسجدين بيت المقدس فوصفه لهم وسألوه عن أشياء في المسجد فثقل بين يديه فجعل ينظر إليه ويصفه ويمد أبوابه لهم باباً باباً فيطابق ما عندهم . وسألوه عن غيرهم فأخبرهم بها وبوقت قدومها فكان كما أخبر .

ويروى أنه ﷺ لما رجع إلى مكة من ليلته أخبر بمسراه أم هانيء بنت أبي طالب أخت علي رضي الله عنه وأهله يريد أن يخرج إلى قومه ويخبرهم بذلك لأنه ما أحب أن يكتم قدرة الله وما هو دليل على علو مقامه ﷺ ففعلت بردائه أم هانيء وقالت أنشدك الله يا ابن عم ألا تحدث بها قريشاً فيكذبك من صدقك فضرب يده على رداءه فانتزع منها . قالت : وسطع نور عند فؤاده كاد يخطف بصرى فخررت ساجدة فلما رفعت رأسي فإذا هو قد خرج . قالت فقلت لجاريقي نبعة وكانت حبشية اتبعيه وانظري ماذا يقول فلما رجعت أخبرتني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى إلى نفر من قريش في الحطيم وفيهم مطعم بن عدي وأبو جهل بن هشام فأخبرهم بمسراه .

ولما قص رسول الله خبر الإسراء على جمع من قريش أعظموا ذلك الإسراء وصار بعضهم يصفق وبعضهم يضع يده على رأسه تعجباً (فلو كان الإسراء رؤيا منامية لما كانت مستغربة ولما أحدث تلك الضجة وكذبه المسلمون اللهم إلا من كان منهم قوى العقيدة ثابت الإيمان) . قال مطعم بن عدي إن أمرك قبل اليوم كان أمراً يسيراً غير قولك اليوم ، هو يشهد أنك كاذب . نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصداً شهراً ومنتحلاً شهراً . أتزعم أنك أنته في ليلة واحدة ؟ والللات والعزى لأصدقك وما كان هذا الذي تقول قط . فقال أبو بكر رضي الله عنه يا مطعم بئس ما قلت لابن أخيك جيبته وكذبه أنا أنهد أنه صادق وفي رواية فسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ؟ قال وقد قال ذلك ؟ قالوا نعم . قال لئن قال ذلك لقد صدق . قالوا أتصدق أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إني لأصدق فيه ما هو أبعد من ذلك ، أصدق في خبر السماء في غدوة وروحة . فقال مطعم : يا محمد صف لنا بيت المقدس . فقال أبو بكر رضي الله عنه صف لي يا رسول الله فإني قد جئت فجاءه جبريل بصورته ومثاله فجعل يقول : باب منه في موضع كذا وباب منه في موضع كذا وأبو بكر رضي الله عنه يقول : أشهد أنك رسول الله حتى أتى على أوصافه .

وهذه هي الأحاديث الواردة في صحيح البخارى الخاصة بالإسراء والمراج مشروحة في الهامش شرحاً موجزاً
تقلاً عن القسطلانى :

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا كذبنى قريش قت
في الحجر فجلا الله لى بيت المقدس ^(١) فطقت أخبارهم عن آياته ^(٢) وأنا أنظر إليه » .

المراج ^(٣)

عن مالك بن صعصعة رضى الله عنهما أن نبى الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به قال : بينما أنا فى الحطيم - وربما
قال فى الحجر - مضطجعا إذ أتانى آت ^(٤) قد قال وسمعتة يقول فشق ما بين هذه إلى هذه - قال الراوى من نفرة
نحره ^(٥) إلى شعرته - فاستخرج قلبى ثم أتيت بطست من ذهب ^(٦) مملوءة إيماناً ففسل قلبى ثم حشى ثم أعيد ^(٧) ثم أتيت
بداية دون النبل وفوق الحمار أبيض - قال الراوى وهو البراق يضع خطوه عقد أقصى طرفه ^(٨) فحملت عليه فانطلق بى
جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح قليل من هذا ؟ قال جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال محمد . قيل وقد أرسل
إليه ؟ قال نعم . قيل مرحباً به فنعم الحىء جاء ففتح ^(٩) فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال هذا أبوك آدم فسلم عليه ^(١٠)
فسلمت عليه فرد السلام . ثم قال مرحباً بالابن الصالح . ثم صعد بى إلى السماء الثانية فاستفتح قليل من هذا ؟ قال
جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قال : مرحباً فنعم الحىء جاء . ففتح فلما خلصت
إذا يحيى وعيسى ^(١١) وهما ابنا الخالة . قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا ثم قال مرحباً بالأخ الصالح
والنبى الصالح . ثم صعد بى إلى السماء الثالثة فاستفتح . قيل من هذا ؟ قال جبريل . قيل ومن معك ؟ قال محمد .
قيل وقد أرسل إليه ؟ قال نعم . قيل مرحباً فنعم الحىء جاء . ففتح فلما خلصت إذا يوسف . قال هذا يوسف فسلم
عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . ثم صعد بى حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح قليل
من هذا ؟ قال جبريل . قيل ومن معك ؟ قال محمد . قيل وقد أرسل إليه ؟ قال نعم . قيل مرحباً فنعم الحىء جاء .

(١) أى أزال الحجاب بينى وبينه (٢) علاماته (٣) المراج بكسر الميم من العروج وهو الصعود (٤) قوله فى الحجر لأنه حجر
عليه بمجدار قصير ، مكان معروف ملاصق لبيت وفيه ستة أذرع من أصل البيت الشريف وقيل كله من البيت . ورجح . ويقال
له الحطيم وهو ما بين البيت والمقام . سمي حطيماً لأنه حطم عن مساواة البيت أو لأن الذنوب تحطم أى تزال فيه . وقوله أتانى آت أى
جبريل عليه السلام (٥) نفرة نحره : الموضع المنخفض بين الترقوتين (٦) قبل نحرهم استعماله (٧) ثم أعيد فى موضعه من الصدر
القدس (٨) عند أقصى طرفه ، أى يضع رجله عند منتهى ما يرى بصره وهو يدل على أنه كان يعشى على وجه الأرض . وسمى البراق
لشدة بريقه أو لسرعة سيره (٩) ففتح خازنها الباب (١٠) فسلم عليه لأن المار يسلم على القاعد وإن كان المار أفضل من القاعد
(١١) يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم وهما ابنا الخالة لأن أم يحيى إيشاع بنت فاقوذ أخت حنة بنت فاقوذ أم مريم وذلك أن عمران
ابن ماثان تزوج حنة وزكريا تزوج إيشاع فولدت إيشاع يحيى وولدت حنة مريم فتكون إيشاع خالة مريم وحنة خالة يحيى فهما ابنا خالة
بهذا الاعتبار وليس عمران هذا أباً موسى . ولأبى ذر ابنا خالة

جاوزت نادافى مناد : أمضيت فريضتى وخفت عن عبادى^(١) .

عن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا آرَؤُوبَا الَّتِي أَرَبْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ قال هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به إلى بيت المقدس^(٢) . قال والشجرة الملعونة فى القرآن هى شجرة الزقوم .

هل رأى رسول الله ربه ليلة الإسراء ؟

أنكرت عائشة رؤية رسول الله ربه ليلة الإسراء وروى عن ابن عباس أنه رآه بعينه ومثله عن أبى ذر وكعب رضى الله عنهما وكان الحسن رحمه الله يحلف على ذلك . ومن القائلين بالرؤية ابن مسعود وأحمد بن حنبل وجماعة من الصحابة وعن ابن عباس أنه قال : « أتعجبون أن تكون الخلقة لإبراهيم والكلام لوسى والرؤية لحمد صلى الله عليه وسلم » ، وعن عكرمة سئل ابن عباس هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ؟ فقال نعم . قال النووى فى شرح صحيح مسلم « والأصل فى الباب حديث ابن عباس خبر الأمة والرجوع إليه فى العضلات وقد راجعه ابن عمر رضى الله عنهما فى هذه المسألة وراسله هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ! فأخبره أنه رآه . ولا يقدح فى هذا حديث عائشة رضى الله عنها فإنها لم تخبر أنها سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لم أر ربه وإنما ذكرت ما ذكرت متأولة لقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ ولقول الله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَارُ ﴾ والصحابة إذا قال قولا وخالفه غيره منهم لم يكن قوله حجة وإذا صحت الروايات عن ابن عباس فى إثبات الرؤية وجب المصير إلى إثباتها فانها ليست مما يدرك بالعقل ويؤخذ بالظن ، وإنما يتلقى بالسمع ولا يستجيز أحد أن يظن بابن عباس أنه تكلم فى هذه المسألة بالظن والاجتهاد، وقد قال معمر بن راشد حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس . ثم إن ابن عباس أثبت شيئاً نراه غيره والمثبت مقدم على الناقى .

والراجع عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعينى رأسه ليلة الإسراء . والظاهر أن إخباره صلى الله عليه وسلم بالمعراج لم يكن عند إخباره بالإسراء بل تأخر عنه بناء على أنهما كانا فى ليلة وأحد ولم تنزل قصة المعراج فى سورة الإسراء بل أنزل ذلك فى سورة النجم ، ومما يؤيد أنهما كانا فى ليلة واحدة قول البخارى فى صحيحه « باب كيف فرضت الصلاة ليلة الإسراء » لأن من المعلوم أن فرض الصلوات الخمس إنما هو فى المعراج .

(١) هذه من أقوى ما يستدل به على أنه صلى الله عليه وسلم كلفه ربه ليلة الإسراء بفرضه واسطه

(٢) وبذلك تمسك من قال كان الإسراء فى المنام . ومن قال كان فى اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية من قوله أريها ليلة أسرى به . والإسراء إنما كان فى اليقظة لأنه لو كان مناماً ما كذبه قریش فيه ، وإذا كان ذلك فى اليقظة وكان المعراج فى تلك الليلة لزم أن يكون فى اليقظة أيضاً إذ لم يقل أحد إنه نام لما وصل بيت المقدس ثم عرج به وهو نائم وإنما كان فى اليقظة ، فإضافة الرؤيا إلى العين احتراز عن رؤيا القلب .

فقال وقد خالفت عائشة ابن عباس في هل كان الإسراء بالجلوس أو بالروح فقالت عائشة والله ما عهد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن صعد بروحه وابن عباس يقول إنه إسراء بالجلوس وفي القصة وهذا مذهب إليه معظم الصحابة أما ما يتصوره بعضهم من أن الصعود بالجلوس إلى السموات مستحيل عقلا فنقول إن هذا الصعود بالجسم معجزة لرسول الله لا تدرك بالعقل كجميع معجزاته ومعجزات الرسل عليهم صلوات الله ولو كان الصعود بالروح فقط لصرح به رسول الله ولما كذبت قريش .

وإذا كان أمر الإسراء والمعراج عجيبا فأعجب منه أن المسيح بصلب ويقتل ويدفن ثم يقوم من بين الموتى ويصعد إلى السماء ويجلس على يمين الله كما يعتقد المسيحيون .

فريضة الصلاة

فرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ولا خلاف في ذلك . قيل كما هي الآن في عدد الركعات وهو الأصح . والصلاة هي فريضة قائمة وشريعة ثابتة عرفت فرضيتها بالكتاب وهو قوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ فإنه يدل على فرضيتها وعلى كونها خمسا لأنه أمر بالحفاظة على جميع الصلوات وعطف الصلاة الوسطى وأقل جمع يتصور معه وسطى هو الأربع . وبالسنة قوله عليه الصلاة والسلام « إن الله فرض على كل مسلم ومسلمة في كل يوم وليلة خمس صلوات » . وحكمة مشروعيها التذلل والخضوع بين يدي الله تعالى ومناجاة بالقرآن والذكر واستعمال الجوارح في خدمته وهي أفضل العبادات البدنية الظاهرة .

جاء في رسالة الصلاة لابن سينا : أن الصلاة تشبه النفس الإنسانية الناطق بالأجرام الملكية والتبديد الدائم للحق المطلق طلبا للثواب السرمدي . قال رسول الله ﷺ (الصلاة عماد الدين) والدين هو تصفية النفس الإنسانية عن الكدورات الشيطانية والهواجس البشرية والإعراض عن الأعراض الدنيوية الدنية . والصلاة هي التمسك للمعبود الأعظم الأعلى ، فعلى هذا لا يحتاج إلى تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ يعرفون لأن العبادة هي المعرفة أي عرفان واجب الوجود وعلمه بالسر الصافي والقلب النقي والنفس الفارغة . فإذا حقيق الصلاة علم الله سبحانه وتعالى بوحده وأنيته وجوب وجوده وتنزيه ذاته وتقدس صفاته في سوانح الإخلاص في صلاته ، وأعني بالإخلاص أن تعلم صفات الله بوجه لا يبقى للكثرة فيه مشرع ولا للإضافة فيه منزع ، فمن فعل هذا فقد أخلص وصلى وماض وما غوي ومن لم يفعل فقد افترى وكذب وعصى . والله أجل وأعلى وأعز من ذلك وأقوى اهـ .

قال صلى الله عليه وسلم (لا إيمان لمن لا صلاة له ولا إيمان لمن لا أمانة له) وقال (صلوا كما رأيتموني أصلي)

قال تعالى ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

عرض الرسول ﷺ نفسه على قبائل العرب

أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته بادئ الأمر ثم أعلنها في السنة الرابعة من النبوة ودعا إلى الإسلام عشر سنين يوافي اللواسم كل عام يتبع الحجاج في منازلهم بمنى والموقف يسأل عن القبائل قبيلة قبيلة ، ويسأل عن منازلهم ويأتي إليهم في أسواق اللوسم وهي عكاظ ومجنة وذو المجاز ، وكانت العرب إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال ، ثم تجي إلى سوق مجنة تقيم فيه عشرين يوماً ، ثم تجي إلى سوق ذي المجاز فتقيم به أيام الحج وكان صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه عليهم ويدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه ، وكان يطوف على الناس في منازلهم ويقول : « يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » وكان أبو لهب يمشی وراءه ويقول : إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم ، وروى ابن إسحاق أنه صلى الله عليه وسلم عرض نفسه على كندة وكنب وعل وبنو حنيفة وبنو عامر بن صعصعة فقال له رجل منهم أ رأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظفرك الله على من خالفك أ يكون لنا الأمر من بعدك ؟ فقال الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء . فقال له أقاتل العرب دونك فإذا أظفرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك وأبوا عليه ، فلما رجعت بنو عامر إلى منازلهم وكان فيهم شيخ أدركته السن لا يقدر أن يوافي معهم الموسم . فلما قدموا عليه سألم عما كان في موسمهم فقالوا : جاءنا فتى من قريش أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال : يا بني عامر هل لها من تلاف ؟ أي هل لهذه القصة من تدارك ، والذي نفس فلان بيده مايقولها كاذبا من بني إسماعيل قط وإنها لحق وإن رأيكم غاب عنكم .

وروى الواقدي أنه صلى الله عليه وسلم أتى بني عبس وبني سليم وبني محارب وفزارة ومرة وبني النضر وعذرة والحضارمة فردوا عليه صلى الله عليه وسلم أقبح الرد وقالوا أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك ، ولم يكن أحد من العرب أقبح عليه من بني حنيفة وهم أهل اليمامة ، قوم مسيلة الكذاب ، ومن ثم جاء في الحديث « شر قبائل العرب بنو حنيفة » ومن أقبح القبائل في الرد عليه صلى الله عليه وسلم ثقيف ، ومن ثم جاء « شر قبائل العرب بنو حنيفة وثقيف » وما زال صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل في كل موسم يقول لا أكره أحداً على شيء . من رضى الذي أدعو إليه فذاك ومن كرهه لم أكرهه وإنما أريد منى من القتل حتى أبلغ رسالة ربي فلم يقبله صلى الله عليه وسلم أحد من تلك القبائل ويقولون : قوم الرجل أعلم به ، أترون أن رجلاً يصاحنا وقد أفسد قومه ؟

بدء إسلام الأنصار

بيعة العقبة الأولى - إسلام سعد بن معاذ .

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على قبائل العرب وحجاجهم كما كانت عادته كل موسم ، فبينما هو عند العقبة التي تضاف إليها الجرة فيقال جرة العقبة وهي على يسار القاصد منى من مكة إذ لقي رهطاً من الأوس والخزرج كانوا يحجون من العرب . وهما قبيلتان مشهورتان عظيمتان من العرب في يثرب وقد لقيهم رسول الله بالأنصار لما هاجر إليهم ومنعوه ونصروه ، وكان الذين لقيهم ﷺ من الخزرج هم أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث ويعرف بابن عفراء وهما من بني النجار . ورافع بن مالك بن العجلان وعامر بن عبد حارثة وهما من بني زريق . وقطبة بن عامر بن حديدة من بني سلمة وعقبة بن عامر بن باي من بني عثم وجابر بن عبد الله بن رباب من بني عبيدة فعرض النبي عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن قبلوا ذلك منه وأثر في قلوبهم وكان اليهود مع الأوس والخزرج بالمدينة وكانوا أهل كتاب والأوس والخزرج أهل نرك وأوثان . وكانوا إذا كان بينهم شيء يقول اليهود إن نبياً سيبعث الآن قد أظل زمانه تتبعه فتقتلكم معه قتل عاد وإرم وكانوا يصعونه بصفاته لهم فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم النبي ﷺ ودعواهم إلى الإسلام فأسلم كثيرون منهم حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً وذلك سنة اثنى عشرة من النبوة (٦٢١م) فلقوه بالعقبة فبايعوه ببيعة النساء ، وسميت بذلك لأنها كانت على الأمور التي ورد ذكرها في سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء وهي هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيَّنَّ عَلَيْكَ عَلَى الْأَيْدِي شَيْئًا وَلَا يَسْرِفْنَ وَلَا يَزِينْنَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِيهْتَانٍ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْنَهُنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعِهِنَّ وَاسْتَفْرِهِنَّ لهنَّ الله إن الله غفورٌ رحيمٌ ﴾ .

وبعد أن تمت هذه البيعة بعث ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم إلى المدينة يقرئهم القرآن ويأمرهم بالإسلام وكان يسمى مصعب بالمدينة المقرئ فأسلم على يده سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، وكان سعد من أجل رؤسائهم ثم فشا فيهم الإسلام في المدينة . وقال سعد لما أسلم لبني عبد الأشهل : « كلام رجالكم وسائكم على حرام حتى تساموا » فأساموا . فكان من أعظم الناس بركة في الإسلام . وشهد بدرأ . لم يختلفوا فيه وشهد أحدًا واخندق وفيها أصيب بسهم وهو الذي حكم على بني قريظة بالقتل كما سيأتي وبعد أن حكم عليهم انفجر عرقه فاحتضنه رسول الله فجعلت الدماء تسيل على رسول الله . فجاء أبو بكر وقال : وا انكسار ظهره !! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « مه » . فقال عمر : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ولما دفنه رسول الله وانصرف من جنازته ، جعلت دموعه تحادر على لحيته ويده في لحيته ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مساهدون إلا ما كان

من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف؛ وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت (وهو صيفي) وكان شاعراً لهم وقائداً يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام ولم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة .

بيعة العقبة الثانية

اتفق جماعة من الأنصار على لقاء النبي ﷺ مستخفين لا يشعر بهم أحد فوافوا مكة في الموسم في ذي الحجة مع كفار قومهم واجتمعوا به وواعدوه أوسط أيام التشريق^(١) فلما كان الليل خرجوا بعد مضي ثلثه يتسللون حتى اجتمعوا بالعقبة وحضر معهم عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر^(٢) وأسلم تلك الليلة وجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وكان لا يزال على دين قومه وأحب أن يتوثق لابن أخيه وكان أول من بايع تلك الليلة وهو أول من تكلم . فقال يامعشر الخزرج (وكانت العرب تسمى الخزرج والأوس به) إن عملاً منا حيث قد علمتم في عز ومنعة وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم فإن كنتم ترون أنكم تفون له بما دعوتكموه إليه وما نعوذ فأنتم وذلك . وإن كنتم ترون أنكم مساموه فن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة . فقال الأنصار قد سمعنا ما قلت فتكلم يارسول الله وخذ لنفسك وربك ما أحببت فتكلم وتلا القرآن ورغب في الإسلام ثم قال تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم وكان للبراء بن معرور في تلك الليلة المقام الحمود في الإخلاص والتوثق لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أخذ بيده وقال : والذى بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه ذرارينا فبايعنا يارسول الله فنحن والله أهل الحرب ، فاعترض الكلام أبو الهيثم بن التيهان حليف بنى عبد الأشهل فقال يارسول الله إن بيننا وبين الناس حباً وإنا فاطمونها بمعنى اليهود فهل عسيت إن أظهرتك الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال بل الدم الدم ، الهدم الهدم ، أنتم منى وأنا منكم أسلم من سالم وأحارب من حاربتم وكانت عدة الذين بايعوا في تلك الليلة سبعين رجلاً وامرأتين : نسيبة بنت كعب أم عمار وأسماء بنت عمرو بن عدى من بنى سلمة^(٣) واختار رسول الله ﷺ اثني عشر قتيلاً يكونون على قومهم : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وقال لهم أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الخواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي . والنقباء هم :

- (١) سعد بن عباد (٢) أسعد بن زرارة . (٣) سعد بن الربيع . (٤) سعد بن خيثمة . (٥) المنذر بن عمرو
- (٦) عبد الله بن رواحة . (٧) البراء بن معرور . (٨) أبو الهيثم بن التيهان . (٩) أسيد بن حضير . (١٠) عبد الله ابن عمرو بن حرام . (١١) عباد من الصامت . (١٢) رافع بن مالك بن العجلان . وروى أنه قُب على النقباء أسعد بن زرارة فتوفي بعد والمسجد النبوي يبنى . فكان أول من دفن بالبقع من المسلمين .

(١) وهي ثلاثة أيام بعد النحر لأن لحم الأضاحي يفرق فيها للشمس أى يشرى وقال ابن الأعرابي سميت بذلك لأن الهدى والضحايا لا تنحر حتى تفرق الشمس أى تطلع (٢) قتل عبد الله بن عمرو يوم أحد وقد مثل به . (٣) بإيئته المرأتان من غير مضافة .

فلما بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم رجعوا إلى المدينة فكان قدومهم في ذي الحجة فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بقية ذي الحجة والحرم وصفر وهاجر إلى المدينة في شهر ربيع الأول وقدمها لانتفى عشرة ليلة خلت منه وقد كانت قريش لما بلغهم إسلام من أسلم من الأنصار اشتدوا على من بمكة من المسلمين فأصابهم جهد شديد . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالمهجرة إلى المدينة فخرجوا أرسالا حتى لم يبق أحد من المسلمين بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر وعلي بن أبي طالب فإنهما أقاما بأمره وكان صلى الله عليه وسلم ينتظرا أن يؤذن له في الهجرة . وإسلام الأنصار له شأن كبير في تاريخ الإسلام بل في تاريخ الدنيا .

مؤامرة قريش

على قتل رسول الله ﷺ

لقد بلغ اضطهاد قريش للمسلمين أنهم اضطروهم إلى الهجرة فقريش هاجر إلى الحبشة ثم هاجر من بقي مع رسول الله إلى المدينة . ولما علمت قريش تنابح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمهجرة أخيراً إلى المدينة وقد صارت له شيعه وأنصار من غيرهم وأنه أجمع على اللحاق بهم؛ تشاوروا فيما يصنعون في أمره فاجتمعوا في « دار الندوة » وهي دار قصي بن كلاب^(١) وتشاوروا في حبسه أو إخراجه عنهم (فيه) ثم اتفقوا على أن يتخيروا من كل قبيلة منهم فتى شاباً جليلاً فيقتلوه جميعاً فيتفرق دمه في القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعاً ويقال إن هذا كان رأي أبي جهل . وهكذا نجد دائماً اسم أبي جهل وأبي لهب في كل مؤامرة ضد النبي صلى الله عليه وسلم وكل إيذاء واضطهاد كان لا عمل لها غير ذلك .

استعدوا لقتله عليه الصلاة والسلام من ليلتهم وأتى جبريل رسول الله فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه فلما كانت العتمة اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه فأمر علياً أن ينام على فراشه ويتشع ببرد الأخصر وأن يتخلف عنه ليؤدى ما كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من الودائع إلى أربابها فامتثل أمره فكان أول من شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ووقى بنفسه رسول الله ﷺ .

وهنا قول إن الأستاذ مرجوليوث اعتاد أن يصف أعداء رسول الله برجاجة العقل والنبيل ولا يعدم أن يجد كتاباً يذكره كمصدر له من غير تحقيق فقد قال عن أبي جهل في كتابه (محمد) « إنه حاز شهرة عظيمة في العقل حتى إنه دخل دار الندوة في سن الثلاثين في حين أنه كان لا يسمح لأحد من أهل مكة بدخولها إلا إذا بلغ

(١) دار الندوة بمكة أحدثها قصي بن كلاب لما تملك مكة . كانوا يجتمعون بها للمشاورة وصارت بعد ولده معاوية بن أبي سفيان وقيل هي أول دار بقتها قريش بمكة . قال الحلبي دار الندوة من جهة الحجر عند المقام الحزني الآن وكان لها باب إلى المسجد أعدت للاجتماع للمشورة وكانت قريش لا تعضى أمراً إلا فيها وكانوا لا يدخلون فيها غير قرشي إلا إن بلغ أربعين سنة بخلاف القرشي .

الأربعين » والحقيقة أنهم كانوا لا يدخلون فيها غير قرشى إلا إن بلغ أربعين سنة بخلاف القرشى تمييزاً له وبما أن أبا جهل قرشى فكان يسوغ له دخول دار الندوة قبل الأربعين وليس ذلك لأنه كان شديد الذكاء راجح العقل بل لأنه كان قرشياً .

القرآن

وما نزل منه بمكة

عن ابن عباس ، قال أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة . أما إقامته بالمدينة عشرًا فهذا مما لا خلاف فيه . وأما إقامته بمكة بعد النبوة فالثلاث عشرة سنة لأنه صلى الله عليه وسلم أوحى إليه وهو ابن أربعين سنة وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح . والقرآن منه مكي ومنه مدني . فاللصكى ما نزل قبل الهجرة أي بمكة والمدني ما نزل بعد الهجرة سواء كان بالمدينة أو غيرها من أى البلاد حتى ولو كان بمكة أو عرفة .

والسفير بين الله تعالى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، جبريل عليه السلام .. كما قال تعالى ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ وقال ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ الآيات .

وقد تحداهم الله تعالى بأن يأتوا بسورة من مثله ، فجزوا . فالقرآن معجزة رسول الله الباقية إلى يوم القيامة . وقد احتوى على العلوم الكثيرة والأخبار الصادقة عن الغيوب الماضية والآتية والأحكام العادلة . ونزل القرآن بلغة قريش وقريش خلاصة العرب . وللقرآن أسماء كثيرة منها الفرقان والتنزيل والحديث الخ . ومعناه ، القراءة . قال ابن عباس « القرآن والقراءة واحد » .

ويشتمل على ١١٤ سورة ، أطولها « البقرة » ونزل من القرآن بمكة اثنتان وثمانون سورة ونزل تمام بعضها بالمدينة وكان أول ما نزل على رسول الله ﷺ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ . ثم ن والقلم وما يسطرون . ثم والضحى . ثم يأيها الزملم ثم يأيها المدثر . ثم فاتحة الكتاب . ثم تبت . ثم إذا الشمس كورت . ثم سبح اسم ربك الأعلى . ثم والليل إذا يغشى . ثم والفجر . ثم ألم نشرح لك صدرك . ثم الرحمن . ثم والعصر . ثم إنا أعطيناك الكوثر . ثم ألهاكم التكاثر . ثم أرايت الذي يكذب بالدين . ثم ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ثم والنجم إذا هوى . ثم عبس وتولى . ثم إنا أنزلناه في ليلة القدر . ثم والشمس وضحاها . ثم والسماء ذات

البروج . ثم والتين والزيتون . ثم لإيلاف قريش . ثم القارة . ثم لا أقسم بيوم القيامة . ثم ويل لكل همزة . ثم والمرسلات عرفاً . ثم ق والقرآن المجيد . ثم لا أقسم بهذا البلد . ثم والسماء والطارق . ثم اقتربت الساعة . ثم ص والقرآن ذي الذكر . ثم الأعراف . ثم سورة الجن . ثم سورة يس . ثم تبارك الذي نزل الفرقان . ثم حمد الملائكة . ثم سورة مريم . ثم سورة طه . ثم طسم الشعراء . ثم طس النمل . ثم طسم القصص . ثم سورة بني إسرائيل . ثم سورة يونس . ثم سورة هود . ثم سورة يوسف . ثم الحجر . ثم الأنعام . ثم الصافات . ثم لقمان . ثم حم المؤمن . ثم حم السجدة . ثم حم عسق . ثم الزخرف . ثم سبأ . ثم تنزيل الزمر . ثم حم الدخان . ثم حم الشورى . ثم حم الأحقاف . ثم والذاريات . ثم هل أتاك حديث الفاشية . ثم سورة الكهف . ثم سورة النحل . ثم إنا أرسلنا نوحاً . ثم سورة إبراهيم . ثم اقترب للناس حسابهم . ثم قد أفلح المؤمنون . ثم الرعد . ثم الطور . ثم تبارك الذي بيده الملك . ثم الحاقة . ثم سأل سائل . ثم عم يساءلون . ثم والنازعات عرفاً . ثم إذا السماء انفطرت . ثم سورة الروم . ثم العنكبوت .

وعن ابن عباس أنه قال : كان القرآن ينزل مفزاً لا ينزل سورة سورة فأنزل أولها بمكة أثبتناها بمكة وإن كان تمامها بالمدينة وكذلك منازل بالمدينة وإنه كان يعرف فصل ما بين السورة والسورة إذا نزل بسم الله الرحمن الرحيم فيعلمون أن الأولى قد انقضت وابتدئ أخرى .

الهجرة إلى المدينة

١٢ ربيع الأول (سنة ٦٢٢ م)

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرصدونه فأخذ حفنة تراب وجعل ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو قوله تعالى يس إلى قوله : ﴿ فَأَعْشَيْنَاهُمْ فِيهِمْ لَا يَبْصِرُونَ ﴾ ثم انصرف فلم يروه . فلما أفاقوا من غشيتهم جعلوا يظلمون فيرون علياً نائماً وعليه برد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون إن محمداً لناثم . فأقاموا بالباب يحرسون علياً يحسبون أنه النبي ﷺ حتى يقوم في الصباح . فلما أصبحوا قام علي عن الفراش فقالوا له أين صاحبك؟ قال لا أدري فعلوا أن النبي ﷺ قد نجا . فأما علي فأقام بمكة حتى يؤدي ودائع النبي ﷺ وقصد النبي ﷺ دار أبي بكر رضي الله عنه وأعلمه بأن قد أذن له بالهجرة ، فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله . قال الصحبة فمكي أبو بكر رضي الله عنه فرحاً واستأجر عبد الله بن أريقط الديلمي وكان مشركاً ليدل بهما إلى المدينة فتوكل عليهما عن الطريق العظمى . ولم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أبي بكر وعلي وآل أبي بكر ، وكان خروجه صل الله عليه وسلم من مكة يوم الخميس أول يوم من ربيع الأول وقدم المدينة لا تفتي عشرة خلت منه ، وذلك يوم الاثنين الظهر لثلاث وخمسين سنة من مولده ٢٨ يونيو (٦٢٢ م) وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال حين خروجه من مكة إلى المدينة « اللهم إني أتك

تعلم أنهم أخرجوني من أحب البلاد إلى فأسكني أحب البلاد إليك » رواه الحاكم في المستدرک وكان مدة مقامه بمكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة . ثم أتيا الغار الذي بجبل (ثور) على ثلاثة أميال من جنوب غربي مكة ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع لها بمكة ثم يأتيها ليلاً وأمر عامر بن فهيرة مولاہ أن يرعى غنمه نهاره ثم يأتيها بها ليلاً ليأخذها حاجتهما من لبنها وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بطعامهما فأقاما في الغار ثلاثاً . ولا قدته قريش اتبعوه ومعهم القائف قفاف الأثر حتى وقف عند الغار وقال هنا انقطع الأثر^(١) وإذا بنسبيج العنكبوت على فم الغار وقد عشتت على بابه حمامتان . فقالت قريش ما وراء هذا شيء . وجعلوا مئة ناقة لمن يردده عليهم . فلما مضت الثلاث وسكن الناس أتاها دليلهما بغيرين فأخذ أحدهما رسول الله ﷺ من أبي بكر بالثمن لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبة منه عليه الصلاة والسلام في استكمال فضل الهجرة إلى الله تعالى . ثم ركبا وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة يخدمهما في الطريق وأتتهما أسماء بسفرة لها وشقت نطاقها وربطت السفرة فسميت « ذات النطاقين » وحمل أبو بكر جميع ماله وكان نحو ستة آلاف درهم وبينما هما في الطريق مجريدين من كل سلاح بصرا بهما سراقة بن مالك بن جشم فأتتهما ليردهما فدعا عليه رسول الله ﷺ فساخنت : (غاصت) قوائم فرسه في أرض صلبة . فقال ادع لي يا محمد ليخلصني الله أن أرد عنك الطلب فدعا له نخاص . فدعا يتبعهما . فدعا عليه الثانية فساخنت قوائم فرسه في الأرض أشد من الأولى . فقال يا محمد قد علمت أن هذا من دعائك علي فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه ولك عهد الله أن أرد عنك الطلب . فدعا له نخاص وعاهداهم أن لا يقاتلهم ولا يخبر عنهم وأن يكتم عنهم ثلاث ليال . فرجع سراقة ورد كل من لفيه عن الطلب بأن يقول ماها هنا .

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت :

« فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة^(٢) قال قائل^(٣) لأبي بكر هذا رسول الله ﷺ متقناً^(٤) في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر فداه له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر . قالت عائشة فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر أخرج من عندك فقال أبو بكر إنما هم أهلك^(٥) بأبي أنت يا رسول الله قال : فإني قد أذن لي في الخروج^(٦) ، فقال أبو بكر الصحبة بأبي أنت يا رسول الله . قال رسول الله ﷺ نعم . قال أبو بكر نخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحتي هاتين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثمن^(٧) قالت عائشة فجهزناهما أحث الجاهز^(٨) وصنعنا لهما سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها^(٩) فربطت به علي فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاقين ، وأسماء بنت أبي بكر

(١) لا يخفى أن للعرب شهرة في اقتفاء الأثر .

(٢) أول الزوال عند شدة الحر . (٣) في الطبراني أن قائل ذلك أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها . (٤) منطياً رأسه :

(٥) يريد عائشة وأسماء . (٦) الخروج إلى المدينة . (٧) أي لا تأخذ إلا بالثمن . (٨) أحث الجاهز : أسرع ، والجاهز ما يحتاج إليه في السفر وغيره . (٩) النطاق ما يشد به الوسط .

الصديق كانت أسن من عائشة وهي أختها لأبيها وكان عبد الله بن أبي بكر أخا أسماء شقيقها ، قالت ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور (جبل بمكة) فكننا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب تقف (١) لقن (٢) فيدلج (٣) من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت (٤) فلا يسمع أمراً يكتادان به (٥) إلا وعاه (٦) حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة (٧) من غنم (٨) فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل وهولبن منحتهما ورضيفهما (٩) حتى ينمق بهما (١٠) عامر بن فهيرة بغلس (١١) ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث . واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلا من بني الدليل (١٢) وهو من بني عبد بن عدى هاديا خريتا - وانخرت الماهر بالمداية - قد غمس حلقاً في آل العاص بن وائل السهمي (١٣) وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعنا إليه راحلتيهما وعلناه غار ثور بعد ثلاث ليال فجاءهما براحتيهما صبح ثلاث وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل (١٤) قال سراقه ابن جعشم : جاءنا رسل كفار قريش يجمعون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره . فيينا أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال ياسراقه إني قد رأيت آتياً أسودة (١٥) بالساحل أراها (١٦) محمداً وأصحابه . قال سراقه فمرفت أنهم هم قتلته لهم لبسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا ثم لبثت في المجلس ساعة ثم فت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسى وهي من وراء أكمة (١٧) فتحبسها علي وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه (١٨) الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسى فركبتها فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسى فخررت عنها فقامت فأهويت يدي إلى كنانتي (١٩) فاستخرجت منها الأزرلام (٢٠) فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذي أكره فركبت فرسى تقرب بي وعصيت الأزرلام حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت (٢١) بدا فرسى في الأرض حتى بلغت الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فمضت فلم تسكد تخرج يديها فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها عثان (٢٢) ساطع في السماء مثل الدخان . فاستقسمت بالأزرلام فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسى حتى جثتهم ووقع في نفسي حين لقيت مالتيت من المجلس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت له إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتنيهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت

(١) حاذق (٢) لقن : سريع العزم (٣) يدلج : يخرج (٤) كبائت بها ائمة رجوعه بالفلس . (٥) أي يطل لها ما به المكروه (٦) وعاه : حفله . (٧) منحة : شاة تحلب آناه بالفداة وآناه بالعشى (٨) من غنم كانت لأبي بكر رضى الله عنه (٩) هو الابن الموضوع فيه المجازاة المحمودة لتذهب وخائمه وتقله (١٠) ينمق بها : يزجرها (١١) الغلس غلام آخر الليل (١٢) هو عبد الله بن أريقط مصر (١٣) يعني أنه حليف لهم وأخذ بنصيب من عقدهم ، وكانوا إذا تمالقوا غمسا أيديهم في دم أو خلوق أو شيء يكون فيه تلوين فيكون ذلك تأكيذاً للحلف (١٤) أسفل من عصفان (١٥) أشخاصا (١٦) أطنا (١٧) أكمة : ربوة مرتفعة (١٨) الج : الحديد الذي في أسفل الرمح (١٩) السكناة : كيس السهام (٢٠) الأزرلام جمع زلم : أقلام كانوا يكتبون على بعضها نهم وعلى بعضها لا ، وكانوا إذا أرادوا أمراً استقسموا بها فإذا خرج السهم الذي عليه نعم خرجوا وإذا خرج الآخر لم يخرجوا . ومعنى الاستقسام معرفة قسم الخير والشر (٢١) ساخت : غاصت (٢٢) عثان : دخان من نار . (١٧ - محمد)

عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآنى ^(١) ولم يسألانى إلا أن قالاً أخف عنا فسالته أن يكتبلى كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من ^(٢) أديم ثم مضى رسول الله ﷺ . ومما وقع لها فى الطريق أنهما القيا طلحة بن عبيد الله فى الطريق وكان راجعاً من تجارة فحياهما وكساها ثياباً بيضاً وقيل لقيهما الزبير كذلك ولعلهما القياهما معاً أو متعاقبين فكسواه وأبا بكر ماذكر اه

* * *

غادر رسول الله مكة مستط رأسه بعد أن سخر به قومه ورفضوا دعوته وتمسكوا بعقيدتهم القديمة التى ألغوها ولم يحكموا عقولهم ، ولم يعترفوا أن عبادة الأصنام من دون الله تعالى كفر . وليس بعد الكفر ذنب ولا بعد الشرك ضلال . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

غادر رسول الله مكة وهو آسف لفراق قومه بعد أن صبر على أذاهم وجاهد وكافح سنين طويلة ، فغادرهم ذلك النور الساطع والعلم الواسع والهمة العالية والنفس الأبية والروح الطاهرة النقية والشخصية الجذابة المحبوبة والوجه المشرق الدائم الابتسام والخلق العظيم والقم الذى لا ينطق عن الهوى .

لقد غادرهم ذلك الرسول الأمين ، الهادى إلى الصراط المستقيم ، مبلغ رسالات رب العالمين .

ولو علمت قريش الحقيقة وتخلوا عن التعصب ، لتمسكوا بأهدابه وتعلقوا بأذياله واغترفوا من فيض علمه وبحور حكمته وامتدوا بهديه وتحققوا بخلقته وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة .

إن الرسول بهجرته قد ترك مكة فى ظلام دامس فلما وصل المدينة ، أشرقت أنواره فى جميع أرجائها فخرج القوم يستقبلونه بالبشر والسرور ويتساقبون لمشاهدة وجهه الصبوح ويتبركون به ويستضيفونه ويستمعون إلى حكمه البالغة . وقد عبروا عن شعورهم بذلك النور بقولهم « طلع البدر علينا »

وصوله ﷺ إلى المدينة

وصل رسول الله المدينة يوم الاثنين من شهر ربيع الأول قرب الظهر . ونزل قباء على كلثوم بن الهدم ^(٣) شيخ بن عمرو بن عوف وهم بطن من الأوس . وعباء قرية على ميابين من جنوب المدينة وهى خصبة بها حدائق من أعناب ونخيل وتين ورمان وأقام بها رسول الله يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسس مسجد قباء وهو

(١) فلم يرزآنى : لم ينقصانى

(٢) أديم : جلد مدبوغ .

(٣) كلثوم بن الهدم : امرئ القيس ويعرف بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت شيخاً كبيراً أسلم قبل وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأقام عنده أربعة أيام وتوفى كلثوم قبل بدر يسيراً ولم يدرك شيئاً من المشاهد .

الذى أسس على التقوى من أول يوم ، ونزل أبو بكر رضى الله عنه على حبيب بن إساف بالسنع^(١) ثم قدم على رضى الله عنه ومعه القواطم وأم أيمن وولدها أيمن وجماعة من ضعفاء المؤمنين بعد أن أدى عن رسول الله الودائع التى كانت عنده إلى الناس ، ولما وصل نزل على كاثوم بن الهدم اقتداء بالنبي ﷺ وكان على رضى الله عنه فى طريقه يسير الليل ويكن النهار حتى تفطرت قدماه فاعتنقه النبي صلى الله عليه وسلم وبكى رحمة به لما يقدمه من الورم وتقل فى يديه وأمرهما على قدميه فلم يشكهما بعد ذلك ؛ ثم ركب النبي ﷺ يوم الجمعة يريد للدينة وأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاها فى المسجد الذى ببطن الوادى بمن معه من المسلمين وكانوا مئة وهى أول جمعة صلاها بالمدينة وأول خطبة خطبها فى الإسلام ثم ركب راحلته (القصى) يريد للدينة وأرخى زمامها فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا قالوا هلم يا رسول الله إلى العدد والعدة والمنعة ويعترضون ناقته فيقول خلوا سبيلها فإنها مأمورة حتى بركت عند موضع مسجده اليوم وكان مربداً للتمر^(٢) لغلامين يقيمين وهما سهل وسهيل ابنا عمرو من بنى النجار فلما بركت لم ينزل عنها ثم وثبت فسارت غير بعيد ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنىها به فالتفت خلفها ثم رجعت إلى مبركها الأول فبركت فيه ووضعت جرائنها (مقدم عنقها) فنزل عنها رسول الله ﷺ واحتمل أبو أيوب الأنصارى^(٣) رحل ناقته إلى بيته فأقام عنده حتى بنى حجره ومسجده ودعا رسول الله ﷺ صاحبه للربد - وكانا غلامين - فساومهما بالربد ليتخذ مسجداً قالاً بل نهبه لك يا رسول الله فأبى أن يقبل منها هبة حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير ذهباً أداها من مال أبى بكر ثم بناه مسجداً وطلق رسول الله ﷺ يتقل معهم اللبن (الطوب النىء) فى بنيانه ويقول وهو يتقل اللبن :

هذا الحمال لاحمال خير هذا أبر ربنا وأطهر^(٤)

ويقول :

إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

ثم وادع رسول الله ﷺ اليهود وكتب بينهم وبينهم كتاب صلح وموادعة وسنأتى على نص الكتاب فيما بعد وقبل أن يتم رسول الله بناء مسجده مات سعد بن زرارة بالذبحة والشهقة وكان نقيباً لبني النجار فطلبوا إقامة نقيب مكانه فقال أنا نقيبكم ولم يخص منهم أحداً دون آخر فكانت من مناقبهم . وأقام رسول الله ﷺ يبنى مسجده

(١) السنع إحدى محال المدينة (٢) المراد : موضع يجفف فيه التمر (٣) اسمه خالد بن زيد كليب بن ثعلبة بن عوف بن غنم بن مالك ابن النجار الأنصارى الخزرجى التجارى شهد العقبة وبدأ وأحداً والمندق وسائر المشاهد وكان مع على بن أبى طالب رضى الله عنه ومن خاصته وغزا أيام معاوية أرض الروم مع يزيد بن معاوية سنة إحدى وخمسين فتوفى عند مدينة القسطنطينية فدفن هناك . (٤) الحمال بكسر الحاء المهملة وفتح الميم مخففة . ولأن ذر الحمال يفتح الحاء المهملة أى هذا المحمول من اللبن أبر عند الله وأطهر من محمول (خير) الذى يحمل منها التمر والريب ونحوها الذى يفتبط به حاملوه . تمثل بشر رجل من المسلمين هو عبد الله بن رواحة قال ابن شهاب الزهري : ولم يلعنا فى الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت والمتع على المصطفى إنشاء الشعر لإنشاده .

من ربيع الأول إلى صفر ، فكان مسجداً بسيطاً ، جدرانته من اللبن ، على قاعدة من الحجارة . والسقف من جريد النخل ، مقاماً على الجذوع ولم يكن فيه أثر للزخرفة أو النقش وليس به منبر . فكان الرسول يخطب في بادي الأمر بلا منبر .

فرح أهل المدينة بمقدم النبي ﷺ فرحاً شديداً وقابلوه بالابتهاج وصعدت ذوات الخلدور على الأسطحة . وعن عائشة رضي الله عنها : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جلس النساء والصبيان والولائد يلقنن خبراً :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع^(١)
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

ولعبت الحبشة بحراهم فرحاً بقدومه صلى الله عليه وسلم . وكانت الأنصار يتقربون إلى رسول الله بالهدايا رجالهم ونسأؤهم .

قال ابن عباس ولد النبي ﷺ يوم الاثنين ، واستنبي يوم الاثنين ، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين ، وقبض يوم الاثنين ، وابتدئ التاريخ في الإسلام من هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ، وأول من أرخ بالهجرة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه سنة سبع عشرة من الهجرة إلا أن التاريخ الهجري يبدأ قبل الهجرة بشهرين . وذلك أنهم جعلوا مبدأ التاريخ الحرام من تلك السنة والنبي ﷺ بعد بمكة ، ثم كانت الهجرة بعد ذلك في ربيع الأول .

ذكر الهجرة في القرآن

قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي تِلْكَ الْأَرْضِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَمُزُنْ إِنَّا لِلَّهِ مَعْتَابٌ ﴾ وهذا إعلام من الله لأصحاب رسول الله ﷺ أنه للتوكل بنصر رسوله على أعداء دينه وإظهاره عليهم دونهم ، أعانوه أو لم يعينوه . إذ يقول لصاحبه ، يقول : إذ يقول رسول الله ﷺ لصاحبه أبي بكر لا تمزن ، وذلك أنه خاف من الطلب أن يعلموا بمكانهما فجزع من ذلك فقال له رسول الله ﷺ لا تمزن إن الله معنا وإن الله ناصرنا فلن يعلم المشركون بنا ولن يصلوا إلينا ، وقد نصره الله على عدوه وهو بهذه الحال من الخوف وقلة العدد .

(١) ثنية معرفة على المدينة بطؤها من يريد مكة ، وهي موضع وداع المسافرين من المدينة إلى مكة

خطبة رسول الله ﷺ

في أول جمعة صلاها بالمدينة

هذا نص الخطبة التي خطبها رسول الله ﷺ في أول جمعة صلاها بالمدينة في بني سالم بن عوف^(١) .

« الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأؤمن به ولا أكفره ، وأعادي من يكفره . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسول أرسله بالهدى والنور والوعظة على فترة من الرسل وقلته من العلم وضلالة من الناس واقتطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل . من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً . وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير مأوصى به المسلم المسلم ، ثم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكراً ، وأن تقوى الله لمن عمل به على وجل وخافة من ربه عون صدق على ماتبعون من أمر الآخرة . ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد . والذي صدق قوله وأبجز وعده لا خلف لذلك فإنه يقول عز وجل ﴿ مَا يَدُلُّ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ فاقوا الله في عاجل أمركم وآجله ، في السر والعلانية فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً ، وإن تقوى الله يوقى مقتله ويوقى سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجه ويرضى الرب ويرفع الدرجة . خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله . قد علمكم الله كتابه ونهجه لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ولا قوة إلا بالله ، فأكثرُوا ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العظيم^(٢) . »

هذه هي أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة في أول جمعة ونلاحظ أن رسول الله ﷺ لم يذكر فيها أهل مكة ولا ما كان من عنادهم وإصرارهم على الكفر وإيذائهم المسلمين وتآمرهم على قتله بل قصر خطبته على حض

(١) صلى رسول الله ﷺ في أول جمعة بالمدينة في المسجد الذي في بطن الوادي بين مكة من المسلمين ومائة وسمى هذا المسجد بمسجد الجمعة وهو على يمين السالك نحو قباء . (٢) راجع تاريخ الطبري .

المسلمين على التقوى وتذكيرهم بالله تعالى وهذا في الحق غاية الأدب ومنتهى ما يصل إليه حلم الحليم . ولو كان غير رسول الله لاستفزّه الغضب وعدد مثالبهم لأنهم هم الذين خذلوه واضطهدوه وأخرجوه من أحب البلاد إليه وكانوا عقبة في سبيل تبليغ رسالة ربه وقد صدق الله تعالى حيث قال ﴿ وَإِنَّكَ لَمَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۖ ﴾ .
نعم إن هذا خلق عظيم وأدب كريم ونحن نرى رجال الأحزاب يستعملون في خطبهم أقبح الألفاظ وأشنع الشتائم لأسباب تافهة ومع ذلك يزعمون أنهم قادة وسادة ينشرون العلم والمدنية وينشدون الإصلاح والحوية !!

معاهدة رسول الله ﷺ اليهود

قال ابن إسحاق وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط عليهم واشترط لهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس المهاجرون من قريش على ربعتهم ^(١) يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وأن المؤمنين لا يتركون مفرجاً بينهم أن يملوه بالمعروف في فداء أو عقل ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن من دونه وأن المؤمنين للمتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ^(٢) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولا أحدهم ولا يقتل مؤمن في كافر ولا ينصر كافر على مؤمن . وأن ذمة الله واحدة يحير عليمهم

(١) الربهة والرباعة : الحال التي جاء الإسلام وهم عليها . ويقال فلان يقوم برباعة أهله إذا كان يقوم بأمرهم وشأنهم .

(٢) الماني الأسير ، والمخذول الذي تركه قومه ولم يواسوه .

(٣) الدسيعة هي ما يخرج من خلق البعير إذا رغا فاستماره هنا للعطية وأراد به هنا ما ينال منهم من ظلم .

أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم وأن كل غزاة غزت معنا تعقب بعضها بعضاً وأن المؤمنين بيء^(١) بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن وأنه من اغتبط^(٢) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي للقتول وأن المؤمنين عليه كافؤ ولا يحل لهم إلا القيام عليه وأنه لا يحل لأومن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويهم وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ . وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ^(٣) إلا نفسه وأهل بيته وأن يهود بنى النجار مثل ماليهود بنى عوف وأن يهود بنى الحارث مثل ماليهود بنى عوف وأن يهود بنى ساعدة مثل ماليهود بنى عوف وأن يهود بنى جشم مثل ماليهود بنى عوف وأن يهود بنى الأوس مثل ماليهود بنى عوف وأن يهود بنى ثعلبة مثل ماليهود بنى عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته وأن جفنة بطن من ثعلبة كأفسهم وأن لبنى الشظنة مثل ماليهود بنى عوف وأن البردون الإثم وأن موالى ثعلبة كأفسهم وأن بطانة^(٤) يهود كأفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لا ينججز على ثار جرح وأنه من فلك فبنفسه فلك وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وأنه لم يأنهم امرؤ مجليفة وأن النصر للمظلوم وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ؛ وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لا تجار حرمته إلا بإذن أهلها وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار^(٥) يخاف فسادة فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب^(٦) وإذا دعوا إلى صالح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم وأن ليهود الأوس مواليهم وأنفسهم مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة وأن البردون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وأن الله جار لمن بر واتقى ومحمد الله صلى الله عليه وسلم .

(١) بيء : منع ويكلف (٢) اغتبطه : إذا قتله عن غير شيء . بوجب قتله (٣) لا يوتغ : لا يهلك (٤) بطانة الرجل : خاصته وأهل سره (٥) الاشتجار : الاختلاف ، يقال اشتجار القوم إذا اختلفوا . (٦) من دهم يثرب : يريد من ظلمها . يقال دهمتهم الخيل تدهمهم

الخزرج والأوس

وما كان بينهما وبين اليهود

الخزرج والأوس هما قبيلتان مشهورتان من العرب في يثرب وقد لقبهم رسول الله ﷺ بالأنصار لما هاجر إليهم لأنهم هم الذين نصره ومنعوه . وقد مر ذكرهم في بيعتي العقبة الأولى والثانية ولا شك أن الباحث يشتاق إلى الوقوف على تاريخ هاتين القبيلتين ، وما كان بينهما وبين اليهود من علاقات وحروب لأن ذلك يساعد على فهم تاريخ سكان المدينة ، وعلى موقف الأنصار واليهود إزاء الإسلام والمسلمين وليكون على يدنا من أمرهم عند ذكرهم في الحوادث التي وقعت بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة .

خزرج وأوس أخوان أبوهما حارثة بن ثعلبة العنقاء ، بن عمرو مزينة بن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف ابن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن النوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وأم أوس وخزرج قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد من قضاة ولذلك يقال لها ابنة قيلة . وكان منهما قبيلتان مشهورتان عظيمتان من العرب في يثرب تذكرا لهما غالبا معا فيقال الأوس والخزرج . لكن غلب اسم الخزرج وسماوا أيضا الأنصار لأنهم أول من قام بنصرة النبي ﷺ وساعدوه في حروبه وآووه إلى أرضهم .

أما أصلهم فقد جاء في كتب السير ، أنه لما خرج مزينة من اليمن بعد تفرق أهل سبأ ، بسيل العرم^(١) ملك غسان بالشام ثم هلك وملك ابنه ثعلبة العنقاء . ولما هلك ملك بعده عمرو ابن أخيه جفنة فسخط مكانه ابنه حارثة وأجمع الرحلة إلى يثرب ونزل على يهود خيبر وسألهم الخلف والجوار على الأمان والمنعة فأعطوه من ذلك ما سأل وقيل لما سار ثعلبة بن عمرو بن عامر في من معه اجتازوا يثرب فتمخاف بها أوس وخزرج ابنا حارثة فيمنعهما فنزل بعضهم بضرا وبعضهم بالقرى مع أهلها ولم يكونوا أهل نعم ولا شاة لأن البلاد لم تكن بلاد مرعى ولا نخل لهم ولا زرع إلا الأعذاق اليسيرة فكانوا يحبون الأرض الموات ويزرعونها والأموال لليهود فلبثوا حينئذ من الدهر على ذلك وهم في ضيق مال وسوء حال ، ثم قدم منهم مالك بن عجلان على أبي جبيلة الفسائي فسأله عن حالهم فأخبره بضيق معاشهم : فقال : ما بالك لا تغلبونهم كما غلبنا أهل بلدنا ووعدنا أنه يسير إليهم فينصرهم فرجع مالك وأخبر

(١) أثبتت بحوث الأستاذ جليزر Glaser في سنة ١٨٩٦ أن السيل قد حدث وتكرر حدوثه وقد أهمل السد فنتشأ عن ذلك تصدع جوانبه ويرى الأستاذ ولفنسون أن سيل العرم ليس هو السبب الوحيد في هجرة جميع البطون الأزدية إلى شمال الجزيرة بل لابد أن تكون هناك أسباب أخرى .

قومه بوعد أبي جبيلة فاستعدوا له ، وقدم عليهم وخشى أن يتحصن منه اليهود فاتخذ حائراً^(١) وبث إليهم فال خواصهم وحشمهم وأذن لهم في دخول الحائر ثم أمر جنوده قتلهم عن آخرهم . وقال للأوس والخزرج : إذا لم تغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء فلا تحرقنكم ورجع إلى الشام . فأقاموا في عداوة مع اليهود ثم صنع لهم مالك بن عجلان طعاماً ودعاهم فامتنعوا خوفاً من القدر فاعتذر إليهم مالك عن فعل أبي جبيلة ووعدهم أنه لا يقصد مثل ذلك فأجابوه وجاءوا إليه فقدرهم وقتل ٨٧ من رؤسائهم وفر الباقون وصورت اليهود مالكا في كنائسهم وبيعهم وكانوا يلعنونه كلما خلاوا .

وذكر ابن الأثير رواية أخرى وهي أن اليهود كان لهم ملك اسمه الفيظون وكان ثالماً فاسقاً . وقد سن سنة أن كل امرأة تتزوج يدخل عليها قبل زوجها . فاتفق يوماً زفاف أخت مالك هذا فأتت مجلساً فيها أخوها وكشفت عن ساقها . فقال لها أخوها : قد أتيت بسوء . قتلت : الذي يراد بي الليلة أشد من هذا فثارت النخوة في رأسه واحتال على الدخول معها عند الملك في زى امرأة فلما خلا المكان قتله^(٢) وفر إلى أبي جبيلة ولم يكن هذا ملكاً لفسان بل معظماً عند ملوك غسان وقد ذلوا بعد هذه الفعلة وخافوا ولجأ كل قوم إلى بطن من الأوس والخزرج يستنصرون بهم ويكونون لهم أحلافاً ، وعظم شأن مالك وسوده الحيان . ولم يمض زمان طويل حتى أثرى الأوس والخزرج وامتنع جانبهم وقد تناسلوا وتكاثروا وتشعبوا عدة بطون فكان بنو الأوس كلهم للمالك بن الأوس فمنهم خطبة بن جشم بن مالك وثلعة ولوذان وعوف كلهم بنو عمرو بن عوف بن مالك . ومن بني عوف حنش ومالك وكلفة . ومن مالك معاوية وزيد . ومن زيد عبيد وضبيعتو أمية ومن كلفة جججبا . ومن مالك بن الأوس الحارث وكعب ابنا الخزرج بن عمرو بن مالك . فمن كعب بنو ظفر . ومن الحارث بن الخزرج حارثة وجشم . ومن جشم بنو عبد الأشهل . ومن مالك بن الأوس أيضا بنو سعد وبنو عامر ابنا مرة بن مالك فبنو سعد الجمادرة . ومن بني عامر عطية وأميه ووائل بنو زيد بن قيس بن عامر . ومن مالك بن الأوس أيضاً أسلم وواقف ابنا امرئ القيس بن مالك . فهذه بطون الأوس كما ذكر ابن خلدون . وأما الخزرج فخمسة بطون من كعب وعمرو وعوف وجشم والحارث .

١ — فمن كعب بن الخزرج ، بنو ساعدة بن كعب .

٢ — وعمرو بن الخزرج بنو النجار وهم : تيم الله بن ثعلبة بن عمرو وهم شعوب كثيرة : بنو مالك وبنو عدى

(١) الحائر : هو المكان الطمئن الوسط المرتفع الجوانب (٢) قتل الأستاذ ولعنسون في كتابه تاريخ اليهود في بلاد العرب هذه القصة عن خلاصة الوفا وقال إنها خرافية لأنه ليس من المقول أن ملكاً يهودياً يرتكب جريمة منكراً كهذه تناقض روح التوراه وتحالف الإيمان بالله موسى دون أن يجد مقاومة عنيفة وإنكاراً شديداً من شعبه وأبناء جلدته وقال ومن التريب أن قصة كهذه تماماً قصها الطبري عن طسم وجديس وأنكر الأستاذ ولعنسون أيضاً القصة الأولى الخاصة بمالك بن العجلان بعد أن قلها عن الأعالي . وعلى كل حال لم يكن اليهود والخزرج على وفاق بل كانوا في شقاق في هذه المدة بسبب أن اليهود كانوا أصحاب الأموال والخزرج والأوس لبثوا حيناً من الدهر وهم في عسر .

- ١٣٨ -

وبنو مازن وبنو دينار ، كلهم بنو النجار . ومن مالك بن النجار ، مبدول واسمه عامر وغامر وعمرو : ومن عمرو عسدي ، ومعاوية .

٣ - ومن عوف بن الخزرج ، بنو سام والقواقل وهما : عوف بن عمرو بن عوف والقواقل ثعلبة ومرضخة بنو قوقل بن عوف ، ومن سالم بن عوف ، بنو العجلان بن زيد بن عصم بن سالم وبنو سالم بن عوف .

٤ - ومن جشم بن الخزرج بنو غضب بن جشم وي زيد بن جشم . فن غضب بنو بياضة وبنو زريق وبنو عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب . ومن يزيد بن جشم بنو سلمة بن سعد بن علي بن راشد بن ساردة بن يزيد .

٥ - ومن الحارث بن الخزرج ، بنو خذرة وبنو حرام ابني عوف بن الحارث بن الخزرج . فلما فعلوا ما فعلوا باليهود واعتزوا وكثروا تفرقوا في عالية يثرب وسافلتها وملكوا أمرها في حلفهم من جاورهم من قبائل مضر ثم قامت الفتن بين الحيين وكل منهم يستنصر بمن حالقه من مضر واليهود ورحل عمرو بن الإطنابة من الخزرج بن المنذر ملك الحيرة فلكه على الحيرة واتصلت الرياسة في الخزرج والحرب بينهم وبين الأوس

العداوة بين الأوس والخزرج

كانت أول فتنة وقعت بين الأوس والخزرج « حرب سمير » وذلك أن رجلاً حليفاً يقال له كعب فاخر الأوس بشيء فغضب منهم رجل يقال له سمير وشتمه ثم رصده حتى خلا به فقتله فغضب مالك بن عجلان وطلب الرجل من عشيرته فأنكروا معرفته وعرضوا عليه الدية قبلها فأرسلوا إليه نصف دية لأن الرجل حليف لانسب فأبى إلا دية كاملة فامتنعوا ولج الأمر حتى أفضى إلى الحاربة فقتلوا مرتين كانت النصر في الثانية منهما الأوس فلما افترقوا . أرسلت الأوس إلى مالك أن حكم بيننا المنذر بن حرام النجاري الخزرجي وهو جد حسان بن ثابت فأجابهم إلى ذلك فحكم بأن يؤدي الأوس إلى مالك دية الصريح ثم يعودون إلى سنتهم القديمة فرضوا بذلك وافترقوا وقد شبت البغضاء في قلوبهم وتمكنت العداوة بين القبيلتين .

ثم إن كعب بن عمرو المازني الخزرجي تزوج امرأة من بني سالم فأمر أحيحة بن جلاح رئيس بني جحجبان الأوس جماعة أن يرصدوه ويقتلوه ففعلوا فدعا أخوه عاصم قبيلته للنصرة فاستعدوا والتقوا هم والأوس واقتتلوا قتلاً شديداً فانهمزمت بنو جحجبان وانهمز أحيحة فركض وراءه عاصم فأدركه وقد دخل الحصن وأغلقه فرماه بسهم فلم يصبه فقتل أخاه له فزعم أحيحة أن يكبس بني النجار وكان متزوجاً بامرأة منهم فلم يرضها ذلك وخافت على قومها فسارت إليهم ليلاً وقد نام أحيحة بعد سهر طويل وأندرتهم فلما هم أحيحة إذا هم على سلاحهم فلم يقدر عليهم ف ضرب امرأته حتى كسر يدها لما يلقيه ما فعلت وطلقتها .

ثم كانت حرب بين بنى وائل بن زيد من الأوس وبنى مازن بن النجار من الخزرج . وذلك أن الحديين بن الأسلت الأوسى نازع رجلا من بنى مازن وقتله فنبهه قوم من بنى مازن فقتلوه فبلغ ذلك أخاه أبا قيس بن الأسلت فجمع قومه وانضمت الأوس والخزرج كلها فاقتتلوا قتالا شديداً فانهزمت الأوس .

ثم كانت حرب بين بنى ظفر من الأوس وبنى مالك بن النجار من الخزرج ، وذلك أن رجلا من ظفر كان يمر إلى أرضه في أرض رجل من بنى النجار فنبهه فلم يتمتع فنازعه فقتله الظفري فاجتمع قومه وافتتلا فانهزم بنو مالك بن النجار .

ثم إن رجلا من بنى النجار أصاب غلاماً من قضاة وقتله وكان عم الغلام جاراً لمعاذ بن النعمان الأوسى فطلب معاذ دية من بنى النجار فامتنعوا فلقبهم بقومه عند فارع أطم^(١) حسان بن ثابت ولم يزل القتال بينهم حتى حمل الدية إليه عامر بن الإطنابة فاصطاحوا حالا .

ثم كانت الوقعة المعروفة بحاطب وهو حاطب بن قيس من بنى أمية بن زيد بن مالك بن عوف الأوسى وبينها وبين حرب سمير . نحو مائة سنة وكان سبب هذه الحروب أن حاطباً كان رجلاً شريفاً سيداً فأناه رجل من بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان فنزل عليه ثم إنه غدا يوماً إلى سوق فينقاع فرآه يزيد بن الحارث المعروف بابن فسحم وهى أمه وهو من بنى الحارث بن الخزرج فقال يزيد لرجل يهودى لك ردائى إن كسنت هذا الثعالبى فأخذ ردائه وكسعه^(٢) كسعة سمعها من بالسوق فنادى الثعالبى بالحاطب كسع ضيفك وفضح . وأخبر حاطب بذلك فجاء إليه فسأله من كسعه فأشار إلى اليهودى فضر به حاطب بالسيف ففارق هاتيه فأخبر ابن فسحم الخبر وقيل له قتل اليهودى قتله حاطب ، فأسرع خلف حاطب فأدركه وقد دخل بيوت أهله فلقى رجلاً من بنى معاوية فقتله (ولا ندري السبب الذى دعا ابن فسحم أن يحرض ذلك اليهودى على ضرب الثعالبى فى دبره) فنارت الحرب بين الأوس والخزرج وكان الظفر فيها للخزرج وهذا اليوم من أشهر أيامهم ، وكان بعده عدة وقائع كلها من حرب حاطب فنها يوم الربيع ، ويوم البقيع ، والفجار ، الأول والثانى ، ويوم بعث وهو آخر الأيام بينهم .

وفى يوم الفجار الثانى حالفت قريظة والنضير الأوس على الخزرج وجرى بينهم قتال سعى ذلك اليوم يؤم الفجار الثانى ، وسبب حرب يوم بعث هو أن قريظة والنضير جددا اليهود مع الأوس على المؤازرة والتناصر واستحكم أمرهم وجدوا فى حربهم ودخل معهم قبائل من اليهود غير من ذكرنا فلما سمعت بذلك الخزرج جمعت وحشدت وأرسلت حلفاءها من أشجع وجهينة وأرسلت الأوس حلفاءها من مزينة ومكثوا أربعين يوماً يتجهزون للحرب والتقوا (ببعاث) وهى من أعمال قريظة . وعلى الأوس حضير الكتائب والد أسيد بن حضير وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى وتحلف عبد الله بن أبى ابن سلول فيمن تبعه عن الخزرج . وتحلف بنو حارثة بن الحارث

(١) الأطم : الحصن . (٢) كسعه : ضرب دبره بيده .

عن الأوس . فلما التقوا اقتتلوا قتالا شديداً وصبروا جميعاً ، ثم إن الأوس وجدت من السلاح ، فولوا منهزمين نحو العريض فلما رأى حضير هزيمتهم برك وطعن قلمه بسنان رمح وصاح واعقراه كعقر الجمل والله لا أعود حتى أقتل فإن شئتم يامعشر الأوس أن تسلموني فافعلوا ، فمطفئوا عليه وقاتل عنه غلامان من بني عبد الأشهل يقال لهما محمود ويزيد ابنا خليفة حتى قتلا وأقبل سهم لا يدري من رمى به فأصاب عمرو بن النعمان البياضى رئيس الخزرج قتلته فبينما عبد الله بن أبي ابن سلول يتردد راكباً قريباً من بعث يتجسس الأخبار إذ طلع عليه بعمرو بن النعمان قتيلاً في عباءة يحمله أربعة رجال كما كان قال له . فلما رآه قال ذق وبال البنى . وانهمزمت الخزرج ووضعت فيهم الأوس السلاح فصاح صائح يامعشر الأوس أحسنوا ولا تهملوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب فأنهوا عنهم ولم يسلبوهم وإنما سلبهم قريظة والنضير وحملت الأوس حضيرا مجروحاً فأت وأحرقت الأوس دور الخزرج ونخيلهم فأجار سعد بن معاذ الأشملى أموال بني سلمة ونخيلهم ودورهم جزاء بما فعلوا له في الرعل ، ونجى يومئذ الزبير بن إياس بن باطا ثابت بن قيس بن شماس الخزرجى أخذه فجز ناصيته وأطلقه ، وهى اليد التى جازاه بها ثابت في الإسلام يوم بنى قريظة .

الخلاصة

تبين لنا من تاريخ الخزرج والأوس أنهما ابنا حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء الذى خرج من اليمن بعد تفرق أهل سبأ بسيل العرم وأن هذا السيل ليس خرافة بل حدث مراراً وخرب السد ففرقت البلاد . وقد لبثت الخزرج والأوس حيناً من الدهر مع اليهود يحيون الأرض الموات ويزرعونها وهم في عسر شديد وكان اليهود هم أرباب الأموال فحدث نزاع وشجار بينهم وبين اليهود وهو أشبه شئء بالثورات التى حدثت بين المزارعين أو العمال والمتمولين في القرون الأخيرة .

ثم نشبت حروب بين الأوس والخزرج فتارة كان النصر فيها للخزرج وأخرى للأوس وكان الظفر في أكثرها للخزرج . وأخيراً حالفت قريظة والنضير الأوس على الخزرج وانضم بنو قينقاع إلى الخزرج على أن تلك الحروب الطاحنة بين القبيلتين الأخنتين كان سببها - بناء على ما وصل إلينا من تاريخها - حزازات شخصية كان في الإمكان ملاقاتها . لكن العداء اشتد بينهما لما في طبيعة العرب من التمسك بالأخذ بالتأثر . وقد بلغت العداوة بين الخزرج والأوس مبلغاً عظيماً قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة . وآخر الحروب بينهم يوم بعث الذى هزم فيه الخزرج وكان حوالى سنة ٦١٦ م فلما سثموا القتال أجمعوا على تنويج عبد الله بن أبي ابن^(١) سلول ملكاً عليهم وابن سلول هذا هو الملقب برأس المنافقين وكان رئيس الخزرج ولما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصرعاً على النفاق والضغن فكان رأس المنافقين وإليه يجتمعون . وقد حسد النبي لأن الإسلام منع تنويجه وأخذته

(١) يقال عبد الله بن أبي ابن سلول بتوين أبى ، وكتابة ابن سلول بالألف ، ويرب إعراب عبد الله لأنه صفة له لا لأبى .

العزة فأضمر الشر وهو الذي قال في غزوة المصطلق ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ قال ابنه عبد الله للنبي هو والله الذليل وأنت العزيز يا رسول الله إن أنت أذنت لي في قتله قتلته فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها أحد أبر بوالده مني . ولكنني أخشى أن تأمر به رجلاً مسلماً فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي على الأرض حياً حتى أقتله . قال صلى الله عليه وسلم : بل نحسن صحبته ونترفق به ما صحبنا ولا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ولكن بر أباك وأحسن صحبته .

ولما أنعم الله على الخزرج والأوس بنعمة الإسلام اتفقت الكلمة واجتمع الشمل وتأخى الفريقان فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمهما ولقبهما بالأنصار لأنهم نصره . وتوحيد الاسمين تحت راية الإسلام كان له أعظم أثر في النفوس ؛ إذ بذلك امتنع الشقاق وتضافت النفوس وساروا جميعاً نحو غرض واحد ومبدأ واحد وهو نشر الإسلام جاء في دائرة المعارف الإسلامية في مادة أنصار (Ansar) : «سكان محمداً أراد أن يشابه بين كلمة الأنصار والنصارى المطلقة على المسيحيين» وهذا خطأ واضح لأن كلمة أنصار جمع نصير أما نصارى فنسبة إلى قرية بالشام تسمى ناصرة أو نصران وفوق ذلك فإن سبب تسمية الخزرج والأوس بالأنصار معروف وهو لأنهم نصروه صلى الله عليه وسلم وقد جل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التشبه والتقليد .

مدينة يثرب

سميت يثرب بعد الإسلام بالمدينة ، مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي عبارة عن جملة قرى تقع في سهل خصب وبينها وبين مكة ٢٠٠ ميل وهي في شمالها . جاء في معجم البلدان لياقوت « إن لهذه المدينة تسعة وعشرين اسماً » ثم سردھا . وكذا أحصى المجد الشيرازي اللغوي نحو ثلاثين اسماً وذكر السهودي في كتاب (وفاء الوفا) أربعة وتسعين اسماً وقال إن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى وتدل ابن زبالة أن عبد العزيز بن محمد الدراوردي قال : بلغني أن للمدينة في التوراة أربعين اسماً .

فمن أسمائها أثرب كمسجد ويثرب : قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ والبلد . قال تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ودار الهجرة والسنة وطيبة وطابة وقرية الأنصار ومدينة الرسول ومضجع الرسول وأكالة البلدان والباركة والمسكينة والعذراء والبارة والفاضحة^(١) .

أما قدرها فهي في مقدار نصف مكة وهي في حرة سبخة ولها نخيل كثير ومياه ، ونخيلهم وزروعهم تسقى من الآبار عليها العبيد والمدينة سور والمسجد في نحو وسطها وقبر النبي ﷺ في شرق المسجد وهو بيت مرتفع وليس بينه

(١) لأن من أضمر فيها شيئاً من سوء أظھر الله ما أضمره واتضح به .

وبين سقف المسجد إلا فرجة وهو مسدود لا باب له وفيه قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبر أبي بكر وقبر عمرو المنبر الذي كان يخطب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غشى بمنبر آخر والروضة أمام المنبر بينه وبين القبر ومصلاه صلى الله عليه وسلم الذي كان يصلي فيه الأعياد في غربى المدينة داخل الباب .

و (بقيع الفرقد) خارج المدينة من شرقيها وهو مدفن أكثر أمواتها ^(١) و (قُباء) خارج المدينة على نحو ميلين إلى مايلي القبلة وهي شبيهة بالقرية و (أحد) جبل في شمال المدينة وهو أقرب الجبال إليها مقسدار فرسخين وقبرها مزارع ونخيل وضياح لأهل المدينة (وادي العقيق) فيما بينها وبين الفرع و (الفرع) من المدينة على أربعة أيام في جنوبها . وبها مسجد جامع غير أن أكثر هذه الضياح خراب وكذلك حوالى المدينة ضياح كثيرة أكثرها خراب . وأعذب مياه تلك الناحية آبار العقيق .

وحرم رسول الله ﷺ شجر المدينة بريداً في بريد من كل ناحية ورخص في الهش وفي متاع الناضح ونهى عن الخبط (ضرب الشجر بالمصا ليقنثر ورقها) وأن يعضد ويهصر . ولم تكن المدينة بلداً خصباً مشعراً ، إنما كان بها بعض النخيل والماشية ومن خصائص المدينة أنها طيبة الريح وللعطار فيها فضل رائحة لا توجد في غيرها وتمرها الصيحاني لا يوجد في بلد من البلدان مثله ولهم حب اللبان ومنها يحمل إلى سائر البلدان . وجبالها أحد قد فضل رسول الله ﷺ فقال « أحد جبل يحبنا ونحبه وهو على باب من أبواب الجنة » وحجارة أحد من الجرانيت .

المسافات . من المدينة إلى مكة نحو عشر مراحل ^(٢) ومن الكوفة إلى المدينة نحو عشرين مرحلة وطريق البصرة إلى المدينة نحو من ثمانى عشرة مرحلة ويلتقى مع طريق الكوفة بقرب معدن النقرة ومن الرقة إلى المدينة نحو من عشرين مرحلة . ومن البحرين إلى المدينة عن طريق الساحل .

ولما قدم رسول الله المدينة وجد أهلها من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى « ويل للمطففين الآية » فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

مرض المهاجرين بحمى المدينة

حاول رؤساء قريش منع المسلمين من الهجرة إلى المدينة لكنهم استطاعوا الهجرة بعد بضعة أسابيع وقد اعتاد المهاجرون جو مكة الجاف فلما قدموا المدينة أصيب أكثرهم بالحمى وربما كانت انفلونزا أو ملاريا لأن صيفها رطب وشتاها قارس والمطر دائم تقريباً . قالت عائشة « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي أول أرض أصاب أصحابه منها بلاء وسقم . وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ وأصاب الحمى أبا بكر وبلاؤا وعامر بن فهيرة . فاستأذنت

(١) وبه قبر إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب ولد جانيه قبر العباس وقبر عثمان وقبر مالك بن أنس إمام المذهب المعروف . (٢) تبلغ الرحلة عشرين ميلاً .

رسول الله ﷺ في عيادتهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب من شدة الحمى فأذن لي فدخلت عليهم وهم في بيت واحد فوجدتهم يبهذون من شدة الحمى فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت فنظر إلى السماء وقال : « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا وصحبنا لنا واهل حُماها إلى الجحفة »^(١) فاستجاب الله له فطيب هوائها وترابها وسكنها والعيش بها ، وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى أنشد :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله

وهذا من شعر حنظلة بن يسار وليس من شعر أبي بكر . وحكى المدينة كانت للآلريا لما كان يحيط بها من البرك والآبار حتى إن الجبال كانت تمرض من الشرب منها وكانت قريش تعيب على أهل يثرب ما يعترهم من الحمى وتسايط اليهود عليهم وتسمى الحمى (أم ملهم) قال رسول الله ﷺ لزيد الخليل وكان قد أتى مع وفد طيء وأسلم « يا زيد تقتلك أم ملهم » يعني الحمى فأصيب بها أثناء الطريق عند عودته ومات بها .

مسجد رسول الله ﷺ

قال ابن عمر كان بناء للمسجد على عهد رسول الله ﷺ وسقته جريد وعمده خشب النخل فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً فزاد فيه عمر وبناء على ما كان من بنائه ثم غيره عثمان وبناء بالحجارة المنقوشة والنقشة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقته ساجاً وزاد فيه .

وفي الصحيح في ذكر بناء المسجد : وكنا نحمل لبنة لبنة وعمار^(٢) لبنتين لبنتين فرآه النبي ﷺ فجل ينفض التراب عنه ويقول « ويح عمار تقتله الفئة الباغية » .

وروى البيهقي في الدلائل عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال لما بنى النبي ﷺ للمسجد وضع حجراً ثم قال ليضع أبو بكر حجره إلى حجرى ثم ليضع عمر حجره إلى جنب حجر أبي بكر ثم ليضع عثمان حجره إلى جنب حجر عمر . قال رسول الله ﷺ هؤلاء اخلاء من بعدى .

وعن مكحول قال : لما كثر أصحاب رسول الله ﷺ قالوا اجعل لنا مسجداً فقال خشبات وثلمات عريش كعريش أخى موسى صلوات الله عليه . الأمر أجعل من ذلك . ورواه رزين وزاد فيه : فطلقوا ينقلون اللبن وما يحتاجون إليه ورسول الله ﷺ ينقل معهم الخ (الثلمات ما ييس من الأغصان) .

وكان الذين أسسوا المسجد جعلوا طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع وجعل قبلته إلى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب ، باب في مؤخره وهو في جهة القبلة إلى اليوم وباب عائكة الذى يدعى باب عائكة ويقال له

(١) الجحفة قرية قريبة من رابع محل احرام من يمين من جهة مصر حاجا وكان سكانها اذ ذاك من اليهود .

(٢) هو عمار بن ياسر وقد قتل يوم صفين وكان يحارب مع علي بن أبي طالب وقد جاوز التسعين .

- ١٤٤ -

باب الرحمة . والباب الذى كان يدخل منه رسول الله عليه وسلم وهو باب آل عثمان اليوم وهذان البابان لم يغيرا بعد أن صرفت القبلة ، ولما صرفت القبلة سد رسول الله صلى الله عليه وسلم الباب الذى كان خلفه وفتح هذا الباب ومحاذيه هذا الباب الذى سد .

ولما بنى رسول الله مسجده ، بنى بيتين لزوجتيه عائشة وسودة رضى الله عنهما على نعت بناء المسجد من اللبن وجريد النخل ، وكان لبيت عائشة مصراع واحد من عرعر (شجر السرو) أو ساج . ولما تزوج رسول الله نساءه بنى لمن حجرأ وهى تسعة أبيات وذلك فى أوقات مختلفة . وحجر أزواج النبي ﷺ ليست من المسجد ولكن أبوابها شارة فى المسجد .

وكان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع يتكئ عليه فقالت امرأة من الأنصار أو رجل يارسول الله ألا نجعل لك منبراً ؟ قال إن شئتم ، فجعلوا له منبراً . ولما فارق رسول الله الجذع وصعد المنبر ، حنَّ الجذع وسمع له صوت كصوت العشار فقال النبي ﷺ ألا تعجبون من حنين هذه الخشبة ؟ فأقبل الناس عليها فسمعوا من حنينها حتى كثر بكاءهم فنزل إليه رسول الله ﷺ فضمه فسكن .

وفى صحيح البخاوى عن ابن عمر . قال كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحوّل إليه فحنَّ الجذع فأناه فمسح بيده عليه .

ولاشك أن حنين الجذع من معجزاته ﷺ وحديث الجذع مشهور رواه من الصحابة بضعة عشر . وكان المنبر من خشب الأثل ومن درجتين وله مجلس .

وذكر ابن بطوطة فى رحلته « الجذع » فقال :

« دخلنا الحرم الشريف واتهمنا إلى المسجد الكريم فوقفنا بباب السلام مسلمين وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذى حنَّ إلى رسول الله ﷺ وهى ماصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة » وقال عند ذكر القبر الكريم :

« وفى الحديث أن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع نخلة بالمسجد فلما صنع له المنبر وتحول إليه ، حن الجذع حنين الناقة إلى حوارها . وروى أن رسول الله ﷺ نزل إليه فالتزمه فسكن وقال لو لم ألتزمه لحن إلى يوم القيامة . واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم فروى أن تيمم الدارى رضى الله عنه هو الذى صنعه . وقيل إن غلاما للعباس رضى الله عنه صنعه . وقيل غلام لامرأة من الأنصار وورد ذلك فى الحديث الصحيح وصنع من طرفاء الغابة وقيل من الأثل وكان له ثلاث درجات فكان رسول الله ﷺ يقعد على علياهن ويضع رجله الكريميتين فى وسطاهن . فلما ولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، قعد على وسطاهن ووضع رجله على أولاهن . فلما ولى عمر رضى الله عنه جلس على أولاهن ووضع رجله على الأرض . وفعل ذلك عثمان رضى الله عنه

صدراً من خلافته ثم ترقى إلى الثالثة ولما أن صار الأمر إلى معاوية رضى الله عنه أراد نقل المنبر إلى الشام فضع السابون فلما رأى ذلك معاوية ، تركه وزاد فيه ست درجات من أسفله فبلغ تسع درجات .

ولما حج المهدي بن المنصور العباسي سنة ٢٦١ أراد أن يعيده إلى ما كان عليه فأشار عليه الإمام مالك بترك خشية التهاافت فتركه . ويقال إن المنبر الذي صنعه معاوية ورفع منبر النبي ﷺ عليه ، تهاافت على طول الزمان وجدده بعض خلفاء بني العباس واتخذ من بقايا أعواد منبر النبي ﷺ أمشاطاً للتبرك ثم احترق هذا المنبر لما احترق المسجد في مستهل رمضان سنة ٦٥٤ أيام المستعصم بالله واشتغل المستعصم عن عمارته بقتال التتار فعمل المظفر صاحب اليمن المنبر وبعث به إلى المدينة سنة ٦٥٦ فنصب في موضع منبر النبي ﷺ فبقى إلى سنة ٦٦٦^(١) .

تزوج النبي ﷺ

بعائشة رضى الله عنها

عائشة رضى الله عنها هي بنت أبي بكر الصديق وأما أم رومان بنت عامر بن عويمر . ولدت في السنة الثامنة أو التاسعة قبل الهجرة (٦١٣ - ٦١٤ م) أسلمت صغيرة وتزوجها رسول الله ﷺ بمكة في شهر شوال قبل الهجرة ودخل بها في المدينة في منزل أبي بكر بالسنع بعد الهجرة بثمانية أشهر في شهر شوال وكان صداقها أربعمئة درهم وكانت أحب نسائه إليه وكنيتها أم عبد الله . كنيته بابن أختها أسماء وهي أم عبد الله بن الزبير وكان يدعوها أمًا لأنه تربى في حجرها وروى عن النبي ﷺ أكثر من ألف حديث وكانت من أكبر النساء عقلاً . فصيحة الكلام صحيحة المنطق ، تحفظ كثيراً من القصائد ، كريهة لاتدخر شيئاً . أحفظ أهل زمانها للحديث وقد روت عنها الرواة من الرجال والنساء .

وأثبت بعض المؤرخين أن عائشة كان لديها نسخة من القرآن^(٢) ، وقبض رسول الله ﷺ وهي بنت ثمان عشرة ولم يتزوج بكراً غيرها وقبض رسول الله ﷺ ورأسه في حجرها ودفن في بيتها وتوفيت سنة سبع وخمسين للهجرة ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان (١٣ يولييه سنة ٦٧٨ م) وقد قاربت سنباً وستين سنة وصلى عليها أبوهريرة بالبقيع ودفنت ليلاً وذلك زمن ولاية مروان بن الحكم على المدينة في خلافة معاوية وكان مروان استخلف أبا هريرة لما ذهب إلى العمرة في تلك السنة .

روى القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : فضلت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بعشر خصال : تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم بكراً دون غيري . وأبواي مهاجران . وجاء جبريل عليه السلام

(١) صبح الأعشى الجزء الرابع ص ٢٨٨ .

(٢) راجع دائرة المعارف الإسلامية تحت اسم عائشة (Aisha) .

بصورتي في حرية . وأمره أن يتزوج بي . وكنت أغتسل معه في إناء واحد . وجبريل عليه السلام ينزل عليه بالوحي وأنا معه في لحاف واحد . وتزوجني في شوال وبني بي في ذلك الشهر . وقبض بين سحري ونحري وأنزل الله تعالى عذري من السماء ودفن في بيتي ، وكل ذلك لم يساوني غيري فيه^(١) .

صرف القبلة

عن بيت المقدس إلى الكعبة

١٥ شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة (نوفمبر سنة ٦٢٣)

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً وكان يحب أن يصرف إلى الكعبة لما بلغه أن اليهود قالوا : يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا قال جبريل : وددت أن الله صرف وجهي عن قبلة يهود . قال جبريل إنما أنا عبد فادع ربك وسله ، وجعل إذا صلى إلى بيت المقدس يرفع رأسه إلى السماء ينتظر أمر الله لأن السماء قبلة الدعاء ، فنزلت عليه : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ فوجه إلى الكعبة إلى الميزاب . ويقال صلى رسول الله ﷺ ركعتين من الظهر في مسجده بالمسلمين ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام فاستدار إليه ودار معه المسلمون . ويقال بل زار رسول الله ﷺ أم بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة فصنعت له طعاماً وحانت الظهر فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ركعتين ثم أمر أن يتوجه إلى الكعبة فاستدار إلى الكعبة واستقبل الميزاب فسمى المسجد مسجد القبلتين وذلك يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس ثمانية عشر شهراً^(٢) قال الجمهور الأعظم ، إنما صرفت في النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة . وفي البخاري بينا الناس بقاء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها فاستداروا إلى الكعبة .

قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وهذا رد على اليهود والمناقين الذين ساءهم ذلك . وعن يزيد النحوي عن عكرمة والحسن البصري قال : أول ما نسخ من القرآن ، القبلة

(١) راجع تفسير الفخر الرازي الجزء الرابع صفحة ٦٥٦ .

(٢) راجع طبقات ابن سعد . .

الأخلاق

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أراد أن يجعل شيئاً يجمع به الناس للصلاة فذكر عنده البوق وأهله وذكر الناقوس وأهله ، فكره حتى أرى رجل من الأنصار يقال له (عبد الله بن زيد ^(١)) الأذان وأريه عمر بن الخطاب تلك الليلة فأما عمر فقال إذا أصبحت أخبرت رسول الله ﷺ وأما الأنصاري فطرق رسول الله ﷺ في الليلة فأخبره وأمر رسول الله ﷺ « بلالا » فأذن بالصلاة وذكر أذان الناس اليوم . قال : فزاد بلال في الصباح « الصلاة خير من النوم » فأقرها رسول الله ﷺ . وليست فيما رأى الأنصاري وله ﷺ من المؤذنين بلال وابن أم مكتوم بالمدينة ، وبلال أول من أذن في الإسلام وأذن في جامع عمر بن الخطاب بالقدس ومات بدمشق . وكان الأذان في السنة الأولى من الهجرة بعد ما بنى رسول الله ﷺ مسجده . أما تخصيص الأذان برؤيا رجل ولم يكن يوحى فلما فيه من التنويه بالنبي صلى الله عليه وسلم والرفع لذكره إذا كان على لسان غيره كان أرفع لذكره . ويقال إن الوحي قد سبق الرؤيا .

وَالْأَذَانُ لغة : الإعلام وهو مصدر أذن تأذيتاً . شرعاً ، إعلام مخصوص على وجه مخصوص بألفاظ مخصوصة . وهو سنة مؤكدة للرجال في مكان عال . للفرائض الخمس في وقتها ولو قضاء لانيها ، وللوذنون الآن يتنعمون في الأذان وليس ذلك من السنة ولا المستحب . والمطلوب تحسين الصوت بما لا يخرج ألفاظه عن للشروع . كذلك زادوا فيه ما ليس منه !

فرض صیام شهر رمضان

وزكاة الفطر

لما نقل العرب أسماء الشهور عن اللغة القديمة ، سموها بالأزمنة التي هي فيها . فوافق رمضان . أيام مرض الحر
أى شدته وقد نزل فرض صيام شهر رمضان بعد ما صرفت القبلة في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من
هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ الآية وقال
عز وجل ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ فأثبت صيامه على القيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر
وأثبت الإطعام للكبير الذى لا يستطعم الصيام .

(١) عبد الله بن زيد بن ثعلبة يكنى أبا محمد . شهد العقبة وبرا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . أتى عبد الله بن زيد رسول الله فقال يا رسول الله إنه طاف بي طائف في هذه الليلة . مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده ، فقلت يا عبد الله أتنبئ هذا الناقوس ؟ فقال وما تصنع به قلت تدعوه إلى الصلاة قال ، ألا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت وما هو ؟ قال يقول : « الله أكبر . الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله . أشهد أن محمداً رسول الله . حي على الصلاة . حي على الفلاح . حي على الفلاح . الله أكبر الله أكبر . لا إله إلا الله » .

- ١٤٨ -

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه موافقة لهم ولم يأمر أحداً من أصحابه بصيامه ، فلما قدم المدينة ^(١) صامه وأمر بصيامه فلما فرض رمضان كان رمضان هو الفريضة وترك عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه » وكان يهود المدينة يصومونه ويعظمونه لأن الله أنجى فيه موسى وقومه من الفرق وأغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكراً لله وصامه رسول الله وأمر بصيامه قائلاً : نحن أحق بموسى منكم ، وفي رواية أنا أولى بموسى . ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من الحرم .

وركن الصيام الإمساك عن المفطرات وأمر في هذه السنة بركاة الفطر وذلك قبل أن تفرض الزكاة في الأموال وكان يخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الفطر بيومين فيأمر بإخراجها قبل أن يذهب إلى المصلى وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة عشر سنين يضحي في كل عام . وكان يضحي بكبشين سميين أقرنين أملحين أحدهما عن أمته والآخر عن نفسه وآله ، فيأكل هو وأهله منهما ويطعم المساكين .

فريضة الزكاة

الزكاة ركن من أركان الإسلام الخمس وقد فرضت في السنة الثانية من الهجرة : قال رسول الله ﷺ « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وإقام الصلاة . وإيتاء الزكاة وصوم رمضان . وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً » .

وقال تعالى : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وقال : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ وقال ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقال عليه الصلاة والسلام : (أدوا زكاة أموالكم) .

ولم يجاب الزكاة علاج لإزالة مرض حب الدنيا عن القلب . ومانع من طغيان الأغنياء . قال تعالى ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ .

وإخراج الزكاة يحجب الأغنياء إلى الفقراء والمساكين فيزول عنهم الحقد والحسد والسخط . وللمال الفاضل إذا أمسكه الإنسان صار معطلاً : فيجب صرف طائفة منه إلى الفقير لإصلاح شأنه . وهذا من أعظم نعم الإسلام ومحاسنه . وقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ يثبت للإمام حق الأخذ من كل مال وكذلك كان رسول الله ﷺ

(١) من سفرة سافر بها من المدينة بعد الهجرة .

والخليفتان بعده يأخذون الزكاة من الناس ويوزعونها على المحتاجين إلى أن فوض عثمان بن عفان رضى الله عنه في خلافته أداء الزكاة من الأموال الباطنة إلى ملاكها . إلا أن هذا لا يسقط طلب الإمام أصلاً . ولذا لو علم أن بلدة لا يؤدون زكاتهم طالبهم بها . والسواد الأعظم من الأغنياء لا يؤدون الزكاة من تلقاء أنفسهم ، فاشتدت حالة الفقراء كرباً وحرماً وحقنوا على الأغنياء وامتدت إليهم أيديهم بالقتل والسرقه . لذلك ترى الخير كل الخير في أن تبجي الحكومة الزكاة المفروضة وتنقها فيما يصلح شأن الفقراء من إيوائهم وإطعامهم وكسوتهم وعلاجهم وتعليمهم بدلاً من تركهم يمانون آلام الفاقة من جوع وعري ومرض وتشريد واعتناق للمبادئ الاشتراكية المتطرفة التي نشأت من الخلاف القائم بين الأغنياء والفقراء .

فعلى الحكومات الإسلامية الرجوع إلى نظام الزكاة وجبايتها لصالح المعوزين ولاستتباب الأمن ، أما ترك الأغنياء لضمايرهم في إخراج الزكاة فهو تعطيل لها وإبطال لحكمتها .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه قبل هجرته بالمهجرة إلى المدينة فخرجوا أرسلاً فكان أولهم قدوماً إليها أبو سلمة بن عبد الأسد وعامر بن ربيعة وعبد الله بن جحش وبعد قدومه صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بخمسة أشهر آخى بين المهاجرين والأنصار لتذهب عنهم وحشة القرية وليؤنسهم من مفارقة الأهل والمشيقة ويشد بعضهم أزر بعض . وقد آخى بينهم على الحق والمواساة ويتوارثون بعد المات دون ذوى الأرحام وكانوا تسعين رجلاً خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار ، ويقال كانوا مائة وخمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار وكان ذلك قبل بدر فلما كانت وقعة بدر وأنزل الله تعالى ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ نسخت هذه الآية ما كان قبلها وانقطعت المؤاخاة في الميراث ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه . وإنا لنذكر هنا بعض من آخى بينهم :

أخذ رسول الله بيد علي بن أبي طالب فقال هذا أخى .

أبو بكر الصديق وخارجة بن زيد بن أبي زهير الأنصارى^(١) . عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك الأنصارى . جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل الأنصارى . حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة . أبو عبيدة الجراح وسعد ابن معاذ الأنصارى . عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الأنصارى . الزبير بن العوام وسلمة بن سلامة الأنصارى . طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك الأنصارى . عثمان بن عفان وأوس بن ثابت الأنصارى . سعيد بن زيد

(١) كان خارجة بن زيد صهراً لأبي بكر وكانت ابنته حبيبة تمت أبي بكر وقتل خارجة يوم أحد شهيدا .

وأبي بن كعب الأنصاري . مصعب بن عمير وأبو أيوب الأنصاري . أبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر الأنصاري .
عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان العنسي الأنصاري . حاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة الأنصاري . سلمان
الفارسي وأبو الدرداء الأنصاري . أبو ذر الغفاري والمنذر بن عمرو الأنصاري . أبو سبرة بن أبي رهم وسلامة بن
وقش الأنصاري . خباب بن الارت وتميم مولى خراش بن الصمة . صفوان بن وهب ورابع بن العجلان .
صهيب بن سنان والحارث بن الصمة . غن الله بن مخزومة وفروة بن عمرو بن ورقة . مسعود بن ربيعة وعبيد بن
التيهان . معمر بن الحارث بن معمر ومعاذ بن عفراء ، واقد بن عبد الله بن عبد مناف وبشر بن البراء . زيد بن
الخطاب وممن بن عدى . الأرقم بن أبي الأرقم وطاحنة بن زيد .

قال المهاجرون يارسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلا في كثير .
كفونا للثؤنة وأشركونا في المهنة حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . قال لا ، ما أنتم عليهم ودعوتهم لهم ، أى
فإن ثناءكم عليهم ودعاءكم لهم حصل منكم به نوع مكافأة . قال تعالى يثني على الأنصار في سورة الحشر :
﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا
أُوتُوا وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأَلْزَمَهُمُ الْفَلَاحُ ﴾ .

• للراد من الدار في هذه الآية ، المدينة وهي دار الهجرة تبوأها الأنصار قبل المهاجرين .

ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا أى حسداً وحزاة وغيتاً مما أوتى المهاجرون دونهم .

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . يقال آثره بكذا إذا خصه به . ومفعول الإيثار محذوف
والتقدير ، ويؤثرون بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم .

عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنصار ، إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم
وقسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم ، وإن شئتم كان لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم ، قالوا : لا . بل
قسم لهم من ديارنا وأموالنا ولا نشاركهم في الغنيمة . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ
بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

فالأنصار أكرموا المهاجرين إكراماً عظيماً ليدفعوا عنهم غوائل الحاجة فكانوا يحرمون أنفسهم لمساعدة
إخوانهم في الإسلام على حداثة عهدهم به حتى صاروا مثلاً يضرب للتعاون وحسن الخلق .

إسلام عبد الله بن سلام بن الحارث

الإسرائيلي

كان عبد الله بن سلام كما قال بعض أهله عنه حبراً عالمًا . قال سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفت صفته واسمه وزمانه الذي كننا نتوكل له فكنت مسرًا لذلك صامتًا عليه حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فلما نزل بقاء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدمه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة فلما سمعت الخبر بقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت . فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيرى : خيبك الله والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا مازدت ، قال قلت لها أى عمه هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به . فقالت أى ابن أخى أهو النبي الذي كننا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟ قلت لها نعم . قالت فذاك إذن . قال ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا وكنتم إسلامى من يهود . ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله إن يهود قوم بهت^(١) وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك فتغيبني عنهم ثم تسألم عني حتى يخرجوك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى فإن علموا به بتوني وعابوني . فأدخلني رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض بيوته ودخلوا عليه فكلموه وسألوه ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ قالوا سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا . قال فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم ياه مشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله تجددونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته فأني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدق به وأعرفه . قالوا كذبت ثم وقعوا بي فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألم أخبرك يا نبي الله أنهم بهت أهل غدر وكذب ؟ قال فأظهرت إسلامى وسلام أهل بيتي وأسلمت عمتي خالدة ابنة الحارث فحسن إسلامها^(٢) .

وذكرت دائرة المعارف الإسلامية أنه كان من يهود المدينة واسمه الحصين وسماه النبي ﷺ عبد الله لما أسلم وأنه توفي سنة ٤٣ هـ (٦٦٣ - ٦٦٤ م) .

وقد كان عبد الله بن سلام حليفًا لبني الخزرج كنيته أبو يوسف كنى بابنه وهو من قبيلة قريظة وكان اسمه في الجاهلية حصينا ونزل في فضله قوله تعالى ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَّا مَنْ ءَسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ وقول الله تعالى ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾^(٣)

(١) قال ابن الأثير هو جمع بهوت من بناء المبالغة في البهت مثل صور وصبر ثم يكن تخفيفا . والبهت التحير . قال أبو إسحاق البهتان الباطل الذي يحير من بطلانه وهو من البهت : التحير ، والألف والنون زائدتان .
(٢) راجع الجزء الثاني من السيرة النبوية لابن هشام . (٣) راجع كتاب تهذيب الأسماء ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ طبع أوربا

وفي صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه . فقال : إني أسألك عن ثلاث لا يعلمن إلا نبي . قال : ما أول أشرط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أى شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أى شيء ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول الله ﷺ خبرني بهن آتفاً جبريل . قال : فقال عبد الله ذاك عدو اليهود من الملائكة فقال رسول الله ﷺ . أما أول أشرط الساعة فنار تحترق الناس من للشرق إلى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت^(١) . وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها . قال أشهد أنك رسول الله . الحديث . قال الطبري مات (عبد الله بن سلام) في قول جميعهم بالمدينة سنة ثلاث وأربعين .

عداء اليهود ومناقشاتهم

عُرف بعض اليهود بالمدينة بشدة عداوتهم لرسول الله ﷺ مع أن علماءهم كانوا يعرفون أنه سيثبت نبي وكانوا يعرفون صفاته من التوراة ، فمن أعدائه الذين انتصبوا لعداوته حبي وأبوياسر وسلام بن من مشكم . وكنانة بن الربيع وكعب بن الأشرف . وعبد الله بن سوريا وابن صلوبا ، وغيرهم الذي أسلم بعد ، ولبيد بن الأعصم الذي حرضه اليهود وسحر النبي ﷺ ثم جاء جبريل وأخبر بذلك السحر وبمكانه وعفا عنه رسول الله ﷺ ، وقال أما أنا قد عافاني الله وكرهت أن أثير على الناس شراً (يعنى بقتله) .

ومنهم مالك بن الصلت . وقد كان من أبحار اليهود ورئيساً فإنه قال ما أنزل الله على بشر من شيء ، فانظر كيف أدى به عداؤه لرسول الله ﷺ إلى الكفر بنبيينا وبموسى عليهما السلام وبما أنزل عليهما . فقالت اليهود له ما هذا الذي بلغنا عنك ؟ فقال إنه أغضبني فقلت ذلك فزعه من الرياسة وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف . ومن كان من أبحار اليهود حريصاً على رد الناس عن الإسلام شاس بن قيس اليهودي . كان شديد الطعن على المسلمين ، شديد الحسد لهم . مر يوماً على الأنصار : الأوس والخزرج وهم مجتمعون يتحدثون فضاخه ما رأى من ألفتهم بعد ما كان بينهم من العداوة . فقال : قد اجتمع بنو قبيلة والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار . فأمر فتي شابا من اليهود فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعث : أى الحرب التي كانت بينهم وما كان فيه وأنشدكم ما كانوا يتناولون به من الأشعار ، ففعل فتكلم القوم عند ذلك وذكر كل أقوال شاعرهم وتنازعوا وتواعدوا على المقاتلة فنادى هؤلاء : يا آل الأوس ونادى هؤلاء : يا آل الخزرج ثم خرجوا للحرب وقد أخذوا السلاح واصطفوا للقتال .

(١) هي قطعة متعلقة بالكبد وهي أطيه . قيل هي أها طعام وأمرؤه .

فما بلغ الخبر رسول الله ﷺ خرج إليهم فيمن كان معه من المهاجرين فقال يا معشر المسلمين الله اتقوا الله . أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام وقطع به عنكم أسر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا ؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس والرجال من الخزرج ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين . وأنزل الله في شاس بن قيس ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ وأنزل الله في الأنصار ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيْقًا مِنَ الَّذِينَ آوَتْهُمُ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ . (سورة آل عمران)

وقد كان اليهود يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء تعنتوا وحسدوا وبغيا ليلبسوا الحق بالباطل . فجاءه يهوديان إلى رسول الله فسألاه عن قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ ﴾ . فقال لهما : لا تشركوا بالله شيئا . ولا تزنوا . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ولا تسرقوا ولا تسحروا . ولا تمشوا بغيره إلى سلطان . ولا تأكلوا الربا . ولا تقذفوا الحصنة ، وعليكم يا يهود خاصة ألا تعدوا في السبت . قبيلا يديه ورجليه . وفالا نشهد أنك نبى . قال ما يمنعكما أن تسلما ؟ قالوا : نخاف إن أسلنا تقتلنا اليهود .

وسأله صلى الله عليه وسلم مرة . فقالوا : أخبرنا عن علامة النبي . فقال : « تنام عيناه ولا ينام قلبه » . وسأله أى طعام حرمه إسرائيل على نفسه قبل أن تنزل التوراة . قال : أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام مرض مرضا شديدا وطال سقمه فنذر لئن شفاه الله تعالى من سقمه ليحرق من أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه . فكان أحب الطعام إليه لحم الإبل ، وأحب الشراب إلينا ألبانها . قالوا اللهم نعم .

وقالوا مرة غاظة له صلى الله عليه وسلم ما يرى لهذا الرجل همه إلا في النساء والنكاح فلو كان نبيا كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ قد جاء أن سليمان عليه السلام كان له مائة امرأة وتسعمائة سرية .

وقد انضم إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج مناقبون على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث إلا أنهم دخلوا في دين الإسلام خشية القتل لما قهرهم الإسلام بظهوره واجتماع قومهم عليه فكان هواهم مع اليهود في البر وفي الظاهر مع المسلمين وهؤلاء هم المناقون. وقد ذكر بعضهم أن المناقبين الذين كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة . منهم عبد الله بن أبي بن سلول وهو رأس المناقبين ولاشتهاره بالنفاق لم يعد في الصحابة . وكان من أعظم أشرف أهل المدينة وكانوا قبل مجيئه صلى الله عليه وسلم قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه . وكان عبد الله بن أبي جميل الصورة ممتلئ الجسم فصيح اللسان وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ .
مثال من نفاق ابن أبي .

من نفاقه ما أخرجه الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما . قال نزلت : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من الصحابة . فقال ابن أبي انظروا كيف أرد عنكم هؤلاء السفهاء فأخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه ، فقال : مرحباً بالصاديق سيد بني تميم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الفار ، البازل نفسه وماله لرسول الله ثم أخذ بيد عمر رضي الله عنه وقال : مرحباً بسيد بني عدى الفاروق والقوى في دين الله البازل نفسه وماله لرسول الله . ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال : مرحباً بابن عم رسول الله وخننه وسيد بني هاشم ، ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له علي رضي الله عنه : اتق الله يا عبد الله . ولا تنافق فإن المناقبين شر خليفة الله . فقال له عبد الله مهلاً يا أبا الحسن أقول لي هذا والله إن إيماننا كإيمانكم ونصديقتنا كمتصديكم ، ثم افترقوا . فقال لأصحابه : كيف رأيتموني فعلت فأتيتوا عليه خيراً فرجع المسلمون إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبروه بذلك فنزلت الآية : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ إلى آخر الآيات التي في المناقبين كلها فيه وفي أصحابه .

وبالجملة قد لاقى النبي صلى الله عليه وسلم من شدة الأذى من المناقبين واليهود بالمدينة شيئاً كثيراً ولكنه بالنسبة لأذى أهل مكة كالمدم فإنه كان بالمدينة في غاية العزة واللمعة والقوة من أول يوم . وأذى اليهود غايته المجادلة والتعنّت في السؤال . ولما قويت شوكة الإسلام واشتد الجناح أذن له صلى الله عليه وسلم بالقتال .

أهل الصفة^(١)

أهل الصفة هم قراء المهاجرين إلى المدينة ومن لم يكن له منزل يسكنه ولا عشائر وكانوا نحو ٤٠٠ فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه ويتعلمون القرآن ويصومون ويخرجون في كل غزوة . وكان رسول الله يدعوهم بالليل إذا تعشى فيفرقهم على أصحابه وتعتشى طائفة منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء الله بالنبي وكان أبو هريرة من أهل الصفة وكان رسول الله إذا أتمته صدقة بعث بها إليهم .

(١) الصفة : موضع مظلل في مؤخر مسجد النبي صلى الله عليه وسلم يأوي إليه المساكين .

عن أبي هريرة قال : خرج النبي ﷺ ليلة فقال : ادع لي أصحابي - يعني أهل الصفة - فجعلت أتبعهم رجلا رجلا فأوقفهم حتى جمعهم فجئنا باب رسول الله ﷺ فاستأذنا فأذن لنا فوضع لنا صحيفة فيها صنيع من شعير ووضع عليها يده . وقال : خذوا باسم الله فأكلنا ماشئنا . قال ثم رفعنا أيدينا . وقد قال رسول الله ﷺ حين وضعت الصحيفة والذي نفس محمد بيده ما أنسى في آل محمد طعام ليس شيئاً ترونه . قلنا لأبي هريرة قدر كم هي حين فرغتم ؟ قال : مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع وكان رسول الله ﷺ يؤثر على نفسه وأولاده فيعطى ما بيده للحتاجين (ومنهم أهل الصحيفة) حتى إن ابنته فاطمة رضي الله عنها جاءت تشكو ما تأتي من الرحي وخدمة البيت وكانت سمعت بسبي جاءه فطلبت منه خادماً . فقال : لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطاوى بطونهم من الجوع وأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول : « الله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه فرأى أبو بكر فسأله عن آية من كتاب الله ما سأله إلا ليشبعني فرمى ولم يفعل . ثم مر بي عمر فسأله عن آية من كتاب الله تعالى ما سأله إلا ليشبعني فرمى فلم يفعل . ثم مر بي أبو القاسم ﷺ فتبسّم حين رأيته وعرف ما في نفسي وما في وجهي ثم قال أباهر . قلت لبيك يا رسول الله . قال الحق ومضى فتبعته فدخل فاستأذن لي فدخل فوجد لبناً في قدح فقال من أين هذا اللبن ؟ قالوا أهدى لك فلان أو فلانة قال أباهر . قلت لبيك رسول الله ، قال الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي . قال وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد . إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها فساءني ذلك قلت وما هذا اللبن في أهل الصفة ؟ كنت أحتق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها ، فإذا جاءوا أمرني فكنت أنا أعطيهم وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بد فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت . قال يا أباهر قلت لبيك يا رسول الله . قال خذ فأعطهم . فأخذت القدح فجعلت أعطيته الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح فأعطيته الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد روى القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلى فتبسّم . فقال أباهر قلت : لبيك يا رسول الله . قال بقيت أنا وأنت . قلت صدقت يا رسول الله . قال أقعد فأشرب فعدت فشربت . فقال اشرب فشربت فما زال يقول اشرب حتى قلت لا والذي بعثك بالحق ما أجد مسلماً . قال فأرني فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة » - رواه البخاري في كتاب الاستئذان . قال الله تعالى يذكر أهل الصفة : ﴿ لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

عن ابن عباس وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحاب الصفة فرأى قهرم وجههم ، فطيب قلوبهم .
 قال : أبشروا يا أصحاب الصفة ، فن لقيني من أمتي على النعت الذي أنتم عليه راضيا بما فيه فإنه من رفاقي .
 وقد ترك أغلب المهاجرين أموالهم بمكة عدا عثمان فإنه تمكن من أخذ جميع أمواله معه . وقد كان
 غنياً واشتغل المهاجرون بالزراعة . أعطاهم أهل المدينة أرضاً يستثمرونها .

عن أبي سعيد الخدري . قال : كنا مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة إذا حضر من البيت أتينا به فغفرنا له فغفرنا له
 له حتى إذا قبض انصرف ومن معه؛ وربما قعد حتى يدفن وربما طال ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم من حبسه . فلما
 خشينا مشقة ذلك عليه قال بعض القوم لبعض والله لو كنا لا نؤذن النبي صلى الله عليه وسلم بأحد حتى يقبض فإذا قبض آذناه
 فلم تكن لذلك مشغلة عليه ولا حبس قال فقلنا ذلك . قال فكنا نؤذنه بالبيت بعد أن يموت فيأتيه فيصلي عليه
 ويستغفر له وربما انصرف عند ذلك وربما مكث حتى يدفن الميت فكنا على ذلك أيضاً حيناً ؛ ثم قالوا والله لو أنا
 لم ننشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وحملنا الميت إلى منزله حتى نرسل إليه فيصلي عليه عند بيته لكان ذلك أرفق به
 وأيسر عليه . قال فقلنا ذلك . قال محمد بن عمر : فن هناك سمي ذلك الموضع موضع الجنائز حلت إليه . ثم جرى
 ذلك من فعل الناس من حل جنازهم والصلاة عليهم في ذلك الموضع إلى اليوم .

الإذن بالقتال

أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم في القتال لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر صفر في السنة الثانية من الهجرة وقدم مكث
 النبي صلى الله عليه وسلم يدعو كفار قريش ثلاث عشرة سنة إلى نبذ الأصنام وعبادة الله الواحد بغير قتال صابراً على شدة أذى
 العرب فلم يزدادوا إلا تمناً وتمسكاً واضطهدوا النبي وأصحابه اضطهاداً شديداً وأجأوهم إلى هجر بلادهم وترك
 أموالهم ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يأتون إليه ما بين مضروب ومشجوج فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أؤمر
 بقتالهم . وقال جماعة من الصحابة منهم عبد الرحمن بن عوف والمقداد بن الأسود وقدامة بن مظعون (وهو أخو
 عثمان بن مظعون) وسعد بن أبي وقاص : يا رسول الله كنا في عز ونحن مشركون فلما آمننا صرنا أذلة فائذن لنا
 في قتال هؤلاء . قال كفوا أيديكم عنهم فإنى لم أؤمر بقتالهم .

لم يبق بعد ذلك غير استعمال السلاح للدفاع عن كيانهم والتغلب على عبدة الأصنام ، فالمسألة صارت مسألة
 حياة أو موت ، فإذا انتصار يحقق نشر الدين أو انكسار لا تقوم للمسلمين بعده قائمة ، ولو تمكنت قريش من
 مهاجمة المدينة والانتصار على المسلمين لكان في ذلك القضاء على الإسلام ، وكان المسيحيون في الإمبراطورية
 الرومانية في ذلك الوقت يقاتلون الفرس وينتصرون عليهم .

لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وكثر أتباعه وقام الأنصار بنصره صلى الله عليه وسلم وأصر للمشركون على الكفر والتكذيب أذن لهم بالقتال فبعث عليه السلام البعوث وغزا بنفسه .

وأول ما أنزل في أمر القتال قوله تعالى في سورة الحج :

﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُبْتَغُونَ بَأْسَهُمْ ظُلُمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بَغْيًا حَقًّا إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصُلُواتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾

هذا أول ما أنزل في الإذن بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية .

بعث حمزة

كان أول بعوثه ﷺ أن بعث عمه حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة (٦٢٣ م) في ثلاثين راكباً من المهاجرين . قال بعضهم كانوا شطرين من المهاجرين والأنصار والجمع عليه أنهم كانوا جميعاً من المهاجرين ولم يبعث رسول الله ﷺ أحداً من الأنصار مبعثاً حتى غزا بهم بدرًا . وذلك أنهم شرطوا له أنهم يمنعونهم في دارهم . خرج حمزة ومن معه يعترضون غيراً لقريش جاءت من الشام تريد مكة وكان فيها أبو جهل في ثلاثمائة راكب ولما بلغوا ساحل البحر من ناحية العيص من بلاد جهينة التقوا وتصافوا للقتال ثم حجز بينهم مجدى بن عمرو الجهني وكان مصالحاً للقرنين فانصرف القوم بغير قتال ولم يكن صلى الله عليه وسلم معهم ، وكان يحمل اللواء أبو مرثد كنان بن الحصين النخعي وهو أول لواء عقده رسول الله ﷺ وكان لواء أبيض .

سرية عبيدة بن الحارث

وفي شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة (٦٢٣ م) بعث عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف إلى بطن رابغ وعقد لواء أبيض وكان الذي حمله مسطح بن أثانة بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وكانوا ستين رجلاً من المهاجرين ليس فيهم أنصاري ، فلقى أبا سفيان بن حرب^(١) وهو في مائتين من أصحابه وهو على ماء يقال له أحياء من بطن رابغ على عشرة أميال من الجحفة وأنت تريد قديداً عن يسار الطريق ، ولما نكبوا عن الطريق

(١) أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي والد معاوية ولد قبل الفيل بمسنتين وكان من أشرف قريش وكان تاجراً يجهز التجار بماله وأموال قريش إلى الشام وغيرها من أرض الجهم وكان يخرج أحياناً بنفسه وكانت إليه راية الرؤساء التي تسمى العقاب وهو الذي قاد قريشاً كلها يوم أحد . أسلم ليلة الفتح .

ليبرعوا ركا بهم فكان بينهم الرمي ولم يسلوا السيوف ولم يصطفوا للقتال وإنما كانت بينهم المناوشة إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذ بسهم فكان أول سهم رمى به في الإسلام ثم انصرف الفريقان على حاميتهم .

سرية سعد بن أبي وقاص

ثم سرية سعد بن أبي وقاص إلى الخرار وهو واد في الحجاز يصب في الجحفة وذلك في ذى القعدة على رأس تسعة أشهر من الهجرة ، عقد له لواء أبيض حمله المقداد بن عمرو البهرواني ، وبعثه في عشرين رجلاً من المهاجرين يعترض لمير قريش تمر به وعهد إليه ألا يجاوز الخرار . قال سعد فخرجنا على أقدامنا فكنا نكمن النهار ونسير الليل حتى صبحناها صبح حمس فنجد العير قد صرت بالأمس فانصرفنا إلى المدينة .

غزوة ودان أو غزوة الأبواء

أول مغازيه التي خرج فيها بنفسه ﷺ غزوة ودان . قال زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم « كنا نعلم مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نعلم السور من القرآن » وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كان أبي يعلمنا للمغازي والسرائيا ويقول : يا بني إنما شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها . فأول غزوة خرج فيها ﷺ (ودان) وهي قرية جامعة من أعمال الفرع . وبعضهم يسميها غزوة الأبواء ، فمنهم من أضافها إلى ودان ومنهم من أضافها إلى الأبواء لأنها متقاربان في وادي الفرع بينهما ستة أميال . خرج رسول الله إليهما في صفر على رأس اثني عشر شهراً من الهجرة (يونيه سنة ٦٢٣ م) يريد عيراً لقريش وبني ضمرة وقيل لم يكن صلى الله عليه وسلم يريداً لهم بل يريداً للعير التي لقريش فلما لقي بني ضمرة عقد بينه وبينهم صلحاً وكان خروجه في ستين ركباً ليس فيهم أنصاري فلم يدرك العير التي أراد . وكانت المصالحة بينه وبين بني ضمرة على أنهم لا يغزونه ولا يكثرثون عليه جمعاً ولا يعينون عليه عدواً وأن لهم النصر على من رامهم بسوء وأنه إذا دعاهم لنصر أجابوه وعقد ذلك معهم سيدهم مخشي بن عمرو الضمري وكتب بينهم كتاباً فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصر على من رامهم بسوء بشرط أن يحاربوا في دين الله ما بل بحر صوفة وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم لنصر أجابوه . عليهم بذلك ذمة الله ورسوله » .
وكان لوائه أبيض وكان مع عمه حمزة رضي الله عنه واستخلف على المدينة سعد بن عباد . وكانت غيخته خمس عشرة ليلة .

غزوة بواط^(١)

ثم غزوة بواط في شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة (يوليه ٦٢٣ م) وكان يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص وكان اللواء أبيض واستخلف على المدينة سعد بن معاذ . خرج رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه من المهاجرين خاصة حتى بلغ بواط يعترض لعير قريش فيها أمية بن خلف الجحى ومائة رجل من قريش و (٢٥٠٠) بمير قناتته ورجع ولم يلق حرباً .

غزوة بدر الأولى

أو غزوة سفوان

وفي شهر ربيع الأول أيضاً خرج رسول الله ﷺ لطلب كرز بن جابر النهري وكان لواءه أبيض وكان بيد علي بن أبي طالب ، واستخلف على المدينة مولاة زيد بن حارثة . وكان كرز بن جابر قد أغار على سرح للدينة فاستاقه وكان يرعى بالجماء^(٢) فطلبه رسول الله ﷺ حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر وفاته كرز بن جابر فلم يلحقه فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة . وهذه الغزوة هي غزوة بدر الأولى .

أما كرز فإنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وولاه رسول الله ﷺ الجيش الذي بعثه في أثر العرينين الذي قتلوا رابعة وقتل كرز يوم الفتح وذلك سنة ثمان من الهجرة .

وقد ذكر ابن إسحاق هذه الغزوة بعد المشيرة . قال ابن حزم بعشرة أيام .

غزوة المشيرة

كانت غزوة المشيرة في جمادى الأولى وقيل الآخرة على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة (اكتوبر سنة ٦٢٣ م) وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب وكان لواءه أبيض واستخلف على المدينة أباسلمة بن عبد الأسد الخزومي وخرج في خمسين ومائة ويقال في مائتين من المهاجرين ممن انتدب ولم يكره أحداً على الخروج وخرجوا على ثلاثين بعيراً . خرج يعترض عبر قريش حين أبدت إلى الشام وكان قد جاءه الخبر بقفولها من مكة فيها أموال قريش فبلغ العشيرة وهي لبنى مدلب بناحية ينبع وبين ينبع والمدينة تسعة برد فوجد العير التي خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيام وهي العير التي خرج لها أيضاً يريدونها حين رجعت من الشام فساحت على البحر وبلغ قريشاً خبرها

(١) بواط : جبل من جبال جبينة بناحية رضى .

(٢) السرح مارعوا من نعمهم . والجماء : جبل ناحية المقيق لك الجرف بينه وبينه ثلاثة أميال .

فخرجوا يمينونها فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدبر فواقعهم وقتل منهم من قتل، وبالمشيرة كنى رسول الله على بن أبي طالب أبا تراب وذلك أنه رآه نائماً متمرعاً في البوغة^(١) فقال اجلس أبا تراب فجلس ، وفي هذه الغزوة وادع بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً .

كانت قريش قد جمعت أموالها في تلك العير ويقال إن فيها خمسين ألف دينار وألف بعير وكان قائد تلك العير أبا سفيان بن حرب ومعه سبعة وعشرون وقيل تسعة وثلاثون رجلاً ، منهم مخزومة بن نوفل وعمر بن العاص .

سرية عبد الله بن جحش^(٢) الأسدي

أمر رسول الله أبا عبيدة بن الجراح أن يتجهز للغزو فتجهز فلما أراد للسير بكى صبابه إلى رسول الله فبعث مكانه عبد الله بن جحش الأسدي في اثني عشر رجلاً من المهاجرين كل اثنين يمتقبان بعيراً إلى نخلة وهو بستان ابن عامر الذي كان قرب مكة ، وذلك في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة (نوفمبر سنة ٦٢٣ م) وكتب له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يكره أحداً من أصحابه فعمل ذلك ، ثم قرأ الكتاب وفيه يأمره بنزول نخلة بين مكة والطائف فيرصد قريشاً ويعلم أخبارهم فأعلم أصحابه فساروا معه حتى إذا كان بمعدن فوق القرع أضل بعيراً ، وكان زميله عتبة بن غزوان فأقام يومين يبينانه ومضى عبد الله وبقية أصحابه ، حتى نزل بنخلة فرت به عير لقريش تحمل خمرأ وأدماً وزيبا جاءوا به من الطائف ، فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان فلما رأهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم وأشرف لهم عكاشة بن محصن الأسدي وقد حلق رأسه ، فلما رأوه وقالوا أعمار لا بأس عليكم ، وذلك آخر يوم من رجب ، ثم إنهم تشاوروا فأجمعوا على القتال ، فرمى واقد بن عبد الله التيمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، وهو أول قتيل قتله المسلمون وشد المسلمون عليهم فاستأمر عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان وهرب نوفل وغنم المسلمون مامعهم . ويقال إن عبد الله بن جحش لما رجع من نخلة خمس ما غنم وقسم بين أصحابه سائر الغنائم فكان أول خمس خمس في الإسلام وذلك قبل أن يفرض وكانت أول غنيمة غنمها المسلمون . وعمرو بن الحضرمي أول من قتل المسلمون وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر للمسلمون ، وكان الذي أسر الحكم للقداد بن عمرو فدعاه رسول الله إلى الإسلام فأسلم وقتل بيئر معونة شهيداً^(٣) .

أما سعد بن أبي وقاص وزميله عتبة بن غزوان ، فلم يشهدا هذه الغزوة وقدمتا المدينة بعد عودة السرية بأيام .

(١) البوغة : مائل من الفبار وفاق الزاب .

(٢) الجحش لغة ، السيد .

(٣) الحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة والد أبي جهل . كان لإسلامه في السنة الأولى من الهجرة .

أقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعبير والأسرى إلى المدينة فلما قدموا قال لهم رسول الله ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، فوقف العبير والأسيرين فسقط في أيديهم وعنفهم المسلمون وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . فلما نزل القرآن وفرج الله عن المسلمين قبض رسول الله العبير وفدى الأسيرين .

وفي هذه السرية سمى عبد الله بن جحش « أمير المؤمنين » .

غزوة بدر الثانية أو غزوة بدر الكبرى

١٧ رمضان في السنة الثانية من الهجرة — يناير سنة ٦٢٤ م

بدر بلدة بالحجاز إلى الجنوب الشرقى من الجار ، وهو ساحل البحر بينهما نحو مرحلة ويسمونها بدر حنين ، وهي في سهل يليه من الشمال إلى الشرق جبال وعرة ومن الجنوب آكام صخرية ومن الغرب كئيبان رملية .

كانت غزوة بدر الكبرى يوم الجمعة في شهر رمضان في السابع عشر على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة (يناير سنة ٦٢٤ م) وكان سببها قتل عمرو الحضرمي الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش وإقبال أبي سفيان بن حرب من الشام في عير لقريش عظيمة وفيها أموال كثيرة تبلغ (٢٠.٠٠٠ جنية تقريباً) ومعها ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش منهم مخزومة بن نوفل الزهري بن العاص .

فلما سمع بهم رسول الله ندب المسلمين إليهم وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها ، فانتدب الناس فحف بعضهم وقتل بعضهم لأنهم ظنوا أن الرسول لا يلقى حرباً .

وكان أبو سفيان قد سمع أن رسول الله ﷺ يريد حفزده ، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري بعشرين مثقالاً وبعثه إلى مكة يستنفر قريشاً ويخبرهم الخبر ، فسار وألقى فيهم النفير فخرجوا مسرعين ومن تخلف أرسل مكانه آخر . ولم يتخلف أحد من أشراف مكة إلا أبو لهب ^(١) وبعث مكانه العاص بن هشام ^(٢) نظير أجر قدره ٤٠٠٠ درهم ؛ وكان السبب في خروجهم حماية العبير وإيقادها .

(١) تخلف أبو لهب خوفاً من رؤيا كانت رأتها عائكة بنت عبد المطلب عمه النبي صلى الله عليه وسلم أفرغتها وقصنها للعباس ثم تحدث بها الناس (٢) قتله عمر بن الخطاب في هذه الغزوة .

— ١٦٢ —

قوة قريش

كان الذين خرجوا من قريش نحو ١٠٠٠ منهم ٦٠٠ دارع ومعهم ١٠٠ فرس عليها ١٠٠ درع سوى دروع المشاة .

وكان حامل لوائهم السائب بن يزيد ثم أسلم رضى الله عنه وهو الأب الخامس للإمام الشافعى رضى الله عنه . وكان معهم أيضاً ٧٠٠ بعير . وخرجوا ومعهم القيان - وهن الإماء اللغنيات - يضر بن بالدوف ويغنين بهجاء المسلمين وهم فى غاية البطر والخيلاء حين خروجهم اعتماداً على كثرة عددهم وعددهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

وكان المطعمون لهذا الجيش اثنى عشر رجلاً . وكان كل واحد منهم ينحدر كل يوم عشرة جزر ، وهؤلاء الاثنا عشر هم : أبو جهل . وعتبة وشيبة ابنا ربيعة . وحكيم بن حزام . والعباس بن عبد المطلب . وأبو البختري . وزمعة بن الأسود . وأبى بن خلف . وأممية بن خلف . والنضر بن الحارث . ونبية ومنبه ابنا الحجاج ، وفيهم أنزل الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ .

قوة المسلمين

كان عدة الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ ٣١٣^(١) . وقيل لما عد أصحابه فوجدهم ثلاثمائة وثلاثة عشر فرح وقال : عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر . وخرجت الأنصار ولم تكن قبل ذلك خرجت معه . وكان عددهم ٢٠٧ وسائرهم من المهاجرين وكانت الإبل ٧٠ والأفراس خمسة . ولما أراد رسول الله ﷺ الخروج لبس درعه ذات الفضول وتقلد سيفه العضب ورد رسول الله ﷺ من استصغر فكان ممن رده أسامة بن زيد ورافع بن خديج والبراء بن عازب وأسيد بن ظهير وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت ورد عمير بن أبى وقاص فبكى فأجازه .

وتخلف ثمانية من أصحابه ﷺ بسهامهم وأجورهم : ثلاث من المهاجرين : عثمان بن عفان خليفه رسول الله ﷺ على امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ . وكانت مريضة فأقام عليها حتى ماتت . وطلحة بن عبيد الله . وسعيد بن زيد

(١) هذا قول عامة السلف كما قاله ابن جرير الطبرى .

بعثهما يتجسسان خبر العير وخرجا في طريق الشام . وكان أبو أمامة بن ثعلبة الأنصاري أجمع الخروج إلى بدر . وكانت أمه مريضة فأمره ﷺ بالمقام على أمه .

وخسة من الأنصار : أبو لبابة بن عبد المنذر الأوسى خلفه على المدينة وعاصم بن عدي المجلاني خلفه على أهل العالية . والحارث بن حاطب العمري رده من الروحاء إلى بني عمرو بن عوف لشيء بلغه عنهم . والحارث بن الصمة كسر بالروحاء . وخوات بن جبير كسر أيضاً . وهؤلاء ثمانية لا اختلاف فيهم .

وكانت الإبل سبعين بعيراً يتعاقب النفر البعير وكانت الخيل فرسين : فرس للمقداد بن عمرو ، وفرس لمروث بن أبي مرثد الغنوي . وكان اللواء مع مصعب بن عمير . وكان أمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان إحداها مع علي بن أبي طالب يقال لها العقاب وكانت من مرط عائشة أي ثوبها وكان عمر علي يومئذ عشرين سنة والأخرى مع بعض الأنصار ، وجعل على الساقة (المؤخرة) قيس بن أبي صعصعة الأنصاري فكانت قوة المسلمين قليلة بالنسبة لقوة عدوهم .

واستعمل ﷺ أبا لبابة والياً على المدينة وردّه ، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس بالمدينة .

رسول الله ﷺ يستشير أصحابه

كان رسول الله ﷺ بعث رجلين يتجسسان أخبار عير أبي سفيان وهما بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء فضيا حتى نزلا بدرأ فأنابا إلى تل قريب من الماء وأخذا يستقيان من الماء فسمعا جارتين تقول إحداها لصاحبتها إن أتاني العير غداً أو بعد غد أعمل لهم . أي أخدمهم ، ثم أقضيك الذي لك . فانطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا .

فاستشار النبي ﷺ أصحابه في طلب العير وفي حرب النفر ، يعني أن النبي ﷺ خير أصحابه بين أن يذهبوا للعير أو إلى محاربة النفر وأخبرهم بمسير قريش . وقال لهم : إن الله وعدكم إحدى الطائفتين : إما العير وإما قريش . وكانت العير أحب إليهم ليستعينوا بما فيها من الأموال على شراء الخيل والسلاح . وقال بعضهم هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إنا خرجنا للعير . وفي رواية يارسول الله عليك بالعير ودع العدو ، فتغير وجه رسول الله ﷺ .

وتكلم المهاجرون فأحسنوا ثم استشارهم فقام أبو بكر فقال فأحسن ، ثم قام عمر ، فقال فأحسن . وكان ﷺ يخشى أن تكون الأنصار لا ترى وجوب نصرته عليها إلا بمن دهمه فجأة من العدو بالمدينة فقط وأن ليس عليهم أن يسير بهم من بلادهم إلى عدو . فلما قال لهم أشيروا علي ، قال له سعد بن معاذ رضي الله عنه ، وهو سيد الأوس ، بل هو سيد الأنصار . وكان فيهم كالصديق رضي الله عنه في المهاجرين . قال والله لكأنك

تريدنا يا رسول الله . قال : أجل . قال قد آمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهداً ومواثيق على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء لعل الله يريك فينا ما تفر به عينك ، فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ لقوله ونشطه ذلك اللقاء الكفار . ثم قال رسول الله ﷺ سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير .

الخلاف بين أبي سفيان وأبي جهل

كان أبو سفيان قد ساحل وترك بدرأ يساراً ثم أسرع فنجاً فلما رأى أنه قد أحرز غيره أرسل إلى قريش وهم بالجحفة أن الله قد نجى عيركم وأموالكم فارجموا .

قال أبو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدرأ (وكانت بدر موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم بها سوق كل عام) فنقيم بها ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر فتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا ، ويقال كان أبو جهل وقتئذ يبلغ من العمر سبعين سنة ولكنه كان لا يزال قوى الجسم .

فلما بلغ أبا سفيان كلام أبي جهل قال : هذا بنى والبنى متقصه وشؤم لأن القوم إنما خرجوا لنجاة أموالهم وقد نجاهما الله . ولما قال أبو جهل ما قال رجع من قريش بنو زهرة وكانوا نحو المائة وقيل ثلاثمائة فلذا قيل لم يقتل أحد منهم بيد . وكان قائد بنى زهرة الأخنس بن شريق الثقفي وكان حليفاً لهم . فقال لهم : يا بنى زهرة قد نجى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخزومة بن نوفل فإنه كان في العير وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فارجموا فإنه لا حاجة لكم أن تخرجوا في غير منفعة . دعوا ما يقول هذا ، يعنى أبا جهل ، وكذلك لم يخرج من قريش بنو عدى ابن كعب فلم يشهد بدرأ من هاتين القبيلتين أحد . لكن هذا الخلاف لم يمنع نشوب الحرب .

سير الجيشين ونزول المطر

مضت قريش حتى نزلت بالمدوة^(١) القصوى من الوادى .

ونزل المسلمون على كتيب أعر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب . وسبقهم المشركون إلى ماء بدر فأحزروه وحفروا القالب لأنفسهم ليجعلوا فيها الماء من الآبار المينة فيشربوا منها ويسقوا دوابهم .

(١) المدوة : جانب الوادى . والقصوى : البعدى .

وأدرك المسلمين النعاس وأصبحوا لا يصلون إلى الماء للشرب والغسل والوضوء . فأرسل الله عليهم مطراً سال منه الوادى فشرب المسلمون واتخذوا الحياض على عدوة الوادى واغتسلوا وتوضأوا وسقوا الركاب وملأوا الأسقية وأطفأ المطر الغبار ولبد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام والحوافر وضر ذلك بالشركين لكون أرضهم كانت سهلة لينة وأصابهم مالا يقدررون معه على الارتحال وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله ﴿ إِذْ يُفَسِّبُكُمُ النَّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ .

وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه . يصلى تحت شجرة وبكث في سجوده « يا حي يا قيوم » يكرر ذلك حتى أصبح .

قال على رضى الله عنه فلما أن طلع الفجر نادى رسول الله ﷺ للصلاة - عبادة الله - لجاء الناس من تحت الشجر والحجف فصلى بنا رسول الله ﷺ ثم خطب وحض على القتال .

بناء حوض على القايب

قال ابن إسحاق : خرج رسول الله ﷺ ببادرهم إلى الماء حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به فقال الحباب ابن المنذر بن الجوح رضى الله عنه يارسول الله هذا منزل أنزلك الله تعالى لا تتقدمه ولا تتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال بل الرأى والحرب والمكيدة . قال فإن هذا ليس بمنزل فأنهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فأتى أعرف غزارة مائه فنزل به ثم نفور ماوراءه من القلب ثم بنى عليه حوضاً فناموه ماء فشرب ولا يشربون . فقال ﷺ أنسرت بالرأى . فنهض ﷺ ومن معه من الناس حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه ثم أمر بالقاب فنورت وبنى حوضاً على القايب الذى نزل عليه فلى ماء ثم قذفوا فيه الآنية وقد كان الحباب خبيراً بالآبار فى تلك الجهة ، وقد قبل رسول الله ﷺ مشورته وهى فكرة سديدة لها أهمية حربية فإن الجيش يكون على اتصال دائم بالماء الذى لا غنى عنه . ومن يومئذ قيل للحباب « ذو الرأى » .

بناء العريش

وبعد ذلك قال سعد بن معاذ رضى الله عنه يارسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم تلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا قد تخلف عنك أقوام يابى الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ولو ظنوا أنك تلقى حرباً لما تخلفوا

عنك إنما ظنوا أنها العير يمنعك الله بهم يناصحوك ويجهادون معك فأتى عليه ﷺ خيراً ودعا له بخير وقال يقضي الله خيراً من ذلك يا سعد . ثم بنى له العريش فوق تل مشرف على المعركة فدخله النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق وقام سعد بن معاذ متوشحاً بالسيف .

وعن علي رضي الله عنه أنه قال : أخبروني من أشجع الناس ؟ قالوا : أنت . قال : أشجع الناس أبو بكر رضي الله عنه لما كان يزوم بدر جعلنا رسول الله ﷺ عريشاً قتلنا من يكون مع رسول الله ﷺ لثلاث يهوى إليه أحد من المشركين ؟ فكان أبو بكر رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ فوالله ما دنا منه أحد إلا وأبو بكر رضي الله عنه شاهر بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لا يهوى أحد إليه إلا أهوى إليه أبو بكر رضي الله عنه . وجاء أنه لما التحم القتال وقف أيضاً على باب العريش سعد بن معاذ رضي الله عنه وجماعة من الأنصار . والعريش شيء يشبه الخيمة يستظل به وكان من جريد . قال السيد السهمودي ومكانه (العريش) عند مسجد بدر وهو معروف عند النخيل والعين قريبة منه .

عتبة بن ربيعة ينصح قريشاً بالرجوع

تقدم قبل ذلك أن أبا سفيان كان من رأي الرجوع لنجاة عير قريش وأموالها وأن أبا جهل كان مصمماً على الحرب . فلما اطمانت قريش بالجهة التي نزلوا فيها أرسلوا عير بن وهب الجعفي^(١) يستطلع ، فجال بفرسه حول عسكر النبي صلى الله عليه وسلم فوجد أنهم يباغون ثلاثمائة رجل يزيدون أو ينقصون وقال لهم لقد رأيت يامعشر قريش البلبلا تحمل المنايا . رجال يثرب تحمل الموت الناقع ، ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون يتلهظون تلهظ الأفاعي لا يريدون أن يقبلوا إلى أهليهم ، زرق العيون كأنهم الحصى تحت الحجف^(٢) قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم والله ما نرى أن تقتل منهم رجلاً حتى يقتل رجل منكم فإذا أصابوا منكم عداهم فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم . فلما سمع حكيم بن حزام ذلك^(٣) مشى في الناس فأتى عتبة بن ربيعة . فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش والمطاع فيها هل لك أن تذكر بخير إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس . فقام عتبة خطيباً . قال : يامعشر قريش والله ما تصنعون شيئاً أن تلقوا محمداً وأصحابه والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قد قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته . فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابه غيركم فذاك إذا أردتم وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعدوا منه ما تريدون . يا قوم اعصبوها اليوم برأسي (أي اجعلوها عاراً متعلقاً بي) وقولوا جبن عتبة وأنتم تعلمون أني لست بأجبنكم .

(١) أسلم عير بعد ذلك وحسن إسلامه وشهد أحداً مع رسول الله .

(٢) يعني الأنصار . (٣) هو ابن أخي خديجة بنت خويلد وابن عم الزبير بن العوام ، ولد في الكعبة وهو من سادة الفتح وكان من أشرف قريش ووجوهها في الجاهلية والإسلام .

فلما بلغ أبا جهل هذا الكلام عن عتبة رماه بالجنب . وقال : (والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد)
فأفسد أبو جهل على الناس رأى عتبة وتشبث بضرورة قتال المسلمين .

تعديل صفوف المسلمين ودعاء رسول الله ﷺ

لما أصبح المسلمون ، عدل النبي ﷺ صفوف أصحابه وأقبلت قريش ورآها ﷺ فقال :
« اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولاك . اللهم فنصرك الذي وعدتني » .

اقتحام الحوض

خرج الأسود الخزومي وكان شرساً سيئ الخلق . قال أعاهد الله لأشرب من حوضهم أولاً هدمته أو لأموتن
دونه . فلما أقبل قصده حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه فضربه دون الحوض فوق على ظهره تشخب (تسيل)
رجله دمًا ثم اقتحم الحوض زاعماً أن تبر يمينه فقتله حمزة في الحوض . والأسود هذا هو الأسود بن عبد الأسد
الخزومي أخو عبد الله بن عبد الأسد الخزومي رضى الله عنه زوج أم سلمة رضى الله عنها . وهو أول قتيل قتل يوم
بدر من المشركين وهو أول من يأخذ كتابه بشماله يوم القيامة . وأما أخوه عبد الله بن عبد الأسد فهو أول من
يأخذ كتابه بيمينه كما جاء ذلك في أحاديث متعددة .

المبارزة

التس عتبة بن ربيعة بيضة أى خوذة يدخلها في رأسه فسا وجد في الجيش بيضة تسع رأسه لعظامها فتعمم
ببرد له^(١) وخرج بعد أن تعمم بين أخيه شيبه بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة حتى انفصل من الصف ودعا إلى المبارزة
فخرج إليه فتية من الأنصار وهم عوف ومعاذ ابنا الحارث الأنصاريان وعبد الله بن رواحة الأنصاري . قالوا لهم من
أنتم ؟ قالوا رهط من الأنصار . قالوا : مالنا بكم من حاجة إنما نريد قومنا ونادى مناديتهم : يا محمد أخرج إلينا
أكفأنا من قومنا فنأدهم أن ارجعوا إلى مصافكم وليتم إليهم بنو عمهم . ثم قال ﷺ قم يا عبيدة بن الحارث .
قم يا حمزة . قم يا علي ، فبارز عبيدة - وكان أسن المسلمين - عتبة وكان أسن الثلاثة ، وبارز حمزة شيبه ، وبارز على
الوليد بن عتبة ، فقتل حمزة شيبه وعلى الوليد واختلف عبيدة وعتبة ضربتين كلاهما أثبت صاحبه ؛ وكر حمزة وعلى
بأسياهما على عتبة فذفقا عليه واحتملا عبيدة فحاذياه إلى أصحابه . وكانت الضربة التي أصابت عبيدة في ركبته
فمات منها لما رجعوا بالصفراء . قيل وهذه المبارزة أول مبارزة وقعت في الإسلام .

(١) قد كان المشركون مجهزين بأسلحة تفوق أسلحة المسلمين ، فدروع المسلمين كانت قليلة والظاهر أنه لم تكن لديهم خوذة فحين
أن المشركين كانوا يضعون خوذة على رؤوسهم تقيهم النبال والسيوف .

تعديل صفوف المسلمين والحث على الجهاد

قال ابن اسحاق : لما قتل البارزون خرج ﷺ من العريش لتعديل الصفوف فعدلهم بقده (١) في يده فر ﷺ بسواد بن غزية حليف النجار وهو خارج من الصف فطعنه رسول الله ﷺ في بطنه بالقده وقال : « استو ياسود » فقال : يارسول الله أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقذني من نفسك (٢) فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال : « استقد » فاعتنق سواد النبي ﷺ وقبل بطنه . فقال ما حملك على هذا ياسود ؟ فقال : يارسول الله حضر ماترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير (٣) ثم لما عدل الصفوف قال لهم : « إن دنا القوم منكم فانصحوهم واستبقوا نبلكم ولا تسولوا السيوف حتى يفشوك » وخطبهم خطبة حثهم فيها على الجهاد والصابرة ثم عاد إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه غيره وسعد بن معاذ فاثم على باب العريش موشح بسيفه مع نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ويخافون عليه كره العدو .

ألوية المسلمين والمشركين

كان لواء رسول الله الأعظم - لواء المهاجرين - مع مصعب بن عمير ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر ولواء الأوس مع سعد بن معاذ وجعل رسول الله ﷺ شعار المهاجرين « يا بني عبد الرحمن » وشعار الخزرج « يا بني عبد الله » وشعار الأوس « يا بني عبيد الله » . ويقال بل كان شعار المسلمين جميعاً يومئذ « يامنصور أمت » وكان مع المشركين ثلاثة ألوية : لواء مع أبي عزيز بن عمير ، ولواء مع النضر بن الحارث ، ولواء مع طلحة بن أبي طلحة وكلهم من بنى عبد الله .

تزاحم الناس والتحام القتال

بعد أن عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض وأقبل نفر من قريش حتى وردوا حوضه صلى الله عليه وسلم فقال دعوهم فاشرب بمنذر جل يومئذ لا تقتل إلا حكيماً بن حزام فإنه أسلم وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجموا على المشركين حتى يأمرهم وكان صلى الله عليه وسلم قد أخذ سنة من النوم فاستيقظ وقد أراه الله إياهم في منامه قليلاً فأخبر أصحابه فكان تثبيتهم ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين وأخذ حفنة من الحصاء فاستقبل بها قريشا وقال : شاهت الوجوه (أى قبحت الوجوه) ونفحهم بها ثم أمر أصحابه فقال شدوا فكانت المزيمة .

(١) سهم لانسف فيه ولا ريش (٢) أى مكى من القود أى القصاص

(٣) قال صاحب أسد الغابة . « رويت هذه القصة لسواد بن عمرو لا لسواد بن غزية » .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال وهو في العريش يوم بدر : اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم فلا تُعبد . وفي رواية إن تهلك هذه العصابة من أهل الإيمان اليوم فلا تُعبد في الأرض .

وروى النسائي والحاكم عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : قاتلت يوم بدر شيئاً من قتال ، ثم جئت لاستكشاف حال النبي ﷺ فإذا رسول الله ﷺ يقول في سجوده « يا خي يا قيوم » لا يزيد على ذلك فرجعت فقاتلت ثم جئته فوجدته كذلك . فعل ذلك أربع مرات وقال في الرابعة ففتح عليه . وهذا يدل على عظم هذا الاسم . لما رمى رسول الله ﷺ للمشركين بالحصى ، لم يبق من المشركين رجل إلا امتلأت عينه وأنفه وفمه لا يدرى أين يتوجه يعالج التراب لينزعه من عينيه فانهزموا وردفهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ . وهذه إحدى معجزات رسول الله ﷺ .

خرج رسول الله ﷺ وهو يقول ﴿ سَيُزَمُّ أَتْلَمَعُ وَيُؤْتُونَ الدُّبُرَ ﴾ . وقال والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة . فقال عمر بن الخطاب الأنصارى - ويده تمرات يأكلهن - « يخرج ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء » . ثم ألقى التمرات من يده وقاتل حتى قتل . ورمى مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل فكان أول قتيل . ثم رمى حارثة بن سراقفة الأنصارى فقتل . وقاتل عوف بن عفراء حتى قتل . واقتتل الناس اقتتالاً شديداً فانهزم المشركون فقتل من قتل منهم وأسر من أسر . كان بدء القتال في الصباح ، وكانت الهزيمة في الظهر . وبلغ عدد القتلى من المشركين سبعين والأسرى أربعة وسبعين وعدد القتلى من المسلمين أربعة عشر : ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

وفي يوم بدر دعا أبو بكر الصديق ابنه عبد الرحمن إلى المبارزة وكان أسن أولاده فقال له النبي ﷺ « متعنا بنفسك أما علمت أنك منى بمنزلة سمى وبصرى » . ثم أسلم عبد الرحمن في هدنة الحديبية وكان اسمه قبل الإسلام عبد الكعبة وقيل عبد العزى فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن وكان من أشجع قريش وأرمام : وقتل أبو عبيدة بن الجراح أباه وكان مشركاً .

قتل بلال أمية بن خاف الجحى صديق عبد الرحمن بن عوف في الجاهلية لأنه كان يعذبه بمكة على أن يترك الإسلام^(١) وكان ابن عفراء ضرب أبا جهل حتى أثبتته وقطع ابن الجوح رجله . فلما أمر رسول الله ﷺ الناس بأن يلبسوا أبا جهل في القتلى خرج معهم عبد الله بن مسعود فوجده وهو بأخر رمق ، فوضع رجله على عنقه وحز رأسه وحمل رأسه إلى رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم . ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم بعد إلقاء الرأس بين

(١) راجع تعذيب المسلمين في هذا الكتاب .

يديه خرج يمشى مع ابن مسعود حتى أوقفه على أبي جهل . قال : الحمد لله الذى أخزأك بإعدو رسول الله . هذا كان فرعون هذه الأمة ورأس قاعدة الكفر . قال ابن مسعود : ونفلى سيفه وكان قصيراً عريضاً فيه قبائع فضة وحلق فضة .

إمداد المسلمين بالملائكة يوم بدر

وردت الآيات والأحاديث على أن الله تعالى أمد المسلمين بالملائكة يوم بدر فقاتلوا معهم . فلما انقضى أمر بدر أنزل الله عز وجل فيه من القرآن سورة الأنفال فيما أنزل خاصاً بالملائكة قوله تعالى :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .
وقوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَرُغَبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ .

وقال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَمَأْتُواكُمْ مِّنْ قَوَرِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ .

وجاء فى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر : هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب .

إن إمداد المسلمين بالملائكة من معجزات رسول الله التى نص عليها القرآن الكريم ولا سبيل إلى إنكارها روى عن سهل بن حنيف عن أبيه رضى الله عنه قال : لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى للشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف .

سما الملائكة يوم بدر

كانت سما الملائكة يوم بدر غائماً بيضا قد أرسلوها خاف ظهورهم إلا جبريل عليه السلام فإنه كان عليه عمامة صفراء ، وقيل حمراء ، وقيل بعض الملائكة كانوا بعمائم صفراء ، وبعضهم بعمائم بيضاء ، وبعضهم بعمائم سود ، وبعضهم بعمائم حمراء .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : كانت سببا لللائكة يوم بدر عما ثم قد أرخواها بين أكتافهم خضراً وصفراً وحمراً .

وكان الزبير بن العوام رضى الله عنه يوم بدر متعمماً بعمامة صفراء ، وكانت خيل لللائكة بلقاً مسومة^(١) .
وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النعام الذى ظلل بنى إسرائيل فى التيه هو الذى جاءت فيه اللائكة يوم بدر .

إلقاء القتلى فى القليب

أمر رسول الله ﷺ بالقتلى من المشركين أن ينقلوا من مصارعهم وأن يطرحوا فى القليب فطرحوا فيه إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ فى درعه ففلاؤه فذهبوا ليحركوه فتقطعت أوصاله فألقوا عليه ما غييه من التراب والحجارة . والسبب فى إلقاء قتلى المشركين فى القليب كثرة جيفهم . فكان جرمهم إلى القليب أيسر من دفعهم .
ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف على شفير القليب بعد ثلاثة أيام من إلقاءهم فيه وكان ذلك ليلاً ومعه أصحابه وقال : يا أهل القليب بئس عشيرة النبی كنتم ، أمنتكم فكذبتموني وصدقتى الناس . ثم قال : يا عتبة ، يا شيبة ، يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هشام (وعدد من كان فى القليب) هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً . فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله كيف تكلم أجساداً لأرواح فيها ؟ فقال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني .

الأسرى وفداؤهم

كان فداء الأسرى أربعة آلاف إلى مادون ذلك . فكان يفادى بهم على قدر أموالهم . وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم فإذا حذقوا فهو فداؤه . فكان زيد بن ثابت ممن علم^(٢) .

وكان من بين الأسرى العباس عم النبي ﷺ وصنو أبيه يكنى أبا الفضل بابنه الفضل ، وكان أسن من رسول بسنتين . وقيل بثلاث سنين . وكان فى الجاهلية رئيساً فى قريش وإليه كانت عمارة المسجد الحرام والسقاية فى الجاهلية . خرج مع المشركين يوم بدر فأسر وشد وثاقه فسهى النبي ﷺ تلك الليلة ولم ينم . فقال له بعض أصحابه : ما يسهرك يا نبي الله ؟ فقال أسهر لأنين العباس قمام رجل من القوم فأرخى وثاقه فقال له رسول الله ﷺ مالى

(١) البلق جمع أبلق وبلقاء : أى فيها سواد وبياض ، و-سومة : معلة من السومة وهى العلامة ، ولها معنى آخر يبعدها اه .

(٢) راجع طبقات ابن سعد .

لا أسمع أنين العباس . قال الرجل أنا أرخيت من وثاقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فافعل ذلك بالأسرى كلهم . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم افد نفسك يا عباس وابني أخويك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عتبة بن عمرو بمائة أوقية وكل واحد بأربعين أوقية . فقال للنبي صلى الله عليه وسلم تركتني فقير قريش ما بقيت . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأبني المال الذي دفعته لأُم الفضل^(١) وقلت لها إن أصبت فهذا لبني : الفضل وعبد الله وقثم ؟ فقال والله إني أشهد أنك رسول الله ، إن هذا شيء ما علمه إلا أنا وأُم الفضل . أشهد أن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله .

وفي رواية قال للنبي صلى الله عليه وسلم لقد تركني فقير قريش ما بقيت . فقال له كيف تكون فقير قريش وقد استودعت بنادق الذهب أُم الفضل (زوجته) وقلت لها إن قتلت فقد تركتك غنية ما بقيت ، فقال أشهد أن الذي تقوله قد كان وما اطلع عليه إلا الله . ونطق بالشهادتين . بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قيل إن العباس كان قد أسلم . وكان يكتم إسلامه لديون له كانت متفرقة في قريش ، وكان يخشى إن أظهر إسلامه ضاعت عندهم . وقد جاء في بعض الروايات أن العباس رضى الله عنه قال علام يؤخذ منا الفداء وكنا مسلمين ؟ وفي رواية وكنت مسلماً ولكن القوم استكروهني . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الله أعلم بما تقول إن بك حقاً فإن الله يميزك . ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا . وقد أنزل الله تعالى في العباس رضى الله عنه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنِّي يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا تُكْمُ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٢) وعند نزول هذه الآية قال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم : وددت أنك كنت أخذت مني أضعاف ما أخذت . وقد صدق الله وعده له فأعطاه الله مالا عظيماً حتى كان عنده مائة عبد في بكل عبد مال يتجر فيه . وبلغ مادفعته قريش فداء للأسرى أكثر من ٢٠٠٠ ر ٢٠ درهم .

وكان من الأسرى : النضر بن الحارث العبدي وكان من أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم . وكان يقول في القرآن إنه أساطير الأولين . ويقول : لو نشاء لقلنا مثل هذا وغير ذلك من الأقاويل . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضى الله عنه فضرب عنقه . فلما بلغ الخبر أخته قتيلة ، وقيل إنما هي بنته ، رثته بأبيات تم أسلمت . وفي أسد الغابة أن قتيلة بنت النضر . قال الواقدي هي التي قالت الأبيات التالية في رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قتل أباهما النضر بن الحارث يوم بدر وهي :

ياراكباً إن الأمل مظنة من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتاً بأن تحية ما إن تزال بها النجائب تحقّق
منى إليك وعبرة مسفوحة جادت بواكفها وأخرى تمنقّ

(١) يعني زوجته . (٢) سورة الأقال .

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق
قسراً يقاد إلى النية معتباً رسف المقيد وهو عان موثق
أحمد أو لست صفوة نجبية من قومها والفعل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو الغيظ الحقيق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق
وحين سمع ذلك صلى الله عليه وسلم بكى وقال . لو بلغني هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه^(١) .

وكان من الأسرى أيضاً عقبة بن أبي معيط بن ذكوان المكنى بأبي عمرو بن أمية بن عبد شمس وكان من أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم ومن المستهزئين به . جاء عن ابن عباس أن عقبة لما قدم للقتل نادى يامعشر قريش مالي أقتل بينكم صبراً ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : بكفرك واجترائك على الله ورسوله . وعقبة هذا هو الذي وضع سلا الجزور على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد بمكة .
فالنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط هما الأسيران اللذان أمر صلى الله عليه وسلم بقتلهما ، أما سائر الأسرى فقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرهم ، فاستشار أبا بكر وعمر وعلياً رضي الله عنهم فيما هو الأصح من الأمرين القتل أو أخذ الفداء .

رأى أبي بكر رضي الله عنه

في الأسرى

قال أبو بكر « يارسول الله . أهلك وقومك . وفي رواية هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان قد أعطاك الله الظفر بهم ونصرك عليهم أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لنا عضداً » وقد وافق الصحابة أبا بكر على أخذ الفداء .

رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قتل الأسرى

قال يارسول الله قد كذبوك وأخرجوك وفاتلوك ، ما أرى ما أرى أبو بكر . ولكني أرى أن تمكنني من (فلان) قريب لعمر فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عتيل أخيه فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخيه العباس فيضرب عنقه حتى يعلم أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين ، ما أرى أن تكون لك أسرى فأضرب أعناقهم . هؤلاء صناديدهم

(١) أي يقبل شفاعتها عنده .

وأتمتهم وقادتهم . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال سعد بن معاذ « الإيخان في القتل أحب إلى من إبقاء الرجال » . أما على رضى الله عنه فلم يذكر عنه جواب مع أنه أحد الثلاثة المستشارين . قال العلامة الزرقاني لأنه لما رأى تغير المصطفى صلى الله عليه وسلم حين اختلف الشيعان ، لم يجب أو لم تظهر له مصلحة حتى يذكرها . وكان رأى عبد الله بن رواحة إحراقهم في واد كثير الخطب .

لكن رسول الله أخذ برأى أبى بكر رضى الله عنه . وقال لا يفلتن أحد منهم إلا بقاء أو ضرب عنق . وأنزل الله تعالى : « مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فبكى النبي ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن كاد ليمسنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب . ولم يقل ابن رواحة لأنه أشار بإضرار النار وليس بشرع .

وهذه الآية مواقة لرأى عمر رضى الله عنه . وهى من المواضع التى جاء القرآن فيها مواقفاً لقول عمر رضى الله عنه ، وهى كثيرة نحو بضعة وثلاثين أفردت بالتأليف .

ولما استقر الأمر على الفداء فرق رسول الله ﷺ الأسرى في أصحابه . وكان أول أسير فدى أبو وداعة الحارث فداء ابنه المطلب (وكان كيساً تاجراً) بأربعة آلاف درهم ثم أسلم وقد عده بعضهم من الصحابة . وعند ذلك بعثت قريش في فداء الأسارى وكان الفداء فيهم على قدر أموالهم وكان من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة إلى ألفين إلى ألف . ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن الكتابة دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم الكتابة فإذا تعلموا كان ذلك فداءه كما تقدم .

وكان من الأسرى أبو العاص بن الربيع فإنه أسلم بعد ذلك وهو زوج زينب بنت النبي ﷺ ورضى عنها وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد أخت خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها . ولم يكن في ذلك الوقت تزوج الكافر بالمسلة محرماً ، وإنما حرم ذلك بعد لأن الأحكام إنما شرعت بالتدريج .

وقدمت زينب المدينة بعد شهر من بدر . وقد جاء بها زيد بن حارثة بأمر رسول الله ﷺ ثم أسلم زوجها وهاجر وردّها إليه ﷺ بغير عقد بل بالنكاح الأول . وقيل عقد عليها عقداً آخر وولدت له (أمانة) التى كان يحملها صلى الله عليه وسلم على ظهره وهو يصلى . ثم لما كبرت تزوجها على رضى الله عنه بعد خالتها فاطمة رضى الله عنها بوصية من فاطمة لعل بذلك .

وكان في الأسارى وهب بن عمير رضى الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك وأسرّه رفاعه بن رافع . وكان أبوه عمير شيطاناً من شياطين قريش وكان ممن يؤذى رسول الله ﷺ وأصحابه بمكة فجلس يوماً مع صفوان بن أمية وكان جلوسه معه

في الحجر فتذاكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : ما في العيش خير بعمير . فقال عمير والله صدقت ، أما والله لولا دين عليّ ليس له عندى قضاء وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، كنت آتى محمداً حتى أقتله فإن لى فيهم علة ، ابني أسير فى أيديهم . فاغتنمها صفوان وقال له ، عليّ دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أو أسيرهم ما بقوا قال عمير ، فاكتم عني شأنى وشأنك . قال : أفعل . ثم إن عميراً أخذ سيفه وشعذه وسمه ثم انطلق حتى قدم المدينة فيينا عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، إذ نظر إلى عمير حين أناخ راحته على باب المسجد متوشحاً بالسيف . فقال هذا الكلب عدو الله عمير . ما جاء إلا بشر . فدخل عمر على رسول الله . فقال : يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه . قال رسول الله ، فأدخله عليّ . فأقبل عمر رضى الله عنه حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فأمسكه بها وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار ادخلوا على رسول الله فاجلسوا عنده . فإن هذا الخبيث غير مأمون .

ثم دخل به على رسول الله . فلما رآه وعمر أخذ بحمالة سيفه فى عنقه ، قال أرسله يا عمر . ادن يا عمير فدنا . ثم قال عمير : أنعموا صباحاً ، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم ، فقال رسول الله : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، يا سلام تحية أهل الجنة . ما جاء بك يا عمير ؟ قال ، جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم (يعنى ولده وهباً) فأحسنوا فيه . قال ، فما بال السيف ؟ قال ، قبضها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال رسول الله ، اصدقنى ما الذى جئت له ؟ قال ، ما جئت إلا لذلك . قال ﷺ ، بل قدمت أنت و صفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت لولا دين عليّ وعيالى لخرجت حتى أقتل محمداً فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له . والله حائل بينك وبين ذلك . قال عمير : « أشهد أنك رسول الله . قد كنا يارسول الله نكذبك بما تأتى به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي . وهذا أمر لم يحضره إلا أنا و صفوان . فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله تعالى ، فالحمد لله الذى هدانا للإسلام وساقنى هذا المساق . ثم شهد شهادة الحق .

ثم قال رسول الله قهوا أخاكم فى دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا أسيره ففعلوا ذلك . و مر رسول الله ﷺ على نفر من الأسرى بنير فداء منهم أبو عزة عمرو الجحى الشاعر . وقد كان يؤذى النبي ﷺ والمسلمين بشعره . فقال : يارسول الله إني فقير وذو عيال وحاجة قد عرفتها فأمنن على فنّ عليّ رسول الله ﷺ وأطلقه وأخذ عليه عهداً أن لا يظاهر عليه أحداً . ولما وصل إلى مكة قال سحرت محمداً ورجع لما كان عليه من الإبداء بشعره . ولما كان يوم أحد خرج مع المشركين يحرض على قتال المسلمين بشعره فأمر الذي ﷺ بضرب عنقه . فقال : أعتقنى وأطلقنى فإنى نائب . فقال ﷺ « لا بدغ للؤمن من جحمرتين » ففصرت عنقه وحمل رأسه إلى المدينة وأنزل الله فيه ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ .

تأثير الانتصار في المدينة

كان لنبا الانتصار تأثير عظيم في النفوس فخاف رسول الله ﷺ كلُّ عدو بالمدينة وما حولها وأسلم كثير من اليهود منهم عبد الله بن أبي ، لكنه لم يكن مخلصاً في إسلامه بل ظل منافقاً إلى أن مات ومع انتصار المسلمين في بدر ، لم تنقطع معارضة اليهود ودسائسهم فكان لابد من القضاء عليهم واستئصال شأفتهم . وقد كان المنافقون من الرجال ثلاثمائة ومن النساء سبعين ، وكانوا يؤذونه ﷺ إذا غاب ويملقونه إذا حضر .

ثم أرسل رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة بشيراً لأهل العالية^(١) وزيد بن حارثة بشيراً لأهل السافلة بما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين .

رجوعه ﷺ إلى المدينة

وتقسيم الغنيمة

لما قارب رسول الله ﷺ المدينة خرج المسلمون للقائه بما فتح الله عليه فتلاقوا معه بالروحاء وتلقته الولاة عند دخوله للمدينة بالدفوف . والولاة جمع وليده وهي الصبية تملن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا الله داع

وقسم رسول الله ﷺ النفل وكانت ١٥٠ من الإبل وعشرة أفراس ، ومتاعاً وسلاحاً ونطاعاً، وثياباً وأدماً كثيراً حمله المشركون للتجارة وبأدى منادى رسول الله . من قتل قتيلاً فله سلبه ، ومن أسر أسيراً فهو له ، وتنفل رسول الله ﷺ زيادة على سهمه سيفه ذا الفقار وجل أبي جهل .

وقع خبر الانتصار على قريش

سمعت قريش خير انتصار رسول الله ﷺ ممن رجع منهم من ساحة القتال^(٢) وقص أبو سفيان بن الحارث مارأى على أبي لهب فققد رشده وضرب أبا رافع ضرباً مبرحاً ، ولم يعيش بعدها أبو لهب إلا سبع ليال ومات مصاباً بالجدري وبقي بعد موته ثلاثة أيام لا يقرب أجده منه خوفاً من العدوى حتى أثنى^(٣) ولما تحققت قريش خبر الهزيمة وما أصابهم من قتل وأسرى ، ناحت على قتلاها شهراً ، وجز النساء شعورهن . ثم اتفقوا على عدم الاسترسال في الجزع لئلا يشمت بهم المسلمون وتواصوا على الأخذ بالثأر .

(١) هو موضع قريب من المدينة .

(٢) قال السكلي أن الجيسان بن لباس هو الذي جاء بخبر قتل أهل بدر إلى مكة ، وكان شهيد بدر مع المشركين ثم أسلم

(٣) كانت قريش تتق الجندري كما تتق الطاعون وتخشى عدواها .

- ١٧٧ -

أسباب انتصار المسلمين في وقعة بدر

كانت وقعة بدر أول انتصار للمسلمين في حروبهم ولم تكن من الوقائع الكبيرة من حيث عدد جيوش المتحاربين واستعدادهم الحربي فإن عدد المسلمين كان نحو ٣١٣ بقاتلهم نحو ألف من أهل مكة ولكنها وقعة مهمة لأنها كانت بمثابة الحجر الأساسي في انتصار الرسول في الوقائع المقبلة وهي بدء تحول خطير في تاريخ الإسلام وتاريخ العالم . في هذه الوقعة انهزم أهل مكة وظهر ضعفهم في القتال على كثرة عددهم وفرسانهم وقد أبدى بعض المؤرخين استغرابه لما أصاب أعداء المسلمين من الفشل مع أنهم كانوا أكثر منهم عدداً وكان معهم مئة فرس وسبعمائة بعير ومع ذلك لم يكتسحهم أمامهم بفرسانهم وركبانهم بل ولوا هاربين . والظاهر أن المسلمين كانوا أحسن نظاماً فقد عدل صفوفهم النبي ﷺ وخطب فيهم مستنهضاً همهم وكان يشرف على الوقعة من ذلك العرش العالي ويصدر الأوامر فكان قائداً عاماً ، ولم يصدر من أصحابه أية مخالفة لأوامره . أما أبو سفيان فلم يكن قائداً ماهراً . وقد ساعد بناء الخوض وتوفر الماء على النصر ، والقرآن الكريم والأحاديث النبوية تنص صراحة على أن الله سبحانه وتعالى أمد نبيه بمدد باطني فحاربت الملائكة مع المسلمين ونصروهم على أعدائهم وقد رآهم بعض الصحابة وبعض أهل مكة في ميدان القتال وذكروهم بنسبهم . فقبل كانت سبباً للملائكة يوم بدر عائم قد أرخواها بين أكتافهم خضراً وصفراً وحمراً وكان الزبير بن العوام متعمماً بعمامة صفراء فقال ﷺ نزلت للملائكة - أي بعضهم - بسيا أبي عبد الله ، يعني الزبير . وكانت خيل الملائكة بلقاء مسومة - مزينة - وعن على كرم الله وجهه قال هبت ريح شديدة يوم بدر مارأيت مثلها قط ثم جاءت أخرى كذلك ثم جاءت أخرى كذلك ، فنزل في الأولى جبريل في ألف من الملائكة أمام النبي ﷺ ونزل في الثانية ميكائيل في ألف من الملائكة عن يمين رسول الله ﷺ ونزل في الثالثة إسماعيل في ألف من الملائكة عن يسرة رسول الله ﷺ . هذا وقد جرى بالعباس يوم بدر ، أسره أبو اليسر وكان مجموعاً وكان العباس جسيماً قتيلاً لأبي اليسر كيف أسرته ؟ قال أعانني عليه رجل مارأيت من قبل ذلك بهيئة كذا وكذا فقال رسول الله ﷺ لقد أعانك عليه ملك كريم^(١) . وقد كان رسول الله ﷺ قال لأصحابه قد رأيت جبريل وعلى ثناياه النقع . فقال رجل من بني غفار أقبلت أنا وابن عم لي فصعدنا جبلاً يشرف بنا على بدر ونحن مشركان ننظر لمن تكون الدائرة فنقته فندت منا سحابة فسمعت فيها حممة الخليل وسمعت قائلاً يقول أقدم حيزوم . قال فأما ابن عمي فأت مكابنواً وأنا فكنت أهلك فماسكت . وقال أبو داود المازني إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل سفي إلى

(١) راجع تاريخ ابن الأثير .

فعرفت أنه قتله غيرى . وقال سهل بن حنيف كان أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف^(١) فكيف بعد هذا كله نكذب إمداد الله رسوله بالملائكة في وقعة بدر !! إن الله قد اختص نبيه بمعجزات وهذه إحداها ولا سبيل لإنكارها وإن أنكرها المستشرقون الذين كتبوا سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فقد وردت في القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة .

وروى الصحابة رضی الله عنهم الذين شهدوا بدرًا أنهم رأوا الملائكة بسيماهم وهم يحاربون . قال حويط بن عبد العزى شهدت بدرًا مع المشركين فرأيت عبرًا ، رأيت الملائكة تقتل وتأسر بين السماء والأرض ولم أذكر ذلك لأحد^(٢)

ومن أسباب انتصار المسلمين قوة العقيدة فإن لها تأثيرا عظيما في الحروب ، فشتان بين من يحارب بعقيدة راسخة لينصر الله ورسوله فإن قتل فاز بنعمة الشهادة وتنعم في دار الخلد وبين من يحارب وهو لا يشعر بقوة العقيدة التي تدفع خصمه إلى القتال من غير مبالاة . فالمسلمون كانوا يتوقون إلى الموت في سبيل الله . فمن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من العريش يوم بدر وهو يقول ﴿ سَيُزَمُّ أَلْجَمْعُ وَيُولَوْنَ أَلْدُبْرُ ﴾ وحرص المسلمون وقال « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » قال عمير بن الحام الأنصاري ويده تمرات بأكلهن : بخ بخ ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ثم ألقى التمرات من يده وقاتل حتى قتل^(٣) .

ويؤكد سير وليام موير William Muir أن الخوف الذي كان مستوليا على أهل مكة من إراقة دماء أقاربهم مع ما يقابل ذلك من رغبة المسلمين في القتال . كان هو العامل المهم في انتصار المسلمين في وقعة بدر .

فضل أهل بدر

جاء بعض الصحابة إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إن ابن عمي نافع أتأذن لي أن أضرب عنقه ؟ فقال ﷺ : إنه شهد بدرًا وعسى أن يكفر عنه . وفي رواية وما يدريك لعل الله اطاع على أهل بدر وقال عملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : اطاع الله على أهل بدر فقال : عملوا ما شئتم فقد غفرت لكم أو قال قد وجبت لكم الجنة . وعن الإمام أحمد عن حفصة رضي الله عنها ، قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول : إني لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله تعالى أحد شهد بدرًا أو الحديبية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر ويقدمهم على غيرهم . وفي الخصائص الصغرى : وخص أهل بدر من أصحابه صلى الله عليه وسلم بأن يزدادوا في صلاة الجنائز على أربع تكبيرات تمييزاً لفضلهم .

(١) راجع تاريخ ابن الأثير (٢) راجع ابن الأثير .

(٣) راجع أسد الغابة الجزء الثاني تحت اسم حويط بن عبد العزى .

— ١٧٩ —

وفاة رقية

ابنة رسول الله

تزوجت رقية ابنة رسول الله عثمان بن عفان بمكة وهاجرت معه إلى الحبشة وولدت له هناك ولداً سماه عبدالله . وكان عثمان يكنى به . فبلغ الغلام ست سنين فنقر عينه ديك فورم في وجهه ومرض ومات . وكان موته في جمادى الأولى سنة أربع .

ولما سار رسول الله إلى بدر ، كانت ابنته رقية مريضة فتخلف عليها عثمان بأمر رسول الله له بذلك فتوفيت يوم وصول زيد بن حارثة مبشراً بظفر رسول الله وكانت قد أصابتها حصبة .

زواج فاطمة بنت رسول الله

سنة ٢ هـ

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم هي سيدة نساء العالمين ماعدا مريم ابنة عمران صلى الله عليها . أمها خديجة بنت خويلد . وكانت تكنى أم أيها وكانت أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم من علي بعد أن ابنتى بعائشة بأربعة أشهر ونصف ، وابتنى بها بعد تزويجه إياها بسبعة أشهر ونصف وكانت سنهما يوم تزويجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر . واقطع نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا منها فإن الذكور من أولاده ماتوا صغاراً .

خطب أبو بكر وعمر فاطمة إلى رسول الله فأبى عليهما فقال عمر أنت لما باعني فقال مالي من شيء إلا درعي أرهنها ، فزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة . فلما بلغ ذلك فاطمة بكّت . فدخل عليها رسول الله فقال : مالك تبكين يا فاطمة ؟ فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حليماً وأولهم سلماً .

وعن علي رضي الله عنه قال : خطبت فاطمة إلى رسول الله ﷺ فقال لي مولاة لي : هل علمت أن فاطمة خطبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت لا . قالت قد خطبت فما يمنحك أن تأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيزوجك قلت : وهل عندي شيء أتزوج به ؟ قالت إنك إن جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجك . فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جلالتهم وهيبته فلما قدمت بين يديه أحمت فوالله ما أستطيع أن أنكلم . فقال ما جاء بك ؟ فسكت . فقال : لعلك جئت لمخطوب فاطمة ؟ قلت نعم . قال وهل عندك من شيء تستحلها به ؟ قلت لا والله يا رسول الله . فقال ما فعلت بالدرع التي

سأحتكها ؟ قتلت عندى ، والذي نفس على بيده إنها لحطمية^(١) ما تمنها أربعمائة درهم . قال قد زوجتك فابعث بها فإن كانت لصادق فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل ليلة البناء بفاطمة : لا تحدثن شيئاً حتى تلقانى . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بماء فتوضأ منه ثم أفرغه على علي وقال « اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في نسلهما » .
قال ابن إسحاق وحدثني من لآتهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يغار لبناته غير شديدة . كان لا ينكح بناته على ضرة .

وعن السور بن مخرمة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن إلا أن يريد على بن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم فإنها بضعة منى . يربى ما رابها ويؤذى ما آذاها .
أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجهرزوا فاطمة . فجعل لها سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف! وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء بنت عميس فهيأت البيت فصلى العشاء وأرسل إلى فاطمة رضى الله عنها فجاءت مع أم أيمن بركة الحبشية مولاته صلى الله عليه وسلم حتى قعدت فى جانب البيت وعلى رضى الله عنه فى جانب آخر ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما صلى العشاء الآخرة فقال : أها هنا أخى ؟ قالت أم أيمن : أخوك وقد زوجته ابنتك ؟ قال نعم . إى هو كآخى فى المنزلة وللؤاخاة فلا يمتنع على تزويجى إياه بنتى . ودخل صلى الله عليه وسلم وقال لفاطمة رضى الله عنها : ائتنى بماء . فقامت تعثر فى ثوبها من الحياء إلى قعب فى البيت . فأتت فيه بماء فأخذته ومج فيه (أى وضعه فى فيه ورمى فى القعب والقعب إناء ضخم كالقصة) ثم قال لها تقدمى فتقدمت ، فنضح بين يديها وعلى رأسها وقال : اللهم إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . ثم قال : أدبرى فأدبرت فصب بين كتفها ، ثم فعل مثل ذلك بعلى ، ثم قال له : ادخل بأهلك باسم الله والبركة ، وكان مهرها رضى الله عنها ٤٠٠ درهم فضة . وخر على رضى الله عنه ساجداً شكراً لله تعالى .

وكانت وليمة على رضى الله عنه أصعاً من شعير وتمر وحيس (وهو تمر يخالط بسمن) وقيل أولم بكبش من سعد وأصع من ذرة من عند جماعة من الأنصار . وكان فرذهما ليلة عرسهما جلد كبش . وكانت سن على يومئذ ٢١ سنة وخمسة أشهر .

وتلقب فاطمة بالبثول لا تقطاعها الدنيا . ولدت لعل الحسن والحسين وزينب . أم كلثوم . وكانت مشيتها مشية رسول الله كما قالت عائشة وتوفيت فاطمة بعد رسول الله بستة أشهر وهذا أصح ما قيل . ومارئيت ضاحكة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم حتى لحقت بالله تعالى وكانت أول أهله لحوقاً به وهى أول من غطى نعشها فى الإسلام

(١) حطمية : دروع نسبت إلى بطن من عبد ليس يقال لهم حطمة بن محارب كانوا يعلمون الدروع .

وأوصت أن تدفن ليلاً . قبل توفيت لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة وكان عمرها ٢٩ سنة وقيل ٣٠
رحمها الله تعالى .

غزوة بني سليم

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة من بدر لم يبق إلا سبع ليال حتى شزا بنفسه يريد بني سليم واستعمل على المدينة سباع بن عرفة الغفاري - وهو من مشاهير الصحابة - وعلى الصلاة ابن أم مكتوم^(١) وكان لواؤه أبيض حله على بن أبي طالب رضى الله عنه . فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ماء من مياههم يقال له (الكندر^(٢)) فأقام صلى الله عليه وسلم ثلاث ليال . ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً وارفع القوم وهربوا وبقيت نعمهم ، فظفر بها صلى الله عليه وسلم وانحدر بها إلى المدينة وقسمها بصرار ، وهو مكان على ثلاثة أميال من المدينة وكانت خمسمائة بعير . وكانت مدة غيبته خمس عشرة ليلة .

غزوة بني قينقاع

سنة ٥٢ - ٦٢٤ م

قينقاع اسم لشعب من اليهود الذين كانوا بالمدينة ، أضيف إليهم سوق كانت بها ، ويقال سوق بني قينقاع وهم من موالى الخزرج وحلفاء عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي ابن سؤل ، وكان عددهم قليلاً وصناعتهم الصياغة وهم أغنى سكان المدينة، وكانت بينهم وبين بني النضير وبني قريظة عدواة قديمة في الجاهلية سببها اشتراكهم مع الخزرج في يوم بعاث . كما ذكرنا سابقاً .

(١) ابن أم مكتوم هو عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم . مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم . أم مكتوم اسمها عائكة بنت عبد الله بن عكنة بن عامر بن غزوم وهو ابن حال حديجة بنت حويلد فإن أم حديجة رضى الله عنها فاطمة بنت زائدة بن الأصم هاجر إلى المدينة واستخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة ثلاث عشرة مرة في غزواته على الصلاة فقط لأنه كان أعمى وفناء الأعمى غير صحيح . وشهد ابن أم مكتوم فتح القادسية ومعه اللواء . قيل إنه قتل بالقادسية شهيداً وقيل إنه رجع إلى المدينة فأت بها .

وهو الأعمى الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه في قوله (عسى ونول أن جاءه الأعمى) وأجمع المفسرون على أن الذي عسى وتولى هو الرسول عليه الصلاة والسلام وأجمعوا على أن الأعمى هو ابن أم مكتوم . أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده صناديد لريش يدعونه إلى الإسلام وجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم فقال لى صلى الله عليه وسلم أفرئني وعلمني بما علك الله وكرر ذلك ففكره رسول الله قطعه لكلامه وأعرض عنه فنزلت هذه الآية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رآه يقول مرحباً بمن عاتبنى فيعبرني ويقول هل لك من حاجة ، ولا شك أن في استخلافه على المدينة إكراماً له .

(٢) الكندر جمع أكندر . وقرقرة الكندر . قال الواقدي : بناحية المعدن قريبة من الأرحضية بينها وبين المدينة ثمانية برد . وقال غيره ماء ابنى سليم وقيل لهذا الماء الكندر لأن به طيراً في ألوانها كندر .

- ١٨٢ -

كانت غزوة بني قينقاع في شوال من السنة الثالثة من الهجرة (فبراير سنة ٦٢٤ م) قال ابن إسحاق : كان من أمر بني قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق بني قينقاع ثم قال : « بامعشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النعمة وأسلموا فإنكم قد عرقتم أنى نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله إليكم » .

قالوا يا محمد إنك ترى أنا كقومك ، لا يفرنك أمك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إننا والله لنن حاربنا لنعلم أننا نحن الناس . أى أنهم بذلك دعوه للقتال .

دعا رسول الله ﷺ بني قينقاع إلى الإسلام ، وإلى الاعتراف بنبوته لأنهم يجدون ذلك في كتابهم ، لكنهم مع ذلك وعلى قلة عددهم وإقامتهم مع المسلمين في المدينة نفسها أغاظوا له في الجواب ولم ينفوا عند حدود الأدب وادعوا الشجاعة .

قال الدكتور ولفنسون في كتابه تاريخ اليهود في صدد ما ردوا به على رسول الله : « إنهم أجابوه بكل جرأة وتبجح - ص ١٢٩ » وقال « يظهر من هذا الرد أن بني قينقاع كانوا يعتمدون على معاضدة حلفائهم من الخزرج في نزاعهم مع الرسول قبل كل شيء ، إذ لا يتصور أن بطناً صغيراً كبطن بني قينقاع يجرؤ على إعلان الحرب ضد أغلب بطون يثرب ، ولكن بني الخزرج خذلهم ولم يتحركوا لنجدتهم رغم أنهم من مواليهم ص ١٢٩-١٣٠ » . وقد كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ وحاربوا فيما بين بدر وأحد .

قال ابن هشام : وذكر عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة عن أبي عون قال :

كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بحلب لها فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ بها فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبى فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ففقدته إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا منها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله . وكان يهودياً فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع .

ولم يرو هذه الحادثة ابن إسحاق وكذا لم يذكرها الطبري في تاريخه ولا ابن سعد في طبقاته . وليس في هذه القصة ذكر لاسم المرأة ولا اسم الصائغ الذي قتل ولا اسم المسلم القاتل له ، ولذلك نشك في صحة هذه القصة لأن ابن إسحاق لم يروها بل لأن روايتها بهذه الصفة تحملنا على الشك إذ ليس فيها ما يساعدنا على البحث والتحقيق . لذلك لا نعلم عليها .

وقد حاصرهم رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يطالع منهم أحد حتى نزلوا على حكمه فكففوا وهو يريد قتلهم ويبلغ عددهم ٤٠٠ - فقام إليه عبد الله بن أبي ابن سلول حين أمكنه الله منهم (وكانوا حلفاء وحلفاء عبادة بن الصامت) فقال يا محمد أحسن في موالي فأبى عليه النبي ﷺ فقال يا محمد ، أحسن في موالي . فأعرض عنه النبي

صلى الله عليه وسلم فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرساني وغضب ﷺ حتى رأوا في وجهه ظلالاً^(١) ثم قال: ويحك أرساني . قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن إلى موالى ، أربعائة حاسر وثلاثمائة دارع ممنوعى من الأسود والأحمر تحصد في غداة واحدة وإني والله لا آمن وأخشى الدوائر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لك لا بارك الله لك فيهم . وعن عمر بن قتادة أنه قال: خلوم لعنهم الله ولعنهم فأرسلوهم ، ثم أمر بإجلالهم وغنم الله عز وجل رسوله والمسلمين ما كان لهم من مال ولم تكن لهم أرضون إنما كانوا صاغية فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم سلاحاً كثيراً وآلة صياغتهم . وكان الذى ولى إخراجهم من المدينة بذرارهم ، عبادة بن الصامت فضى بهم حتى بلغ ذباب^(٢) وهو يقول الشرف الأبد الأسمى فالأسمى . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر .

وقد استغرق خروجهم ثلاثة أيام وذهبوا إلى أذرعات^(٣) ولم يدر الحول عليهم حتى هلكوا بدعوتهم صلى الله عليه وسلم في قوله لابن أبي: لا بارك الله لك فيهم . وكان عددهم ٤٠٠ حاسر و ٣٠٠ دارع فسألو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحل سبيلهم وأن يحلوا من المدينة وأن لهم النساء والذرية ويجعلوا بقية الأموال للنبي صلى الله عليه وسلم ومنها الحلقة التى هى السلاح ، ولم يكن لهم نخيل ولا أراض تزرع فصالحهم على ذلك فزولوا فحمت أموالهم . جعل منها أربعة أخماس للمؤمنين المجاهدين وخمساً له صلى الله عليه وسلم فكان أول خمس قبضه رسول الله ، وقد وجد في منازلهم سلاح كثير فأخذ رسول الله ﷺ من سلاحهم ثلاث قوسا تدعى (الكتوم) لا يسمع لها صوت إذا رمى بها كسرت بأحد ، وقوساً تدعى (الروحاء) وقوساً تدعى (البيضاء) وأخذ درعين ، درعاً يقال لها (السفدية) يقال إنها درع داود التى لبسها حين قتل جالوت والأخرى يقال لها (فضة) وثلاثة أرماع وثلاثة أسياف . ووهب ﷺ درعاً لحمد بن مسلمة ودرعاً لسعد بن معاذ . وكان لواء رسول ﷺ يوم بنى قينقاع لواء أبيض مع حمزة بن عبد المطلب .

غزوة السويق

غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السويق في ذى الحجة من السنة الثانية من الهجرة (إبريل ٦٢٤ م) وولى تلك الحجة المشركون من تلك السنة . وكان أبو سفيان حين رجع إلى مكة نذر أن لا يمسه رأسه ماء من جنابة . أى لا يأتى النساء حتى يغزو محمداً ﷺ فخرج في مائتى راكب من قريش ليبر يمينه^(٤) فسلك النجدية حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له نيب من المدينة على بريد أو نحوه . ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير ليلاً ،

(١) يعنى تلونا . (٢) جبل بالمدينة (٣) بلدة بالشام .

(٤) الفصل من الجنابة كان معمولاً به في الجاهلية بقية دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما يى فيهم الحج والنكاح ، فكان الحدث الأكبر معروفاً عندهم ، وأما الحدث الأصغر ، فلم يكن معروفاً عندهم قبل الإسلام .

فأتى حُيَّ بن أخطب وهو من رؤساء بني النضير ، وهو أبو صفية أم المؤمنين ، فضرب عليه بابَه فأبى أن يفتح له وخافه فأنصرف عنه إلى سَلَام بن مِشْكَم وكان سيد بني النضير في زمانه وصاحب كنزهم فاستأذن عليه فأذن له فقرأه وسقاه خمرًا وبطن له من خبر الناس ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالا من قريش إلى المدينة فأتوا ناحية منها يقال لها العريض فحرقوا أصواراً^(١) من نخل بها ووجدوا بها معبد بن عمرو الأنصاري وحليفاً له في حرث لها فقتلوا ثم انصرفوا راجعين ونذر بهم الناس .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبهم في ٢٠٠ من المهاجرين والأنصار واستعمل على المدينة بشير ابن عبد النذر (وهو أبو لبابة) حتى بلغ قرقرة الكدَر . ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان وأصحابه وقد رأوا أزواداً من أزواد القوم قد طرحوها في الحرث يتخفون منها للنجاة . فقال المسلمون حين رجع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله أتعلم لنا أن تكون غزوة ؟ قال نعم .

ولما سميت « غزوة السويق » لأن أكثر ما طرح القوم من أزوادهم « السويق » فرجع المسلمون بسويق كثير فسميت (غزوة السويق^(٢)) .

والظاهر أن أبا سفيان أراد بهذه الغزوة أن يبر يمينه فقط ، لأنه لا يُتصور أنه كان يريد بهذه القوة الصغيرة . (٢٠٠ راكب) الانتصار على المسلمين في هذه الغزوة بعد أن شاهد قوتهم في غزوة بدر . لذلك كانت هذه مناوشة لا قيمة لها .

غزوة ذي أمر

وهي غزوة غطفان

١١ رجع رسول الله ﷺ من غزوة السويق ، أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريباً منها ثم غزا نجداً يريد غطفان وهي غزوة ذي أمر لأن جمعاً من بني ثعلبة ومحاربة تجمعوا بذى أمر يريدون الإغارة ، جمعهم دُعُثُور بن الحارث الحاربي ، فخرج رسول الله ﷺ في ٤٥٠ رجلاً واستعمل على المدينة عثمان بن عفان فلما سمعوا بمجيئه هربوا في رموس الجبال فرجع رسول الله ﷺ ولم يلق كيداً وأقام بنجد صفرأ كله أو قريباً من ذلك . وأصاب المسلمون رجلاً منهم يقال له جبار الثعلبي فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأسلم وضمه إلى بلال ليعلمه الشريعة الإسلامية كما هو دأبه من العناية بتعليم المسلمين وفي هذه الغزوة أسلم دُعُثُور بمعجزة من النبي ﷺ مع أنه هو الذي جمع قومه لمحاربتة ﷺ وكان سيداً شجاعاً وبعد أن أسلم ذهب إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام فاهتدى به خلق كثير .

(١) جمع صور وهو النخل الصغير .

(٢) السويق هو قح أو شعير يقل ثم يطحن ليسف تارة بللاء وتارة بسم وتارة بسل وسم .

— ١٨٥ —

زواج أم كلثوم

ابنة رسول الله ﷺ

. أم كلثوم ، ابنة رسول الله من خديجة رضى الله عنها وهى أصغر سنًا من رقية لأن رسول الله تزوج رقية من عثمان فلما توفيت زوجها أم كلثوم وما كان ليزوج الصغرى ويترك الكبرى ، وكان رسول الله تزوج رقية وأم كلثوم من عقبه وعتيبة ابني أبي لهب فلما أنزل الله عز وجل : ﴿ تَبَتَّ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ قال أبو لهب لابنيه: رأسى من رءوسكم حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد وقالت أم جميل أمهما « حمالة الخطب » بنت حرب بن أمية لابنها ، إن رقية وأم كلثوم قد صبأنا فطلقاهما . ففعلوا فطلقاهما قبل الدخول بهما . فزوج النبي صلى الله عليه وسلم رقية من عثمان ، فلما توفيت زوجها أم كلثوم رضى الله عنهم ، وكان نكاحه إياها فى ربيع الأول من سنة ثلاث وبنى بها فى جمادى الآخرة من السنة ولم تلد منه ولدًا وتوفيت سنة أربع وصلى عليها رسول الله .

زواج حفصة

فى شعبان من هذه السنة تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بعد أن انقضت عدها من زوجها خنيس بن حذافة^(١) ، قال عمر رضى الله عنه : ولدت حفصة وقريش تبنى البيت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بخمس سنين .

وقد كان عمر رضى الله عنه عرض حفصة على أبي بكر فلم يجبه بشيء ، وعرضها على عثمان فلم يجبه بشيء ، فقال عمر يارسول الله قد عرضت حفصة على عثمان فأعرض عني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد زوج عثمان خيرًا من ابنتك وزوج ابنتك خيرًا من عثمان ، فزوج عثمان أم كلثوم وتزوج رسول الله حفصة وكان عمرها ٢٠ عامًا .

وتزوج رسول الله حفصة سنة ٣ بعد عائشة وطلقها تطليقة فبلغ ذلك عمر لخفا التراب على رأسه وقال : ما يعأى الله بعمر وابنته ثم ارتجعها رسول الله . وتوفيت سنة ٤١ هـ فى زمن معاوية .

سرية زيد بن حارثة

سرية زيد بن حارثة إلى القرَد - ماء من مياه نجد^(٢) - وسببها أن قريشًا خافوا من طريقهم الذى يسلكونها

(١) هو أخو عبد الله بن حذافة . كان من السابقين إلى الإسلام وهاجر إلى أرس الحبشة وعاد إلى المدينة فشهد بدرًا . وأحدًا وأصابته بأحد جراحة فات منها .

(٢) نجد معناه الأرض المرتفعة وهو بين البصرة واليمن والحجاز ويحده من الشرق العراق .

إلى الشام حين كان من وقعة بدر ما كان فسلكوا طريق العراق فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب وصفوان ابن أمية وحويطب بن عبد العزى وكلهم أسلموا عام الفتح ومعهم فضة كثيرة . فبعث رسول الله ﷺ يزيد بن حارثة رضي الله عنه في ١٠٠ راكب فلقبهم على ذلك الماء فأصاب العير وما فيها وهرب الرجال ، فقدم بالعير على رسول الله فخمسها فبلغت قيمة الخمس ، عشرين ألف درهم . وكانت هذه السرية في جمادى الآخرة من السنة الثالثة من الهجرة (سبتمبر سنة ٦٢٤ م) . .

قتل كعب بن الأشرف

كعب بن الأشرف اليهودي كان أبوه عريباً من بني نهبان . أصاب دماً في الجاهلية فأقن المدينة فخالف بني النضير فشرّف فيهم وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق فولدت له كعباً . وكان طويلاً جسيماً ذا بطن وهامة ، شاعراً مجيداً ، ساد يهود الحجاز بكثرة ماله فكان يعطى أحبار يهود ويصلهم . وكان يهجو رسول الله ﷺ في أشعاره ويمرض كفار قريش على قتاله . وكان من عداوته أنه لما أصيب أصحاب بدر ، قدم زيد بن حارثة إلى أهل السافلة وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية ، بشيرين بعثهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بالمدينة من المسلمين يخبرانهم بفتح الله عز وجل عليه وقتل من قتل وأسر من أسر من المشركين ، كبر عليه ذلك وقال : أحق هذا ؟ أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذا الرجلان (البشيران) وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء لبطن الأرض خير من ظهرها . فلما تيقن الخبر ورأى الأسرى خرج إلى قريش يبكي قتلاهم ويمرض بأشعاره على قتال النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ينتقل من قوم إلى قوم وأخباره تصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيذكره لحسان فيهجوه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت » ، ثم رجع إلى المدينة فتغزل في نساء المسلمين وذكرهن بسوء وأبى أن ينزع عن أذاه ، وكان يرمى إلى إحداث ثورة في المدينة ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغضب رسول الله ﷺ وقال : من لي بابن الأشرف ؟ فقال محمد بن مسلمة أخو بني عبد الأشهل : أنا لك به يارسول الله هو خالي ، أنا أقتله . قال فافعل إن قدرت على ذلك ، فرجع محمد بن مسلمة فكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق به نفسه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه فقال له : لم تركت الطعام والشراب ؟ فقال يارسول الله قلت لك قولاً لا أدرى أأفئ لك به أم لا ؟ قال إنما عليك الجهد .

ثم أتى أبا نائلة ، وكان أخاً لكعب بن الأشرف من الرضاعة وكان شاعراً وعباد بن بشر والحارث بن أوس وأخبرهم بما وعد به رسول الله من قتل ابن الأشرف ، فأجابوه وقالوا كلنا بقتله ، ثم أتوا رسول الله وقالوا يارسول الله لا بد لنا أن نقول . قال : قولوا ما بدا لكم فأنتم في حلّ من ذلك . ومعنى ذلك أنهم استأذنوه أن يقولوا قولاً غير مطابق للواقع يسر كعباً ليتوصلوا به إلى قتله وكان لا بد لهم من التماس الحيلة لأنه كان يقيم في حصن

منيع خارج المدينة ، فأباح لهم الكذب لأنه من خدع الحرب ، فجاء محمد بن مسلمة ، كعب بن الأشرف فقال : إن هذا الرجل - يعني النبي ﷺ - قد سألنا صدقة ونحن مانحون ما نأكل وإنه قد عَنَّنا^(١) وإني قد أتيتك أستسلفك . قال كعب وأيضاً والله لتمكُّنه^(٢) . قال : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شيء يصير شأنه وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين . قال : ألم يأن لكم أن تعرفوا ما أنتم عليه من الباطل ؟ ثم أجابهم بأنه يسلفهم ، وقال : ارهنوني ، قالوا أى شيء تريد ؟ قال : ارهنوني نساءكم ! قالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجل العرب ؟ قال فارهنوني أبناءكم ، قال وكيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن وسق أو وسقين ؟ هذا عار علينا ولكن نرهنك اللأمة يعنى السلاح مع علمك بحاجتنا إليه قال نعم وإنما قالوا ذلك لئلا ينسك عليهم مجيئهم إليه بالسلاح فواعده أن يأتيه وجاءه أيضاً أبو نائلة وقال له : ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئت لك حاجة أريد أن أذكرها لك فاكتم عني . فقال : أفعل . قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء عادتنا العرب ورميتنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل حتى جاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا . فقال كعب : أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول . فقال : إني أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك وإن معي أصحاباً على مثل رأيي وقد أردت أن آتيك بهم فتييعهم وتحسن إليهم ونرهنك من الحلقة ما فيه وفاء . فقال : إن في الحلقة لوفاء ، وكان أبو نائلة أخاً لكعب من الرضاة ومحمد بن مسلمة ابن أخيه من الرضاة ، فجاءه محمد بن مسلمة وأبو نائلة ومعهما عباد بن بشر والحارث بن أوس بن معاذ وأبو عيس بن جبر وكلهم من الأوس . ولما فارقوا النبي صلى الله عليه وسلم ، مشى معهم إلى بيع الفرقد ثم وجههم وقال انطلقوا على اسم الله اللهم أعنيهم . ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى بيته وكان ذلك بالليل وكانت الليلة مقبرة ، فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه وكان حديث عهد بعرس فناداه أبو نائلة ثم بقية أصحابه فعرفهم ووثب في ملحفته فأخذته امرأته بناحيتهما وقالت إنك امرؤ مُحارب وإن أصحاب الحروب لا ينزلون في مثل هذه الساعة . قال لها إنه لأبو نائلة لو وجدني نائماً ما أيقظني ، فقالت : والله إني لأعرف في صوته الشر . فقال لها كعب لو يدعى الفقي لطننة لأجاب ، فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قالوا : هل لك يا ابن الأشرف أن تمشي إلى شعب العجوز^(٣) تتحدث به بقية ليلتنا ؟ فقال : إن شئتم . فخرجوا يتماشون فمشوا ساعة ، ثم إن أبا نائلة أدخل يده في باطن رأسه ثم شم يده وقال : ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط ! ثم مشى ساعة ثم عاد لملئها وأمسكه من شعره وقال : اضربوا عدوا الله فضربوه بأسيا فهم فوق على الأرض فجذبوا رأسه فخلعوه في مخلاة

(١) عَنَّنا : أى اتبعنا بما كافنا به من الأوامر والنواهي التي فيها تعب ، لكنه في مرصاة الله ، وهذا من التعريض الجائر .

(٢) أى تريد ملائمتكم وتضجرون منه أكثر وأزيد من ذلك .

(٣) اسم موضع كان قريبا منهم .

- ١٨٨ -

كانت معهم إلى رسول الله ، وكان ذلك في السنة الثالثة من الهجرة شهر ربيع الأول (يولييه سنة ٦٢٤ م) .
هذه الحادثة قد أوقعت الرعب في نفوس اليهود جميعاً ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه . فلم يخرج من عظامهم أحد من شدة خوفهم .

قتل ابن سُنَيْيَّة

ولما سمع مُحَيِّصَةُ بن مسعود ذلك من رسول الله وثب على ابن سُنَيْيَّة اليهودي وهو من تجار يهود قتلته . فقال له أخوه حُوَيْصَةُ وهو مشرك ياعدو الله قتلته أما والله لرب شحم في بطنك من ماله وضربه . فقال مُحَيِّصَةُ: لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لقتلتك ، قال فوالله لئن كان لأول إسلام حويصة فقال إن ديناً قد بلغ بك ما أرى لمعجب ثم أسلم .

هذه قصة مقتل كعب بن الأشرف ذكرنا ملخصها من أوثق المصادر التاريخية . وقد استنكر بعض الأفرنج الذين كتبوا سيرة الرسول صلى الله عليه اغتيال كعب بأمر رسول الله لكن كعباً هو الذي أساء إلى نفسه إذ قد ساقه الغرور إلى ارتكاب متن الشطط بعداء النبي معتمداً على ثروته وجاهه وشعره ، فإنه بعد أن عاهد النبي مع من عاهد من اليهود نقض العهد ونشط يهجو رسول الله والمسلمين بأشعاره ، ورحل إلى مكة ييث الدعوة للقتال فإذا ما عاد إلى المدينة تغزل بنساء المسلمين ولا ريب أن ذلك كله يوغر الصدور . والعرب لا يغفرون أن يرمى نساءهم بسوء . ومن هذا نرى أنه كان عرضة للقتل بيد كل من يثار على حريمه ودينه من المسلمين .

ذكرنا مقتل كعب بن الأشرف قبل موقعة أحد لأن سرية محمد بن مسلمة كانت في شهر ربيع الأول من السنة الثالثة ، وغزوة أحد في شوال من هذه السنة . ذلك أن كعباً لما جاء البشيران اللذان أرسلهما رسول الله ليؤثرا إلى المسلمين خبر انتصارهم في بدر وقتل من قُتل وأسر من أسر من أشراف قريش لم يصدقهما . فلما سأل الناس وثبتت من صحة الخبر رحل إلى مكة وأخذ يحرض قريشاً على قتال المسلمين بأشعاره طارفاً أبوإبراهيم ثم رجع إلى المدينة يشبب بنساء المسلمين فأمر رسول الله بقتله وقتل وقد حدث ذلك بعد وقعة بدر وقبل أحد إذ الذي دفعه إلى الرحيل إلى مكة وإظهار عدائه شدة تغيبه من انهزام المشركين وانتصار المسلمين ذلك الانتصار المبين وقد ذكر ابن هشام وابن الأثير وابن سعد في طبقاته وفي كتاب السير للإمام أبي العباس مقتل كعب قبل أحد وكذلك أورده الطبري قبل أحد مع حوادث السنة الثالثة للهجرة وقد نقل عن الواقدي أن النبي وجهه إليه (أي كعب) في شهر ربيع الأول من هذه السنة (الثالثة) وأرخ مستر موير هذه الحادثة يولييه سنة ٦٢٤ (السنة الثالثة من الهجرة) .

ومن الغريب أن الأستاذ ولفسون يغمض عينيه عن هذه المراجع المهمة في رسالته (تاريخ اليهود) ويتشبث برأى اليعقوبي ويعتبره صحيحاً لأن اليعقوبي يقول إن النبي أمر بقتل كعب بن الأشرف بعد يوم أحد أى في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة . لكن ما الذى ألجأ الأستاذ إلى ذلك ؟ إن الذى ألجأه إلى ذلك نفي التهمة عن كعب بن الأشرف وهى تحريضه قريشاً على قتال المسلمين وتشبيهه بنسبائهم فاضطر إلى تكذيب رواية ابن هشام وغيره من كبار المؤرخين .

فلماذا قتل كعب إذن ؟

قال الأستاذ : إنه قتل فى السنة الرابعة قبيل محاصرة النبي لبنى النضير وكان قتله بمثابة إعلان حرب عليهم فإنه كان زعيماً من زعمائهم .

وبذلك نفي الأستاذ ولفسون التهمة عن كعب وجوز على النبي قتل زعيم من زعماء بنى النضير لا لشيء غير إعلان الحرب عليهم .

غزوة أحد

يوم السبت ١٥ شوال سنة ٣٣ هـ (يناير سنة ٦٢٥ م)

أحد جبل مشهور بالمدينة فى شمالها الغربى بينه وبين المدينة ثلاثة أميال . سُمى بذلك لتوحده وافتراده عن غيره من الجبال التى هناك وهو للوضع الذى دُفن فيه هارون أخو موسى عليهما السلام .

وسببها أن قريشاً لما أصابهم يوم بدر ما أصابهم مشى عبد الله بن أبى ربيعة . وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية^(١) . ومشى معهم رجال آخرون من أشراف قريش ممن أصيب آبائهم وأبنائهم وإخوانهم . فكلّموا أبا سفيان وكل من له تجارة فى تلك العير التى كانت سبباً فى وقعة بدر ، وكانت تلك العير موقوفة بدار الندوة ولم تعط لأربابها . فقالوا إن محمداً قد وترككم وخياركم فأعينونا بهذا المال على حربنا لنلنا ندرنا منه ثاراً عن أصاب منا ونحن طيبو النفس أن تجهزوا بريح هذه العير جيشنا إلى محمد .

فقال أبو سفيان : وأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معى فجعلوا لذلك ربح للمال فسلم لأهل العير رموس أموالهم وكانت ٥٠٠٠٠ دينار وأخرجوا أربابها وكان الربح ديناراً لكل دينار . وتجهزت قريش ومن والاهم من قبائل كنانة وتهامة . وقال صفوان بن أمية لأبى عزة الجمحى : يا أبا عزة إنك رجل شاعر فأعنا بلسانك ولك علىّ إن رجعت أن أغنيك . وأن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى يصيبهن ما أصابهن من عسرويسر . فقال : إن محمداً قد من علىّ وأطلقنى وأنا أسير فى أسارى بدر فلا أريد أن أظاهر عليه . قال بلى فأعنا بلسانك .

(١) أسلم هؤلاء بعد ذلك .

خرج أبو عزة ومسافع يستغزان الناس بأشعارهما . ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقذف بالحربة قلماً يخطئ بها ، فقال له اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة بن عبد المطلب يعنى طعيمة بن عدى فأنت حر . لأن حمزة هو الذى قتل طعيمة يوم بدر ، وقيل إن ابنة سيده طعيمة قالت له إن قتلت محمداً أو حمزة أو علياً فى أبى فأنى لا أرى فى القوم كفاً له غيرهم ، فأنت عتيق .

وكان أبو سفيان بن حرب قائدهم وكانت عدتهم ٣٠٠٠ فيهم ٧٠٠ دارع ومعهم ٢٠٠ فرس . وجملة النساء ١٧ امرأة ممن الدفوف والمعازف أى آلات الملاهى والنجور والبغايا وخرجت هند بنت عتبة زوج أبى سفيان التى قتل أبوها فى غزوة بدر لتنتقم لأبيها وقالت « نحن بنات طارق * نمشى على النمارق * إن تقبلوا نعانق * أو تدبروا فئارق * فراق غير وامق » وخرجت أم حكيم بنت طارق مع زوجها عكرمة وريطة بنت منبه السهمية مع زوجها عمرو بن العاص وغيرهن يكيبن قتلى بدر (إذ البكاء دأب النساء) وينحن عليهم ويحرضن على القتال وعدم الهزيمة والفرار .

وكان خروجهم من مكة لخمس مضين من شوال . وكتب العباس للنبي ﷺ وأخبره بجمعهم وخروجهم وأرادوه على الخروج معهم فأبى واعتذر بما لحقه يوم بدر ولم يساعدهم بشئ من المال . فجاء كتابه للنبي ﷺ وهو بقاء وكان العباس أرسل الكتاب مع رجل من بنى غفار ، استأجره وشرط عليه أن يأتى المدينة فى ثلاثة أيام ليلايلها فقبل ذلك . فلما جاء الكتاب فك ختمه ودفعه لأبى بن كعب فقرأه عليه . وهذا مما يؤيد أن النبي ﷺ كان أمياً بمعنى أنه ما كان يعرف القراءة والكتابة وإلا لكان قرأ الكتاب بنفسه وكتب سره بدلاً من أن يطلب من أبى بن كعب تلاوته ثم يستكتبه .

ثم نزل ﷺ على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس فقال : والله إنى لأرجو أن يكون خيراً فاستكتبته إياه . ولما خرج رسول الله ﷺ من عنده ، زالت له امرأته : ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ فقال لها : يأم محمد ما أنت وذاك . قالت قد سمعت ما قال وأخبرته بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاستخرج وأخذ بيدها ولحق النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره خبرها . وقال يارسول الله : إنى خفت أن يفشو الخبر فترى أنى أنا الغشى له ، وقد استكتبتمنى إياه . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خل عنها .

سارت قريش وهم ٣٠٠٠ رجل ومعهم الأحابيش^(١) الذين حالفوا قريشا وهم بنو المصطلق وبنو الهون بن خزيمه وخرج معهم أبو عامر الراهب فى ٧٠ فارساً . . وسماه رسول الله ، الفاسق بدلاً عن الراهب ، وابنه حنظلة من فضلاء الصحابة وهو من المستشهدين بأحد . اجتمع الأحابيش عند حبيش وهو جبل بأسفل مكة وتحالفوا على أنهم مع قريش يداً واحدة ما سجاليل ووضح نهار ومارسا حبيش مكانه .

(١) قبل سموا احابيش باسم جبل بأسفل مكة : يقال له « حبش » وقيل سموا بذلك لتحببهم أى تجمهم .

سارت قريش حتى نزلوا ببطن الوادي من قبل أحد مقابل المدينة بذى الحليفة . وكان وصولهم يوم الأربعاء
ثاني عشر شوال فأقاموا به الأربعاء والخميس والجمعة ، وتشاور المسلمون في الخروج من المدينة . وكان رأى عبد الله
ابن أبي بن سلول رأى النبي ﷺ فإنه كان يرى عدم الخروج منها . ولكن ألح عليه ﷺ بعض الصحابة
فخرج فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال .

وقد رأى النبي ﷺ رؤيا قبل خروجه ، وكانت ليلة الجمعة . فلما أصبح قال : والله إني قد رأيت خيراً
رأيت بقرأً تُذبح ورأيت ذباب سيفي (طرفه) ثلماً ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة وكأني مردف كبشاً .
فأما البقر فناس من أصحابي يقتلون . وأما الثلم الذي رأيت في سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل . وأولت الدرع
الحصينة المدينة ، وأولت الكبش باني أقتل صاحب الكتيبة . وقد صدق الله رؤياه ﷺ . فكان الرجل الذي
من أهل بيته « حمزة » سيد الشهداء . وقتل على رضى الله عنه « طلحة بن عثمان العبدي » صاحب لواء
المشركين . فهو صاحب الكتيبة وكبش القوم سيدهم وكان الذي بسيفه ما أصاب وجهه الشريف في الغزوة
كما سيأتي ذكره .

قال رسول الله ﷺ لأصحابه : امكثوا بالمدينة ، فإن دخل القوم للمدينة قاتلناهم ورموا من فوق البيوت وكانوا
قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية فهي كالحصن . وكان ذلك رأى أكابر المهاجرين والأنصار وأرسل إلى
عبد الله بن أبي بن سلول يستشيريه تألفاً له ولم يستشره قبل ذلك . فكان رأى عبد الله مع رأيهِ ﷺ . فقال
رجال من المسلمين لم يحضروا بدرأً وأسفوا على ما فاتهم من مشهدها : يارسول الله ، إنا كنا نتمنى هذا اليوم ،
اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أننا جبننا عنهم وواقفهم حمزة بن عبد المطلب .

فقال ابن أبي : يارسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم . فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا .
ولا دخلها علينا إلا أصبنا منهم . فدعهم يارسول الله فإن أقاموا ، أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال
في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا ، رجعوا خائبين كما جاءوا .

وقال حمزة بن عبد المطلب وسعد بن عباد والنعمان بن مالك وطائفة من الأنصار إنا نخشى يارسول الله أن
يظن عدونا أننا كرهنا الخروج جبناً عن لقاءهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا . وزاد حمزة فقال : والذي أنزل
عليك الكتاب ، لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة . وقال النعمان : يارسول الله لا تحرمنا
الجنة . فوالذي نفسي بيده لأدخلها .

فترجع عنده ﷺ موافقة رأيهم وإن كرهه ابتداء ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ولم يكن قد أوحى إليه في
شأن البقاء أو الخروج فأنفذ منشورتهم .

صلى رسول الله ﷺ بالناس الجمعة ثم وعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد وأخبرهم بأن النصر لهم ماصبروا وأمرهم

بالتهيؤ لعدوهم ثم صلى بالناس العصر . ثم دخل بيته ومعه صاحباة فعماء والبساء وتقلد السيف وخرج وقد لبس لأمنه (درعه وقيل سلاحه) وألقى الترس في ظهره وأخذ قناته بيده .
اصطف الناس ينتظرون خروجه صلى الله عليه وسلم فقال لهم سعد بن معاذ رضى الله عنه وأسيد بن حضير : استكبرتم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج فردوا الأمر إليه . وكان سعد بن معاذ سيد الأوس وهو في الأنصار كالصديق في المهاجرين .

ولما خرج رسول الله متقلداً سيفه ، ندم الطالبون لخروجه على ما صنعوا وقالوا ما كان ينبغي لنا أن نخالفك ، فاصنع ما شئت . وفي رواية فإن شئت فاقعد . فقال ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمنه أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه فخرج يوم الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال ومشى على رجله ولما خالف رسول الله رأى ابن أبي بجروجه إلى القتال ، شق عليه ذلك ، وقال ، أطاع الولدان وعصاني .

واستعمل على المدينة « ابن أم مكتوم » رضى الله عنه . وعقد ثلاثة ألوية ، لواء للأوس جعله بيد أسيد بن حضير . ولواء للخزرج جعله بيد الحباب بن المنذر ولواء للمهاجرين جعله بيد علي بن أبي طالب رضى الله عنهم . وكان في المسلمين مائة دارع (الدارع ، لا لبس الدرع) وركب عليه السلام فرسه وقيل خرج ماشياً وخرج السعدان أمامه يعدوان - سعد بن معاذ وسعد بن عباد - وكانا دارعين . ورد عليه السلام جماعة من المسلمين نحو سبعة عشر لصفهم منهم : أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري والنعمان بن بشير ورافع ابن خديج وسمرة بن جندب . ثم أجاز رافع بن خديج لما قيل إنه رام . فخرج وأصيب بسهم في رقبته فنزع السهم وبقي النصل إلى أن مات .

ورأى صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود مع عبد الله بن أبي يريدون الخروج فقال أوقد أسلموا ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : مروهم فليرجعوا ، فإننا لا نستعين بالمشركين على المشركين وكان المسلمون الخارجون معه عليه السلام ١٠٠٠ ثم انحذل عبد الله بن أبي ورجع هو ومن معه من المنافقين وكانوا ٣٠٠ فبقى المسلمون ٧٠٠ وكان عدد المشركين ٣٠٠٠ ولم يكن مع المسلمين يومئذ إلا فرسان : فرس لرسول الله وفرس لأبي بردة .

وقال ابن أبي حين أراد الرجوع : عصاني وأطاع الولدان ومن لا رأى له . علام تقتل أنفسنا ؟ ارجعوا أيها الناس . لما انحذل ابن أبي ومن معه سقط في أيدي طائفتين من المسلمين وهما أن تفشلا وهما : بنو حارثة من الخزرج وبنو سلمة من الأوس .

ثم مضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي في الجبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وصلى الصبح بأصحابه صفوفاً . ثم اصطف المسلمون بالسبيخة وكان على ميمنة خيل المشركين خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل وعلى المشاة صفوان بن أمية وقيل عمرو بن العاص .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم للزبير بن العوام : استقبل خالداً وكن بإزائه ، وأمر جماعة آخرين أن يكونوا بإزاء خيل أخرى للمشركين ولم يكن مع المسلمين إلا فرس أو فرسان . وجعل النبي صلى الله عليه وسلم على الرماة عبد الله بن جبير بن النعمان الأوسى وهو أخو خوات بن جبير . وكان الرماة خمسين رجلاً . فأقامهم النبي ﷺ على جبل صغير مرتفع . وقال لهم :

« احموا ظهورنا . لا يأتونا من خلفنا ، وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقوم على النبل . إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم . اللهم إني أشهدك عليهم » .
وفى رواية قال لهم رسول الله :

« إن رأيتمونا تخطفنا الطير ، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم . وإن رأيتمونا هزمنا القوم أو ظاهرونا ، فمقتلواهم ، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم » .

ثم عرض رسول الله ﷺ سيفاً وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ قام رجال وبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول : أنا يارسول الله ، منهم أبو بكر الصديق وعمر وعلي والزبير . فأمسكه عنهم ولم يعطه لهم حتى قام إليه « أبو دجانة » فقال : وما حقه يارسول الله ؟ قال : أن تضرب في وجه المدوحي بنحني . قال : أنا آخذه يارسول الله . قال : لعلك إن أعطيتكه تقاتل في الكيول (مؤخر الصفوف) قال : لا يارسول الله . فأعطاه إياه وكان رجلاً شجاعاً يقاتل عند الحرب . فلما رآه ﷺ بتبختر قال : إنها لمشية يبغيضها الله تعالى إلا في مثل هذا الموطن فحمل أبو دجانة لا يلتقي أحداً من المشركين إلا قتله . وكان إذا كل السيف شحذه بالحجارة ثم يضرب به العدو . ولما اصطف القوم نادى أبو سفيان : يامعشر الأوس والخزرج خلوا بيننا وبين بني عمنا وننصرف عنكم فشتموه أقبح شتم ولعنوه أشد لعن .

وخرج طلحة بن أبي طلحة وكان بيده لواء المشركين فطلب المباررة مراراً فلم يخرج إليه أحد ففرج إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فضربه فقطع رجله فوقه على الأرض وبدأت عورته فرجع عنه ولم يجهز عليه . فأخذ لواء المشركين أخو طلحة وهو عثمان بن أبي طلحة فحمل عليه حمزة قطع يده وكتفه . فأخذه أخو عثمان وأخو طلحة وهو أبو سعيد بن أبي طلحة فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرته فقتله . فحملة مسافع بن طلحة ابن أبي طلحة الذي قتله علي رضي الله عنه فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح فقتله . ثم حملة أخو مسافع وهو الحارث بن طلحة فرماه عاصم أيضاً فقتله . ثم حمل اللواء كلاب بن طلحة فقتله الزبير فحملة جلاس بن طلحة فقتله طلحة بن عبيد الله ثم حملة أرطاة بن نرحبيل فقتله علي رضي الله عنه ثم حملة أبو زيد بن عمرو فقتله قزمان . فحملة ولد لشرحبيل بن هاشم فقتله قزمان أيضاً . ثم حملة صواب غلامهم وكان عبداً حبشياً فقتله علي . ثم لم يزل اللواء طريقاً حتى أخذته عمره بذت علقمة الحارثية فرفعته لفريش فاستداروا حوله .

وقد كان لواء الشركين شؤماً عليهم ، فكلما حمله أحد قتل وهكذا قُتل أحد عشر رجلاً حملوا اللواء بالتوالي وكان اهتمام المسلمين موجهاً إلى حامل العلم بنوع خاص لأنه كبش الكتيبة . ونكب بحمل العلم كل من مسافع والحارث وكلاب وجلاس . وهؤلاء الأربعة أولاد طلحة بن أبي طلحة فكلهم قُتلوا كأبيهم وعمرهم وها عثمان وأبو سعيد .

ولما قتل أصحاب اللواء صاروا كتائب متفرقة فجاش المسلمون فيهم ضرباً حتى أجهدوهم وأزالوهم عن أمكنتهم وكان شعار المسلمين يومئذ (أمت ! أمت !) وشعار الكفار (يالعرى !) (يالهل !) .

الكرّة على المسلمين

انهزم المشركون ووقع المسلمون ينتهبون المعسكر يأخذون مافيهِ من الغنائم واشتغلوا عن الحرب . فقال أصحاب عبد الله بن جبير وهم الرماة الذين أمرهم النبي ﷺ بالبقاء بمكانهم « الغنيمه ! أى قوم قد غلب أصحابكم ، فما تنتظرون ؟ » ومعنى ذلك أن الرماة طمعوا في الغنيمه ناسين أمر القائد العام وهو رسول الله فإنه أمرهم بالثبات في مراكزهم إذ قال لهم : إنا لانزال غاليين مائتكم مكانكم . فقال لهم قائدهم عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ يعنى قوله لا تبرحوا . فأبوا أن يطيعوه ، وقالوا : والله لنأتين الناس ولنصيب من الغنيمه فإن للمشركين قد انهزموا فما مقامنا هاهنا ؟ وقد ظن هؤلاء أن الحرب قد انتهت وأن قريشاً قد هُزمت وقد ثبت عبد الله ابن جبير في مكانه وثبت معه دون العشرة .

فلما توجه الرماة إلى محل الغنيمه كره المشركون راجعين . ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل الذى كان فيه الرماة وقلة أهله فكرّ بالخليل وتبعه عكرمة بن أبى جهل فحملوا على من بقى من الرماة فقتلوه وقتلوا أميرهم عبد الله ابن جبير ومثلوا به ووقعت الهزيمة في المسلمين بعد مدة وجيزة لأنهم خالفوا ما نهاهم عنه رسول الله فوقعوا لخالفته . ووقع الاختلاط في جيش المسلمين وارتبكوا وصار يضرب بعضهم بعضاً !

ثبات رسول الله ﷺ

ثبت رسول الله ﷺ ولم يفارق مكانه الذى وصل إليه وقت انهزام المشركين ولم تزل قدمه شبراً واحداً عن موقفه مع أن الاختلاط كان شديداً حتى قد المسلمون التمييز بينهم وبين أعدائهم وترك المسلمون شعارهم الذى يتعارفون به وهو (أمت ! أمت !) فوقع القتل في المسلمين بعضهم في بعض ، وحافظ المشركون على شعارهم . وما زاد في ارتباك المسلمين أن رجلاً اسمه ابن قبيصة اللبني قتل مصعب بن عمير وكان يشبه النبي ﷺ إذا لبس لأمته فظن أنه قتل رسول الله ﷺ فأذاع ذلك وكان مصعب يذب عن رسول الله ﷺ وكان عدة الشهداء من المسلمين ٧٠ رجلاً وعدة

القتلى من المشركين ٢٣ رجلاً . وكان بين القتلى حفظة بن أبي سفيان . ووصل العدو إلى رسول الله وأصابته حجارته حتى وقع وأغنى عليه وخدشت ركبته ، فأخذ على يده ورفع طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً ، وأصابت رباعيته اليمنى السفلى وشج في وجهه وكلت شفته السفلى وكسرت الخوذة على رأسه . وامتنع مالك بن سنان الخلدري دم رسول الله ثم ازدردته .

ثم أراد رسول الله أن يعلو الصخرة التي في الشعب ، فلما ذهب لينهض لم يستطع لأنه ضعف لكثرة ماخرج من دم رأسه الشريف ووجهه مع كونه عليه درعان فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها . وعطش ﷺ عطشاً شديداً ، فخرج محمد بن مسلمة رضى الله عنه يطلب له ماء فلم يجد ، فذهب إلى مياه فأتى منها بماء عذب فشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه بخير .

وفي بعض الروايات أن نساء المدينة خرجن وفيهن فاطمة بنت رسول الله ، فلما لقيت رسول الله اعتنقته وجعلت تفسل جراحاته وعلى رضى الله عنه يسكب الماء فتزايد الدم . فلما رأت ذلك أخذت شيئاً من حصيد مصنوع من البردى فأحرقته بالنار حتى صار رماداً . فأخذت ذلك الرماد وكمدته حتى لصق بالجرح فاستمسك الدم .

المنهزمون من المسلمين

وصار المسلمون ثلاث فرق : فرقة استمروا في الهزيمة إلى قرب المدينة فارجعوا حتى انفض القتال ، وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَنَّاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ وفرقة صاروا حيارى لما سمعوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل . فصارت غاية الواحد منهم أن يدافع عن نفسه أو يواصل القتال إلى أن يقتل وهم أكثر الصحابة .

وفرقة ثبتت مع النبي ﷺ ثم تراجعت إليه الفرقة الثانية شيئاً فشيئاً لما عرفوا أنه حي . وكان في جملة من انهزم عثمان بن عفان ، والوليد بن عتبة ، وخارجة بن زيد ، ورفاعة بن معلى ، فأقاموا ثلاثة أيام ثم رجعوا إلى رسول الله قال موسى بن عتبة : لما غاب النبي ﷺ عن أعين بعض القوم واختلط بعضهم ببعض وسمعوا الصارخ ، قال رجال من المنافقين : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ، وقال بعض منهم لو كان نبياً ما قتل فارجعوا إلى دينكم الأول ، وفي ذلك أنزل الله ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ وقال رجل منهم ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي سفيان . يا قوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم ليؤمنوكم قبل أن يأتيكم الكفار فيقتلوكم فإنهم يدخلون البيوت . قال أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنهما : يا قوم إن كان محمد قد قُتل فإن رب محمد لم يقتل . قاتلوا عليه . وشهدله بهذه

المقالة عند النبي ﷺ سعد معاذ رضى الله عنه ووافق أنس بن النضر جماعة كثيرون على هذه المقالة وهم المؤمنون أهل الصدق واليقين الذين تمكن الإيمان من قلوبهم .

وروى ابن إسحاق أن أنس بن النضر ، عم أنس بن مالك رضى الله عنهما جاء إلى عمر بن الخطاب وطلحة ابن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم ، فقال إن كان قد قُتل (يعنى محمداً) فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم استقبل العدو فقاتل حتى قُتل رضى الله عنه قال أنس : ولقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذ سبعين ضربة . فما عرفه إلا أخته ، عرفته بينانه (أى بأصابه) .

وفى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله غبتُ عن أول قتال ليرين الله ما أصنع . فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون ، قال اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعنى أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعنى المشركين) ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ . فقال : يا سعد الجنة ورب النضر إني أجد ريحها دون أحد . قال سعد فما أستطيع أن أصف ما صنع .

وقد مثل به للمشركون . وما أظفح التمثيل بالقتلى لكن هؤلاء قد أعماهم حب الانتقام !!

ومن قال مثل مقالة أنس بن النضر ، ثابت بن الدحداح رضى الله عنه فإنه قال : يامعشر الأنصار إن كان محمد قد قُتل فإن الله حي لا يموت قاتلوا عن دينكم فإن الله مظهركم ومناصركم . فنهض إليه نفر من الأنصار فحمل بهم على كتيبة فيها خالد بن الوليد وعمر بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب . فحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فقتله وقتل من كان معه من الأنصار .

رسول الله ومن ثبت معه

ذكرنا أن رسول الله قد ثبت ولم يتزحزح عن موقفه عندما انهزم المسلمون واختلطوا وقتلوا وفر من فر منهم قال ابن سعد : ما زال ﷺ يرمى عن قوسه حتى صارت شظايا ويرمى بالحجر ، وكان أقرب الناس إلى القوم . وهذا ما يؤيد أنه ﷺ كان أشجعهم وأثبتهم . وجاء عن علي رضى الله عنه وغيره : كنا إذا اشتد البأس (أى حتى القتال) اتقينا برسول الله ﷺ . أى فيجعلونه في وجه القوم ويكونون خلفه .

وعن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال : لما جال الناس عن رسول الله ﷺ تلك الجولة يوم أحد ، قلت أذود عن نفسى . فإما أن أستشهد وإما أن ألحق حتى ألقى رسول الله ﷺ فيينا أنا كذلك إذا برجل عمر وجهه ما أدرى من هو ، فأقبل المشركون حتى قلت قد ركبه فلا بد من الحصى ثم رمى به في وجوههم فتككبوا على أعقابهم القهقري حتى أتوا الجبل . ففعل ذلك مراراً وأدري من هو ، وبنى وبينه المقداد ، فيينا أنا أريد أن أسأل المقداد عنه إذ قال للمقداد يا سعد هذا هو رسول الله ﷺ بدعوك قتلت وأين هو ؟ فأشار إليه فقتل وكأنه

لم يصبني شيء من الأذى وأجسني أمامه وأقول : اللهم سهمك فارم به عدوك ورسول الله ﷺ يقول : اللهم استجب لسعد . اللهم سد رميته وأجب دعوته (فكان سعد مجاب الدعوة) حتى إذا فرغ النبل من كنانتي ، نثر صلى الله عليه وسلم لي ما كان في كنانته وانكشف الناس عنه ﷺ .

. وعن سعد رضي الله عنه قال : لقد رأيته والنبي ﷺ يسألني النبل ويقول : ارم فذاك أبي وأمي حتى إنه لينالني السهم ماله نصل فيقول : ارم به وجاء أن سعداً رمى يوم أحد ألف سهم ما فيها سهم إلا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ارم فذاك أبي وأمي ، ففداه ذلك اليوم ألف مرة . وعن علي رضي الله عنه قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذاك أبي وأمي إلا لسعد رضي الله عنه (يعني يوم أحد فلا ينافي أن النبي ﷺ قال مثل ذلك للزبير رضي الله عنه يوم الخندق) .

وثبت معه ﷺ أربعة عشر : سبعة من المهاجرين وهم :

(١) أبو بكر الصديق (٢) عمر بن الخطاب (٣) عبد الرحمن بن عوف (٤) سعد بن أبي وقاص (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام (٧) أبو عبيدة بن الجراح .
أما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد صحت الأحاديث بأنه ممن ثبت ، وبعض الرواة لم يذكره لأنه كان حامل اللواء بعد مصعب .

وسبعة من الأنصار وهم :

(١) أبو دجانة (٢) الحباب بن المنذر (٣) عاصم بن ثابت (٤) الحارث بن الصمة (٥) سهل بن حنيف (٦) سعد بن معاذ (٧) أسيد بن حضير .

وما زال النبي ﷺ يرمي عن قوسه حتى اندقت سيئاتها (والسية ما انعطف من طرفي القوس اللذين هما محل الوتر) وفي رواية حتى تقطع الوتر وبقي في يده قطعة قدر شبر .

شجاعة امرأة

وثباتها مع رسول الله ﷺ

لما انكشف المسلمون واختلط أمرهم ، ثبتت أم عمارة المازنية واسمها نسيبة وهي زوج زيد بن عاصم قالت : خرجت يوم أحد لأنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء أسقي به الجرحى فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أصحابه والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون ، انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقامت أباشر القتال دونه وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراحة إلى . روى أنه كان على عاتقها جرح أجوف له غور قهيل لها من أصابعك بهذا ؟ قالت ابن قتيبة لما ولي الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقبل ابن قتيبة

يقول دلوئى على محمد فلا نجوت إن نجا فاعترضت له أنا ومهعب بن عمير رضى الله عنه فضر بنى هذه الضربة وضرته ضربات ولكن عدو الله كان عليه درعان .

وجاء فى رواية : خرجت نسيبة يوم أحد وزوجها زيد بن عاصم وابناها حبيب وعبد الله وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله عليكم أهل بيت . قالت له نسيبة رضى الله عنها : ادع الله أن تراقبك فى الجنة . قال اللهم اجعلهم رفقاءى فى الجنة . وعند ذلك قالت رضى الله عنها : ما أبالى ما أصابنى من أمر الدنيا .

وقال ﷺ فى حقها : ما التفت يميناً وشمالاً يوم أحد إلا ورأيتها تقاتل دونى . وقد جرحت رضى الله عنها اثنتى عشر جرحاً ما بين طعنة برمح وضربة بسيف .

فهذه حقاً شجاعة مدهشة لامرأة وقد تحممت ما أصابها من الجراح فى سبيل الجهاد ، وهو ما يعجز عن تحمله الرجال فضلاً عن النساء ، مع العلم بأن كثيراً قد فروا من القتال ، لما أصابهم من الفزع والاختلاط . ويلاحظ أن المسلمين فى قتالهم المشركين كانوا يرجون الاستشهاد كى يفوزوا بمجنة الخلد ، فما كانوا يباليون بحياتهم الدنيوية لأنها زائلة مشوبة بالأحزان والآلام . أما الآخرة فإنها دار بقاء ينعم فيها أهل الشهادة والصالحون . وكان النساء يحاربن مع الرجال ويضمنن الجراح .

وجاء فى أسد الغابة أن أم عمارة شهدت بيعة العقبة وشهدت أحداً مع زوجها وابنيها وشهدت بيعة الرضوان وشهدت اليمامة قالت حتى أصيبت يدها وجرحت يومئذ اثنتى عشرة جراحة . روى عنها عكرمة مولى ابن عباس أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : أرى كل شئ للرجال . ما أرى النساء يذكرن بشئ . فنزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وبمثل هذه الروح انتصر المسلمون فى جميع حروبهم وانتشر الإسلام .

إحدى معجزات رسول الله ﷺ

لرسول الله صلى الله عليه وسلم معجزات كثيرة سيأتى ذكرها فى كتابنا هذا ، ومن هذه المعجزات المعجزة الآتية : أصيبت عين قتادة بن النعمان من بنى ظفر وقد تدلت على وجنته فردها عليه رسول الله فصحت وكانت أحسن عينيه (الطبرى) وقال ابن إسحاق : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى عن قوسه حتى اندقت سيتها فأخذها قتادة بن النعمان فكانت عنده وأصيبت يومئذ عين قتادة حتى وقعت على وجنته . قال ابن إسحاق فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ردّها بيده فكانت أحسن عينيه وأحدّهما وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى .

قتل أبي بن خاف

أقبل أبي بن خاف يوم أحد نحو النبي ﷺ وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا ، فاستقبله مصعب بن عمير رضي الله عنه فقتل مصعباً فاستقبله رجال من المسلمين فأمرهم رسول الله ﷺ أن يخلو طريقه فأقبل وهو يقول : يا كذاب أين تفر ! فتناول النبي ﷺ الحربه من الحارث بن الصمة أو من الزبير بن العوام رضي الله عنه فرماه ﷺ بها فأصابته عنقه وخدشته خدشاً كبيراً واحتقن الدم بذلك الخدش . فرجع وهو يقول : قتاني والله محمد . فقالوا له : ذهب والله فؤادك . إنا لناخذ السهام من أضلاعنا فترمي بها . فما بك والله من بأس . ما أجزعك ! إنما هو خدش . ولو كان هذا الذي بك بمن ألدنا ما ضره . فقال واللات الذرى . لو كان هذا الذي بي بأهل ذي الجواز (سوق من أسواق الجاهلية عند عرفة) لما اتوا أجمعون . إنه قال لي بكعة أنا أقتلك . فوالله لو بصق على لقتلى . وكان أبي يقول بمكة للنبي ﷺ : يا محمد إن عندي العود (يعنى فرساً له) أعلفه كل يوم فرقاً (مكيال) من ذرة أقتلك عليها . فيقول رسول الله ﷺ : أنا أقتلك إن شاء الله .

ولم يقتل رسول الله ﷺ بيده الشريف أحداً إلا أبي بن خاف لا قبل ولا بعد . ثم مات أبي وهم راجعون إلى مكة بسرف وقيل بيطن رابع .

إصابة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وصل الدنو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قدمنا فأصابته جاراتهم حتى وقع وأصابت رابعيته اليمنى السفلى وشح في وجهه وكلمت شفته السفلى وكان الذي أصاب رسول الله عتبة بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص والدم يسيل على وجهه وهو يقول :

« كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم » فنزل في ذلك قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

ودخلت حلقتان من المغفر^(١) في وجنته ﷺ وهشمت البيضة على رأسه . مال الدم وجهه ورموه بالحجارة حتى سقط لشقه في حفرة واحتضنه طلحة بن عبيد الله ، حتى استوى قائماً . وانتزع أبو عبيدة عامر بن الجراح الحلقتين اللتين كانتا غاصتا في وجنته ﷺ وعض عليهما حتى سقطت ثنبتاه فكان ساقط الثنبتين . وامتنص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الدم من وجنته صلى الله عليه وسلم ثم ازدرده فقال عليه الصلاة والسلام (من مس دمه دمي لم تصبه النار) فاستشهد في هذه الغزوة .

(١) المغفر : زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس بلبس تحت القلنسوة .

وكان سبب وقوع رسول الله ﷺ أن ابن قبيصة علاه بالسيف فلم يؤثر السيف فيه إلا أن ثقل السيف أثرف عاتقه فشكا ﷺ منه شهراً وقذف رسول الله بالحجارة حتى وقع لشقه .
ولما أصيب رسول الله ﷺ قالوا لو دعوت عليهم فقال : « إني لم أبعث لئاناً ولكن بعثت داعياً ورحمة الله لهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » فاعتذر عنهم وتضرع إلى الله أن يمهلهم حتى يكون منهم أو من ذريتهم من يؤمن وهذا غاية الحلم .

المثلة بالمسلمين

وبحمة رضى الله عنه

اشتغل المشركون ذكوراً وإناثاً يقتل المسلمين يمثلون بهم يقطعون الأذان والأنوف والفروج ويبقرون البطون وهم يظنون أنهم أصابوا رسول الله ﷺ وأشرف أصحابه .
واتخذت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان من آذان الرجال وأنوفهم خلعاً (أى خلاخل) وقلائد وأعطت خلعها وقلائدها وقرطها وحشياً غلام جبير وبقرت عن كبد حمزة فلا كنها (مضغتها) فلم تستطع أن تسيغها فلففتها لأنها كانت نذرت إن قدرت على حمزة لتأكل من كبده . وهند هذه هي زوج أبي سفيان وأم معاوية وقد أسلت في فتح مكة بعد زوجها كما سيأتى وعن مثل به عبد الله بن جحش ودفن هو وخاله حمزة في قبر واحد . ونهى الإسلام عن المثلة لأنها تدل على الوحشية وتنافي الإنسانية وقد قاتل حمزة ذلك اليوم قتالاً شديداً وكان يقاتل بسيفين وآخر قتيل قتله رضى الله عنه سباع بن عبد العزى الخزاعى . فلما أكب عليه ليأخذ درعه قتله وحشياً غلام جبير بن مطعم ثم أسلم بعد ذلك وكان قد استأجرته هند لقتل حمزة .

والتس رسول الله ﷺ عه حمزة فوجده مبقور البطن ومجدوع الأنف والأذنين فسأه التمثيل به . فقال : لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم . ولما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل ، قالوا والله لئن أغفرنا الله بهم يوماً فى الدهر لثلاثين بهم مثله لم يمثله أحد من العرب . فالمثلة كانت تقترفها العرب فى الجاهلية فى الحرب انتقاماً من أعدائهم إذا بلغ منهم الغيظ مبلغه . لكن الإسلام حرمها لشناعتها . فمن ابن عباس : إن الله عز وجل أنزل فى قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

فما رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عن المثلة وقال : « أصبر وأحتسب » .

هذا مانهى عنه الدين الإسلامى الحنيف ونهى عنه قواد الجيوش الإسلامية جيوشهم . لكننا نرى بعض جيوش الدول المتمدنة فى القرن العشرين تقترب المثلة بأعدائها وهم يزعمون أن الدين الإسلامى دين هجىة ووحشية ١١ . وتلك الوحشية ترتكب فى زمن المدينة .

وبينا رسول الله فى الشعب مع أصحابه إذا علت طائفة من قريش الجبل معهم خالد بن الوليد . فقال رسول الله : « اللهم إنهم لا يبينى لهم أن يملونا . اللهم لا قوة لنا إلا بك » فقاتلهم عمر بن الخطاب وجماعة من المهاجرين حتى أهبطوا من الجبل .

أسباب انهزام المسلمين

فى واقعة أحد

كان أبو سفيان بن حرب هو الذى قاد قريشاً كلها يوم أحد ولم يكن بأعلم من رسول الله بقيادة الجيش وتنظيمه بل كان رجلاً تاجراً لكنه استطاع أن يجند عدداً كبيراً من قريش فكانت عدتهم ٣٠٠٠ فيهم ٧٠٠ دارع ومعهم ٢٠٠ فرس . ومجموع الذين خرجوا للقتال مع رسول الله ٧٠٠ منهم ١٠٠ دارع ولم يكن فيهم سوى فرسين لأن عبد الله بن أبي انخزل عن رسول الله بثالث الناس وعاد بهم إلى المدينة .

ثم إن رسول الله ﷺ بعد أن صف المسلمين بأصل أحد وجمل الرماة على جبل صغير وأمرهم ألا يبرحوا مكانهم فائلاً لهم « احموا ظهورنا حتى لا يأتونا من خلفنا » طعموا فى الغنيمة وهبطوا تاركين مركزهم . وبذلك تمكن خالد بن الوليد من الكر على المسلمين بالخيال من الخلف فأنكشفوا ووقع الاختلاط بينهم وذاع فى الجيش أن محمداً قُتل فازداد ارتباك المسلمين وفروا منهزمين وفر بعضهم إلى المدينة .

نعم إن رسول الله ﷺ لم يتزحزح عن مركزه وشاهده بعض الصحابة فالتفوا حوله وثبتوا معه وقاتلوا قتلاً شديداً حتى إن سعد بن أبي وقاص وحده رمى يومئذ بألف سهم ورمى رسول الله عن قوسه حتى اندقت سيته واستطاع عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يهبط الطائفة التى علت الجبل من قريش ، لكن هذا كله كان بعد أن وقعت الهزيمة بالمسلمين بسبب مخالفتهم أمر رسول الله فقد كانوا منتصرين فى بدء الموقعة . وقد قُتل فى هذه الموقعة ٧٤ من المسلمين و ٢٠ من المشركين .

نداء أبى سفيان

أشرف أبو سفيان على القوم بعد الواقعة فقال : أفى القوم محمد ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجيبوه مرتين ، ثم قال أفى القوم ابن أبى قحافة ثلاثاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجيبوه ، ثم قال أفى القوم

ابن الخطاب ، ثلاثا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجيبوه . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أما هؤلاء فقد قتلوا ، لو كانوا في الأحياء لأجابوا فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه أن قال : كذبت يا عدو الله فقد أبق الله لك ما يخزيك . فقال اهل هبل . اعل هبل . وقيل إنه صرخ بأعلى صوته وقال : « أنعمت فعال إن الحرب سجال^(١) يوم أحد يوم بدر اعل هبل » . وسبب ذلك أنه حين أراد الخروج كتب على سهم « نعم » وعلى الآخر « لا » وأجالهما عند هبل فخرج بهم « نعم » فتوجه إلى أحد فقال اعل هبل أى زد علوا ، فقال رسول الله ﷺ أجيبوه فقالوا : ما قول ؟ قال قولوا : الله أعل وأجل . قال أبو سفيان : ألا لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ أجيبوه . قالوا ما قول ؟ قال قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم »

ولما أجاب عمر أبا سفيان قال له أبو سفيان : هلم يا عمر . فقال رسول الله ﷺ فأنظر ماشأنه ، فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك يا عمر أقتلنا محمدا ؟ فقال عمر « اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن » فقال أنت أصدق عندي من ابن قتيته وأبر لقول ابن قتيته له إني قتلت محمدا .

ثم نادى أبو سفيان : إنه قد كان في قتلاكم مثل ، والله ماضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت ، وقد كان الحليس بن زبان أخو بني الحارث بن عبد مناة وهو يومئذ سيد الأحابيش قد مر بأبي سفيان بن حرب وهو يضرب شدة حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول : ذق عقق . فقال الحليس يا بني كنانة هذا سيد قریش يصنع بآبى عمه ما ترون ، فقال : ويحك اكتمها عنى فإنها كانت زلة . وهذا اعتراف منه بأنه ارتكب شططا وأتى أمرا منكرا . ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر للعام القابل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : قل نعم هو بيننا وبينك موعد .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب . فقال : اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون . فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة . وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة . والذي نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم . قال على : « فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ونوجهوا إلى مكة » بعد أن تشاوروا في نهب المدينة . فأشار عليهم صفوان بن أمية ألا تفعلوا .

من هذا يتضح أن أبا سفيان قد خشي عاقبة ما فعله من ضرب شدة حمزة . فقال للحليس اكتمها عنى فإنها كانت زلة وبرأ نفسه في ندائه قائلا والله ماضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت . أما ندائه « إن موعدكم بدر للعام القابل » فخطأ منه لأن هذا الإنذار يعطى المسلمين مهلة للاستعداد لمحاربتة والتغلب عليه ومع أن جيش مكة تغلبوا على

(١) معنى سجال ، مرة لنا ومرة علينا . وقول أبي سفيان : اعل هبل ، أى أظهر دينك أو ازدد علوا . وهبل هذا صنم تقدم الكلام عليه .

المسلمين في هذه الواقعة فإنهم اكتنفوا بذلك ولم ينجنوا ثمار انتصارهم ، فلم يحاولوا الهجوم على المدينة بل قتلوا راجعين إلى مكة . والظاهر أن أبا سفيان تخوَّف أن يقتل أثر المسلمين إلى المدينة .

استشهاد سعد بن الربيع الأنصاري

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رجل بنظر ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ لأن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الأسنة قد أشرعت إليه .

قال رجل من الأنصار هو أبي بن كعب رضى الله عنه : أنا أنظر إليك يا رسول الله ما فعل سعد فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق وقد طعن اثنتى عشرة طعنة ! فقال له إن رسول الله ﷺ أمرنى أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات . قال أنا في الأموات . فأبلغ رسول الله ﷺ عنى السلام وقل له إن سعد بن الربيع يقول لك جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته . وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم إنه لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم ﷺ^(١) وفيكم عين تطرف . قال ثم لم أبرح أن مات فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته خبره . فقال رسول الله ﷺ : رحمه الله ، نصح الله والرسول حياً وميتاً . وخاف سعد بنتين فأعطاهما رسول الله من ميراثه الثنتين .

كان سعد بن الربيع كاتباً في الجاهلية ومن النقباء يوم العقبة وشهد بدرًا واستشهد يوم أحد . إن سؤال رسول الله عن سعد بن الربيع في مثل هذا المأزق الحرج هو من شدة عطفه ومحبته لأصحابه وهذا خلق عظيم فقد كان يسأل عنهم في الحرب وفي السلم ويهتم بشئونهم وكانوا يحبونه حباً شديداً يفوق كل حب ويدافعون عنه إلى آخر رمق من حياتهم ويخشون أن يصل إليه أى أذى وإن نصيحة سعد بن الربيع لقومه بالحفاظ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يلفظ النفس الأخير من أبلغ الأدلة على فرط محبة أصحابه صلى الله عليه وسلم له لسمو مكانته في نفوسهم وقد كان قتادة بن النعمان يتقى السهام بوجهه دون وجه رسول الله ﷺ فكان آخرها بهما ندرت منه حدقته فأخذها بيده وسعى بها إلى رسول الله ﷺ فردها ﷺ وكانت أحسن عينيه فانظر كيف بلغت محبة الصحابة لرسول الله ﷺ .

قتل مخيريق

قال ابن إسحاق وكان ممن قتل يوم أحد مخيريق ، وكان أحد بنى نعلبة بن القيطون . قال لما كان يوم أحد قال يامعشر يهود والله لقد علمتم إن نصر محمد عليكم لحق . قالوا إن اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت لكم فأخذ

(١) أى يصل إليه شئ من الأذى .

— ٢٠٤ —

سيفه وعدته وقال إن أصبت فإلى الحمد يصنع فيه ما شاء ثم غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل معه حتى قُتل . قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا « مخيريق خير يهود » .
 وكان مخيريق أحد بني النضير ، حبراً عالماً غنياً كثير الأموال من النخل وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد في علمه . وخالف قومه اليهود واشترك في موقعة أحد التي لم يشترك فيها أحد من اليهود غيره فلما قتل قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله وتصدق بها . وقيل لما حضرته الوفاة . قال : أموالى إلى محمد يضمها حيث شاء . وكان ذا مال كثير ففرقها رسول الله .

انتحار قزمان

قال ابن إسحاق وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة : قال كان فينا رجل أتى لا يدري من أين هو يقال له قزمان وكان رسول الله ﷺ يقول - إذا ذكر له - إنه لمن أهل النار . فلما كان يوم أحد قاتل قتالا شديداً قُتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين وكان ذا بأس فأثبته الجراحة فاحتمل إلى دار بني ظفر . فجعل رجال من المسلمين يقولون له والله لقد أبلت اليوم يا قزمان فأبشر . قال بماذا أبشر فوالله إن قاتلت ، إلا عن أحساب قومي ولولا ذلك ما قاتلت . فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهما من كنانته فقطع رواشه فترفه الدم فأتى فأخبر به رسول الله ﷺ فقال « أشهد أنى رسول الله حقاً » وذلك لأنه مات منتحراً .

دفن قتلى أحد

كثرت القتلى يوم أحد فكان الرجل والرجلان والثلاثة يكفنون في الثوب الواحد ثم يدفنون في القبر الواحد بدمائهم وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بدفن شهداء أحد ولم يصل على أحد منهم ولم يفسلمهم^(١) وحمل أناس موتاهم ليدفنوه بالمدينة فجاءهم منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ردوا القتلى إلى مضاجعهم . فأدرك المنادى واحداً وهو شماس بن عثمان الخزومي فإنه قتل وحمل إلى المدينة وبه رمق فقال رسول الله ﷺ احملوه إلى أم سلمة فحمل إليها فمات عندها فأمر رسول الله ﷺ أن يرد إلى أحد فيدفن هناك ولم يكن قد دفن بالمدينة أما من دفن فأبقوه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا عمرو بن الجوح وعبد الله بن عمرو بن حرام فأنهما كانا متصافيين في الدنيا فاجلوهما في قبر واحد .

(١) وبهذا استدلل الأئمة على أن الشهيد لا يصل ولو كان جنباً .

رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة

لما أراد رسول الله ﷺ الرجوع إلى المدينة ركب فرسه وخرج والمسلمون حوله وطامتهم جرحى ومعه أربع عشرة امرأة، فلما كانوا بأصل أحد قال، اصطفوا حتى أتني على ربي عز وجل (فكان عليه الصلاة والسلام يحب النظام) فاصطف الرجال خلفه صفوفاً وخلفهم النساء فقال :

« اللهم لك الحمد كله ، لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما أبعدت ولا مبعد لما قربت » الحديث . ثم عاد إلى المدينة يهدي روع نساء القتلى ويدعو لمن وقد نهامن عن اللطم وحلق الرؤوس وتخيش الوجوه وشق الجيوب . ولم يخاطب رسول الله ﷺ الذين انبرزموا وعادوا إلى المدينة بالتغليظ والتشديد وإنما خاطبهم بالكلام اللين وعنا عنهم افزد في الفضل والإحسان . قال تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) وهذا اللين والعفو من حسن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم . وبانت وجوه الأوس والخزرج تلك الليلة على بابه صلى الله عليه وسلم بالمسجد يحرسونه خوفاً من قريش أن تعود إلى المدينة . لكنهم لم يعودوا .

شماتة اليهود والمنافقين

لما وصل صلى الله عليه وسلم المدينة ، أظهر المنافقون واليهود الشماتة والسزور وصاروا يظهرون أقبح القول ومنه ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب بمثل هذا نبي قط ، أصيب في بدنه وأصيب في أصحابه ويقولون ، لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل وصار ابن أبي يويخ ابنه عبدالله الذي جرح في موقعة أحد . فقال له ابنه : الذي صنع الله لرسوله خير . وهكذا كان اليهود ينتهزون الفرص لتخذيل المسلمين وتثييط مهمهم .

(نزول الملائكة يوم أحد)

قال عبيد بن عمير ، لم تقابل الملائكة يوم أحد . وقال الواقدي وحدثني ابن أبي سبرة عن عبد الحميد بن سهيل عن عمر بن الحكم ، قال لم يمر رسول الله ﷺ يوم أحد بملك واحد وإنما كانوا يوم بدر . قال ومثله عن عكرمة . قال وقال مجاهد حضرت الملائكة يوم أحد ولم تقابل وإنما قابلت يوم بدر . قال وروى عن أبي هريرة أنه قال : وعدم الله أن يدمهم لو صبروا فلما انكشفوا لم تقابل الملائكة يومئذ إنما الثابت بنص القرآن ورواية الصحابة أنهم نزلوا وقاتلوا في غزوة بدر .

ذكر غزوة أحد

في القرآن

أنزل الله تعالى من القرآن في غزوة أحد ستين آية في سورة آل عمران : قال تعالى :
﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .
قال أكثر العلماء بالمغازي إن هذه الآية نزلت في وقعة أحد . وقد كان المسلمون يومئذ كثيرين فلما انشقوا وخالفوا أمر الرسول انهزموا . وقال جل شأنه .

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ : إنه تعالى لما ذكر قصة أحد أتبعها بذكر قصة بدر لأن المسلمين كانوا في غاية الضعف والكفار في غاية القوة ، ولكن لما كان الله ناصراً لهم قهروا خصومهم . ثم قال تعالى :

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُعِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴾
إن هذا الوعد كان يوم بدر وهو قول أكثر المفسرين وقد قالوا إن الملائكة حاربوا يوم بدر ولم يقاتلوا في سائر الأيام وهذا المدد من المعجزات .

﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَبَأْتُواكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُعِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾

فجعل بحى ، خمسة آلاف من الملائكة مشروطاً بثلاثة أمور : الصبر ، والتقوى ، وبحى الكفار على الفور . فلما لم توجد هذه الشرائط لا جرم لم يوجد المشروط .

﴿ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ والمراد بالكبت الإخزاء والإهلاك والمهزيمة والفيظ والإذلال . فكل ذلك ذكره المفسرون في تفسير الكبت .

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

نزلت هذه الآية في قصة أحد لأن النبي ﷺ لما شجعه عتبة بن أبى وقاص وكسرت رباعيته جعل يمنح الدم عن وجهه وهو يقول « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم » فنزلت هذه الآية وقيل إنه لمن أقواماً فنزلت هذه الآية .

إلى أن قال تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

لما وقع الصراخ بأن محمداً قتل كما تقدم ذكره في غزوة أحد ، قال بعضهم لو كان نبياً لما قتل . ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم . فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك « يا قوم إن كان قد قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت . وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ . قاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه . ثم قال : اللهم إني أعوذ إليك مما يقول هؤلاء » ثم سل سيفه فقاتل حتى قتل . ولما شج وجه رسول الله ﷺ وكسرت ربايته احتمله طلحة بن عبيد الله ودافع عنه أبو بكر وعلى رضى الله عنهم ونفر آخرون معهم . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل ينادى ويقول « إلى عباد الله » حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هزيمتهم . فقالوا يا رسول الله فدينك بأبائنا وأمهاتنا أتانا خبر قتلك فاستولى الرعب على قلوبنا فولينا مدبرين .

وقد ذكر الله تعالى الحكمة في ما أصاب المؤمنين بمخالفتهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم وعرفهم سوء عاقبة المصيبة وشؤم ارتكاب الخالفة بما وقع من ترك الرماة موقعهم الذى أمرهم رسول الله ﷺ ألا يبرحوا عنه بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحْيُونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ . ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

وقال تعالى تعزية لأصحاب رسول الله على ما أصابهم من الجراح والقتل بأحد : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . يعنى لا تضعفوا بالذى نالكم من عدوكم بأحد من القتل والقروح عن جهاد عدوكم وحرهم ولا تحزنوا ولا تأسوا فتجزوا على ما أصابكم من المصيبة يومئذ فأنتم الأعلون ، أى الظاهرون عليهم ولكم العقبى في الظفر والنصرة عليهم إن كنتم مؤمنين .

غزوة حمراء الأسد

حمراء الأسد موضع على ثمانية أميال من المدينة . وكانت الغزوة صبيحة أحد . إذ وقعة أحد يوم السبت والغزوة المذكورة يوم الأحد لست عشرة مضت من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة وكانت لطلب العدو الذين كانوا بالأمس .

قال الواقدي باتت وجوه الأنصار على بابة ﷺ فلما طلع الفجر وأذن بلال بالصلاة جاء عبد الله بن عمرو

للزنى فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه أقبل من عند أهله بملل - اسم موضع قرب المدينة - إذا قریش قد نزلوا ، فسمعهم يقولون ما صنعتم شيئاً . أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبيدوهم . قد بقي منهم دوس يجمعون لكم فارجموا نستأصل من بقي ، وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول لا تفعلوا فإن القوم قد غضبوا وأخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخزرج . فارجموا والدولة لكم فإنى لا آمن إن رجعت أن تكون الدولة عليكم . فقال صلى الله عليه وسلم أرشدكم صفوان وما كان برشيد . والذي نفسى بيده لقد سوت لهم الحجارة ولو رجعوا لكانوا كالأبوس الذاهب .

ولما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح ندب الناس وأذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج أى أمر بلالاً أن ينادى أن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب العدو وألا يخرج معنا أحداً إلا من خرج معنا أمس معنى من شهد أحداً وأراد بذلك إظهار الشدة بالعدو والزيادة في تعظيم من شهد أحداً ومع بذلك اختلاط المناققين ولم يشهد هذه الغزوة إلا من شهد أحداً عدا جابر بن عبد الله فإنه قال لرسول الله ﷺ إن أبى خلفنى يوم أحد على أخواتى سبع فلم أشهد الحرب فآذن لى أن أسير معك ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال غيره . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثه نفر من أسلم طليعة في آتار القوم فلحق اثنان منهم القوم بحمراء الأسد فبصروا بالرجلين قتلوهما . ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودليله ثابت بن الضحاك بن ثعلبة بن الخزرج حتى عسكر بحمراء الأسد فوجد الرجلين فدفنهما . وكان رسول الله ﷺ مجروحاً وفي وجهه أثر الحلقنتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لطلحة : يا طلحة ان ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله علينا مكة وقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا ابن الخطاب إن قریشاً لن ينالوا منا مثل هذا حتى نستلم الركن .

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد الاثنتين والثلاثاء والأربعاء وكان المسلمون يوقدون تلك الليالى خمسمائة نار حتى ترى من المكان البعيد وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه فكبت الله بذلك عدوهم . وكان اللواء بيد على بن أبى طالب رضى الله عنه واستعمل صلى الله عليه وسلم على المدينة ابن أم مكتوم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن الله قذف في قلب أبى سفيان الرعب بعد الذى كان منه يوم أحد فرجع إلى مكة .

وظفر صلى الله عليه وسلم في حمراء الأسد بأبى عزة الشاعر الذى من عليه وقد أسر بيد من غير فداء لأجل بناته وأخذ عليه عهداً ألا يقاتله ولا يكثر عليه جمعاً ولا يظاھر عليه أحداً فنقض العهد وخرج مع قریش لأحد وصار يستنفر الناس ويحرضهم على قتاله صلى الله عليه وسلم بأشعاره . فدعا رسول الله ﷺ ألا يفلت فأسر فقال : يا محمد أفلنى وامن على ودعى لبنائى وأعطيك عهداً ألا أعود مثل ما فعلت فقال رسول الله ﷺ لا والله لا تمسح

عارضيك بمكة تجلس بالحجر تقول خدعت محمداً . اضرب بإزيد عنقه . « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .
فضرب عنقه وحمل رأسه إلى المدينة وهذا المثل الذي ضرب به رسول الله لم يسمع من غيره .
ثم رجع رسول الله ﷺ بأصحابه ووصلوا المدينة يوم الجمعة وقد غاب خمسا وخمسة عشر صلى الله عليه وسلم عند رجوعه
إلى المدينة بمعاوية بن النخيلة بن أبي العاص بن عبد شمس وهو جد عبد الملك بن مروان فأمر بقتله .
قال الطبري : « وفيها - أي في السنة الثالثة من الهجرة - علفت فاطمة بالحسين صلوات الله عليهما وقيل لم
يكن بين ولادتهما الحسن وحملها بالحسين إلا خمسون ليلة (وفيها) حملت - فيما قيل - جميلة بنت عبد الله بن أبي
بعبد الله بن حنظلة بن أبي عامر في شوال » .

بعث الرجيع

صفر . سنة ٤٤ هـ - مايو سنة ٦٢٥ م

الرجيع ماء لذيل . وقال ابن إسحاق والواقدي : الرجيع ماء لذيل قرب الهدأة بين مكة والطائف .
وإنما أضيف البعث إلى اسم ذلك الماء لأن الوقعة كانت بالقرب منه .
وبعث الرجيع هي سرية عاصم بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه . وكان بعثه في صفر من السنة الرابعة
(مايو سنة ٦٢٥ م) .

وسبب هذا أن بني الحيا من هذيل مشوا إلى عضل والقارة وهما قبيلتان من بني الهون بن خزيمة بن مدركة
فجعلوا لهم إبلا على أن يكلموا رسول الله ﷺ أن يخرج إليهم فقرأ من أصحابه قدام سبعة نفر مظهرين الإسلام ،
فقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاما فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهونا في الدين ويقرئونا القرآن ويعلمونا شرائع
الإسلام . وقيل إنه ﷺ أراد أن يبعث عيوننا إلى مكة ليأتوه بخبر قريش . فلما جاء هؤلاء نفر يطلبون من
يفقههم ، بعث معهم ستة من أصحابه للأمرين جميعا وهذه البعثة مؤلفة من : عاصم بن ثابت . ومرثد بن أبي مرثد
الغنوي . وخبيب بن عدي الأوسي البصري . وزيد بن الدثينة . وعبد الله بن طارق . وخالد بن البكير .

خرج هؤلاء حتى أتوا الرجيع فندروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلا ليعينهم على قتلهم ، فلم يرع القوم وهم في
رحالم إلا الرجال بأيديهم السيوف ، فأخذ عاصم ومن معه أسيافهم ليقاتلوا القوم . فقالوا إنا والله لا نريد قتلكم ولكم
عهد الله وميثاقه ألا تقتلكم . وقالوا ذلك لأنهم يريدون أن يسلوهم لكفار قريش يأخذوا في مقابلهم أجرا
لهم أنه لا شيء أحب إلى قريش من أن يأتوا بأحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يمثلون به ويقتلونه بمن
قتل منهم بيد واحد ، فأبوا أن يقبلوا منهم .

فأما مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت فقالوا والله لا تقبل من مشرك عهداً ، وقاتلوا حتى قتلوا .
وأما زيد وخبيب وعبد الله بن طارق فلانوا ورقوا ورغبوا في الحياة فأعطوا بأيديهم فأسروهم ثم خرجوا بهم
إلى مكة ليبيعوم بها حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القران ثم أخذ سيفه واستأخر عنه
القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه ، فقبره بالظهران . وأما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة قدموا بهما مكة فباعوهما
فاجتمع خبيباً حجير بن أبي إلهب التيمي حليف بني نوفل لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل وكان حجير أخا
الحارث بن عامر لأمه ليقتله بأبيه . وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف وكان
شراؤهما في ذي القعدة فخبسوهما حتى خرجت الأشهر الحرم فقتلوا زيدا . وأما خبيب فقد مكث أسيراً حتى خرجت
الأشهر الحرم ثم أجمعوا على قتله ، وكانوا في أول الأمر أساءوا إليه في حبسه فقال لهم : ما يصنع القوم السكرام هكذا
بأسيرهم ، فأحسنوا إليه بعد ذلك وجعلوه عند امرأة تحرسه وهي ماوية مولاة حجير وقد قالت ماوية كان خبيب
يتعبد بالقرآن فإذا سمعه النساء بكين ورقن عليه . فقالت له هل لك من حاجة ؟ قال لا إلا أن تسقيني العذب
ولا تطعميني ما ذبح على النصب وتخبريني إذا أرادوا قتلي . فلما أرادوا ذلك أخبرته فو الله ما اكترت بذلك ولما
خرجوا بخبيب من الحرم ليقتلوه قال ذروني أصل ركتين فتركوه فصلى سجدتين فجرت سنة لمن قُتل صبراً أن
يصلى ركتين ثم قال خبيب لولا أن يقولوا جزع لزدت وما أبالي على أي شيء كان لله مصرعي ثم قال :

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

« اللهم أحصهم عدداً وخذهم بدداً » . ثم خرج به أبو سروعة بن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبدمناف
فضر به قتله . رحمه الله تعالى .

وعن عروة بن الزبير رضى الله عنه قال : لما أرادوا قتل خبيب ووضعوا فيه السلاح والرماح والحرايب وهو
مصلوب نادوه وناشدوه أتحب أن نحمداً مكانك ؟ قال والله ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه . وقيل إن زيد
ابن الدثنة قالوا له ذلك أيضاً عند قتله فأجابهم بمثل ذلك فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً
كحب أصحاب محمد محمد . وقد قتل زيدا نسطاس .

وقد كانت هذيل حين قتل عاصم بن ثابت قد أرادوا رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد وكانت قد نذرت حين
أصاب ابنها يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشرين في قحفها فخر ففعله الدبر (الزناير) فلما حالت بينهم وبينه قالوا
دعوه حتى يمسى فنذهب عنه فنأخذه فبعث الله سيلاً فاحتمل عاصماً فذهب به وكان عاصم قد أعطى الله عهداً ألا
يمسه مشرك أبداً ولا يمس مشركاً أبداً تنجساً منه . فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدبر منعتة : « عجباً
لحفظ الله العبد المؤمن ! كان عاصم نذر ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركاً أبداً في حياته ففعله الله بعد وفاته كما
امتنع منه في حياته » .

ولما قتل من وجهه النبي ﷺ إلى عضل والقارة من أهل الرجيع وبلغ خبرهم رسول الله ﷺ بعث عمرو بن أمية الضمري إلى مكة مع رجل من الأنصار وأمرها بقتل أبي سفيان بن حرب . وكان عمرو بن أمية الضمري عالماً بمكة جريئاً : فلما وصلا مكة طافا بالبيت أسبوعاً فعرف عمراً رجلاً منهم فصاح بأعلى صوته هذا عمرو بن أمية ففر هو وصاحبه ووصلا إلى المدينة ناجيين .

سرية بئر معونة

صفر سنة ٤ هـ - مايو سنة ٦٢٥ م

نسى هذه السرية سرية للنذر بن عمرو الخزرجي ، ونسى أيضاً سرية القراء وكانت هذه السرية في شهر صفر في السنة الرابعة من الهجرة (مايو سنة ٦٢٥ م) على رأس أربعة أشهر من أحد . وكان من أمرها كما قاله ابن إسحاق عن شيوخه أنه قدم على رسول الله ﷺ أبو براء عامر بن مالك بن جعفر العامري . ويعرف بمَلْعَبِ الاسِنَّة ، فعرض النبي صلى الله عليه وسلم عليه الإسلام فلم يسلم ولم يبعد وقال له : يا محمد إني أرى أمرك هذا حسناً شريعاً وقومى خلفي ، فلو أنك بعثت معي نفرأ من أصحابك لرجوت أن يتبعوا أمرك فإن هم اتبعوك فما أعز أمرك . فقال إني أخشى أهل نجد عليهم فقال أنا لم جار فبعث صلى الله عليه وسلم للنذر بن عمرو ومعه القراء وهم سبعون . فلما وصلوا إلى بئر معونة بعثوا حرام بن ملحان أخاً أم سليم خال أنس بن مالك رضي الله عنه بكتابه صلى الله عليه وسلم إلى عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر السكلابي العامري وهو ابن أخي أبي براء فلم ينظر في الكتاب بل وثب على حرام فقتله واستصرخ بنو عامر قومه فأبوا وقالوا لا يخفر بجوار أبي براء ^(١) فاستصرخ عليهم قبائل من سليم عصابة ورعلا وذكوان، فنفروا معه ورأسوه واستبطنوا المسلمون حراماً فأقبلوا في أثره فلقبهم القوم فأحاطوا بهم فكاثروهم فقتلوا فقتلوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خبير أهل بئر معونة فقال هذا سببه عمل أبي براء حيث أخذهم في جواره . قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً . فبلغ ذلك أبا براء فمات عقب ذلك أسفاً على ما صنع ابن أخيه عامر بن الطفيل . ومات عامر بن الطفيل .

قال حسان بن ثابت يرثي قتلى معونة :

على قتلى معونة فاستهلي بدمع العين سحاً غير نزر

على خيل الرسول غداة لا قوا ولا قتهم مناياهم بقدر

ولم يجد رسول الله ﷺ على قتلى ما وجد على قتلى بئر معونة لكونه لم يرسلهم لقتال إنما هم مبلغون رسالته . وقد جرت عادة العرب قديماً بأن الرسل لا تقتل لكنهم مع ذلك غدروا بهم .

قال العلامة الزرقاني : وإنما لم يخبره سبحانه وتعالى بما ترتب على ذهاب القراء وأهل الرجيع قبل خروجهم كما أخبره بنظير ذلك من الأشياء لأنه سبق في علمه تعالى إكرامهم بالشهادة وأراد حصول ذلك بمجيء أبي براء ومن جاء في طلب أصحاب الرجيع .

وكان مع هذه السرية عمرو بن أمية الضمري وقد قتلوا جميعاً غيره وقد كان أسيراً في أيديهم فقال له عامر بن الطفيل : قد كان على أمي نسمة فأت حراً عنها وجزت ناصيته (١) فأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبت من بينهم ؟ وكان عمرو لما خرج إلى المدينة صادف بمحل يسمى القرقرة رجلين من بني عامر ثم من بني كلاب فنزل معه في ظل كان هو فيه وكان معهما عقد وعهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به عمرو فقال لهما عمرو : ومن أنما فذكرا له أنهما من بني عامر فتركهما حتى نأما فقتلتهما وظن أنه ظفر بشار بعض أصحابه الذين قتلوا بيثر معونة وجاء وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : بئس ما صنعت قد كان لهما منى أمان وجوار ، لأدينهما فبعث بديتهما إلى قومهما .

ومن جملة القراء الذين قتلوا بيثر معونة عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضى الله عنه وهو الذى عذب في الله فاشتره أبو بكر فأعتقه ، واستشهد في هذه الموقعة وهو ابن أربعين سنة .

غزوة بني النضير

ربيع الأول سنة ٤ هـ - يونيه سنة ٦٢٥ م

النضير اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة وكانوا هم وقريظة نازلين بظواهر المدينة في حدائق وآطام لهم (٢)

قال غير واحد من أهل السير لما قدم اليهود المدينة نزلوا السافلة فاستوخوها فأتوا العالية فنزل بنو النضير بطعان ونزل بنو قريظة مهزوراً وها واديان يهبطان من حرة هناك تنصب منها مياه عذبة ، فالتخذ بنو النضير الحدائق والآطام وأقاموا بها (٣) وكان بينهم وبين المدينة نحو ميلين أو ثلاثة وكانوا يملكون نخيلاً بجوار المدينة

كانت هذه الغزوة في شهر ربيع الأول سنة أربع على رأس سبعة وثلاثين شهراً من الهجرة (يونيه سنة ٦٢٥ م) .

خرج رسول الله ﷺ يوم السبت فصل في مسجد قباء ومعه نفر من أصحابه ، المهاجرين والأنصار . ثم أتى

(١) أى الشجر المجاور لها . (٢) آطام : حصون ، مفردا أطم . (٣) راجع معجم البلدات :

بنى النضير فكلمهم أن يعينوه في دية الكلبين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري . قالوا فعل يا أبا القاسم ما أحببت . وكان رسول الله جالساً إلى جنب جدار من بيوتهم فجاء بعضهم ببعض وهووا بالندر به . وقال عمرو . ابن جعاش بن كعب بن بسيل النضري أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة . قال سلام بن مشكم : لا تفعلوا والله لينعبرن بما همتم به وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه . وجاء رسول الله ﷺ انظر بما هموا فنهض سريعاً كأنه يريد حاجة فتوجه إلى المدينة ولحقه أصحابه .

ثم بعث إليهم رسول الله ﷺ محمد بن مسلة أن اخرجوا من بلدي (يعني للمدينة) فلا تسكنوني بها وقد همتم بما همتم به من النذر وقد أجتكم عشراً فن رئي بعد ذلك ضربت عنقه . فكثروا على ذلك أياماً يتجهزون وأرسلوا إلى ظهير لهم بنى الجدر وتكاثروا من ناس من أشجع إبلا فأرسل إليهم ابن أبي، لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم فيموتون عن آخرهم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان فطمع حيي^١ فيما قال ابن أبي فأرسل إلى رسول الله ﷺ إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك . فأظهر رسول الله ﷺ التكبير وكبر المسلمون لتكبيره . وقد حاربت يهود فصار إليهم النبي ﷺ في أصحابه فصلى العصر بفناء بنى النضير وعلى رضى الله عنه يحمل رايته واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم . فلما أوارسول الله ﷺ قاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة واعتزلتهم قريظة فلم تعنهم وخذلهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان فأيسوا من نصرهم . فحاصرهم رسول الله ﷺ وقطع نخيلهم وعند ذلك قالوا يا أبا القاسم قد كنت تنهى عن الفساد وتعييه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتمريقها ؟ هل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض ! ثم قالوا نخرج عن بلادك فقال لا أقبله اليوم . ثم قال لهم اخرجوا منها - ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة^(١) فرضوا بذلك ونزلوا عليه . وكان حصارهم خمسة عشر يوماً .

احتمل بنو النضير من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته مما استحسن من خشبه كبابه وكنجاف به أى أسكفته فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به فخرجوا إلى خير ، ومنهم من سار إلى الشام . فكان من سار من أشرافهم إلى خير ، سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب فلما نزلوها دان لهم أهلها .

ولما أيقن بنو النضير بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم فجعلوا يخرجونها من داخل وقد كانوا ينظرون إلى الخشبة في منازلهم مما يستحسنونه أو الباب فيهدمون بيوتهم وينزعونها ويحملونها على الإبل .

سكن الدكتور إسرائيل ولفنسون يقول في رسالته : (تاريخ اليهود في بلاد العرب) ، « إن هدم البيوت لم يكن القصد منه التخريب وأخذ الأخشاب بل إن هدم نجاف البيوت يتعلق بمقيدة تلمودية معروفة وهى أن كل يهودى يعلق على نجاف بيته صحيفة تشتمل على وصية موسى لبني إسرائيل أن يحتفظوا بالإيمان بالله واحد ولا يبدلوه

(١) وهى الدروع والسلاح أى آله الحرب .

- ٢١٤ -

ولو عذبوا وقتلوا . فاليهود حين ينزحون من منازلهم يأخذونها معهم وهي عادة متبعة عند اليهود إلى يومنا هذا . قال : ويظهر أن يهود بلاد العرب كانوا يضعون تلك الصحيفة في داخل النجاف خوفاً من إتلاف الهواء أو مس الأيدي فلما رحلوا عن ديارهم هدموا نجاف البيوت وأخذوها .

وإننا نسلم أن هذه عادة اليهود ولا تنازعه في أنهم أخذوا تلك الصحف المقدسة مع ما أخذوا لكن أخذ الصحف قطع لا يستدعى هدم البيوت وإلا كان الواحد منهم إذا انتقل من بيت إلى آخر هدم البيت الأول لاستخراج صحيفته وهذا محال . وعبارة ابن إسحاق صريحة في أن الرجل منهم كان يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق . والنجاف الذي يقال له الدوارة وهو الذي يستقبل الباب من أعلى الأسكفة . وفي السيرة الحلبية صاروا ينقضون العمود والسقوف وينزعون الخشب حتى الأوتاد . وينقضون الجدران حتى لا يسكنها المسلمون حسداً وبغضاً .

قال ابن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث أنهم استقلوا بالنساء والأبناء والأموال معهم الدفوف والزامير والقيان يمزق خلفهم وإن فيهم لأم عمرو صاحبة عروة بن ورد العبسي التي ابتاعوا منه . وكانت إحدى نساء بني غفار ، بزهاء وفخر ما رأى مثله من حي من الناس في زمانهم .

وقد حلوا أمتعتهم على ستمائة بعير . وحزن للناقون عليهم حزناً شديداً لكونهم إخوانهم . وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تركوه من الأموال والدروع والسلاح . فوجد خمسين درعاً وخمسين بيضة وهي الخوذة وثلاثمائة وأربعين سيفاً . فكانت أموال بني النضير مختاراً لرسول الله ﷺ . فكان ينفق منها على أهله ويدخر قوت سنة من الشعر والتمر لأزواجه وبني عبد المطلب وما فضل جعله في السلاح والكرع^(١) ، هذا ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه .

وذهب الشافعي رضي الله عنه إلى أنه ﷺ قسمها بين المهاجرين ليرفع بذلك مئوتهم عن الأنصار ، وهذا يتفق مع ما رواه ابن إسحاق فإنه قال : وخلص الأموال لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث يشاء قسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا أن سهل بن خنيفة وأبا دجاجة سمالك بن خرشة ذكرا قرأ فأعطاهما رسول الله ﷺ وأعطى رسول الله سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق ، أحد سادات بني النضير وكان سيفاً له ذكر عندهم .

ولم يسلم من بني النضير إلا رجلاً : يامين بن عمير بن كعب بن عمرو بن جعاش ، وأبو سعد بن وهب أسلم على أموالهما فأحرزاهما .

وقتل في هذه الفزوة عزوك . وكان شجاعاً رامياً من بني النضير قتله على رضى الله عنه . ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أباً دجانة وسهل بن حنيف في عشرة ليبركوا الذين فروا من على رضى الله عنه بقتلهم وطرحوا رموسهم في بعض الآبار .

قال ابن إسحاق : ونزل في أمر بني النضير سورة الحشر بأسرها يذكر فيها ما أصابهم الله به من نعمته وما سلط عليهم به رسول الله ﷺ وما عمل به فيهم .

وفي البخارى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رضى الله عنهما سورة الحشر قال : قل سورة النضير .

﴿ ملحوظة ﴾ لم أعثر في المراجع التي اطلمت عليها على عدد بني النضير الذى أجلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة .

وقد رحل بعض بني النضير إلى خيبر على بعد مائة ميل من المدينة ، وبعضهم إلى جرش بمجنوب الشام . لذلك كان ابن عباس يسمي سورة الحشر سورة بني النضير كما في البخارى .

تحريم الخمر

الإصلاح الاجتماعى العظيم

قال جماعة من الصحابة يارسول الله ، أفتنا في الخمر فإنها مذهب للعقل مسلبة للمال فنزل فيها قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ ﴾ سورة البقرة ، فشرها قوم لوجود النفع وتركها آخرون لوجود الإثم . ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناساً فشربوا وسكروا فقام بعضهم يصلى للغرب وهو سكران قرأ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ أَعْبُدُوا مَا تَعْبُدُونَ ﴾ فخلط في القراءة ، فنزل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ سورة النساء . قل شاربوها . ثم اجتمع قوم من الأنصار وفيهم سعد بن أبى وقاص فلما سكروا افتخروا وتناشدوا الأشعار حتى أنشد سعد شعراً فيهمجاءلاً أنصار فضربه أنصارى بلحى^(١) بغير فشجه شجة موضحة فشكا إلى رسول الله ﷺ فقال عمر اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فإنها تذهب بالعقل وللمال فنزل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَهْلُ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ سورة المائدة . قال عمر : انتهينا يارب . وكف الناس عن شربها . وحرمت الخمر بالمدينة . والحكمة في تحريم الخمر تدريجاً على الترتيب أن القوم كانوا ألغوا شربها وكان انتفاعهم بذلك عظيماً فلم أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق ذلك عليهم .

(١) اللعى : عظم المنك وهو الذى عليه الأسنان .

- ٢١٦ -

روى أبو داود في سننه عن الشعبي عن ابن عمر رضی الله عنهما قال : نزل تحريم الخمر يوم نزل وهي من خمسة : من العنب والتمر والحنطة والشعير والذرة . قال الخطابي : وتخصيص الخمر بهذه الأشياء الخمسة ليس لأجل أن الخمر لا يكون إلا من هذه الخمسة بأعيانها وإنما جرى ذكرها خصوصاً لكونها معهودة في ذلك الزمان . والخمر التي حرمها الشارع هي ما خامر العقل أو ستره . عن ابن عمر قال : سمعت عمر رضی الله عنه على منبر النبي ﷺ يقول : أما بعد أيها الناس ، إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة : من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير . والخمر ما خامر العقل (البخاري) .

روى أبو داود عن جابر بن عبد الله . قال : قال رسول الله ﷺ « ما أسكر كثيره فقليله حرام » . وقالت عائشة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل مسكر حرام ، وما أسكر منه الفرق ^(١) ؛ فله الكف منه حرام » . ونهى رسول الله عن كل مسكر ومفتر . والمفتر كل شراب يورث الفتور والتخدير في الأعضاء . عن ديلم الحميري قال : سألت النبي ﷺ قلت يا رسول الله إنا بأرض باردة نعالج فيها عملاً شديداً وإنا نتخذ شراباً من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وعلى برد بلادنا . قال ، هل يسكر قلت نعم . قال فاجتنبوه . قلت فإن الناس غير تاركيه . قال فإن لم يتركوه قاتلهم .

فالشريعة الإسلامية أول شريعة حرمت الخمر تحريماً باتاً لما في شربها من شرور وآثام ومضرات خلقية وجسمانية ومالية وقد حد رسول الله والخلفاء بعده شاربها . لكنها مع ذلك منتشرة في بلادنا الإسلامية . ونجبي الحكومات رسوماً على الخمر كسائر التجارات ١١

حد الخمر

عن أنس رضی الله عنه ، قال : ضرب النبي صلى الله عليه وسلم في الخمر بالجريد والنعال وجلد أبو بكر رضی الله عنه أربعين . وفي رواية للترمذي : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل قد شرب الخمر فجلده بمجريدة نحو أربعين وفعله أبو بكر .

وقد حرمت الخمر في السنة الرابعة من الهجرة أثناء غزوة بني النضير .

وحرم بعض الناس الخمر في الجاهلية ، وقيل إن أول من حرمها الوليد بن المغيرة ، وقيل قيس بن عاصم السعدي ومنهم مقيس بن صبابه السهمي وعبد المطلب وأبو طالب وقعي بن كلاب وورقة بن نوفل وشيبة بن ربيعة وغيرهم .

(١) الفرق بفتحين : مكيال يقال إنه يسع ستة عشر رطلا .

وقد انتشرت المسكرات في بلاد المسلمين وراجت تجارتها حتى دخلت القرى . وضعف رجال الدين عن إبطالها واقتصروا على الوعظ والإرشاد ولم تر منهم حركة اجتماعية قوية لحمل الحكومات على سن قانون التحريم حتى تعجب الغريبون من إباحة للمسكرات في بلاد يدين أهلها بالإسلام الذي يعتبر الخمر رجساً من عمل الشيطان !! فاللهم هبنا شجاعة وقوة وإقداماً ووفق الحكومات الإسلامية إلى العمل بتعاليم دينهم القويم .

غزوة ذات الرقاع

اختلف في سبب تسمية هذه الغزوة بذات الرقاع . قيل هي اسم شجرة في موضع الغزوة سميت بها . وقيل لأن أقدامهم تقبت من المشى فلفوا عليها الخرق . وقيل بل سميت برقاع كانت في أوليم . وقيل ذات الرقاع جبل فيه سواد وبياض وحمرة فكانها رقاع في الجبل فسميت الغزوة بذلك الجبل ، والأصح أنه موضع لقول دُعُور :

* حتى إذا كنا بذات الرقاع *

وتسمى هذه الغزوة غزوة محارب ، وغزوة بني ثعلبة ، وغزوة بني أنمار ، وغزوة صلاة الخوف ، لوقوعها فيها . قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد غزوة بني النضير شهرى ربيع وبعض شهر جمادى ثم غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان فمحل وهي ذات الرقاع فلقى بها جمعاً من غطفان فتعارب الناس ولم يكن بينهم حرب وقد خاف الناس بعضهم بعضاً حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف ثم انصرف للسلمون . وكانت أول صلاة للخوف صلاحها رسول الله .

صلاة الخوف - جاء في صحيح البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نجد فوازيينا العدو فصاقتنا لم تقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلى لنا فقامت طائفة معه وأقبلت طائفة على العدو وركع رسول الله ﷺ بمن معه وسجد سجدتين ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تصل فجمعوا فركع رسول الله ﷺ بهم ركعة وسجد سجدتين ثم سلم فقام كل واحد منهم فركع لنفسه ركعة وسجد سجدتين وسبب خروجه ﷺ إلى هذه الغزوة أنه بلغه أنهم جمعوا جموعاً لمحاربتة صلى الله عليه وسلم فأخبر أصحابه وأمرهم بالتجهز ثم خرج في أربعمائة من أصحابه وقيل أكثر من ذلك واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى رضى الله عنه وقيل عثمان بن عفان رضى الله عنه وسار إلى أن وصل إلى موضع يسمى وادى الشقرة وبث السرايا فرجعوا إليه من الليل وأخبروه أنهم لم يروا أحداً فسار حتى نزل بمحلا وهو موضع من نجد من أراضى غطفان فلم يجد في مجالسهم إلا نسوة فأخذهن ، فبلغ الخبر القوم فخافوا وتفرقوا في رموس الجبال ثم اجتمع جمع منهم وجاءوا لمحاربة جيش رسول الله ﷺ وأخاف الناس بعضهم بعضاً ولم يكن بينه وبين القوم حرب .

غزوة بدر الأخيرة

وتسمى غزوة بدر الصغرى وبدر للوعد؛ للواعدة عليها مع أبى سفيان يوم أحد وتسمى بدر الثالثة وتسمى أيضاً غزوة السويق .

خرج رسول الله ﷺ إلى بدر ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه وعشرة أفراس وذلك فى شهر شعبان سنة أربع لمعاد أبى سفيان . واستعمل على المدينة عبد الله بن رواحة الخزرجى رضى الله عنه وحل اللواء على بن أبى طالب رضى الله عنه . وخرج أبو سفيان فى قريش وهم ألفان ومعهم خمسون فرساً حتى نزل موضعا قريبا من مر الظهران ثم بدا له الرجوع فقال يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيها اللبن وإن عامكم هذا عام جدد وإنى راجع فارجموا فرجى ورجع الناس فسامهم أهل مكة جيش السويق . يقولون إنما خرجتم تشربون السويق . وهو الناعم من دقيق الحنطة والشعير وهذه حيلة دبّرها أبو سفيان لأنه لم يكن يريد حرباً بل خرج لثلاث أكل وأخلف وعده ولم يخرج ، على أنه لم يعارضه أحد من قريش فى الرجوع فكان الجيش كذلك لا يريد الحرب

وكان أبو سفيان قد بعث إلى المدينة شخصاً اسمه نعيم ليرجف أصحاب رسول الله ﷺ بكثرة العدو ليحملهم على عدم الخروج وذلك ليكون له عذر فى الرجوع إلى مكة ولكن رسول الله ﷺ لم يبال بما سمع من كثرة عدد الجيش وتبسيط همة الناس ، قال الذى نفسى بيده لو لم يخرج معى أحد لخرجت وحدى وأقام ﷺ ببدر ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان وفى هذه المدة باع المسلمون ما معهم من التجارة فربحوا كثيراً .

وفى سنة أربع هذه تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بنت أبى أمية . وفيها أمر رسول الله زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب يهود فعملها وفى جمادى الأولى من هذه السنة توفى عبد الله بن عثمان بن عفان وكان عمره ست سنين وهو ابن بنت رسول الله رقية وفيها ولد الحسين رضى الله عنه .

غزوة دومة الجندل

وهى أول غزوات الشام

دومة الجندل مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال وبعلها من المدينة خمس عشرة ليلة وهى أقرب بلاد الشام إلى المدينة وبقر تبوك

وكانت هذه الفزوة في ربيع الأول سنة خمس (يولييه سنة ٦٢٦ م) واستعمل النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة سبع بن عُرْفُطَةَ الغفاري . وسببها أنه بلغه أن بها جمعا كثيرا يظلمون من مريهم وأنهم يريدون الدنوا من المدينة فخرج صلى الله عليه وسلم في ألف من أصحابه ومعه دليل له من عذرة يقال له مذكور فأصاب أهل دومة الجندل الرعب وتفرقوا ثم عاد إلى المدينة . قال ابن الأثير وغنم المسلمون إبلا لهم . وقال ابن إسحاق ثم رجع رسول الله قبل أن يصل إليها ولم يلق كيدا فأقام بالمدينة بقية سنته .

تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم

زينب بنت جحش

تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بن رثاب الأسدية في شهر صفر من السنة الخامسة (يولييه سنة ٦٢٦ م) وهي أخت عبد الله بن جحش وأما أمة بنت عبد المطلب عم النبي ﷺ وكانت قديمة في الإسلام . تزوج رسول الله ﷺ بعد أن طلقها زوجها زيد بن حارثة .

كان زيد بن حارثة مولى خديجة وهبته لرسول الله ﷺ قبل البعثة وهو ابن ثمان سنوات فأعتقه وتبناه . وكانوا يدعونه زيد بن محمد . وقد زوجه رسول الله ﷺ بنت عمته « زينب بنت جحش » ولما خطبها رسول الله ﷺ على زيد امتنعت من إنكاحه نفسها فقال لها رسول الله ﷺ أنكحيه فقالت يا رسول الله أوامر (أى أشاور) نفسى وبينما هما يتحدثان أنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ وعند ذلك قالت زينب رضيته لى يا رسول الله منكحها ، قال : نعم . قالت إذن لا أعصى رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسى . والسبب في إياها بادي الأمر أنها كانت ترى أن زيدا غير كفء لها وقالت إنها خير منه حسبا ونسبا وكانت امرأة فيها حدة فلما نزلت الآية رضيت .

ثم إن زيدا كان يشكوها لرسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم لأنها تؤذيه وتتكبر عليه بسبب النسب وعدم الكفاءة ، فكان يقول له « أمسك عليك زوجك » : أى لا تطلقها . لكنه لم يطق معاشرتها وطلقها . وهذا طبعى فإن الإنسان لا يستطيع معاشرته زوجة تتكبر عليه وترى نفسها أرقى منه . وبعد أن اقضت عدها تزوجها رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم لإبطال عادة التبنى بفعله ، فإن المشرع يستفاد من فعله كما يستفاد من قوله . وذلك أن الله ﷻ أراد نسخ تحريم زوجة التبنى . قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ وقال ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فكان يدعى بعد ذلك زيد بن حارثة . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا

وَطَرًا زَوْجَانَا كَمَا لَكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ
أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا .

وقد كان الله أوحى إلى رسوله أن زيدا سيطلق زوجته وتزوجها بعده إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم بالغ في السكمان لزيد « أمسك عليك زوجك » فعاتبه الله على ذلك حيث قال ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَخْفَاهُ ﴾ وهو عتاب على ترك الأولى ، وكان الأولى في مثل ذلك أن يصمت عليه الصلاة والسلام أو يفوض الأمر إلى رأى زيد رضى الله عنه . ولم يخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما أوحى إليه من تطليق زيد لزَيْنَب وتزوجه إياها مخافة طعن الأعداء والمناقضين فعونب عليه ولأنه أيضاً لم يؤمر بالإخبار به بل كان مجرد إعلام له خاصة . وللقصاص في هذه القصة كلام لا ينبغي أن يحمل في حيز القبول ويجب صيانة النبي صلى الله عليه وسلم عن مثله . وكانت زينب بنت جحش تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم وتقول زوجنى الله من السماء . وأولم عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحبر ولحم . وكانت امرأة صالحة صوامة قوامة كثيرة الخير تعمل بيدها وتتصدق به . وكان اسمها برة فسمها رسول الله زينب ، وهى وقتئذ بنت خمس وثلاثين سنة وبسبب زينب نزل الحجاب :

وتوفيت سنة عشرين وهى بنت ثلاث وخمسين سنة وهى أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم موتاً بعده . أرسل إليها عمر بن الخطاب اثني عشر ألف درهم كما فرض لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فأخذتها وفرقتها في ذوى قرابتها وأيتامها ثم قالت : « اللهم لا يدركنى عطاء لعمر بن الخطاب بعد هذا » فأتت وصلى عليها عمر بن الخطاب ودخل قبرها أسامة بن زيد ومحمد بن عبد الله بن جحش . وعبد الله بن أبي أحمد بن جحش . قيل هى أول امرأة صنع لها النعش أشارت به أسماء بنت عميس كانت رأتة في الحبشة ، ودفنت بالبقيع فيما بين دار عقيل ودار ابن الحنفية .

وعن عائشة قالت يرم الله زينب بنت جحش لقد نالت في هذه الدنيا الشرف الذى لا يبلغه شرف إن الله عز وجل زوجها نبيه صلى الله عليه وسلم في الدنيا ونطق به في القرآن . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا ونحن حوله « أسرعكن بي لحوقاً أطولكن باعاً » فبشرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسرعة لحوقها به عليه السلام وهى زوجته في الجنة .

غزوة المريسي

أو غزوة بني المصطلق

المريسي : ماء لبني خزاعة وتسمى هذه الغزوة غزوة بني المصطلق وهم بطن من خزاعة . وكانت في شعبان سنة خمس من الهجرة (ديسمبر سنة ٦٢٦ م) وسببها أن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي كان قد جمع الجوع لحاربة النبي ﷺ فخرج رسول الله ﷺ وخرج معه كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قط مثلها وكان معه ثلاثون من الخليل ، عشرة للمهاجرين وعشرون للأنصار واستعمل على المدينة زيد بن حارثة مولاه وقيل أبا ذر الغفاري . وخرجت معه عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما . وقتل رسول الله ﷺ جاسوسا للمشركين وبلغ عليه السلام للمريسي من ناحية قديد إلى الساحل وصف أصحابه للقتال ودفع راية المهاجرين لأبي بكر رضى الله عنه وراية الأنصار لسعد بن عباد وحمل المسلمون على المشركين قتلوا عشرة وأسروا باقيهم وكانوا أكثر من سبعمائة ، وسبوا الرجال والنساء والذرية وساقوا النعم والشاة ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد وهو هشام بن صبابه وقد قتل خطأ ، أصابه رجل من الأنصار من رهط عباد بن الصامت وهو يرى أنه من العدو .

وكان من جملة السبي جويرة بنت الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق ، وكانت تحت مسافع ابن صفوان قتل في هذه الغزوة وكان اسمها برة فلماها رسول الله ﷺ جويرة وعن عائشة قالت لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرة بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له فكانت على نفسها وكانت امرأة حلوة ملاحه لا يراها أخذ إلا أخذت بنفسه فأتى رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها . قالت عائشة فوالله ما هو إلا أن رأيته فكرهتها وقلت يرى منها ما قد رأيت فلما دخلت على رسول الله ﷺ قالت يا رسول الله أنا جويرة بنت الحارث سيد قومه وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك ، وقد كاتبته على نفسى فأعنى على كتابتي قال رسول الله ﷺ أو خير من ذلك أودى عنك كتابتك وأتزوجك فقالت نعم . فعمل رسول الله ﷺ فبايع الناس أنه تزوجها فقالوا أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما كان في أيديهم من بني المصطلق ، فلقد أعتق بها مائة من أهل بيت بني المصطلق فما أعلم امرأة أعظم بركة منها على قومها . ولما تزوجها رسول الله ﷺ حببها وقسم لها . وكانت حين تزوجها رسول الله ﷺ بنت عشرين سنة وتوفيت سنة خمسين وهى بنت خمس وستين سنة ، وبسبب زواجها هدى الله أكثر بني المصطلق إلى الإسلام ، ثم أسلم الحارث . ومن هنا تظهر حكمة رسول الله ﷺ في زواجها .

قتل هشام بن صبابه

قلنا إن هشام بن صبابه قُتل خطأ أصابه رجل من الأنصار . فبينما الناس على ذلك الماء (للرئيس) وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجبر له من بنى غفار يقال له جهجاه بن سعيد يقود فرسه فازدحم جهجاه وسنان الجهني حليف بنى عوف بن الخزرج على الماء فاشتتلا فصرخ الجهني يامعشر الأنصار وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين فغضب عبد الله بن أبي ابن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حديث السن فقال أقد فعلوها قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما عدونا وجلايب قريش ما قال القائل : سمن كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال : هذا ما فلتتم بأفسكم أحلتهم بلادكم وقاسمتهم أموالكم أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير بلادكم . فسمع ذلك زيد بن أرقم وكان غلاماً فشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب . قال يارسول الله مر به عباد بن بشر بن وقش فليقتله . فقال رسول الله ﷺ (فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ولكن أذن بالرحيل) وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها فارتحل الناس وقد مشى عبد الله بن أبي ابن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه خلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به . وكان عبد الله بن أبي في قومه شريفاً عظيماً فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحاب من الأنصار - يارسول الله عسى أن يكون الغلام أوم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل ، حدّبا على عبد الله بن أبي ودفعاً عنه ، فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه تحية النبوة وسلم عليه . ثم قال يارسول الله لقد رحت في ساعة مبكرة ما كنت تروح فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال وأي صاحب يارسول الله ؟ قال عبد الله بن أبي . قال : وما قال ؟ قال زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل . قال أسيد فأنت والله يارسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الدليل وأنت العزيز . ثم قال يارسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه فإنه يرى أنك قد استلبته ملكا .

ثم متن رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس ، فلم يكن إلا أن وجدوا مس الأرض وقموا نياما . وإنا فاعل ذلك ليسفل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي . ثم راح بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيع يقال له نعاء فلما راح رسول الله صلى الله عليه وسلم هبّت على الناس ريح شديدة آذتهم وتخوفوها فقال رسول الله ﷺ لا تخافوا فإنما هبّت لموت عظيم من عظماء الكفار ، فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن ثابت

ابن النابوت أحد بنى قينقاع وكان من عظماء يهود وكهناً للمناقين قد مات في ذلك اليوم ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المناقين في عبد الله بن أبي ابن سلول ومن كان على مثل أمره قال ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَاقِقُونَ﴾ فبعث رسول الله إلى زيد بن أرقم وقرأ الآية عليه ثم قال له إن الله قد صدقك .

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي الذي كان من أمرأبيه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنه قد بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ؟ فإن كنت فاعلاً فرني به فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالده مني وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا .

وقدم مقيس بن صبابه من مكة مسلماً فيما يظهر فقال يا رسول الله جئتكم مسلماً وجئت أطلب دية أخى قتل خطأ . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدية أخيه هشام بن صبابه فأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم غير كثير ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ثم خرج إلى مكة مرتداً .

آية التيمم

نزلت آية التيمم في هذه الغزوة وذلك بسبب أن عائشة رضى الله عنه انقطع عقدها فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام الناس معه على التماسه حتى ابتعدوا عن الماء ونام رسول الله ﷺ واضماً رأسه على فخذه عائشة رضى الله عنها فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم فكان ضياع العقد سبباً في نزول هذه الآية . وقال أبو بكر لا بنته بعد أن كان يعاتبها « والله يا بنتي إنك كما علمت مباركة » وآية التيمم مذكورة في سورة النساء والمائدة .

عائشة وحديث الإفك

كان حديث الإفك في غزوة بنى المصطلق ولا خلاف في ذلك ولكن علماء السير اختلفوا هل قصة آية التيمم أسبق أو قصة الإفك . وخلاصة حديث الإفك أن عائشة رضى الله عنها بعد غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحين آذنوا بالرحيل ابتعدت عن الجيش لقضاء شأنها ، وبينما هي مقبلة إلى رحلها وجدت أن عقدها قد انقطع فعادت تبحث عنه فوجدته . لكنها لما رجعت وجدت أن الجيش قد رحل فجلست وغلبها النوم فنامت فرآها صفوان المصطلق الشامي وكان وراء الجيش فاستيقظت باسترجاعه ^(١) . فأناخ راحلته وأركبها وانطلق

(١) أى بقوله إنا لله وإنا إليه راجعون .

حتى أتى الجيش في نحر الظهيرة وهم نزول فأشاع عبد الله بن أبي في المعسكر حديث الإفك^(١) وانتشر بعد دخولهم للمدينة لشدة علواته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومرضت عائشة رضى الله عنها شهراً واستاء رسول الله ﷺ استياء شديداً ثم ذهبت عائشة إلى بيت أبيها . وقد علمت بحديث الناس . وقالت لأُمها ماذا يتحدث الناس ؟ قالت يا بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة^(٢) عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أ كثرن عليها . فبكت بكاء شديداً مما يتحدث الناس . وكانت لا تنام الليل من شدة الحزن والبكاء .

قلق رسول الله ﷺ واشتد قلقه واستبطأ الوحى ، فلم ير غير استشارة أصحابه فدعا على بن أبي طالب وأسامة ابن زيد واستشارهما في فراق أهله . فأما أسامة فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يعلم من براءة أهله . وأما على رضى الله عنه فقال يا رسول الله « لم يضيّق الله عليك والنساء سواها كثير » وهذا القول بلغ عائشة فلم تنسه طول حياتها ثم قال على سل الجارية التي كانت تخدم عائشة تصدقك فدعا رسول الله ﷺ بريرة وسألها فأقسمت أنها لم تر عليها شيئاً . وكانت عائشة رضى الله عنها ترجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئها الله بها . وما كانت تظن أن الله تعالى ينزل في شأنها وحياً . وبينما رسول الله ﷺ في حيرة إذ نزل الوحى عليه براءة عائشة رضى الله عنها . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(٣) .

وعصبة الإفك حسان بن ثابت رضى الله عنه ومسطح بن أثانة وحننة بنت جحش^(٤) . وعبد الله بن أبي المنافق فلما نزلت براءة عائشة جلداهم رسول الله كل واحد ثمانين جلدة إلا عبد الله بن أبي فإنه لم يجلده بل أهله . وفى ذلك يقول عبد الله بن رواحة :

لقد ذاق حسان الذى هو أهله وحننة إذ قالوا هجيراً ومسطح

تعاطوا برجم النيب زوج نبيهم وسخطة ذى العرش الكريم فأبرجوا^(٥)

قال السهيلي إن من نسب عائشة رضى الله عنها إلى الزنا كان كافراً لأن ذلك تكذيب للنصوص القرآنية ومكذبها كافر .

وقال عمرو ما رأيت أحداً أظلم بفقّه ولا بطب ولا بشعر من عائشة ، ولو لم يكن لعائشة من الفضائل إلا قصة الإفك لكفى بها فضلاً وعلو مجد ، فإنها نزل فيها من القرآن ما يتلى إلى يوم القيامة .

(١) ولى حديث ابن عمر فقال عبد الله بن أبي لجر بها ورب الكعبة .

(٢) من الوضأة وهى الحسن والجمال وكانت عائشة كذلك .

(٣) سورة النور (٤) حنة بنت جحش هى بنت عمته صلى الله عليه وسلم أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين رضى الله عنها وزوجها مصعب بن عمير الذى استشهد بفزوة أحد (٥) أى بالقوا إلى الكذب .

جاء في صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين أزواجه فأبتهن خرج سهمها خرج بها معه . فأتقرع بيننا في غزاة غزاها فخرج سهمى فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب فانا أحمل في هودج وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقتل دنونا من المدينة فأذن ليلة بالرحيل فممت حين آذونا فشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرجل فلمست صدرى فإذا عقد لي من جَزَع (١) ظَفَار (٢) قد انقطع فالتمت عقدى فحبسنى ابتغاؤه فأقبل الذين يُرَحَّلُونَ لي (٣) فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يتقنن ولم يه شهن اللحم (٤) وإنما يأكلن العُلَقَةَ من الطعام (٥) فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجبل وساروا فوجدت عقدى بعد ما استمر الجيش فجئت منزلهم وليس فيه أحد فأملت للموضع الذى كنت فيه وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلى . فبينما أنا جالسة غلبتنى عينائى فنمت وكان صفوان بن المعطل الشَّامِى ثم الذكوانى من وراء الجيش فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم فأتانى وكان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته فوطئ يدها . فركبتها فانطلقت يقودنى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك من هلك وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبى ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكت بها شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ويرينى في وجى أنى لأرى من النبى ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أمرض إنما يدخل فيسلم فيقول كيف نيك لا أشعر بشئ من ذلك حتى تهت فخرجت أنا وأم مسطح قبيل الناصع (٦) مُتَبَرِّزاً (٧) لا يخرج إلا ليلاً إلى ليل وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أهر العرب الأول في البرية أو في التنزه فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبى رهم نمشى فَعَثَرْتُ في مِرْطِهَا (٨) قالت تس مسطح فقلت لما بشما قلت أتسبين رجلاً شهد بدمراً ؟ قالت ياهنَّاهُ (٩) ألم تسمى ما قالوا ؟ فأخبرتني بقوا أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضى . فلما رجعت إلى بيتي دخل على رسول الله ﷺ فسلم . فقال كيف نيككم قلت أئذنى إلى أبوى . قالت وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلها فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبيت أبوى . قلت لأمى ما يتحدث الناس به ؟ قالت : بابنية هوئى على نفسك الشأن فوالله لقلما كانت امرأة قط وضئنة عند رجل يحبها ولما ضرائر إلا أكثرن عليها . قلت سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم . ثم أصبحت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يستشيرها في فراق أهله . فأما أسامة فأشار عليه بالذى يعلم في

(١) هو خرز معروف في سواده يياض . (٢) مدينة باليمن . (٣) أى يضعون الرجل على بعيرى .

(٤) وفي رواية : والنساء يومئذ لم يهبلهن اللحم ، وجهله اللحم تهيبلا إذا كثر عليه وركب بعضه بعضاً . يقال رجل مهبل .

(٥) القليل من الطعام . (٦) موضع خارج المدينة . (٧) موضع قضاء حاجتنا . (٨) كساهما .

(٩) أى ياهذه .

نفسه من الودهم . فقال أسامة أهلك يا رسول الله ولا نعلم إلا خيراً . وأما علي^(١) فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك ، فدعا رسول الله ﷺ بريرة . فقال يا بريرة هل رأيت فيها شيئاً يريك ؟ قالت بريرة : لا والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً أغصه^(٢) عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام على العجين فتأني الداجن فتأكله . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول . فقال رسول الله ﷺ : من يعذرنى من رجل بلغنى أذاه فى أهلى فوالله ما علمت على أهلى إلا خيراً وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً . وما كان يدخل على أهلى إلا معى . فقام سعد بن معاذ فقال يا رسول الله أنا والله أعذر لك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه . وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك . فقام سعد بن عباد وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية فقال : كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على ذلك . فقام أسيد بن الحضير فقال كذبت لعمر الله والله لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين . ففار الحيات الأوس والخزرج حتى هموا ورسول الله على المنبر يخفضهم حتى سكتوا وسكت ، وبكيت يومى لا يرقأ لى دمع ولا أ كعجل بنوم فأصبح عندى أبواى . وقد بكيت ليلتين ويوماً حتى أظن أن البكاء فالتى كبدي . قالت فينما هما جالسان عندى وأنا أبكى إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى فينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ولم يجلس عندى من يوم قيل لى ما قيل قبلها . وقد مكث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى بشئ . قالت فتشهد ثم قال : يا عائشة لقد بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت أملت بذنوب فاستغفرى وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه . فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحسن منه قطرة ، وقلت لأبى أجب عني رسول الله ﷺ . قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت لأبى أجبني عني رسول الله ﷺ فيما قال . قالت والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ قالت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن . فقلت : والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقروا أنفسكم وصديقكم به ولئن قلت لكم إني بريئة ، والله يعلم إني لبريئة لاتصدقونى ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم إني لبريئة لاتصدقونى ، والله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ ثم تحولت على فراشى وأنا أرجو أن يرثنى الله . ولكن والله ما ظننت أن ينزل الله فى شأنى وحياً يتلى ولأنا أحقر فى نفسى من أن يتكلم بالقرآن فى أمرى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها ، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله عليه الوحي . فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان^(٣) من العرق فى يوم شات فلما سرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم

(١) أى أعياه . (٢) الأولو .

- ٢٢٧ -

بها أن قال لي . يا عائشة احدى الله قد برأك الله فقالت لي أمي : قومي إلى رسول الله ﷺ فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحد إلا الله فأنزل الله عز وجل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ الآيات . فلما أنزل الله عز وجل هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه . وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقربه منه . والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قال لعائشة . فأنزل الله عز وجل ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى ﴾ إلى قوله ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قال أبو بكر : بلى والله ، إني لأحب أن ينفر الله لي ، فرجع إلى مسطح الذي كان يجرى عليه . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال يا زينب ما علمت ما رأيت ؟ فقالت يا رسول الله أحى سمي وبصري . والله ما علمت عليها إلا خيراً . قالت وهي التي كانت تُساميني فقصها الله بالورع اهـ .

هذه قصة الإفك وقد ظهر أن المناقنين قد افتروها وعلى رأسهم عبد الله بن أبي لشدة حقدم على رسول الله قسبوا إلى عائشة ، وهي من أشرف بيت ماهي بريئة منه ليلوثوا سمعتها الطاهرة النقية ، ولكن الحق تعالى برأها من كل سوء وأعلى قدرها فاطمأن زوجها رسول الله وأبوها وأما جميع المسلمين ، وإن كان هذا شأن الحاسدين في كل زمان فإن الله عز شأنه لا بد أن يكلاً عباده الصالحين ويرعاهم وينصرهم على القوم الظالمين .

غزوة الخندق

وهي الأحزاب

كانت غزوة الخندق في شوال من السنة الخامسة (فبراير سنة ٦٢٧ م) باتفاق المؤرخين لكن ابن خلدون يقول في تاريخه (والصحيح أنها في الرابعة ويقويه ابن عمر يقول ردى رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة ثم أجازني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فليس بينهما إلا سنة واحدة وهو الصحيح فهي قبل دومة الجندل بلا شك)^(١)

تمحزب الأحزاب

لما وقع إجلاء بني النضير ، سار منهم جمع من كبارهم ومنهم سلام بن مشكم ورئيسهم كنانة بن أبي الحقيق النضري وحيي بن أخطب وهوذة بن قيس الوائلي وأبو عامر القاسق إلى أن قدموا مكة على قريش بدعوتهم ويحرضونهم على حرب رسول الله .

(١) راجع سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري والواقدي وطبقات ابن سعد وحياة محمد لسر موير .

قال الأستاذ ولفنسون : « لما نزل أشراف بني النضير في خير أخذوا يفسكرون في الثأر من الأنصار وجعلوا يفسكرون في الوسائل التي توصلهم إلى آطامهم وتردهم إلى مزارعهم في منطقة يثرب فعزم نفر من اليهود فيهم سلام ابن أبي الحقيق وحبي بن أخطب وكنانة بن الربيع أن يحزبوا الأحزاب على المسلمين » .

أى الدينين خير ؟

لما دعت اليهود قريشاً لحاربة النبي ﷺ وقالوا لهم سنكون معكم حتى نستأصله ارتابوا في أمرهم لأن دين اليهود قريب في جوهره من الإسلام وبعيد عن عبادة الأصنام كل البعد وقريش عباد أصنام . ولذلك قالوا لهم : يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد . أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه . فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا واستعدوا للحرب . ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان ودعواهم إلى مشاركتهم في الحرب وذكروا لهم اعتماد قريش فأجابوهم .

إن اليهود أجابوا قريشاً بأن دين قريش (الوثني) خير من دين محمد مخالفين بذلك دينهم الداعي إلى عبادة الله الواحد توصلاً إلى غرضهم وهو محاربة المسلمين وطردهم من المدينة وإعادة إخوانهم إلى ديارهم وكان خيراً لهم أن يعيشوا مع المسلمين في وفاق ويكفوا عن الدسائس والفتن والانضمام إلى الأعداء . فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ الآيات
وقد أدرك الأستاذ ولفنسون أنهم أخطأوا في تفضيلهم دين قريش على الإسلام فقال في كتابه تاريخ اليهود صفحة ١٤٢ مانعه :

« والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء ، إنما هو تلك الحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين قريش الوثنيين حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أدب قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية » .

ولا يخفى أن الذين أدلوا بهذا الحديث ليسوا من عامة اليهود حتى يقال إنهم لا يعلمون ما يقولون أو إنهم لا يمثلون اليهود بل هم من رؤسائهم وأصحاب النفوذ فيهم . فهل هؤلاء لا يستحقون التأديب ؟

خروج الأحزاب وقوادم

خرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب . وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة في بني فزارة . والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري في بني مرة . ومسمود بن ربيعة بن نيرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع .

حفر الخندق

فلما سمع رسول الله ﷺ بتحزيبهم وخروجهم لمحاربه أمر بحفر الخندق حول المدينة في الجهات التي لم تكن حصينة لتعوق العدو المهاجم ، والذي أشار عليه ﷺ بحفره سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وقد كان الفرس يحفرون الخنادق للدفاع في الحرب . قال سلمان يا رسول الله كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا ، وعلى كل حال فإن كلمة خندق فارسية الأصل .

اشتغل رسول الله ﷺ بحفر الخندق بنفسه ليقبض به المسلمون ، وليشجعهم على العمل فاشتغل المسلمون معه . أما المناقون فكانوا يتوانون وينصرفون بدون إذن رسول الله ﷺ ويستقلون العمل ويثبطون العزائم . وتباطأ رجال من المناقين وصار الواحد منهم ينصرف إلى أهله من غير استئذان .

سلمان منا أهل البيت

خط رسول الله ﷺ الخندق ثم قطعه أربعين ذراعاً بين كل عشرة فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلاً قوياً . قالت الأنصار سلمان منا . وقالت المهاجرون سلمان منا قال رسول الله ﷺ « سلمان منا أهل البيت » .

اعتراض صخرة بيضاء ومعجزة الرسول

بينما جماعة من المسلمين يعملون في حفر الخندق في الجزء المخصص لهم ومعهم سلمان الفارسي إذ ظهرت صخرة بيضاء مروة فكسرت حديد معاولهم وشقت عليهم . فقالوا يا سلمان ارق إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر هذه الصخرة فلما أن نعدل عنها فإن للمعدل قريب وإما أن يأمرنا فيها بأمره فإننا لا نحب أن نجاوز خطه^(١) فرقى سلمان حتى أتى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية فقال يا رسول الله بأيننا أنت وأما خرجت صخرة بيضاء من الخندق مروة فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى مانحيك فيها قليلاً ولا كثيراً . فبرنا فيها بأمرك فإننا لا نحب أن نجاوز خطك . فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان في الخندق وأخذ المعول من سلمان رضي الله عنه فقال باسم الله ثم ضربها فنثر ثلثها وخرج منها نور أضاء ما بين لابتيها يعني المدينة . فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة من مكاني . ثم ضرب الثانية قطع ثلثاً آخر فبرقت برقة من جهة فارس أضاءت ما بين لابتيها . فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن فأبشروا

(١) أي الخط الذي رسمه لهم الرسول .

بالنصر فسر المسلمون . ثم ضرب الثالثة وقال باسم الله قطع بقية الحجر وخرج نور من قبل اليمن فأضاء ما بين لا بقى المدينة حتى كأنه مصباح في جوف ليل مظلم . قال : الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة .

وجاء في صحيح البخارى عن جابر رضى الله عنه قال :

« إنا يوم الخندق نحفر فمضت كدبة شديدة^(١) فجاءوا النبي ﷺ فقالوا هذه كدبة عرضت في الخندق فقال أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر^(٢) ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً^(٣) فأخذ النبي ﷺ للمول فمضى في الكدبة فعادت كثيباً أهيل^(٤) .

عدد الجيشين

كان أهل الخندق ثلاثة آلاف . ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من دومة بين الجرف والغابة في عشرة آلاف من أحاديثهم ومن تابعهم من كنانة وأهل تهامة وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نغمى بجانب أحد .

تقضى العهد

كان كعب بن أسد القرظى سيد بنى قريظة قد وادع النبي ﷺ على قومه وعاقده على ذلك فذهب إليه حبي بن أخطب النضرى وهو أحد الذين حزبوا الأحزاب فلما سمع كعب حبي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فألح عليه ابن أخطب ففتح له وما زال يستميله ويفريه حتى تقضى كعب عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ وصار هو وقومه بنو قريظة مع الأحزاب على رسول الله ﷺ . وعلم بذلك رسول الله ﷺ وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف .

اشتداد الحصار

اشتد الخوف من تحزب الأحزاب ولا سيما بعد أن تقضى بنو قريظة العهد وانضموا إلى الأعداء وظن المؤمنون كل الظن واتهم المناهقون هذه الفرصة لتثبيط العزائم وهم بالقتل بنو حارثة وبنو سلمة معتذرين بأن بيوتهم عورة خارج المدينة ثم ثبتهم الله ودام الحصار على المسلمين قريباً من شهر ولم يكن بينهم غير الرمي بالنبال ، وكان لدى المسلمين من المؤونة ما يكفيهم أكثر من عام ..

(١) أى قطعة من الأرض لا تسهل فيها المعاول .. (٢) أى من ألم الجوع أو خشية انحناء صلبه . (٣) أى من جلس ما طعم أو مضرب . (٤) أى رملاً سائلاً .

اقتحام الخندق

خرجت فوارس من قريش على خيلهم بعد أن تهيأوا للقتال حتى وقفوا خارج الخندق فلما رأوه قالوا والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تسكدها . ثم ييموا مكاناً من الخندق ضيقاً فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم السبخة بين الخندق وسلم وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التي اقتحموها وخرج عمرو بن عبد ود وطلب المبارزة وكان عمره تسعين سنة فبارزه علي بن أبي طالب فقتله . وذكر ابن إسحاق أن للشركين بعثوا إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفة عمرو بعشرة آلاف . قال رسول الله : هو لكم ولا تأكل ثمن الموتى ، وخرجت خيلهم منهزمة ، حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو رجلان منه بنو بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار أصابه سهم فعات منه بمكة . ومن بني غزوم نوفل بن عبد الله بن الغيرة وكان اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة فقال يامعشر العرب قتلة أحسن من هذه فتزل إليه علي فقتله . ومن الذين كانوا يناوشون المسلمين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وذلك قبل إسلامهما . ورُمي سعد بن معاذ يومئذ بسهم رماه رجل يقال له ابن العرقعة العامري^(١) قال خذها وأنا ابن العرقعة . قال سعد عرق الله وجهك في النار فأصاب الأكل منه قطعه . قال سعد اللهم لاتمتني حتى ترق عيني في (بنو قريظة) وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية . وتقل سعد وهو مجروح إلى خيمة ربيعة وقد كانت امرأة تداوى الجرحى في المسجد .

حسان بن ثابت يخشى القتال

كانت صفية بنت عبد المطلب في فارح - حصن حسان بن ثابت - قالت وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان . قالت صفية فر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إن أنا آت . قالت قتلت يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقته ، قال يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . قالت ، فلما قال ذلك لي ولم أر عنده شيئاً احتجرت ثم أخذت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتله . فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن قتلت يا حسان انزل إليه فأسابه ، فإنه لم يمنعني من سابه إلا أنه رجل . قال : مالي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب^(٢) . فكانت صفية أشجع من حسان .

(١) العرقعة - بفتح العين وكسر الراء - وهي أمه واسمها قلابة بنت سعيد بن سعد بن سهم وتمكني أم فاطمة . سميت العرقعة لطيف رعبها ، وهي جدة خديجة رضي الله عنها أم أبيها . وابن العرقعة هذا اسمه حيان بن عبد مناف .

(٢) راجع تاريخ الطبري - غزوة الخندق .

استمرار القتال وفوات الصلاة

استمر القتال في يوم من أيام الخندق من سائر جوانب الخندق إلى الليل ولم يصل ﷺ ولا أحد من المسلمين صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وصار المسلمون يقولون ماصلينا فيقول رسول الله ﷺ ولا أنا فلما انكشف القتال وجاء ﷺ إلى قبته أمر بلالا فأذن وأقام للظهر فصلى ، ثم أقام لكل صلاة وصلى هو وأصحابه . وجاء في رواية جابر رضي الله عنه أنه أذن وأقام لكل صلاة . وجمع النووي بأنهما قضيتان جرتا في أيام الخندق فإنها كانت خمسة عشر يوماً . وفي رواية أن التي فاتت صلاة العصر ويحمل ذلك على أنه وقع في بعض تلك الأيام وجاء في بعض الروايات : « شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر حتى غابت الشمس ملاً الله أنجواهم وقبورهم ناراً » .

إن الحرب خدعة

جاء نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فرني بما شئت . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة ^(١) ، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديمافي الجاهلية قال لهم : يا بني قريظة قد عرقت ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم . قالوا صدقت لست عندنا بمتهم فقال لهم إن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وقد ظاهروا محمد عليه ، وإن قريشاً وغطفان ليسوا كهيئتكم . البلد بلدكم ، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرؤن على أن تحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان أموالهم وأبناؤهم ونساؤهم وبلدهم بغيره فليسوا كهيئتكم إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم . فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشrafهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً حتى تنأجزوهم ، فقالوا لقد أشرت برأى ونصح . ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش : يا معشر قريش قد عرقت ودي إياكم وفراق محمداً وقد بلغت أمر رأيت حقاً على أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا على . قالوا فعل ذلك . قال فاعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه أن قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك عنا أن نأخذ من التيبليت من قريش وغطفان رجالاً من أشrafهم فنعطيكهم فنضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم : فإن بمت إليكم يهود ياتسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفوا إليهم منكم رجلاً واحداً . ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يا معشر غطفان أنتم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ولا أراكم

(١) قال النووي : اتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كبنها أمكن إلا أن يكون فيه قرض عهد أو أمان فلا يجوز .

تَهْمُونِي . قالوا صدقت . قال فاكتموا على . قالوا نفعل ، ثم قال لهم مثل ما قال قريش وحذرهم ما حذرهم . فلما كانت ليلة السبت في شوال سنة خمس ، وكان مما صنع الله عز وجل لرسوله أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخلف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم أن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا وقد كان أجلت فيه بعضنا حدثا فأصابه ما لم يخف عليكم ولسنا مع ذلك بالذي نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا ، ولا طاقة لنا بذلك من محمد . فلما رجعت إليهم الرسل بالذي قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : تعلمون والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق . فأرسلوا إلى بني قريظة أنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فإن أنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . قالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا ، فإن وجدوا فرصة انتهزوها وإن كانوا غير ذلك تشمروا إلى بلادهم وخوايل بينكم وبين الرجل في بلادكم . فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا . فأبوا عليهم وحذل الله بينهم . وبذلك نجحت الخديعة . وفي طبقات ابن سعد : حُصِر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بضعة عشرة ليلة حتى خلص إلى كل امرئ منهم الكرب فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعالج غطفان على أن يعطيهم ثلث الثمر ويخزلوا بين الناس وينصرفوا عنه فأبى ذلك الأنصار فترك ما كان أراد من ذلك . وقد تبين لنا أن نعيم بن مسعود قد قام بذلك خير قيام .

حرب الطبيعة

نجح نعيم بن مسعود في خديعته وأوقع الفشل بين بني قريظة وقريش . ثم جاءتهم الرياح في ليال شتائية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم وأصيبوا بالبرد وماتت مواشيهم ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم وما فرق الله من جماعتهم ، دعا حذيفة فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلا . وكان حذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المناقشين لم يعلمهم أحد إلا حذيفة . أعلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال حذيفة فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقرأ ولا تبار ولا بناء قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .

خطبة أبي سفيان

قام أبو سفيان بن حرب . فقال « يامعشر قريش لينظر امرؤ جليسه » قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي . قلت من أنت ؟ قال : أنا فلان بن فلان . ثم قال أبو سفيان : « يامعشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكراع والخف وأخافتنا بنو قريظة وبائنا عنهم الذي نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون والله ما تعلمون لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل » ثم قام إلى جله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فإ أطلق عقله إلا وهو قائم .

هذه خطبة أبي سفيان في الجيش . وكان قائدهم ولا بقاء للجند بعد رجوع القائد ونصيحته لم بالعودة ، ولا شك أنهم سئموا الإقامة ولم يروا فائدة من الانتظار أكثر مما انتظروا . وقد ساءت حالهم بسبب اشتداد البرد وهبوب الريح وعدم رغبة بني قريظة في القتال . وقد كانوا يؤملون دخول المدينة . فكان الخندق عقبة في سبيلهم بالرغم من كثرة عددهم . ولما سمعت غطفان بما فعلت قريش تشمروا راجعين إلى بلادهم تاركين ما استنقلوا من متاعهم فغتمه المسلمون . وانصرف المسلمون عن الخندق ورجعوا إلى المدينة ووضعوا السلاح بعد أن حاصرهم المشركون خمسة عشر يوماً . وانصرف صلى الله عليه وسلم من غزوة الخندق يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة .

قال عليه السلام بعد انصراف الأحزاب لن تغزوك قريش بعد عامكم هذا . وقد كان كما أخبر عليه السلام . وكانت هذه الغزوة آخر محاولة من جانب أشراف مكة للقضاء على الدين الجديد ألا وهو الإسلام .

خسائر المسلمين

ذكر ابن إسحاق أنه استشهد من المسلمين يوم الخندق ستة لا غير : ثلاثة من الأوس وهم : سعد بن معاذ ، وأنس بن أوس ، وعبد الله بن سهيل . وثلاثة من الخزرج وهم : الطفيل بن النعمان ، وثلجة ابن غنمة ، وكعب بن زيد .

خسائر المشركين

أما عدد قتلى المشركين فثلاثة : منبه بن عبد العبدري أصابه سهم فمات منه بمكة ، ونوفل بن عبد الله الخزومي ، وعمر بن عبد ود .

غزوة بني قريظة

ذو القعدة سنة خمس — إبريل سنة ٦٢٧ م

بنو قُرَيْظَةَ قوم من اليهود بالمدينة من حلفاء الأوس . وسيد الأوس حينئذ سعد بن معاذ

ذكرنا أن بني قريظة نقضوا العهد وحاربوا رسول الله مع الأحزاب واشتد البلاء على المسلمين ثم كفوا عن القتال لما أوقفه نعيم من الفشل بينهم وبين قريش فكان تأديبهم أسراً لا مناص عنه لأن وجودهم بالمدينة فتنة تهدد للمسلمين ، ولأنهم هم الذين حزبوا الأحزاب ، وانضموا إلى الأعداء ، في غزوة الخندق .

لما انصرف رسول الله ﷺ من الخندق دخل المدينة لسبع بقين من ذي القعدة سنة خمس هو وأصحابه ووضعوا السلاح وكان قد صلى الصبح ودخل بيت عائشة رضي الله عنها . فلما كان وقت الظهر أتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ . معتجراً بعمامة ^(١) من إستبرق على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من ديباج فقال أو قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال نعم . فقال جبريل فما وضعت للملائكة السلاح بعد ، ومارجت الآن إلا من طلب القوم إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالسير إلى بني قريظة فإنني عامد إليهم فززل بهم . وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ لما رجع يوم الخندق ووضع السلاح واغتسل فأناه جبريل وقد عصب رأسه الغبار فقال وضعت السلاح فوالله ما وضعت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين ؟ قال : ها هنا وأوماً إلى بني قريظة . قالت فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنا فأذن في الناس من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فيما قال ابن هشام .

وقدّم رسول الله ﷺ على بن أبي طالب برأيه إلى بني قريظة وابتدعها الناس . وكان عدد من خرج إلى القتال ثلاثة آلاف والخيول ستة وثلاثين فرساً .

دنا على كرم الله وجهه من الحصن ^(٢) ، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار وعرز اللواء عند أصل الحصن ، فسمع من بني قريظة مقالة قبيحة في حقه ﷺ وحق أزواجه فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق فقال يا رسول الله لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث . قال لم ؟ أظنك سمعت لي منهم أذى . قال نعم يا رسول الله قال لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً . فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم قمته ؟ قالوا يا أبا القاسم ما كنت جهولاً .

(١) اعتبر بعمامة : لفها على رأسه (٢) حصن بني قريظة يبعد عن المدينة بنحو ميلين أو ثلاثة إلى الجنوب الغربي .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من أصحابه بالصوَرَيْنِ^(١) قبل أن يصل إلى بنى قريظة فقال هل مرّ بكم أحد؟ قالوا لا رسول الله قد مرّ بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة . عليها قطيفة ديباج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك جبريل بُعث إلى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم^(٢) .

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة كما قال ابن إسحاق وقال الواقدي إحدى وعشرين ليلة . حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وكان طعام الصحابة التمر يرسل به إليهم سعد بن عباد . وقد كان حيي بن أخطب دخل على بنى قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطقان وفاء لكعب ابن أسد بما كان عاهده عليه . فلما أيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم (يقاتلهم) قال كعب بن أسد لهم :

يا معشر اليهود إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلا لا ثلاثاً فخذوا أيها شتم . قالوا وما هن؟ قال : تناب هذا الرجل ونصده فوالله لقد كان تبين لكم أنه لنبي مرسل وإنه الذي كنتم تجدونه في كتابكم فثامنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا لا تفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره .

قال فإذا أيتّم على هذه فلهم فليقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مُصلّتين بالسيوف^(٣) ولم تترك وراءنا قتلا يهمننا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك ، نهلك ولم تترك وراءنا نسلا نخشى عليه وإن نظفر فلعمري لنجدن النساء والأبناء .

قالوا قتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟

قال فإذا أيتّم هذه على فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمّنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غيرة (غفلة) .

قالوا نفسد سبتنا ونحدث فيه مالم يكن أحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه من المسخ مالم يخف عليك .

قال ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما .

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ : أن ابث إلينا أبا لبابة وهو رفاعة بن عبدالمنذر أخو بني عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس نستشيره في أمرنا . فأرسله رسول الله ﷺ إليهم فلما رأوه ، قام إليه الرجال وجهش إليه

(١) الصورين : موضع بالمدينة بالقيح . (٢) سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق وكذا في تاريخ الطبري عن ابن إسحاق .

(٣) مجردين السيوف :

النساء والعبيان (أى أسرعوا إليه) يبكون في وجهه من شدة المحاصرة فرق لهم وقالوا له : يا أبا لبابة أترى أن نزل على حكم محمد؟ قال نعم . وأشار بيده إلى حلقه « إنه الذبح » قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدمي من مكانهما حتى عرفت أني قد خُنتُ الله ورسوله (بإذاعة سره) ومن هذا يتبين أن أبا لبابة كان يعلم أنهم سيقتنون قبل أن يحكم فيهم سعد .

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده ^(١) وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى أموت أو يتوب الله عليّ مما صنعت وعاهد الله أن لا يبطأ بنى قريظة أبداً . وقال لا يراني الله في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً . فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره وأبطأ عليه وكان قد استبطأه قال : أما لو جاءني لاستغفرت له . فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه . ثم إن توبة أبي لبابة أنزلت على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة فبشرت أبا لبابة بذلك ثم أطلقه رسول الله ﷺ .

فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ . فتواثبت الأوس فقالوا يا رسول الله إنهم موالينادون الخزرج وقد فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت وقد كان رسول الله ﷺ قبل بنى قريظة حاصر بنى قينقاع . وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه . فسأله إياهم عبدالله بن أبي ابن سلول فوجههم له . فلما كلمه الأوس قال رسول الله ﷺ : ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا : بلى قال فذاك إلى سعد بن معاذ وكان سعد ابن معاذ قد جعله رسول الله ﷺ في خيمة امرأة من المسلمين يقال لها رفيدة في مسجده كانت تداوى الجرحى وتحتسب نفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين . وقد قال رسول الله ﷺ لقومه حين أصابه السهم بالخندق : اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب ^(٢) .

حكم سعد بن معاذ

كان أبو لبابة بن عبد المنذر قد عرف حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في بنى قريظة لأنه لما ذهب إليهم أشار بيده إلى حلقه « إنه الذبح » ثم ندم على هذه الإشارة واعتبرها خيانة لله ورسوله ﷺ وكان ما كان منه . أما سعد بن معاذ فقد كان حكمه في بنى قريظة معروفاً أيضاً لأنه لما أصيب في غزوة الخندق قال : « اللهم لا تمتني حتى تقر عيني في بنى قريظة » وقد بقي مجروحاً إلى أن استدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم في بنى قريظة .

(١) وتعرف باسمطوانة أبي لبابة ، وهي السارية التي كانت عند باب أم سلمة زوجة رسول الله .

(٢) راجع غزوة الخندق في هذا الكتاب

فأتاه قومه فاحملوه على حمار وكان رجلاً جسيماً وأقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون : يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاء ذلك لتحسن فيهم . فلما أكثروا عليه . قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم . فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشمل فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ عن كلمته التي سمع منه .

فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى سيدكم فأنزلوه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكم فيهم قال : فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وأن تُسبي ذراريهم وأن تقسم أموالهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله . فأمر رسول الله ﷺ أن تكون النساء والذرية في دار ابنة الحارث امرأة من بني النجار وأمر بالأسارى أن يكونوا في دار أسامة بن زيد . ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فخذق بها خنادق ثم أمر بقتل كل من أنبت . فبغت إليهم فجاءوا إليه أرسالا تضرب أعناقهم ويقتلون في تلك الخنادق وكان فيهم عدو الله حي بن أخطب ، وكعب بن أسد رأس القوم وهم ٦٠٠ أو ٧٠٠ وقيل إنهم كانوا من ٨٠٠ إلى ٩٠٠ .

وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يُذهب بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالا : يا كعب ما ترى ما يصنع بنا ؟ فقال كعب : في كل موطن لا تمقلون . ألا ترون الداعي لا ينزع وأنه من ذهب به منكم لا يرجع ، هو والله القتل .

فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ ثم رد عليهم التراب وأتى بجي بن أخطب وعليه حلة له قحاحية (على لون الورد) قد شققها عليه من كل ناحية كوضع الأعملة أعملة لثلاث يسلبها . مجموعة يدها إلى عنقه بجبل . فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال : أما والله مالت نفسي في عداوتك . ولكنه من يخذل الله يُخذل ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس لا بأس بأمر الله . كتاب الله وقدره وملحمته (قتال) قد كتبت على بني إسرائيل . ثم جلس فضربت عنقه وضربت عنق كعب بن أسد سيد بني قريظة . وكان المتولى قتل بني قريظة على ابن أبي طالب والزيير بن العوام . وعند قتلهم الرجال صاحت نساؤهم وشقت جيوبها ونشرت شعورها وضربت خلودها وملأت المدينة نواحاً .

عن عائشة رضي الله عنها قالت :

« لم يقتل من نساؤهم إلا امرأة واحدة . قالت والله إنها لعندي تحدث معي وتضحك ظهراً وبطناً ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجالهم بالسوق إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة ؟ قالت أنا والله : قلت ويلك مالك ؟ قالت : أقتل . قلت ولم ؟ قالت حدث أحدثته . قالت فانطلق بها فضربت عنقها فكانت عائشة تقول : ما أنسى حباً منها طيب نفس وكثرة ضحك وقد عرفت أنها تقتل . »

قول : أشقت عائشة رضى الله عنها على بنانة لطيب نفسها ومرحها حتى آخر لحظة من حياتها وكانت مع ذلك تعلم أنها ستقتل لأنها قتلت أحد المسلمين بإلقاء الرعى عليه وهو خلاد بن سويد إذ لم تستطع أن تمش بعد زوجها فنالت جزاءها . ولم يقتل من نساء بنى قريظة غيرها .
وكانت تدعى هذه المرأة بنانة ^(١) امرأة الحكم القرظى كانت طرحت رعى على خلاد بن سويد قتلتها بإرشاد زوجها لأنه أحب ألا تبقى بعده فيتزوجها غيره ولم يقتل أحد من المسلمين في هذه الفزوة غير خلاد ، وشهد خلاد المقبة وبدرأ وأجداً .

غنائم المسلمين

أمر رسول الله ﷺ أن يجمع ما في حصونهم من الحلقة والسلاح وغير ذلك فجمع فوجد فيها ١٥٠٠ سيف و ٣٠٠ درع و ٢٠٠٠ رمح و ٥٠٠ ترس و حجة ^(٢) ووجد أثاث كثير وآنية كثيرة وجمال نواضح أى يسقى عليها الماء وماشية وشياه كثيرة . فحس ذلك مع النخل والسبي ثم قسم الباقي على الناعمين وكانت أسهم القسمة ٣٠٧٢ سهماً لأن المسلمين ٣٠٠٠ والخيول ٣٦ للفرس سهمان ولصاحبه سهم . ثم بعث رسول الله سعد بن زيد الأنصارى أخا بنى عبد الأشهل بسبأيا من سبأيا بنى قريظة إلى نجد فابتاع لهم منها خيلاً وسلاحاً واصطفى لنفسه من نسائهم (ريحانة) بنت عمرو بن جناق فكانت عند رسول الله حتى توفى عنها وهي في ملكه وعرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يا رسول الله بل تتركى في ملكك فهو أخف علىّ وعليك . فتركها ثم أسلمت .

وفاة سعد

لما انقضى شأن بنى قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ فمات منه شهيداً . قال ابن إسحاق حدثني معاذ بن رفاعة الزرقى قال من شئت من رجال فومى إن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ حين قبض سعد بن معاذ في جوف الليل معتجراً بهامة من إستبرق فقال يا محمد من هذا الميت الذى فطحت له أبواب السماء واهتز له العرش ؟ قال فقام رسول الله ﷺ سريماً يجر ثوبه إلى سعد فوجده قد مات . وعن الحسن البصرى قال : كان سعد رجلاً بادنًا فلما حمله الناس وجلوا له خفة فقال رجال من المسلمين والله إن كان لبادنا وما حملنا من جنازة أخف منه . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : إن له حلة غيركم والذى نفسى بيده لقد استبشرت للملائكة بروح سعد واهتز له العرش . وعن جابر بن عبد الله قال : لما دفن سعد ونحن مع رسول الله ﷺ

(١) وفي البيرة المحلية نباتة وقيل مزنة . وفي الطبرى أن اسمها بنانة وكذا في أسد الغابة .

(٢) الحجة : صرب من التروس . وقيل هي من الجلود خاصة . وقيل هي من جلود الإبل مقورة .

سَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَبَّحَ النَّاسُ مَعَهُ ثُمَّ كَبَّرَ فَكَبَّرَ النَّاسُ مَعَهُ . فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مِمَّ سَبَّحْتَ قَالَ لَقَدْ تَضَاقَقَ عَلَى هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ قَبْرُهُ حَتَّى فَرَجَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَدْ دَفِنَ سَعْدٌ بِبَقِيعِ الْفَرَقْدِ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « كُلُّ نَائِمَةٍ تَكْذِبُ إِلَّا نَائِمَةَ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ » وَأُمُّ سَعْدٍ كَيْشَةَ بِنْتُ رَافِعِ بْنِ مَعَاوِيَةَ بِنْتُ عُبَيْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَبْدِ بْنِ الْأَيْمَرِ . وَهِيَ أُولَى مَنْ بَايَعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ .

خسائر المسلمين في غزوة بني قريظة

خَلَادُ بْنُ سُوَيْدٍ - طَرَحَتْ عَلَيْهِ رَحَى . أَمَّا أَبُو سَنَانٍ بْنُ مَحْصَنٍ فَاتَّ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَاصِرَ بَنِي قَرِظَةَ فَدَفِنَ فِي مَقْبَرَةٍ بِبَنِي قَرِظَةَ الَّتِي يَدْفِنُونَ فِيهَا إِلَى الْيَوْمِ وَلِإِيَّاهُ دَفَنُوا أَمْوَاتَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ . وَقَدْ اسْتَفْظَعَ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ الْأَجَانِبَ قَتَلَ بَنِي قَرِظَةَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ . لَكِنْهُمْ تَقَضَّوْا عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَعَ أَنَّهُ حَافِظُهُمْ وَأَمْنُهُمْ وَمَنْحَهُمْ حُرِيَّةَ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ وَمَعَ هَذَا انْتَفَقُوا مَعَ الْعَدُوِّ فِي أَحْرَجِ السَّاعَاتِ وَحَارَبُوا الْمُسْلِمِينَ فَكَانَ جَزَاؤُهُمُ الْحُكْمُ بِالْإِعْدَامِ . وَإِنَّا نَجِدُ فِي التَّارِيخِ الْحَدِيثَ مَا يَمِثِّلُ ذَلِكَ فَقَدْ قَضَى مُحَمَّدٌ عَلَى بَاشَا الْكَبِيرِ عَلَى الْمَالِكِ فِي الْقَلْعَةِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَمَرَّدُونَ عَلَيْهِ وَبِذَلِكَ تَخَلَّصَ مِنْ عَدَوَانِهِمْ وَأَمَّنَ شَرَّهُمْ .

ما نزل من القرآن

في أمر الخندق وبني قريظة

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَمْرِ الْخَنْدَقِ وَأَمْرِ بَنِي قَرِظَةَ مِنَ الْقُرْآنِ الْقَصِصَةَ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ يَذْكُرُ فِيهَا مَا نَزَلَ مِنَ الْبَلَاءِ وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ وَكِفَايَتِهِ لِبَايَعِهِمْ حِينَ فَرَجَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنْهُمْ بَعْدَ مَقَالَةٍ مِنْ قَالٍ مِنْ أَهْلِ الْبَغَايِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وَالْجُنُودُ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانٌ وَبَنُو قَرِظَةَ وَكَانَتِ الْجُنُودُ الَّتِي أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَعَ الرِّيحِ لِلْمَلَايِكَةِ . يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنُفِثُوا بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ فَالَّذِينَ جَاءُوهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ بَنُو قَرِظَةَ وَالَّذِينَ جَاءُوهُمْ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانٌ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿هُنَالِكَ آتَتْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَرَضًا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ لَقَوْلُ مَعْتَبِ بْنِ قَشِيرٍ إِذْ يَقُولُ مَا قَالَ ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ لَقَوْلُ أَوْسِ بْنِ قَيْظٍ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِهِ مِنْ قَوْمِهِ ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ

مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَلُّوا الْفِتْنَةَ لِأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا يَسِيرًا وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ
الْأَذْيَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿ فَمَنْ بَنُو حَارِثَةَ وَمَنْ الَّذِينَ هُمَا أَنْ يَفْشَلُوا يَوْمَ أَحَدٍ مَعَ بَنِي سُلَيْمَةَ هُمَا بِالْفِشْلِ
إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا
تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿ ظَاهَرَهُمْ أَيْ عَاوَنَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ . مِنْ صَيَاصِيهِمْ مِنَ الْحَصُونِ وَالْأَطْلَامِ
الَّتِي كَانُوا فِيهَا .

يهود المدينة

وما آل إليه أمرهم

كان بين الأوس والخزرج حروب قديمة فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة لقبهم بالأنصار لأنهم هم الذين
نصروه فتآخى الفريقان وانمحي ما كان بينهما من العداوة وصاروا بنعمة الإسلام إخواناً وآخى عليه الصلاة والسلام
بين المهاجرين والأنصار . أما يهود المدينة فقد كانت بنو قريظة والنضير حلفاء الأوس وبنو قينقاع حلفاء الخزرج
وقد عاهدهم رسول الله ﷺ وأقرهم على دينهم وأموالهم لكنهم ثاروا ورفضوا عهده وتعتنوا في مناقشته وحسدوه
على انتصاراته وكادوا له وعادوا ينكرون عليه نبوته . فلما رأى رسول الله ﷺ منهم الغدر وشدة السناد ودرس
الدسائس، أراد التخلص منهم متحيناً الفرص فدعا بنى قينقاع إلى الإسلام بعد غزوة بدر وكانوا يسكنون بالمدينة ،
فلما أبوا وأجابوه بكل جرأة غزاهم وأجلاهم إلى أذرع بالشام في السنة الثانية من الهجرة وأرسل من قتل كعب
ابن الأشرف الشاعر الذي كان يهجو رسول الله ﷺ بأشعاره ويحض كفار قريش على قتاله وذلك في السنة الثالثة
من الهجرة . وغزا في السنة الرابعة بنى النضير . وقد تقدم سبب هذه الغزوة . وأجلاهم عن المدينة فمنهم من سار
إلى الشام ومنهم من ذهب إلى خيبر . ثم غزا بنى قريظة في السنة الخامسة لأنهم هم الذين حاربوا الأحزاب عليه في
غزوة الخندق وانضموا إلى الأعداء في أخرج للمواقف . وبعد غزوة بنى قريظة لم تبق لليهود قائمة بالمدينة وخضع
للمناقون كل الخضوع وقد كانوا فئة قليلة أما المدينة فلم تعد ملجأً للمضطهدين بل صارت مركزاً لسلطة دينية عظيمة
واستطاعت إخضاع جزيرة العرب بعد سنين قليلة .

- ٢٤٢ -

سرية القرطاً^(١) وإسلام ثمامة بن أثال الحنفي

كانت هذه السرية لعشر خلون من الحرم سنة ست من الهجرة .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الأنصاري في ثلاثين راكباً إبلاً وخيلاً . وأمره أن يسير الليل ويكن النهار وأن يشن الغارة عليهم ففعل ما أمر به فلما أغار عليهم هرب بأقيهم بعد من قتل وكان المقتول منهم عشرة وقيل نحو العشرين واستاق ١٥٠ بعيراً و ٣٠٠٠ شاة فعدلوا الجزور بعشرة من الغنم .

وقدم المدينة لليلة بقيت من الحرم وغاب تسع عشرة ليلة وأسرت ثمامة بن أثال

روى ابن إسحاق عن أبي هريرة رضي الله عنه أن خيلاً لرسول الله ﷺ أخذت رجلاً ولا يشعرون من هو حتى أتوا به رسول الله . فقال أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي فربطوه بسارية من سواري المسجد بأمره ﷺ لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم عليها فيزق قلبه فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال ماذا عندك يا ثمامة ؟ قال عندي خير يا محمد إن تقتل تقتل ذام ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فتركه حتى كان الغد ثم قال له ما عندك يا ثمامة ؟ قال ما قلت لك : إن تنعم تنعم على شاكر . فتركه حتى كان بعد الغد فقال : ما عندك يا ثمامة ؟ قال عندي ما قلت لك فقال : أطلقوا ثمامة فانطلق إلى بئح قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) ثم قال والله يا محمد ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلي من وجهك وقد أضحى وجهك أحب الوجوه إلي والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إلي . والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلي . وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فإذا ترى ؟ فبشره النبي صلى الله عليه وسلم بخير الدنيا والآخرة وأمره أن يمتنع . فلما قدم مكة يلبي وينفي الشريك عن الله قال له قائل صبوت ؟ قال لا . ولكن أسلمت لله . رب العالمين مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا تأتكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم وقيل إنه منع عن مكة الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز^(٢) .

ثم صار ثمامة رضي الله عنه من فضلاء الصحابة وهدى الله به خلقاً كثيراً من قومه ولم يرتد مع من ارتد من أهل اليمامة ولا يخرج عن الطاعة قط وقام مقاماً حميداً بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حين ارتدت اليمامة مع مسيلمة فقال : (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) ثم قال : فأين هذا من هذيان مسيلمة ؟ فأطاعه ثلاثة آلاف وانمازوا إلى المسلمين .

(١) القرطاً من بني بكر وكانوا يزلون بناحية صربة وهي قرية لبني كلاب على طريق البصرة إلى مكة وهي إلى مكة أقرب وبها جبل يسمى البكرات وبين صربة والمدينة سبع ليل . (٢) الوبر والدم .

غزوة بنى لحيان

كانت في أول شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة (يونية - يولية سنة ٦٢٧ م) وسببها أن رسول الله ﷺ حزن على عاصم بن ثابت وأصحابه القراء الذين قتلوا ببئر معونة في شهر صفر من السنة الرابعة: فأظهر ﷺ أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة فخرج من المدينة فسلك على غراب^(١) على طريقه إلى الشام ثم على نخيض ثم على البتراء ثم صفق ذات اليسار فخرج على بين ثم على صخيرات اليمام ثم استقام به الطريق على الحجة من طريق مكة ثم أسرع السير حتى نزل على غران وهي منازل بنى لحيان^(٢) إلى بلد يقال لها ساية. وكان معه ٢٠٠ رجل ومعه ٢٠ فرساً واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

وقد وجد رسول الله ﷺ أن القوم قد حذروا وتمنوا في رموس الجبال. فأقام يوماً أو يومين يبعث السرايا من كل ناحية من نواحيهم. ثم خرج حتى أتى عسفان فبعث أبا بكر رضي الله عنه في عشرة فوارس لتسبع بهم قريش فيذعروهم ثم رجع رسول الله ﷺ ولم يلق كيداً. وكانت غيبته ﷺ عن المدينة أربع عشرة ليلة.

إغارة عيينة بن حصن

ثم قدم رسول الله ﷺ المدينة فلم يبق إلا ليالى قلائل حتى أغار عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الغزاري في خيل لفظان^(٣) على لقاح رسول الله ﷺ بالغابة وكانت عشرين لجة وفيها رجل من بنى غفار وامراته قتلوا الرجل واحتملوا المرأة في اللقاح.

والرجل الذي قتله هو ابن أبي ذر رضي الله عنه واسمه ذر وكان يرعى الإبل وامراته التي أسروها اسمها ليلى وقد نجت لأنهم أوثقوها وكانوا يريدون نعمهم بين يدي بيوتهم فانطلقت وركبت ناقه للنبي ﷺ ليلا على حين غفلتهم. ويقال إن الناقة اسمها العضباء. فانطلقت ولما علموا بها طلبوها فأعجزتهم ونذرت لئن نجت لتنحرنها. فلما قدمت على النبي ﷺ وأخبرته بذلك. وقالت: يا رسول الله إني نذرت لله تعالى أن أنحرها إن نجاني الله عليها. قال: بشما جزيتها أن يهلك الله عليها ونجالك أن تنحرها. إنه لا نذر لأحد في معصية ولا لأحد فيما لا يملك إنما هي ناقة من إبل. أرجئني إلى أهلك على بركة الله.

(١) جبل بناحية المدينة. (٢) غران واد بين أمع وعسفان. (٣) ٤٠ فارساً.

غزوة ذي قرد

وهي غزوة الغابة

ذو قرد ماء على نحو بريد من المدينة مما يلي بلاد غطفان . وكانت في ربيع الأول سنة ست (يولييه ٦٢٧ م)
وفي البخارى أنها كانت قبل خير بثلاثة أيام وبعد الحديبية بعشرين يوماً .
وسببها إغارة عيينة بن حصن الفزاري على لقاح رسول الله ﷺ كما تقدم .

لما أغاروا على اللقاح في يومهم ذلك جاء الصريح فنأدى : الفزع الفزع ، ونودي : يا خيل الله اركبي . وأول من
نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكويع الأسلمي .

ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم في خمسمائة واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم كعادته . وخلف سمد بن
عبادة رضى الله عنه في ٣٠٠ رجل يحرسون المدينة . وعقد لواء المقداد رضى الله عنه في رعيه . وقال امض حتى
تلتحق الخيول وأنا على إثرك .

وكانت نتيجة هذه الغزوة أنهم أدرکوا العدو فهزموه وقتلوا رؤسائه واستنقذوا اللقاح . وقيل بعضها ولم يقتل
من المسلمين إلا رجل واحد وهو محرز بن نضلة . وسار رسول الله ﷺ حتى بلغ ذا قرد في اتجاه خير فالتجأ العدو
إلى بني غطفان . وقد أبل في هذه الغزوة سلمة بن الأكويع بلاء حسناً وكان رامياً .

قتل أبو قتادة مسعدة بن حكمة الفزاري فأعطاه رسول الله ﷺ فرسه وسلاحه ولقي عكاشة بن محصن رضى الله
عنه في طريقه أبان بن عمرو وابنه عمراً على بنير فاتنظهما بالرمح فقتلها جميعاً .
وكانت مدة غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة أيام وصلى بنى قرد صلاة الخوف .

سرية الغنم

أو سرية عكاشة بن محصن الأسدي

الغنم ماء لبني أسد على لبتين من قيد - قلعة بطريق مكة - وكانت في شهر ربيع الأول سنة ست
من الهجرة .

خرج عكاشة رضى الله عنه في أربعين رجلاً فنذر به القوم فهربوا فقتلوا على بلادهم فوجدوا ديارهم خالية
لهربهم . فبث المسلمون طليعة فرأوا أثر الغنم قريباً فتصدوها فأصابوا رجلاً منهم فأمنوه فدلهم على نم لبني عم لهم

فأغاروا عليها فاستاقوا ٢٠٠ بدير وأطلقوا الرجل وقدموا بالإبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلقوا حرباً . .

سرية محمد بن مسلمة الأنصاري

إلى ذي القصة^(١)

كانت في شهر ربيع الثاني (الموافق شهر أغسطس سنة ٦٢٧ م) خرج محمد بن مسلمة ومعه عشرة إلى بني ثعلبة فورد عليهم لیسلاً بمن معه . وقد كن لهم المشركون لشعورهم بمجيئهم إليهم . فتركوا محمد بن مسلمة حتى نام هو وأصحابه ، ثم أخطقوا بهم فاشعر المسلمون إلا بالنبل قد خالطهم فوثب محمد بن مسلمة ومعه قوس فصاح في أصحابه . السلاح افوثبوا فتراموا بالنبل ساعة من الليل ثم انحاز أصحاب محمد إليه وقد قتلوا من القوم رجلاً . ثم حل القوم عليهم بالرمح فقتلهم إلا محمد بن مسلمة فوقع جريحاً فحمله رجل من المسلمين حتى ورد به المدينة جريحاً .

فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح في ربيع الآخر في أربعين رجلاً إلى منازلهم فأغار عليهم فلم يجد أحداً ووجد نساء وشاة فساقه وأصاب رجلاً واحداً فأسلم فتركه وأخذ نساءً من نساءهم فاستاقه وشيئاً من متاعهم وقدم به للمدينة

وظاهر من إرسال محمد بن مسلمة في عشرة رجال أن السبب هو ما بلغهم من أن بني ثعلبة وأنار أجمعوا على أن يغيروا على سرح المدينة وهي ترعى بهيفاء^(٢) وكانت للماشية قد ازدادت بسبب ما غنمه المسلمون . فلما قتل محمد ابن مسلمة بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة طلباً لأثر للمقتولين .

سرية زيد بن حارثة

وفي شهر ربيع الآخر أيضاً كانت سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالبحوم^(٣) فأصابوا نساء وشاة ووجلوا جماعة منهم فأسروهم .

ثم سرية زيد بن حارثة أيضاً إلى العيص وكانت في جمادى الأولى سنة ست (سبتمبر سنة ٦٢٧ م) . وسببها أنه عليه الصلاة والسلام بانته أن عيراً قد أقبلت من الشام فبعث زيد بن حارثة ومعه سبعون راكباً

(١) موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً في طريق الريزة (الوالدي) .

(٢) موضع على سبعة أميال من المدينة . (٣) ناحية يطن نخل على أربعة أميال من المدينة .

ليعرض لها فأدركها وأخذها وما فيها وأخذ يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية بن خلف وأسر منهم ناساً منهم أبو العاص بن الربيع . وأم هالة بنت خويلد أخت خديجة . وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين تجارة ومالا وأمانة . وهو زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم : فدخلت زينب على رسول الله ﷺ فسألته أن يرد عليه ما أخذ منه قبل . وقال لها أكرمي مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له . ثم ذهب أبو العاص إلى مكة فآدى إلى كل ذي مال ماله ثم أسلم وخرج فقدم المدينة .

وكانت زينب هاجرت قبله إلى المدينة وتركته على شركه ثم بعد أن أسلم وهاجر ردها ﷺ إليه .
وكان صلى الله عليه وسلم يصلى وهو حامل أمامة بنت زينب من أبي العاص .

سرية أخرى لزيد بن حارثة

هذه السرية إلى حسمى أرض بنزلهاجذام وراء وادي القرى وذلك من جهة الشام وكانت في جمادى الآخرة سنة ست (أكتوبر سنة ٦٢٧ م) .

وسببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أوفد دحية بن خليفة الكلبي^(١) بكتاب إلى قيصر يدعو إلى الإسلام فأعطاه جائزة وكساه . فلقبه الهنيد بن عارض في الطريق وهو عائد قطعوا عليه الطريق وأصابوا كل شيء كان معه عند حسمى فسمع بذلك نفر من بني الضبيب رهط رفاعة بن زيد الجذامي ممن كان أسلم فاستنقذوا ما كان في أيديهم وردوه على دحية .

قدم دحية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ، فبعث زيد بن حارثة في ٥٠٠ رجل ، فكان زيد يسير بالليل ويكمن بالنهار ، ومعه دليل من بني عذرة فأقبل بهم حتى هجموا على القوم ، فأغاروا عليهم ، وأكثروا فيهم القتل وقتلوا الهنيد وابنه ، وأخذوا ماشيتهم ونساءهم فأخذوا من الإبل ١٠٠٠ بعير ومن الشاء ٥٠٠٠ ومن السبي مائة من النساء والصبيان . ولا شك أن هذا الإحصاء قريب كما يستدل عليه من الأرقام ثم رحل رفاعة بن زيد الجذامي في نفر من قومه فدفع لرسول الله ﷺ كتابه الذي كان كتبه له ولقومه حين قدم عليه فأسلم . فلما قرئ الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كيف أصنع بالقتلى ؟ فقال رفاعة أنت أعلم يا رسول الله لا يحرم عليك حلالا ولا يحل لك حراماً فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً إلى زيد فرد عليهم كل ما أخذ منهم .

(١) كان دحية من أجل الناس وجهاً وكان جبريل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صوته . أسلم قديماً وشهد المشاهد التي شهد بدر مع رسول الله وبقى إلى خلافة معاوية وشهد اليرموك .

سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل

إسلام الأصم بن عمرو السكبي

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا دومة الجندل في ربيع الأول سنة خمس (يولية سنة ٦٢٦ م) وقد قدم ذكرها .

أما هذه السرية فكانت في شعبان سنة ست (نوفمبر سنة ٦٢٧) أمر رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف أن يتجهز لهذه السرية وقد أصبح وقد أتم بعامة من كرايس سوداء فأدناه رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأقصده بين يديه وعمه بيده . ثم أمر بلالا أن يدفع إليه اللواء ، ثم حمد الله وصلى على نفسه صلى الله عليه وسلم ثم قال : « خُذْهُ يَا ابْنَ عَوْفٍ اغْزُوا جَمِيعًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَلَا تَقُولُوا وَلَا تَقْدِرُوا وَلَا تُمَسُّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيَدًا فَهَذَا اللَّهُ وَسِيرَةُ نَبِيِّهِ فِيكُمْ » فأخذ عبد الرحمن اللواء . وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كلب بدومة الجندل وقال إن استجابوا لك فاسلموا فتزوج ابنة ملعكم . فسار عبد الرحمن بمجيئه وكانوا ٧٠٠ رجل حتى قدم دومة الجندل فكثت ثلاثة أيام بدعومهم إلى الإسلام وقد كانوا أبوا أول ما قدم عليهم أن يعطوا إلا السيف . ثم أسلم في اليوم الثالث (الأصم بن عمرو السكبي وكان نصرانياً) وكان ملكهم ورئيسهم وأسلم معه ناس كثير من قومه وأقام عبد الرحمن بقيتهم بالجزية وتزوج تماضر بنت الأصم وقدم بها للمدينة وفازت بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أم ابنة أبي سلمة .

سرية علي بن أبي طالب

إلى بني سعد بن بكر

خرج علي رضي الله عنه ومعه (١٠٠) رجل إلى بني سعد بن بكر ، في شعبان سنة ست . وكان قد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم ساعون في جمع الناس لإمداد يهود خيبر فأغاروا على نم وشاء كثيرة وهرب الرعاء وساقوا النمل والشاء معهم وكانت ٥٠٠ بعير و ٢٠٠ شاة وقدم علي رضي الله عنه ومن معه للمدينة .

سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة

كانت هذه السرية في رمضان سنة سبت من الهجرة . وسببها أن زيد بن حارثة رضي الله عنه خرج في تجارة

إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (وهذه أول مرة خرج فيها أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في تجارة إلى الشام) . فلما كان بوادي القرى لقيه ناس من فزارة من بني بدر فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم . وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فبعثه إليهم في جيش فأحاطوا بمن وجدوه من بني فزارة فقتلهم وأخذوا (أم قرفة) وهي بنت ربيعة بن بدر الفزاري . وكانت ملكة رئيسة وذات شرف في قومها وكانت عجوزاً كبيرة فأسرها قيس بن الحسّر وقيل ابن سحل فقتلها قتلاً فظيعاً ، ربط رجلها بجبلين ثم ربطها إلى بعيرين حتى شقها . وإنما قتلها كذلك لسبها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لأنها جهزت ثلاثين راكباً من ولدها وولد ولدها . وقالت لهم اغزوا المدينة واقتلوا محمداً . وقدم زيد بن حارثة من وجهه ذلك فصرع باب النبي صلى الله عليه وسلم فقام رسول الله ﷺ إليه وهو يجرح ثوبه حتى اعتنقه وقبله وسأله فأخبره بما ظفر به . ذكر هذه الغزوة الواقدي وذكرها السيد دحلان في الجزء الثاني من كتاب السيرة النبوية . وإني أشك في تفاصيل القصة بهذه الصفة . أشك في اسم قيس هذا الذي أسر أم قرفة فقد قيل : إنه ابن الحسّر وقيل ابن سحل وقيل ابن الحسن ^(١) . وأشك في أن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمثل بامرأة ويقتلها هذا القتل الشنيع مع العلم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المثلة ، وأصى عبد الرحمن بن عوف حين أرسله إلى دومة الجندل فقال : « اغزُوا جَمِيعاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَلَا تَغْلُوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً فَهَذَا اللَّهُ وَسِيرَةٌ نَبِيٌّ فِيكُمْ » .

وليس بين سرية عبد الرحمن بن عوف وسرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة غير شهر واحد . وسأني في سرية عبد الله بن عتيك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة . وعلى كل حال لا يمكن أن يبلغ النبي قتل أم قرفة على هذه الصورة الشنعاء من غير أن يبدى استياء ، لذلك كان ماروي من التمثيل بأم قرفة . مردوداً

سرية عبد الله بن عتيك

لقتل سلام بن أبي الحقيق .

رمضان سنة ٥٦ هـ - ديسمبر سنة ٦٢٧ م

كانت هذه السرية لقتل أبي رافع عبد الله أو سلام بن أبي الحقيق اليهودي وهو من أعداء رسول الله ﷺ

(١) جاء في أسد الغابة « قيس بن الحسّر الكنانى الشاعر » واختلف في اسمه فقيل أيضاً قيس بن سحل وسماء ابن إسحاق مسجراً . وقد أخرج أبو عمر قيس بن الحسّر وذكر فيه أنه غزا مع زيد بن حارثة أم قرفة وقتلها ولم يذكر أنه مثل بها .

الذين حزبوا الأحزاب يوم الخندق وأعان للشركين بالمسال الكثير .

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ هذه الغزوة ، فقد قيل إنها كانت في ذى الحجة سنة خمس بعد الخندق . وفي البخاري قال الزهري بعد قتل كعب بن الأشرف الواقع سنة ثلاث ، وذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في السنة الثالثة في النصف من جمادى الآخرة . أما الواقدي فإنه زعم أن هذه السرية التي وجهها رسول الله ﷺ إلى أبي رافع أو سلام بن أبي الحقيق ، إنما وجهها إليه في ذى الحجة من سنة أربع من الهجرة . والثابت أن سلام بن أبي الحقيق كان من الذين حزبوا الأحزاب في غزوة الخندق ، وغزوة الخندق كانت في السنة الخامسة وكان سلام هذا ممن ذهب إلى خيبر بعد إجلاء بني النضير ثم إنه بعد الخندق أخذ يحرض بني فزارة والقبائل الأخرى ، ولذلك ترجح أن هذه السرية كانت في السنة السادسة كما ذكرها السيد دحلان فقد قال : « إنها كانت في رمضان سنة ست » (شهر ديسمبر سنة ٦٢٧ م) .

خرج إلى رسول الله ﷺ خمسة من الخزرج وهم :

(١) عبد الله بن عتيك (٢) عبد الله بن أنيس (٣) أبو قتادة (٤) الأسود بن خزاعي (٥) مسعود ابن سنان الأسلمي . واستأذنوه في قتل سلام بن أبي الحقيق ، وهو بخيبر لأن الأوس كانوا قد أصابوا كعب بن الأشرف فأراد الخزرج أن لا يكون للأوس فضل عليهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأمروهم صلى الله عليه وسلم بقتله ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة^(١) وأمر عليهم عبد الله بن عتيك . فذهبوا إلى خيبر فكنوا فلما هدأت الرجل والحركة جاءوا إلى منزله وكان في حصن مرتفع فسادنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرهم ، قال عبد الله بن عتيك اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعل أدخل الحصن ، فأقبل حتى دنا من البواب ثم تقنع بثوبه ليخفي شخصه ، كأنه يقضى حاجته مخافة أن يعرف فدخل واختبأ عند باب الحصن ، ثم صعد إليه وكان عبد الله بن عتيك يتكلم اليهودية ، فقدمه أصحابه ليتكلم بكلام أبي رافع ، فاستفتح باب غرفته فرأته امرأته . فقالت : من أنت ؟ قال : جئت أبا رافع هدية . ففتحت له وقالت ذاك صاحبك . فلما رأت السلاح أرادت أن تصبح ، فأشار إليها بالسيف فسكت . قال قتل أبا رافع . لأعرف موضعه فقال من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت فضربت به ضربة وأنا دهش فاعنت شيئاً ، ولم أقتله وصاح أبو رافع . فخرجت من البيت وكنت غير بعيد فقالت امرأته : يا أبا رافع هذا صوت عبد الله بن عتيك . قال : نكلك أملك وأين عبد الله بن عتيك ؟ قال ثم دخلت عليه كأنى أغيبته وغيرت صوتي فقلت : ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ قال لأملك الويل ! إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف فضربت به ضربة أثخنته ولم أقتله فصاح وقام أهله وصاحت امرأته ثم وضعت ظبة السيف في بطنه حتى دخل في ظهره وسمعت صوت العظم فعرفت أني قتلتها .

وفي الطبري : « ولما صاحبت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها السيف ثم يذكر نهي رسول الله ﷺ فيكف يده » .

قال ابن عتيك : فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيت إلى درجة فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقى فصعبتها بهامة ؛ وكان عبد الله بن عتيك سيء البصر ولما علم ابن عتيك أنه قتل أبا رافع أخبر رسول الله ﷺ .

ووقع في بعض الروايات أن الذي قتل أبا رافع عبد الله بن أنيس والصواب ما في صحيح البخاري أن الذي قتله هو عبد الله بن عتيك وفي أسد الغابة « وهو الذي ولي قتل أبي رافع بن أبي الحقيق بيده وكان في بصره ضعف الخ » .

سيرة عبد الله بن رواحة

إلى أسير بن رزام

كانت سيرة عبد الله بن رواحة الأنصاري الخزرجي إلى أسير بن رزام^(١) اليهودي بخيبر في شوال سنة ست من الهجرة (يناير سنة ٦٢٨ م) وسببها أنه لما قتل أبو رافع سلام بن أبي الحقيق أمرت يهود عليها أسيراً فاقترح عليهم طريقة للانتقام من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقروه عليها ؛ وحاصلها أن يذهب إلى غطفان ويجمعهم ويسير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في عقر داره . فسار إلى غطفان فلما بلغه ﷺ وجه عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر في شهر رمضان سرّاً ليستكشف له الخبر فذهب إلى ناحية خيبر ثم عاد فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما سمع ورأى ، وقدم عليه أيضاً خارجة بن حسيل وقال له تركت أسير بن رزام يسير إليك في كتائب يهود فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس له فانتدب له ثلاثون رجلاً فبعث عليهم عبد الله بن رواحة فقدموا عليه فقالوا إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه يستعملك على خيبر ويحسن إليك فطمع في ذلك فشاور يهود فخالفوه في الخروج وقالوا ما كان محمد يستعمل رجلاً من بني إسرائيل قال بلى قد مللنا الحرب . فخرج أسير وخرج معه ثلاثون رجلاً من اليهود مع كل رجل زديف من المسلمين فلما كانوا بقرقرة ندم أسير على مسيرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد الفتك بعبد الله بن رواحة ففطن له وهو يريد السيف فالتصم به عبد الله ثم ضربه بالسيف قطع رجله فضر به أسير بمخرش في يده من شوخط قامه . وفي رواية عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وأهوى أسير بيده إلى سيفي قطعت له (يتضح من ذلك أن أسيراً كان أعزل) فدفعت بميري وقلت غدرأ أي عدو الله مرتين . فزلت فسقت بالقوم حتى انفراد لي أسير فضر به بالسيف فأندرت عامة فخذوه وساقه فسقط عن بغيره ومال أصحاب

(١) أسير بن رزام بهذا الضبط لكن من مؤيد يقول إنه ابن زارم ويكتبه هكذا Osier idn Zarim وهو تحريف .

النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه يقتلهم ولم يفلت منهم غير رجل واحد ولم يصب من المسلمين أحد ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثوه الحديث قال : « حقا قد نجاكم الله من القوم الظالمين » .

سرية كرز بن جابر الفهري

كان كرز بن جابر الفهري رضى الله عنه أحد رؤساء قريش أسلم بعد الهجرة واستشهد عام الفتح وهو الذى خرج رسول الله لطلبه فى غزوة بدر الأولى وقد مر ذكرها .

كانت هذه السرية فى جمادى الأولى سنة ست وسببها أن أناساً من عكل وعرينة^(١) يبلغ عددهم نحو ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام وتلفظوا بكلمة التوحيد وكانوا حين قدموا للمدينة سقماً مصفرة ألوانهم عظيمة بطونهم (قال مستر موير إنهم كانوا مصابين بداء الطحال) .

فقالوا يا رسول الله إنا كنا أهل ضرع (أى ماشية وإبل) ولم نكن أهل ريف وكرهنا الإقامة بالمدينة فلو أذنت لنا فخرجنا إلى الإبل فأمرهم بدود من الإبل^(٢) ومهاراع وأمرهم بالحقق بها ليشربوا من ألبانها وأبوالمها فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة وصحت أجسامهم باتباعهم إشارة رسول الله ﷺ كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعى رسول الله ﷺ وكان عبداً له ، اسمه يسار . وحين قتلوه مثلوا به قطعوا يده ورجله وجعلوا الشوك فى عينيه واستاقوا الدود وحمل يسار ميتاً إلى قباء فدفن هناك . فهؤلاء أعراب قساة غلاظ القلوب يقابلون الإحسان بالإساءة يكرههم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهب لهم للماشية ويرسل معهم الراعى رافقاً بهم ويصف لهم الدواء الشافى لئلا يمرضوا فيأخذون الإبل ويشربون ألبانها وتصح أجسامهم ثم يمحذون النعمة ويكفرون بعد إسلامهم ويقتلون ذلك الراعى الأمين للمسكين ويمثلون به أشنع تمثيل ويسرقون الإبل . جرائم متعددة يقترونها : فهل هؤلاء يستحقون العفو والإحسان والمعاملة الحسنة ؟ كلا بل الحكمة تقضى بقطع دابرهم واستئصال شأفتهم ليكونوا عبرة لمن اعتبر ولئلا يمرؤ بعد ذلك أحد من أمثال هؤلاء اللصوص القتل الخائنين أن يعذب بالإسلام والمسلمين . وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه عليه الصلاة والسلام لما جاءه الصريح بما وقع منهم بعث فى آثارهم خيلاً من المسلمين قريباً من العشرين وأمر عليهم كرز بن جابر الفهري رضى الله عنه فلحقهم فجاءهم فأمر النبي ﷺ بقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ولم يفلت منهم أحد وتركوا فى ناحية الحرة فى الشمس حتى ماتوا .

وأنزل الله فى هؤلاء ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية وهؤلاء كفروا وقتلوا ومبلوا وقطعوا الطريق وبهروا .

(١) عكل : حى من قضاة ، وعرينة حى من بجيلة (٢) حى من الثلاثة إلى المعرة

أمر الحديبية

ذو القعدة ٥٦هـ - (فبراير سنة ٦٢٨م)

الحديبية هي بئر سمي للكان باسمها ؛ وهي قرية متوسطة ليست بالكبيرة وبينها وبين مكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل وبعضها في الحل وبعضها في الحرم .
وسببها أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أنه دخل البيت هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين .

فخرج رسول الله ﷺ من المدينة في ذي القعدة من السنة السادسة (فبراير سنة ٦٢٨ م) معتمراً « زائراً البيت » لا يريد حرباً بعد أن مضى عليه ﷺ ست سنوات بعد الهجرة في المدينة لم يزر فيها مكة ولم يعتمر ولم ينج فاشتاق إليها فخرج في هذه السنة معتمراً واستنفر العرب من البوادي ومن حوله من الأعراب ممن أسلم ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يتعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأبطأ عليه كثير من الأعراب خشية من قريش أن يجاربه فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب وساق معه الهدى (ما يهدى إلى الحرم من النعم) وأحرم بالعمرة بذى الحليفة بعد أن صلى بالمسجد الذي بهاركتين ليأمن الناس حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً للبيت ومعظماً له وأخرج معه زوجته أم سلمة رضي الله عنها ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه للصلاة وأبا رهم حافظاً للمدينة وجملة أصحابه الذين خرجوا معه من ١٤٠٠ إلى ١٦٠٠ وركب رسول الله راحلته القصواء .

أما مارواه ابن إسحاق من أنه ﷺ ساق معه الهدى ٧٠ بدنة^(١) وكان الناس ٧٠٠ رجل فكانت كل بدنة عن عشرة نفر ، فلا بد أن يكون هذا العدد في بدء خروجهم قبل أن ينضم إليه ﷺ من عداهم من الأعراب . ولم يخرج ﷺ معه سلاح إلا سلاح المسافر ، السيوف في القرب^(٢) ، فلما كان بعسفان^(٣) لقيه بشر بن سفيان الكمي ، قال له يا رسول الله هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فخرجوا ومعهم العوذ المطافيل^(٤) قد لبسوا جلود النمر وقد نزلوا بذى طوى يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً . وهذا خالد بن الوليد في خيلهم^(٥) قد قدموا إلى

(١) الهدى ما يهدى إلى الحرم من النعم . والبدنة : ناقة أو بقرة تتحر بمكة . سميت بذلك لأنهم كانوا يسمونها والجمع بدن .

(٢) جمع قراب وهو القمد .

(٣) عسفان بضم العين بين الجحفة ومكة ، وهي من مكة على مرحلتين وهي حد تهامة .

(٤) العوذ : جمع عائد ، وهي الناقة ذات اللبن . والمطافيل : الأمهات التي معها أطفالها والمراد أنهم خرجوا بما ذكر لإرادة طول

المقام وعدم الفرار . (٥) لم يكن خالد بن الوليد قد أسلم خلافاً لما زعمه بعض المؤرخين من أنه كان مع المسلمين وكان مع خالد ٢٠٠ فارس لمنع تقدم المسلمين .

كراع النعم (١) قال رسول الله ﷺ « يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرغوا وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله حتى يظهره الله أو تنفرد هذه الساقلة . ثم قال من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ فقال رجل من أسلم أنا يا رسول الله . فسلك بهم طريقاً وعراً (واسم هذا الرجل حمزة بن عمرو الأسدي) فخرجوا منه بعد أن شق عليهم وأفضوا إلى طريق سهلة عند منقطع الوادي.. قال رسول الله ﷺ للناس قولوا نستغفر الله وتوب إليه قالوا ذلك . فقال والله إنها للرحلة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها .

ثم أمر رسول الله ﷺ الناس فقال اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحضر في طريق على ثنية للرار مهبط الحديبية من أسفل مكة فسلك الجيش ذلك الطريق فلما رأت خيل قريش فترة الجيش قد خالفوا، رجعوا راكضين إلى قريش (ذكر أن فرسان قريش كانوا ٢٠٠ منهم عكرمة بن أبي جهل وكان قائدهم خالد بن الوليد) .
خرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك في ثنية للرار بركت ناقته القصواء فقال الناس خلأت (٢) فقال « ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة لاتدعوني قريش اليوم إلى خطبة يسألوني صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » .

ثم قال للناس انزلوا . فقالوا يا رسول الله ما بالوادي ماء ينزل عليه فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فقتل به في قلب من تلك القلب فقرزه في جوفه نجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بطن (٣) واختلف في من نزل في القلب بسهم رسول الله ﷺ قيل هو سائق بدنه ناجية بن جندب وقيل إنه البراء بن عازب وقيل عبادة بن خالد وفي البخاري عن البراء بن عازب رضى الله عنهما أنه ﷺ جلس على البئر ثم دعا بإيائه فضمض ودعا ثم صب فيها . ثم قال دعوها ساعة فأرووا أنفسهم وركابهم حتى ارتحلوا . وفي حديث جابر عند البخاري ومسلم قال عطش الناس يوم الحديبية وبين يدي رسول الله ﷺ ركوة يتوضأ منها فأقبل الناس نحوه فقال ما بالكم؟ قالوا يا رسول الله ليس عندنا ما نتوضأ به ولا نشرب إلا مافي ركوتك (٤) فوضع يده في الركوة فجعل للاء بفور من بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا وهذه من معجزات رسول الله، وجمع ابن حبان بينهما بأن ذلك وقع في وقتين . وكانت قصة الركوة قبل قصة البئر .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة فكلّموه وسألوه ما الذي جاء به فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمة . ثم قال لهم نحوا بمقال لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش . قالوا بامعشر قريش إنكم تمجلون على محمد إن محمداً لم يأت لقتال ، إنما جاء زائراً لهذا البيت ،

(١) موضع قريب من مكة (٢) بركت من غير علة (٣) أي حتى رووا ورويت إلهم حتى بركت حول الماء لأن عطن الإبل، مباركها . (٤) الركوة : دلو صغير .

فأهملهم وجبههم (أى قابلوهم بما يكرهون) وقالوا وإن كان جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عتوة أبدا ولا تحدث بذلك عنا العرب .

وكانت خزاعة عبيبة نصيح رسول الله ﷺ مسلما ومشركا لا يخفون عنه شيئا كان بمكة .

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص أخا بنى عامر فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا، قال هذا رجل غادر فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه قال له رسول الله ﷺ نحواً مما قال لبديل وأصحابه فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ .

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال إن هذا من قوم يتألمون ^(١) فابشروا الهدى في وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى في قلاته وقد أكل أوباره من طول الجليس عن محله ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاما لما رأى . فقال لهم ذلك . فقالوا له اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك ^(٢) . فنضب الحليس عند ذلك وقال : يامعشر قريش والله ما على هذا حالنا كم ولا على هذا عاقدناكم . أيصد عن بيت الله من جاء معظما له ، والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأفرون بالأحابيش نفرة رجل واحد . فقالوا له : كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به . ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي فقال يامعشر قريش إني قد رأيت ما يلقي منكم من بشتهم إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ وقد عرفتم أنكم والد وأنى وللسوء كان عروة لسبيعة بنت عبد شمس - وقد سمعت بالذى نابكم فجمعت من أطاعنى من قومي ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بتمهم . فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال :

يامحمد أجمعت أوشاب الناس ^(٣) ثم جئت بهم ببشتك (أى أصلك وعشيرتك) لتفضها بهم ؛ إنها قريش قد خرجت معها العوذ للمطافيل قد لبسوا جلود النور يهايدون الله لا تدخلها عليهم عتوة أبداً (تكرر هذا الكلام قد قاله « بشر بن سفيان ») وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً ^(٤) .

وكان أبو بكر الصديق جالسا خلف رسول الله ﷺ فقال له (امصص بظُر اللات ^(٥) أنحن ننكشف عنه؟) يريد ، وهل نحن ننهزم عنه أى نتخلى عنه .

فقال أبو بكر « امصص بظُر اللات » مبالغة منه في سب عروة فإنه أقام معبود عروة وهو صنمه مقام امرأة تحقيرا لمعبوده وعادة العرب الشتم بذلك . وقد ساء أبا بكر قول عروة إن أصحابه ﷺ ينكشفون عنه غداً أى يفرون فقال له ما قال وأجابه بما فيه تحقير له وللمعبود .

(١) أى يتصدون ويظلمون الإله (٢) أى فأ رأيت من محمد مكيدة .

(٣) بمعنى أخلاط الناس (٤) يريد أن أصحابه صلى الله عليه وسلم يفرون عنه غداً (٥) البظُر فى قول أبى بكر رضى الله عنه : قطعة تبقى فى فرج المرأة بعد الختان . وقيل التى تعطىها الحاتنة . واللات : اسم صنم كانت تعبده قريش لأن عروة كان بالمطائف فالات كانت معبوده .

قال عروة بعد أن سمع هذه الإهانة : من هذا يا محمد ؟ قال هذا ابن أبي قحافة . قال أما والله لو لا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ولكن هذه بها .

قال الزهري إن اليد المذكورة هي أن عروة كان يحمل دية فأعانه فيها أبو بكر رضي الله عنه بعون حسن . . .

ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يكلمه والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديد فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ألا تصل إليك ، فيقول عروة ويحك ما أفظك وأغاظك افتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عروة من هذا يا محمد ؟ قال هذا ابن أخيك للمغيرة بن شعبة . قال أي غدر ! وهل غسلت سواك إلا بالأمس .

ولشرح هذا الموقف : قول : المغيرة بن شعبة هو ابن أخي عروة . وقد كان أثناء حديث عروة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً على رأس رسول الله ﷺ ومعه السيف بقصد الحراسة وعليه المغفر^(١) فكان للمغيرة كلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف^(٢) ويقول اكفف يدك عنه ، وكانت عادة العرب أن يتناول الرجل لحية من يكلمه ولا سيما عند الملاطفة يريدون بذلك التحية والتواصل ، وفي الغالب إنما يصنع ذلك النظير بالنظير فربما رأى عروة لمكاته ورفعته في قومه أنه نظير للنبي صلى الله عليه وسلم وما علم حينئذ أنه لا نظير له فاللائق منعه . لكن رسول الله لم يمنعه تأليفاً له .

قال ابن هشام : أورد عروة بقوله هذا (أي غدر وهل غسلت سواك إلا بالأمس) أن للمغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من قتيق قتهايج الحيان من قتيق بنو مالك رهط المقتولين ، والأحلاف رهط المغيرة فودى عروة للمقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح الأمر .

وبعد أن قال عروة ما قال كله رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو مما كلم أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً .

فقام من عند رسول الله ﷺ ورجع إلى أصحابه بمكة وقد بهرهم ما رأى من احترام أصحابه صلى الله عليه وسلم له . رأى أن رسول الله ﷺ لا يتوضأ إلا ابتدر أصحابه وضوءه ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروهم ، بذلك به من وقع في يده وجهه وجلده ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ولا يحدون النظر إليه تعظيماً له ﷺ قال لتريش :

(١) زرد ينسج على قدر الرأس . (٢) وهو ما يكون أسهل القرباب من فضة أو غيرها .

« أى قوم ، فوالله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي . والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً . والله ما ينتخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا نوحاً كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده إجلالاً وتوقيراً وما يمدون النظر إليه تعظيماً له ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشداً فاقبلوها ولقد رأيت قوماً لا يسلون له شيئاً أبداً فروا رأيكم » وقال : إني أخاف أن لا تُنصروا عليه .

فلم يسمع القوم ما قاله عروة بن مسعود وما رغبهم فيه من الصلح فانصرف هو ومن تبعه إلى الطائف ثم أسلم عروة بعد ذلك لما انصرف رسول الله عن ثقيف ثم قتل لما دعاهم إلى الإسلام .

قال ابن إسحاق وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه فما جاء له فعقروا به جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا قتله فتمتنعه الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعث قريش أربعين أو خمسين رجلاً منهم ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً فأخذوا أخذاً فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فمفا عنهم وخلي سبيلهم وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة والنبل ، ثم دعا عمر بن الخطاب ليعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال : « يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدى بن كعب أحد يمنعني . وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها . ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني : عثمان بن عفان ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان ابن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحربهم وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته . فرضى عثمان لأنه كان غائباً من مكة ولم يكن له أعداء بها ثم إنه من بني أمية .

فخرج عثمان إلى مكة فلقبه أبان بن سعيد بن العاص^(١) حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماة قريش فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به . فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبسته قريش عندها .

فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل .

وقيل إن عثمان بن عفان دخل مكة ومعه عشرة من أصحابه بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزوروا أهاليهم ولم يذكروا أسماءهم . وقيل إن قريشاً احتبست عثمان عندها ثلاثة أيام وأشاع الناس أنهم قتلوه وهو العشرة

(١) أبان بن سعيد بن العاص هو ابن عم عثمان أسلم بعد ذلك .

الذين معه . وعلى كل حال أبطأ عثمان رضى الله عنه عن الرجوع قلق عليه المسلمون ، فلما بلغ ذلك الخبر رسول الله ﷺ قال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، أى نقاتلهم .

بيعة الرضوان

دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ^(١) وأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن ينادى الناس إلى البيعة .

قال سلمة بن الأكوع رضى الله عنه : بايعناه وبايعه الناس على عدم الفرار وأنه إما التمتع وإما الشهادة ، وفى رواية : بايعناه على الموت . ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجند بن قيس أخو بني سلمة فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكأنى أنظر إليه لاهقاً يابط ناقته قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس ، وقيل إنه كان يرى بالنفق . وكان أول من بايعه ﷺ أبو سنان الأسدى وهو أخو عكاشة بن محصن رضى الله عنهم .

ولما لم يكن عثمان رضى الله عنه حاضراً بايع عنه النبي ﷺ على تقدير حياته ، فوضع يده اليمنى على يده اليسرى وقال : اللهم هذه عن عثمان فإنه فى حاجتك وحاجة رسولك وفى ذلك إشارة منه إلى أن عثمان لم يقتل . وإنما بايع القوم أخذاً بثأر عثمان جرياً على ظاهر الإشاعة وتثبيتاً وتقوية لهم وقد بايع عثمان بعد رجوعه من مكة وكان عدد الذين بايعوا (١٤٠٠) .

قال تعالى يذكر هذه البيعة فى سورة الفتح (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

تأثير البيعة فى قريش

لما علمت قريش بهذه البيعة خافوا وأشار أهل الرأى فيهم بالصلح على أن يرجع ويعود من قابل فيقيم ثلاثاً معه سلاح الركب ، السيوف فى القرب والقوس .

الصلح

بعث قريش سهيل بن عمرو ^(٢) أخا بنى عامر بن لؤى إلى رسول الله ﷺ وقالوا له : أنت محمدأ فصالحه ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تحدث غنا العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً فلما أقبل سهيل

(١) شجرة هناك من أشجار البمر وهى شجرة الطلح . وقد بلغ عمر رضى الله عنه و خلافته أن ناساً يصلون عند العجرة التى كانت البيعة عندها ويظفون بها فخاف رضى الله عنه من اتساع الأمر وظهور البدعة وأن تابد كالأصنام فأمر بها فقطعت .

(٢) كان سهيل سياسياً قادراً وخطيباً مصقفاً .

قال رسول الله ﷺ قد أراد القوم الصالح حين بعثوا هذا الرجل وطالت المراجعة بينه وبين النبي ﷺ . فلما التأم الأمر بينهما على الصالح على ترك القتال ولم يبق إلا الكتاب وعند ذلك وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال بلى . قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال بلى . قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال بلى . قال : فلام نعملى الدّنية^(١) في ديننا . قال أبو بكر : الزم غرزه^(٢) فأتى أشهد أنه رسول الله قال عمرو أنا أشهد أنه رسول الله . ثم أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله . ألت برسول الله ؟ قال بلى . قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال بلى . أو ليسوا بالمشركين ؟ قال بلى . قال فلام نعملى الدّنية في ديننا ؟ قال أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني فكان عمر يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً .

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل لا أعرف هذا أي الرحمن الرحيم ولكن اكتب باسمك اللهم . فكتبها وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ثم قال اكتب هذا ماصالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولم أصدك عن البيت ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله ﷺ اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله سهيل ابن عمرو . اصطالحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بنير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه وإن بيننا عيبة مكفوفة وإنه لا إسلال ولا إغلال وإنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه (وكان على رضى الله عنه وبعض الحاضرين من المسلمين منهم أسيد بن حضير وسعد بن عباد يعارضون في محو كلمة رسول الله) وتوالت خراقة وقالوا نحن في عقد محمد وعهده وتوالت بنو بكر فقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم وإنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصعابك فأقت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب : السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها . وكتبت نسخة أخرى من هذا العقد لتبقى عند المسلمين لأن سهيلاً قال يكون هذا الكتاب معي وقيل إن الذي كتب النسخة الأخرى محمد ابن مسلمة ولم يكن أحد في القوم راضياً بجميع ما رضى به النبي صلى الله عليه وسلم غير أبي بكر .

وقد جاء في كتاب الصلح « وإن بيننا عيبة مكفوفة » أي أموراً مطوية في صدور سليمة إشارة إلى ترك المؤاخذه بما تقدم بينهم من أسباب الحرب وغيرها وأنه « لا إسلال ولا إغلال » أي لا سرقة ولا خيانة .

(١) أي الحصلة الذمومة .

(٢) أي ركابه . يريد اتبع قوله وفعله ولا تخالفه فاستمار له الفرز كالذي يملك بركاب الراكب ويسير بسيره .

مزاي هذا الصلح

قل النووى عن العلماء « أن المصلحة المترتبة على هذا الصلح هي ماظهر من ثمراته الباهرة وفوائده المتظاهرة التي علمها النبي صلى الله عليه وسلم وخفيت عليهم فحمله ذلك على موافقتهم وذلك أنهم قبل الصلح لم يكتفوا يختلطون بالمسلمين ولا تظهر عندهم أمور النبي صلى الله عليه وسلم كما هي ولا يجتمعون بمن يعلمهم بها مفصلة . فلما حصل الصلح اختلطوا بالمسلمين وجاءوا إلى المدينة وجاء المسلمون إلى مكة وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحوهم وسمعوا منهم أحوال النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته الظاهرة وأعلام نبوته المتظاهرة وحسن سيرته وجبل طريقته وعابنوا بأنفسهم كثيرا من ذلك فمالت أنفسهم إلى الإيمان حتى بادر خاق منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة فأسلموا فيما بين صلح الحديبية وفتح مكة كخالد بن الوليد وعمر بن العاص وغيرهما وازداد الذين لم يسلموا ميلا إلى الإسلام . فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم لما قد تم لهم من الليل » .

وإنا نضيف إلى ذلك أن مزاي هذا الصلح التي غابت عن أصحابه صلى الله عليه وسلم ولم تحف عنه عظمة جدا قد اعترف له صلى الله عليه وسلم في هذه المعاهدة بأنه قوة مستقلة نظير قريش وأن الهدنة توجد للمسلمين فرصة لنشر دينهم في جزيرة العرب بلا معارضة ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم كان واثقا من جهة أخرى من إخلاص أصحابه وجهم له وشدة تمسكهم بالعقيدة الإسلامية فلا ينضمون إلى قريش بينما كان يتوقع إسلام بعض القبائل وفوق ذلك قد سمح له بزيارة مكة لتأدية الفريضة الدينية مع المسلمين في العام القابل والإقامة بها مدة ثلاثة أيام من غير أن يتعرضوا لهم بسوء وبسبب ما جاء في هذه المعاهدة من الزاي ازداد عدد المسلمين زيادة عظيمة فبعد أن كان عدد جيش الحديبية (١٤٠٠) بلغ عددهم عند فتح مكة بعد عامين (١٠٠٠٠) وفي دائرة المعارف الإسلامية « أن محمداً فاز في صلح الحديبية على قريش فوزاً سياسياً باهراً ^(١) » .

لما فرغ رسول الله ﷺ من الصلح وأشهد عليه رجالاً من المسلمين ، أبا بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة ، ورجالا من قريش حويطباً ومكرزاً ، قام إلى هديه فنحروا ثم جلس خلق رأسه وقيل إن الذي حلقه في ذلك اليوم خراش بن أمية بن الفضل الخزاعي وكان حجاباً . فلما رأى الناس أن رسول الله ﷺ قد نحر وحلق توائبوا ينحرون ويحلقون . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرحم الله الحلقين . قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال يرحم الله الحلقين . قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال يرحم الله الحلقين . قالوا فم ظاهرت الترجيح للمحلقين دون المقصرين ؟ قال لم يشكوا .

(1) Encyclopaedia of Islam.

وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية في هديه جلا لأبي جهل في رأسه برة من فضة يفيظ بذلك للشركين وكانت بدنه صلى الله عليه وسلم التي نحرها بالحديبية ٧٠ وفتق رسول الله لحم الهدى على الفقراء، وكانت لإقامته صلى الله عليه وسلم بالحديبية نحو عشرين يوماً .

قال الزهري في حديثه : ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجهه ذلك قافلاً حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ ثم كانت القصة فيه وفي أصحابه حتى انتهى إلى ذكر البيعة فقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَةٌ بِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

واختلف الناس في المراد من الفتح فقال ابن عباس وأنس والبراء بن عازب رضی الله عنهم : الفتح هنا فتح الحديبية . وقيل الفتح المراد هو فتح مكة فنزلت السورة عند مرجعه من الحديبية عدة له بفتحها وعبر فيه بالماضي لتجقق وقوعه .

ونرجح أن الفتح المقصود هو فتح الحديبية لأن هذه الآية نزلت بعد انصرافه منها وهذا الفتح مقدمة لفتح مكة وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم من حديث مجمع بن جارية الأنصاري الأوسى قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها وجدنا رسول الله ﷺ عند كراع النعميم ^(١) وقد جمع الناس وقرأ عليهم (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) قال رجل يارسول الله أو فتح هو ؟ قال : إى والذي نفسى بيده إنه لفتح . وروى موسى بن عقبة والزهري والبيهقي عن عروة بن الزبير قال أقبل النبي ﷺ راجعاً فقال رجل من أصحابه ما هذا بفتح . لقد صدقنا عن البيت وصد هدينا ورد ﷺ رجلين من المؤمنين كانا خرجا إلى فلبه ﷺ قول ذلك الرجل فقال بئس الكلام بل هو أعظم الفتح قد رضى للشركون أن يدفعوك بالراح عن بلادهم ويسألوك القضية ويرغبوا إليكم في الأمان ولقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح . أنسيتم يوم أخذ إذ تصعدون ولا تلون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم . أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ؟ قال المسلمون صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح والله ياتى الله ما فكرنا فيها فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وأمره منا .

وصارت تلك الشجرة التي وقعت عندها البيعة يقال لها « شجرة الرضوان » وبلغ عمر بن الخطاب في خلافته أن ناساً يصلون عندها فتودعهم وأمر بها قطعت خوف ظهور البدعة .

(١) هو موضع أمام عفان : بناحية الحجاز بين مكة والمدينة .

تنفيذ المعاهدة

قد راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفيذ هذه المعاهدة بدقة فكان في مدة الصلح يرد الرجال للمهاجرين ولا يرد النساء بعد الامتحان وكان الامتحان أن تستحلف المرأة للمهاجرة أنها ما هاجرت ناشراً ولا هاجرت إلا لله ورسوله . قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ فلما هاجرت إليه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضى الله عنها وكانت أسلت بمكة وبايت قبل أن يهاجر ﷺ ثم خرجت في مدة الصلح مهاجرة ماشية على قدميها من مكة إلى المدينة وصحبت رجلاً من خزاعة وهي أخت عثمان ابن عفان لأمه - لم يردها النبي صلى الله عليه وسلم لأن الشرط يقضى برجوع الرجال فقط . ولما خرج أخوها عماره والوليد في ردها بالعهد ، أخبرها رسول الله بأن النساء المؤمنات لا يرجعن وأن الشرط في الرجال فقط وأن النساء يمتحن فرجعا إلى مكة وأخبرا قريشاً بذلك فرضوا به .

ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم أباً بصير^(١) فذهب - بعد أن قتل خنيساً الذي كان جاء في طلبه - إلى محل في طريق الشام يمر به ذوو الميرة واجتمع إليه جمع من المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة فكانوا يتسللون إليه وانفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو الذي رده صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وخرج من مكة في سبعين راكباً أسدوا فلتقوا بأبي بصير وكرهوا أن يقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدة الهدنة خوفاً من أن يردم إلى أهلهم وانضم إليهم ناس من غفار وأسلم وجهينة وطوائف من العرب ممن أسلم حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل قطنوا مارة قريش لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ولا تمر بهم غير إلا أخذوها حتى كتبت قريش له صلى الله عليه وسلم تسأله بالأرحام إلا آوام ولا حاجة لهم بهم فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي جندل وأبي بصير أن يقدما عليه وأن من معهم من المسلمين يأتقيا ببلادهم وأهلهم ولا يتمرضوا لأحد من بهم من قريش ولا لميرم فقدم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما وأبو بصير مشرف على اللوت لمرض حصل له فأت وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده يقرأه فدفعه أبو جندل مكانه وجعل عند قبره مسجداً وقدم أبو جندل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ناس من أصحابه ورجع باقيهم إلى أهلهم وأمنت قريش على ميرم وتحقق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية « سيحمل الله لأبي جندل وأصحابه فرجاً ومخرجاً » .

ولما أمن الكفار القتال اختلطوا بالمسلمين فأثر فيهم الإسلام فأسلم كثير منهم . وكان أبو بكر الصديق يقول ، ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد ﷺ وربه . والعباد يعجلون والله لا يعجل لمجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أريد .

(١) أبو بصير ، اسمه عتبة بن أسيد بن جارية الثقفي ، حليف بني زهرة .

- ٣٦٢ -

رسل النبي ﷺ

إلى الملوك والأمراء

يدعومهم إلى الإسلام

قبل أن نذكر كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء يجدر بنا أن نلقي نظرة على حالة الإمبراطورية الرومانية ودولة الفرس .

كانت الحروب ناشبة بين الإمبراطورية الرومانية والفرس في سنة ٦٢١ م انتصرت جيوش الفرس واستولت على الشام ومصر وآسيا الصغرى وذلك قبل الهجرة بسنة . وكان الفرس وقتئذ يهددون القسطنطينية وأخيراً ظهر هرقل وأصر على إعادة مجد دولته وفي زمن الهجرة (سنة ٦٢٢ م) كان الإمبراطور الروماني يطارد المغيرين من آسيا الصغرى . وفي الوقعة الثانية من وقائعه سارت جيوشه إلى قلب بلاد الفرس نفسها . وفي أثناء السنوات الثلاث التي كان فيها يسترد هرقل مجد الإمبراطورية كان رسول الله ﷺ في نزاع مع قريش وأعقب ذلك حصار الفرس للقسطنطينية الذي كان قبل حصار المدينة في غزوة الأحزاب بنصف سنة (يوليو سنة ٦٢٦ م) وفي الوقعة الثالثة والى هرقل انتصاره السابق فانتصر انتصاراً تاماً في أول ديسمبر سنة ٦٢٦ م في وقعة نينوى وبذلك انكسرت جيوش الفرس وتشتت شملهم وفي التاسع والعشرين من هذا الشهر فر كسرى إلى عاصمة ملكه . وفي فبراير سنة ٦٢٨ م قتله ابنه (شيرويه) واستولى على العرش وعقد معاهدة صلح مع الإمبراطور الروماني على أن تبقى حدود الدولتين على ما كانت عليه من قبل وفي حوالى هذا الوقت كان النبي صلى الله عليه وسلم يعقد صلح الحديبية مع رؤساء قريش وفي ربيع هذه السنة خرج هرقل لزيارة القدس .

فلما رجع رسول الله من صلح الحديبية ، ورأى سرعة إسلام الأفراد والقبائل ، وجد أنه قد آن الوقت لتعميم الدعوة إلى الإسلام في خارج جزيرة العرب . فاختار لذلك الغرض رسله من تجار المسلمين الذين سبق أن زحلوا إلى البلاد التي يريد دعوة ملوكها إلى الإسلام ممن يعرفون عاداتهم .

خاتم رسول الله ﷺ

قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أراد إرسال كتبه إلى الملوك يدعومهم فيها إلى الإسلام إنهم لا يقرءون الكتاب إلا إذا كان مختوماً فاتخذ صلى الله عليه وسلم خاتماً من فضة وكان نقشه ثلاثة أسطر : (محمد) سطر (رسول) سطر (الله) سطر والأسطر الثلاثة تقرأ من أسفل إلى فوق فمحمد آخر الأسطر . ورسول في الوسط والله فوق . وكانت الكتابة مقلوبة لتكون على الاستواء إذا ختم به فكان ذلك الخاتم في يده صلى الله عليه وسلم

ثم في يد أبي بكر ثم في يد عمر ثم في يد عثمان رضى الله عنهم حتى وقع في بئر أريس في السنة التي قتل فيها عثمان رضى الله عنه فالتمسوه ثلاثة أيام فلم يجدوه .

كتب رسول الله ﷺ

كان ﷺ يفتتح أكثر كتبه بلفظ « من محمد رسول الله إلى فلان » وربما افتتحها بلفظ « أما بعد » وربما افتتحها بلفظ « هذا كتاب » وربما افتتحها بلفظ « سلم أنت » وكان يصرح في الغالب باسم المكتوب إليه في أول المكتابات وربما اكتفى بشهرته فإن كان المكتوب إليه ملكا كتب بعد ذكره اسمه « عظيم القوم الفلانيين » وربما « كتب صاحب ملكة كذا » . وكان يعبر عن نفسه ﷺ في أثناء كتبه بلفظة الأفراد مثل « أنا » و « لى » و « جاني » و « وفد على » وما أشبه ، وربما أتى بلفظ الجمع مثل « بلغنا » و « جاءنا » نحو ذلك . وكان يخاطب المكتوب إليه عند الأفراد بكاف الخطاب . مثل « لك وعليك » وتاء المخاطب . مثل « أنت قلت كذا وفلت كذا » وعند الثنية بلفظها مثل : « أنما ولكما وعليكما » وعند الجمع بلفظه مثل « أنتم ولكم وعليكم » وما أشبه ذلك . وكان يأتي في صدور كتبه بالسلام ، فيقول في خطاب المسلم « سلام عليك » وربما قال : « السلام على من آمن بالله ورسوله » وفي خطاب الكافر « سلام على من اتبع الهدى » وربما أسقط السلام من صدر الكتاب . وكان يأتي في صدور الكتب بالتحميد بعد السلام . فيقول : « فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو » وربما تركه . وقد يأتي بعد التحميد بالشهد وقد لا يأتي به . وكان يتخلص من صدر الكتاب إلى المقصود تارة بأما بعد وتارة بغيرها . وكان يختم كتبه بالسلام تارة ، فيقول في خطاب المسلم « والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » وربما اقتصر على السلام . ويقول في خطاب الكافر « والسلام على من اتبع الهدى » وربما أسقط السلام من آخر كتبه .

- ٢٦٤ -

١ - كتاب رسول الله ﷺ

إلى هرقل (Heraclius)

كان إرسال الكتاب إلى هرقل سنة ست من الهجرة بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من الحديبية وكان وصوله إليه في الحرم سنة سبع وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم دحية بن خليفة الكلبي أن يدفعه إلى عظيم بصرى وهو الحارث ملك غسان ليدفعه إلى هرقل وكان هرقل قد نذر أنه إذا ظهر على الفرس وأخرجهم من بلادهم زار القدس حاجاً ماشياً على قدميه شكراً لله . فخرج في خريف سنة ٦٢٨ م (السنة السابعة من الهجرة) وفاء بنذرته . وفي أثناء سفره سلم إليه حاكم بصرى كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وكان دحية لما انتهى إلى الحارث أرسل معه عدى بن حاتم ليوصله إلى هرقل .

وهذا نص الكتاب :

(بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من أتبع الهدى أما بعد . أسلم تسلم . وأسلم يوثق الله أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك ^(١)) عن عبد الله بن عباس قال ^(٢) : « حدثني أبو سفيان بن حرب قال : كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله لم نأمن ألا نجد أماناً فخرجت في نفر من قريش تجار إلى الشام وكان وجه متجرفاً منها غزاة قدمنها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس وأخرجهم منها وانزع له منهم صليبه الأعظم وكانوا قد استلبوه إياه فلما بلغ ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ له وكانت حصن منزله خرج منها يمشى على قدميه متشكراً لله حين رد عليه مارد ليصلي في بيت المقدس وتبسط له البسط وتلقى عليها الرياحين . فلما انتهى إلى إيلياء وقضى فيها صلاته ومعه بطارقه وأشراف الروم . أصبح ذات غداة مهموماً يقلب طرفه إلى السماء ، فقال له بطارقه والله لقد أصبحت أيها الملك الغداة مهموماً . قال أجل . أريت في هذه الليلة أن ملك الختان ظاهر . قالوا أيها الملك : ما نعلم أمة تحتن إلا يهود وهم في سلطانك وتحت يدك فابث إلى كل من لك عليه سلطان في بلادك فره فليضرب أعناق كل من تحت يده من يهود واسترح من هذا الهم . فوافقه لإنهم لفي ذلك من رأيهم يدبرونه إذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده وكانت للملك تهادى الأخبار بينها قال أيها الملك إن هذا الرجل من أهل العرب من أهل النشاء والإبل يحدث عن أمر عجيب حدث ببلادهم فسله عنه فلما انتهى به رسول صاحب بصرى إلى هرقل قال هرقل لترجمانه : سله ما كان هذا الحدث الذي كان

(١) الأكار هو الفلاح . والمراد إثم رعاك الذين يذبحونك وينقادون لأمرك (٢) راجع العلوي الجزء الثالث .

بيلاده ؟ فسأله : فقال خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي قد انبىعه ناسن وصدقوه وخالفه ناس . وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة فتركهم على ذلك . قال فلما أخبره الخبر ، قال جردوه فجدوه فإذا هو مخنون . فقال هرقل هذا والله الذي أريت لا ماتقولون . أعطوه نوبه . ثم دعا صاحب شرطته فقال له قلب لي الشام ظهراً وبطناً حتى تأتيني برجل من قوم الرجل يعني النبي صلى الله عليه وسلم .

قال أبو سفيان : فوالله إنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته فقال أنتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز ؟ قلنا نعم . قال انطلقوا بنا إلى الملك فانطلقنا معه فلما انتهينا إليه قال : أنتم من رهط هذا الرجل ؟ قلنا نعم . قال فأياكم أمس به رحماً ؟ قلت أنا . قال أبو سفيان : وإيم الله مارأيت من رجل أرى أنه كان أنكر من ذلك الأغلف يعني هرقل . فقال : أدنه فأقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي . ثم قال : إني سأسأله فإن كذب فردوا عليه ، فوالله لو كذبت ماردوا عليّ ولكني كنت امرأ سيداً أنكرم عن الكذب وعرفت أن أيسر مافي ذلك إن أنا كذبت أنه يحفظوا ذلك عليّ ثم يحدثوا به عني ، فلم أكذب . فقال أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعى مايدعى . قال فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره . وأقول له أيها الملك مايهلك من أمره ؟ إن شأنه دون مايبغلك فجعل لا يلتفت إلى ذلك . ثم قال : أنبئني عما أسألك عنه من شأنه . قلت سل عما بدالك . قال كيف نسبه فيكم ؟ قلت محض أوسطنا نسباً . قال فأخبرني هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما قال فهو يتشبه به ؟ قلت لا . قال : فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟ قلت لا . قال : فأخبرني عن أتباعه منكم من هم ؟ قال قلت الضعفاء والمساكين والأحداث والغلمان والنساء . وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد . قال : أخبرني عن تبعه أيحبه ويلزمه أم يقلبه ويفارقه ؟ قال قلت ماتبعه رجل ففارقه . قال : أخبرني كيف الحرب بينكم وبينه ؟ قال قلت سجال يبال علينا ونال عليه . قال فأخبرني هل يغدر ؟ فلم أجد شيئاً مما سألتني عنه أعجزه فيه غيرها . قلت لا ونحن منه في هدنة ولا نأمن غدرة . قال فوالله ماالتفت إليها مني ثم كر على الحديث .

قال سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً . وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا . وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت أن لا . وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان . وسألتك عن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقلبه ويفارقه ، فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه . وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا . فإني كنت صدقتني عنه ليعاقبني على ماتحت قدمي هاتين ولوددت أني عنده فأغسل قدميه . انطلق لسألك . قال فعمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدي بالأخرى وأقول : أي عباد الله لقد أمر أمر ابن أبي

كبشة^(١) أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام . قال وقدم عليه كتاب رسول الله ﷺ . فأخذ الكتاب فجعله بين نخذه وخاصرته .

وفي البخارى أن قيصر لما صار إلى حمص أذن لعظماء الروم في دسكرة له ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع قال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبي فخاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت ، وقالوا أتدعوننا أن نترك النصرانية ونصير عبيد الأعرابي ؟ فلما رأى ثورتهم وأيس من إيمانهم قال ردوهم على وقال: إني قلت مقاتلي أختبر بها شدتكم هل دينكم قد رأيتم . فسجدوا له ورضوا عنه . اهـ فلم يسلم هرقل .

وجميع المصادر الأجنبية تنكر هذه المحاورات التي جرت بين هرقل وأبي سفيان عما يدل على ميله إلى الإسلام لأنه كان عريقاً في المسيحية متمسكاً بها فلا يتصور أن يقول لأبي سفيان « لئن كنت صدقتني عنه ليغلبني على ما تحت قدمي هاتين ولوددت أني عنده أغسل قدميه » ولا يمكن أن يدعو قومه إلى اتباع النبي وترك النصرانية وهو رئيسها في وقت كان يحتفل فيه باسترداد الصليب الأعظم من الفرس .

٢ - كتاب رسول الله ﷺ

إلى الحارث بن أبي شمر الفسائي

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الفسائي وكان أميراً بدمشق من جهة قيصر ومعه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا نصه :
(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك) وختم الكتاب .
قال شجاع فأنهيت فوجدته مشغولاً بتهيئة الضيافة لقيصر وقد جاء من حمص إلى إيلياء حيث كشف الله عنه جنود فارس شكراً لله تعالى .

قال شجاع فأقمت على بابي يومين أو ثلاثة فقلت لحاجبه : إني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حاجبه لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا وجعل حاجبه يسألني عنه صلى الله عليه وسلم وما يدعو إليه فكنت أحدثه

(١) أمير أمراء بني كلب : أي عظم أمرهم هذا . وفي رواية: ما زلت مرعوباً من محمد حتى أسلمت ، وقوله ابن أبي كبة : قيل : إنه جد لأمته بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يكنى أبا كبة وكان خالاً قريشاً في عبادة الأصنام فشبهوا به النبي صلى الله عليه وسلم لمخالفته إياهم في عبادتها .

فريق حتى يغلبه البكاء ويقول إني قرأت في الإنجيل وإني أجد صفة هذا النبي بعينه وكنت أظنه يخرج بالشام فأراه خرج بأرض القرظ^(١) فأنا أو من به وأصدقه وأنا أخاف من الحارث بن أبي شمر أن يقتلني . وكان هذا الحاجب رومياً اسمه مري .

قال شجاع وكان يكرمني ويحسن ضيافتي ويخبرني باليأس من الحارث ويقول وهو يخاف قيصر . قال فخرج الحارث يوماً فوضع التاج على رأسه فأذن لي عليه فدفت إليه الكتاب قرأه ثم رمى به وقال من ينتزع مني ملكي ؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن جثته . على الناس . فلم يزل جالساً حتى الليل وأمر بالخليل أن تنزل ثم قال أخبر صاحبك بما ترى . وكتب إلى قيصر يخبره بخبري فصادف قيصر يابلياء وعنده دحية رضى الله عنه وقد بعثه رسول الله ﷺ فلما قرأ قيصر كتاب الحارث كتب إليه ألا تسر إليه والله عنه ووافني يابلياء^(٢) . ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبره قال « باد ملكه » ويفهم من هذا أنه لم يسلم .

٣ - كتاب رسول الله ﷺ

إلى كسرى عظيم الفرس

(Cbosroes Eparw'z)

كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى أبرويز بن هرمز وبعث بالكتاب مع عبد الله بن حذافة السهمي لأنه كان يتردد على كسرى كثيراً وهذا نص الكتاب :

(بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً . أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم الجوس) أى إثم أتباعك .

فترى كسرى كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله « مرق الله ملكه » .

ويلاحظ في هذا الكتاب أن النبي قال فيه « وأنى رسول الله إلى الناس كافة » وفي هذا رد على من زعم من المستشرقين وغيرهم أن محمداً أرسل إلى العرب فقط ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة سبأ .

ثم كتب كسرى إلى أمير له باليمن يقال له « باذان » أن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عنك جليدين فليأتياى به . فبعث « باذان » قهرمانه وهو « بابويه » . وكان كاتباً حاسباً بكتاب فارس وبعث معه رجلاً

(١) أى بأرض العرب ، والقرظ : شجر يدعى بورقه وثمره عند العرب .

(٢) قوله والله عنه : أى تشاغل عنه ، وليلياء بيت المقدس ومعناه بالعبرانية بيت الله Aelsi Capitolina

من الفرس يقال له « خرخسرة » وكتب معها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن ينصرف معها إلى كسرى وقال لبابويه : أتت بلد هذا الرجل وكله وأتني بخبره فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجلا من قريش بنخب من أرض الطائف فسألام عنه فقالوا هو بالمدينة . واستبشروا بهما وفرحوا وقال بعضهم لبعض أبشروا قد نصب له كسرى ملك الملوك . وكفيم الرجل فخرجا حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه بابويه . قال إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثني إليك لتتطلق معي فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفه عنك وإن أبيت فهو من قد علمت فهو مهلكك ومهلك قومك وخرب بلادك . ودخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما فكره النظر إليهما ثم أقبل عليهما فقال : ويلكما من أمركما بهذا ؟ قالوا ربنا . يعنينا كسرى قال رسول الله : لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي . ثم قال لهما ارجعا حتى تأتيا غداً وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه (شيرويه) فقتله في شهر كذا وكذا ليلة كذا وكذا بعد ماضى من الليل كذا وكذا .

قال الواقدي : « قتل شيرويه أباه كسرى ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى من سنة سبع لست ساعات مضت منها » .

فدعاهما فأخبرهما فقالا هل تدري ما تقول إنا قد شئنا عليك ما هو أيسر من هذا أفنكتب هذا عنك ونخبره بذلك ؟ قال نعم أخبراه ذلك عني وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهي إلى منتهى الخلف والخافر وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ماتحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء . ثم أعطى « خرخسرة » منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك فخرجا من عنده حتى قدما على باذان قال والله ما هذا بكلام ملك وإني لأرى الرجل نبياً كما يقول ولتنتظرن ما قد قال فإئن كان هذا حقاً ما فيه كلام ، إنه لنبي مرسل . وإن لم يكن فسرى فيه رأينا .

إسلام باذان

لم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه وهو :

« أما بعد فإني قتلت كسرى ولم أقتله إلا غصباً لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم وتجميرهم في ثورهم فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة من قبلك وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه » فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال إن هذا الرجل لرسول فأسلم وأسلمت الأبناء معه من فارس من كان منهم باليمن فكانت حمير تقول لخرخسرة ذو المعجزة للمنطقة التي أعطاه إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنطقة بالسان حمير للمعجزة فبنوه اليوم ينسبون إليها خرخسرة ذو المعجزة . وقد قال بابويه لباذان ما كلمت رجلاً قط أهيب عندي منه . فقال له باذان هل معه شرط ؟ قال لا .

- ٢٦٩ -

ولما أسلم باذان ولاء النبي صلى الله عليه وسلم على مخاليف اليمين وكان منزله بصنعاء دار مملكة التبابعة وبقي حتى مات بعد حجة الوداع فولى النبي صلى الله عليه وسلم ابنه (شهر) بن باذان على صنعاء وولى على كل جهة واحداً من الصحابة رضوان الله عليهم .

ثم ملك الله المسلمين ملك كسرى وخزائنهم وأموالهم في خلافة عمر رضى الله عنه ومزقهم الله كل ممزقاً تحقياً لدعوته صلى الله عليه وسلم .

وقد أنكر الأستاذ نورث (C. R. North) في كتابه الذى أسماه موجزاً عن الإسلام (An outline of Islam) طبعة سنة ١٩٣٤ ص ٣٤ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل كتاباً إلى إمبراطور الروم وآخر إلى إمبراطور الفرس وزعم أن ذلك ليس له أساس تاريخي . وهكذا ينسكروا مؤرخو الفرنجة حتى الحقائق الثابتة .

٤ - كتاب رسول الله ﷺ

إلى المقوقس عظيم القبط^(١)

سنة ٥٧ هـ - ٦٢٨ م

بعث رسول الله حاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه إلى المقوقس . وذلك أنه ﷺ عند منصرفه من الحديبية قال أيها الناس أيكم ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر وأجره على الله؟ فوثب إليه حاطب بن أبى بلتعة وقال أنا يا رسول الله فقال : بارك الله فيك يا حاطب وهذا نص الكتاب :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الْمُقَوْسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ^(٢) أَسْلِمْتَ تَسْلَمَ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ نَوَلَيْتَ فَعَلَيْكَ إِنْ لَمْ تُكَلِّ الْقِبْطِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ وختم الكتاب .

وهذا الكتاب محفوظ بدار الآثار في الآستانة . قيل عثر عليه عالم فرنسي في دير بمصر قرب أخميم في زمن سعيد باشا .

(١) اسم المقوقس باللغة القبطية Pka .chios ومعنى المقوقس مطول البناء . وهذا لقب كل من ملك مصر وكان اسم هذا المقوقس « جرجس بن ميناء » .
(٢) أى بدعوته وهى كلمة الشهادة التى يدعى إليها أهل الملل الكافرة .

فسار حاطب بالكتاب حتى قدم على المقوقس إلى مصر فلم يجده فذهب إلى الاسكندرية وأعطاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فضمه إلى صدره وجعله في حق عاج ودعا كاتباً له بالعربية يكتب بالعربية فكتب : (إلى النبي صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً قد بقي وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام) وذكر له ما كان من إكرامه لحاطب وقيل إنه دفع له مائة دينار وخمسة أثواب ودعاه رجلاً عاقلاً فلم يجد بمصر أحسن ولا أجمل من مارية (مريم) وأختها سيرين وها من أهل حفن من كورة أنصنا ، قرية بصعيد مصر ^(١) فبعث بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهدى له بغلة وعسلاً من بنها . وقيل بعث له غير ذلك عشرين ثوباً من قباطى مصر وطيباً وعوداً ومسكاً . ولكنه لم يسلم وقد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الهدايا ، فأخذ مارية لنفسه ، وأهدى سيرين لحسان بن ثابت وهى أم عبد الرحمن بن حسان . والبغلة تسمى « اللبل » وكانت شهباء ولم يكن فى العرب يومئذ بغلة غيرها ودعا فى غسل بنها بالبركة . وقد ذكر المرحوم حنفى ناصف بك أصناف الهدايا التى أرسلها المقوقس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى : ^(٢)

- ١ - مارية بنت شمعون وكانت أمها رومية .
- ٢ - جارية أخرى يقال لها سيرين ولكنها أقل جلالاً من مارية .
- ٣ - جارية أخرى يقال لها قيسر .
- ٤ - جارية سوداء يقال لها بريرة .
- ٥ - غلام أسود يقال له هابو .
- ٦ - بغلة شهباء وهى التى سميت بلبل .
- ٧ - فرس مسرج ملجم وهو الذى سمي بميمون .
- ٨ - حمار أشهب وهو الذى سمي ببعفور .
- ٩ - مربعة فيها مكحلة ومراة ومشط وقارورة دهن ومقص وسواك .
- ١٠ - جانب من غسل بنها .

(١) جاء فى الحديث الشريف : « أهدى المقوقس إلى النبي صلى الله عليه وسلم مارية من حفن من رستاق أنصنا » وفى كتاب الانتصار لابن دقاق :

« وأنصنا بلدة قديمة بها آثار عظيمة وكان مقياس صغير يقاس به ماء النيل وبعضه باق إلى الآن وهى على ضفة النيل الشرقية قالة الأشمونين - قال : إن الأشمونين ذات كيمان عظيمة وإن بانيتها أشموم بن مصر ونقل عن القبط أن أشموم بنى سرداباً تحت الأرض من الأشمونين إلى أنصنا » وقرية الأشمونين بمحافظه أسيوط . (٢) راجع مجلة الهلال السنة ٤١ الجزء الأول ص ٧٨ .

١١ - مثقال من الذهب

١٢ - عشرون ثوباً من قباطى مصر

١٣ - جانب من العود والند^(١) والمسك

١٤ - قدح من قوارير

ويقال إنه كان من ضمن الهدية طيب فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « ارجع إلى أهلك بمن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع »
وقد أسلمت مارية قبل أن تصل إلى المدينة هي وسيرين بدعوة حاطب بن أبى بلتعة

مارية القبطية

وصلت مارية إلى المدينة سنة ٨ هـ

كان رسول الله يعجب بمارية القبطية وكانت بيضاء جمدة جميلة فأنزله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأختها على أم سليم بنت ملحان فأسامتا فوطىء مارية بالملك وحولها إلى مال له بالعارية كان من أموال بنى النضير فكانت فيه في الصيف وفي خرافة النخل فكان يأتيها هناك وكانت حسنة الدين ووهب أختها سيرين لحسان ابن ثابت الشاعر فولدت له عبد الرحمن وولدت مارية لرسول الله غلاماً فسماه إبراهيم . وتوفيت في خلافة عمر سنة ١٦ هـ ودفنت بالبقيع وكان عمر يجمع الناس بنفسه لشهود جنازتها وصلى عليها

إبراهيم بن رسول الله ﷺ

لما ولد إبراهيم علق عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة يوم سابعه وحلق رأسه فتصدق بزنة شعره فضة على المساكين وأمر بشعره فدفن في الأرض وكانت قابلة مارية سلمى مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم نفرت إلى زوجها أبى رافع مولى رسول الله فأخبرته بأنها قد ولدت غلاماً فجاء أبو رافع^(٢) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبشره فوهب له عبداً وغار نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد عليهن حين رزق منها الولد . كانت ولادة إبراهيم في ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة (إبريل سنة ٦٣٠ م) ولد بالعالية وتنافس في نساء الأنصار أيتن ترضعه فدفعه رسول الله إلى بريدة أم بنت المنذر بن زيد بن لبيد بن خدش بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار وزوجها البراء بن أوس بن خالد فكانت ترضعه .

(١) الند : الطيب ، غير عربى . (٢) اسمه إبراهيم ، مولى رسول الله وكان للعباس رضى الله عنه فوهبه للنبي صلى الله عليه وسلم وكان إسلامه بمكة مع إسلام أم الفضل ولما بعث النبي بإسلام العباس ، أعقبه وزوجه مولاته سلمى وشهد فتح مصر . تولى خلافة على

ه - كتاب رسول الله ﷺ

إلى النجاشي أصحمة

التجأ المهاجرون الأولون إلى الحبشة فأكرمهم النجاشي وبقوا هنالك آمنين من اضطهاد قريش ولما هاجر رسول الله إلى المدينة عاد أربعون من المهاجرين والتحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وبقى منهم في الحبشة نحو خمسين أو ستين تحت حماية النجاشي وقد حمل عمرو بن أمية الضمري رسالتين إليه يدعوه في إحداها إلى الإسلام وفي الأخرى يأمره أن يزوجه أم حبيبة^(١) وهذه صورة كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي الذي يدعوه فيه إلى الإسلام :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ الْأَصْحَمِ مَلِكِ الْحَبَشَةِ . سَلَّمَ أَنْتَ^(٢) فَإِنِّي أَحَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ ، لِلَّهِ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّمُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْبَتُولِ الطَّيِّبَةِ الْحَصِينَةِ^(٣) فَحَمَلَتْ بِعِيسَى مِنْ رُوحِهِ وَنَفَخَ كَمَا خُلِقَ آدَمَ بِيَدِهِ وَنَفَخَ وَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالْمَوَالَةِ عَلَى طَاعَتِهِ وَأَنْ تَتَّبِعَنِي وَتُؤْمِنَ بِالَّذِي جَاءَنِي فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ ابْنَ عَمِّي جَعْفَرًا وَفَرًّا مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَإِذَا جَاءُوكَ فَأَقْرِمْهُمْ وَدَعِ التَّجْبُرَ فَإِنِّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ بَلَّغْتُ وَنَصَحْتُ فَاقْبَلُوا نُصِيحِي وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهَدْيَ ﴾ ..

فلما وصل إليه الكتاب وضعه على عينيه ونزل عن سريره فجلس على الأرض ثم أسلم وكتب الجواب للنبي صلى الله عليه وسلم وهذا هو :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ . مِنَ النَّجَاشِيِّ الْأَصْحَمِ بْنِ أَبِي جَرٍّ : سَلَامٌ عَلَيْكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي هَدَانِي إِلَى الْإِسْلَامِ . أَمَا بَعْدَ فَقَدْ بَلَّغْتُ كِتَابَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا ذَكَرْتَ مِنْ أَمْرِ عِيسَى فُورَبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ عِيسَى مَا يَزِيدُ عَلَى مَا ذَكَرْتَ . وَقَدْ عَرَفْنَا مَا بَعَثْتَ بِهِ إِلَيْنَا وَقَدْ قَرِينَا ابْنَ عَمِكَ^(٤) وَأَصْحَابَهُ فَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ صَادِقًا مُصَدِّقًا وَقَدْ بَايَعْتُكَ وَبَايَعْتَ ابْنَ عَمِكَ وَأَسْلَمْتُ عَلَى يَدَيْهِ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَرْسَلْتُ إِلَيْكَ بَابِي أَرْهَأُ ابْنَ الْأَصْحَمِ بْنِ أَبِي جَرٍّ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَإِنْ شِئْتَ أَنْ آتِيكَ فَطَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ^(٥) . »

(١) أم حبيبة بنت أبي سفيان . كانت هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيدة بن جحش . ماتت بالحبشة لصرايا ثم تزوجها رسول الله كاسيًا .

(٢) أي أنت سالم لأن السلم بمعنى السلامة (٣) أي العقيقة (٤) يعني جعفر بن أبي طالب (٥) راجع ابن إسحاق .

قال ابن إسحاق « وذكر لي أن النجاشي بعث ابنه في ستين من الحبشة في سفينة فإذا كانوا في وسط البحر غرقت بهم سفينتهم فهلكوا » .
وهذا الكتاب الذي أرسله النجاشي يؤيد إسلامه صراحة وأنه يرى في عيسى عليه السلام ما يراه الإسلام

إسلام النجاشي

إن رواية ابن إسحاق صريحة بأن النجاشي أحسمة أسلم . وقد قرأ جعفر بن أبي طالب عليه سورة مريم وقول عيسى : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ ﴾ الآية . وفي هذه الآية نص عيسى عليه السلام على إثبات عبوديته وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ آخِذْهُ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لَهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وفي قوله عيسى بن مريم إشارة إلى أنه ولد هذه المرأة وابنها لا أنه ابن الله . وقال عز شانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

وقد شك بعضهم في إسلام النجاشي لكن المصادر التاريخية المهمة تصرح بإسلامه^(١) وفي قول عمرو بن العاص أنه بايع النجاشي على الإسلام وسيأتي ذكر ذلك في موضعه ولكنه كان يخفى إسلامه لأن أمته كانت مسيحية فخشي أن يثوروا عليه .

ومما يقوى إسلام النجاشي أنه كان مسيحياً بنسبورياً^(٢) ومذهب نسطور قائم على التوحيد وينكر ألوهية المسيح فمن ذلك قوله (لا تقولوا مريم أم الله لأنها من البشر ويستحيل أن يولد الإله من البشر)
وقد ذكرت أن بحيرا الراهب الذي أكرم النبي عليه الصلاة والسلام عندما رحل إلى الشام وعرفه بعلامات فيه ، كان متبعاً هذا المذهب - ونسطور هذا كان رجلاً جليلاً القدر متبحراً في الديانة المسيحية والذي يدل على مكانته الرفيعة في الدين المسيحي أنه كان بطريرك القسطنطينية من عام ٤٢٨ إلى ٤٣١ م^(٣) وكان له أتباع كثيرون من القبلوسية لكنه اضطهد لعقيدته ونفى . فإذا كانت عقيدة النجاشي كما علمت هي عقيدة نسطور فالراجح أنه أسلم عندما عرض عليه الإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليه سورة مريم التي تنطبق على مذهبه ولأن الإسلام يحارب عبادة الأصنام ويدعو إلى التوحيد وينكر ألوهية عيسى عليه السلام ويقر نبوته .

وجاء في مسند الشافعي (من كتاب الجنائز والحدود) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى للناس

(١) راجع سيرة ابن هشام والطبري وأسد الغابة ترجمة عمرو بن أمية الضمري (٢) راجع كتاب حياة محمد تأليف ايرفنج
Irving وكتاب مسز موير الجزء الرابع . (٣) راجع دائرة المعارف الإنجليزية .

النجاشي اليوم الذي مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر أربع تكبيرات وهذا دليل على إسلام النجاشي لأن رسول الله ﷺ لا يصلى إلا على مسلم .
وفي صحيح البخاري عن جابر رضى الله عنه : قال النبي ﷺ حين مات النجاشي : مات اليوم رجل صالح قوموا فصلوا على أخيك^(١) أحمة .

زواج أم حبيبة

بنت أبي سفيان برسول الله ﷺ

عن محمد بن عمر قال : أرسل رسول الله ﷺ إلى النجاشي ليزوجه « أم حبيبة » بنت أبي سفيان^(٢) ويصم بها إليه مع من عنده من المسلمين . فأرسل النجاشي - جارية له يقال لها أبرهة إلى أم حبيبة يخبرها بخطبة رسول الله ﷺ إياها فأعطتها أوضاحاً لها وفتنخاً^(٣) سروراً بذلك ، وأمرها أن توكل من زوجها فوكلت خالد بن سعيد بن العاص فزوجها فخطب النجاشي على رسول الله ﷺ وخطب خالد فأنكح أم حبيبة ثم دعا النجاشي بأربعمائة دينار صداقها فدفعها إلى خالد بن سعيد فلما جاءت أم حبيبة تلك الدنانير جاءت بها أبرهة فأعطتها خمسين مثقالاً . وقالت كنت أعطيتك ذلك وليس بيدي شيء وقد جاء الله عز وجل بهذا . فقالت أبرهة : قد أمرني الملك أن لا آخذ منك شيئاً وأن أرد إليك الذي أخذت منك فردته ، وأنا صاحبة دهن الملك وثيابه وقد صدقت محمداً رسول الله وآمنت به وحاجتي إليك أن تقرئني مني السلام . قالت نعم . وقد أسر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهن من عود وعنبر فكان رسول الله ﷺ يراه عليها وعندها فلا ينكره . قالت أم حبيبة فخرجنا في سفينتين وبث معنا النواقي حتى قدمنا الحار ثم ركبنا الظهر إلى المدينة فوجدنا رسول الله ﷺ بخيبر فخرج من خرج إليه وأقمت بالمدينة حتى قدم رسول الله ﷺ فدخلت إليه فكان يسألني عن النجاشي وقرأت عليه من أبرهة السلام فرد رسول الله ﷺ عليها . ولما جاء أبا سفيان تزويج النبي ﷺ أم حبيبة قال « ذلك الفعل لا يقرع الله » .

وقد أراد رسول الله ﷺ بزواج أم حبيبة بنت أبي سفيان أن يستميل أباهما إلى قضيته . وقد كان وصول مهاجري الحبشة إلى المدينة في فصل الحريف في جمادى الأولى السنة السابعة من الهجرة (أغسطس سنة ٦٢٨ م) وفي سيرة ابن هشام أسماء من عادوا من الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ

وكنيت بابنتها حبيبة بنت عبيد الله بن جحش واسمها رملة وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله فولدت

(١) في الإسلام كما جاء في شرح البخاري للقسطلاني
اسمها رملة وقيل هند وهي أخت معاوية بن أبي سفيان
(٢) أمها صفية بنت أبي العاص عمة عثمان بن عفان بن أبي العاص . قيل
(٣) الوضع : الخلخال ، والفتنة : حلقه من فتنة كالحاتم لانس فيها
والجمع فتع بالفتح وفتوخ وفتحات وكانت نساء الأهلية يلبسهن في أصابع القدمين .

هناك حبيبة فتنصر عبيد الله ومات بالحبيشة نصرانياً وبقيت أم حبيبة مسلمة بأرض الحبشة ثم خرجت وقدمت إلى المدينة بعد أن تزوجها رسول الله . وقيل إن الذي وكلته أم حبيبة لعقد النكاح عثمان بن عفان . وتوفيت أم حبيبة سنة ٤٤ هـ .

٦ - كتاب رسول الله ﷺ

إلى هوزة بن علي الحنفي صاحب اليمامة^(١)

أرسل رسول الله ﷺ كتاباً إلى هوزة بن علي الحنفي صاحب اليمامة مع سليط بن عمرو العامري وهذه صورة الكتاب :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هُوْذَةَ بْنِ عَلِيٍّ . سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى وَأَعْلَمُ أَنَّ دِينِي سَيُظْهَرُ إِلَى مُنْتَهَى الْخَلْفِ وَالْخَافِرِ فَأَسْلِمَ تَسْلَمَ وَأَجْعَلَ لَكَ مَا تَحْتَ بَدَنِكَ ﴾ .

فلما قرئ على هوزة الكتاب رد ردّاً لطيفاً على سليط . قال الواقدي إن أركون دمشق الرواحي من عظماء النصاري كان عند هوزة فقال له هوزة جاءني كتاب من النبي يدعوني إلى الإسلام ظم أجبه فقال الأركون لم لا تجيبه ؟ قال ضننت بديني وأنا ملك قومي ولئن تبعته لن أملك . قال بلى والله لئن اتبعته ليملكنك وإن الخير لك في اتباعه وإنه للنبي العربي الذي بشر به عيسى بن مريم عليه السلام وإنه لمكتوب عندنا في الإنجيل محمد رسول الله... وأركون هذا أسلم على يد خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر الصديق . ثم إن هوزة كتب للنبي ﷺ جواب كتابه وقال فيه :

« ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاناً فاجعل لي بعض الأمر أتبعك » وكأنه أراد الشركة في النبوة أو الخلافة بعده ﷺ وأجاز سليطاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر قدم بكتابه على النبي ﷺ وأخبره بخبره فلما قرأ الكتاب على النبي ﷺ قال : « باد وباد ما في يديه » . ولما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح بلغه موت هوزة وقيل إن رسول الله ﷺ قال : أما إن اليمامة سيظهر بها كذاب يتنبأ يقتل بعدي ، وكان سن هوزة ١٥٠ سنة .

(١) اليمامة : بلاد بالفرق كثيرة النخيل على نحو ست عشرة مرحلة من مكة ، وهوزة رئيس قبيلة سبيجية وهي بنو حنيفة باليمامة ، وسليط بن عمرو الذي أرسله النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم كان ممن أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة .

٧ - كتاب رسول الله ﷺ

إلى المنذر بن ساوى التميمي

كان المنذر بالبحرين . بعث النبي صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمي رضى الله عنه ومعه كتاب يدعو به إلى الإسلام وهو :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . سلام عليك فإنى أحمده إليك الله الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أما بعد . فإنى أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلى ويقيع أمرهم فقد أطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى . وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً وإنى قد شفعتك فى قومك فأترك للمسلمين وأسلموا إليه وعفوت عن أهل الذنوب فأقبل منهم . وإنك مهما تصلح فإن نزلت عن عمالك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته ، فعليه الجزية) .

وهذا جواب كتاب أرسله المنذر جواباً لكتاب أرسله صلى الله عليه وسلم إليه قبل ذلك يدعو به إلى الإسلام فأسلم وحسن إسلامه . ولم يعرف نص الكتاب الأول ولا حامله والظاهر أنه العلاء . وكتاب رسول الله الثانى يمنع الحرية لمن لا يريد الدخول فى الإسلام على شرط دفع الجزية ، وكان أهل البحرين إما مجوساً أو يهوداً فلما عرض عليهم للمنذر الإسلام دخل فيه من أحب ومنهم من كرهه وبقي على دينه .

وذكرى الطبرى ، أن المنذر بن ساوى مات بالقرب من وفاته صلى الله عليه وسلم وقدم عليه عمرو بن العاص وحضر وفاته . وجاء فى أسد الغابة فى ترجمة نافع أبى سليمان مولى المنذر أن المنذر سار من البحرين حتى وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا فى الطبرانى وابن قانع .

٨ - كتاب رسول الله ﷺ

إلى ملكي عُمان

عُمان - بضم العين وتحفيف اليم - ، بلدة باليمن على ساحل بحر اليمن والهند فى شرق هجر . أما عُمان بفتح العين وتشديد اليم فبلدة بالشام . والمراد هنا البلدة الأولى .

بعث رسول الله بكتابه مع عمرو بن العاص إلى جنيفر وعبد ابني الجلندى وهذا نصه :

(أما بعد . فإنى أدعوكم بأدعية الإسلام . أسلموا تسلموا . فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويعتق القول على الكافرين . وإنكما إن أفرتما بالإسلام ، وليتكما . وإن أبيتما أن تقررا بالإسلام ، فإن ملككما

زائل عنكما وخيل تحمل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما) .
 وكتب الكتاب ، أبى بن كعب وختمه صلى الله عليه وسلم وكان جيفر أكبر سنا من عبد ومقدما عليه
 في الملك إلا أن عبداً كان أسهل خلقاً وألين عريكة . فتأبل عمرو جيفر وسله كتاب رسول الله قراه وقرأه أخوه
 وسأله من الإسلام وأسلما وأسلم معهما خلق كثير ووضعت الجزية على من لم يسلم .

نتيجة إرسال الرسل إلى الملوك والأمراء

ذكرنا الكتب التي أرسلها رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام بعد صلح الحديبية
 وقبل فتح مكة ولا شك أن في ذلك قوة عجيبة وشجاعة عظيمة لأن رسول الله وإن كان قد عقد الصلح مع مكة
 لكنه لم يكن قد تم له فتحها ولم يسلم أهلها وهذه الكتب ليس من السهل إرسالها إلى هؤلاء ولا سيما إلى هراقل
 وكسرى والقوقس يدعوهم فيها إلى الإسلام ولو كان غير رسول الله لخشي عاقبة ذلك فإن هؤلاء ملوك أقوياء
 على تخوم بلاده ولكان إرساله الرسل سابقاً لأوانه . إلا أن رسول الله لما كان واقفاً من قوة رسالته ونصر الله
 سبحانه وتعالى أقدم على إرسال رساله بقلب ثابت وعزم صادق فكانت النتيجة ما يأتي :

١ - أنه ﷺ تمكن من معرفة سياسة هؤلاء الملوك والأمراء نحوه وميولهم إليه فكانت هذه الكتب

بمثابة جس نبضهم .

٢ - إسلام « باذان » أمير اليمن ومن معه .

٣ - أن القوقس وإن كان لم يسلم إلا أنه أظهر الود بتألفه مع رسول الله ﷺ وإرساله الهدايا .

٤ - إسلام النجاشي على ما هو مشهور في كتب التاريخ وإن كان لم يستطع حمل شعبه على الإسلام .

٥ - إسلام المنذر بن ساوى التميمي صاحب البحرين .

٦ - إسلام ملكي عُمان وإسلام خلق كثير معهما .

فقول لا شك أن الإسلام قد ربح بإرسال الرسل إلى هؤلاء الملوك والأمراء وعلا شأنه وصارت له مكانة

دينية وسياسية بين الدول وذلك قبل فتح مكة .

غزوة خيبر^(١)

محرم سنة ٥٧ هـ - أغسطس سنة ٦٢٨ م

خيبر واحة كبيرة على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام (والبريد اثنا عشر ميلاً عربياً فتكون للمسافة كلها ٩٦ ميلاً عربياً) .

وسكان خيبر يهود . وهى ذات حصون ومزارع ونخل كثير ، وكان سكانها غير مجتمعين فى صعيد واحد بل كانوا متفرقين فى الوديان المجاورة ويقطنون بيوتاً حصينة وسط النخيل وحقول القمح . وكانت خيبر مركزاً للسائس اليهود الذين هاجروا إليها .

حصون خيبر

حصون خيبر الأساسية ثلاثة . وكل منها مؤلف من عدة حصون وهى كالآتى :

(١) حصون النطاة وهى أربعة : (الناعم - الصعب - الكتيبة - بقة) .

(٢) حصون الشق ، اثنان : (حصن أبى - وحصن البرى) .

(٣) حصون الكتيبة وهى ثلاثة : (حصن القمص - الوطيح - سلام) .

قال التزوينى . وخيبر موصوفة بكثرة الحمى لا تقارق الحمى أهلها وكان أهلها يهود موصوفين بالمكر والخبث ومنها كان السموأل بن عدياء المشهور بالوفاء .

كان يهود خيبر رجالاً محاربين ولم يمد حصون منيعة وهى سبعة ذكرناها آنفاً . وقد كانوا عدا ذلك أهل مكر وخداع ، فأراد رسول الله التخلّص من جوارهم كما تخلّص من يهود المدينة الذين لجأ بعضهم إلى خيبر .

وكانت غزوة خيبر سنة سبع من الهجرة (أغسطس سنة ٦٢٨ م) وذلك أن رسول الله ﷺ لما عاد من الحديبية أقام بالمدينة ذا الحجة وبعض الحرم من السنة السابعة وولى تلك الحجة المشركون ثم خرج فى بقية الحرم إلى خيبر وكان معه ١٦٠٠ مسلحين تسليحاً حسناً منهم ٢٠٠ فارس ، وبلاحظ أن عدد الفرسان فى هذه الغزوة قد ازداد لأنهم لم يكونوا فى الغزوات السابقة يجاوزون الثلاثين وذلك بفضل عناية رسول الله ﷺ بتربية الخيل . وخرج معه من نسائه أم سلمة رضى الله عنها وهى التى كانت خرجت معه إلى الحديبية واستخاف على المدينة سباع بن عرفة الفجارى واستنفر ﷺ من حوله ممن شهد الحديبية يفزون معه وجاء المخلفون عنه فى غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الفتيمة ،

(١) معنى خيبر باللغة العبرية الحصن أو القلعة .

فقال لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد فأما الغنيمة فلا (لأن الغرض الأساسي هو الجهاد لا الغنيمة) ، وكان الله قد وعد رسوله صلى الله عليه وسلم عند انصرافه من الحديبية في سورة الفتح بمغانم كثيرة بقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ .

وفي البخاري عن أنس رضي الله عنه : « أن النبي ﷺ أتى خيبر ليلا فنام هو وأصحابه دونها ، ثم ركبوا إليها بكرة فصبحوها بالقتال » وفي رواية لابن إسحاق أنه ﷺ لما أشرف على خيبر قال لأصحابه قفوا ثم قال :

« اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقلن ، ورب الشياطين وما أضلن ، ورب الرياح وما ذرين ، فإننا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها . ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها أقدموا بسم الله » وسار الجيش أربعة أيام إلى أن وصلوا خيبر .

فلما أصبح خرجت اليهود إلى زروعهم بمساحيهم ومكائيلهم . ودفع رايته العقاب إلى الحباب بن المنذر ، ودفع راية لسعد بن عباد ، ونزل بواد يقال له الرجيع ينهم وبين غطفان لثلا يمدوم ، وكانوا حلفاءهم ومظاهرين لهم على رسول الله ﷺ وإن غطفان تجهزوا وقصدوا خيبر ، فسمعوا حسا خلفهم فظنوا أن المسلمين خلفهم في ذرايعهم فرجعوا وأقاموا وخذلوا أهل خيبر . وكان أهل خيبر ١٠٠٠٠ مقاتل .

وكان يهود خيبر أدخلوا أموالهم وعيالهم في حصن الكتيبة ، وجمعوا المقاتلة في حصن النطاة . وكان النبي ﷺ نزل قريبا من حصن النطاة فأشار عليه ﷺ الحباب بن المنذر بالتحول قائلا إن أهل النطاة لي بهم معرفة ليس قوم أبعد مدى منهم ولا أعدل رمية منهم وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم ولا نأمن من بيأتهم يدخلون في حمر النخل^(١) فصحول رسول ﷺ وتحول الناس إلى موضع حائل بين أهل خيبر وغطفان^(٢) وابتنى هناك مسجدا صلى به طول مقامه بخيبر وأمر بقطع نخيل أهل حصون النطاة فوق السملون في قطعها حتى قطعوا ٤٠٠ نخلة ثم نهام عن القطع ، فما قطع من نخيل خيبر غيرها ، وقاتل ﷺ يومه ذلك أشد القتال وعليه درعان وبيضة ومقفر وهو على فرس يقال له الغارب في يده فناة وترس وفي ذلك اليوم قتل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة برحى أقيمت عليه من حصن ناعم ، ألقاها عليه مرحب اليهودي وكان الحر في ذلك اليوم شديداً ومكث ﷺ سبعة أيام يقاتل أهل حصن النطاة يذهب كل يوم بمحمد بن مسلمة للقتال ويخاف على عمل المسكر عثمان بن عفان رضي الله عنه فإذا أمسى رجع إلى ذلك الحل ومن جرح من المسلمين يحمل إليه ليداوى جرحه . وكان اليهود كما دتهم يحاربون أمام الحصون لأنهم يخشون الحرب في اللبدان فإذا انهزموا عادوا إلى حصونهم وأغلقوها دونهم .

ولما كانت الليلة السادسة أتى رجل من يهود خيبر في جوف الليل إلى النبي ﷺ وأخبره أنه خرج من حصن

(١) أي النخل المجمع به على بعض . (٢) وكانوا ٤٠٠٠ وسيدم عينة بن حصن إلا أن غطفان رجعوا وتركوا أهل خيبر .

النظاة من عند قوم يتسللون من الحصن في هذه الليلة ويذهبون إلى حصن الشق يحملون فيه ذراريهم ويتهاونون للقتال وأخبره أن في حصن الصمب من حصون النظاة ، في بيت فيه تحت الأرض منجنيقاً ودبابات ودروعاً وسيوفاً فإذا دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقفه على أسراره .

.. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تأخذه الشقية^(١) في بعض تلك الأيام فيبعث أناساً من أصحابه فلم يكن فتح ومنهم أبو بكر وعمر بن الخطاب .

ثم قال ﷺ لحمد بن مسلمة لأعطين الراية غداً لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . لا يولى الدبر يفتح الله عز وجل على يديه فيه كنه من قاتل أخيك .

وفي الغد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي رضي الله عنه ، وكان أرمداً شديداً الرمد ، فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عصب عينيه فقعد له لواءه الأبيض ونقل في عينيه ودلكهما فبرأ حتى كأن لم يكن بهما وجع . وقال علي رضي الله عنه فما رمدت بعد يومئذ . ثم دعا النبي صلى الله عليه وسلم لعل رضي الله عنه بقوله : « اللهم اكفه الحر والبرد » قال علي رضي الله عنه فما وجدت بعد ذلك لا حرّاً ولا برداً . فكان يلبس في الحر الشديد القباء المشموش الثخين ويلبس في البرد الشديد الثوب الخفيف فلا يبالي بالبرد .

فلما أخذ علي الراية قال : أقاتلهم حتى يكونوا مثانا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انفذ علي رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام . فإن لم يعطوا لك بذلك فقاتلهم فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم .

فخرج علي رضي الله عنه حتى ركز الراية تحت الحصن ثم خرج إليه أهل الحصن ، وكان أول من خرج إليه منهم الحارث أخو مرحب وكان مشهوراً بالشجاعة قتلته علي وانتهز اليهود إلى الحصن (وهو حصن ناعم) ثم خرج إليه مرحب لابساً درعين ومقتلاً سيفين ومعاً بمامتين ، ولبس فوقهما مغنراً وحجراً قد ثقبه قدر البيضة ، ومعه رمح فبرز له علي رضي الله عنه ، ثم حمل مرحب على علي وضربه فطرح ترسه من يده فتناول علي رضي الله عنه باباً كان عند الحصن فتترس به عن نفسه فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه الحصن ثم إن علياً ضرب مرحباً فتترس فوقه السيف على الترس فهداه وشق للفجر والحجر الذي تحته والعمامتين وقلق هامته حتى أخذ السيف بالأضراس .

وقيل إن محمد بن مسلمة هو الذي قتل مرحباً اليهودي انتقاماً لأخيه محمود ، والصحيح الذي عليه أكثر أهل السير والحديث أن علي بن أبي طالب هو الذي قتل مرحباً .

ثم خرج يأسر أخو مرحب يطلب البراز وكان أيضاً من مشاهير فرسان اليهود وشجعانهم فخرج إليه الزبير

(١) وجع يأخذ نصف الوجه والرأس .

رضى الله عنه وقتله ، وعند ذلك قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « فذاك عم وخال ، لكل نبي حوارى وحوارى الزبير^(١) » .

وكان أول حصن فتحه المسلمون هو حصن الناعم من حصون النطاة على يد علي رضي الله عنه ، ثم القموص . ولم يزل القتال ناشباً بين المسلمين واليهود ، والمسلمون يفتحون حصونهم حصناً بعد حصن حتى أنهم افتحوا جميعاً .

وقتل من اليهود ٩٣ واستشهد من المسلمين ١٥ رجلاً^(٢) وأخذ رسول الله ﷺ كنز آل أبي الحقيق وكان من بني النضير الذي حمله حيي بن أخطب لما أجلى عن المدينة ، وأمر رسول الله ﷺ بقتل كنانة وأخيه الربيع لأنهما أخفيا مال حيي وقد علم رسول الله ﷺ بمكان المال وأتى إليه به وقوم بعشرة آلاف دينار ، ووجد في الكنز أساور ودماج وخلاخيل وأقراط وخواتيم وعقود الجواهر والزمرد وعقود أظفار مجزع بالذهب ، وأصاب المسلمين مجاعة قبل فتح الحصون ، فلما فتح حصن الصعب ، وكان أكثر الحصون طعاماً ، فيه شعير وتمر وودك أى سمن وزيت وشحم ومتاع وماشية وكان به ٥٠٠ مقاتل أمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يأكلوا ويلفوا ولا يخرجوا به إلى بلادهم ، وكان صاحب الغنائم أبا اليسر كعب بن زائد الأنصارى .

فتحت الحصون كلها عنوة إلا حصن الوطيح وحصن سلام فقد مكث المسلمون على حصارها أربعة عشر يوماً فلم يخرج أحد منهم فهم رسول الله ﷺ أن يحمل عليهم وأن ينصب عليهم المنجنيق فلما أيقنوا بالهزيمة سألو رسول الله ﷺ الصلح على حقن دماء المقاتلة وترك الذرية والخروج من خيبر وأرضها بذرايرهم وألا يصحب أحد منهم إلا ثوباً واحداً فصالحهم على ذلك وعلى أن ذمة الله تعالى ورسوله بريئة منهم إن كتموه شيئاً . فتركوا ما لهم من أرض ومال وصفراء ويصفاء والكراع والحلقة والبرز إلا ثوباً واحداً . ووجد للمسلمين في الحصنين المذكورين ١٠٠ درع و٤٠٠ سيف و١٠٠٠ رمح و٥٠٠ قوس عربية بجماها ووجدوا في أثناء الغنيمة صحائف متعددة من التوراة فجاءت يهود تطلبها فأمر رسول الله ﷺ بدفعها إليهم وبهذه المناسبة نذكر ما كتبه الأستاذ ولفنسون في كتابه تاريخ اليهود ببلاد العرب صفحة ١٧٠ :

« ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبنان ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ ب م إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة . هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام » ١٠١ .

(١) الحواري : الناصر . (٢) عدد قتلى المسلمين في طبقات ابن سعد ١٥ وفي سيرة ابن هشام ٢٠ .

ونضيف إلى ذلك أن هذه ليست أول مرة تسامح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك فيها صحائف اليهود المقدسة ولم يتعرض لها بسوء ولم يحرقها مع شدة عداوتهم له فقد سمح لهم قبل ذلك بأخذ صحفهم المقدسة المشتمة على وصية موسى لبني إسرائيل عند إجلالهم من المدينة في غزوة بني النضير كما تقدم .

ثم جمع رسول الله ﷺ السبي فكان من نصيب دحية بن خليفة السكابي صفية بنت حيي وكانت امرأة حسناء فتنافس الناس فيها فجاء رجل إلى النبي ﷺ وقال يا نبي الله أعطيت دحية صفية سيدة بني قريظة والنضير لا تصلح إلا لك . فقال ادعوه بها فلما نظر إليها النبي ﷺ قال لدحية خذ جارية من السبي غيرها فأخذ أخت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق زوج صفية وكانت صفية بنت حيي من سبط هارون أخى موسى عليهما السلام فاصطفاه لنفسه وجعلها عند أم سليم التي هي أم أنس خادمه ﷺ حتى اهتدت وأسلمت وكانت غاية في الجمال ثم أعطاها وتزوج بها وجعل عتقها صداقها وكان اسمها زينب فسمها رسول الله (صفية) وكان عمرها ١٧ عاماً . وفي المواقب أنه ﷺ أخذ صفية لأنها بنت ملك من ملوكهم .

وفي هذه الغزوة سميت اليهودية الشاة للنبي ﷺ وأهدتها إليه ، واسمها زينب بنت الحارث امرأة سلام ابن مشكم وأخت مرحب انتقاماً لقتل أبيها وزوجها وأخيها .

روى البخارى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : لما فتحت خيبر وأطمان ﷺ بعد فتحها أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم فلاك منها مضغة ثم لفظها حين أخبره العظم أنها مسمومة وازدرد بشر بن البراء ثمة فقال ﷺ ارضعوا أيديكم ، وأرسل إلى اليهودية فقال هل سممت هذه الشاة ؟ قالت من أخبرك ؟ قال أخبرتنى هذه التي في يدي مشيراً للذراع . قالت نعم . قال لها ما حملك على ذلك ؟ قالت إن كنت نبياً يطلعك الله وإن كنت كاذباً فأريح الناس منك . وقد استبان لي أنك صادق وأنا أشهدك ومن حضرك أنى على دينك وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ففعا عنها ﷺ ولم يماقها^(١) وتوفي من أصحابه الذين أكلوا معه بشر بن البراء رضى الله عنه واحتجهم رسول الله ﷺ على كاهل من أجل الذي أكل من الشاة .

وبعد فتح خيبر قدم من الحبشة جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه ومن معه من المسلمين وهم ستة عشر رجلاً فتلقى النبي ﷺ جعفرأ وقبل جبهته وعانقه وقام له ثم قال . « ما أدرى بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » وقال ﷺ لجعفر رضى الله عنه « أشبهت خلقى وخلقى » فرقص جعفر رضى الله عنه لسروره بهذا الخطاب ولقرط ما أصابه من الفرح لم ينكر عليه ﷺ رقصه ، وجعل ذلك أصلاً لرقص الصوفية عندما يجردون من لذة المواقيد

(١) اختلف العلماء هل قتلها النبي صلى الله عليه وسلم أولاً ؟ قال النخاس عياض : إنه لم يقتلها أولاً حين اطلع على فعلها ، وقبل له القتل ، فقال لا . فلما مات بعمر بن البراء من ذلك سلمها لأوليائه فقتلوا قصاصاً . فالفقو عنها كان قبل أن يموت بعمر .

في مجالس الذكر والسماع وقدم من الحبشة أبو موسى الأشعري وأخواه أبو رهم وأبو بردة وجماعة من قومه فأسهم لهم ولم يسهم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا لمن شهدا معه .
وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم خيبر فأعطى الرجل سهماً والفرس ثلاثة أسهم بعد أن خسمها خمسة أجزاء ثم دفع ﷺ لأهل خيبر الأرض ليعملوا فيها بشرط ما يخرج منها من ثمر أو زرع وقال لهم إنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم . ثم استمعوا على ذلك إلى خلافة عمر رضي الله عنه إلى أن وقعت منهم خيانة وغدر لبعض المسلمين فأجلاهم إلى الشام بعد أن استشار في ذلك الصحابة رضي الله عنهم .
ولما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر فكان ببعض الطريق فلما كان آخر الليل قال : هل من رجل يحفظ علينا الفجر لعلمنا ننام ؟ قال بلال أنا يا رسول الله أحفظه عليك فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل الناس فناموا وقام بلال يصلي ماشاء الله أن يضلي ثم استند إلى بعيره واستقبل الفجر يرمقه فغلبته عينه فنام فلم يوقظهم إلا مس الشمس وكان رسول الله ﷺ أول أصحابه هباً . فقال ماذا صنعت بنا يا بلال ؟ قال يا رسول الله أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك . قال صدقت ، ثم اقتاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيره غير كثير ثم أتاخ فتوضأ وتوضأ الناس ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس فلما سلم أقبل على الناس فقال : إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها فإن الله تبارك وتعالى يقول : « وأقم الصلاة لذكري » . وكان فتح خيبر في صفر .

تحريم لحوم الطمر الأهلية^(٥)

نهى رسول الله ﷺ في خيبر عن أكل لحوم الطمر الأهلية فإنهم أصابهم جوع فوجدوا ثلاثين حماراً خرجت من بعض الحصون فأخذها رهط من المسلمين وذبحوها وجعلوا لحومها في القدور والبرام وجعلوا يطبخونها للأكل فمر بهم النبي ﷺ فسألهم عما في القدور والبرام . قالوا لحوم الطمر الإنسية أى الخناطة للإنس فهام بهم ﷺ عن أكلها حتى إن القدور أكتفت وهى تقور وروى البخارى مثل ذلك وأمرهم بفصل القدور .

إصابة الصحابة بالحمى

في خيبر

لما قدم رسول الله خيبر ، كان التمر أخضر فأكثر الصحابة من أكله . فأصابتهم الحمى . فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ . فقال بردوا لها الماء في الشنان (أى القرب) ثم صبوا عليكم منه بين أذانى الفجر واذكروا اسم الله عليه ، ففعلوا فذهبت عنهم الحمى .

(١) الطمر بضم طين : جمع حمار .

هذا ماصاب الصحابة من أكل التمر الأخضر . وفي مصر يباع التمر الأخضر قبل نضج البلح فيمرض آكلوه بالحلى ولا سيما الأطفال فيجب على الحكومة تحريم بيعه بتاتاً قبل نضجه فإنه عسر الهضم

صلح أهل فدك

فدك بلدة يهودية بالقرب من خيبر - لما علم أهلها بالهزيم خيبر خافوا فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصلحونه على النصف من فدك فقدمت عليه رسلهم قبل ذلك منهم فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب يصرف ما يأتية منها على أبناء السبيل فكان يتفق منها ويعود منها على صفير بنى هاشم ويزوج منها أيهم . ولما مات رسول الله ﷺ وولي أبو بكر الخلافة ، سألته فاطمة رضى الله عنها أن يجعلها أو نصفها لها فأبى وروى لها أنه ﷺ قال : « إنا معاشر الأنبياء لانورث ، ما تركناه صدقة » أى على المسلمين .

غزوة وادى القرى

وادى القرى ، واد بين الشام والمدينة وهو بين تيماء وخيبر ، فيه قرى كثيرة وبها سمي « وادى القرى » نزلها اليهود ووزعوها .

لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر نزل وادى القرى أصيلاً مع الغروب وأهله يهود فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا فحاصروهم ﷺ أربعة أيام وهياً أصحابه للقتال فقتل منهم أحد عشر رجلاً وفتحها رسول الله عنوة وغنمه الله أموالهم وأصاب المسلمون أثاثاً ومتاعاً كثيراً وقسم رسول الله ما أصابه على أصحابه وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود وعاملهم عليها وولاه عمرو بن سعيد بن العاص وصالحه أهل تيماء على الجزية لما بلغهم فتح وادى القرى وولاه ﷺ يزيد بن أبى سفيان . وكان إسلامه يوم فتحها . وتيماء بلدة معروفة بين المدينة والشام على سبع مراحل من المدينة ثم رجع إلى المدينة بعد أن بسط نفوذه على القبائل اليهودية شمالى المدينة .

قال مستر موير : إن غزوة وادى القرى كانت فى جمادى الثانية سنة سيم (سبتمبر سنة ٦٢٨ م) لأنه أُرْخ الزحف على خيبر بشهر جمادى الأولى (أغسطس سنة ٦٢٨ م) .

ويحمل بعضهم غزوة خيبر وغزوة وادى القرى غزوة واحدة لأنه لم يرجع من خيبر .

خمس سرايا

في خريف وشتاء السنة السابعة الهجرية

(سنة ٦٢٨ م)

بعد عودة رسول الله ﷺ من خيبر قضى بقية الخريف والشتاء في المدينة وفي هذه الأثناء بمث خمس سرايا منها ثلاث في شهر شعبان :

١ - سرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومعه ثلاثون رجلاً إلى قبيلة بني هوازن بجهة تربة ، دار بقرب مكة فلما علموا بمجيئه هربوا فانصرف راجعاً إلى المدينة .

٢ - سرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى بني كلاب ، قبيلة بنجد فسبى منهم جماعة وقتل آخرين .

٣ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بفدك ومعه ثلاثون رجلاً . فلما وصلوا إلى محل القوم لقوا رعاء الشاء فاستباق بشير النعم والثناء وانحدر إلى المدينة ثم أدركه العدد الكثير من بني مرة عند الليل فباتوا يرمونه بالنبل حتى فئت نبل أصحابه فأصيبوا وولى من ولى وجرح بشير وعاد إلى المدينة بصعوبة .

٤ - وفي رمضان كانت سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى أهل المنيعه بناحية نجد على ثمانية برد من المدينة في مائة وثلاثين رجلاً فجمعوا عليهم في وسط محالم وقتلوا كثيراً منهم واستاقوا نساء وشاء إلى المدينة وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد رجلاً يقال له نهيك بن مرداس الأسلي وفي رواية أن اسمه مرداس بن نهيك بدلاً قال لا إله إلا الله محمد رسول الله . قال رسول الله ﷺ يا أسامة من لك بلا إله إلا الله قال يا رسول الله إنما قالها تموداً من القتل . قال : (هل شقت عن قلبه فعلم أصادق هو أم كاذب ؟) قال أسامة لا أقاتل أحداً يشهد أن لا إله إلا الله .

٥ - وفي شوال أرسل بشير بن سعداً أيضاً إلى يمن وجناب وهي أرض لطفان ومعه ثلاثمائة رجل لجمع تجمعوا بأرض غطفان وأعدم عيينة بن حصن للإغارة على المدينة فلما بلغهم مسير بشير هربوا وأصاب لهم نساء كثيرة فغنمها . قال الواقدي وفي هذه السنة (السابعة) رد رسول الله ﷺ زينب ابنته على أبي العاص بن الربيع وذلك في الحرم (أسر أبو العاص يوم بدر فمن عليه رسول الله ﷺ بلا فداء بسبب زوجته زينب بنت رسول الله ﷺ) ورد عليه رسول الله ﷺ زينب بنكاح جديد وقيل بالنكاح الأول وأسلم قبيل فتح مكة) .

قال وفيها قدم حاطب بن أبي بلتعة من المقوقس بمارية وأختها سيرة وبغلة دلال وحماره ينفور وكساء وبمث معها بخمسة فكان معها . وفي هذه السنة اتخذ النبي ﷺ منبره الذي كان يخطب الناس عليه واتخذ له درجتين - ومقعداً . وفي الطبري أنه عمل سنة ثمان .

عمرة القضاء^(١) (أو عمرة القضية)

ذو القعدة سنة ٨٧ - فبراير سنة ٦٢٩ م

قد اختلف في سبب تسمية هذه العمرة عمرة القضاء . فقال مالك والشافعي والجمهور لأنه قاضى قريشاً سنة الحديبية فالمراد بالقضاء الفصل الذى وقع عليه الحكم لأنها قضاء عن العمرة التى صد عنها لأنها لم تكن فسدت حتى يجب قضاؤها بل كانت عمرة تامة . وقال أبو حنيفة وأحمد إن من صد عن البيت فعليه القضاء فتسميتها قضاء على هذا ظاهرة (وهذه العمرة ليست من الفزوات) .

لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من خير أقالم بها شهرى ربيع وجماديين . ورجب . وشعبان . وشوالا . ثم خرج في ذى القعدة في السنة السابعة (فبراير سنة ٦٢٩ م) في الشهر الذى صد فيه المشركون بالحديبية معتمراً عمرة القضاء مكان عمرته التى صدوه عنها واستعمل على المدينة عوف بن الأضبط الديلى ويقال: بلها عمرة القصاص لأنهم صدوا رسول الله ﷺ في ذى القعدة في الشهر الحرام من سنة ست فاقص رسول الله ﷺ منهم وأمر ألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية وخرج معهم غيرهم أيضاً فكانوا ألفين سوى النساء والصبيان وساق معه ﷺ ستين بدنة وحمل السلاح والدروع والرمح وقاد مائة فارس خوفاً من غدر أهل مكة فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه وتحذرت قريش بينها أن محمداً وأصحابه في عسر وجهد وشدة فصفوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه . فلما دخل رسول الله ﷺ اضطلع بردائه وأخرج عضده اليمنى^(٢) ثم قال رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واره البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود ثم هروك كذلك ثلاثة أطواف والمسلمون يطوفون معه . وكان بين يديه لما دخل مكة عبد الله بن رواحة أخذاً بخطام ناقته . وكان للمشركون على جبل قيعان ثم سعى رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته وبعد فراغه نحر هديه عند المروة وحلق رأسه هناك ثم أمر مائتين من أصحابه أن يذهبوا إلى أصحابه ببطن يأجج (موضع على ثمانية أميال من مكة) بقيمون على السلاح وبأبى الآخرون ليقضوا نسكهم ففعلوا وأقام ﷺ بمكة

(١) معنى العمرة في العمل : الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة فقط ، والفرو بين الحج والعمرة ، أن العمرة تكون للانسان في السنة كلها والحج وقت واحد في السنة . ولا يجوز أن يحرم به إلا في أشهر الحج ، شوال وذى القعدة ، وعشر في ذى الحجة . وتنام العمرة أن يطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة ، والحج لا يكون إلا مع الوقوف بعرفة في يوم عرفة . والعمرة مأخوذة من الاعتدال وهو الزيارة .

(٢) الاضطباع الذى يؤمر به طائف البيت أن يدخل الرداء تحت إبطه الأيمن ويرد طرفه على ياره ويبدى مكبه الأيمن وينطلى الأيسر . سمي بذلك لإبداء أحد الضممين .

ثلاثاً كما شرطته قريش في الهدنة فلما كان الظهر من اليوم الرابع جاءه سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى
قالا : نشدك العهد إلا ما خرجت من أرضنا فرد عليهما سعد بن عبادة رضى الله عنه فأسكتته صلى الله عليه وسلم
وأذن بالرحيل .

جاء في البخارى من حديث البراء فلما دخلها ^(١) ومضى الأجل ^(٢) أتوا علياً رضى الله عنه فقالوا قل لصاحبك
اخرج عنا فقد مضى الأجل ففرح رسول الله ﷺ .

زواج رسول الله ﷺ

بميونة رضى الله عنها

تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ميونة بنت الحارث الهلالية سنة سبع في عمرة القضاء وكان اسمها برة
فماها رسول الله صلى الله عليه وسلم ميونة وهي أخت أم الفضل زوج العباس رضى الله عنها وأخت أسماء
بنت عميس لأُمها زوج حمزة رضى الله عنه . وكان الذى زوجه إياها العباس بن عبد المطلب وأصدقها عنه
صلى الله عليه وسلم أربعائة دينار وأراد صلى الله عليه وسلم أن يبنى بها في مكة فلم يمهله يبنى بها وقال لم ما عليكم
لو تركتموني فأعرست بين أظهركم فصنعت لكم طعاماً ؟ فقالوا لا حاجة لنا في طعامك اخرج عنا من أرضنا .
هذه الثلاثة قد مضت فخرج فبنى بها بسرف قرب مكة . ولقيت ميونة رضى الله عنها من سفهاء مكة عشاء ،
فبنى أبى رافع رضى الله عنه لقينا عشاء من أهل مكة من سفهاء المشركين من أذى ألستهم للنبي ﷺ وليميونة .
قلت لهم : ما شئتم ، هذه والله الخليل والسلاح بيطن يأجج وأنتم تريدون نقض العهد وللدلة فولوا راجعين
منكسين ، وميونة هي آخر امرأة تزوجها رسول الله ﷺ وآخر من توفى من أزواجه ، قال إرفنج في كتابه
حياة محمد « إن النبي لم يتزوج بميونة بنت الحارث إلا سياسة يريد بها استمالة رجلين قويين لأن ميونة
كانت أرملة مسنة تبلغ من العمر إحدى وخمسين سنة وهذان الرجلان هما خالد بن الوليد ابن أخت ميونة
وهو البطل المشهور الذى حارب محمداً صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد ولما أسلم سمي سيف الله وصديقه
عمرو بن العاص » .

وهذا ما قلناه في سبب تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم فإن خالد بن الوليد أسلم بعد زواج رسول الله
صلى الله عليه وسلم بخالته ميونة بقليل وأسلم معه في يوم واحد عمرو بن العاص . وميونة رضى الله عنها آخر زوجاته
صلى الله عليه وسلم .

(١) بى مكة . (٢) الأيام الثلاثة .

ما قبل سرية مؤتة من الحوادث

في خلال الصيف أعد رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة سرايا قبل غزوة مؤتة وهي :

١ - سرية الأخرم : في ذى الحجة سنة سبع (إبريل سنة ٦٢٩ م) في خمسين رجلاً إلى بني سليم . خرج الأخرم يدعوهم إلى الإسلام فعملوا بخروجه فأمطروا المسلمين وابلا من النبل وأحاطوا بهم من كل ناحية حتى قتل عامتهم وجرح أميرهم ثم تحامل حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في أول صفر .

٢ - سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح بالكديد^(١) في صفر سنة ثمان (يونية سنة ٦٢٩ م) خرج المسلمون حتى إذا كانوا بقديد لقوا الحارث بن مالك الليثي المعروف بابن البرصاء وهي أمه فأخذوه . فقال إنه جاء يريد الإسلام ولكنهم أوثقوه وخلفوا عليه رجلاً وشنوا عليهم الغارة واستاقوا النعم وحملوا ابن البرصاء وعادوا إلى المدينة وأسلم ابن البرصاء وتوفي آخر خلافة معاوية رضى الله عنه وله حديث واحد وهو قوله سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم الفتح « لا تغزى مكة بعد اليوم إلى يوم القيامة » .

٣ - سرية أخرى لغالب بن عبد الله الليثي : لما رجع غالب بن عبد الله الليثي من سريته الأولى بعثه رسول الله ﷺ إلى موضع مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك (وقد تقدم ذكر سرية بشير التي جرح فيها) ومعه ٢٠٠ رجل وذلك في شهر صفر سنة ثمان . وقد نجحت هذه السرية نجاحاً تاماً فقد قاتل المسلمون ساعة ووضعوا السيف وقتلوا منهم قتلى وأصابوا منهم نساء وذرية فساقوها وعادوا إلى المدينة .

٤ - سرية شجاع بن وهب الأسدي إلى جمع من هوازن يقال لهم بنو عامر بالسي^(٢) في شهر ربيع الأول سنة ثمان (يولية سنة ٦٢٩ م) ومعه أربعة وعشرون رجلاً فأصابوا نساء كثيرة ونساء واستاقوا ذلك حتى قدموا للمدينة وكانت غيبتهم خمس عشرة ليلة .

٥ - سرية كعب بن عمير النفازي إلى ذات أطلاح من أرض الشام وراء ذات القرى في ربيع الأول سنة ثمان في خمسة عشر رجلاً فوجدوا جمعاً كثيراً فجاءوا على الخيل فدعاهم المسلمون إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل فهاتلهم الصعابة أشد القتال حتى قتلوا ولم ينج منهم غير رجل جريح في القتلى . قال ابن سعد : هو الأمير . فلما برد عليه الليل تحامل حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر فشق عليه ذلك وهم بالبحث عليهم لكن بلغه أنهم ساروا إلى موضع آخر فتركهم .

(١) ماء بين عسفان وقديد . (٢) ماء من خلف عرق على ثلاثة مراحل من مكة .

إسلام عمرو بن العاص

سنة ٨ هـ (سنة ٦٢٩ - ٦٣٠ م)

عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي السهمي يكنى أبا عبد الله وقيل أبا محمد ؛ وأمه النابغة بنت حرمة ، سبية من بني جيلان بن عتيك بن أسلم ابن يذكر بن عترة وأخوه لأمه عمرو بن أثانة العدوي وعقبة بن نافع بن عبد قيس القهري .

سأل رجل عمرو بن العاص عن أمه فقال سلمى بنت حرمة تلقب النابغة من بني عترة أصابتها رماح العرب فبيعت بمسكاظ فاشتراها الفاكه بن المغيرة ثم اشتراها منه غبند الله بن جدعان ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت له فأنجبت فإن كان جعل لك شيء نخذ . وهو الذي أرسلته قريش إلى النجاشي ليسلم إليهم من عنده من المسلمين ، جعفر بن أبي طالب ومن معه فلم يفعل وقال له يا عمرو كيف يعزب عنك أمر ابن عمك فوالله إنه لرسول الله حقاً . قال أنت تقول ذلك ؟ إني والله فاطني : فخرج من عنده مهاجراً إلى النبي ﷺ فأسلم عام خير وقيل أسلم عند النجاشي وهاجر إلى النبي ﷺ وقيل كان إسلامه في صفر سنة ثمان قبل الفتح بستة أشهر وكان قد همّ بالانصراف إلى النبي ﷺ من عند النجاشي ثم توقف إلى هذا الوقت وقدم على النبي ﷺ هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة العبدي فتقدم خالد وأسلم وبايع ثم تقدم عمرو فأسلم وبايع على أن يغفر له ما كان قبله فقال له رسول الله ﷺ : الإسلام والمجرة يجبان ما قبلهما^(١) .

وحدث عمرو بن العاص رضي الله عنه عن سبب إسلامه كما رواه ابن إسحاق وغيره . قال عمرو لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني فقلت لهم تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً وإني لقد رأيت أمراً فأترون فيه ؟ قالوا وماذا رأيت ؟ قال رأيت أن تلحق بالنجاشي فنكون عنده فإن ظهر محمد على قومنا كننا عند النجاشي فإننا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير . قالوا : إن هذا الرأي . قلت فاجمعوا لنا ما نهديه له وكان أحب ما يهدي إليه من أرضنا الأدم فجئنا له أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه فدخل عليه ثم خرج من عنده فقلت لأصحابي هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على النجاشي لسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه ، فإذا قلت ذلك رأيت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد فدخلت عليه فوجدت له كما كنت أصنع فقال مرحباً بصديق . أهديت إلى من بلادك شيئاً ؟ قلت له نعم أيها الملك قد أهديت إليك أدماً كثيراً ،

(١) يجبان : أي يقسمان ويحويان ما قبلهما من الكفر والمعاصي والذنوب .

ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه ثم قلت له إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا فأعطينيه لأقتله فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا ، فغضب ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقا منه ثم قالت له أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا مأسألتكه . قال أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى عليه السلام لتقتله؟ قلت أيها الملك أكذاك هو؟ قال ويحك يا عمرو أطمعني واتبعه فإنه والله لعلى الحق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده. قلت أفتبايني له على الإسلام؟ قال نعم فبسط يده فبايعته على الإسلام ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه وكنتم أصحابي إسلامي ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل فتح مكة وهو مقبل من مكة فقلت له أين يا أبا سايان؟ قال والله لقد استقام اليسم وإن الرجل لنبيّ أذهب والله فأسلم. فحتى متى؟ فقلت والله ماجئت إلا لأسلم . قدمنا للمدينة على رسول الله ﷺ فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ثم دنوت فقلت يا رسول الله إني أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي ولا أذكر ما تأخر ، فقال رسول الله ﷺ يا عمرو بايع فإن الإسلام يجب ما كان قبله وإن الهجرة يجب ما كان قبلها فبايعته ثم انصرفت (١) .

روى الزبير بن بكار أن رجلاً قال لعمر بن العاص رضى الله عنه ما بظاً بك عن الإسلام وأنت أنت في عقلت؟ قال كنا مع قوم لم علينا تقدم وكانوا ممن توازى أحلامهم الجبال فلذا بهم فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا فإذا حق بين فوق الإسلام في قلوبنا .

وفي إسلام عمرو على يد النجاشي لطيفة هي أن صحابياً أسلم على يد تابعي ولا يعرف مثله . وقد كان عمرو بن العاص رجلاً سياسياً حريياً وقد قلنا قوله من فيه عن ذهابه إلى الحبشة وسبب إسلامه ومنه يقين أنه فكر طويلاً في انتشار الإسلام وفي مركزه فرأى أخيراً أن خير ما يتخلص به من حرج مركزه هو أن يهاجر إلى الحبشة موفداً من قبل قريش بقصد قتل عمرو بن أمية الضمري ظناً منه أن النجاشي سيسلمه إياه فتقدم له الهدايا تزلفاً إليه واعتمد على صداقة الملك له . وبذلك يكون قد خدم قريشا من جهة وأقام بالحبشة بعيداً عن النضال بين رسول الله وقريش حتى إذا انتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتح مكة كان هو آمناً بالحبشة لكن النجاشي لم يسلمه عمرو بن أمية الضمري ولا غيره من المسلمين وغضب عليه وفوق ذلك عرض عليه الإسلام فلم يردّأ من مبايعة النجاشي على الإسلام لأنه رأى أن النجاشي نفسه قد أسلم اعتقاداً منه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه سيظهر على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده وفي قول عمرو دليل واضح على إسلام النجاشي .

وكان إسلام عمرو قبل الفتح في السنة الثامنة من الهجرة (سنة ٦٢٩ - ٦٣٠ م) وكان يبلغ من العمر إذ ذاك

(١) راجع سيرة ابن هشام .

نحو اثنتين وأربعين سنة وقد اكتسب الإسلام بإسلامه هو وخالد بن الوليد قائدین عظیمین وبطلین کبیرین قاما بدور مهم فی تاریخ الفتح الإسلامی ونشر الدعوة وإعزاز الدین .

وقد روت أم سلمة زوج رسول الله ﷺ وكانت من المهاجرات إلى الحبشة تفاصيل ذات شأن عن إقامة المسلمين بها وإيفاد قريش لعبد الله بن ربيعة بن المغيرة المخزومي وعمر بن العاص والتدابير التي دبرها عمرو والمناقشة التي حصلت بحضرة النجاشي وحضور البطارقة والقتال الذي نشب بينه وبين من نازعه سبب اعترافه بصحة المبادئ الإسلامية مما يذكركه عمرو بن العاص وهذه روايتها رضي الله عنها :

قالت : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي أمنا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذي ولا نسلم شيئا نكرهه . فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدین وأن يهدوا للنجاشي هدایا مما يستطرف من متاع مكة وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم فجمعوا أدماً كثيراً ولم يتركوا من بطارقه بطريقاً إلا أهدوا له هدية ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن ربيعة بن المغيرة المخزومي وعمر بن العاص بن وائل السهمي وأمروها أمرهم وقالوا لها ادعيا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلم النجاشي فيهم ثم قدما إلى النجاشي هدایاه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم . قالت فخرجا قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار وعند خير جار . فلم يبق من بطارقه بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلم النجاشي ثم قال لكل بطريق منهم إنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم . فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لها نعم . ثم إنهما قربا هدایاهما إلى النجاشي فقبلها منهما . ثم كلماه فقالا له : أيها الملك إنه صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمر بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم . فقالت بطارقه حوله : صدقوا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فإيردهم إلى بلادهم وقومهم . فنضب النجاشي ثم قال لاها الله إيم الله إذا لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوماً جاوروني ونزلوا بلادى واختاروني على من سواى حتى أدعوم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منها وأحسن جوارهم ما جاوروني . ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن . فلما جاءوه وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في دين أحد من هذه الأمم ؟

فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له :

« أيها الملك كينا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسبي الجرار ، يأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فصدقنا عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل من الخبائث ما كنا نستحل ، فلما قهررونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك واخترنالك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك ، فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به الله من شيء ؟ فقال له جعفر . . نعم فقال له النجاشي : فاقراه عليّ ، فقرأ عليه صدراً من (كهيعص) فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ثم قال النجاشي : إن هذا والله والذي جاء به عيسى ليخرجنا من مشكاة واحدة . انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد ، قالت أم سلمة : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص والله لأنبئنهم غداً ببئسهم عندهم ثم استأصل به خضراءهم . قالت : فقال له عبد الله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا لا تفعل فإن لم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا . قال والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد الله . ثم غدا عليه الغد فقال له أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل إليهم فأسألمهم عما يقولون فيه . فأرسل إليهم بأسألم عنه . قالت ولم ينزل بنا مثله فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا : نقول والله فيه ما قال الله وما جاء به نبينا كائننا في ذلك ما هو كائن . فلما دخلوا عليه ، قال لهم ما تقولون في عيسى ابن مريم ؟ فقال له جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاء به نبينا : « هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول » فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عوداً . ثم قال ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود . فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال فقال وإن نحرتم والله اذهبوا فأنتم سيوم^(١) بأرضي من سبكم غرم ثم من سبكم غرم . فما أحب أن لي دبراً^(٢) ذهباً وأنى آذيت رجلاً منكم . ردوا عليهما هداياهم فلا حاجة لنا بها فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي فأخذ الرشوة فيه يوماً أطاع الناس في فأطيعهم فيه . قالت فخرجنا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار . قالت فوالله إنا

(١) السيوم : الآتون . (٢) الدبر بلسان المبهمة : الجمل .

على ذلك إذ نزل به يعنى من ينازعه فى ملكه . قالت فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزننا عند ذلك تخوفاً أن يظهر ذلك على النجاشى فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه . وسار النجاشى وبينهما عرض النيل . فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالهجرة؟ فقال الزبير بن العوام أنا وكان أحدث القوم سنّاً فنفعوا له قربة فجعلها فى صدره ثم سبّح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملقى القوم ثم انطلق حتى حضرهم ، قالت ودعونا الله للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكين له فى بلاده واستوثق عليه أمر الحبشة فكنا عنده فى خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة^(١) .

هاتان روايتان عن ذهاب عمرو بن العاص إلى الحبشة وما جرى بينه وبين النجاشى خاصاً بالمهاجرين المسلمين الرواية الأولى عن عمرو نفسه والثانية عن أم سلمة والرواية الأولى مذكورة فى سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق والثانية فى مسند الإمام أحمد بن حنبل . ويستفاد من رواية عمرو بن العاص أنه ذهب إلى الحبشة موفداً من قريش ومعه آدم كثير ليقدمه إلى النجاشى هدية له بقصد تسليم المهاجرين كلهم أو بعضهم إليه وأنه تمكن من مقابلة النجاشى وطلب منه ذلك فنضب غضباً شديداً وأبى إجابة طلبه ورد هديته إليه لكن عمراً لم يذكر للنقاشه التى حدثت أمام النجاشى بينه وبين جعفر بن أبى طالب بحضور البطارقة فى أمر عيسى بن مريم عليه السلام واقتناع النجاشى بما أجاب به جعفر رضى الله عنه . غير أن عمرو بن العاص قال إن النجاشى صاغه وأسلم . وقالت أم سلمة إنه ظهر من ينازعه فى ملكه (على أثر إقراره بما قاله جعفر طبعاً) ومما لاشك فيه أن عمرو بن العاص لم ينجح فى مهمته سواء أكان موفداً من قبل قريش أم ذاهباً من تلقاء نفسه ليرى له مخرجاً من موقفه إزاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه بقى إلى ذلك الوقت ولم يسلم بعد أن انتشر الإسلام فى المدينة وماجاورها وقوى المسلمون وصاروا يهددون مكة نخاف إن هو بقى على حاله ولم يسلم أن يظهر الإسلام فى مكة أيضاً فيذعن عند ذلك مضطراً . فلما رأى أن النجاشى لم يسلم له بشئ وأنه متمسك بمراعاة حسن جوار من عنده من المهاجرين ومصداق برسالة النبي صلى الله عليه وسلم عاد وهو موطن النفس على أن يذهب توّاً إلى رسول الله ويسلم عنده وقد تم له ذلك بالفعل فأسلم هو وخالد بن الوليد .

(١) راجع الجزء الأول من مسند الإمام أحمد بن حنبل حديث جعفر بن أبى طالب .

خالد بن الوليد وإسلامه

خالد بن الوليد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو سليمان وقيل أبو الوليد القرشي الخزومي أمه لبابة الصغرى وهى بنت الحارث بن حزن الهلالية وهى أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم وأخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن خالة أولاد العباس بن عبد المطلب الذين من لبابة .

وكان أحد أشرف قريش في الجاهلية وكان إليه أغبة وأعنة الخيل في الجاهلية . أما القبة فكانوا يضربونها بمجموع فيها ما يجهزون الجيش . وأما الأعنة فإنه كان يكون التقدم على خيول قريش في الحرب فكان رجلاً حربياً فارساً .

ولما أراد الإسلام قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وعمرو بن العاص وطلحة بن أبي طلحة العبدري فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لأصحابه رمتكم مكة بأفلاذ كبدها .

وقد تقدم أن ذكرنا في أمر الحديبية أن النبي ﷺ سار حتى انتهى إلى عسفان فلقية بشر بن أبي سفيان الكعبي وقال يارسول الله هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النور وقد نزلوا بذى طوى يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً وهذا خالد بن الوليد في خيل قريش قد قدموه إلى كراع النعم .

قال خالد بن الوليد : لما أراد الله عز وجل بي ما أراد من الخير قذف في قاي الإسلام وحضر لي رشدي وقلت قد شهدت هذه للواطن كلها على محمد ﷺ فليس موطن أشهد إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أنى في غير شىء وأن محمداً يظهر . فلما جاء لعمره القضية تقيت ولم أشهد دخوله فكان أخى الوليد بن الوليد دخل معه فطلبني فلم يجده فكتب إلى كتاباً فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك ومثل الإسلام يجهل أحد ؟ قد سألت رسول الله ﷺ عنك فقال أين خالد ؟ قلت يأتى الله به . قال مأمثله يجهل الإسلام ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيراً له ولقدمناه على غيره فاستدرك يا أخى ماقد فاتك من مواطن صالحة »

فلما جاء في كتابه نشط للخروج وزادنى رغبة في الإسلام وسرتنى مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيت في المنام كأنى في بلاد ضيقة جدبة فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة . فلما أجمعت على الخروج إلى المدينة لقيت صفوان بن أمية قتل يا أبا وهب أما ترى أن محمداً ظهر على العرب والعجم فلو قدمنا عليه واتبعناه فإن شرفه

شرف لنا ؟ فقال لو لم يكن يبقى غيرى ما تبعته أبداً . فقات هذا رجل قتل أبوه وأخوه ببدر . فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان فقال مثل الذى قال صفوان . قات فاكنتم ذكر ماقلت لك ، قال لا أذكره . ثم لقيت عثمان بن طلحة الحنظلي قات هذا لى صديق فأردت أن أذكر له ثم ذكرت قتل أبيه طلحة وعنه عثمان وإخوته الأربعة مسافع والخلاس والحارث وكلاب فإنهم قتلوا كلهم يوم أحد فسكرهت أن أذكر له ثم قلت له إنما نحن بمنزلة نعالب فى جعر لو صب فيه ذنوب من ماء نخرج . ثم قلت له ماقلت لصفوان وعكرمة فأسرع الإجابة وواعدنى إن سبقتنى أقام بمحل كذا وإن سبقتة إليه انتظرتة . فلم يطالع الفجر حتى التقينا فعدونا حتى انتهينا إلى الهدنة^(١) فوجدنا عمرو بن العاص بها . فقال مرحباً بالقوم . قتلنا وبك . قال أين مسيركم ؟ قلنا الدخول فى الإسلام . قال وذلك الذى أقدمنى . وفى لفظ قال عمرو . خالد يا أبا سايان أين تريد ؟ قال والله لقد استقام اليهم^(٢) وإن هذا الرجل لنبي فآذهب فأسلم فحتى متى ؟ قال عمرو وأنا والله ماجئت إلا لأسلم فاصطحبنا جميعاً .

فوصلوا المدينة وقال خالد : فلبست من صالح ثيابي ثم عدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيت أخى قال أسرع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سُرَّ بقدمكم وهو ينتظركم فأسرعنا المشى فاطلمت عليه فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة فردَّ على السلام بوجه طاق فقلت إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . قال الحمد لله الذى هدانا لهذا قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلك إلا إلى خير . قلت يا رسول الله ادع الله لى يفتر تلك اللواطن التى كنت أئتمدها عليك . قال ﷺ : « الإسلام بحجة ما كان قبله » وتقدم عثمان وعمرو فأسلما .

وكان عمرو بن العاص أسن منهما .

قال خالد بن الوليد : اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) فخاق رأسه فابتدر الناس شعره فسبقتهم إلى ناصيته فجماها فى هذه القلنسوة فلم أشهد قتالا وهى وهى إلا تبين لى النصر . والأكثر على أنه مات بـ ٢١ سنة وعمره بضع وأربعون سنة فى خلافة عمر بن الخطاب .

(١) هو اسم محل (٢) أى تبين الطريق وطهر الأمر .

(٣) لعلها عمرة الجبراة .

سريّة مؤتة

لمحاربة الروم

جمادى الأولى سنة ٥٨ هـ - سبتمبر سنة ٦٢٩ م

مؤتة من عمل البلقاء وهي مدينة معروفة بالشام على مرحلتين من بيت المقدس جنوب شرق البحر الميت وكانت في جمادى الأولى سنة ثمان (سبتمبر سنة ٦٢٩ م) .

وقد سمى البخارى هذه السرية غزوة، وإن لم يخرج فيها النبي صلى الله عليه وسلم لكثرة جيش المسلمين فيها . وسببها أن النبي ﷺ كان أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بصرى من جهة هرقل وهو الحارث ابن أبي شمر الفسافي فلما نزل مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الفسافي ، وهو من أمراء قيصر على الشام فقال ، أين تريد اهلك من رسل محمد ؟ قال نعم . فأوثقه وضرب عنقه ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره .

فلما بلغ رسول الله ، اشتد الأمر عليه وجهز جيشاً لمقاتلة ملك الروم .

هذا هو السبب الذي ذكره أغلب المؤرخين إلا أن ابن إسحاق لم يذكر سبباً لهذه السرية وهذه أول سرية حارب فيها المسلمون جيشاً مسيحياً من أعظم جيوش العالم في ذلك الوقت .

فأمر رسول الله ﷺ مولا يزيد بن حارثة رضي الله عنه على ثلاثة آلاف وندب رسول الله ﷺ الناس وقال إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس فإن أصيب فليرتض للمسلمون رجلاً من بينهم يحملونه عليهم أميراً . أى قائداً للجيش .

وكان ممن حضر يهودى اسمه النعمان فقال يا محمد إن كنت سميت من سميت أصيبوا جميعاً لأن أنبياء بنى إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا إن أصيب فلان فلو سموا مئة أصيبوا جميعاً . ثم جعل يقول لزيد أعهد أى أوص فإنك لا ترجع إلى محمد إن كان نبياً . قال زيد أشهد أنه سول صادق بار وعقد ﷺ لواء أبيض ودفعه إلى زيد ، ولم يسبق لزيد تولى القيادة من قبل ، وأوصاه أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوهم هناك إلى الإسلام فإن أجابوا والا فاستعينوا عليهم بالله وقاتلوهم . فأسرع الناس بالخروج وعسكروا بالجرف (١) .

(١) موضع على ثلاثة أميال من المدينة لجهة الشام .

وصية رسول الله للجيش

قبل رحيله إلى مؤتة

قال رسول الله يوصي الجيش : « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً . اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله . لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً قانئاً ولا منعزلاً بصومعه ولا قربوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء . »

هذه وصية عظيمة إلى جيش المسلمين قبل مسيره إلى مؤتة لمحاربة الروم ، وهي جديرة بأن تغلى مراراً وتبدبرها رؤساء الجيوش في العالم قاطبة ويعملوا بمقتضاها حرفاً - إن كان لا مناص عن الحرب ولا مفر منها - فإن الحروب الحديثة التي دارت رحاها جاوزت الحدود في البغى والظلم والقسوة والتعدي على السكان الآمنين الذين لا شأن لهم في القتال فهدمت بيوتهم وخربت المدن ، قاسى أهلها كل شقاء يتصور . ولم يحسب للغيرون القساة حساب الأطفال والنساء والشيخوخ ورجال الدين ، ودور المرضى والجرحى . كل ذلك في القرن العشرين ، زمن المدنية وتقدم العلوم !

ألا فليتدبروا هذه الوصية الجليلة الصادرة عن قلب مأوه الرحمة والإنسانية . قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشه عن الغدر وقتل الأطفال والنساء والشيخوخ ورجال الدين المنعزلين في الصوامع ، ونهى عن قطع الأشجار وهدم البيوت ، حتى بيوت المحاربين فضلاً عن المسالين .

فهذا قانون الإسلام في الحروب وهو قانون إنسانى محض وهذه أوامر رسول الله الذى يأتمر للمسلمون بأوامره ويتبعون سننه .

ولما فصل الجيش من المدينة سمع العدو بمسيرهم ، وقام نمرحبيب بن عمرو الفسائى لجمع أكثر من مئة ألف من الروم وضم إليهم القبائل القريبة للموالية فلما نزل المسلمون معان من أرض الشام بلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء^(١) فأقاموا على معان ليلتين يفكرون فى أمرهم ، وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بمدد عدونا ؛ فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له فشجع الناس عبد الله بن رواحة على المضى فقال : « إن التى تكروهون للتي خرجتم لها ، إياها تطالبون الشهادة وما قتال الناس بمدد ولا كثرة ولا قوة ، وإما قتالهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فربما فعل ، وإن تكن الأخرى فهى الشهادة وليست بشر المنزلتين » فقال الناس لقد صدق ابن رواحة .

(١) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى قصبتها عمان . وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة . وبجودة حنطتها يضرب المثل . ومن البلقاء قرية الجبارين .

ففضوا إلى مؤنة ووافاهم المشركون تحت إمرة أنيبودور أحي هرقل لجاء منهم من لا قبل لأحد به من العدد الكثير الزائد على مئة ألف والسلاح والخيل وآلات الحرب مع من انضم إليهم من قبائل العرب المتنصرة من بني بكر ونظم وجذام مئة ألف . فقاتل الأمراء اثلاثة يومئذ على أرجلهم فأخذ اللواء زيد بن حارثة قاتل المسلمون معه بشجاعة على صفوفهم حتى قتل طعنًا بالرمح ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه قاتل به وهو على فرسه فألججه القتال وأحاط به فنزل عن فرسه له شقراء فقهرها وقاتل حتى قتل . وإنما عقرها خوفاً أن يأخذها العدو فيقاتل عليها المسلمين ولما أخذ اللواء قاتل قتالا شديداً قطعت يمينه فأخذ اللواء يساره قطعته يساره فاحتضنه وقاتل حتى قتل ووجد فيه بضع وسبعون جرحاً ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح . ثم أخذ اللواء عبد الله ابن رواحة وتقدم به وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم نزل عن فرسه وقاتل حتى قتل^(١) .

روى سعيد بن منصور أنهم دفنوا يومئذ زيداً وجعفرًا وعبد الله بن رواحة رضى الله عنهم في قبر واحد . ثم أخذ اللواء ثابت بن أقرم العجلاني البلوى حليف الأنصار وكان من أهل بدر فقال يامعشر المسلمين اصطالحوا على رجل منكم . قالوا أنت . قال ما أنا بفاعل فاصطالحوا على خالد بن الوليد . وفي الصحيح : حتى أخذ الراية « سيف من سيوف الله » ، فقاتلهم خالد بن الوليد قتالا شديداً وكان لم يمض على إسلامه إلا ثلاثة أشهر تقريباً^(٢) وقد تفرق المسلمون لما قتل عبد الله بن رواحة وانهمزموا حتى لم يبقَ اثنتان جميعاً فاستطاع خالد بن الوليد بعد أن أخذ اللواء وتولى القيادة أن يجمع شملهم وجعل مقدمته ساقة وميمته ميسرة فظن العدو أن المدد جاءهم . قال ابن إسحاق فلما أخذ الراية (خالد) دافع القوم وخاس بهم ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف . ونسب ابن إسحاق اثني عشر قتيلاً من المسلمين في هذه الغزوة ولا نعلم عدد قتلى العدو . وكانت مدة القتال سبعة أيام .

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بما حدث في ساحة القتال قبل رجوع الجيش إلى المدينة ونادى في الناس الصلاة جامعة ثم صعد المنبر وعيناه تدرقان وقال :

(١) عبد الله بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس الأكبر الأنصاري الخزرجي ثم من بني الحارث يكنى « أبا محمد » وقيل « أبا رواحة » وقيل « أبا عمر » وأمه كبيشة بنت واقد بن عمرو بن الإطنابة من بني الحارث بن المزرج أيضاً وكان ممن شهد القبة وكان قتيب بن الحارث بن المزرج وشهد بدرًا وأحدًا والهندق والحديبية وعمره القضاء والشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الفتح وما بعده . وكان من الشعراء الذين يتأخرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن شعره في النبي صلى الله عليه وسلم :

لأن تفرست فيك الحسير نافلة الله يعلم أنى ثابت البصر
أنت الرسول فن يحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به الفدر

(٢) وهذه أول مرة يجارب فيها خالد مع المسلمين بعد إسلامه .

« يا أيها الناس باب خير . باب خير . أخبركم عن جيشكم هذا الغازی أنهم اطلقوا فلقوا العدو . قتل زيد شهيداً فاستغفروا له . ثم أخذ الراية جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيداً فاستغفروا له . ثم أخذ الراية عبد الله ابن رواحة وأثبت قدميه حتى قتل شهيداً فاستغفروا له . ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه ولكنه سيف من سيوف الله فأب نصره » فن يومئذ سمي خالد « سيف الله » .

قال بعضهم كون ما وقع يوم مؤتة فتحاً ونصراً واضح لإحاطة العدو بهم وتكاثرهم عليهم لأنهم كانوا أكثر من مائتي ألف والصحابة رضی الله عنهم ثلاثة آلاف وكان مقتضى العادة أنهم يقتلون عن آخرهم .

وفي هذه الغزوة فرت طائفة من الصحابة إلى المدينة لما عاينوا كثرة جموع الروم فصار أهل المدينة يقولون لم « أنتم الفرارون » ورسول الله ﷺ يقول « بل هم الكرارون » ولقي هؤلاء الذين رجعوا إلى المدينة شراً حتى إن الرجل يحییء إلى أهل بيته يدق عليهم بابه فيأبون يفتحون له ويقولون ، هلا تقدمت مع أصحابك قتلت ؟ حتى إن فرأ منهم جلسوا في بيوتهم استحياء كما خرج واحد منهم صاحوا به وصار رسول الله ﷺ يرسل إليهم رجلاً رجلاً .

وأول من جاء بخبر الجيش يعلى بن أمية رضی الله عنه فلما قدم قال له النبي ﷺ « إن شئت فأخبرني وإن شئت أخبرتك » . قال فأخبرني يا رسول الله لأزداد يقيناً فأخبره رسول الله ﷺ الخبر كله ووصف له ما كان فقال « والذي بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفاً واحداً وإن أمرهم لكما ذكرت » . لكن مستر « مویر » اعتبر تلك الرواية التي ذكر فيها أن النبي ﷺ أخبر بما حدث في ساحة القتال قبل أن يصله الخبر خرافة ، لأن الخبر كان قد وصل رسول الله ﷺ من أول رسول أرسله خالد بن الوليد إلى المدينة ، وعلى ذلك فليست هناك معجزة كما يقول المسلمون ، لكنه لم يعلق شيئاً على معجزة رسول الله ﷺ التي تنبأ فيها بإصابة زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة قبل أن يذهبوا إلى الحرب وقد أصيبوا جميعاً بالترتيب كما ذكر . فكان حقا عليه وهو مؤرخ أن يصرح برأيه في هذه المسألة لا أن يذكرها بلا تعليق ويفض الطرف عنها . والحقيقة أنه لما رأى أن هذه المعجزة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار لم يشأ أن يقرأها ويعترف بها .

مواساة رسول الله ﷺ لآل جعفر

عن أسماء بنت عميس رضی الله عنها زوج جعفر بن أبي طالب رضی الله عنه . قالت دخل على رسول الله ﷺ يوم أصيب جعفر وأصحابه فقال اثنتي بيني جعفر فأتيته بهم فشمهم وذرفت عيناه . وفي رواية وبكى حتى قطت لحيته الشريفة فقلت يا رسول الله يا أبي أنت وأمي ما بكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ قال نعم أصيبوا هذا اليوم . قالت فقامت وأصيح واجتمع على النساء وجعل رسول الله ﷺ يقول لي يا أسماء لا تقولي هجراً ولا تضربي خذاً وقال « اللهم قدمه إلى أحسن الثواب واخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت أحداً من عبادك في ذريته » .

— ٣٠٠ —

وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال : لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم . وقيل إنه دخل على فاطمة وهي تقول : وإعماه ، فقال على مثل جعفر فلتبك البواكي . ثم قال صلى الله عليه وسلم : اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم . وهذا الطعام الذي جعل لآل جعفر رضى الله عنه هو أصل طعام التعزية وتسميه العرب « الوضيعة » .
ولحسان بن ثابت قصيدة في رثاء جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه .

إسلام فروة بن عامر الجذامى

كان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب بعمان فأهدى إلى النبي ﷺ بقلته البيضاء وبعث إليه رسالة بإسلامه مع رسول فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم فلما اجتمعت الروم لصلبه على ماء لم يقال له عفرى بفلسطين قال :

ألا هل أتى سلمى بأن حليها على ماء عفرى فوق إحدى الرواحل
على ناقة لم يضرب الفحل أمها مشدبة أطرافها بالمناجل
قال ابن إسحاق زعم الزهرى أنهم لما قدموه ليقتلوه قال :

بلغ سراة المسلمين بأننى سلم لربى أعظمى وبنانى

وقال مسيو برسينال M. C de Paceval إن الصلب وقع بعد غزوة مؤتة عقاباً على ذنبه . والراجح أن ذلك كان بعد فتح مكة سنة تسع وهي سنة الوفود ودخول العرب في دين الله أفواجاً .

سرية عمرو بن العاص

أو سرية ذات السلاسل^(١)

جمادى الآخرة ٨ هـ - أكتوبر سنة ٦٢٩ م

كانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى وقد تولى القيادة فيها خالد بن الوليد بعد أن قُتل الأسماء الثلاثة الذين تقدم ذكرهم وكان قد أسلم حديثاً مع عمرو بن العاص . فأظهر كفاية حرية أمام جيش الروم العظيم وتمكن من جمع شمل الصحابة بعد أن تفرقوا وعاد فريق منهم إلى المدينة فرجع خالد سالماً ولم يتحمل المسلمون إلا خسارة قليلة .

(١) على حدود الشام وهي وراء وادى القرى بضم السين الأولى وفتحها لعتان . وبينها وبين المدينة عشرة أيام .

وفي جمادى الآخرة أى بعد شهر (١ أكتوبر سنة ٦٢٩ م) جاء دور عمرو بن العاص فأرسله رسول الله ﷺ إلى بلاد بلي^(١) وعذرة في (٣٠٠) مع سrate المهاجرين والأنصار ومعهم (٣٠) فرساً وسببها أنه ﷺ بلغه أن جمعاً من قضاة تجمعا للإغارة على المسلمين وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة منتهزين فرصة انهزام المسلمين في مؤتة .

وسميت هذه السرية (ذات السلاسل) لأن الأعداء ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا وقيل سميت بذلك لأن بها ماء يقال له السلسل .

عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : بعث إلى النبي ﷺ يأمرني أن آخذ ثيابي وسلاحي فقال يا عمرو إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك . قلت لم أسلم رغبة في المال . قال « نعم للمال الصالح للرجل الصالح » فعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء فسار هو ومن معه وكان يكمن النهار ويسير الليل فلما قرب منهم بلغه أن جوع العدو كثيرة فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده . فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح وعقد له لواء وبعث معه (٢٠٠) من سrate المهاجرين والأنصار وفيهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا فأراد أبو عبيدة أن يتولى القيادة . فقال عمرو إنما قدمت على مدداً وأنا الأمير . فقال أبو عبيدة لا ولكن أنا على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه . وكان أبو عبيدة رجلاً سهلاً مهيناً عليه أمر الدنيا فقال يا عمرو إن رسول الله ﷺ قال لي لا تختلفا وإنك إن عصيتني أطعك فأطاع له أبو عبيدة فسكان عمرو يصلى بالناس وسار حتى وصل إلى العدو فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا مذعورين بعد أن اقتتلوا ساعة فهزمهم المسلمون ولم يغنموا شيئاً .

أما البلاذري فيقول إن المسلمين غنموا .

وأرسل عمرو بن العاص رسولا إلى النبي ﷺ ينبئه بانتصاره في أول غزوة له وأنه عزز نفوذ رسول الله ﷺ على تخوم الشام ثم عاد إلى المدينة .

وقد حدثت عمرو بن العاص نفسه بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعثه على قوم فيهم أبو بكر وعمر إلا لمنزلة عنده . قال عمرو فأنيته ﷺ حتى قعدت بين يديه فقلت يا رسول الله : أى الناس أحب إليك ؟ قال عائشة قلت إني لست أعنى النساء إنما أعنى الرجال . قال : أبوها قلت ثم من ؟ قال ثم عمر بن الخطاب فعد رجلاً فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم وقلت في نفسي لا أعود أسأله عن هذا .

(١) بلاد بلي وعذرة هي وراء ذات القرى بينهما وبين المدينة عشرة أيام ، وبلي قبيلة كبيرة يسبون إلى بلي بن عمرو بن الحاف ابن قضاة . وكذا عذرة يسبون إلى عذرة بن قضاة .

سرية أبي عبيدة بن الجراح

سمى البخارى هذه السرية بغزوة «سيف البحر»^(١) بكسر السين واشتهرت «بسرية الخبط» بمش رسول الله ﷺ في شهر رجب سنة ثمان (نوفمبر سنة ٦٢٩ م) أبا عبيدة بن الجراح على رأس ثلاثمائة رجل . وكان فيهم عمر بن الخطاب إلى أرض جُهينة ليلقى عيراً لقريش ولحاربة حتى من جهينة ، فنقد ما كان معهم من الزاد فأكلوا الخبط وهو ورق السلم وأصابهم جوع شديد . قال أهل السير : ثم أخرج الله لهم دابة من البحر تسمى العنبر وهي سمكة كبيرة فأكلوا منها .

وفي شعبان سنة ثمان (ديسمبر سنة ٦٢٩ م) أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا قتادة رضى الله عنه إلى نجد ومعه خمسة عشر رجلاً وأمره أن يشن الغارة على غطفان بأرض محارب قاتلهم وسبى سبياً كثيراً واستاق النعم . وفي أول شهر رمضان من هذه السنة أرسل رسول الله ﷺ أبا قتادة أيضاً إلى إضم على ثلاثة برد من المدينة في ثمانية رجال ليوم قريشاً أنه توجه إلى تلك الناحية بعد أن نقضت قريش العهد حتى يفاجئهم على غير استعداد منهم لحربه . خرج أبو قتادة ومن معه فلقوا عامر بن الأضبط الأشجعي فلم عليهم بتحية الإسلام فقتله محم بن جثامة (واسمه يزيد بن قيس) لشيء كان بينه وبينه وأخذ بيره ومناعه فلما قدموا على رسول الله ﷺ وأخبروه الخبر نزل فيهم القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقَبَّلُونَا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ الآية .

والاختلاف في الراد بهذه الآية كثير جداً . قيل نزلت في المقداد . وقيل في غالب الليثي . . . ثم إن أبا قتادة ومن معه لم يلقوا جمعاً وبلغهم أنه ﷺ خرج من المدينة وتوجه إلى مكة فلحقوه بالسقياء فأخبروه الخبر . فسأله محم أن يستغفر له فقال « لا غفر الله لك » زجرأ ، كيلاً يتهاون الناس بقتل النفس المؤمنة . ققام محم وهو يتلقى دموعه يبرديه فما مضت له سابعة من الليالي حتى مات . وذكر الطبري أن محم بن جثامة توفي في حياة النبي صلى الله عليه وسلم فدفنوه فلفغته الأرض مرة بعد أخرى فأمر به فلقى بين جبلين وجعل عليه حجارة وقال رسول الله ﷺ « إن الأرض لتقبل من هو أشد منه ولكن الله أراد أن يريكم آية في قتل المؤمن » .

غزوة فتح مكة

رمضان سنة ٨ هـ - (يناير سنة ٦٣٠ م)

لما كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش كان فيما شرطوا لرسول الله ﷺ وشرط لهم أن

(١) ساحل البحر .

— ٣٠٣ —

من أحب أن يدخل في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده فليدخل فيه . ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه . فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ودخات خزاعة في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده .

والسبب في دخول خزاعة في عقد رسول الله ﷺ أن خزاعة كانت حليفة جده عبد المطلب حين تنازع مع عمه نوفل في ساحات وأفنية من السقاية كانت في يد عبد المطلب فأخذها منه نوفل فاستنهض عبد المطلب قومه فلم ينهض معه منهم أحد وقالوا لا ندخل بينك وبين عمك . ثم كتب إلى أخواله بنى النجار فجاء منهم سبعون وقالوا ورب هذه البنية لتردن على ابن أختنا مأخذت منه وإلا ملأنا منك السيف فرده . ثم حالف نوفل بنى أخيه عبد شمس فخالف عبد المطلب خزاعة وكان عليه الصلاة والسلام عارقاً بذلك ولقد جاءت خزاعة يوم الحديبية بكتاب جده عبد المطلب ققرأه عليه أبي بن كعب رضى الله عنه فأقرم النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد كان بين بنى بكر وبين خزاعة حروب وقتلى في الجاهلية وتشاءوا عن ذلك لما ظهر الإسلام فلما كانت هذة الحديبية ووقف القتال بين المسلمين وقريش ، اغتنمتها طائفة من بنى بكر يقال لهم « بنو نثاعة » ، ذلك أن شخصاً منهم هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار يتغنى بالهجاء . فسمعه غلام من خزاعة أى من القبيلة التى دخلت في عقد رسول الله فثار ثأثرته فضر به وشجته فثار الشرين القبيلتين مما كان بينهم من العداوة . فطلب بنو نثاعة من أشرف قريش أن يمينوم بالرجال والسلاح على خزاعة فأمدوم : فجاموا خزاعة ليلاً وهم آمنون على ماء لم يقال له الوير وقتلوا منهم عشرين أو ثلاثة وعشرين وقاتل معهم جمع من قريش مستخفياً (منهم ، صفوان بن أمية . وحويطب بن عبد العزى وعكرمة بن أبى جهل . وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو - وهؤلاء أسدوا جميعاً بعد ذلك) وما زالوا بهم حتى أدخلوهم دار بديل بن ورقاء الخزاعي بمكة فلما ناصرت قريش بنى بكر على خزاعة وقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله من الليثاق ، ندموا . وجاء الحارث بن هشام إلى أبى سفيان وأخبره بما فعل القوم . فقال :

« هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه . وإنه لشر والله ليفزونا محمد . ولقد حدثتني هند بنت عتبة (بني زوجته) أنها رأت رؤيا كرهتها . رأت دماً أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالندمة . ففكره القوم ذلك » . وعند ذلك خرج عمرو بن سالم الخزاعي ، سيد خزاعة حتى قدم على رسول الله للمدينة ودخل المسجد ووقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد بين الناس وأنشد :

يا رب إني ناشد محمداً حلف أئبنا وأببه الأتلبا

قد كنتم ولداً وكنا والدآ كمت أسلمنا فلم ننزع يدا

فانصر هداك الله نصر أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا

- ٣٠٤ -

فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خففا وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجرى مزيدا إن قريشا أخلفوك الموعدا
وتقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لي كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذل وأقل عددا
هم يبتون بالوتير هجدا وقتلونا ركعا وسجدا

قال رسول الله ﷺ نصرت ياعمر بن سالم ودمعت عيناه وفي رواية قيام ﷺ وهو يجر رداءه ويقول : لا نصرت إن لم أنصركم بما أنصر به نفسي . وفي رواية قال : والذي نفسي بيده لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي وأهل بيتي . وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : لقد رأيت رسول الله ﷺ غضب مما كان من شأن بني كعب غضبا لم أره غضبه منذ زمان ثم قال ﷺ لعمر بن سالم وأصحابه بعد أن علم منهم حقيقة ما حدث : ارجعوا وتفرقوا في الأودية فرجعوا وتفرقوا وكان عددهم نحو أربعين راكبا من خزاعة وقصد رسول الله ﷺ بتفرقهم إخفاء مجيئهم . وخرج بدليل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدوا على رسول الله ﷺ في المدينة فأخبروه بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ثم انصرفوا راجعين إلى مكة ولكن لم يبلغنا ماذا قال وقد بديل وبماذا أجابهم رسول الله ﷺ

قريش تبعث أبا سفيان إلى المدينة

كان رسول الله ﷺ قال للناس كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليشدد العقد ويزيد في المدة . ومضى بدليل بن ورقاء وأصحابه فلقوا أبا سفيان بمسغان قد بعثته إلى رسول الله ﷺ ليشدد العقد ويزيد في المدة وقد خافوا مما صنعوا . فلما لقي أبو سفيان بدिला ، قال من أين أقبلت يا بديل ؟ وظن أنه قد أتى رسول الله ﷺ ، قال سرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي . قال أو ما أتيت محمدا ؟ قال لا . فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى فعمد إلى مبرك ناقته فأخذ من بهرهما ففته فرأى فيه النوى (وهذا من فراسة العرب) فقال أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً ، ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ في المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان (زوج رسول الله ﷺ) فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه . فقال يا بنية والله ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس فلم أحب أن أجلس على فراش رسول الله ﷺ . قال والله لقد أصابك بعدى شر فقالت : « بل هداني الله تعالى للإسلام وأنت تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر . وإعجباً منك وأنت سيد قريش وكبيرها » فقال : « أنا أترك ما كان يعبد آباي وأتبع دين محمد ؟ » . ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلّمه في تجديد العقد وزيادة مدة الهدنة فلم يرد عليه شيئا . ثم ذهب إلى أبي بكر فكلّمه أن يكلم له رسول الله ﷺ فقال « ما أنا بفاعل » . ثم أتى عمر بن الخطاب

فكلمه فقال أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ فوالله لو لم آخذ إلا الذر لجاهدكم . ثم خرج فدخل على عليّ ابن أبي طالب رضى الله عنه وعنده فاطمة ابنة رسول الله وعندها الحسن بن عليّ غلام يدب بين يديها فقال : يا عليّ إنك أمس القوم بى رحماً وأقرهم منى قرابة . وقد جئت فى حاجة فلا أرجمن كما جئت خائباً . أشفع لنا إلى رسول الله . قال ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة فقال يا ابنة محمد هل لك أن تأمرى بُنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت والله ما بلغ بنى ذلك أن يجير بين الناس وما يجير على رسول الله أحد قال : أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى . فقال له والله ما أعلم شيئاً يغنى عنك ولكنك سيد بنى كنانة قم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك . قال أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً؟ قال لا والله ما أظن ولكن لا أجد لك غير ذلك . قام أبو سفيان فى المسجد . فقال :

« أيها الناس إني قد أجرت بين الناس » ثم ركب بعيره وانطلق .

نقول : أراد أبو سفيان من ذهابه إلى المدينة أن يشدد العقيد . ويزيد فى المدة ولكن النبي ﷺ أعرض عنه ولم يجبه بشيء . ووجد من أبى بكر وعمر وعليّ وفاطمة رضى الله عنهم كل إعراض ولم يعده أحد منهم بشيء . حتى يؤس ورجع يخفى حنين لكنه على كل حال كان يعلم أن رسول الله قد عزم على أمر إزاء ما كان من تعدى بنى بكر ومساعدة نفر من قريش لهم فى هذا التعدى لأن ذلك نقض للعهد .

أما ما تخيله بعض المستشرقين من أن أبا سفيان اتفق مع رسول الله على أنه إذا دخل مكة اجتنب سفك الدماء وأن أبا سفيان يقوم من جانبه بمنع أهل مكة من المقاومة فهذا لا أساس له وليس فى السير شيء يدل على هذا الاتفاق . وقد قالوا أيضاً إن رسول الله كان ينتظر أى فرصة تسنح لفتح مكة فلما وقع الاعتداء على خزاعة تظاهر بالفتن وبوعد بأخذ الثأر والاتصار لهم . والحقيقة أن اعتداء بنى بكر نقض صريح للعهد . وكيف لا يفتضى وقد قُتل من خزاعة وهم حلفاؤه أكثر من عشرين نفراً وقد لجأوا إليه وناشدوه أن يدفع عنهم هذا الاعتداء ! والدليل على أن أبا سفيان عاد من غير أن يحظى بأى اتفاق أنه لما قدم على قريش قالوا ما وراءك؟ قال جئت محمداً فكلمته فوالله ما رد عليّ شيئاً . ثم جئت ابن أبى قحافة (أبا بكر) فلم أجد عنده خيراً . ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم ، ثم جئت عليّ بن أبى طالب فوجدته ألين القوم وقد أشار عليّ بشيء صنعت . فوالله ما أدرى هل يغنينى شيئاً أم لا . قالوا وبماذا أمرك؟ قال أمرنى أن أجير بين الناس ففعلت . قالوا فهل أجاز ذلك محمد؟ قال لا . قالوا ويلك والله إن زاد على أن لعب بك فما يغنى عنا ما قلت . قال لا والله ما وجدت غير ذلك .

غير أن قريشاً لما طالت غيبة أبى سفيان أهتمته أشد الأهمية وقالوا قد صبا واتبع محمداً سرّاً وكتم إسلامه .

ولكنه لم يصباً ولم يتبع رسول الله ﷺ إنما طالت غيبته بسبب أنه أكثر من الالتجاء والتحدث إلى أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ليشفعوا له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما طال انتظاره وأيس منهم عاد إلى مكة من غير أن ينال طائلاً .

استعداد رسول الله ﷺ

للزحف على مكة

أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعد سراً للزحف على مكة . وكان يقول « اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا إلا قلقة » وقال لعائشة رضى الله عنها ، جهزينا وأخفى أمرنا . فجهزت قمحاً وسويقاً ودقيقاً وذلك قبل أن يستشير أحداً . ثم أخبر أبا بكر أنه يريد قريشاً وقال له : أخف ذلك يا أبا بكر . وأمر الناس بالجهاز وطوى عنهم الوجه الذى يريد . وأرسل إلى أهل البادية ومن حوله من المسلمين فى كل ناحية يقول لهم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة » وذلك بعد أن نشاور مع أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى السير إلى مكة . فذكر له أبو بكر ما يشير به إلى عدم السير حيث قال له : « هم قومك » وحضه عمر حيث قال : « نعم . هم رأس الكفر . زعموا أنك ساحر وأنت كذاب » وذكر له كل سوء كانوا يقولونه : « وإيم الله لا تذلل العرب حتى تذلل أهل مكة » فعندئذ ذكر رسول الله ، أن أبا بكر كإبراهيم وكان فى الله ألين من اللين . وأن عمر ككنوخ وكان فى الله أشد من الحجر وأن الأمر أمر عمر . وأمر بالأقارب ، وأوقف بكل طريق جماعة ليعرف من يمر بها وقال لهم لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكروا له إلا ردتموه .

كتاب حاطب إلى مكة

ولما علم الناس بمسير رسول الله إلى قريش ، كتب حاطب بن أبى بلتعة البدرى ، حليف بنى أسد كتاباً إلى مكة^(١) يخبرهم بمسير النبي صلى الله عليه وسلم وأرسله مع امرأة^(٢) استأجرها بعشرة دنانير وكساها برداً وقال لها أخفيه ما استطعت ولا تمرى على الطريق فإن عليه حراساً . فحملت الكتاب فى ضفائر رأسها خوفاً من أن يطلع عليها أحد ثم خرجت به وسلكت غير الطريق وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام فقال أدركا امرأة قد كتبت معها حاطب بن أبى بلتعة بكتاب

(١) كان الكتاب موجهاً إلى ثلاثة من كبار قريش وهم : سهيل بن عمرو ، صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل .

(٢) اسم هذه المرأة سارة وهى مولاة لبنى عبدالمطلب وسأى ذكرها فبين أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه يوم فتح مكة .

إلى قريش يحذرهم ماقد أجمعنا له في أمرهم فخذوه منها وخوا سبيلها (وقد كان حاطب رسول الله ﷺ إلى المقوقس سنة ست) .

فخرجوا حتى أدركا هذه المرأة بالخلقة ، خليقة بني أبي أحمد فاستنزلاها فالتسا في رحلها الكتاب فلم يجدوا شيئا فقال لها علي بن أبي طالب إني أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا ولنخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك . فلما رأت الجلد منه قالت أعرض فأعرض فخلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا فقال يا حاطب ما حلك على هذا ؟ فقال يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ولكني كنت امرأ ليس لي في اتقوم من أصل ولا عشيرة وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله دعني أضرب عنقه فإن الرجل قد نافق (أي خالف الأمر) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه شهد بدرأ وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر ، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . فانزل الله عز وجل في حاطب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ إلى قوله إليك أنبنا إلى آخر القصة .

وقد جاء في كتابه ما يأتي :

« من حاطب بن أبي بلتعة إلى سهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية . أما بعد يا معشر قريش فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءكم بجيش عظيم يسير كالسيل فوالله لو جاءكم وحده لصره الله وأنجزه وعده فانظروا لأنفسكم والسلام » .

وفي رواية أن لفظ الكتاب :

« إن رسول الله ﷺ أذن في الناس بالفرز ولا أراه يريد غيركم وقد أحببت أن تكون لي عندي يد » . وعلى كل حال فإن في إرسال هذا الكتاب لقريش إفشاء لسر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتفه ولولا أن حاطبا كان من المجاهدين في غزوة بدر لعاقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ترى أن عمر كان يريد ضرب عنقه . وقيل إن عمر رضى الله عنه قال قاتلك الله ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ بالألقاب وتكتب إلى قريش !

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسفرو واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن خاف الغفاري^(١) وقيل استخلف ابن أم مكتوم وبه جزم الحافظ الدمياطي .

وخرج لعشر مضي من شهر رمضان سنة ثمان (أول يناير سنة ٦٣٠ م فصام رسول الله ﷺ وصام الناس

(١) أبو رهم الغفاري اسمه كلثوم بن الحصين أسلم بعد قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وشهد أحدا فرمى بسهم في نحره فسحق « المنحور » . واستخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة عام الفتح فلم يزل عليها حتى انصرف رسول الله من الطائف وشهد بيعة الرضوان وباع تحت الشجرة وغزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك .

معه حتى إذا كان بالكديد ما بين (عُسفان وأميج) أفطر رسول الله ﷺ ثم مضى حتى نزل مرة الظهران في عشرة آلاف من المسلمين ، وكان قد بعث إلى من حوله من العرب وطلب حضورهم وهم : أسلم وغفار . وأشجع وسليم . وبعث رسلا في كل ناحية وقيل إن العشرة آلاف خرج بهم من نفس المدينة ، ثم تلاحق به ألفان فيكون المجموع ١٢٠٠٠ ، ولم يتخاف عنه أحد من المهاجرين والأنصار .

وذكرت السيرة الحلبية أن عدد الجيش كان كما يأتي .

٧٠٠	مهاجر ومعهم	٣٠٠	فرس
٤٠٠٠	من الأنصار ومعهم	٥٠٠	»
١٠٠٠	من مزينة ومعها	١٠٠	»
٤٠٠	من أسلم ومعها	٣٠	فرسا
٨٠٠	من جهينة ومعها	٥٠	»
٦٩٠٠		٩٨٠	

لكن هذا العدد أقل من المشهور بكثير بل هو أقل ممن خرج من المدينة وحدها .

وكان معه ﷺ من زوجاته أم سلمة وميمونة رضي الله عنهما . وكان خروجه بعد العصر . ولم يزل رسول الله ﷺ مفطراً رقا بالمسلمين حتى انسلخ الشهر لأنه وإن قدم مكة قبل تمام الشهر لكنه كان في أهبة القتال ، وقد عُثِمَت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ماهو فاعل . وخرج في تلك الليلة أبو سفيان ابن حرب وحكيم بن حزام^(١) وبديل بن ورقاء الخزاعي ، يتجسسون الخبر عن رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم فأقبلوا يسبرون حتى أتوا مر الظهران . قال العباس : - وكان قد خرج من مكة - سمعت أبا سفيان وهو يقول : والله ما رأيت كالיום قط نيراناً . فقال بدبل : هذه والله نيران خزاعة حمشها الحرب . فقال أبو سفيان : خزاعة الأم من ذلك وأذل قال العباس فعرفت صوته ، قلت يا أبا حنظلة ، (يعني أبا سفيان) فقال أبو الفضل ؟ (العباس) قلت نعم فقال ليبيك فذاك أبي وأمي فما وراءك ؟ قلت هذا رسول الله ﷺ ورأى قد دلف إليكم بما لا قبل لكم به . بعشرة آلاف من المسلمين . قال فما تأمرني ؟ قلت تركب عجز هذه البغلة فاستأمن لك رسول الله ﷺ فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فردفني فخرجت به أركض بغلة رسول الله ﷺ نحو رسول الله ﷺ فكلما مرت بنار من نيران المسلمين ونظروا إلى قالوا عم رسول الله ﷺ هلي بغلة رسول الله ﷺ حتى مرت بنار عمر بن الخطاب ، فقال لأبي سفيان :

(١) حكيم هو ابن أخي خديجة زوجة رسول الله ﷺ وابن عم الزبير بن العوام . وهو من مسلمة النصح وكان من أشرف قريش ووجهها في الجاهلية والإسلام وكان من المؤلفة قلوبهم وكان مولده قبل عام الفيل بثلاث عشرة سنة وعاش ١٢٠ سنة ، ستين سنة في الجاهلية وستين سنة في الإسلام . وتولى سنة ٤٤ هـ أيام معاوية وشهد بدرأ مع الكفار ونجا منهزماً وكانت بيده دار الندوة فباعها من معاوية بمائة ألف درهم وتصدق بمنها .

الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ثم اشتد نحو النبي صلى الله عليه وسلم وركضت البغلة وقد أردفت أبا سفيان حتى اقتحمت على باب القبة وسبقت عمر بما تسبق به الدابة البطيئة الرجل البطيء فدخل عمر على رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد ، فدعني أضرب عنقه . قلت يا رسول الله إني قد أجرته^(١) ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت والله لا ينجيه اليوم أحد دوني فلما أكثر فيه عمر قلت مهلاً يا عمر فوالله ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف ، ولو كان من بني عدى ابن كعب ما قلت هذا . فقال مهلاً يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم وذلك لأنني أعلم أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم . فقال رسول الله ﷺ اذهب فقد أمناه حتى تغدو به على بالغداة فرجع به إلى منزله ، فلما أصبح غدا به على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ قال بأبي أنت وأمي ، ما أوصلك وأهلك وأكرمك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنى شيئاً . فقال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال بأبي أنت وأمي ما أوصلك وما أهلك وما أكرمك ! أما هذه ففي النفس منها شيء . فقال العباس فقلت له ويلك تشهد شهادة الحق قبل والله أن تضرب عنقك . قال فتشهد^(٢) فقال رسول الله ﷺ للعباس حين تشهد أبو سفيان ، انصرف يا عباس فاحبسه عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمر عليه جنود الله . قلت له يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون في قومه فقال نعم « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . ومن دخل للمسجد فهو آمن . ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » فخرجت حتى حبسته عند خطم الجبل بمضيق الوادي فمرت عليه القبائل فيقول من هؤلاء يا عباس ! فأقول سُلَيْمٌ فيقول مالي ولِسُلَيْمٍ فتمر به قبيلة فيقول من هؤلاء ؟ فأقول أسلم فيقول مالي ولأسلم وتمر جهينة فيقول مالي ولجهينة حتى مر رسول الله ﷺ في

(١) قد آن لنا أن نكتب شيئاً عن نرحمة أبي سفيان فهو صحر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي ويكنى أبا حنظلة بابنه حنظلة ، ولد قبل الفيل بعشر سنين وكان من أشرف قريش وكان تاجراً يجهز التجار بماله وأموال قريش إلى الشام وغيرها من أرض العجم وكان يخرج أحياناً بنفسه وكانت إليه راية الرؤساء التي تسمى « العقاب » وإذا حيت الحرب اجتمعت قريش فوضعتها بيد الرئيس وهو الذي قاد قريشاً كلها يوم أحد وكان أبو سفيان صديق العباس وأسلم ليلة الفتح وشهد خيبر والطائف مع رسول الله ﷺ وأعطاه رسول الله ﷺ من غنائم حنين مائة بغير وأربعين أوقية كما أعطى سائر الزوالة وأعطي ابنه يزيد ومعاوية ، وفقت عين أبي سفيان يوم الطائف . قال يونس بن عبيد كان عتبة بن ربيعة وأخوه شعبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو سفيان لا يسقط لهم رأي في الجاهلية فلما جاء الإسلام لم يكن لهم رأي . وروى أنه لما أسلم ورأى المسلمين وكثرهم قال للعباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً . قال إنها النبوة . قال نعم . وفقت عينه الأخرى يوم اليرموك وشهد اليرموك تحت راية ابنه يزيد . ولا عسى أبو سفيان كان يقوده مولى له ، وتوفى سنة إحدى وثلاثين وكان عمره ثمانين سنة وقبل كان عمره ثلاثاً وتسعين سنة .

(٢) قول أبي سفيان لرسول الله ﷺ لا دعاه إلى أن يشهد أن محمداً رسول الله « أما هذه ففي النفس منها شيء » يعني أنه يشك في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولكنه أسلم خوفاً من أن يضرب عنقه وكان الرسول في منتهى الحلم معه .

كتيبته الخضراء^(١) وفيها المهاجرون والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الخلق فقال من هؤلاء يا أبا الفضل ؟ قلت هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار ، قال يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً ! قلت ويحك إنها النبوة . قال نعم إذن ، قلت الحق الآن بقومك فخرهم . فخرج سرياً حتى أتى مكة فصرخ في المسجد : (يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به) قالوا فمه . فقال (من دخل دارى فهو آمن) قالوا ويحك ما تنفى عنا دارك . قال : (ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن) : كذا في رواية ابن إسحاق . ففترق الناس إلى دورهم وإلى المسجد وذكر موسى بن عقبة وغيره أن العباس قال قلت يا رسول الله أبو سفيان وحكيم وبديل قد أجرتهم وهم يدخلون عليك قال أدخلهم فدخلوا عليه ، فكثروا عنده عامة الليل يستخبرهم فدعاهم إلى الإسلام ، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ، فشهد بديل وحكيم ، وقال أبو سفيان ما أعلم ذلك والله إن في النفس من هذا شيئاً فأرجئها ، وفي رواية قال له ﷺ يا أبا سفيان أسلم تسلم . قال كيف أصنع باللات والعزى قال له عمر آخراً عليهما . وكان عمر رضى الله عنه خارج القبة ثم قال عمر أما والله لو كنت خارج القبة ماقلتها . قال أبو سفيان ويحك يا عمر إنك رجل فاحش . دعى مع ابن عى فإياه أكلم الخ .

وكان ممن لقيه ﷺ في الطريق أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه ﷺ وأخوه من الرضاع من حليلة السعدية ، وكان مع أبي سفيان ولده جعفر وعبد الله بن أبي أمية الخزومي ابن عمته صلى الله عليه وسلم عائكة بنت عبد المطلب وهو أخو أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم لأنها لأن أمها عائكة بنت عامر بن قيس . يقال إن الذين كانوا يشبهون النبي صلى الله عليه وسلم : جعفر بن أبي طالب - والحسن بن علي - وقثم بن العباس - وأبو سفيان بن الحارث .

وكان أبو سفيان بن الحارث من الشعراء اللطوبعين وكان سبق له هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وإياه عارض حسان بن ثابت بقوله :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى مغافلة قد برح الخفاء
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

وكان لقاء أبي سفيان ومن معه النبي صلى الله عليه وسلم بليق العقاب فيما بين مكة والمدينة . فالتسا الدخول على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمته أم سلمة فيهما فقالت يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك ، قال لا حاجة لى بهما أما ابن عى فهتك عرضى ، وأما ابن عمى وصهرى فهو الذى قال بمكة ما قال : (يعنى قوله : والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلماً إلى السماء فتخرج فيه وأنا أنظر ثم تأتى بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله أرسلك)

(١) كتيبه الخضراء للبهيم الحديد والعرب تطلق الخضرة على السواد كما تطلق السواد على الخضرة وكان عدد الذين يلبسون الدروع ٢٠٠٠

فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بنى له فقال والله ليأذن لي أو لأخذن بيد بنى هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . فلما بلغ رسول الله ﷺ رقى لهما ثم أذن لهما فأسلما وأنشد أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى منه :

لعمرك إني يوم أحمل راية	لتقلب خيلُ السلات خيل محمد
لكالدج الحيران أضلم ليله	فهذا أوأني حين أهدى وأهتدى
وهاد هداني غير نفسي ودلني ^(١)	على الله من طردت كل مطرد
أصد وأناى جاهدا عن محمد	وأدعى ولو لم أنسب من محمد
هم ما هم من لم يقل بهوام	وإن كنت ذا رأى يُسلم ويفند
أريد لأرضيهم ولست بلائط	مع القوم ما لم أهد في كل مقعد
قل لتقيف لا أريد قتالها	وقل لتقيف تلك عيرى أو عدى
وما كنت في الجيش الذي نال عامرا	وما كان عن جرى لسانى ولا يد
قبائل جاءت من بلاد بعيدة	نزاع جاءت من سهام ومردد

قال ابن إسحاق فزعموا أنه حين أنشد رسول الله ﷺ قوله ودلني على الله من طردت كل مطرد . ضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال : « أنت طردتني كل مطرد » وقال على رضى الله عنه لأبي سفيان بن الحارث عند إذنه ﷺ له في الدخول عليه أنت من قبل وجهه قل له ما قال إخوة يوسف : « تالله لقد أترك الله علينا وإن كنا لخاطئين » فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً ، ففعل ذلك أبو سفيان فقال له ﷺ : « لا تنزيب عليك اليوم يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

رسول الله ﷺ

يأذن لأصحابه بالإفطار في رمضان

صام رسول الله ﷺ في سفره إذ كان الشهر رمضان وصام الناس حتى إذا كانوا بالكديد (محل بين عسفان وقديد) أفطر ونادى منادى رسول الله : من أحب أن يصوم فليصم ومن أحب أن يفطر فليفطر . وفي بعض الأيام صبر رسول الله ﷺ على رأسه ووجهه من شدة العطش وهو صائم وفي رواية أنه ﷺ لما بلغ الكديد بلغه أن الناس

(١) ويروى : « ودلني على الحق » ، وزوى : « ودلني مع الله » .

شق عليهم الصيام وأنهم ينظرون فيما فعل أى من صومه ، فاستوى على راحته بعد العصر ودعا بإناء فيه ماء وقيل لبن فشرب ثم ناوله لرجل بجانبه فشرب . قيل له بعد ذلك إن بعض الناس صام فقال : أولئك هم العصاة . لأنهم خالفوا أمره لهم بالفطر ليقووا على مقاومة العدو ، ولأنه ﷺ قال للصحابة لما دنوا من عدوهم ، إنكم قد دنوتم من عدوكم . والفطر أقوى لكم . فلم يزل رسول الله يفطر حتى انتهى شهر رمضان .

عقد الألوية والرايات

عقد رسول الله ﷺ الألوية والرايات بقديد ودفعا للقبائل كما يأتي :
أعطى لبنى سليم لواء وراية . ولبنى غفار راية . ولأسلم لواءين . ولبنى كعب راية . وازينة ثلاثة ألوية .
ولجهمينة أربعة ألوية . ولجاعة أسلموا من بكر لواء . ولأشجع لواءين .

نيران جيش المسلمين

لما نزل ﷺ مر الظهران أمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار لتراها قريش أو تسمع بها فترغب عن كثرتها وجعل على الحرس عمر بن الخطاب رضى الله عنه .
قال الواقدي خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة فقاتل يقول يريد قريشاً وقاتل يقول يريد هوازن وقاتل يقول يريد ثقيفا .
ثم دعا رسول الله ﷺ أن تسمى عليهم الأخبار واستجاب الله لرسوله ﷺ فأخذ العيون والأبصار من أهل مكة ولم يلبثهم مسيره وهم مفتونون محزونون خائفون .
وقد كانت زحف الجيش سريعاً جداً فإنه وصل إلى نحر الظهران وهي على مرحلة من مكة في اليوم السابع أو الثامن .

ولما رأى أبو سفيان بن حرب كثرة النيران قال ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً .
وأمر رسول الله ﷺ كل قبيلة أن تكون عند راية صاحبها وتظهر مامعها من القوة والعدة فأصبح الناس على ظهر ، وقدم بين يديه الكتائب ومرت القبائل على قادتها والكتائب على راياتها فجعلت القبائل ككتيبة (وفي أثناء مرور الجيش كان أبو سفيان واقفاً ينظر إليهم) فأول من قدم خالد بن الوليد رضى الله عنه في بني سليم ثم مر على أنزله الزبير بن العوام ثم مرت كتيبة بنى غفار وكان يحمل رايته أبو ذر وهكذا إلى أن مر الجيش بأسره كما تقدم غير أنه لما حاذى سعد بن عبادة أبا سفيان قال « يا أبا سفيان اليوم يوم اللحمة . اليوم تستحل الكعبة »

قال أبو سفيان يا عباس حبذا يوم الذمار^(١) وسمع مقالة سعد بن عبادَةَ أحد الصحابة فقال يا رسول الله ما تأمن أن تكون لسعد صولة في قريش . فقال لعلى رضى عنه أدركه فخذ الراية منه ثم أسرِه أن يسلمها لابنه قيس بن سعد بن عبادَةَ لأنه عليه السلام خشي تغير خاطر سعد فأمر بدفعها لابنه .

وأمر رسول الله ﷺ أن يركز رايته بالحجون قال الحابي في السيرة « وفي ذلك الحبل بُنى مسجد يقال له مسجد الربة » ودخل ﷺ من الثانية العليا وأمر خالد بن الوليد ومن معه أن يدخلوا من الثانية السفلى .

روى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته القهواء مردفا أسامة بن زيد رضى الله عنهما خلفه^(٢) ودخل واضعاً رأسه الشريف على راحلته تواضعاً لله تعالى حين رأى ذلك الفتح العظيم وكثرة المسلمين وهو يقول « اللهم إن العيش عيش الآخرة » وكان دخوله يوم الاثنين وكان متمجراً بشقة برد حبرة حمراء .

وكان لواؤه ﷺ يوم دخل مكة أبيض ورايته سوداء تسمى العقاب وكانت من برد لعائشة رضى الله عنها وهى التى كانت بخير واعتسل لدخول مكة .

وقد أمر رسول الله ﷺ رؤساء الجيش أن يكفوا أيديهم وقال : « لا تقاتلوا إلا من قاتلكم » ، فاندفع خالد ابن الوليد رضى الله عنه حتى دخل من أسفل مكة وقد تجمع بها ناس من بنى بكر وبنى الحارث بن عبد مناف وناس من هذيل الذين استنصرت بهم قريش ، فقاتلوا خالداً ومنعوه الدخول وشهروا السلاح ورموه بالنبل وقالوا لا ندخلها عنوة ، فصاح خالد فى أصحابه فقاتلهم فانهزموا شر انهزام وقتل من بنى بكر نحو ٢٤ رجلاً ، ومن هذيل أربعة حتى انتهى بهم القتال إلى الحزورة وكانت سوقاً بمكة^(٣) ثم دخلوا الدور وارتفعت طائفة منهم على الجبال هرباً وتبعهم للمسلمون فصاح حكيم بن حزام وأبو سفيان « يا معشر قريش علام تقتلون أنفسكم ؟ من دخل دارى فهو آمن ومن وضع السلاح فهو آمن » فجعلوا يقتحمون الدور ويفلقون أبوابها ويطرحون السلاح فى الطرق فيأخذهم المسلمون . وقتل من المسلمين رجلاً خطأ الطريق أحدهما كرز بن جابر الفهرى والآخر خالد الأشقر الخزاعى . قال موسى بن عقبة قال رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن لخالد رضى الله عنه : قاتلت وقد نهيتك عن القتال . قال هم بدأونا بالقتال ورمونا بالنبل وقد كفت يدي ما استطعت فقال ﷺ قضاء الله خير .

وكان دخوله ﷺ لعشر بقين من رمضان (يناير سنة ٦٣٠ م) ومعه صلى الله عليه وسلم زوجته أم سلمة

(١) ما يلزمك حاجته (٢) وهذا من مزيد تواضعه صلى الله عليه وسلم لأن أسامة خادمه وابن خادمه ولو كان فيه ذرة من الكبر لما فعل ذلك فى هذا اليوم العظيم الذى تتجه فيه الأنظار إليه صلى الله عليه وسلم .

(٣) كانت الحزورة سوق مكة وقد دخلت للمسجد لما زيد فيه . وفى الحديث وقف النبي صلى الله عليه وسلم بالحزورة فقال : يا أيها مكة ما أطيبك من بلدة وأحبك إلى ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك .

- ٣١٤ -

وميمونة رضى الله عنها ، وأم سلمة هي بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومي واسمها هند ، وأما ميمونة فهي بنت الحارث وهي خالة خالد بن الوليد .

المحكوم عليهم بالقتل

وقد استثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أناساً من الدخول في الأمان وأمر بقتلهم وهم خمسة عشر ما بين رجل وامرأة وهذه أسماؤهم :

- ١ - عبد الله بن أبي سرح بن الحارث العامري (أخو عثمان بن عفان من الرضاعة) .
- ٢ - عبد الله بن خطل .
- ٣ - عكرمة بن أبي جهل
- ٤ - الحويرث بن ثقيد
- ٥ - مقيس بن صبابه
- ٦ - هبار بن الأسود بن المطلب
- ٧ - كعب بن زهير بن أبي سلمى للزنى
- ٨ - الحارث بن هشام المخزومي وهو أخو أبي جهل لأبويه
- ٩ - زهير بن أمية المخزومي أخو أم سلمة
- ١٠ - صفوان بن أمية بن خلف الجحفي
- ١١ - وحشى بن حرب قاتل حمزة
- هؤلاء هم الرجال ، وأما النساء فهن :
- ١٢ ، ١٣ - قينتان كانتا عند عبد الله بن خطل تغنيان بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين
- ١٤ - سارة مولاة لبنى المطلب بن عبد مناف
- ١٥ - هند بنت عتبة زوج أبي سفيان أم معاوية
- وأكثر هؤلاء أسلموا . وفيما يلي نذكر سبب إهدار دمهم

(١) أبى عبد الله بن أبي سرح فإنه كان أسلم ثم ارتد ولحق بمكة وصار يتكلم بكلام قبيح في حق النبي صلى الله عليه وسلم فأهدر دمه ﷺ يوم الفتح . فلما علم بإهدار دمه لجأ إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه وكان أخاً له في الرضاعة قال يا أبا عبد الله استأمن لي رسول الله ﷺ قبل أن يضرب عنق . فضربه عثمان رضى الله عنه حتى هدا الناس وأطمانوا

ثم أتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار يقول عثمان يا رسول الله أمتته فبايعه والنبي ﷺ يعرض عنه مرارا .
ثم قال نعم فبسط يده فبايعه وأسلم وحسن إسلامه .

وفي السيرة الحلبية : وإنما أمر ﷺ بقتل ابن أبي سرح لأنه كان أسلم قبل الفتح وكان يكتم رسول الله ﷺ الوحي . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أُملي عليه سميعاً بصيراً ، كتب عاباً حكماً . وإذا أُملي عليه ، عاباً حكماً . كتب غفوراً رحيماً . وكان يفعل هذه الخيانات حتى صدر عنه أنه قال إن محمداً لا يعلم ما يقول . فلما ظهرت خيانتة لم يستطع أن يقيم بالمدينة فارتد وهرب إلى مكة . وقيل إنه لما كتب « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » إلى قوله : « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ » تعجب من تفصيل خلق الإنسان فنطق بقوله - فيارك الله أحسن الخالقين - قبل إملائه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اكتب ذلك . هكذا أنزلت . فقال عبد الله ، إن كان محمد نبياً يوحى إليه ، فأنا نبي يوحى إلي . فارتد ولحق بمكة . فقال لقريش ، إني كنت لأصرف محمداً كيف شئت . كان يملئ عليّ « عزيز حكيم » فأقول أو علم حكيم . فيقول ، نعم كل صواب . وكل ما أقوله يقول ، اكتب هكذا نزل إلخ .

وأخطأ الأستاذ در منجم في كتاب (حياة محمد) فقال إن اسمه عبد الله بن سعد والصواب ما ذكرنا
(٢) عبد الله بن خطل : فإنه كان ممن قدم للمدينة قبل الفتح وأسلم وكان اسمه « عبد العزى » فسماه النبي صلى الله عليه وسلم (عبد الله) وبعثه لأخذ الصدقة وأرسل معه رجلاً من الأنصار يخدمه وكان مسلماً فنزل منزلاً وأمره أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً ونام ثم استيقظ فلم يجد له شيئاً وهو نائم فلما عليه قتله ثم ارتد مشركاً وكان شاعراً فجعل يهجو النبي صلى الله عليه وسلم في شعره . وكان له قينتان تغنيانه بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان يوم فتح مكة ركب فرسه ولبس درعه وأخذ بيده قناة وصار يقسم لا يدخلها محمد عنوة ، فلما رأى خيل المسلمين خاف وذهب إلى الكعبة وألقى سلاحه وتعلق بأستارها فوجده رسول الله عند طوافه وهو بهذه الحال فقال اقتلوه فإن الكعبة لا تميد عاصياً ولا تمنع من إقامة حد واجب . قتل واختلف فيمن قتله . فأما القينتان واسمهما فرتنا وقريبة فقتلت قريبة واستؤمن رسول الله لفرتنا فأمنها فأسلمت وعاشت إلى خلافة عثمان .

(٣) عكرمة بن أبي جهل : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله لأنه كان من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أشد الناس على المسلمين ولما بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدر دمه هرب ليلقي نفسه في بئر أو يموت تائهاً في البلاد أو كما تقول الآن : هرب لينتحر غرقاً أو جوعاً . وكانت امرأته أم حكيم رضى الله عنها بنت عمه الحارث بن هشام رضى الله عنه أسلمت قبله فاستأمنت له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمنه فقال هو آمن ففرجت في طلبه فأدر كته فرجع معها وأسلم أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بعد ذلك من

فضلاء الصحابة وخالد بن الوليد ابن عمه وقتل عكرمة في اليرموك .

(٤) الحويرث بن نقيد : أهدر دمه رسول الله ﷺ لأنه كان يعظم القول فيه ﷺ وينشد الهجاء فيه ويكثر أذاه وهو بمكة وكان قد شارك هبار بن الأسود في نخس جل زينب بنت رسول الله ﷺ لما هاجرت من مكة . قتله على رضى الله عنه ..

(٥) مقيس بن صبابه : كان قد أسلم ثم أتى على أنصاري قتله وكان الأنصاري قتل أخاه هشام بن صبابه خطأ في غزوة « ذى قرد » ظنه من العدو فجاء مقيس فأخذ الدية ثم قتل الأنصاري ثم ارتد ورجع إلى قريش فأهدر رسول الله دمه قتله نائلة بن عبد الله الليثي ، رجل من قومه .

(٦) هبار بن الأسود . كان شديد الأذى للمسلمين ، وكان عرض لزينب رضى الله عنها بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت فنخس بها الجمل حيث سقطت على صخرة وأسقطت جنينها ولم تزل مريضة حتى ماتت واشترك معه في النخس الحويرث بن قبيد الذي مر ذكره ، وأهدر دم هبار بن الأسود يوم الفتح فهرب واختفى ثم جاء النبي ﷺ واعترف بذنبه وأسلم فغفا عنه ومنع للمسلمين من سبه مع أنه كان سبياً في وفاة ابنته .

(٧) كعب بن زهير : كان شاعراً وكان يهجو النبي ﷺ بشعره ، وكان يعير أخاه بيجرا لإسلامه فأهدر دمه فلما بلغه أنه ﷺ أمر بقتله خاف وخرج حتى قدم للدينة بعد رجوع النبي ﷺ من فتح مكة وأسلم أمامه وأنشد قصيدته المعروفة التي أولها :

* بابت سعاد فهاى اليوم متبول *

وقال فيها :

إن الرسول لنور يستضاء به مهتد من سيوف الله مسلول

فلما وصل إلى هذا البيت رمى عليه الصلاة والسلام إليه بردة كانت عليه وإن معاوية رضى الله عنه في زمن خلافته بذل له فيها عشرة آلاف درهم فقال ما كنت لأؤثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أعطانيه أحداً . فلما مات بث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفاً فأخذها منهم وهى البردة التى كانت عند السلاطين ؛ وكان الخلفاء يلبسونها في الأعياد ، وقيل إنها قدلت في وقعة التتار .

وقد كان كعب بن زهير من فحول الشعراء ، وكذا أبو زهير وأخوه بجير وابنه عقبة بن كعب وابن ابنه العوام بن عقبة .
(٨) الحارث بن هشام : كان شديداً على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين وابنه عبد الرحمن بن الحارث بن هشام .

(٩) زهير بن أمية : كان أيضاً شديداً في كفره ، كالحارث بن هشام فأهدر رسول الله دمه يوم الفتح فهربا

واختبأ في بيت أم هانئ بنت أبي طالب أخت علي رضي الله عنه فأجارتها فأجاز صلى الله عليه وسلم جوارها ثم جاءت بهما فأسلما وحسن إسلامهما .

(١٠) صفوان بن أمية : كان من أشد الناس عداوة وأذية لرسول الله والمسلمين فأهدر رسول الله دمه فاخفى وأراد أن يلقي نفسه في البحر ، فجاء ابن عمه عير بن وهب الجمحي رضي الله عنه وقال : يا بني الله إن صفوان سيد قومه وقد هرب ليقذف نفسه في البحر فأمنه . فإنك أمنت الأحمر والأسود . فقال رسول الله أدرك ابن عمك فهو آمن . فقال أعطني آية يعرف بها أمانك فإني قد طلبت منه العود فقال لا أعود معك إلا أن تأتيني بعلامة أعرفها فأعطاه صلى الله عليه وسلم عمامته التي دخل بها مكة فلحقه بها وهو يريد أن يركب البحر فقال له صفوان اغرب عني لا تكلمني . قال : أي صفوان فذاك أبي وأمي جثتك من عند أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس وهو ابن عمك عزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك . قال إني أخافه على نفسي . قال هو أحلم من ذلك وأكرم وأراه العمامة التي جاء بها فرجع معه حتى وقف على رسول الله . فقال إن هذا يزعم أنك أمنتني قال صدق . فقال أمهاني بالخيار شهرين . فقال ﷺ : أنت بالخيار أربعة أشهر . ولما أراد ﷺ الخروج إلى حرب هوازن استقرض منه أربعين ألف درهم ؛ وطلب منه دروعاً كانت عنده . فقال : أغصباً يا محمد ؟ قال : لا ولكن عارية مرجوعة أو مضمونة ثم خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج لحرب هوازن وهو على شركه فلما قسم رسول الله غنائم هوازن بخينين أعطاه مائة من الإبل ثم مائة ثم مائة ثم رآه صلى الله عليه وسلم يرمق شعباً مملوءاً نماً وشاء . فقال له ﷺ : يجيبك هذا ؟ قال نعم . قال هو لك وما فيه . قبض صفوان ماني الشعب وقال إن للسوء لا تطيب نفوسها بمثل هذا ؛ ما طابت نفس أحد قط بمثل هذا إلا نبي . أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فأسلم وحسن إسلامه ؛ وترك اللدة التي كان طلبها .

(١١) وحشى بن حرب : أهدر رسول الله دمه لأنه قتل حمزة رضي الله عنه يوم أحد ، وكانت الصحابة أحرص شئ على قتله ، فلما فتحت مكة هرب إلى الطائف ولما خرج وفد الطائف ليسلموا ضاقت عليه للذهاب فخرج حتى قدم على رسول الله وشهد شهادة الحق ثم خرج وحشى مع من خرج لقتال أهل الردة في خلافة أبي بكر فقتل مسيلاً الكذاب بحريته التي قتل بها حمزة رضي الله عنه فكان يقول أرجو أن تكون هذه بتلك أي أن هذه تكفر تلك .

(١٢ ، ١٣) أما القينتان فقد تقدم ذكرهما .

(١٤) وأما سارة مولاة بني المطلب فقد أهدر رسول الله دماً لأنها كانت مغنية بمكة تفني بهجاء النبي ﷺ وقيل هي التي كان معها كتاب حاطب بن أبي بلتعة^(١) وكانت قدمت المدينة تشكو الحاجة وتطلب الصلاة فقال لها

(١) راجع السيرة النبوية لدحلان وتاريخ أبي القدا .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان في غنائك ما يغنيك ؟ فقالت إن قريشا منذ قُتل من قتل منهم يبدر تركوا الغناء فوصلها وأوقر لها بغيراً طعاماً فرجعت إلى مكة وكان ابن خطل ياتي إليها هجاء رسول الله فتغنى به فاخفت عند فتح مكة ثم استؤمن لها رسول الله فجاءته وأسلمت وحسن إسلامها ، وعاشت إلى خلافة أبي بكر .
(١٥) هند بنت عتبة بن ربيعة زوج أبي سفيان وأم ابنه معاوية .

أهدر دمها رسول الله لأنها مثلت بعمه حمزة رضي الله عنه يوم أحد^(١) ولاكت كبده ، فلما كان يوم الفتح اختفت في بيت أبي سفيان زوجها ثم أسلمت . قيل إن بين إسلامها وإسلام زوجها ليلة واحدة وكانت هند امرأة ذات أفة وعقل . حضرت قتال الروم يوم اليرموك مع أبي سفيان ، وكانت تشجع المسلمين وتحرضهم على القتال مع بقية النسوة اللاتي كن معها .

من هذا يقين أن عدد الذين أهدر دمهم رسول الله خمسة عشر ، لم يقتل منهم إلا أربعة وأسلم الباقون . قال مسير مؤيد أن الذين قتلوا فلام أربعة فقط . وقد اختفى عتبة ومعتب ابنا أبي لهب ثم أسلما واختفى أيضاً سهيل بن عمرو وكان ابنه مسلماً ثم أسلم بالجرانة^(٢) ،

وجاء في كتاب تاريخ الأمم الإسلامية للرحوم الشيخ محمد الخضرى بك ص ١٨٧ ما يأتى :

« وأمر حين دخوله مكة بقتل أفراد ذوى جرائم خاصة بهم فقتل أكثرهم » وهذا ليس بصحيح فالذين قتلوا هم الأقلون لا الأكثرون . وضربت لرسول الله قبة من آدم بالحجون ، فضى الزبير بن العوام بראيته حتى ركزها عندها وجاء رسول الله فدخاها فقبل له ألا تنزل منزلك ؟ فقال : وهل ترك عقيل لنا منزلاً^(٣) ؟ .

الطواف : ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة ومعه المسلمون استلم الركن بمحجته (المحجن عصا في طرفها عتافة كالصولجان) وكبر فكبر المسلمون لتكبيره ورجعوا التكبير حتى ارتجت مكة تكبيراً حتى جعل يشير إليهم رسول الله أن اسكتوا والمشركون فوق الجبال ينظرون ، فطاف بالبيت ومحمد بن مسلمة أخذ بزمام الناقة سبعة يستلم الحجر الأسود كل طوفة بمحجته ، وكان ذلك يوم الاثنين لعشر بقين من رمضان كما تقدم وهو حلال غير محرم . ولما فرغ رسول الله من طوافه نزل عن راحلته ثم انتهى إلى المقام فصلى ركعتين ، ثم انصرف إلى زمزم وقال : لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لنزعت منها دلواً فنزع له العباس دلواً فشرب منه وتوضأ والمسلمون يتسددون وضوءه يصبونه على وجوههم والمشركون يعجبون ويقولون : ما رأينا ملكاً قط أبلغ من هذا ولا سمعنا به .

(١) راجع غزوة أحد (٢) الجرانة هي ماء بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب .

(٣) عقيل هو ابن أبي طالب ، ابن عم رسول الله وأخو علي وجعفر لأبيهما وهو أكبرهما ، خرج مع المفكرين إلى بدر مكرها فأسر يومئذ . أسلم قبل الحديبية . وتولى عقيل في خلافة معاوية .

دخوله الكعبة

جلس رسول الله في ناحية للمسجد وأبو بكر رضى الله عنه قائم على رأسه بالسيف ثم دعا عثمان بن طلحة حاجب الكعبة فأخذ منه مفتاح الكعبة ودخلها وصلى ركعتين بين العمودين اليمانيين ، ثم وقف على باب الكعبة وقال :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له . صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سداثة البيت ^(١) وسقاية الحاج . ألا وقتل الخطأ مثل العمد . السوط والعصا فيهما الدية مغلفة فيها أربعون خلفه ^(٢) في بطونها أولادها . يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتغلمها بالآباء . الناس من آدم وآدم خلق من تراب . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ الآية . يا معشر قريش ويا أهل مكة ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً . أخ كرم وابن أخ كرم . ثم قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » - فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فيثا فبذلك يسمى أهل مكة « الطلقاء ^(٣) » أما مفتاح الكعبة فقد رده رسول الله إلى عثمان بن طلحة وقال خذوها يا بنى أبى طلحة خالد لا ينزعها منكم أحد إلا ظالم ^(٤) ودفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب ^(٥) . وفى هذا اليوم صار رسول الله سيد مكة بعد أن هاجر منها مضطهداً واستولى جيشه عليها وقضى على الشرك وهدم الأصنام كما سيأتى .

بيعة أهل مكة

اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله فجاس لهم على الصفا وعمر بن الخطاب تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسفل من مجلسه يأخذ على الناس فبايع رسول الله على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، وكذلك كانت بيعته لمن بايع رسول الله من الناس على الإسلام ، وبينما رسول الله يبايع الناس ، جاءه رجل فأخذته الرعدة ، فقال رسول الله هون عليك ، فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد . ومن جملة

(١) سداثة البيت : خدمة . (٢) الخلفة : الناقة الحامل .

(٣) ومن ذلك كان على عليه السلام يقول لمأوية « أنى يستوى الولي والمعتق » يعنى أعتقناكم حين مكنتنا الله من رقابكم .

(٤) هاجر عثمان بن طلحة إلى رسول الله في هدنة الحديبية مع خالد بن الوليد ولقيهم في الطريق عمرو بن العاص كما تقدم فأسلموا وأقام عثمان بالمدينة ، فلما توفي رسول الله ، انتقل إلى مكة فأقام بها حتى مات سنة ٤٢ هـ .

(٥) العباس بن عبد المطلب هو جد الخلفاء العباسيين .

من بابه في ذلك اليوم على الإسلام « معاوية بن أبي سفيان » فرحب به رسول الله ثم كان من كتاب الوحي . فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء واجتمع إليه نساء من نساء قريش فيهن هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان منتقبة متنكرة لحديثها وما كان من صنيعها بحمزة فهي تخاف أن يأخذها رسول الله بحديثها ، فلما دنون منه ليبايعه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تباعدنني على أن لا تشركن بالله شيئاً . فقالت هند : وإنك لتأخذنا أمراً ما تأخذ على الرجال وسنؤتيك . قال ولا تسرقن . قالت والله إني كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة وما أدري أكان ذلك حللاً أم لا ؟ قال أبو سفيان - وكان شاهداً لما تقول - أما ما أصبت فيما مضى فانت منه في حل . قال رسول الله وإنك لهند بنت عتبة ؟ فقالت أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف ، قال : عفا الله عنك . قال ولا ترزني . قالت يا رسول الله هل ترزني الحرة ؟ قال ولا تقتلن أولادكن . قالت قد ربيناهم صفاراً وقتلهم يوم بدر كباراً فانت وهم أعلم (فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب) ، ولا تأتين بيهتان فتقرينه بين أيديكن وأرجلكن . قالت والله إن إتيان البيهتان لقبيح ولبعض التجاوز أمثل قال ولا تعصينني في معروف . قالت ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف . قال رسول الله لعمر : يا عمر ، واستغفر لمن رسول الله . وكان رسول الله لا يوافق النساء ، ولا يمس امرأة وتمسه إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه . إنما كان رسول الله يبايع النساء بالكلام ولما أسلمت هند ، عمدت إلى صنم كان في بيتها وجعلت تضربه بالقدوم وتقول : « كنا منك في غرور » .

هذا وقد ذهب الشافعي وأحمد رضي الله عنهما إلى أن رسول الله دخل مكة وملكها صلحاً ويرى أبو حنيفة والأكثر أن فتحها عنوة . وعلى كل حال لم يحارب رسول الله قريشاً ولم يأمر أحداً من قواده بحربهم بل دخل مكة بلا حرب ، فلم ينتقم ممن اضطهدوه وأخرجوه من بلده وتآمروا على قتله بل صفح عنهم عند القدرة بل لم يحمل عند دخوله مكة سيفاً .

هدم الأصنام

دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وعلى الكعبة (٣٦٠) صنماً لكل حي من أحياء العرب صنم قد شدوا أقدامها بالرصاص . فجاء ﷺ ومعه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم فيخرب لوجهه وهو يقول : (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً) . وأمر بكسر هبل^(١) وقد أخرجت جميع الأصنام من المسجد وأحرقت وحيت كل صورة بالكعبة وأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في أيديهما الأزيال التي كانوا يستقسمون بها ، ونادى منادى رسول الله ﷺ بمكة من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره ، فكسروا الأصنام التي كانت في بيوتهم بلا تردد ثم بعث رسول الله السرايا لكسر الأصنام التي حول

(١) راجع باب عبادة الأصنام .

مكة لأنهم كانوا اتخذوا لهم أصناماً جعلوا لها بيوتاً يعظمونها ويهدون لها ويطوفون بها كما يطوفون بالكعبة ، فكان في كل حيٍّ ضمٌّ فيها « العزى ومناة وسواع وبوانة وذو الكفين » .

أذان بلال على ظهر الكعبة

أمر رسول الله ﷺ بلالاً رضي الله عنه أن يؤذن ظهر يوم الفتح على ظهر الكعبة ، فلم يرق أذان بلال لبعض من سمعه من أهل مكة فن قائل : « أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً ؟ » وقال الحكم بن العاص « والله إن هذا لحدث عظيم . عبد بنى جمع يصيح على بنية أبي طلحة ! » ولم يقل أبو سفيان شيئاً خشية أن يعلم بقوله رسول الله ﷺ حتى من الحصباء وصار بعض من قرش يستهزئون ويحكون صوت بلال غيظاً وكان من جملتهم أبو مخذومة^(١) وكان من أحسنهم صوتاً فلما سمعه رسول الله أمره أن يؤذن لأهل مكة وكان سنة ١٦ سنة .

إسلام أبي قحافة (عثمان بن عامر التيمي)

والد أبي بكر الصديق

ذهب أبو بكر رضي الله عنه وجاء بأبيه عثمان وبكنى بأبي قحافة بقوده وقد كف بصره فلما رآه ﷺ قال : هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية ؟ قال أبو بكر : هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه . فأجلسه بين يدي رسول الله فمسح رسول الله صدره وقال : « أسلم تسلم » فأسلم وهما رسول الله ﷺ وأبا بكر بإسلام أبيه . ويلاحظ أن إسلام أبي قحافة تأخر إلى فتح مكة فلم يسلم إلا بعد عشرين سنة أي بعد أن أسلمت قرش . قال المسعودي : « توفي أبو قحافة في خلافة عمر بن الخطاب وهو ابن تسع وتسعين سنة وذلك في سنة ١٣ هجرية وهي السنة التي استخاف فيها عمر بن الخطاب » وهو أول من ورث خليفة في الإسلام .

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد فتحها ثمانية عشر يوماً (كما اعتمدته البخاري) يقصر الصلاة في مدة إقامته بها لأنه كان يترقب المسير إلى حرب هوازن لسماعه بتجهزهم لحاربه .

والا فتح رسول الله ﷺ مكة أشار إلى الأصنام فسقطت لوجهاها ، قال راشد بن حفص :

قالت لهم إلى الحديث فقلت لا يأبى عليك الله والإسلام
لو ما شهدت محمداً وقبيله بالفتح حين تكسر الأصنام

(١) اسمه أوس بن معير بن لؤذان بن ربيعة بن عرج بن سعد بن جم . غلبت عليه كنيته . تولى مكة سنة ٥٩ هـ .

لرأيت نور الله أضحي ساطعاً والشرك يفشى وجهه الإظلام
وكان راشد هذا سادن صنم بني سليم الذي يدعى سواعاً . قال له رسول الله ﷺ : ما اسمك؟ قال غاوى بن
ظالم : قال : أنت راشد بن عبد الله .
وبعد فتح مكة ترك العرب عبادة الأصنام واعتنقوا الإسلام وحاربوا مع رسول الله ﷺ لشر دينه فكان ذلك انتصاراً
عظيماً وفتحاً مبيناً . وقد حرّم الإسلام الصور والرهينة وساوى بين الناس ورفع شأن المرأة ومنحها حقوقاً كانت
محرومة منها وقضى على النسق والفجور وحرّم وأد الأولاد وحروب الجاهلية والأخذ بالتأر وشرب الخمر وأكل لحم
الخنزير واللبس والربا والرشوة مما كان شائعاً في الجاهلية ونشر العدل بين الناس وأمنهم على أرواحهم وأموالهم
واحترم حرمة المنازل وأوجب احترام الوالدين وحماية الأرملة والأيتام وفرض الزكاة وحض على الرفق بالحيوان إلى
غير ذلك مما هو مفصل في كتب الشريعة .

سرية خالد بن الوليد

إلى العزى^(١)

بعد أن قضى رسول الله ﷺ على الأصنام التي كانت على الكعبة ومحاكل صورة بها وكسرت الأصنام التي
كانت في البيوت بأمره، وجه نظره إلى هدم الأصنام الأخرى المجاورة لمكة حتى تطهر البلاد من الوثنية ويعبد الله
الواحد القهار وثبت دعائم الدين الصحيح فبعث حين فتح مكة لخمس ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان من
الهجرة خالد بن الوليد إلى العزى ليهدمها فخرج في ثلاثين فارساً من أصحابه حتى انتهى إليها فهدمها ثم رجع إلى
رسول الله ﷺ فأخبره . فقال هل رأيت شيئاً؟ قال لا . قال لم تهدمها . فارجع إليها فهدمها . فرجع خالد وهو
متغيظ فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس فجعل السادن^(٢) يصيح بها فضر بها خالد فجرحها^(٣)
انثنين ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : نعم تلك العزى وقد بئست أن تعبد ببلادكم أبداً ، وكانت بنخلة (على
بعد ليلة من مكة) وكانت لقريش وجميع بني كنانة ، وكانت أعظم أصنامهم وكان سدنتها بنو شيبان من بني سليم .
قال ابن حبيب : العزى شجرة كانت بنخلة عندها وثن تعبد غطفان فلما بعث رسول الله ﷺ خالد بن
الوليد قطع الشجرة وهدم البيت وكسر الوثن، والبيت كان مبنياً على العزى وكانوا يهدون لها كما يهدون للكعبة
ويطوفون وينحرون عندها .

(١) العزى تأنيث الأعز مثل الكبرى تأنيث الأكبر . والأعز بمعنى العزيز والعزى بمعنى العزيزة وهي أحدث من اللات ومناة
وكانت العرب وقريش تسمى بها عبد العزى .
(٢) السادن : الحامد . (٣) جرحها : قتلها .

سرية سعد بن زيد الأشملي

إلى مناة

مناة صنم للأوس والخزرج وغسان وكانت بالمشلل^(١) ومناة من أقدم الأصنام وكانت العرب تسمى عبد مناة وكانوا يحجون إليها ولم يكن أشد إعظاماً لها من الأوس والخزرج .

بعث رسول الله سعد بن زيد الأنصاري الأشملي^(٢) إلى مناة ليهدمها^(٣) وذلك لست بقين من شهر رمضان فخرج في عشرين فارساً حتى انتهى إليها وعليها سادن . (خادم) فقال السادن ماتريد ؟ قال هدم مناة . قال أنت وذلك . فأقبل سعد يمشي إليها فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة نائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها . فقال السادن مناة دونك بعض غضباتك فضربها سعد فقتلها وأقبل إلى الصنم ومعه أصحابه فهدموه ولم يجدوا في خزانها شيئاً . وما ذكر من أن الذي ذهب لهدمها سعد بن زيد الأشملي هو مامشي عليه في اللواهب تبعاً لطبقات ابن سعد وفي سيرة ابن هشام أنه على بن أبي طالب رضى الله عنه .

وسعد بن زيد الأشملي هو الذي كان بعثه النبي ﷺ بسبيلاً من سبيلاً قريظة إلى نجد ليقبض بهم خيلاً وسلاحاً ومن المضحك حقاً ، اختفاء تلك المرأة السوداء في الصنم لتخيف من يتعدى عليه وإيهام عبادة بماله من قوة ورهبة .

سرية عمرو بن العاص

إلى سِوَاع

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة بعد فتح مكة عمرو بن العاص إلى سِوَاع - اسم صنم لهذيل - على ثلاثة أميال من مكة وكان بأرض يقال لها رُهاط من بطن نخلة وكانت سدنة من بني لحيان ، قال عمرو فأنتهيت إليه وعنده سادن فقال ماتريد ؟ قلت أمرني رسول الله أن أهدمه . قال لا تقدر على ذلك . قلت لم ؟ قال تُمنع . قلت حتى الآن أنت في الباطل ويحك وهل يسمع أو يبصر ؟ قال فدنوت منه فكسرتة وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيه شيئاً . ثم قلت للسادن كيف رأيت ؟ قال أسلمت لله . ولم نجد في كتب التاريخ عدد الذين كانوا مع عمرو بن العاص رضى الله عنه عند ما ذهب إلى هدم سِوَاع .

(١) جبل على ساحل البحر يبعد منه إلى قديد . (٢) شهد سعد بن زيد بدرأ .

(٣) مناة : اسم صنم في جهة البحر بمائل قديداً بالمشلل على سبعة أميال من المدينة . وكانت الأزدي وغسان يهلون له ويحجون إليه (ياقوت) .

سرية خالد بن الوليد

إلى جذيمة

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في شوال سنة ثمان من الهجرة إلى بني جذيمة من كنانة وكانوا بأسفل مكة على ليلة ناحية بَلَسَمَ وهو يوم الغُميصاء داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه مقاتلاً فخرج في ٣٥٠ رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم فالتهمى إليهم خالد فقال من أنتم؟ قالوا : مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنيينا الساجد في ساحاتنا وأذنا فيها . قال : فما بال السلاح عليكم؟ فقالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة نفخنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح . قال فضعوا السلاح فوضعوه . فقال لهم استأسروا . فاستأسر القوم . فأمر بعضهم فكشف بعضهم وفرقهم في أصحابه . فلما كان في السحر نادى خالد : من كان معه أسيرٌ فليداقه^(١) . فأما بنو سليم قتلوا من كان في أيديهم ، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسرارهم فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ما صنع خالد فرفع يديه فقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » وبعث على بن أبي طالب ومعه مال فودى لهم قتلاهم وما ذهب منهم ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره .

كانت بنو جذيمة قد أصابوا في الجاهلية عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف والفكاكه بن النخيرة (عم خالد) وكانا أقبلتا تاجرين من اليمن حتى إذا نزلا بهم قتلوهما وأخذوا أموالهما . فلما أرسل خالد بن الوليد إلى بني جذيمة وقتل منهم من قتل مع أنه لم يؤمر بقتلهم تبرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم مما صنع خالد لأنهم أعلنوا إسلامهم . وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام في ذلك إذ قال له عبد الرحمن : عملت بأمر الجاهلية في الإسلام . فقال خالد إنما تأرت بأبيك . فقال عبد الرحمن بن عوف كذبت . قد قتلت قاتل أبي ولكنك إنما تأرت بعلمك الفكاكه بن النخيرة حتى كان بينهما شيء . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال مهلا يا خالد . دع عنك أصحابي فوالله لو كان لك أحدٌ ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غَدَوَةَ رجل من أصحابي ولا رَوْحَتَهُ ؛ فالنبي كان يقول الحق ولا ينجسني أحداً مهما أوتى من قوة . لذلك لم يخف عن خالد استدياه مما فعل .

غزوة حنين

١٠ شوال سنة ٨ هـ - فبراير سنة ٦٣٠ م

حُنين واد في طريق الطائف إلى جنب ذى الحجاز بينه وبين مكة ثلاث ليال وتسمى غزوة أوطاس^(١) اسم لموضع كانت به للوقعة وهو واد في ديار هوازن . وتسمى الغزوة أيضاً غزوة هوازن . وهوازن اسم قبيلة كبيرة من العرب فيها عدة بطون وكانت هذه الغزوة في ١٠ شوال سنة ثمان من الهجرة (فبراير سنة ٦٣٠ م) .
وسببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة خافت أشراف هوازن وثقيف أن يسير إليهم ويفزؤهم ففرموا على قتاله قبل أن يقاتلهم ويقال إنهم كانوا يستعدون للقتال قبل فتح مكة وذلك حين سمعوا بخروج رسول الله من المدينة وهم يظنون أنه إنما يريدكم فأسندوا الرياسة والقيادة إلى مالك بن عوف أحد بني نضر وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فاجتمع إليه من القبائل جموع كثيرة منهم بنو سعد بن بكر وهم الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مسترضعاً فيهم ومعهم دُرَيْد بن الصَّمَّة رئيس بني جُشَم وسيدهم وكان شجاعاً مجرباً لكنه كان شيخاً بلغ مئة وعشرين سنة وقيل أكثر من ذلك وقد عُمي وصار لا ينتفع إلا برأيه وخبرته ومعرفته بالحروب . وكان قائد ثقيف كنانة بن عبد يا ليل وقد أسلم بعد ذلك .

قوة العدو واستعداده

كان قائد هذا الجيش كما قلنا مالك بن عوف فأمرهم أن يسوقوا معهم إلى الحرب كل شيء : المواشي والأموال والنساء والأبناء كي يثبتوا ولا ينهزموا إلا أنهم اشترطوا عليه أن يأخذ برأى دريد بن الصمة لأنه شجاع وخبير بالحروب ، فلما نزلوا بأوطاس قال دريد : مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصنير ويعار الشاء وخوار البقر ؟ قيل له إن مالك بن عوف ساقهم إلى القتال ، فاستدعاه فلما جاء سأله فقال أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنهم ، فلم ير رأيه وأشار عليه برد الذرية والأموال فلم يقبل ورماه بضعف الرأي لكبر سنه . ثم أمر مالك بالتحليل فجعلت صفوفاً ثم جعل النساء فوق الإبل وراء المقاتلة صفوفاً ثم جعل الإبل والبقر والغنم وراء ذلك كيلا يفروا ويقاتلوا عن ملهم ونسائهم وذرائعهم . ثم قال للناس إذا رأيتوني شددت عليهم فشدوا عليهم شدة رجل واحد .

(١) يجوز أن يكون منقولا من جمع وطيس وهو النور وقيل الوطيس : نقرة في حجر توقد تحتها النار فيطبخ فيه اللحم . ويومئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الآن هم الوطيس » وذلك حين استمرت الحرب . وهو أول من قاله .

وكان جملة من اجتمع من بني سعد وثقيف ٤٠٠٠ وانضم إليهم من سائر العرب جوع كثيرة وكان مجموعهم كلهم نحو ٢٠.٠٠٠ وكانت هوازن رماة .

قوة جيش المسلمين واستعدادهم

كان مع النبي صلى الله عليه وسلم ١٢.٠٠٠ (منهم ١٠.٠٠٠ الذين جاءوا معه من المدينة لفتح مكة و٢.٠٠٠ من الذين أسلموا في فتح مكة) قال أبو بكر « لا تغلب اليوم من قلة » وقيل قالها غيره .
وذكروا لرسول الله عند عزمه على الخروج أن عند صفوان بن أمية دروعاً وسلاحاً فأرسل إليه فأعطاه مئة درع بما يكفيها من السلاح وفي رواية ٤٠٠ درع وسأله رسول الله أن يكتفيهم حملها إلى موضع القتال ففعل . واستعار أيضاً من نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو ابن عمه عليه السلام ٣٠٠٠ رمح وقال كأتى أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر للشركين .

خرج رسول الله من مكة يوم السبت لست خلون من شوال سنة ثمان من الهجرة (٢٨ يناير سنة ٦٣٠ م) وأهل مكة معه ركبانا ومشاة حتى النساء ومن لم يكمل إسلامه . واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عقاب ابن أسيد بن أبي العيص على مكة أميراً وكان شاباً وترك معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي يعلم الناس الأحكام والشرائع لأنه كان عالماً بالقرآن ومتبحراً في الدين .

ترتيب صفوف المسلمين وتوزيع الرايات

ولما اقترب رسول الله عليه السلام من مكان العدو رتب أصحابه وصفهم ووضع الألوية والرايات من المهاجرين والأنصار بالكيفية الآتية :

١ - علي بن أبي طالب - لواء المهاجرين .

٢ - راية لسعد بن أبي وقاص .

٣ - راية لعمر بن الخطاب .

٤ - الحباب بن المنذر - لواء الخزرج .

٥ - أسيد بن حضير - لواء الأوس .

ورتب قبائل العرب ووزع عليهم الألوية والرايات ولبس رسول الله درعين والبيضة والمقفر وركب بفتشه دلال وقدم سليماً من يوم خرج من مكة واستعمل عليهم خالد بن الوليد فلم يزل في مقدمته حتى ورد الجمرة .

جواسيس العدو

أرسل مالك بن عوف رئيس هوازن ثلاثة نفر من الجواسيس ينظرون إلى جيش المسلمين فرجعوا خائفين ونصحوا بالعودة فرماهم بالجن وحبسهم عنده خوفاً أن يشيعوا ذلك في جيشه فتنبط همهم وتخور عزائمهم

جاسوس المسلمين

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من أصحابه وهو عبد الله بن أبي حذرد الأسلى وأمره أن يدخل في جيش العدو ويسمع منهم ما أجمعوا عليه فكث يوماً أو يومين ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره أنه انتهى إلى خباء مالك بن عوف وعنده رؤساء هوازن فسمعه يقول لأصحابه إن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة وإنما كان يلقي قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم فإذا كان السحر فصفا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم . ثم صفوا . ثم تكون الحملة منكم واكسروا أعقاد سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف واحملوا حملة رجل واحد واعلموا أن الغلبة لمن حل أولاً .

القتال

لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنين وانحدر في الوادي وذلك عند غيش الصبيح خرج عليهم القوم وكانوا قد كتموا لهم في شعاب الوادي وهضائيه عملاً بإشارة حديد بن الصمة فحمل عليهم المسلمون فانكشفوا ثم انشغلوا بالفنائم ، وذلك يذكرنا بما حدث في غزوة أحد فإنهم لما رأوا العدو وآتى هارباً انشغلوا عن الحرب بجمع الفنائم وفارق الرماة للسكان الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالبقاء فيه فانكشف المسلمون وكره عليهم خالد بن الوليد الخ . وفي هذه الغزوة لما انشغل المسلمون بالفنائم استقبلهم العدو بالسهم فعادوا منهزمين لا يلوى أحد على أحد وانكشف خيل بني سليم مولية وكانت مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فتبعهم أهل مكة والدس فانهمزوا . وكانت هوازن رماة .

ثبات رسول الله ﷺ

وقد ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت في غزوة أحد وكان ثباته سبباً في كسب اللقطة فإنه انحاز

- ٣٢٨ -

ذات اليمين ومعه نفر قليل منهم أبو بكر . وعمر . وعثمان . وعلى . والعباس وابنه الفضل . وأبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه صلى الله عليه وسلم . وأسامة بن زيد . وربيعة والحارث بن عبد المطلب . وعتبة . ومعتب (ابنا أبي لهب) . وأيمن بن أم أيمن ، واختلف في عدد من ثبت مع رسول الله . وقيل إنهم لم يبلغوا مئة وكان رسول الله يركض وهو على بغلته نحو هوازن وهو يقول :
« أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب » . ولم يقل أنا ابن عبد الله لأن العرب كانت تنسبه إلى جده عبد المطلب لشهرته ولوت عبد الله في حياته .
وأخذ كفا من تراب فرماه في وجوه العدو قائلا شامت الوجوه . فانهزموا . وهذا الرمي وقع مثله في غزوة بدر وهو من معجزاته ﷺ .

الاتصار بعد الهزيمة

لما ثبت رسول الله ﷺ ولم يبق معه إلا بعض أصحابه ، قال لعمه العباس اصرخ : يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرّة^(١) . وكان العباس عظيم الصوت ، وفي رواية قال له ناد : يا أصحاب البيعة يوم الحديبية يا أصحاب سورة البقرة . فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت على أولادها فأهزم أن يصدقوا الحملة على العدو فاقتتلوا قتالا شديداً فنظر إلى قتالهم فقال « الآن حمى الوطيس^(٢) » فولى المشركون الأدبار والمسلمون يقتلون ويأسرون فيهم ويتبعون آثارهم وقتل بعض المسلمين ذرية العدو فبهام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الذرية وقال « من قتل قتيلاً فله سلبه » . وقتل دريد بن الصمة^(٣) قتله ربيعة بن رفيع السلمي وجرح خالد بن الوليد جراحات أفلتت به . فقتل النبي صلى الله عليه وسلم في جرحه فبرئ . ولما وقعت الهزيمة أسلم ناس من كفار مكة وغيرهم .

غنائم المسلمين

كانت غنائم المسلمين كما يأتي :

أسر من العدو خلق كثير ومن النساء نحو ٦٠٠٠ وغنم المسلمون من الإبل ٢٤٠٠٠ بعير . ومن الغنم أكثر من ٤٠٠٠ شاة . ومن الفضة ٤٠٠٠ أوقية .

(١) الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان (٢) الوطيس : التنوير . وحمى الوطيس من الكلمات التي لم تسمع إلا منه صلى الله عليه وسلم وهي مثل يضرب لشدة الحرب (٣) من حكم دريد : لا يأكم والفاحشة في النساء فإنها عار أبدي وعقوبة غد ، وعليكم بصله الرحم فإنها تعظم الفضل وتزين النسل . من أسدى إليكم خيراً فأضعفوه له ولا فلا تمجزوا أن تكونوا مثله .

تقسيم الغنائم

بدأ رسول الله ﷺ بالأموال قسمها وأعطى المؤلفات قلوبهم^(١) أول الناس فأعطى أبا سفيان بن حرب ٤٠ أوقية من الفضة و ١٠٠ من الإبل وكذا ابنيه يزيد ومعاوية وأعطى حكيم بن حزام ١٠٠ من الإبل ثم سألته مئة أخرى فأعطاه إياها . وأعطى النضر بن الحارث بن كلفة ١٠٠ من الإبل وكذا أسيد بن جارية الثقفي والحارث ابن هشام . وصفوان بن أمية . وقيس بن عدى . وسهيل بن عمرو . وحويطب بن عبد العزى . والأقرع ابن حابس التميمي . وعيينة بن حصن . ومالك بن عوف .

وأعطى العباس بن مرداس ٤٠ من الإبل فقال في ذلك شعراً فأعطاه ١٠٠ من الإبل ، وأعطى مخزومة بن نوفل ٥٠ بعيراً وكذا العلاء بن حارثة وسعيد بن يربوع وعثمان بن وهب وهشام بن عمرو العاصري . فبلغ ما أعطى من ذكروا ١٤٨٥٠ من الإبل وأعطى ذلك كله من الخمس (قال ابن سعد وهو أثبت الأقاويل عندنا) ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم ثم فضاها على الناس فكانت سهام كل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة فإن كان فارساً أخذ اثني عشر من الإبل و ١٢٠ شاة . وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم له .

رد السبي

قدم وفد هوازن على النبي ﷺ وهم أربعة عشر رجلاً ورأسهم زهير بن صرد وفيهم أبو برقان عم رسول الله من الرضاة وهو من بني سعد . وقد جاءوا مسلمين فسألوه أن يمن عليهم بالسبي فرضى رسول الله ورضى المسلمون بما رضى به رسول الله وردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ولم يختلف منهم أحد غير عيينة بن حصن وكان من الأعراب الجفاة فإنه أبى أن يرد مجبوراً صارت في يده منهم ثم ردها بعد ذلك ووفد عليه ﷺ مالك بن عوف رئيس هوازن فرد عليه أهله وماله وأعطاه مئة من الإبل كما تقدم وأسلم وخسن إسلامه واستعمله رسول الله على من أسلم من قومه .

الغنائم والأنصار

لما رأت الأنصار ما أعطى رسول الله في قريش والعرب تسكلموا في ذلك وقالوا حن الرجل إلى أهله فقال رسول الله : يا معشر الأنصار أما ترضون أن يرجع الناس بالشاء والبغير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟ قالوا رضيينا يا رسول الله بك حظاً وقسماً . فقال رسول الله : « اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء الأبناء » .

(١) المؤلفات قلوبهم : المستأله قلوبهم بالإحسان والمودة وكانوا من أشرف العرب ، فمنهم من كان يعطيه دفماً لأداءه ، ومنهم من كان يعطيه مطلقاً لإسلامه وإتباعه ، ومنهم من كان يعطيه ليثبت على إسلامه لقرب عهده بالجاهلية . قال بعضهم فلما تولى أبو بكر الصديق وفشا الإسلام منهم وقال « انقطعت الرشا » .

رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة

انصرف رسول الله ﷺ وكان قد انتهى إلى الجمرانة ليلة الخميس لخمس ليال خلون من ذي القعدة فأقام بها ثلاث عشرة ليلة . فلما أراد الانصراف إلى المدينة خرج ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة بقين من ذي القعدة ليلاً فأحرم بعمره ودخل مكة فطاف وسعى وحلق رأسه ورجع إلى الجمرانة من ليته كبأث ثم غدا يوم الخميس حتى خرج على سرف^(١) ثم أخذ الطريق على مر الظهران ثم إلى المدينة .
ولقد أنزل الله تعالى في هذه الموقعة في سورة التوبة :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ .

وفي هذه الغزوة سمي طلحة بن عبيد الله « الجواد » لكثرة إتيائه على المسكر وقيل سمي « الفياض » .

سرية أبي عامر الأشعري أو سرية غزوة أوطاس (هوازن)

أبو عامر الأشعري هو عم أبي موسى الأشعري وكان أبو عامر من كبار الصحابة . لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حنين بعثه على جيش إلى أوطاس خاف الفاربن من هوازن وكان للنهزمون انقسموا ثلاث فرق : فرقة منهم لحقت بالطائف . وفرقة بنخلة . وفرقة بأوطاس . فأتته إلى بهم أبو عامر فإذا هم مجتمعون فناوشوه القتال وقتل منهم أبو عامر تسعة مبارزة بعد أن يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام وأفلت منه العاشر ثم استشهد أبو عامر ، قتله أخوان هما العلاء وأوفى ابنا الحارث بن جشم . ثم خلف أبا عامر أبو موسى رضي الله عنه باستخلاف عمر له فأقره الناس قاتل القوم حتى هزمهم وظهر المسلمون بالفنائم والسبائيا .

سرية الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفئين

لما أراد رسول الله ﷺ السير إلى الطائف بعث الطفيل بن عمرو^(٢) الدوسي إلى ذي الكفئين^(٣) وذلك في شوال

(١) بفتح أوله وكسر ثانيه وهو موضع على ستة أميال من مكة .
(٢) كان الطفيل شريفاً شاعراً ليلاً وقد تقدم ذكر إسلامه فليراجع
(٣) ذو الكفئين صن من خشب لعمرو بن حمة الدوسي .

- ٣٣١ -

سنة ثمان من الهجرة ليهدمه وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف فخرج سرياً إلى قومه فهدم ذا الكفين وجعل
يخمش النار في جوفه ويحرقه ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا
إلى حششت النار في فؤادكا

والمحذر معه من قومه ٤٠٠ سراً فوافوا النبي صلى الله عليه وسلم بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام وقدم
بدبابة ومنجنيق .

هذا وقد ذكرت الدبابات والمنجنيق لأول مرة في غزوة خيبر .

غزوة الطائف

شوال سنة ٨ هـ فبراير سنة ٦٣٠ م

كانت غزوة الطائف في شوال سنة ثمان من الهجرة (فبراير سنة ٦٣٠ م) وقد تقدم ذكر الطائف عندما
سافر إليها رسول الله بعد وفاة أبي طالب وخديجة يلتمس من ثقيف النصرة فخلوه وعاد إلى مكة وكان ذلك سنة
عشر من البعثة . أما في هذه المرة فإنه خرج من حنين يريد الطائف ليفرضها لما علم أن مالك بن عوف وجمعاً من
أشراف قومه لحقوا بالطائف عند انهزامهم وقد كانت ثقيف رَمَوْا حصنهم وأدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة فلما انهزموا
من أوطاس دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم وتهيأوا للقتال وكان معهم مالك بن عوف النضري وسار رسول الله فنزل
قريباً من حصن الطائف وعسكر هناك فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة وقتل منهم
اثنا عشر رجلاً فيهم عبد الله بن أبي بكر الصديق يومئذ فاندمل الجرح ثم انتفض به بعد ذلك فأت منه وأصيبت
عين أبي سفيان فأتى النبي ﷺ وعينه في يده فقال يا رسول الله هذه عيني أصيبت في سبيل الله فقال له إن شئت
دعوتُ فردت عليك وإن شئت فعين في الجنة قال : في الجنة ورمى بها من يده^(١) .

فارتفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضع مسجد الطائف الذي أنشئ بعد ذلك وكان معه ﷺ من
نسائه أم سلمة وزينب فضرب لهما قبتين وكان يصلي بين القبتين الصلاة مقصورة ودام حصار الطائف ثمانية عشر
يوماً . ونصب عليهم المنجنيق ونثر الحسك سقبين من عيدان حول الحصن ونادى منادى رسول الله : أيما عبد نزل
من الحصن وخرج لنا فهو حر فخرج منهم بضعة عشر رجلاً فاعتقهم رسول الله .

(١) وقلعت عينه الثانية في اليرموك عند مقاومة الروم وكان يحرض المسلمين على قتال الروم والثبات لهم .

وأمر رسول الله بقطع أغانهم وتحريقها قطع المسدون قطعاً ذريعاً ثم سألوه أن يدعها فتركها . ولم يؤذن لرسول الله في فتح الطائف فأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل فضج الناس من ذلك ثم أذعنوا .

واستعمل المسلمون في هذه الغزوة الدابة وهي آلة من آلات الحرب تجعل من الجلود يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها .

ويجدر بنا أن نذكر حادثة لطيفة . وذلك أنه كانت في سبي حنين أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة وهي الشفاء ، قيل وأما حليلة رضى الله عنها ولما قالت له الشفاء أنا أختك يا رسول الله قال وما علامة ذلك ؟ فأخبرته بعضة عضها إياها حين كان مسترضعاً عندهم وأرته إياها فرفها وتذكر ذلك . فقام ﷺ وبسط لها رداءه وصنع مثل ذلك بأمة حليلة رضى الله عنها حين جاءت ودعت عيناه . وقال للشفاء لما أن عرفها « سلى تعطى واشفى تشفى » وقيل إن قومها قالوا لها إن هذا الرجل أخوك فلو أتيت فسالته في قومك لرجونا أن يحاييننا فاستوهبت السبي وهم ستة آلاف رأس فوهبهم لها ، فما عرفت مكرمة مثلها ولا امرأة أيمن على قومها منها وخيرها ﷺ قال إن أحببت فنندى محبة مكرمة وإن أحببت أن أمتك وترجى إلى قومك ، قالت بل تمتعني وأرجع إلى قومي فأعطاهما نعماً وشاء وغلاماً يقال له مكحول وجارية .

بعث قيس بن سعد

إلى صداء

بعث رسول الله قيس سعد بن عبادَةَ الخزرجي إلى ناحية اليمن بعد انصرافه من الجعرانة في ٤٠٠ فارس وأمره أن يقاتل قبيلة صداء ، حتى من اليمن . وفي معجم البلدان صداء بخلاف باليمن بينه وبين صنعاء اثنان وأربعون فرسخاً سمى باسم القبيلة . فقدم زياد بن الحارث الصدائي فسأل عن ذلك البعث فأخبر به فقال يا رسول الله أنا وأقدم إليك فاردد الجيش وأنا أتكفل بإسلام قومي وطاعتهم فقال اذهب إليهم فردم فقال إن راحتي قد كالت فبعث صلى الله عليه وسلم إليهم فردم ورجع الصدائي إلى قومه فقدموا بعد خمسة عشر يوماً فأسدوا وقيل كتب إليهم فجاء وفدهم بإسلامهم فقال رسول الله إنك مطاع في قومك يا أخا صداء فقال بل الله هدام قال ألا تؤذني عليهم ؟ قال بلى ولا خير في الإمارة لرجل مؤمن فتركها وأمره رسول الله أن يؤذن في صلاة الفجر فأذن فأراد بلال أن يقيم فقال رسول الله إن أخا صداء أذن ومن أذن فهو يقيم .

سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى تميم

بعث رسول الله في الحرم سنة تسع من الهجرة (إبريل سنة ٦٣٠ م) عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم في خمسين فارساً من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري فسكران يسير الليل ويكن النهار فهجم عليهم في صحراء فدخلوا وسرحوا مواشيهم فلما رأوا الجمع وآوا وأخذ منهم أحد عشر رجلاً ووجدوا في الحلة إحدى عشرة امرأة وثلاثين صديقاً فجلبهم إلى المدينة فأمر بهم رسول الله فحبسوا في دار رملة بنت الحارث فقدم فيهم عدة من رؤسائهم^(١) فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذراري فمجلوا فجاءوا إلى باب النبي صلى الله عليه وسلم وكلموه في شأن السبي فرد عليهم رسول الله أسراهم واختلف في عدد الوفد ف قيل كانوا سبعين وقيل كانوا ثمانين وقد أسلوا وبقوا في المدينة مدة يتعلمون القرآن والدين .

وسبب هذه السرية أن رسول الله بعث بشر بن سفيان العدوي السكابي إلى بني كعب من خزاعة لأخذ صدقاتهم وكانوا مع بني تميم على ماء فأخذ بشر صدقات بني كعب . فقال لهم بنو تميم وقد استكثروا ذلك : لم تعطونهم أموالكم ؟ فاجتمعوا واتهموا السلاح ومنعوا بشرأ من أخذ الصدقة فقال لهم بنو كعب : نحن أسلمنا ولا بد في ديننا من دفع الزكاة فقال بنو تميم : والله لا ندع بغيراً واحداً يخرج فلما رأى بشر ذلك قدم المدينة وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فبعث رسول الله عيينة بن حصن الفزاري إلى تميم كما تقدم .

سرية الوليد بن عقبة

إلى بني المصطلق

بعث رسول الله الوليد بن عقبة بن أبي معيط لأخذ الصدقات من بني المصطلق^(٢) وكانوا قد أسلوا وبنوا المساجد وكان بينهم وبين الوليد عداوة في الجاهلية . إلا أنهم لما سمعوا بمجيء الوليد لأخذ الصدقات ، خرج منهم عشرون رجلاً بالإبل والغنم يؤدون عنها زكاتهم فرحابه وتنظيماً لله ولرسوله فظن أنهم يريدون قتله لرؤية السلاح معهم مع أنهم إنما خرجوا بالسلاح تجملاً فرجع من الطريق قبل أن يصلوا إليه فذهب إلى المدينة وأخبر النبي ﷺ

(١) منهم عطار بن حاجب والزهرقان بن بدر والأقرع بن حابس وقيس بن الحارث ونعيم بن سعد وعمر بن الأهم ورياح بن الحارث

(٢) بطن من خزاعة .

أنهم ارتدوا ولقوه بالسلاح يحولون بينه وبين الصدقة فهم رسول الله أن يبعث إليهم من يفزوم وبلغ ذلك القوم
 قدم عليه الركب الذين لقوا الوليد فأخبروا النبي الخبر على حقيقته فنزلت هذه الآية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَالَةٍ ^(١) ﴾ .

قرأ عليهم القرآن وبعث معهم عباد بن بشر يأخذ صدقات أموالهم ويعلمهم شرائع الإسلام
 ويقرئهم القرآن .

والوليد بن عقبة كان أخاً لعمان رضى الله عنه من أمه . أسلم يوم فتح مكة هو وأخوه خالد بن عقبة وهو
 الذى صلى صلاة الصبح بأهل الكوفة أربع ركعات فقال : أزيدكم وكان سكران ولما شهدوا عليه بالشرب أمر به عثمان
 فجلد وعزل من الكوفة ^(٢) والفاسق الذى ذكر فى الآية المتقدمة هو الوليد بن عقبة فهو الذى جاء إلى رسول الله
 وأخبره بارتداد بنى المصطلق وأنهم لقوه بالسلاح . وكان الوليد شراب خمر وكان شاعراً كريماً .

سرية قطبة بن عامر

إلى خثعم

فى صفر سنة تسع من الهجرة أرسل رسول الله قطبة بن عامر بن حديدة فى عشرين رجلاً إلى حى من خثعم
 بناحية تبالة ^(٣) وأمره أن يشن الغارة عليهم فخرجوا على عشرة أبرة يعقبونها فأخذوا رجلاً فسأله فاستمعهم عليهم
 فجعل يصيح بالحاضر ويحذرهم فضربوا عنقه ثم أمهلوا حتى نام الحاضر فشنوا عليهم الغارة فاقتتلوا قتلاً شديداً
 حتى كثرت الجرحى فى الفريقين جميعاً وقتل قطبة بن عامر مع من قتل وساقوا النعم والشاء والنساء إلى المدينة وجاء
 سيل أتى فحال بينهم وبينه فما يجدون إليه سبيلاً وكانت سهمانهم أربعة أبرة أربعة أبرة والبعر يعدل بعشرة من
 النعم بعد أن أخرج الخمس .

سرية الضحاك بن سفيان

إلى بنى كلاب

فى شهر ربيع الأول سنة تسع من الهجرة أرسل رسول الله جيشاً إلى القرطاء عليهم الضحاك بن أبى بكر
 السكلابى - وكان من الشجعان الأبطال - ومعه الأسيد بن سلة بن قرط فلقوم بالزُّج زُج لاوة ^(٤) فدعوم إلى

(١) سورة المجرات (٢) راجع كتاب عثمان بن عفان للمؤلف .

(٣) تبالة : بلدة من أرض تهامة فى طريق اليمن . (٤) موضع بنجد .

الإسلام فأبوا قتالهم فهزموهم وغنم أموالهم ، فلتحق الأصيلد أباه سلمة وسلمة على فرس له في غدير بالزج فدعا أباه إلى الإسلام وأعطاه الأمان فسيبه وسب دينه ف ضرب الأصيلد عرقوبي فرس أبيه فلما وقع الفرس على عرقوبيه ارتكز سلمة على رجليه في الماء ثم استمسك به حتى جاءه أحدهم فقتله ولم يقتله ابنه .

سرية علقمة بن مجزز المدلجي

إلى الحبشة

كانت سرية علقمة بن مجزز المدلجي إلى الحبشة في شهر ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة (يولية سنة ٦٣٠ م) وسببها أنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أناساً من الحبشة تراياهم أهل جدة فبعث إليهم علقمة بن مجزز في ثلاثمائة فأتته إلى جزيرة في البحر وقد خاض إليهم البحر فهربوا منه . فلما رجع تعجل بعض القوم إلى أهلهم قبل بقية الجيش فأذن لهم فتعجل عبد الله بن حذافة السهمي فيهم فأمره على من تعجل وكانت فيه دعاية (مزاح) فنزلوا ببعض الطريق وأوقدوا ناراً يصطلون عليها ويصطنعون . فقال لهم : أليس طاعتي وإجابة ؟ قالوا . بلى . قال فاقتمحوا هذه النار . فقام بعض القوم فاحتجزوا حتى ظن أنهم واثبوت فيها . فقال اجلسوا إنما كنت أضحك فبلغ ذلك رسول الله ، فقال : من أمركم بمصيبة فلا تطيعوه وعلقمة هذا هو الذي بعثه عمر بن الخطاب إلى الحبشة فهلك هو وجيشه . أما عبد الله بن حذافة فهو من قدماء المهاجرين ممن شهد بدرًا ومات بمصر في خلافة عثمان رضي الله عنه .

سرية علي بن أبي طالب إلى الفلّس

بعث رسول الله علي بن أبي طالب إلى الفلّس ، صنم كان بنجد تعبد طيئٌ ليهدمه وذلك في شهر ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة في ١٥٠ رجلاً من الأنصار على مائة بئر وخمسين فرساً ومعه راية سوداء ولواء أبيض فشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر فهدموا الفلّس وخربوه وملأوا أيديهم من السبي والنعم والشاء والفضة وفي السبي سفانة بنت حاتم الطائي وأخت عدي بن حاتم ، وهرب عدي إلى الشام . ووجدوا في خزانة الفلّس ثلاثة أسياف : رَسُوب والحُذَم وسيف يقال له اليماني وثلاث أدرع واستعمل رسول الله ﷺ على السبي بأقتادة واستعمل على اللامشية والرمّة عبد الله بن عتيك فلما نزلوا ركّك^(١) اقتسموا الغنائم وعزل للنبي ﷺ صفيّاً رسوباً والحُذَم ، ثم

(١) الركك عملة من عمال سدي أحد جبل طي وعبد الله بن عتيك هو أحد قتلة أبي رافع بن أبي الحقيق اليهودي . والرمّة : ردىه الناس .

— ٣٣٣ —

صار له بعدُ السيف الآخر ، وعزل الخمس وعزل آل حاتم فلم يقسمهم حتى قدم بهم المدينة وقد من رسول الله على سفانة فأسلمت وحسن إسلامها وكان للن عليها سبياً لإسلام أخيها عدى بن حاتم ، فإنها خرجت حتى قدمت الشام على أخيها . فقال ماترين في هذا الرجل ؟ قالت أرى والله أن تلحق به سريعاً ، فإن يك نبياً فللسابق إليه فضيلة ، وإن يكن ملكاً فلن تزال في عز اليمين وأنت أنت . فقال والله هذا هو الرأي ، فقدم على رسول الله وأسلم .

غزوة تبوك

أو العسرة

رجب سنة ٨٩ - سبتمبر - ١ أكتوبر سنة ٦٣٠ م

تبوك موضع بين وادي القرى والشام بينه وبين المدينة من جهة الشام أربع عشرة مرحلة وبين دمشق إحدى عشرة مرحلة وهي غزوة العسرة . مأخوذة من قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ وكانت في رجب سنة تسع من الهجرة (سبتمبر - ١ أكتوبر سنة ٦٣٠ م) وهي آخر غزواته صلى الله عليه وسلم وكان الوقت حين خروجه حراً شديداً وقحطاً شديداً ولذلك لم يور عنها كماداته في سائر الغزوات بل بيئها للناس وأخبرهم أنه يريد الروم وكانوا من شدة الحر ينحرون البعير فيشربون مافي كرشه من الماء فسميت غزوة العسرة أى الشدة والضيق وهي آخر غزواته ﷺ .

وسببها أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه نخم وجذام وعاملة وغسان وقدموا مقدماتهم إلى اللقاء^(٢) وقيل إن الإمبراطور هرقل كان في حمص .

إخلاص الصحابة وصدقائهم

ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى الخروج وأعلمهم المكان الذي يريد ليتأهبوا لذلك وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم وأمر الناس بالصدقة وحثهم على النفقة والجلان^(٣) فجاءوا بصدقات كثيرة فكان أول من جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه فجاء بماله كله ٤٠٠٠٠ درهم فقال له صلى الله عليه وسلم : هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ قال : أبقيت لم الله ورسوله . وجاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله فسأله : هل أبقيت لم شيئاً ؟ قال نعم نصف مالي : وجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بمائتي أوقية . وتصدق عاصم بن عدى

(١) سورة التوبة . (٢) اللقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى .

(٣) الجلان بضم الجاء ، ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة .

بسبعين وسقاً من تمر^(١) وجهز عثمان رضى الله عنه ثلث الجيش .

البكّاءون

جاء البكّاءون وهم سبعة يطلبون من رسول الله ما يركبون عليه فقال ما أجد ما أحلكم عليه وقيل كانوا أكثر من سبعة . فلما قال لهم ذلك انصرفوا باكين وهم الذين قال الله فيهم ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَاعْيَنُّهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ .

المتخلفون

وجاء ناس من المنافقين يستأذنون رسول الله في التخلف من غير علة فأذن لهم وهم بضعة وثمانون رجلاً وقال قائل من المنافقين لا تنفروا في الحر زهّادة في الجهاد وشكاً في الحق وإرجافاً بالرسول وكان من المتخلفين عبد الله بن أبي ابن سلول .

المعذّرون

وجاء المعذّرون من الأعراب وهم الذين يعتذرون بالباطل ليؤذن لهم في التخلف فاعتذروا إليه فلم يسألهم وقيل هم أسد وغطفان .

واستخلف رسول الله على عسكره أبا بكر الصديق صلى بالناس واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة (قال ابن سعد وهو أنبت عندنا ممن قال استخلف غيره) واستخلف على بن أبي طالب على أهله عليه السلام مدة غيبته بقبولك فأرجف المنافقون بعلي بن أبي طالب^(٢) وقالوا ما خلفه إلا استقلاً له وتحققاً منه . فلما قال ذلك المنافقون أخذ على سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله وهو بالجرف^(٣) فقال يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استغفرتني وتحففت مني . فقال كذبوا ولكني إنما خلفتك لما ورأيت فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك أفلا ترضى يا علي أن تكون متى بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبي بعدي فرجع على إلى المدينة .

(١) الوسق : حمل بئر . يقال عنده وسق من تمر . قال الأزهري : الوسق ستون صاعاً يصاع النبي صلى الله عليه وسلم والصاع خمسة أرطال وثلث . (٢) أرجف المنافقون : أى أكثروا من الأخبار البهينة واختلاق الأقوال الكاذبة . (٣) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام .

ولما ارتحل رسول الله عن ثنية الوداع متوجها إلى تبوك عقد الألوية والرايات فدفع لواءه الأعظم لأبي بكر ورايته العظمى للزبير ودفع راية الأوس لأسيد بن حضير وراية الخزرج للحباب بن المنذر ودفع لكل بطن من الأنصار وقبائل العرب لواء أو راية .

عدد جيش المسلمين

سار رسول الله بالناس وهم ٣٠.٠٠٠ والخيـل ١٠.٠٠٠ وقد كان هذا الجيش بعد تخلف المناقذين وغيرهم ، أعظم جيش تألف في العرب .
قدم رسول الله تبوك ومعه هذا العدد من الجيش فأقام بها عشرين ليلة صلى بها ركعتين .

بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر

أرسل رسول الله خالد بن الوليد في ٢٠٤ فارساً في رجب سنة تسع سرية ، إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة وكان أكيدر من كندة قد ملكهم وكان نصرانياً وكان ملكاً من قبـل هـرقل فأتته إليه خالد وقد خرج من حصنه في ليلة مقمرة هو وأخوه حسان فهددت عليه خيل خالد بن الوليد فاستأسر أكيدر وامتنع أخوه حسان وقاتل حتى قتل وهرب من كان معهما فدخل الحصن وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتي به رسول الله على أن يفتح له دومة الجندل ففعل وصالحه على ٢٠٠٠ بغير و ٨٠٠ فرس و ٤٠٠ درع و ٤٠٠ رمح فعزل للنبي صلى الله عليه وسلم صفيّاً خالهاً ثم قسم ما بقي بين أصحابه نصار لكل رجل منهم خمس فرائض ثم خرج خالد بن الوليد بأكيدر وبأخيه مصاد وكان في الحصن وبما صالحه عليه ففلاً إلى المدينة فقدم بأكيدر على رسول الله فأهدى له هدية وصالحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه وخلي سبيلهما وكتب له رسول الله كتاباً فيه أمانيهم وما صالحهم عليه وختمه بومئذ بظفـره وكان رسول الله يستعمل على حرسه بتبوك عباد بن بشر فكان يطوف في أصحابه على المسكر .

ثم انصرف رسول الله من تبوك إلى المدينة بعد أن أقام بها نحو عشرين ليلة ولم يبق أكيدا ولا دنا من المدينة تلقاه عامة الذين تخلفوا فقال رسول الله لأصحابه لا تكلموا رجلاً منهم فأعرض عنهم رسول الله وللسلـون حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه وجعل المناقئون يحلفون ويتذرون قبل ظاهـرهم وعلانيتهم واستغفر لهم وقد كانوا يخبرون عنه أخبار السوء وكان قدوم رسول الله من تبوك في رمضان .

المعجزات وخوارق العادات

في هذه الغزوة وقع لرسول الله بعض المعجزات وخوارق العادات والإخبار بالمفيات نذكر منها :
كان رسول الله حين مر بالحجر نزلاً واستقى الناس من بئرهما فلما راخوا منها قال رسول الله لا تشربوا من ماءها شيئاً ولا تقوضوا منها للصلاة وما كان من عجيب مجتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً ولا يخرج أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله إلا رجاءين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته وخرج الآخر في طلب بعير له ، فأما الذي ذهب لحاجته فإنه خنق على مذهبه وأما الذي ذهب لطلب بعيره فاحتلمته الريح حتى طرحته في جبل طي فأنبأ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألم أنهيكم أن يخرج أحد إلا ومعه صاحب ؟ ثم دعا للذي أصيب على مذهبه فثنى وأما الآخر الذي وقع بجبل طي فإن طيئاً أهدته لرسول الله حين قدم المدينة .

ولما أصبح الناس ولا ماء معهم شكوا ذلك إلى رسول الله فدعا الله فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء .

وضلت ناقه رسول الله ببعض الطريق فخرج أصحابه في طلبها وعند رسول الله رجل من بعض أصحابه يقال له عمارة بن حزم الأنصاري وكان في رحله زيد بن لصيت التيقاعي وكان مناقاً فقال زيد بن لصيت وهو في رحل عمارة وعمارة عند رسول الله : أليس يزعم محمد أنه يخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقه ؟ فقال رسول الله وعمارة عنده إن رجلاً قال إن هذا عمداً يخبركم أنه نبي وهو يزعم أنه يخبركم بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقه ؟ وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله وقد دلى الله عليها وهي في الوادي من شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوا بها ، فذهبوا فجاءوا بها إلى آخر القصة . ثم مضى رسول الله سائراً فجعل يتخلف عنه الرجل فيقولون : يا رسول الله تخلف فلان فيقول : دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه حتى قيل يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره فقال دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه ، وتلوم أبو ذر على بعيره فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشياً ونزل رسول الله في بعض منازل فبنظر ناظر من المسلمين قال يا رسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده فقال رسول الله : كن أبا ذر . فلما تأمله القوم قالوا يا رسول الله : هو أبو ذر فقال رسول الله : « يرحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبيع وحده » وقد تحقق قوله عليه الصلاة والسلام ، فإن عثمان رضي الله عنه لما نفي أبا ذر نزل أبو ذر الرنذة^(١) فأصابه بها قدره ولم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه فأوصاهما

(١) قرية من قرى المدينة .

أن غسلاي وكفناي ثم ضماني على قارعة الطريق فأول ركب يمر بكم فقولوا هذا أبو ذر صاحب رسول الله فأعينونا على دفنه . فلما مات فعلا ذلك به ثم وضاه على قارعة الطريق فأقبل عبد الله بن مسعود ورهط من أهل العراق عماراً فلم يرعهم إلا جنازة على الطريق قد كادت الإبل تطأوها وقام الغلام فقال هذا أبو ذر صاحب رسول الله فأعينونا على دفنه فاستهل عبد الله بن مسعود يبكي ويقول صدق رسول الله « تمشي وحلك . وتموت وحلك وتبعث وحلك » ثم نزل هو وأصحابه فواروه ثم حدثهم ابن مسعود حديثه وما قال له رسول الله في مسيره إلى تبوك واسم أبي ذر (جندب بن جنادة) ومات في سنة ٣٢ هـ

هدم مسجد الضرار بقباء

لما رجع رسول الله من تبوك قبل أن يدخل المدينة جاءه جماعة من المنافقين وسألوه أن يأتى مسجدهم بقباء ليصلى فيه وهو (مسجد الضرار) الذى بدوه مضاهاة لمسجد قباء لإضرار المسلمين وتفريق كلمتهم وجماعتهم وكان المنافقون يجمعون فيه ويعيرون النبي صلى الله عليه وسلم ويستزنون ، فدعا رسول الله بقميصه ليأبسه ويأتيهم فأنزل الله عليه :

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجًا لِّمَن حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ﴾
(سورة التوبة)

فدعا رسول الله مالك بن الدخشم ومعن بن عدى بن عامر بن السكن ووحشيًا وقال انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه فخرجوا مسرعين حتى أتوا بنى سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم^(١) فقال مالك أنظرونى حتى آتيكم بنار فدخل عند أهله فأخذ من سعف النخل فأشعله ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا للمسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله وأمر رسول الله أن يتخذوا ذلك للموضع كنيسة تاتى فيه الجيف والنامات .

كان أصحاب مسجد الضرار أتوه وهو يجهز إلى تبوك فقاتلوا بإرسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة واليلة للطيرة واليلة الشانية وإنا نخب أن تأتينا فتصلى لنا فقال إني على جناح سفر وحال شغل ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد من السماء .

وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً : خذام بن خالد ومن داره أخرج مسجد الشقاق . وثلعة بن حاطب .
(١) ذكر اسم مالك بن الدخشم في السيرة النبوية لدخلان بالنون هكذا « الدخين ورهط الدخين » وصحته بالميم كما جاء في تاريخ الطبري وى أسد الغابة وزاد المعاد .

ومُعْتَبَرٌ بِن قُشَيْر . وأبو حبيبة بن الأزعر . وعياد بن حنيف . وجارية بن عامر وابناء مجمع بن جارية ، وزيد بن جارية . ونَبْتَل بن الحارث . وبخزج . وبجاد بن عثمان . ووديمة بن ثابت .

أما مالك بن الدخشم الذي مر ذكره وهو أحد الذين هدموا مسجد الضرار فقد كان يُتهم بالنفاق وهو الذي قال فيه عقبان بن مالك لرسول الله إنه منافق فقال رسول الله : أليس يشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال بلى ولا شهادة له . فقال رسول الله أليس يصلى قال بلى ولا صلاة له . فقال رسول الله : أولئك الذين نهأني الله عنهم . ولا يصح عنه النفاق وقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع من اتهامه .

لماذا بنى مسجد الضرار ؟

وصف الله مسجد الضرار بصفات أربع :

(١) بقوله ضراراً ، والضرار محاولة الضر .

(٢) وبقوله وكفرأ قال ابن عباس يريد به ضراراً للمؤمنين وكفرأ بالنبي عليه السلام وبما جاء به .

(٣) وبقوله : وتفرقاً بين المؤمنين لأن المناقذين قالوا بنى مسجداً فنصلى فيه ولا نصلى خلف محمد فإن أئانا فيه صلينا معه وفرقنا بينه وبين الذين يصلون في مسجده فيؤدى ذلك إلى اختلاف الكلمة وبطلان الألفة .

(٤) وبقوله : وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله .

هذه هي الأسباب التي بنى المناقذين من أجلها مسجد الضرار كما ذكرت في القرآن الكريم . ثم إنه تعالى لما وصف هذا المسجد بهذه الصفات الأربع قال : وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى أى ليحلفن ما أردنا بينائنا إلا الفعلة الحسنى وهو الرفق بالمسلمين في التوسعة على أهل الضعف والعلة والعجز عن النصير إلى مسجد رسول الله وذلك أنهم قالوا لرسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة الطيرة والليلة الشاتية ثم قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ والمعنى أن الله تعالى أطلع الرسول على أنهم حلفوا كاذبين^(١) .

وقد تقدم أن هذا المسجد كان مآله المدم والحرق وصار موضعاً لإلقاء الجيف والعلمات .

«وت عبد الله بن أبي ابن سلول

« رأس المناقذين »

وفي هذه السنة - التاسعة - في شهر ذى القعدة مات عبد الله بن أبي ابن سلول « رأس المناقذين » بعد أن

مرض عشرين ليلة .

(١) راجع تفسير الفخر الرازى « سورة التوبة » .

وحدث أنه لما كان عبد الله مريضاً عاده رسول الله فطلب منه أن يصلي عليه إذا مات ويقوم على قبره . ثم إنه أرسل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يطلب منه قيضه ليكفن فيه فأرسل إليه القميص النوقاني فردّه وطلب منه الذي يلي جسده ليكفن فيه فقال عمر رضى الله عنه : لا تعط قيضك ، الرّجس النّجس . فقال عليه الصلاة والسلام إن قيضى لا ينقى عنه من الله شيئاً فاعل الله يدخل به ألفاً في الإسلام وكان المناقون لا يفارقون عبد الله . فلما رأوه يطلب هذا القميص ويرجو أن ينفعه أسلم منهم يومئذ ألف ، فلما مات جاءه ابنه يعرفه فقال عليه الصلاة والسلام لأبنته صل عليه وادفنه . قال إن لم تصل عليه يارسول الله لم يصل عليه مسلم . فقام عليه الصلاة والسلام ليصلي عليه فقام عمر فخال بين رسول الله وبين القبلة لثلاثا يصلي عليه فنزل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

(سورة التوبة)

قال الزّجاج كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له ففتح هاهنا منه . وفي الصحيح من حديث ابن عباس رضى الله عنه : فصلّى عليه ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت (أى الآية السابقة) ولم يأخذ رسول الله بقول عمر رضى الله عنه جرياً على ظاهر حكم الإسلام واستصعاباً لظاهر الحكم ولإكرام ولده الذى تحقق صلاحه واستئلاً لقومه .

وعن عبد الله بن عباس قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لما توفى عبد الله بن أبى ابن سلول ودعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام إليه فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قُت في صدره قتلت يارسول الله أتصلى على عدو الله عبد الله بن أبى القائل يوم كذا ، كذا وكذا ، وأعدّ أيامه ورسول الله عليه السلام يتسم حتى إذا أكرثت عليه قال أخر عني يا عمر إني خيرت فاخترت وقد قيل لى استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر سبعين مرة فلن يغفر الله لهم فلو أنى أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له زدت قال ثم صلى عليه ومشى معه فقام على قبره حتى فرغ منه : قال أتعجب لى وجرأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله ورسوله أعلم فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ولا تصل على أحد منهم مات أبداً فاصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله .

حجة أبى بكر الصديق

بعث رسول الله في السنة التاسعة في شهر ذى الحجة (مارس سنة ٦٣١ م) أبابكر الصديق يحج بالناس فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة وبعث معه بعشرين بدنة قلدها وأشمرها بيده الشريفة وساق أبو بكر

رضى الله عنه خمس بدئات ثم تبعه على رضى الله عنه على ناقة رسول الله « القصواء » فقال له أبو بكر : استعملك رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحج ؟ قال لا ولكن بعثنى أقرأ براءة على الناس وأنبذ إلى كل ذى عهد عهده ، وكان العهد بين رسول الله وبين المشركين عاما وخاصا . فالعام : ألا يصد أحد عن البيت إذا جاءه ولا يخاف أحد في الأشهر الحرم . والخاص بين رسول الله وبين قبائل العرب إلى آجال مسماة وكانت عادة العرب ألا ينبذ العهد إلا من كان قريبا ممن أراد النبذ . فلذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه ولم يكتف بأبي بكر رضى الله عنه فخرج بالناس . قرأ على بن أبي طالب براءة^(١) على الناس يوم النحر عند الجحرة ونبذ إلى كل ذى عهد عهده . وقال لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ثم رجعا قافلين إلى المدينة . وقد كان على رضى الله عنه يهمل صلى الله عليه وسلم إلى أن رجعا إلى المدينة . وفى ذلك رد على الرافضة فإنهم زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم عزل أبا بكر رضى الله عنه عن إمارة الحج بعلى .

سرية خالد بن الوليد

إلى بنى الحارث بن كعب بنجران

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في شهر ربيع الأول سنة عشر (يونية سنة ٦٣١ م) سرية في أربعمائة إلى بنى الحارث بن كعب بنجران^(٢) وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثا فإن استجابوا لك فاقبل منهم وأقم فيهم وعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ومعالم الإسلام ، فإن لم يفعلوا فقاتلهم . وكان أهل نجران على شريعة عيسى عليه السلام فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون الناس إلى الإسلام ويقولون : يا أيها الناس أسلموا تسلموا فأسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم إليه . فأقام خالد فيهم يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه . ثم كتب خالد إلى رسول الله ﷺ .

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد للذي بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد . السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . فإني أحمده إليك الذي لا إله إلا هو . أما بعد يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنك بعثتني إلى بنى الحارث بن كعب وأمرتني إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام وأن أدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه وإن لم يسلموا فقاتلتهم . وإني قدمت عليهم فدعوتهم

(١) سورة براءة هي التوبة . قال صاحب البكشاف التوبة لها عدة أسماء : براءة والتوبة والمغفرة والمبصرة والمفرقة والخزيرة والفاضحة والثيرة والمفاخرة والمنكحة والمسدمة وسورة المذاب .

(٢) موضع بين اليمن ونجد .

إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعت فيهم ركبانا : يا بني الحارث أسلموا أسلموا فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم وأمرهم بما أمرهم الله به وأنهم عما نهاهم الله عنه وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يكتب إلى رسول الله والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته » وهذا الكتاب شرح فيه خالد مهمته وأنه قام بها كما أمر . فكتب إليه رسول الله ﷺ .

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد . سلام عليك . فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو : أما بعد فإن كتابك جاءني مع رسلك بنجران أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن يقاتلوا وأجابوا مادعوتهم إليه من الإسلام وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن قد هداهم الله بهداه فبشرهم وأنذرهم وأقبل وليقبل منك وفدوم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

فأقبل خالد بن الوليد إلى رسول الله وأقبل وفد بني الحارث بن كعب فيهم قيس بن الحصين بن يزيد بن قنان ذو النصة . ويزيد بن عبد اللدان . ويزيد بن الحجل . وعبد الله بن قريظ الزيدى . وشداد بن عبد الله التقي . وعمر بن عبد الله الضبابي فلما قدموا على رسول الله فرآهم قال من هؤلاء القوم كأنهم رجال الهند ؟ قيل يا رسول الله هؤلاء بنو الحارث بن كعب . فلما أوقفوا عند رسول الله سلموا عليه . فقالوا نشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . وقال رسول الله : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ثم قال رسول الله أنتم الذين إذا زجروا استقدموا . فلم يراجعهم منهم أحد . ثم أعادها رسول الله الثانية والثالثة والرابعة ، فقال يزيد بن عبد اللدان نعم يا رسول الله ، نحن الذين إذا زجروا استقدمنا . فقالها أربع مرات . فقال رسول الله : لو أن خالد ابن الوليد لم يكتب إلي فيكم أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رموسكم تحت أقدامكم . فقال يزيد بن عبد اللدان : أما والله يا رسول الله ما حمدناك ولا حمدنا خالد . فقال فن حدثم ؟ قالوا حمدنا الله الذي هدانا لك . قال صدقم . ثم قال رسول الله بكم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا لم نكن تغلب أحدا . فقال رسول الله بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم . قالوا يا رسول الله ، كنا تغلب من قاتلنا أنا كنا بنو عبيد وكنا نجتمع ولا نفرق . ولا نبدا أحدا بظلم قال صدقم . ثم أمر رسول الله على بالحارث بن كعب قيس بن الحصين فرجع وفد بالحارث ابن كعب إلى قومهم ولم يمكثوا بعد أن قدموا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله .

وفاة إبراهيم

توفي إبراهيم بن رسول الله من زوجته مارية
في شهر ربيع الأول سنة عشر (يونيو ٦٣١ م) وكان عمره ستة-عشر شهراً

دخل رسول الله ﷺ وهو معتمد على عبد الرحمن بن عوف وإبراهيم يحود بنفسه، فلما مات دامت عينار رسول الله ﷺ له عبد الرحمن : أى رسول الله هذا الذى تنهى الناس عنه ، متى يرك المسلمون نبكى يبكوا . فلما سررت عنه عبرته قال إنما هذا رحمة وإن من لا يرحم لا يرحم إنما تنهى الناس عن الفياحة وأن يندب الرجل بما ليس فيه . ثم قال لولا أنه وعد جامع وسبيل مثاء وأن آخرنا لاحق بأولنا لوجدنا عليه وجداً غير هذا وإننا عليه لحزونون تدمع العين ويمزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وفضل رضاعه في الجنة ، وأمر النبي ﷺ بدفن إبراهيم في البقيع^(١) . وصلى عليه ﷺ وكبر أربعاً وقد أجمع جماهير العلماء على الصلاة على الأطفال إذا استهلوا ولما دفن أسر برش قربة ماء على قبره وهو أول قبر رُش عليه الماء . ولما سوى جدته كان رسول الله ﷺ رأى كالحجر في جانب الجذث فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسوى بإصبعه ويقول : « إذا عمل أحدكم عملاً فليقتنه فإنه مما يسلى نفس المصاب » .

وانكسفت الشمس يوم مات إبراهيم فأذاع الناس : إن الشمس كسفت حزناً على موت إبراهيم فقال رسول الله ﷺ : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد » . ولو كان النبي مخادعاً أو كاذباً لاستغل هذه الفرصة السانحة وأذاع في طول البلاد وعرضها أن الشمس إنما انكسفت لوفاة ابنه أو لوافق الناس على ما أذاعوا وأن هذه إحدى معجزات النبوة ، لكنه أبى إلا الصدق وأذاع الحقيقة .
قال مسيودر منجم في كتابه حياة محمد (فصل ٢١) بمناسبة هذا الحادث : « إن محمداً كان واسع العقل فرد على هذه الخرافة الجميلة بقوله (إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد وهذه كلمات لا يقولها مخادع » .
وهذا ما قلناه لأن المخادع يتعاق بالأوهام ويسارع إلى انتهاز مثل هذه الفرص ولكن النبي كان صادقاً في أقواله . صادقاً في أنفاله . لا يستند إلى الأكاذيب في رفع شأنه وتعزيز مركزه .
قال النووي في تهذيب الأسماء : وأما ما روى عن بعض المتقدمين « لو عاش إبراهيم لكان نبياً » فباطل وجسارة على الكلام في المغيبات ومجازفة وهجوم على عظيم من الزلات .

(١) مقبرة أهل المدينة .

أبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل

بعثهما إلى اليمن

أبو موسى الأشعري واسمه عبد الله بن قيس . أسلم قديماً ثم أرسله رسول الله إلى زبيد وعدن فكان عاملاً عليهما . واستدل العلماء بإرساله على أنه كان عالماً فطناً حاذقاً ولولا ذلك لم يولّه النبي صلى الله عليه وسلم الإمارة ولذلك اعتمد عليه عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم . ونسبته الخوارج والروافض إلى الغفلة وعدم الفطنة لما صدر منه في التحكيم بصفين . وسيأتي ذكر ذلك في كتابنا (على) رضي الله عنه إن شاء الله .

وأما معاذ بن جبل فهو أحد السبعين الذين شهدوا الأنصار وشهد بدرًا وأحدًا والمجاهدين كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أنصاري خزرجي وكان عمره لما أسلم ثمانين سنة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خذوا القرآن من أربعة : من ابن مسعود . وأبي بن كعب . ومعاذ بن جبل . وسالم مولى أبي حذيفة » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أرحم أمتي بأمتي أبو بكر » وذكر الحديث وقال : « وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل » .

وكان معاذ رضي الله عنه ممن يفتون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من أحسن الناس وجهًا وأحسنهم خلقًا وأسمحهم كفًا فكثرت ديونه فأرسله رسول الله إلى اليمن وقال : « لعل الله يمجرك ويؤدي عنك دينك » . وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : « إنك ستأتي قومًا أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله . فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم . فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » .

وعن معاذ أنه قال : لما بعثني ﷺ إلى اليمن قال : قد بعثتك إلى قوم رقيقة قلوبهم ، فقاتل بمن أطلعك من عصاك .

ولما بعث رسول الله معاذًا خرج بوضيعة ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت ظل راحلته فلما فرغ قال : يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمر بمسجدي وقبري فيبكي معاذ رضي الله عنه لفرقه . ولم يزل معاذ على اليمن إلى أن قدم في خلافة أبي بكر ثم توجه إلى الشام فمات بها .

- ٣٤٧ -

بعث على بن أبي طالب إلى اليمن

بعث رسول الله ﷺ على بن أبي طالب إلى اليمن في شهر رمضان سنة عشر (ديسمبر سنة ٦٣١ م) فخرج على بن أبي طالب في ٣٠٠ فارس فلما انتهى إلى تلك الناحية فرق أصحابه فأتوا بنهب . غنائم ونساء وأطفال وكانت الغنائم نملاً وشاء ثم لقي جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا المسلمين بالنبل والحجارة وخرج منهم رجل من مذحج يدعو إلى للبارزة فبرز إليه الأسود بن خزاعي قتلته الأسود وأخذ سلبه ثم صف على رضى الله عنه أصحابه ودفع لواءه إلى مسعود بن سنان فقتل منهم نحو عشرين رجلاً فتفرقوا وانهمزوا فكف عن طلبهم قليلاً ثم دعاهم إلى الإسلام فأسرعوا وأجابوا وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام وجمع على الغنائم فجزأها خمسة أجزاء فكتب على سهم منها لله وأقرع عليها فخرج أول السهام الخمس وقسم على أصحابه بقية الغنم ثم قفل على رضى الله عنه فوافى النبي بمكة قد قدمها للحج سنة عشر وكان ذلك في الربيع .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث علياً رضى الله عنه إلى اليمن سنة ثمان وهو أول بعث إلى اليمن بعد فتح مكة وبعثه إلى همدان فأسلمت جميعاً فكتب على بن أبي طالب إلى رسول الله ﷺ يسألهم فلما قرئ الكتاب جز ساجداً ثم رفع رأسه وقال السلام على همدان . أما البعث الثاني فكان في رمضان سنة عشر إلى مذحج .

حجة الوداع

في شهر ذى الحجة سنة عشر من الهجرة (مارس سنة ٦٣٢ م) حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وسميت بذلك لأنه ودع الناس فيها . وعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت خرج رسول الله ﷺ إلى الحج فجلس ليلتين من ذى القعدة فلما كان بسرف أمر الناس أن يحلوا بعمرة إلا من ساق الهدى وكان رسول الله قد ساق الهدى وناس معه . قال ابن إسحاق ثم مضى رسول الله ﷺ على حجة فأرى الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجهم وخطب الناس خطبته التي بين فيها ما بين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس اسمعوا قولي فإنني لا أدرى لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألکم عن أعمالکم وقد بانت فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع وأن أول دماءكم أضع دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وكان

مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية . أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد
يش من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم
فاحذروه على دينكم . أيها الناس إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً
ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله وإن الزمان استدار كهينته يوم خلق الله السموات
والأرض^(١) وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُم . ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين
جمادى وشعبان . أما بعد أيها الناس فإن لكم على نساءكم حقاً ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن ألا يوطئن
فرشكم أحداً تنكرهونه وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في
المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن اتهمن فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن
عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً وإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها
الناس قولي فإنني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً : كتاب الله وسنة نبيه
أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تملن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا
ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم . اللهم هل بلغت فذكري أن الناس فالوا اللهم ثم قال رسول
الله ﷺ : اللهم اشهد « هـ وكان الذي يبلغ عنه بعرفة ربيعة بن أمية بن خلف لكثرة الناس وقد تنبأ رسول الله
في هذه الخطبة بأن أجله قد قرب وأنه لا ينج بعد هذه المرة لقوله في أولها : « فإنني لا أدري لعل لا ألقاكم بعد
عامي هذا بهذا الموقف أبداً » ، وأوصى الناس بالنساء خيراً ومنع الرجال من معاملتهن بالظلم وحضهم على معاشرتهن
بالمعروف ، وكما أن للرجال حقاً عليهن فكذلك للنساء حقاً عليهن ، وهذا من غير شك رفع لشأنهن فلم تعد المرأة
ككية مهجلة أو مهضومة الحقوق بعد أن عنى الرسول بها في خطبته ، فليفهم ذلك المسلمون في جميع أنحاء الأرض ،
وليعملوا بنصح الرسول .

وتسمى هذه الحجة أيضاً حجة التمام والكمال لنزول قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾^(٢) . ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة ولم يحج .
رسول الله بعد أن هاجر غير هذه الحجة . ولم يترك الحديج وهو بمكة قط لأن قريشاً في الجاهلية لم يكونوا
يتركون الحج وإنما يتأخرون منهم من لم يكن بمكة أو عاقه ضعف . قال ابن الأثير في النهاية : كان يحج كل سنة
قبل أن يهاجر .

(١) يعني أن الحج قد عاد في ذى الحجة .

(٢) قيل لم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شيء من الزرائع ولا تحليل شيء ولا تحريره ولم يش رسول الله بعد
نزل هذه الآية إلا إحدى وثلاثين ليلة ، أو اثنتين وثلاثين ليلة ، ولم يحصل في الشريعة بعدها زيادة ولا نسخ ولا تبديل البتة .

واستعمل على المدينة أبا دجانة الساعدي وقيل سباع بن عرفة الغفاري . وكانت نساؤه كلهن معه . وكان دخوله مكة صباح الرابع من ذى الحجة يوم الأحد .

. يقول مستر موير « الزاجح أن النبي خرج من المدينة يوم السبت ٢٥ ذى القعدة (٢٣ فبراير سنة ٦٣٢ م) وبلغ شرف ^(١) مساء الأحد في اليوم العاشر ودخل مكة يوم الثلاثاء »

وخرج معه ﷺ ٩٠٠٠ ر . ويقال أكثر من ذلك وأما الذين حجوا معه فأكثر من ذلك طبعاً لانضمام أهل مكة إليهم والذين أتوا من اليمن مسلمين .

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن نجيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقف بعرفة قال : هذا الموقف - للجبل الذي هو عليه - وكل عرفة موقف ، وقال حين وقف على قُزَح صبيحة المزدلفة ^(٢) : هذا الموقف وكل المزدلفة موقف ثم لما نحر بالنحر بمنى قال هذا المنحر وكل منى منحر ، فقضى رسول الله ﷺ الحج وقد أراهم منا - مكهم وأعلمهم ما فرض الله عليهم من حجهم من الموقف ورمى الجمار وطواف البيت ومأحل لهم في حجهم ومباحرم عليهم . ثم عاد رسول الله إلى المدينة .

بعث أسامة بن زيد

قتل رسول الله فأقام في المدينة بقية ذى الحجة والحرم وصفر وضرب على الناس بمثا إلى الشام أمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والدَّوَارم من أرض فلسطين فتجهز الناس وأوعب مع أسامة بن زيد المهاجرين الأولين . فبينما الناس على ذلك ابتداء ﷺ شكواهم التي قبضه الله عز وجل فيها واعترض المناقون على بعث أسامة . فرد عليهم أنه حقيق بالإمارة وإن قلم فيه لقد قلم في أبيه من قبل وإن كان خليقاً لها وكان سن أسامة عندئذ عشرين عاماً . فاعترضوا على توليته قيادة الجيش لصغر سنه .

عدد الغزوات والبعوث

وكان جميع ماغزا رسول الله بنفسه بناء على ما ذكره ابن إسحاق ٢٧ غزوة وبعوثه وسرايا ٣٨ . قال الطبري : وكانت غزواته بنفسه ستاً وعشرين غزوة ويقول بعضهم إنها كانت سبعاً وعشرين غزوة ، فمن قال هي ست وعشرون جعل غزوة النبي صلى الله عليه وسلم من خيبر إلى وادي القرى غزوة واحدة لأنه لم يرجع من خيبر حين فرغ من أهلها إلى منزله ولكنه مضى منها إلى وادي القرى فجعل ذلك غزوة واحدة . ومن قال هي سبع وعشرون

(١) موضع على ستة أميال من مكة (٢) قُزَح : القرن الذي يقف الإمام عنده بالمزدلفة عن بين الإمام . وازدادت : تقرب ، ومنه سمى المشعر الحرام مزدلفة لأنه يتقرب فيها ، وهي ما بين وادي محسر ومازى عرفة .

غزوة جمل غزوة خيبر غزوة ، وغزوة وادى القرى غزوة أخرى فيجعل العدد سبعمائة وعشرين .

الوفود

وفدت على رسول الله وفود كثيرة نذكرها هنا مع الاختصار ، فقد وفد عليه وفد هوازن بالجرعانة ، وكذا وفد عليه مالك بن عوف النضري وذلك في أواخر سنة ثمان وكذا وفد عليه بنو تميم في بصرية عيينة بن حصن وكان ذلك في الحرم سنة تسع ووفد عليه نصارى نجران بالمدينة بعد الهجرة وكانوا ستين راكباً جاءوه بمجادلونه في شأن عيسى عليه السلام ، وصالحوا النبي صلى الله عليه وسلم على الجزية وكتب لهم كتاباً وأرسل معهم أباً عبيدة عامر بن الجراح رضى الله عنه وقال لهم هذا أمين هذه الأمة ، وفي أهل نجران والرد عليهم أنزل الله أكثر آيات سورة آل عمران . ووفد عليه عليه السلام الداريون : أبو تميم الدارى وأخوه نعيم وأربعة آخرون على دين النصرانية وكان وفداهم عليه مرتين مرة بمكة قبل الهجرة ومرة بعدها . ولما قدم رسول الله إلى المدينة من تبوك في رمضان وفد عليه وفد ثقيف . ووفد عليه وفد بنى عامر بن صعصعة وفيهم عامر بن الطفيل العامري وأربد بن قيس وجبار بن سلمى ، رؤساء القوم وكان عامر بن الطفيل سيدهم ، وكان من أجل الناس وكان مضرباً القدر بالنبي عليه السلام وطلب من رسول الله أن يحمل له الأمر بعد أن أسلم . ولما خرج عامر بن الطفيل ومن معه إلى بلادهم أصيب في الطريق بالطاعون ومات ولم يسلم وقد وهم بعضهم فادعى بقاء عامر بن الطفيل على الإسلام إلى أن مات ، وذلك إنما هو عامر بن الطفيل الأسلمى فإنه صحابى .

ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفد ضمام بن ثعلبة سنة تسع وسأله ضمام هل الله سبحانه وتعالى أمره بعبادة الله وحده لا شريك له وخلع الأصنام وبإزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ؟ فقال رسول الله اللهم نعم . فأسلم ورجع إلى قومه وسب اللات والعزى وما زال يدعوهم إلى الإسلام حتى أسلموا جميعاً رجالاً ونساء . ووفد عليه عليه السلام وفد عبد القيس وكانت منازلهم بالبحرين ، وكان فيمن وفد منهم الجارود ، وكان نصرانياً قد قرأ الكتب وقيل كان مجيئهم سنة عشر فعرض عليه رسول الله الإسلام ، فأسلم وأسلم أصحابه ، وسألوه عن النبيذ فقالوا يا رسول الله إن أرضنا أرض وخة لا يصلحنا إلا النبيذ فنهاهم عن شربها .

فوفد بنى حنيفة بن الجهم بن صعيب بن علي بن بكر بن وائل وفدوا عليه عليه السلام وكانوا سبعة عشر رجلاً ومعهم مسيلة الكذاب ، وكان أمره عند قومه كبيراً فكلّم النبي صلى الله عليه وسلم وسأله أن يشركه معه في النبوة وهو الذى ادعى النبوة في حياة رسول الله كما ادعى النبوة الأسود العنسى صاحب صنعاء ، وصار مسيلة يتكلم بالهذيان ليضاهى به القرآن ، فمن ذلك أنشأ سجماً على منوال سورة السكوت قال : « إنا أعطيناك الجواهر فصل ربك وهاجر . إن مبغضك رجل فاجر » وقد وضع عن قومه الصلاة وأحل لهم الغلظ والزنا ترغيباً لهم في اتباعه .

ووفد عدى بن حاتم الطائي . كان عدى نصرانياً عظيماً في قومه فأسلم ومن الوفود وفد عروة المرادي ووفد بني زبيد ووفد كندة ، قبيلة باليمن ينسبون إلى كندة لقب جدهم ثور بن عفير ، وله صلى الله عليه وسلم جدة منهم وهي أم جده كلاب وفيهم الأشعث بن قيس . وكان وجيهاً في قومه فأسلم وارتد بعد النبي صلى الله عليه وسلم وعاد إلى الإسلام في خلافة أبي بكر ، ووفد أزد شنوءة وهم من الأزد وفيهم صرد بن عبد الله الأزدي ، وكان أفضلهم فأمره على من أسلم من قومه ، ووفد الحارث بن كعب ، ووفد رفاعة بن زيد الجذامي ، ووفد همدان فيهم مالك بن نط ، وكان شاعراً مجيداً فلقوا رسول الله مرجه من تبوك ، ووفد تميم وهي قبيلة من كندة وجعلوا يسألون رسول الله عن القرآن والسنن ، ووفد بني ثعلبة ، ووفد بني سعد هذيم من قضاة أسلموا وبايعوا رسول الله على الإسلام ورجعوا إلى قومهم فرزقهم الله الإسلام ، ووفد بني فزارة وفيهم خارجة بن حصن أخو عيينة بن حصن ، مقرين بالإسلام ، ووفد بني أسد فيهم حضرمي بن عامر فأسلموا وقالوا يارسول الله أسلمنا ولم تقاتلك كما قاتلتك العرب فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَمْشُونَ عَلَىٰ لَكَ لَمْ يَكُنْ لَكَ قَاتِلٌ ﴾ . ووفد بني عذرة ، قبيلة باليمن ونههم عن سؤال الكهنة والذباح التي كانوا يذبحونها لأصنامهم . ووفد بني ووفد بني عذرة ، قبيلة باليمن ونههم عن سؤال أبو الصييب ^(٢) فقال يارسول الله إن لي رغبة في الضيافة فهل لي في ذلك أجر؟ قال نعم وكل معروف صنعتته إلى غنى أو فقير فهو صدقة . قال يارسول الله فما وقت الضيافة؟ قال ثلاثة أيام ، قال فما بعد ذلك؟ قال صدقة ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيخرجك ، أي يضيق عليك . ووفد بني مرة ورأسهم الحارث بن عوف ، ووفد خولان وهي قبيلة من اليمن وكان لهم صنم يعبدونه اسمه « عم أنس » ولما رجعوا هدموه ، ووفد بني محارب وفيهم خزاعة بن سوار وكانوا أغاظ العرب وأشدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام عرضه نفسه على القبائل في اللوازم يدعونه إلى الله تعالى ، ووفد ضداء وهم حي من عرب اليمن وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ثم رجعوا إلى قومهم وفشا الإسلام فيهم وكان زياد بن حارث الصدائي مطاعاً في قومه . ووفد سلامان فيهم خبيب بن عمرو السلامي فأسلموا ، وسأل خبيب رسول الله عن أفضل الأعمال قال الصلاة في وقتها وصلوا معه يومئذ الظهر والعصر . ووفد بني عبس ، ووفد مزينة وهي قبيلة تنسب إلى مزينة امرأة عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر ، ووفد الأشعرين قوم أبي موسى الأشعري وهم منسوبون إلى أشعر بن أد فأسلموا وبايعوا وقاتل في حقهم رسول الله « أنا كم أهل اليمن كأنهم السحاب وهم خيار من في الأرض » وقال: الأشعريون كصرة فيها مسك . ووفد دوس وهم قوم أبي هريرة ينتهي نسبهم إلى الأزد

(١) سأل رسول الله ﷺ ما أملك ؟ قال : أما زيد الخيل . قال : بل أنت زيد الخير . وكان شاعراً ، محمناً خطيباً لسا
هجعاً كريماً . (٢) تصغير الضب : الدابة المعروفة .

وكان قدمهم بخير سنة سبع . ووفد بهراء قبيلة من قضاة قدموا من اليمين أسلموا وتعلموا الفرائض ثم انصرفوا إلى أهلهم باليمن . ووفد غامد قبيلة من الأزد باليمن سنة عشر . أقرؤا بالإسلام وكتب لهم رسول الله كتاباً فيه شرائع الإسلام وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أبي بن كعب الأنصاري ^(١) أن يعلمهم القرآن . ووفد الأزد ينسبون إلى جدم الأعلى وهو الأزد بن الغوث وهم الذين قال في حتمهم رسول الله (حكماء علماء كادوا من قهم أن يكونوا أنبياء) . ووفد بني المنتفق وهي قبيلة من عامر بن صعصعة وفيهم لقيط بن عامر بن صبرة بن عبد الله بن المنتفق قال عنهم رسول الله : إنهم من أتقى الناس لله في الدنيا والآخرة . ووفد النخع قبيلة من اليمن وهم آخر الوفود وكان وفد سنة إحدى عشرة في النصف من الحرم وعددهم مائتا رجلاً . قدموا مقرين بالإسلام وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل .

وفاة رسول الله ﷺ

يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١٨٠ - ٧ يونيو سنة ١٩٦٢ م

مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم في أواخر صفر سنة ١١ هجرية (٦٣٢ م) وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً (وقيل سبعة أيام) وكان في ابتداء مرضه في بيت زوجته ميمونة ولما اشتد مرضه استأذن زوجته أن يمرض في بيت عائشة فخرج يهادى بين العباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب حتى دخل بيت عائشة وأمر أن يُهرق عليه الماء فصبوه عليه لما كان يشمر به من الحى ، وقال ما زال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخير وهذا أوان انقطاع أبهرى من ذلك السم^(٢) . ولما تعذر عليه الخروج للصلاة ، قال مروا أبا بكر فليصل بالناس . فقالت له عائشة يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء . قال مروا أبا بكر فليصل بالناس فعاودته مثل مقاتلتها ، فقال إنك صواحبات يوسف . مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فضلى بهم سبع عشرة صلاة أولاها عشاء ليلة الجمعة وآخرها صبح يوم الاثنين .

وفي تقديم أبي بكر للصلاة إشارة إلى أنه الخليفة بعده . فقالوا إن النبي ﷺ رضي الله عنه رضيه لديننا أفلا نرضاه لدينا ؟ غير أن النبي خرج معصوب الرأس لأنه كان يشكو ، وجلس في أسفل مراقبة من المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : يا أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلد نبي قبلي فيمن بُعث إليه فأخذه فيكم ، ألا إني لا حق بربي وإنكم لاحقون بي فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله تعالى يقول :

(١) كان أبي بن كعب نعيماً ، قصيراً ، أبيض الرأس والوجه . شهد العبة الثانية وبدراً وما بعدها من المعاهد وكان كاتب الوحي وأحد السبعة الذين حفظوا القرآن على عهد رسول الله وأحد الفقهاء الذين كانوا يفتون على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأقرأ الصحابة لكتاب الله ، مات بالمدينة ، ودفن بها سنة ثلاثين (٢) الأبهري : عرق مستطيل والصلب والقلب متصل به ، فإذا انقطع لم يبق معه حياة

﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُصْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾
 وإن الأمور تجري بإذن الله ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يجعل بمجلة أحد
 ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم
 وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين نبأوا الدار والآخر من قبلكم أن تحسنوا إليهم . ألم يشاطروكم في الثار .
 ألم يوسعوا لكم في الديار . ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة . ألا فن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل
 من محسنهم وليتجاوز عن مسيئتهم . ألا ولا تستأثروا عليهم ، ألا وإنى فرط لكم وأنتم لا تحقون بي . ألا فإن
 موعدكم الحوض . ألا فن أحب أن يرده على غداً فليكنف يده ولسانه .

وهذه آخر خطبة للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يصعد المنبر بعد ذلك اليوم . وقد أوصى المسلمين بالحبة والاتحاد
 وصلة الرحم ، المهاجرين منهم والأنصار ، وهو في أشد حالات المرض ونهام عن التقاطع .

ثم أغى على رسول الله ورأسه في حجر عائشة رضي الله عنها وكانت تدعو له بالشفاء وكان يقول : إن
 الموت لسكرات . وقالت فاطمة لما تشاء الكرب . واكرب أبتاه ، قال : لا كرب على أيك بعد اليوم .

وفي البخارى من حديث أنس رضي الله عنه . أن المسلمين ينام في صلاة الفجر من يوم الاثنين وأبو بكر
 يصلى لهم ، لم يفتأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف سيجف^(١) حجرة عائشة رضي الله عنها فنظر إليهم وهم في
 صفوف الصلاة ثم تبسم بضحك^(٢) فنكص أبو بكر رضي الله عنه ليصل الصف وظن أن رسول الله ﷺ يريد
 أن يخرج للصلاة . قال أنس وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ فأشار إليهم بيده ﷺ أن
 أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر . زاد في رواية فوفى من يومه . واجتمع حوله أصحابه فيكون
 قالت عائشة رضي الله عنها : توفي رسول الله ﷺ في بيتي وبين سحري ونحري^(٣) والمراد أنه توفي وهو في
 حجرها وكان أبو بكر رضي الله عنه غائباً فسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه سيفه وتوعد من يقول مات
 رسول الله ﷺ مع أنه سمع خطبة رسول الله ﷺ التي قال فيها « يا أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت
 نبيكم . هل خلد نبي قبلي فيمن بعت إليه فأخلد فيكم . إلا إنى لاحق برى » .

فأقبل أبو بكر رضي الله عنه حين بلغه الخبر إلى بيت عائشة رضي الله عنها فكشف عن وجه رسول الله .
 فجثا قبله ويبكى ثم خرج فقال : أيها الخائف على رسلك^(٤) . فلما تكلم أبو بكر رضي الله عنه جثس عمر فحمد الله
 أبو بكر وأثنى عليه ثم قال :

(١) السجف : الستار المقرون بينهما فرجة .

(٢) تبسم بضحك : فرحاً باجتماعهم على الصلاة واتفاق كلمتهم وإقامة شريعته .

(٣) السحري : الصدر ، والنحر : موضع القلادة من العنق . (٤) أى اتشد ولا تعجل .

(أَلَا مَنْ كَانَ يَسُدُّ مَحْمدًا فَإِنْ مَحْمدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ يَمُودُ اللهَ فَإِنْ اللهَ حَيًّا لَا يَمُوتُ) وقد قال تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ الآية . قنشج^(١) الناس ييكون رواه البخارى . فكان أجزع الناس كلمهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فلما سمع قول أبى بكر قال : فوالله لكأنى لم أتله هذه الآية قط .

ووقوف أبى بكر هذا الموقف يدل على رباطة جأشه عند الكروب وضبط النفس وعلى حكته وشجاعته . فإن رسول الله لما توفى طاشت العقول فمنهم من خبل ومنهم من أقعد ولم يطق القيام ومنهم من أخرس فلم يطق الكلام ومنهم من أضنى^(٢) وكان عمر رضى الله عنه ممن خبل ، وكان عثمان رضى الله عنه ممن أخرس فكان لا يستطيع أن يتكلم ، وكان على رضى الله عنه ممن أقعد فلم يستطع أن يتحرك ، وأضنى عبد الله بن أنيس فمات كدأً وكان أثبتهم أبو بكر . فالقرطبي وهذا أول دليل على كمال شجاعة الصديق رضى الله عنه لأن الشجاعة هى ثبوت القلب عند حلول المصائب ولا مصيبة أعظم من موت رسول الله فظهرت عنده شجاعة الصديق وعلمه رضى الله عنه .

وروى أن بلا لارضى الله عنه كان يؤذن بعد وفاته ﷺ وقبل دفنه فإذا قال : أشهد أن محمداً رسول الله ارتج المسجد بالبكاء والنحيب .

وكانت وفاته ﷺ يوم الاثنين فى شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ قرية بلا خلاف ، واختلف فى أى الاثنين كانت وفاته فقال فقهاء الحجاز إن رسول الله قبض يوم الاثنين لليتين مضتا من شهر ربيع الأول ، وقال الواقدي توفى يوم الاثنين لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، ودفن من الغد نصف النهار حين زاغت الشمس وذلك يوم الثلاثاء ، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة قرية ، وركته عمته صفية . وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب . وأبو بكر . وحسان بن ثابت وغيرهم .

وغسلوه ﷺ وعليه قميصه يضمون الماء فوق القميص ويدلكونه بالنميص^(٣) غسله على بن أبى طالب رضى الله عنه والماء من بئر غرس التى بقاء ، وكان العباس وابنه الفضل يعميانه فى تقليب جسمه الشريف وكفنوه فى ثلاثة أثواب بيض من القطن ليس فيها قميص ولا عمامة ، ولما فرغوا من جهازه ﷺ وضع على سريرته فى بيته ثم دخل الناس عليه ﷺ أرسالاً أى جماعات متتابعين يصلون عليه وحفر له ﷺ فى المكان الذى توفى فيه بعد أن رفعوا فراشه الذى توفى عليه وفرش عليه قطيفة كان يابسها ويفترشها قال أبو بكر رضى الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول (ما مات نبي قط إلا يدفن حيث تقبض روحه) قال على وأنا أيضاً سمعته . وكان المباشر للحفر

(١) يقال نتج الباكي : إذا غص بالبكاء فى حلقه من غير احتجاب . . (٢) أى أثقله المرض .

(٣) راجع البيهقي فى دلائل النبوة .

أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري رضى الله عنه ، حفر لحداً في موضع فراشه حيث قبض ، ونزل في قبره عنه .
العباس وعلى والفضل وقيم بن العباس رضى الله عنهم . ورش قبره عليه السلام بلال بقربة بدأ من قبل رأسه وجعل عليه
من حصباء العرصة حمراً وبيضاً ورفع قبره عن الأرض قدر شبر .

ولا يفوتنا أن نذكر أن المنافقين أكثروا من التحدث بتأثير أسامة حتى بلغ رسول الله فخرج وهو مريض
عاصباً رأسه من الصداق فرد عليهم . وما قاله في الشأن « قد بلغني أن أقواماً يقولون في إمارة أسامة ولعمري
لئن قالوا في إمارته لقد قالوا في إمارة أبيه من قبله وإن كان أبوه خليقاً للإمارة وإنه خليق لها فأفدوا بيث
أسامة » وهذا يدل على أن رسول الله كان مهتماً لآخر لحظة في حياته بيث أسامة وبشئون المسلمين
وتوحيد كلمتهم .

وقد توفي رسول الله عليه السلام ودر عمره هونة عند يهودى في نفقة عياله وما ترك ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً .
عن عائشة رضى الله عنها « ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد ^(١) إلا شطر شعير في ردف لي فأكلت منه
حتى طال عليّ فأكلته ففني فيا ليتني لم آكله » وروى الترمذى عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، توفي
رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشبع هو ولا أهل بيته من خبز الشعير وما ترك رسول الله إلا سلاحه وبقائه
وأرضاً جعلها صدقة .

رثاء أبي بكر

وقال محمد بن عمر الواقدي عن رجاله ، قال أبو بكر الصديق يرنى رسول الله عليه السلام :

يا عين بكى ولا تسأى	وحقّ البكاء على السيد
على خير خندف عند البلاء	أبسى يُغيّب في الملحد
فصلّى للمليك وليّ العبا	د وربّ البلاد على أحمد
فكيف الحياة لفقد الحيد	ب وزين المأثر في الشهد
فليت للمات لنا كلنا	وكنّا جميعاً مع المهتدى

وقال رضى الله عنه أيضاً :

لما رأيت نبينا متجدلاً ضاقت عليّ بمرضن الدور

(١) لسان أوحىوان .

وارتعتُ روعةَ مستهائمٍ والهِ والعظم منى واهنٌ مكسور
أعقيقُ ويمحك إن جيك قد نوى وبقيت منفرداً وأنت حسير
ياليتنى من قبل مهلك صاحبي غيبتُ في جدث ، على صُخور
فلتحدثن بدائع من بعده نعي بهن جوانح وصدور

رثاء حسان بن ثابت

والله ما حملت أثنى ولا وضعتُ مثلَ النبي رسول الأمة الهادى
أمسى نساؤك عطلن البيوت فما يضرين خلف قفا ستر بأوتاد
مثل الرّواهب يلبسن للمسوح وقد أيقن بالبؤس بعد النعمة البادى

وقال أيضاً :

ما بال عينك لا تنام كأنما كُحلت ما قىها بكحل الأرمَد
جزعاً على المهدي أصبح ثاوياً بإخير من وطئ الحمى لا تبعد
يا ويح أنصار النبي ورهطه بعد الغيب في الضريح اللحد
جنبي يقيق التراب لمنى ليتنى كنت الغيب في الضريح اللحد
يا بكر آمنة للبارك ذكره ولده مُحَصَّنة بسعد الأسعد
نوراً أضاء على البرية كلها من يهد للنور المبارك يهتدى
أقيم بمدك بالمدينة بينهم يالهف نسي ليتنى لم أولد
بأبي وأمي من شهدت وفاته في يوم الاثنين النبي للمهدي
فظلات بعد وفاته متلداً باليتنى صبحت مُسمَّ الأسود
أو حلّ أمر الله فينا عاجلاً في راحة من يومنا أو من غد
فتقوم ساعتنا فنلقى سيده محضاً مضاربه كريم الحميد
يارب فاجعنا ممّا ونينا في جنة تقف عيون الحسد
في جنة الفردوس واكتبها لنا يا ذا الجلال وذا العلا والشؤدد
والله أسمع ما حيت بهالك إلا بكميت على النبي محمد

ضاقَت بالأُنصار البلاد فأصبحوا سوداً وجوههم كالون الإثمد
ولقد ولدناه وفينا قبره وفضل نعمته بنا لا تُجحد
والله أهدها لنا وهدى به أنصاره في كل ساعة مَسْجِد
صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيون على المبارك أحمد

وقال أيضاً :

يا عين جودى بدمع منك سَيْال ولا تَمَنَّ من سَح وإعوال
لا ينفدن لى بعد اليوم دمعك إني مصاب وإني لست بالسالى
فإن منعك من بعد بذلك إياي مثل الذى قد غرّ بالآل
لكن أفيض على صدرى بأربعة إن الجوايح فيها هاجس صالى
سَح الشَّعيب وماء الغرب يمنحه ساقِي يُحْمَلُهُ ساقِي بإزالال
حامى الحقيقة نَسَّالُ الوديقة فَكَالُ العناة كَرِيمٌ ماجدٌ عال
كشافٌ مكرمة مطعماً مسغبة وقلب عانية وَجَناء شِملال
عَفٌ مكاسبه جزل مواهبه خيرُ البرية سمح غير نَكَال
وارى الزناد وقواد الجياد إلى يوم الطراد إذا شَبَّتْ بأجذال
ولا أزلتى على الرحمن ذا بشر لكن علمك عند الواحد العالى
إني أرى الدهر والأيام تفجنى بالصالحين وأبقى ناعم البال
يا عين فابكى رسول الله إذ ذكرت ذات الإله فتم القائد الوالى

ومن رثاه عليه السلام شعراً ، كعب بن مالك وأروى بنت عبد المطلب وعاتكة بنت عبد المطلب وصفية وهند
بنت الحارث وهند بنت أئمة وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وأم أيمن .

ما نزل من القرآن بالمدينة

نزل على رسول الله بالمدينة من القرآن اثنتان وثلاثون سورة . أول ما نزل ، ويل للطففين ثم سورة البقرة ثم سورة الأنفال ثم سورة آل عمران ثم الحشر ثم سورة الأحزاب ثم سورة النور ثم للمتحنه ثم إنا فتحنا لك ثم سورة النساء ثم سورة الحج ثم سورة الحديد ثم سورة محمد ثم هل أتى على الإنسان ثم سورة الطلاق ثم سورة لم يكن ثم سورة الجمعة ثم تنزيل السجدة ثم المؤمن ثم إذا جاءك المنافقون ثم المجادلة ثم الحجرات ثم التحريم ، ثم التباين ، ثم الصف ، ثم اللائدة ، ثم براءة ، ثم إذا جاء نصر الله والفتح ، ثم إذا وقعت الواقعة ، ثم والماديات ، ثم المعوذتان وكان آخر ما نزل : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ إلى آخر السورة ، وقد قيل إن آخر ما نزل عليه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَارْتَمَعْتُ عَلَيْكُمْ فَتَمَيَّقُوا وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ وهي الرواية الصحيحة .

مراتب الوحي

والرد على المستشرقين

نذكر في هذا الفصل مراتب الوحي ثم نرد على المستشرقين الذين زعموا أن رسول الله كانت تهترئه نوبات صرعية إنكاراً لنزول الوحي .

ولنبد بمراتب الوحي وهي سبعة :

- ١ — الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .
- ٢ — ما كان يلقيه الملك في قلبه من غير أن يراه ، ويخاط الله فيه علماً ضرورياً يعلم به أنه وحى لا إلهام .
- ٣ — خطاب الملك حين كان يتمثل له رجلاً فيخاطبه حتى يبي عنه ما يقول .
- ٤ — كان يأتيه مخاطباً له بصوت مثل صلصلة الجرس وكان هذا النوع أشده عليه ، وفي حديث لابن عباس : كان ﷺ يعالج من التنزيل شدة .
- ٥ — رؤية جبريل في صورته التي خافه الله عليها فيوحى إليه .
- ٦ — ما أوحاه الله إليه وهو فوق السموات من فرض الصلوات وغيرها بسماع الكلام الأزلي الذي ليس بحرف ولا صوت من غير واسطة مع الرؤية للذات القدسة .
- ٧ — ما أوحاه إليه بلا واسطة أيضاً ، بل بسماع الكلام الأزلي لكن بلا رؤية كما وقع لمومني عليه السلام .

هذه هي مراتب الوحي وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمانى من الوحي شدة فظن المستشرقون أن هذه الشدة التي كانت ترى عليه إنما هي نوبة صرعية ، لكن أعراض الصرع للدروسة طبيياً تخالف ما كان يشاهد عليه ﷺ عند نزول الوحي .

فالمصروع تعتريه النوبة فجأة فيقطع كلامه ويسقط من يده ما قد تكون قابضاً عليه وتثبت حدقة عينه ويصفر وجهه وقد يصبح صبيحة عالية ويقع مغشياً عليه كمن أطلق عليه عيار نارى ولا يبذل أى مجهود للخلاص من حاله ، ولهذا كثيراً ما يصاب بمجروح وقد يصاب بمجروح خطرة إذا سقط بالقرب من نار وتقتل عضلات الوجه في النوبة الصرعية ومنها عضلات الفك . فيعض المصروع لسانه ويتمزج لعابه بالدم ويسيل من فمه وإذا ترك وشأنه نام ساعات فإذا أفاق شكاً صديعاً وارتباكاً في العقل . ثم إن الجروح التي تصيب رأس المصروع من السقوط فجأة تسبب له تهيجاً في الدماغ .

هذه هي أعراض الصرع الطبية . فكيف يقال إن رسول الله كانت تعتريه نوبات صرعية ولم يزلنا أنه سقط مغشياً عليه أو أصيب بمجروح في رأسه أو عض لسانه أو شفتيه أو سال الدم منه أو أصيب بمجروح أو قد ذاكرته أو حاد عن مبدئه ؛ بل لم يقل أحد من الرواة إنه صاح صياحاً عالياً . أليس في مخالفة حالته للأعراض الصرعية التي يعرفها كل طبيب رد كاف على هؤلاء المستشرقين ؟

كان رسول الله بعد شدة الوحي يملئ القرآن بوضوح وحضور ذهن ، ويقرر الأطباء أن المصروع لا يمكن أن يكون حاضر الذهن بعد النوبة ، ومحال أن يعيش صحيح الجسم قوياً طول حياته . كذلك لا يمكن أن يكون المصروع نبياً أو مشرعاً حافظاً لقواء العقلية والجسمية وهذا ما مرّح به أحد مؤلفي السيرة وهو مستر بودلى في كتابه عن حياة الرسول طبعة سنة ١٩٤٦ صفحة ٥٥ - ٥٦^(١) وقال أيضاً : « إن للمجرات ترجع إلى أثنى عام قبل للمسيح وعلى ذلك فالذين يسخرون من محمد على جبل حراء فليسخروا من موسى على جبل سيناء ومن للمسيح على جبل الجليل » ، فالحالة التي كانت تعتريه ليست نوبة صرعية قطعاً . ومن شاء فليراجع الكتب الطبية في هذا الموضوع ليتأكد من أعراض الصرع التي ذكرناها ، إنما كانت تنقابه شدة من الوحي ، لا تلبث أن تزول ومن أهم أعراض الصرع ، اضمحلال القوى العقلية فضلاً عن الجسمية . وهذا يخالف حالة رسول الله فإنه لبث محافظاً على قواء طول حياته ولم يبد عن مبدئه وعن تبليغ الرسالة حتى آخر يوم من حياته فدعا إلى الله وحارب الأصنام والشرك وبقى متصفاً بجليل صفاته وكرم أخلاقه حتى قبضه الله تعالى .

(1) The Messenger by R. V. C. Bodley

زوجات رسول الله ﷺ

تزوج رسول الله خمس عشرة امرأة، ودخل بثلاث عشرة وجمع بين إحدى عشرة؛ وتوفي عن تسع أولاهن (خديجة) بنت خويلد ولم يتزوج عليها حتى مات.

ثم تزوج (سودة) بنت زمعة وكانت تحت ابن عمها السكران بن عمرو وهو من مهاجرة الحبشة ثم قدما مكة فمات بها ولم يعقب فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بعده في رمضان سنة عشر من النبوة بعد وفاة خديجة. توفيت (سودة) في شوال سنة ٥٤ هـ في خلافة معاوية بالمدينة.

ثم تزوج (عائشة) بنت أبي بكر سنة اثنتين ولم يتزوج بكراً غيرها. عقد عليها بمكة وهي ابنة ست سنين وبني عليها بالمدينة وهي ابنة تسع وتزوج (حفصة) بنت عمر بن الخطاب وكانت تحت خنيس بن حذافة السهمي وكان رسول الله أرسله إلى كسرى ولما مات خنيس بن حذافة وتأيمت حفصة ذكرها عمر لأبي بكر وعرضها عليه فلم يرد عليه أبو بكر ففضب عمر من ذلك فعرضها على عثمان حين ماتت رقية بنت رسول الله فقال عثمان ما أريد أن أتزوج اليوم فانتقل عمر إلى رسول الله فشكا إليه عثمان فقال رسول الله: يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة ثم خطبها إلى عمر فتزوجها رسول الله بعد غزوة أحد سنة ثلاث وكانت سنها عشرين سنة وتوفيت سنة ٤٥ هـ في خلافة مروان بن الحكم وكان عمرها ستين سنة ثم تزوج (زينب) بنت خزيمة بن الحارث سنة ثلاث. يقال لها أم المساكين لكثرة إطعامها للمساكين وصدقها عليهم وكانت تحت عبد الله بن جحش قتل عنها يوم أحد ولم تلبث عند رسول الله إلا يسيراً: شهرين أو ثلاثة حتى توفيت في حياته. ثم تزوج (زينب) بنت جحش وهي بنت عمته ﷺ سنة خمس وهي أول من مات من أزواجه في خلافة عمر وتكنى أم الحكم وكانت قديمة الإسلام وكانت قد تزوجها زيد بن حارثة مولى رسول الله ليعلمها كتاب الله وسنة رسوله وكان اسمها برة فسمها زينب وبسببها نزل الحجاب.

ثم تزوج (أم حبيبة) واسمها «رملة» بنت أبي سفيان صخر بن حرب وأمها صفية بنت أبي العاص عمة عثمان ابن عفان. أسلمت قديماً وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش فتنصر بالحبشة ومات بها وأبنت هي أن تنصر وثبتت على إسلامها فتزوجها رسول الله وهي بالحبشة سنة ست. وروى مسلم بن الحجاج في صحيحه أن أبا سفيان طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها فأجابته إلى ذلك وهذا مما يعد من أوامهم مسلم لأن رسول الله قد تزوجها وهي بالحبشة قبل إسلام أبي سفيان ولم يختلف أهل السير في ذلك^(١) وأصدقها النجاشي أربعمائة دينار وكان وليها عثمان بن عفان.

(١) راجع الجزء الخامس من أسد الغابة «رملة» وتهذيب الأسماء للتواريخ «أم حبيبة».

سم تزوج (أم سلمة) بنت أبي أمية بن المغيرة الخزومي واسمها هند ، سنة أربع وكانت قبل النبي ﷺ عند أبي سلمة بن عبد الأسد الخزومي فولدت له سلمة وعمر ودرة وزينب وتوفى خلفه عليها رسول الله ﷺ بعده . وكانت من المهاجرات إلى الحبشة وإلى المدينة وكانت سنّها حين تزوجها رسول الله ﷺ ثلاثين سنة . وتزوج (ميمونة) بنت الحارث وهي خالة خالد بن الوليد وكانت قبل رسول الله ﷺ عند أبي رهم العامري . تزوجها رسول الله ﷺ سنة سبع في عمرة القضاء في ذي القعدة .

وتزوج (صفية) بنت حيي بن أخطب سنة سبع ولم تبلغ ١٧ سنة وكانت زوج سلام بن مشكم اليهودي ثم خلفه عليها كنانة بن أبي الحقيق وهما شاعران قتل عنها كنانة يوم خيبر ثم تزوجها رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم وتوفيت سنة ٥٢ هـ وتزوج (جويرة) بنت الحارث بن أبي ضرار سنة خمس سبأها رسول الله ﷺ يوم الريح وهي غزوة بني المصطلق وكانت تحت مسافع بن صفوان المصطلق ذي الشفرين . وعن عائشة قالت لما قسم رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم سبايا بني المصطلق وقعت جويرة بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له فكانت على نفسها إلخ ...

ولما بلغ الناس أنه تزوجها قالوا أصهار رسول الله ﷺ فأطلقوا جميع الأسرى الذين بأيديهم . وتزوج (خولة) بنت حكيم وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ صلى الله عليه وسلم . وتزوج امرأة يقال لها (عمرة) فطلقها ولم يثن بها وذلك أن أباهما قال له وأزيدك أنها لم تمرض قط ، فقال ما لهذه عند الله من خير فطلقها . وتزوج امرأة يقال لها (أميمة) بنت النعمان فطلقها قبل أن يدخل بها . وخطب امرأة من بني مرة بن عوف فردّه أبوها وقال إن بها برصاً فلما رجع إليها وجدها برصاء . إن رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم تزوج هؤلاء قبل تحرير ما زاد على الأربع وهن عائشة وميمونة وصفية وجفصة وهند وزينب وجويرة ورملة وسودة .

تعدد زوجات رسول الله

اعترض بعض الذين كتبوا سيرة الرسول من المسيحيين على كثرة أزواجه ﷺ وزعموا أنه كان شهوانياً . والحقيقة أن كثرة أزواجه لم تكن بدافع شهوانى فإنه أراد بذلك أن يوجد بينه وبين أصحابه وكبار قومه صلة قوية ورابطة متينة بواسطة المصاهرة لأن ذلك مما يساعده ويشد أزره للدفاع عن مبدئه السامى ونشر الدعوة إلى الإسلام .

أما أنه لم يكن شهوانياً فأمر لا ينكر ، وظاهر من حياته وأطواره لأنه صلى الله عليه وسلم تزوج خديجة وكانت في الأربعين من عمرها وهو في عتفوان شبابه في سن الخامسة والعشرين ولم يتزوج غيرها إلى أن توفيت

وكان عمره إذ ذاك خمسين سنة فإذا لم يكن إلى هذا العمر رجل شهوة بل كان رجلاً فانما بزوجة واحدة فهل من العدل أن تقول إنه كان شهوانياً بعد ذلك ؟

لم يكن رسول الله يعرف الفراغ بل كان في جهاد مستمر فلم يذق للراحة دأماً من مبدأ الرسالة إلى أن مات فكان يقضى أوقاته في نشر الدعوة ومحاربة الوثنية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدفاع عن المسلمين وجمع شملهم وتعليمهم أمور دينهم وثبيت دعائم للدينية الصحيحة الخالية من الشوائب ، ومكافحة الأعداء باللسان والسيف . وكان مع ذلك يتعبد آناء الليل وأطراف النهار ، وعلى العموم فقد تحمل من الأعباء ما تنوء به الجبال ولم تشغله كثرة نسائه عن عبادة ربه وعن القيام بواجبات الرسالة .

وأما أنه كان يقصد من تعدد زوجاته إيجاد روابط المصاهرة وتأليف القلوب لنشر الدعوة فهذا واضح أيضاً فإن زوجته (عائشة) هي بنت أبي بكر الصديق (وحفصة) بنت عمر بن الخطاب وقد كان عرضها عمر بعد موت زوجها على أبي بكر وعثمان فأبيا زواجها فتزوجها رسول الله (وأم حبيبة) هي بنت أبي سفيان وقد كان من أكبر أعداء رسول الله ومن أشرف قريش ، وعدا ذلك قد كانت أم حبيبة كما تقدم أسلمت قديماً وهاجرت إلى الحبشة وتنصر زوجها هنالك وأبت أن تنصر معه فأكرمها النبي ﷺ بزواجها . وزوجته (ميمونة) هي خالة خالد بن الوليد الذي صار من أعظم أبطال المسلمين وقوادهم الذين اكتسبوا شهرة خالدة . وأما زوجته « صفية بنت حيي » فإنما تزوجها لأنها بنت ملك من ملوك اليهود فلا تصلح إلا له ﷺ وقد تنافس المسلمون فيها لما وقعت في نصيب دحية بن خليفة الكلبي .

وقد كان رسول الله قوياً صحيح الجسم كما أنه كان ذا إرادة تفل الحديد ، وكان بشراً يأكل ويشرب ويشتهي ، وقد عصمه الله تعالى عن الذنوب . وتزوج (زينب بنت جحش) وكانت عند مولاه زيد بن حارثة وطلقها زيد بعد أن كرهها ، وتزوجها رسول الله لإبطال عادة التبني ونسخ تحريم الزواج بالمرأة المتبنى . هذا ملخص العلة في تعدد زوجاته بعد أن بلغ من العمر الخمسين وبعد أن اقضى زمن شبابه : زمن حدة الشهوة . هذا ولا يخفى أن تعدد الزوجات كان عادة مألوفاً عند العرب .

على أن عقلاء الإفرنج أدركوا حقيقة هذه المسألة فردوا على ما اقتراه بعضهم من قصار النظر . فقال الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل :

« وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظالماً وعدواناً ، وشد ما نجور ونخطيء إذا حسبناه رجلاً شهوانياً لأم له الإلقضاء مآربه من الملاذ . كلا فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت . لقد كان زاهداً متشغافاً مسكنه وما كُله ومشر به ومابسه وسائر أموره وأحواله وكان طعامه عادة الخبز والماء وربما تابعت الشهور ولم توقد بداره نار . ولأنهم ليزكرون - ونعم ما يذكرون - أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده . فهل بعد ذلك مكرمة ومعجزة ؟

— ٣٦٣ —

فحبذا محمد من رجل خشن اللباس ، خشن الطعام ، مجتهد في الله قائم النهار ساهر الليل ، دائباً في نشر دين الله الخ .

هذا وقد كان سليمان ثلاثمائة امرأة وثلاثمائة سارية وقد كان لداود عليه السلام على زهده وأكله من عمل يده تسع وتسعون امرأة وتمت بزواج امرأة أوريا مائة .

المرأة في الاسلام

لم يكن للمرأة في الجاهلية أى شأن ، فلم يكن لها حق الميراث كالأطفال ويقولون : لا يرث إلا من طاعن بالرمح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة .

وأمر الله تعالى بمعاشرة النساء بالمعروف حيث قال (وعاشروهن بالمعروف) .
وأمر النساء بالخضوع للرجال قال تعالى (الرجال قوامون على النساء) وحث رسول الله على معاملتهن باللين والرفق فأوصى بهن الأزواج حيث قال « استوصوا بالنساء خيراً » وشرط الإسلام رضا المرأة قبل الزواج ومنع أخذ الزوجة بغير رضاها وجاء في الحديث « الجنة تحت أقدام الأمهات » وللنساء في الميراث نصف ما للرجال ، وحرم القرآن وأد البنات ، ومنع الإسلام الزواج للوقت (زواج المتعة) وحرم الزنا ولم يبيح تعدد الزوجات إلا عند توافر العدل « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وأباح الطلاق وصرح النبي أن أبغض الحلال عند الله الطلاق ، وتعدد الزوجات بلا شك خير من الزنا المستور وهو يمنع المهارة وعزوبة النساء المنتشرة في هذه الأيام بكثرة .

حكمة تعدد الزوجات

إن الدين الإسلامى لما كان ديناً عاماً فقد أباح تعدد الزوجات قال تعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ وذلك لضرورات اجتماعية وشخصية :
فأما الضرورات الاجتماعية ، فهو نقص عدد الرجال عن النساء بسبب قتل الرجال في ميادين الحرب . هذا ولم يستطع رؤساء الحكومات ولا علماء الاجتماع ولا المصلحون ولا المؤتمرات الدولية منع الحروب . فقد نشبت الحرب العالمية وذهب ضحيتها الملايين من النفوس البشرية وهامى الأمم تستعد الآن للحرب أخذاً بالنار وطمعاً فى التوسع والاستعمار ، وتنشئ الطائرات والأساطيل والمدافع وقد فشل مؤتمر نزع السلاح فى مهمته .
ولا تزال القبائل فى إفريقية وأمريكا وآسيا تشن الغارات ويقتل عدد كبير من رجالها ونتيجة هذه الحروب والغارات نقص عدد الرجال عن النساء نقصاً يقدر بحسب فظاعتها .

ونقص الرجال عن النساء - خصوصاً إذا كان النقص عظيماً - ضار بالامة من جهة وجوه منها نقص الثروة لقلة الأيدي العاملة ، وضعف قوتها من الوجهة الحربية ، وأمرضا لغارات الغزيرين ومطامع الطامعين من الأمم القوية فلا يعيد مثل هذه الأمة التي أصيبت بنقص رجالها إلى قوتها وكثرة موالدها إلا تعدد الزوجات .

وقد كتب العالم الإنجليزي هربرت سبنسر في كتاب أصول علم الاجتماع :

« إذا طرأ على الأمة حال اجتاحت رجالها بالحروب ولم يكن لكل رجل من الباقين سوى زوجة واحدة وبقيت نساء عديدات بلا أزواج ينتج من ذلك نقص في عدد المواليد لا محالة ولا يكون عددهم مساوياً لعدد الوفيات فإذا تقابلت أمتان مع فرض أنهما متساويتان في جميع الوسائل للمعيشة وكانت إحداهما لا تستفيد من جميع نساؤها بالاستيلاء فلا نستطيع أن نقاوم خصيمتها التي يستولد رجالها جميع نساؤها وتكون النتيجة أن الأمة للوحدة للزوجات تنفي أمام الأمم للعدة للزوجات » .

ثم إن زيادة عدد النساء بلا أزواج مدعاة لانتشار الفسق والنجور والفاقة ، ولاشك أن إباحة تعدد الزوجات للقاذرين عليه علاج لكل ما تقدم .

فأما الضرورات الشخصية ، فعلوم أن الزنا محرم شرعاً فلو أن الإسلام حرم التعدد لضائق السبل أمام المتدين الذي بعد الله وينبغي أو امره ويحتمل نواهيته لأن هناك ظروفاً شتى قاهرة تضطر الإنسان إلى الزواج بأكثر من امرأة واحدة نذكر منها :

١ - مرض الزوجة مرضاً مزمناً يحمل الزوج ينفر منها بحيث يجعلها غير صالحة للعمل والتمتع وليس لها من يمولها إذا طلقها ولا تستطيع الكسب ولا يمكن أن تتزوج بغيره فليس من الروءة والإنسانية طلاقها وليس من الحكمة منعه من التزوج لئلا يفعل نسله أو تميل به الشهوات الطبيعية إلى الزنا^(١) ، وقد حدث مثل ذلك بالضبط لأحد الصالحين وكان قاضياً بالحاكم الأهلية رحمه الله تعالى فإنه بعد أن تزوج بمدة يسيرة أصيبت زوجته بالشلل فكانت حالتها منفرة ولا تستطيع الحركة ولا ساول الطعام بيدها وليس لها من يمولها إذا طلقها بل يستحيل عليه ذلك لما جبل عليه من الروءة والشفقة . ولما كان متمسكاً بدينه تزوج غيرها بعد أن قرر الأطباء عدم شفاها وخصص لها خادمة وكان يخدمها بنفسه وقد طال مرضها وبقيت على هذه الحال إلى أن توفيت .

٢ - امتناع الرجل عن الاتصال بزوجه مدة الوضع والنفاس وما ينالها بسبب ذلك من الآلام والضعف .

٣ - جاذبية المرأة وجهالها وتأثيرها في الرجل مع قدرته على التعدد من الوجهة الجنسية والمالية .

٤ - بلوغ الزوجة سن الشيخوخة .

(١) كتاب المختارات الفتحية في التفرع وأصول الفقه للأستاذ أحمد أبي الفتح بك الطبعة الرابعة صفحة ٢٠

- ٥ - عقم المرأة مع رغبة الرجل في الذرية .
٦ - الرغبة في كثرة النسل رغبة في النفوذ والجاه .
٧ - الأسباب الاقتصادية فإن النساء والأولاد يساعدون الرجل في عمله وهذا مشاهد في البلاد الزراعية كالقطر المصري ، وقد يضطر الرجل أن يتزوج امرأة غنية بسبب سوء حالته المالية .
وقد كان تعدد الزوجات شائعاً عند العرب ولم يكن في الجاهلية قانون يحدد عدد الزوجات ، وقد أسلم غيلان ابن سلمة وتمتعه عشر نسوة فقال له رسول الله ﷺ : « أمسك أربعاً وفارق باقيهن » .
قال الأستاذ غوستاف لوبون :

« إن تعدد الزوجات على مثال ما شرعه الإسلام من أفضل الأنظمة وأنهضها بأدب الأمة التي تذهب إليه وتعصم به وأوقفها للأسرة عقداً وأشدّها لأصرتها أزرأ وسبيله أن تكون للمرأة المسلة أسعد حالا وأوجه شأنًا وأحق باحترام الرجل من أختها الغربية » .

وقال : « ولست أدري على أى قاعدة يبنى الأوروبيون حكمهم بالمحطاط ذلك النظام - نظام تعدد الزوجات - عن نظام التفرد عند الأوروبيين المشوب بالكذب والنفاق ؟ ! على حين أرى هنالك أسباباً تحملنى على إثارة نظام التعدد على ما سواه . وليس عجيباً بعد ذلك أن نرى الشرقيين الذين ينتجعون إلينا ويتنقلون بين مدائننا يحارون من قسوتنا في الحكم على نظام تعدد الزوجات » وقال :

وقد حيد شو بنهور الفيلسوف الألماني تعدد الزوجات فيهم^(١) :

« أما الآن لنا أن نعد بعد ذلك تعدد الزوجات حسنة حقيقية لنوع النساء بأسره ؟ » قال ذلك بعد أن شرح مضار الاقتصاد على زوجة واحدة فما قال : « في مدينة لندرة وحدها ثمانون ألف بنت عمومية سفك دم شرفهن على مذبحه الزواج ضحية الاقتصاد على زوجة واحدة . ونتيجة تعدت السيدة الأوربية وما تدعيه لنفسها من الأباطيل » .

وقال : « إذا رجعنا إلى أصول الأشياء وحقيقتها لا نجد سبباً يمنع الرجل من الزواج بثانية إذا أصيبت امرأته بمرض مزمن تألم منه أو كانت عقيماً أو أصبحت على توالى السنين عجوزاً » .

إن الرجل المتزوج في الأمم المسيحية التي لا تبيح تعدد الزوجات ، لا يقتصر في الحقيقة على امرأة واحدة بل نراه يتخذ كثيراً من الخليلات ويبيع لنفسه التمتع بمن أحب منهن . لكنه إذا أبدى رأيه أو كتب في موضوع الزواج طعن على تعدد الزوجات ورمى المسلمين بالمعجبة والتصدى على حقوق الزوجة وزعم أنهم شهوانيون .

(١) راجع الجزء الثاني من كتاب المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها تأليف الأستاذ عبد الله عيسى ص ٦٩ و ٧٢ .

ولذلك قال الأستاذ لوبون عن نظام نفرد « الزوجة » بين الأوربيين إنه : مشوب بالكذب والنفاق ... وصرح بذلك أيضاً شوبنهاور فقال :

« أين لنا من يقتصر حقيقة على زوجة واحدة ، بل لا ننكر أننا في بعض أيماننا أو في معظمها كلنا أو جلنا نتخذ كثيراً من النساء . »

على أن الشريعة الإسلامية كما هو واضح من نص القرآن الكريم لم تبيح تعدد الزوجات . بلا قيد ولا شرط ، بل اشترط العدل ، قال تعالى :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ ، والمعنى فإن خفتم ألا تعدلوا بين هذه الأعداد كما خفتم ترك العدل فيما فوقها فاكثفوا بزوجة واحدة ﴿ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ والمعنى ذلك أقرب من ألا تعولوا أى لا تجوروا ولا تميؤا .

والذى يؤخذ من مجموع نصوص القرآن والسنة أن الزوج يعتبر آتما إذا تزوج على امرأته لجرد الإضرار بها^(١) قال تعالى : ﴿ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ .

فالإسلام لم يبيح التعدد جزافاً بل اشترط العدل ، فكأنه في الحقيقة ضيق حدود التعدد ، فالذين يمددون الزوجات ويضربون صفحاً عن هذا الشرط ، هم في الحقيقة يخالفون الدين ، فلا شأن لنا بهم ، وفعلهم لا يؤخذ حجة على الدين .

بنو له وبناته ﷺ

ولدت خديجة لرسول الله ﷺ ولده كلهم إلا إبراهيم الذى ولد بالمدينة ، فإنه من مارية القبطية من قرية حفن من كورة أنصناء ، وقد أهداها للقوقس عظيم القبط إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وأهدى معها أختها سيرين وهى التى وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت .

وأ أكبر بنيه القاسم ، وبه يكنى ؛ ولد قبل النبوة بمكة ؛ وهو أول من مات من ولده .

ثم ولد له زينب ؛ ثم رقية ثم فاطمة ، ثم أم كلثوم ؛ ثم ولد له فى الإسلام عبد الله (وهو الطيب والطاهر) وهؤلاء كلهم من خديجة ؛ ومات بعد القاسم عبد الله ؛ فقال الماص بن وائل السهمى « قد انقطع ولده فهو أبتر » فأنزل الله تعالى : « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » وعبد الله هو آخر الأولاد من خديجة .

(١) المختارات الفتحية ص ٢٠

(٢) الثانى : المفض . والأبتر : هو مقطوع الذنب ، ويقال لمن لا عقب له أبتر ، وكانت قريش يقولون لمن مات الذكور من أولاده أبتر .

أما إبراهيم فولد له سنة ثمان ومات وهو ابن ستة عشر شهراً وقيل ثمانية عشر ، في سنة عشر من الهجرة .

أما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه ﷺ .

وتزوج زينب أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس . وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد أخت خديجة لأُمها وأبيها . توفيت زينب سنة ثمان من الهجرة . ولدت لأبي العاص علياً وأمامة . وفاطمة تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورقية وأم كلثوم تزوجهما عثمان بن عفان . وتوفيتا عنده . ولهذا سمي ذا النورين توفيت رقية يوم بدر في رمضان سنة اثنتين من الهجرة وتوفيت أم كلثوم سنة تسع من الهجرة . فالبنات أربع والبنون ثلاثة .

صفته ﷺ

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيض مشرباً بحمرة واسع الجبين . عظيم الرأس من غير إفراط حسن الجسم . عظيم الجبهة دقيق الحاجبين مقرونها كانت الفرجة التي بين حاجبيه يسيرة لا تبين إلا لمن دقق النظر ، أهدب الأشعار ، أدعج العينين ^(١) أفتى الأنف ^(٢) واضح الخدين ليس فيهما تنوء ولا ارتفاع كث اللحية (كثير شعرها) أسودها عرقه في وجهه ، واسع الفم من غير إفراط ، والعرب تتمدح به لدلالة السعة على الفصاحة ، مفلج الثنايا « متفرقها » قوى الأسنان ضخم الكراديس « روس العظام » غليظ الكتفين واسمهما ناعهما شثن الكفين والقدمين ^(٣) بين كتفيه خاتم النبوة وخاتمه غدة حمراء ، مثل بيضة الحمامة غليظ الأصابع من غير قصر ولا خشونة واسع الصدر سهل البطن ، غليظ القدمين ، سبابة قدمه أطول من الوسطى ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلى الصدر ، طويل الزندين ، لم يكن بالطويل ولا القصير وهو إلى الطول أقرب . شديد سواد الشعر ، شعره وسط بين الجمودة والسيوطة ، إذا التفت التفت جميعاً ، نقي الثوب لين الكلام ، حسن الصوت قويه ، لا يقول هجراً ، ولا ينطق هذراً ، يخاطب كل إنسان على قدر عقله ، يكلم كل قبيلة بما تعرفه ، واسع الاطلاع بلغات العرب إذا فرح غض طرفه ، ما رئي ضاحكاً إنما كان يتسم وكان الضحك منه نادراً ولم يقهقه ، ما تناءب قط ، وما احتلم قط ، ليس بمسترخي البدن ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا نخاش ولا عياب ولا مزاح ، وكان يمزح ولا يقول إلا حقاً ، يقابل السيئة بالحسنة ، يصل من قطعه ويعطى من حرمة ويعفو عن ظله ، لا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ويصبر للغير على الجفوة في المنطق والمسالمة ، لا يقطع على أحد حديثه ، ولا يتكلم

(١) وقد جاء أشكل العينين أي في بياض عينيه حمرة وكانت في الكتب القديمة من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم ، وعن أبي هريرة أكحل العينين ، والأكحل سواد هذب العينين خلقة .

(٢) القفاي الأنف : طوله ودقة أرنبتها مع حذب في وسطه . (٣) أي غليظهما .

في غير حاجة ، وكان كلامه يحفظه عنه كل من سمع ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يفضب لنفسه ولا ينتصر لها وإنما يفضب إذا تعرض للحق بشيء ، ويكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم ويتفقد أصحابه ويسأل عنهم فن كان غائباً دعا له ، ومن كان شاهداً زاره ومن كان مريضاً عاده ، وإذا انتهى إلى قوم جالس حيث ينتهي به المجلس (تواضعاً) من جالسه أو ناداه حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، من سأله حاجة لم يرده إلا بها ، عنده الناس في الحق سواء ، مجلسه مجلس حلم وحياء لا ترفع فيه الأصوات ولا يتنازعون عنده الحديث ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، وقد قال ﷺ بثت لأتئم مكارم الأخلاق . وكان أشد الناس خشية وخوفاً من الله ، ما ضرب بيده الشريفة امرأة ولا خادماً من أهله ، حله يسبق غضبه ولا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلاً أسخى الناس كفاً وأشدهم حياءً ، يحب الثفال الحسن ويغير الاسم القبيح بالحسن ، يشاور أصحابه في الأمر ، وكان إذا كره شيئاً عرف في وجهه ولم يشافه أحداً بمكرهه ، يمازح صبيان أصحابه ويجلسهم في حجره ويقعدون في صدره الشريف فيقبلهم ويلتزمهم ، يشهد الجنائز ويقبل العذر للمعتذر . ما وضع أحد فمه في أذنه إلا استمر مصغيًا له حتى يفرغ من حديثه ويذهب ، يمشي مع الأرملة والمسكين والضعيف في حوائجهم ، وما صافح أحداً بيده فيرسل يده ﷺ منه حتى يكون الآخر هو الذي يرسلها ، يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، لم يُر قط ماداً رجله بين أصحابه كان يجلس على الأرض والحصير والبساط ، يكرم من يدخل عليه وربما بسط له رداءه وآثره بالسادة التي تحته ويعزم عليه إن أبى ، ويدعو أصحابه بأحب أسمائهم ويكنيهم ، ولا يجلس إليه أجد وهو يصلي إلا خفف صلاته وسأله عن حاله فإذا فرغ عاد إلى صلاته ، كان يركب الحمار وربما ركب عريان ويردف خلفه وكان يجلس على الأرض ويحب السواك ويكتحل بالإتمد عند النوم ثلاثاً في كل عين ، وحج على رحل رث عليه قطيفة ما تساوى أربعة دراهم وقال اللهم اجعله حجاً مبروراً لا رياء فيه ولا سمعة ، وكان غالب ما يلبس هو وأصحابه ما نسج من القطن وربما لبسوا ما نسج من الصوف والكتان ، يحلب شاته ويخصف نعله ويرقع ثوبه ويخدم نفسه ويقم البيت ، ما يرى فارغاً قط في بيته ، ويأكل مع الخادم ويطحن معه ويحمل بضاعته من السوق ، ويحب الطيب ويأمر به ، ويأمر أصحابه بالمشي أمامه . توفي ودرعه مرهونة عند يهودى على نفقة عماله . ما شبع ثلاثة أيام تباعاً من خبز البر حتى فارق الدنيا . وما أكل خبزاً منخولاً وكان بيت الليالي للمتابعة طاوياً . وما أكل على خوان قط إنما كان يأكل على السفرة وربما وضع طعامه على الأرض . لا يجمع في بطنه بين طعامين . إن أكل لحماً لم يزد عليه وإن أكل تمرأ لم يزد عليه وإن أكل خبزاً لم يزد عليه ، وكان يصلي على الحصير وعلى القروة للدبوغه وربما نام على الحصير فأثرت في جسده الشريف ، وكان ينام على شيء من آدم محشوا ليفاً .

وكان ﷺ أفصح الناس وأعذبهم كلاماً وأسرعهم أداءاً وأحلام منطقاً حتى إن كلامه يأخذ بالقلوب ويسبي الأرواح . وكان إذا تكلم بكلام مفصل مبين ينده العاد ، ليس بهذر مسرع لا يحفظ ولا يقطع مثله .

السككات بين أفراد الكلام . لم يكن بكأوه بشهيق ورفض صوت كما لم يكن ضحكه بقمقه ، وكان يبكي أحياناً في صلاة الليل .

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأرض وعلى المنبر وعلى البعير وعلى الناقة ، وكان إذا خطب أحمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش ، وكان لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله ، وكان إذا صعد المنبر أقبل بوجهه على الناس ثم قال السلام عليكم ويختم خطبته بالاستغفار ، وكان كثيراً ما يخطب بالقرآن وإذا قام يخطب أخذ عصاً فتوكأ عليها وكان أحياناً يتوكأ على قوس ولم يحفظ عنه أنه توكأ على سيف .

ولم يكن ﷺ يفجأ أهله عند دخوله إلى المنزل بفتة يتخونهم ، ولكن كان يدخل على أهله على علم منهم بدخوله ، وكان يسلم عليهم وكان إذا دخل بدأ بالسؤال أى سأل عنهم ، وربما قال هل عندكم من غداء وربما سكت حتى يحضر بين يديه ما يسر ، وكان إذا دخل على أهله بالليل يسلم تسليماً لا يوقف النائم ويسمع اليقظان . وإذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول السلام عليكم الإسلام عليكم لم يكن يرد السلام بيده ولا رأسه ولا إصبعه .

وكان ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه . وكان أكثر دعائه « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » وكان إذا أصابه غم أو كرب يقول « حسبي الرب من العباد . حسبي الخالق من المخلوقين . حسبي الرزاق من المرزوقين . حسبي الذي هو حسبي . حسبي الله ونعم الوكيل . حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت . وهو رب العرش العظيم » وإذا اجتهد في الدعاء قال « يا حيُّ يا قيوم » وإذا أراد أسراً قال « اللهم خزني واختر لي » وإذا جاءه أمر يسر به خسر ساجداً شكراً لله عز وجل . وكان يعجبه أن يدعى الرجل بأحب أسمائه .

وإذا عزى قال « يرحم الله ويؤجركم » وإذا هنأ قال « بارك الله لكم وبارك الله عليكم » وإذا أراد سفر قال « اللهم بك أحول وبك أسير » وإذا سمع المؤذن قال مثل ما يقول حتى إذا بلغ حي على الصلاة حتى على الفلاح قال « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

الشمايل الحمديّة

عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وستين عاماً وبدأ دعوته بعد سن الأربعين أى أنه ظل بكافح ويجاهد ثلاثاً وعشرين سنة في القضاء على الوثنية ونشر تعاليم الإسلام والحضارة المؤسسة على التوحيد والفضيلة . فكانت ساعات عمره شهوراً وشهوره أعواماً وأعوامه أجيالاً . كان يجاهد بلسانه وسيفه ويعلم أصحابه وأتباعه أمور الدين ويؤدبهم ويهذبهم بالفعال والأقوال والافتداء بسيرته النقية الطاهرة ويرشدهم إلى صلاح الدنيا والآخرة ويحذرهم ارتكاب المعاصي ويأمرهم بالعروف وينهاهم عن المنكر وينطق في أحاديثه بالحكم وجوامع الكلم التي (١٧ - محمد)

لم يسبق إليها أحد من البشر، ويقود أصحابه إلى ساحات الوغى وينظم الجيوش ويصدر الأوامر للقوادس يحثهم على الجهاد والصبر، ويدبر لهم الخطط الحربية ويحكم بين الناس بالعدل . فكان معلماً ومربيًا ومؤدبًا وواعظًا ومرشدًا وبشيرًا ونذيرًا وخطيبًا وإمامًا وأبًا بارًا وأخا صادقًا وقائداً ومشرعًا وقاضياً . وإذا دخل منزله علم نساءه وأحسن عشرتهن ووفق يبنهن ، وإذا خلا إلى نفسه انقطع إلى عبادة ربه والتضرع إليه حتى لا يطيق أحد أن يجاريه في صلواته ودعواته مهما اجتهد وإنما نرى أعظم الناس قوة واقتدراً إذا انصرف إلى أمور الدنيا أو النظر في الشئون العامة ، فرط في العبادة أو لم يستطع أداءها على الوجه الأكمل . ومن انصرف إلى العبادة ، أهل النظر في شئون أهله وعشيرته ولفظ الدنيا . أما رسول الله ﷺ فقد جمع بين الدين والدنيا وفاز بالسعادتين بدرجة فاقت القوة البشرية، لذلك تم على يديه في تلك السنوات القليلة ما عجزت عنه الأمم بأسرها في قرون .

إن من يطالع سيرة رسول الله ﷺ يامعان ويفكر في أخلاقه وفي تلك الشخصية العظيمة ويتصور كيف أنه كان متصفاً بجميع تلك الأخلاق السامية ليعترف بأنه عليه السلام سيد الخلق حقيقة . كانت أخلاقه عليه السلام غير متكلفة لأن المتكلف لا يدوم أمره طويلاً بل يرجع إلى الطبع وهذا ما أكسبها عظمة وجلالا .

قالوا إن الخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة . والإتيان بالأفعال الجميلة شيء ومهولة الإتيان بها شيء آخر فالحالة التي باعتبارها تحصل تلك السهولة هي الخلق . فلم يك رسول الله ﷺ يتكلف شيئاً من الفضائل أصلاً . ثم إن اجتماع الفضائل في شخص واحد مع عدم التكلف أمر خارق للعادة لأن الإنسان خلقت فيه شهوات لا يمكن أن يردّها إلى حد الاعتدال من غير إفراط أو تفريط إلا إذا عود نفسه سنين عديدة واجتهد وقد لا يستطيع .

والعقل إذا شعر بنقيصة فيه وأراد محاربتها ومحوها بالتعود وقوة الإرادة كان لا بد من مرور زمن طويل حتى تزول وتنمحي ، وهو في أثناء محاربتها عرضة لأن تظهر عليه تلك النقيصة أو آثارها من حين لآخر وبالرغم منه ، وعند ذلك يلاحظها الناس فيه فإن كان رجلاً عظيماً أثبتوها عليه في تاريخ حياته فيقولون مثلاً كان بخيلاً ثم اعتاد السخاء أو جباناً فتشجع بمعاشرته الشجعان والافتداء بهم الخ .

ولم تر إنساناً له نقيصة واحدة فقط مع كثرة تجاربنا ومعاشرتنا الناس . نعم قد يتوهم كل إنسان أنه كامل لا عيب فيه ولا نقص ، لأن العين لا ترى نفسها إلا بطريق المرآة ومرآة الإنسان أصدقاؤه وخلاته ومعاشرته . ثم إن اعتقاد المرء بكامله وتنزهه عن القبائح والذائل يمنعه من الاطلاع على عيوبه وهفواته وسقطاته وإن كانت كثيرة، ولو أنه سمع رأى الناس فيه وإن كانوا أقل منه منزلة لتبين له كثير من المساوي التي كانت خافية عليه بسبب اعتقاده الكمال في نفسه .

نقول ذلك إذ قد يمترض علينا أحد فيقول إليك تزعم أنك لم تر إنساناً له نقيصة واحدة فقط مع أني لا أذكر

لنفسى عيوباً تؤخذ علىّ وكل الناس يمدحوننى ويوقروننى ، فهذا القول إنما هو ادعاء رجل محبوب أسمى .
فالأولى أن يسأل عن عيوبه حتى يهتدى إليها فيصالحها . قال أبو بكر الصديق وهو ممن لا يخفى على أحد علمه
وفضله وصدقه وإخلاصه وتقواه : « رحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى » يعنى أن له عيوباً يريد الاهتداء إليها .
والناس الآن قد بلغ بهم الغرور والكبر والزهو ماجراً ثم على القول بتنزههم عن المعاييب . لذلك حرموا من
إصلاح أنفسهم .

الخلو من المعاييب واجتماع الفضائل فى شخص فرد من المستحيلات إلا إذا خلق الإنسان معتدلاً للزواج ، معتدلاً
الشهوات ، صحيح الجسم صحيح العقل ، قوى الأعصاب من نسل سليم . ليس له ورثة مرضية ، خالياً من مطامع
للادة . ومثل هذا الشخص لم يوجد .

أما اعتقاد الإنسان الكمال فى نفسه فهذا من حبه لذاته ، ومن أحب ذاته أحب كمال ذاته وأحب أن يوصف
بصفات الكمال ؛ وهذه غريزة تظهر فى الأطفال ؛ فإنك إذا مدحت طفلاً صغيراً بما يفهم ظهرت على ملامحه سيما
السرور ، فإن كان قبيح للنظر ووصفته بالجمال أمّن على كلامك وابتسم .

وقد سأل شاعر عن رجل خال من كل عيب لأنه لم يجد إنساناً كاملاً فقال :
من ذا الذى ماساء قط ومن له الحسنى قط

فسمع هاتفاً يقول :

محمد المهادى الذى عليه جبريلُ هبطُ

وقال حسان بن ثابت يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

خُلقتُ مُبرأً من كل عيب كأنك قد خُلقت كما نشاء

فالذى خُلِقَ مُبرأً من كل عيب إنما هو رسول الله كما قال حسان بن ثابت رضى الله عنه . أما أولو الفضل

من الناس فكفى أن تمدّ معاييبهم على حد قول الشاعر :

ومن ذا الذى تُرضى سجايه كلها كفى للرء نبلا أن تُعدّ معايبه

اجتمعت الفضائل فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنزه عن المعاييب لأن الله سبحانه وتعالى اصطفاه من بين
خلقه لتبليغ رسالته وطهره من الأرجاس وحفظه من كل سوء وعلمه وهذبه وأدبه ليكون قدوة يقتدى الناس به فى
دينهم ودنياهم ، قل عليه الصلاة والسلام : « أدبى ربى فأحسن تأديبى » فأين نحن من أدبه ربه فأحسن تأديبه !!
ثم أنبى عليه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قال رسول الله : « إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وبديهي أن الذى بُعث ليتمم مكارم الأخلاق
لا بد أن يكون أتم الناس خلقاً ، فإنه من كان به نقص أو عيب لم يصلح للقيام بمهمة إتمام مكارم الأخلاق .

عن قتادة : سألت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت « كان خلقه القرآن » : يعنى التأدب بأدابه والتخلق بمحاسنه والالتزام بأوامره وزواجره .

لقد جمعت عائشة رضى الله عنها أخلاق رسول الله فى هذه الجملة الوجيزة ، لأنها لو أرادت أن تذكر أخلاقه وصفاته بالتفصيل لما استطاعت ، فأحالت السائل إلى القرآن وما فيه من آداب وخلق وفضل ومعاملات إلخ .

وقال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .

وقد ذكرت فى القرآن الكريم أسماء ﷺ وكلها نعوت ليست أعلاماً محضة لجرد التعريف بل أسماء مشتقة من صفات قائمة به توجب له للدح والكمال . فمنها « محمد » وهو أشهرها وهو اسم مفعول من مُحَمَّد فهو محمد إذا كان كثير الخصال التى يحمد عليها ، وأحمد مشتق من الحمد أيضاً ، ومعناه أحمد الحامدين لربه ، وقال بعضهم أحق الناس وأولام بأن يحمد فيكون كحمد فى المعنى ، وهذان الاسمان اشتقا من أخلاقه وخصاله الحمودة التى لأجلها استحق أن يسمى محمداً ﷺ ، وأحمد هو الذى يحمده أهل السماء وأهل الأرض وأهل الدنيا والآخرة لكثرة خصاله الحمودة التى تفوق عد العاذين وإحصاء المحصين .

ومن أسمائه البشير فهو للبشر لمن أطاعه بالنواب ، والذير : للنذر لمن عصاه بالعقاب ، وقد ثبت عنه فى الصحيح : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » أى ولا فخر أعظم من ذلك وسماه الله سراجاً منيراً ، وسمى الشمس سراجاً وهّاجاً ، والمنير هو الذى ينير من غير إحراق بخلاف الوهّاج فإن فيه نوع إحراق .

قال أنس رضى الله عنه : كان ﷺ أحسن الناس خلقاً وكان عليه الصلاة والسلام أرجح الناس خلقاً ، وقال أيضاً خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط ، وما قال لشيء صنعت لم صنعت ولا لشيء تركته لم تركته .

هذا ما قاله أنس رضى الله عنه خادم رسول الله . فهل يستطيع إنسان عنده خادم أن يعامله بمثل هذه المعاملة ؟ من ذا الذى لا يقول لخادمه أف وهى أقل ما يعبر عن الاستياء وعدم الرضا والسخط ؟ ومن ذا الذى لا يمارض ولا ينهر ولا يشتم الخادم ؟ وهؤلاء الأدباء والعلماء والفلاسفة والأمراء والوجهاء . نراهم يسيئون معاملة خدامهم بل معاملة أصدقائهم وأقاربهم إذن هذه صفة كمال لا يمكننا بلوغها .

(عفوه وحلمه)

وروى أنه لما كسرت رباعيته ﷺ وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه وقالوا لو دعوت عليهم .

— ٣٧٣ —

قال : « إني لم أبعث لعمانا ولكنى بعثت داعياً ورحمة . اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » فبدلاً من أن يدعو عليهم لا اعتدائهم عليه ، دعا لهم بالهداية . وهذا منتهى الحكمة وحسن الخلق .
والذى نعلمه من خلق الناس حتى أ كابر القوم أن الواحد منهم لا يتحمل أن يوجه إليه أحد كلمة تخدش إحساسه ولو عفواً ، بل يغضب ويحقد ويفتقم ويدبر الحيل للسكيد ويتهمز القرص للإيقاع به . فإين هذا الخلق ممن كسرت رباعيته قبايل الإساءة بالإحسان !
وقد عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شهر السيف عليه يريد قتله ، وعن اليهودية التي سمته في الشاة بعد اعترافها ولم يؤاخذ اليهودي الذي سحره . كل ذلك وهو قادر على توقيع أقصى العقوبة عليهم . فهل بعد ذلك حلم وعفو ؟ إنه ﷺ ما كان يغضب لنفسه ولا ينتصر لها وإنما يغضب إذا انتهكت حرمت الله .

(كرمه)

وكان ﷺ أسخى الناس كفاً ما سئل شيئاً فقال لا وعن صفوان بن أمية قال أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وإنه لأبفض الناس إلى . فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلى . ولما رأى صفوان كثرة ما أعطاه رسول الله ، قال : والله ما طابت بهذا إلا نفس نبي ، فأسلم . وكان الذي أعطاه رسول الله لصفوان غنماً ملائت وادياً بين جبلين وأعطى العباس من الذهب ما لم يطق حمله . وحملت إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها وقسم الأموال في غزوة حنين فأعطى للؤلؤة قلوبهم أول الناس فأعطى أبا سفيان بن حرب ٤٠ أوقية من الفضة و ١٠٠ من الإبل وكذا ابنه يزيد ومعاوية ، وأعطى حكيم ابن حزام ١٠٠ من الإبل ثم سأله أخرى فأعطاه إياها . وأعطى النضر بن الحارث بن كعدة ١٠٠ من الإبل وكذا أسيد بن جارية الثقفي والحارث بن هشام و صفوان بن أمية و قيس بن عدى وسهيل بن عمرو و حويطب بن عبد العزى والأقرع بن جابس التميمي وعيينة بن حصن ومالك بن عوف . وأعطى العباس بن مرداس ٤٠ من الإبل . وقال في ذلك شعراً فأعطاه ١٠٠ من الإبل . وأعطى مخزومة بن نوفل ٥٠ بغيراً وكذا العلاء بن حارثة وسعيد بن يربوع وعثمان بن وهب وهشام بن عمرو العامري . فبلغ ما أعطاه (١٤٨٥٠) من الإبل .
تدبروا في هذه المطالبات الطائلة التي يبذلها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طيب نفس وهو لا يملك شيئاً ولا يحمل منها إلى بيته درهما ولا يقتني شيئاً وقد يبيت طاولاً هو وأهله ، لا يجد ما يأكل ويعطي العباس من الذهب ما لا يطيق حمله ويهب للؤلؤة قلوبهم من الإبل ما يذهل ألباهم وينلب عقولهم ولما رأى صفوان كثرة ما أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم انبهر وأسلم .

سألتوا أنفسكم وأسألوا أكرم إنسان تعرفونه أو تسمعون عنه ، هل تسنح له نفسه بمثل هذه العطايا العظيمة الجزيلة مع حرمان شخصه منها كل الحرمان ؟ ليس أحد من البشر يبذل مثل هذا البذل ويحرم نفسه ، نعم إن في الناس أصحاب للملايين كما في أمريكا ، ولكنهم إن بذلوا شيئاً من الأموال في سبيل الخير أبقوا لأنفسهم أضعاف أضعافه ، وتمتعوا بجميع أنواع اللذات التي قد لا تخاطر لنا ببال ؛ هذا شأن من اتصفوا بالكرم وعرفوا بالبذل من سائر الخلق ، أما الأغنياء الذين يكذبون المال ويمضون عليه بالنواخذ ؛ ولا يجودون بشيء منه إلا مضطرين مرغين فلا نفى بالتكلم عنهم لأنهم خارجون عن دائرة بحثنا فلا نذكر فيهم . بل هم أقل شأنًا من أن نذكرهم فهل أدركتم بعد ذلك أن كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعادله كرم ولا يصل إليه أحد ؟

(شجاعته)

قال علي بن أبي طالب وهو من عُرف بالشجاعة : « كنا إذا حى الوطيس أو اشتد البأس واحمرت الخدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ يومئذ وهو أقربنا إلى العدو . وكان من أشد الناس يومئذ بأساً » وقيل كان الشجاع هو الذي يقرب منه ﷺ قربه من العدو . وفي غزوة أحد لما انهزم ثبت رسول الله ﷺ إلى النهاية .

لئى شجاعة أعظم من شجاعة رسول الله ﷺ . اندفع الغزوات والاتصار فيها . قد فتح جزيرة العرب وقاد الجيوش ؛ واحتمل الجوع والبرد والحر وقطع الطرق الوعرة والمسافات الشاسعة ولم ترهبه كثرة عدد العدو وسلاحه . لندع كل ذلك فإن هناك مواطن ومواقف تستلزم من الشجاعة ورباطة الجأش ما هو أعظم من مواطن القتال والنزال ؛ ذلك أنه ﷺ قام يدعو إلى الإسلام وحده ، وينشر الدين وحده وبقي متمسكاً بمبادئه لا يحمده عنه قيد أنملة متبعاً الأوامر الإلهية مجتنباً النواهي بكل دقة ؛ مجاهداً في سبيل الله ونصرة المبدأ ؛ متحملاً الإهانات والأذى والاضطهاد والهجرة وقتل الأصدقاء والأقارب والتمثيل بهم وكل ما يتصوره العقل البشري من ضروب الآلام والمشقات والمتاعب والمصاعب إلى أن فاز بالنصر المبين . فهل هناك شجاعة تمدهل شجاعة رسول صلى الله عليه وسلم ؛ يقولون إن الشجاعة صبر ساعة . وحياته صلى الله عليه وسلم من مبدأ رسالته إلى أن توفاه الله تعالى صبر متوال يستنفد شجاعة الشجعان وصبر الصابرين ولا يطيقه أحد من خلق الله . ومن ذا الذي يطيق أن يشغل عقله وجسمه وجميع مواهبه ليل نهار طول هذه السنين وأن يكون دائم الحركة دائم الفكر في تعليم الناس وتهذيبهم والقضاء بينهم وسياسة أمورهم وقيادة جيوشهم ووضع الخطط الحربية ؛ وتوزيع الفنائم والنظر في شئونهم الدينية من عبادات ومعاملات ومقابلة الوفود والتحدث إليهم إلى غير ذلك مما يطول بنا ذكره ؟

إن هذا السفر مهما كثرت صفحاته لا يتسع لذكر شمائل رسول الله ﷺ بالتفصيل ويكفي هذا القدر فإن مالا يدرك كله لا يترك كله .

اتباع التعاليم الإسلامية

علينا معاشر المسلمين أن نتمسك بالشريعة الإسلامية الفراء وتقتدى بأخلاق رسول الله حتى نصل إلى أوج السعادة في الدارين . وإن من تعمن في كتاب الله يجد أنه حوى مكارم الأخلاق ، قد حث على الفضائل والآداب السامية ونهى عن الرذائل والدنائل . والدنية الحديثة مع ما باقته من الرقى في العلوم والآداب فإنها لا تعد شيئاً في جانب تعاليم الإسلام النقية الطاهرة . فنحن أحق بالاتصاف بكل فضيلة والابتعاد عن كل رذيلة من أية أمة أخرى .

لقد قضى المسلمون على مخازي الوثنية وآفات الجاهلية . وفتح الله عليهم وسادوا الأمم وشروا العلوم بفضل عقيدتهم وبما اتصفوا به من صفات الرجولة والأخلاق القوية التي استفادوها من القرآن الكريم وتعاليم رسول الله ﷺ .

إن من الحزن حقاً أن نرى الآن تدهور الأخلاق وانتشار الفساد والتهاون بأنواعه : تهاوناً في إقامة الشعائر الدينية . تهاوناً في اكتساب العلوم ومنافسة الأمم . تهاوناً في الحقوق الوطنية . تهاوناً في الذود عن كرامة الأمة والأسرة .

من الحزن حقاً أن نرى فتوراً في الهمم وتقصيراً في الواجبات واستهتاراً بالفضائل وإقداًماً على اقتراف الرذائل ومباهاة بالجرائم والمخازي والفضائح .

هل كان سلفنا الصالح يتركون بلادهم طعمة ونهباً لكل طامع ولا يحركون ساكناً ؟ هل كانوا يتخاذلون ويتباغضون ولا يتعاونون ؟ هل كانوا لا يشفقون على الضعفاء والمساكين ولا يبرون الأقارب ولا يمدون للرفى ولا يفيثون للمهوفين ؟ هل كانوا جامدى الإحساس لا يشعرون بمصائب الناس ؟ هل كانوا يكتفون الحق ولا يحاربون الباطل ولا ينصفون المظلوم ، ولا يضمّدون جراح المسكوم ؟ هل كانوا ينفلون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويدعون أنهم عاجزون مقهورون لا حول لهم ولا قوة ؟ ثم يتركون حبل الأمور على غاربها طمعاً في ربح قليل أو كثير وجباً في المناصب والجاه وتعلقاً بزخارف الدنيا الزائلة لهم لو فعلوا ذلك لما قامت لهم قائمة وما كان لهم ذلك الأثر الجيد في تاريخ الدنيا .

إن الأجانب قد درسوا حالتنا الاجتماعية وما وصلنا إليه من انحطاط وجهالة وخور في العزائم ، وأخيراً حكموا بأن هذا راجع إلى جوهر ديننا وتعاليمه لينفرونا منه ويصدونا عنه لئلا ترجع إلى الإسلام شوكة الأولى وعزه القديم . وقد اغتر بكلامهم بعض قصار النظر من المسلمين فزروا آراءهم وطعنوا على الدين طعنات شتى زاعمين أنهم مصلحون . وهم في الحقيقة مفسدون يخربون بيوتهم بأيديهم . وباليتم وقفوا عند هذا الحد ، بل حللوا المحرمات

ونشروا الفساد وروجوا الضلال وتعلقوا بمظاهر المدنية الغربية من خمر وفجور ولهو وخلاعة وإباحية ومادروا أن علماء القرب وعقلاءهم ساطخون ناقمون على انتشار الفساد ، وقد صرحوا مراراً وتكراراً أن هذه المساوئ منكرة بسقوط الأمم . مؤذنة بخرابها مع أنها الآن في غاية القوة والمنعة .

ألا إن معاول الهدم أقوى أثراً وأسرع فعلاً من مجهودات المصلحين فاتقوا الله فيما تكتبون وتخطبون وتصرحون . أقيموا بناء المجد التالذ وتزودوا من العلم النافع فإن من العلم ما هو أشد ضرراً من الجهل ، ومن لم يفده العلم قد باء بخسران مبین . ولا تجاروا الناس في أهوائهم طمعاً في الاشتهار بينهم والتقرب إليهم . هذا ما أردت أن أكتبه بشأن مالاتباع التعاليم الإسلامية من الأهمية ، وهذه نصيحة الخالصة للمسلمين عامة .

الافتداء بأخلاق رسول الله

يجب على المسلمين الافتداء بأخلاق رسول الله ﷺ لأنه خير قدوة لنا قال ذو النون المصري : من علامات الحب لله عز وجل متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه . وأنا أورد هنا بعض صفاته التي اكتسبناها من سيرته ونقته على التحلى بها وذلك بناية الاختصار .

١ - كان رسول الله ﷺ نقي الثوب .

إن النظافة من الإيمان فالمسلم يجب عليه أن يكون نظيف الثياب والأعضاء . إذ الوضوء فرض والغسل فرض . وقد قال تعالى لرسول الله « وثيابك فطهر » . هذا ما يأمرنا به ديننا وكان النبي ﷺ يعتنى بنظافة الظاهر كما يعتنى بنظافة الباطن ويحث على استعمال السواك وطهارة الفم والأسنان ويتطيب ويمشط شعر رأسه ولحيته ويقيم بيته بنفسه أى يكتسه . والناس الآن يستنكفون من مباشرة نظافة البيت فتأمل !

٢ - لا يقول هُجراً ولا ينطق هذراً^(١) .

وما أكثر قول الهجر والمذر عندنا . وما أكثر اللاجنين والسباين . فهلا اقتدينا برسول الله ﷺ وتأدبنا بأدبه في الكتابة والقول وجانبنا الهجر والسب واللعن .

٣ - لا يقطع على أحد حديثه .

فانظر أيها المسلم إلى هذا الأدب والحلم وسعة العقل . فكثرة الكلام وقطع الحديث على المتكلم والمذرو للزاح البارد والغيبة والنميمة والمراء ليس من خلق الإسلام ولا من الرواة .

٤ - يتفقد أصحابه ويسأل عنهم .

لا فرق في ذلك بين كبير وصغير غنى وفقير . لكن الناس يحرصون الأغنياء بالسؤال عنهم ، ويتكبر الأغنياء

(١) الهجر بالضم : الفحش .

على الفقراء ويقفامون عليهم ويرون أنهم من طينة غير طينتهم ، ومن هذا نشأت المداوة والبغضاء وتفككت روابط الأسر والأمة ، وقد كان رسول الله مؤلفاً للقلوب فيصل من قطمه ويعطى من حرمه ويعفو عن ظلمه ويصبر للغيرب على الجفوة في المنطق والمسألة ويعود المريض ويشهد الجنائز .

٥ - إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس .

أين هذا الخلق الكريم المتواضع من الذين دأبهم التبصر في المجالس بحق وبغير حق وسواء كان المجلس خالياً أم مكتظاً . إن الناس يظنون أن التواضع ضعة وضعف لكن في التواضع رفعة . ولن يسود إنسان بالفظاظة والغلظة .

٦ - كان أسخى الناس كفاً .

وإنما نذكر الناس أن البخيل ممقوت وقد قال بعضهم إن البخل من سوء ظن المرء بالله ، ولا نعلم أن بخيلاً أحبه الناس واحترموه .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

٧ - لم يرق قط ماداً رجليه بين أصحابه .

لكننا الآن نفعل كل ما يخالف الآداب بلا اكتراث ظناً منا أن ذلك من الحرية ، لكن الحرية في المجتمع لا تكون من طرف واحد . بل يجب مراعاة إحساس الأصدقاء والذس . فالأولاد يجب عليهم التأدب في حضرة آبائهم ومعلميهم وأقرانهم كما أنه على الآخرين مراعاة الأدب معهم للاقتداء بهم ومحبتهم .

٨ - كان يخدم نفسه .

ومن ذلك أنه كان يخفض نعله ويرقع ثوبه ويحمل حاجته ويكنس بيته ويحلب الشاة . وهذا اعتماد على النفس فليؤد كل عمله غير معتمد على غيره ولا مستنكف من العمل مهما كان ، وإذا كان رسول الله - وهو سيد الخلق والمسلمون أطوع إليه من بنائه - يكنس بيته بنفسه فهل يستنكف أحد منا من زاوله أى شأن من شئون الحياة وهل تستنكف سيدة البيت أن تخدم نفسها وزوجها وأولادها ظناً منها أن ذلك مما لا يليق بها لفناها وترفها وحسن . هندامها ! إن الاعتماد على النفس هو القوة والبطولة والرق والاستقلال .

٩ - قال ﷺ « إذا عمل أحدكم عملاً فليقله » .

لما سوى جدث ابنه إبراهيم رأى حجراً في جانب الجدث فجعل يسويه بأصبعه ويقول « إذا عمل أحدكم عملاً فليقله فإنه مما يسلى نفس المصاب » .

الإتقان أيها المسلمون الإتقان . فلا تسهينوا بالأعمال ولا يستصفرن أحدكم أمراً منها قل شأنه . فالعلم يحتاج إلى الإتقان والصناعة تحتاج إلى الإتقان والتجارة تحتاج إلى الإتقان . والنظام الذي هو أساس

- ٣٧٨ -

الحضارة والعمران ما هو إلا الإتيان؟ وما سوى ذلك فهو إهمال وتقصير يؤديان إلى الانحطاط والارتباك والخراب .

١٠ - كان رسول الله يستشير أصحابه .

قال تعالى « وشاورهم في الأمر » إن الله سبحانه وتعالى أمر رسوله وهو سيد الخلق وأرجح الناس عقلاً وأغزرم علماً وأسدم رأياً أن يستشير أصحابه ولا ينفرد برأيه . قال الضحاك « أمره بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل » وقال الحسن البصري « أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون وإن كان عن مشورتهم غنياً » .

فلاستبداد بالرأى مناف للإسلام كما رأيت وهو من علامات الكبر والفطسة وليس في الاستشارة أى ضعف بل إنها دليل على العقل وبمد النظر والرغبة في الإصلاح . والإسلام من مبدئه يقدر فوائد الاستشارة ويعمل بها .

١١ - الثبات على المبدأ .

إن من تصنع سيرة الرسول يتضح له أنه صلى الله عليه وسلم لم يتحول عن مبدئه قيد أنملة واحتمل إيذاء المشركين بكل صبر ولم يذق للراحة طعماً في سبيل نشر الدين ولم يقبل ما عرضته عليه قريش من ملك ومال وجاه ، فماذا كانت نتيجة ثباته على المبدأ ؟ كانت النتيجة أنه هزم المشركين وفتح بلادهم وهدم الأصنام ونشر الإسلام وتوفى بعد أن بلغ رسالات ربه بكل أمانة وبعد أن قام بالواجب عليه خير قيام فليعتبر المسلمون بنبيهم وليقتدوا به في جميع أمورهم ليفوزوا بنعيم الدارين .

معجزات رسول الله ﷺ

المعجزة هي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي ، وسميت معجزة لعجز البشر عن الإتيان بمثلاً . وهي تدل على صدق من ظهرت على يديه ، وشرط تسميتها بمعجزة أن تظهر على يد مدعى الرسالة على طبق دعواه .
إن أكثر معجزات رسول الله متواترة رواها أجمع عن جمع وكانت تظهر في مواطن اجتماعهم وفي محافل المسلمين ومجتمع المساكين والجند ولم ينقل عن أحد من الصحابة مخالفة ولا إنكار على من روى ذلك .

معجزة القرآن

من أعظم دلائل نبوته القرآن الكريم ، قد تحدى العرب بما فيه من الإعجاز ودعاهم إلى معارضته والإتيان بسورة من مثله فمعجزوا عن الإتيان بشيء مثله مع أنه كان أمياً وكانت قريش أهل البلاغة والفصاحة والشعر وكانوا يرتجلون الكلام البليغ في الحافل ارتجالاً قال تعالى : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ ولم يقتصر إعجاز القرآن على نظمه وبلاغته بل تعداه إلى ما حواه من حكم وأخلاق ودين وتشريع وعلوم عقلية وأخبار عن الأمم للناضية وإخبار بالقبوب مع ما كان معروفاً من حال النبي ﷺ من أنه كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ . وقد اعترف أهل الفصاحة والبلاغة بأن القرآن ليس من كلام البشر ولم يقدر أحد على معارضته ومنهم عقبة بن ربيعة فإنه لما سمع القرآن من رسول الله رجع إلى قريش وقال « والله لقد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط . والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة . فوالله ليكون قوله الذي سمعت نبأ » . ومنهم الوليد بن المغيرة وكان للقدم في قريش بلاغة وفصاحة فإنه لما قرأ عليه رسول الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ قال له أعده فأعاد ذلك فقال « والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغنى وما يقول هذا بشر وإنه ليعلو ولا يُعلى » قالت قريش : قد صبا الوليد والله لتصبأ قريش كلها . أما أنيس أخو أبي ذر الذي ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية فإنه رجع بعد ما سمع القرآن من رسول الله وقال رأيت رجلاً بمكة يزعم أن الله أرسله فقال له أبو ذر فما يقول الناس فيه ؟ قال : يقولون شاعر : كاهن . ساحر لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أنواع الشعر فلم يلتئم ولا يلتئم على لسان أحد ، وإنه لصادق وإنهم لكاذبون . وقد أسلم حماد بن ثعلبة الأسدي عندما سمع رسول الله يقول :

(الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له) وأسلم عمر بن الخطاب الذي كان من أشد الناس على رسول الله بعد أن قرأ القرآن في بيت أخته فاطمة بنت الخطاب ، وقد تقدمت قصته . وأسلم كذلك الطفيل بن عمرو الدوسي وهو شاعر مشهور بعد أن تلا عليه رسول الله آيات من القرآن وقال « والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه » وقد أوردنا قصة إسلامه فلتراجع في موضعها .

ولما كان العرب أهل الفصاحة والبلاغة فقد كان المصنفون منهم يسلمون عند سماعهم القرآن من غير معارضت ولا مكابرة لأن الحق أحق أن يتبع . أما الذين في قلوبهم مرض فقد كانوا يبذلون كل جهد لمنع الناس من سماع رسول الله يتلو القرآن خشية أن يؤثر فيهم ويسلموا . وحكى أبو عبيدة أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ ﴿ فَأَصْدَغْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فسجد وقال « سجدت لفصاحة هذا الكلام » وسمع أعرابي آخر رجلاً يقرأ ﴿ فَلَمَّا اسْتِيقَا سَوَاءً مِّنْهُ خَلَا سَوَاءً نَجِيًّا ﴾

قال أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام . هذا ومعجزة القرآن باقية ما بقيت الدنيا وسائر معجزات الأنبياء ذهبت الحسين ولم يشاهدها إلا الحاضرون .

وحكى الأصمى أنه رأى جارية صغيرة السن بلغت خمس سنين أو ستا وهي تقول : أستغفر الله من ذنوبي كلها . قال الأصمى ، قلت لها : مم تستغفرين وأنت صغيرة لم يجر عليك قلم ؟ قالت : أستغفر الله لذنبي كله قلت إنساناً لغير حله مثل غزال ناعم في دله انتصف الليل ولم أصله قلت لما قاتلك الله ! ما أنصحك ! قالت : أتمد هذا فصاحة بعد قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاِذْ خِفَتِ عَلَيْهِ فَأَلْقَتْهُ فِي آيَمٍ وَلَا تُخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

لجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين : فالأمران : أن أرضعيه وألقيه ، والنهيان : ولا تخافي ولا تحزني ، والخبران : وأوحينا فإذا خفت وقيل الخبران والبشارتان ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين فهو خبر من جهة وبشارة من جهة .

وقد حاول بعضهم معارضة القرآن فجاء كلامه سخيلاً مضحكاً ، فمن ذلك قول مسيلة الكذاب وهو عربي صميم « يا ضفدع كم تنفين . أعلاك في الماء وأسفلك في الطين . لا الماء تكديرين ولا الشرب تمنعين » ولما سمع قوله تعالى ﴿ وَالنَّارِ عَاتٍ غَرَقًا ﴾ قال « والزارعات زرعاً والحاصدات حصداً والذاريات فحاً والطاحنات طحناً والحافرات خراً والثارذات ثرداً والافات لقماً لقد فضات على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر . إلخ » ومن كلامه « ألم تر كيف فعل ربك بالحلي . أخرج من بطنها نسمة تسعى من بين ثراسيف وأحشا » وقال بعضهم « القيل وما أدراك ما القيل . له ذنب وثيل ومشفر طويل وإن ذلك من خلق ربنا لقليل » وهذا كلام لا طعم له ولا حلاوة فيه . خال من المعنى ، يمجّه كل ذوق ولا يمالك سامعه من الضحك . وقد أراد بعضهم معارضة سورة الإخلاص فأخفق واعتدته رقة في قلبه فتأب ، وحاول ابن اللقاع المعارضة فلم يستطع واعترف بإعجاز القرآن . والقرآن كله قليله وكثيره معجز .

وقد ورد في القرآن الإخبار بالمعيات مما سبق وبما كان في وقت نزوله وبما سيقع بعد ذلك كقوله تعالى ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنِ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾ وذلك قبل عام الحديبية وقوله تعالى ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ وقوله ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

لَيْسَتْ خَلْقُهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿ الْآيَةُ وَقَوْلُهُ ﴾ (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) إِلَى آخِرِهَا وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَاللَّهُ يَمْصُرُكَ مِنْ النَّاسِ ﴾ فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ أَصْحَابَهُ مِنْ حِرَاسَتِهِ . هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ كَانَتْ مِنْ أَخْبَارِ الْغَيْبِ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ أَحَدٌ بِقَتْلٍ وَلَا قَهْرٍ وَلَا أَسْرٍ عَلَى كَثْرَةِ أَعْدَائِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدِّبَرُ) .

نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِمَكَّةَ وَالْمُسْلِمُونَ مُسْتَضْعَفُونَ فَلَمْ يَدْرُوا مَا هَذَا الْجَمْعُ الَّذِي سَيُهْزَمُ وَلَا الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ وَكَانَ بَعْدَ سَبْعِ سِنِينَ مِنْ نَزُولِهَا ، لَبِسَ رَسُولُ اللَّهِ دِرْعَهُ وَهُوَ يَقُولُ : سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدِّبَرُ ، قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَعَلِمْتُ الْمُرَادَ مِنْهَا حِينَئِذٍ .

وإني أنتهز هذه الفرصة فأنتشر إلى العالم الإسلامي رأي عالم إنجليزي في رسول الله وهو مستر بوسورث سميث مؤلف كتاب « محمد والإسلام »^(١) آملاً أن يتدبره القارئ بإمعان مع العلم أنه رجل مسيحي ولكنه منصف أبت عليه نفسه إلا تقرير الحقيقة بغض النظر عن أي اعتبار آخر . قال ما ترجمته :

« إن المعجزة الخالدة التي ادعاهها هي القرآن . والحقيقة أنها لكذلك . وإذا قدرنا ظروف العصر الذي عاش فيه واحترام أتباعه له احتراماً لا حد له ، ووازناؤه بآباء الكنيسة أو بقديسي القرون الوسطى لتبين لنا أن أعظم ما هو معجز في محمد « رسول الله » أنه لم يدَّعِ القدرة على الإتيان بالمعجزات ، وما قال شيئاً إلا فعله وشاهده منفى الحال أتباعه . ولم ينسب إليه الصحابة معجزات لم يأتها أو أنكر صدورهما منه . فأى برهان على إخلاصه أقطع من ذلك ؟ وقد كان محمد يدعى إلى آخر حياته كما ادعى من مبدأ أمره أنه رسول الله حقاً . وإني أعتقد أن الفلسفة العالمية والمسيحية الصارقة ستعترف له بذلك يوماً من الأيام » .

انشقاق القمر

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر ، وقد نطق به القرآن قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْمِرٌ ﴾ .

وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك منه في زمنه عليه الصلاة والسلام وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع^(٢) .

قال الفخر الرازي في تفسيره :

والفلسرون بأسرهم على أن المراد أن القمر انشق وحصل فيه الانشقاق ودلت الأخبار على حديث الانشقاق .

Mr. Bosworth Smith : Mohammed and Mohammedanism (١)

(٢) روى انشقاق القمر عن : أس بن مالك وجبير بن مطعم وحذيفة وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود

وفي الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة ، قالوا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الانشقاق بعينها معجزة فسأل ربه فشقته ، وقال بعض المفسرين المراد سينشق وهو بعيد ولا معنى له ، لأن من منع ذلك وهو الفيلسوف يمنعه في الماضي والمستقبل ومن يجوز له لا حاجة به إلى التأويل ، وإنما ذهب إليه ذلك الذهاب لأن الانشقاق أمر هائل ، فلو وقع لم وجه الأرض فكان ينبغي أن يبلغ حد التواتر . نقول : النبي صلى الله عليه وسلم لما كان يتحدث بالقرآن وكانوا يقولون إنا نأتى بأفصح ما يكون من الكلام وعجزوا عنه ، فكان القرآن معجزة باقية إلى قيام القيامة لا يتمسك بمعجزة أخرى ، فلم ينقله العلماء بحيث يبلغ حد التواتر . وأما المؤرخون فقد تركوه لأن التواريخ في أكثر الأمر يستعملها النجوم وهو لما وقع الأمر قالوا بأنه مثل خسوف القمر وظهور شيء في الجو على شكل نصف القمر في موضع آخر فتركوا حكاية في تواريخهم ، والقرآن أدل دليل وأقوى مثبت له وإمكانه لا يشك فيه . وقد أخبر عنه الصادق الأمين فيجب اعتقاد وقوعه ، وحديث امتناع الحرق والالتئام حديث الثام وقد ثبت جواز الحرق والتخريب على السموات وذكرناه مراراً فلا نعيده .

وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت ، وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم . وقال الزمخشري في تفسيره :

انشقاق القمر من آيات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزاته النيرة ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر مرتين . وكذا عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما . قال ابن عباس : انفلق فلقين فلقة ذهبية وفلقة بقرية . وقال ابن مسعود رأيت حراء بين فلقين القمر . وعن بعض الناس أن معناه ينشق يوم القيامة وقوله : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ يرده وكفى به راداً . وفي قراءة حذيفة وقد انشق القمر ، أى اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق ، كما تقول أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدمه .

وفي تفسير الطبري : وقوله وانشق القمر يقول جل ثناؤه وانفلق القمر ، وكان ذلك فيما ذكر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة قبل هجرته إلى المدينة وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية فأراهم ﴿سُحْرًا﴾ انشقاق القمر حجة على صدق قوله وحقيقة نبوته فلما أراهم أعرضوا وكذبوا وقالوا هذا سحر مستمر ، سحرنا محمد فقال الله جل ثناؤه : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ وبنحو الذي قلناه في ذلك جاءت الآثار وقال به أهل التأويل .

وحدث أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين . وعن عبد الله قال : انشق القمر ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ذهبت منه

فرقة خاف الجبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا ، وعن عبد الله أيضاً قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر انهد يا أبا بكر ، فقال للمشركون سحر القمر حتى انشق . قال القسطلاني شارح البخاري : وهذه معجزة من أمهات المعجزات الفائقة على معجزات سائر الأنبياء لأن معجزاتهم عليهم السلام لم تتجاوز الأرضيات . وكان انشقاق القمر قبل الهجرة بخمس سنين .

فانشقاق القمر ثابت بنص القرآن ، أما من قال بأن المراد أنه سينشق ، فهو إما منكر للمعجزات حتى المذكورة في القرآن ، وإما أنه لا يفهم اللغة العربية فقد قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتِرٌ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمْرٍ مُسْتَعْتِرٌ ﴾ ، لأن الكفار لما رأوا انشقاق القمر بعد أن سألو رسول الله كبروا وقالوا إنه سحر مستمر ، ولو كانت الآية تدل على أن القمر سينشق لما كان هناك معنى لقوله : وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، والآية هي معجزة الانشقاق والذين أنكروها بعد رؤيتهم هم كفار قريش ، وكان ذلك دأبهم ، وقد روى أحاديث الانشقاق أهل السنن كالبخاري ومسلم والإمام أحمد والبيهقي وبقية أهل السنن وقد ذكرنا تفسير كبار المفسرين :

قال الشيخ حمزة فتح الله رحمه الله في كتابه « با كورة الكلام في حقوق النساء في الإسلام » : « ومن ذلك . يعلم أنه لا محذور في انشقاق القمر لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن تأويل آيته بوضع المستقبل موضع الماضي لتحقيقه لا داعي إليه فضلاً عن كونه خلاف الصحيح . وقد ذكرت الجرائد الأجنبية مقالة عربتها جريدة الإنسان العربية التي كانت تطبع بالآستانة العلية حاصلها : أنه عثر في ممالك الصين على بناء قديم مكتوب عليه أنه بنى عام كذا الذي وقع فيه حادث سماوي عظيم وهو انشقاق القمر نصفين فخرر الحساب فوافق سنة انشقاقه لسيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم » ا هـ .

ومن المعجزات نبع الماء من بين الأصابع روى حديث نبع الماء من بين أصابعه جماعة من الصحابة منهم أنس وجابر وابن مسعود ، وحدث ذلك يوم الحديدية وفي غزوة بواط أمام الجوع الكثيرة ولم ينكر هذا الحديث أحد من الصحابة .

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال : « أتى النبي ﷺ بإناء وهو بالزوراء فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم » . قال قتادة قلت لأنس كم كنتم قال : ثلاثمائة أو زهاء ثلاثمائة وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر فالتمس الوضوء فلم يجدوه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في ذلك الإناء فأمر الناس أن يتوضأوا منه فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا عن آخرهم .

(تكثير الطعام) ومن معجزاته تكثير الطعام ببركته ودعائه وقد حدث ذلك مراراً .
 (حنين الجذع) كان مسجد النبي صلى الله عليه وسلم مستوقفاً على جذوع نخل فكان رسول الله إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صنع له المنبر سمع لذلك الجذع صوت كصوت العشار . سمعه أهل المسجد حتى ارتج المسجد وكثر بكاء الناس لذلك ، وما زال يحن حتى تصدع وانشق فنزل صلى الله عليه وسلم فالتزمه وحضنه فسكن . وحدث الجذع مشهور رواه من الصحابة بضعة عشر ، منهم أبي بن كعب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وعبد الله ابن عمر وعبد الله بن عباس وسهل بن سعيد وأبو سعيد الخدري وبريرة وأم سلمة والمطلب بن أبي وداعة ، كلهم حدث بمعنى هذا الحديث .

وروى حديث الجذع البخاري عن جابر بن عبد الله .
 (إبراء المرضى وذوى الباهات) وقد ذكرنا أنه رد عين قتادة وتقل في عين علي يوم خيبر ، وكان رسداً فبرأ . الإسراء والمعراج ، نسج العنكبوت في النار . وما وقع لسراقة . ودعاؤه لعبد الرحمن بن عوف بالبركة فصار أغنى العرب ، وكذا دعاؤه لعلبة بالغنى ، ودعاؤه لمعاوية بالتمكن في البلاد فنال الخلافة ، وسعد بن أبي وقاص أن يجيب الله دعوته فما دعا على أحد إلا استجيب له ، وقال للنافذة لا يفضض الله فاك فما سقطت له سن وعاش ١٢٠ سنة . ونسيب الحصى في يده . وكان رجل يقال له بسر بن راعي العير يأكل بشماله ، فقال له رسول الله ﷺ : « كل يمينك » قال لا أستطيع . قال : « لا استطعت » فما وصلت يمينه بعد إلى فيه . هذا قليل من كثير من معجزاته ﷺ .

وفي ترجمة رافع بن عميرة أنه كان أصاب في الجاهلية فدعاه الذئب إلى اللحوق برسول الله ﷺ وهو في ضأنه ، وقال رافع في ذلك :

رعت الضأن أحيتها بكلي من اللصت ألخفي وكل ذيب
 ولما أن سمعت الذئب نادى يبشرني بأحمد من قريب
 سمعت إليه قد شممت ثوبى على الساقين قاصده الرقيب
 فألقيت النبي يقول قولاً صدوقاً ليس بالقول الكذوب
 فبشرني بقول الحق حتى تبينت الشريعة للنبيب
 وأبصرت الضياء يضيء حولي أمانى إن سمعت ومن جنوبى

اللصت هو اللص . وشهد رافع غزوة ذات السلاسل وصحب أبا بكر الصديق فيها وخبره مشهور .
 ومن معجزاته دعاؤه لنبي رضى الله عنه بذهاب الحر والبرد فلم يحس بهما بعد . ولا بن عباس بالفق في الدين

وعلم التأويل فصار بحراً ، ولأنس بكثرة المال والولد وطول العمر فرزق مائة ولد ، وعاش مائة عام ، وصارت نخله تخبل في العام مرتين ، وقال في عثمان : تصيبه بلوى عظيمة ، فكان ما كان .

خصائصه ﷺ

من خصائصه ﷺ تحريم أكل الصدقة ، وآل محمد ﷺ لا يأكلون الصدقة ، وأن يتعلم الكتابة أو الشعر وإنشاء وروايته لا التمثل به . ويحرم عليه أنه إذا لبس لأمته (سلاحه) للقتال أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه . وهذا الأخير مما شاركه فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وخاتمة الأعين وهي الإيمان إلى مباح من قتل أو ضرب على خلاف ما يظهر . وإمسالك من كرمته ، ونسكاح الكتائية ونسكاح الأمة لأنه لا يخشى الفتنة أذى الزنا . ومن خصائصه القبلية في الصوم مع وجود الشهوة قد كان يقبل عائشة وهو صائم . وله أن يتزوج في حال إخراجه وأن يصطفي من الغنيمة ما يشاء قبل القسمة ، وأن يتزوج من غير مهر كما وقع لصفية رضي الله عنها . وأن يدخل مكة بغير إحرام اتفاقاً . وأن يقضى بعلمه ولو في حدود الله تعالى . وجمع له ﷺ بين الحكم بالظاهر والباطن معاً وجمعت له الشريعة والحقيقة ولم يكن للأنبياء إلا أحدهما . وأن يقضى لنفسه ولولده ، وأن يقبل الهدية ممن يريد وأن يقضى في حال غضبه . وإباحة ترك إخراج زكاة المال لأنه كبقية الأنبياء لا ملك لهم مع الله ، وما في أيديهم من المال ودعاه الله عندهم يبذلونه في محله ويمنعونه في غير محله ، ولأن الزكاة طهارة وهم مبرؤون من الدنس . وبما اختص به صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء أنه يحرم نسكاح أزواجه بعد موته . ومن خصائصه ﷺ العصمة من الذنب وعدم التناوب والاحتلام . وأبيح له التزوج فوق تسع وتزوجه محرماً وبلا ولي وشهود ، وبلغت الهبة إيجاباً لا قبولاً وتزويجه من شاء لمن شاء . ومكثه بالمسجد جنباً ، وشهادته لنفسه ولفرعه وحكمه لهما ، وشهادته كائنين .

وأنه خاتم الأنبياء ، وأول من تنشق الأرض عنه ، وأول شافع ومشفع ، وأول من يدخل الجنة وأقسم الله بحبساته . ويرى من خلفه ، ويبصر في الظلام كما يبصر في الضوء . ولا في له في شمس ولا قمر ، ولا يقع الذباب على جسده ، ويحرم رفع الصوت عنده ، ونداؤه باسمه ومن وراء الحجرات ، والتسكني بكينته ، ولا يورث .

موالى رسول الله

(١) زيد بن حارثة ، وأمه سعدى بنت ثعلبة . ويكنى زيد « أبا أسامة » .

وهو أشهر موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبه . أصابه سبأ في الجاهلية ، فأخذوا زيداً . فقدموا به سوق عكاظ فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد . فوهبته خديجة لرسول الله بمسكة قبل النبوة (٤٩ - محمد)

وهو ابن ثمانى سنين فأعتقه وتبناه . قال ابن عمر « ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ، حتى أنزل الله تعالى - ادعوم لأبائهم . وخرج أبوه حارثة وعبه كعب لما علما أنه بمكة لعدائهم ، فاختار رسول الله وقال لرسول الله ﷺ « أنت منى مكان الأب والعم » وذلك لما رآه من حسن المعاملة والحرية ، حتى قال : رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً . فأخرجه رسول الله إلى الحجر وقال « يا من حضر . اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وأرثه » فانصرف بعدئذ أبوه وعبه مطمئنين مسرورين وهو أول من أسلم من اللوالى ، زوجه رسول الله (أم أيمن) فولدت له أسامة . ثم تزوج (زينب بنت جحش) وهى ابنة عمه رسول الله . وهى التى تزوجها رسول الله ﷺ بعد زيد . قالت عائشة لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي ، لبيكم هذه الآية : ﴿ وَإِذْ قَوْلُ لَدِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ . أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ . وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى - وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ . فإن رسول الله ﷺ ، لما تزوجها - يعنى زينب - قالوا إنه تزوج حليلة ابنه . فأنزل الله تعالى : (ما كان محمدٌ أباً أحديهم من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ولما سير رسول الله الجيش إلى الشام ، جعل أميراً عليهم زيد بن حارثة . وقد تقدم ذلك فى كتابنا هذا . ولم يسم الله تعالى أحداً من أصحاب النبي ﷺ ، إلا زيد بن حارثة .

(٢) شقران ، اشتهر بهذا اللقب . قيل اسمه « صالح » وكان عبداً حبشياً لعبد الرحمن بن عوف فوهبه للنبي صلى الله عليه وسلم منصرفه من الحديبية وأعتقه . وكان يحدو بالنساء . قال له رسول الله ﷺ وقد حدا بهن : « رويداً رويداً : يا أنجشة . رفقاً بالقوارير » يعنى النساء . لأن الحداء إذا سمعته الإبل ، أسرع فى المشى فتزعج الراكب . والنساء لضعفهن يتأثرون من شدة الحركة ، وشبههن رسول الله ﷺ فى ضعفهن بالقوارير ، وهى الأواني من الزجاج .

(٣) أبو رافع : اختلف فى اسمه ، وقيل أسلم ، وقيل إبراهيم ، وقيل صالح ، قال أبو رافع : كنت مولى للعباس ابن عبد المطلب . وكان الإسلام قد دخل أهل البيت . فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت أنا . وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم ، وكان يكره إسلامه وكان ذا مال كثير متفرق فى قومه . وقد أعتق رسول الله ﷺ أبا رافع .

(٤) سلمان الفارسي : وكنيته أبو عبد الله من أهل أصبهان وقد تقدمت ترجمة حياته عند ذكر إسلامه فى كتابنا هذا .

(٥) سفينة : قيل كان من الفرس . وكان يسكن بطن نخل (قرية قريبة من المدينة) كان لأم سلمة ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، فأعتقه وشرطت عليه خدمة رسول الله ﷺ . قيل اسمه مهران وقيل رومان . كنيته

« أبو عبد الرحمن » وسماه رسول الله (سفينه) لأنه خُل أمتعة للصحابه ثقلت عليهم . فقال رسول الله ، احملوا . فإنما أنت سفينة . وكان يؤذن لرسول الله ، وشهد معه بدرًا وأحدًا وسائر المشاهد :

(٦) أبو كبشة : واسمه « سليم » . اشتراه رسول الله وأعتقه . شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . توفي في اليوم الذي ولي فيه عمر بن الخطاب الخلافة .

(٧) رُوَيْغ : أبو نمويهبة ، كان من مولدى مزينة ، اشتراه رسول الله فاعتقه .

(٨) رباح الأسود : كان يؤذن لرسول الله أحيانًا .

(٩) فضالة : كان من أهل اليمن . نزل بالشام ، ولم يذكر عنه شيء غير ذلك .

(١٠) مِدْعَم : العبد الأسود ، أهداه رفاعه بن زيد الجذامي لرسول الله . فاعتقه . قتل بوادى القري .

(١١) يسار : الراعى كان يرعى إبله فقتله المرتيون وسملوا عينيه وحمل ميتًا إلى قباء ودفن هناك .

روى سلمة بن الأكوع : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له مولى اسمه « يسار » فنظر إليه وهو يحسن الصلاة فاعتقه

وبعته في لقاح في الحرة فكان بها . فأظهر ناس من غريفة الإسلام . وجاءوا وهم مرضى قد عظمت بطونهم ،

فبعث النبي بهم إلى يسار فكانوا يشربون ألبان الإبل حتى انطوت بطونهم فقتلوا الراعى واستاقوا الإبل .

(١٢) مهران : قيل هو مولى آل أبي طالب واختلف في اسمه . عن عطاء بن السائب ؛ قال : أتيت بأُم كلثوم

بنت علي بشيء من الصدقة فردتها وقالت حدثني مولى للنبي ﷺ يقال له « مهران » : إن رسول الله ﷺ

قال ، « إنا آل محمد لا نحل لنا الصدقة » .

(١٣) مابور : الخصى . أهداه للقوقس إلى النبي ﷺ . قيل إنه هو الذى قذفت مارية به . فبعث رسول

الله عليًا ليقتله فرآه خصيًا فتركه .

(١٤) سندر .

ومن النساء أم أيمن ، وأميمة ، وسيرين التى أهديت له ﷺ مع مارية القبطية ، وهى أختها وقيل إن القوقس

أهدى معها قنسر وأنها أخت مارية وسيرين .

حراسه ﷺ

كان لرسول الله حراس قبل أن ينزل عليه قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَمْضِيكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ^(١) ففهم ، سعد بن معاذ

حرسه صلى الله عليه وسلم ليلة يوم بدر . وفي ذلك اليوم لم يحرسه ﷺ إلا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، مشاهراً

سيفه حين نام بالعريش . وقال بعضهم إن سعد بن معاذ كان مع أبي بكر في العريش يحرسانه في بدر . ومحمد بن مسلمة رضى الله عنه حرسه ﷺ يوم أحد . والزبير بن العوام رضى الله عنه ، حرسه ﷺ يوم الخندق . والنفير ابن شعبة رضى الله عنه ، حرسه يوم الحديبية . وأبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، حرسه ليلة بني بصفية ببعض طرق خيبر . وبلال . وسعد بن أبي وقاص . وذكوان بن عبد قيس رضى الله عنهم حرسوه بوادى القرى وابن أبي مرثد الغنوى ، حرسه في الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة حنين حيث قال ﷺ ألا رجل يحرسنا الليلة فقال : أنا يا رسول الله . فدعاه صلى الله عليه وسلم . وبعد نزول الآية وهي ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ترك الحرس . والمراد من قوله تعالى ، يعصمك من الناس أى من القتل . وفيه التنبيه على أنه يجب عليه أن يحتمل كل ما هو دون النفس من أنواع البلاء . ونزلت هذه الآية بعد يوم أحد . والمراد من الناس الكفار عن أنس رضى الله عنه ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرسه سعد وحذيفة حتى نزلت هذه الآية . فأخرج رأسه من قبة آدم وقال ، انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمى الله . وقد عصمه الله تعالى إلى آخر حياته .

أمناء رسول الله

منهم عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه . كان أمين رسول الله ﷺ على نسائه ، وكذا أسد بن أسيد السباعى ، كان أمينه ﷺ على نسائه وهو من آخر من مات من أهل بدر . وبلال المؤذن كان أمينه على نفقاته . ومعيقيب ، كان أمينه على خاتمه الشريف .

شعراؤه صلى الله عليه وسلم

حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك رضى الله عنهم ، كانوا يناضلون عنه بشعرهم ويهجون كفار قريش . (١) أما حسان بن ثابت فيقال له شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من الأنصار . كان رسول الله ينصب له منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً ينافح عن رسول الله . ورسول الله يقول « إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح عن رسول الله » وكان حسان يمضى إلى أبي بكر رضى الله عنه ليقفه على أنساب قريش لجعل يهجوم . فلما سمعت قريش شعر حسان قالوا هذا شعر ماغاب عنه ابن أبي قحافة .

قال ابن سيرين : انتدب لهجو رسول الله ﷺ من المشركين أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن الزبعرى . وعمر بن العاص ، وضار بن الخطاب . وانتدب لهجو الشركين ثلاثة من الأنصار ، حسان ابن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . فكان حسان وكعب يعارضانهم مثل قولهم في الوقائع

والأيام والمآثر ويذكرون منالهم . وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر وبعبادة مالا يسمع ولا ينفخ ، فكان قوله : أبهون القول عليهم . وكان قول حسان وكعب أشد القول عليهم . فلما أسلوا وفتحوا ، كان قول عبد الله أشد القول عليهم . ووهب له النبي صلى الله عليه وسلم جاريته « سيرين » أخت مارية القبطية « وعاش حسان ١٢٠ سنة : ستين في الجاهلية وستين في الإسلام ؛ وقيل إنه توفي قبل الأربعين في خلافة علي رضي الله عنه .

(٢) وأما عبد الله بن رواحة ، فهو خزرجي أنصاري أيضاً من بني عبد الحارث يكنى أبا محمد ، وكان من شهد العقبة ، وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج ، شهد بدرًا وأحداً والخندق والحديبية وخيبر وعمره القضاء والمشاهد كلها مع رسول الله ، إلا الفتح وما بعده لأنه كان قد قتل قبله ، وهو أحد الأمراء في غزوة مؤتة ، وكان من الشعراء الذين يناضلون عن رسول الله . ومن شعره في النبي ﷺ :

إني تفرست فيك الخير أعرفه والله يعلم ما إن خانتني البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعة يوم الحساب قد أزرى به القدر
فتبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

قال رسول الله : وأنت فتبتك الله يا ابن رواحة ، قتل شهيداً في غزوة مؤتة كما تقدم .

(٣) وكان كعب بن مالك أنصاريًا من الخزرج ، شهد العقبة . ولبس يوم أحد لامة وكانت صفراء ، وجرح أحد عشر جرحاً ، وكان من شعراء رسول الله وكان يخوف المشركين . قال ابن سيرين . بلغني أن دوساً أسلت فرقا ، أي خوفاً من قول كعب بن مالك :

قضينا من تهامة كل وتر وخيبر ثم أغدنا السيوف
تخبرنا ولو نطق لقات قواطع دوساً أو ثقيفا

فقات دوس ، انطلقوا فخذوا لأنفسكم ، لا ينزل بكم ما نزل بثقيف .

هؤلاء الشعراء الثلاثة ، هم الذين كانوا يناضلون عن رسول الله بشعرهم ، ويهجون قريشاً ويبيون عليهم عبادة الأصنام ، ويفخرون بانتصار المؤمنين وهم من الأنصار . أما المهاجرون فلم يكن فيهم شعراء كالأنصار يهجون قريشاً . وغالب الظن أن سبب ذلك هو أنهم تحاشوا هجاء مشركي قريش لما كان بينهم من الروابط العديدة ، فكانوا يحاربونهم ولا يهجونهم بالشعر .

مؤذنه ﷺ

هم بلال وابن أم مكتوم بالمدينة ، وسعد القرظ (ذكره الحلبي في السيرة ولم يذكره ابن الأثير في أسد الغابة)

وأبو-محدورة رضى الله عنه بمكة ، واتفق الزبير وعنه مصعب وابن إسحاق والسيبي أن اسم أبي محدورة « أَوْسَى » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يحكى الأذان فأعجبه صوته فأمر أن يؤتى به ، فأسلم . يومئذ نأمره بالأذان بمكة فنصرفه من نخين فلم يزل يؤذن فيها ، وكان أبو محدورة من أحسن الناس صوتاً ، توفي بمكة سنة ٥٩ هـ .

أما بلال بن رباح ، فهو مولى أبي بكر الصديق ، كان مؤذناً لرسول الله وكان من السابقين إلى الإسلام والمؤمنين في الله ، تقدم ذكره ، كان يؤذن لرسول الله في حياته سفرأ وحضرأ ، وهو أول من أذن في الإسلام وأذن لأبي بكر ولعمر بن الخطاب لما دخل الشام مرة واحدة ، فلم يُرَ باكياً أكثر من ذلك اليوم ، ولما كان بلال بالشام ، رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وهو يقول : « ما هذه الجفوة يا بلال . ما آن لك أن تزورنا » فانتبه حزينا ، فركب إلى المدينة فأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وجعل يبكي عنده ويتمرغ عليه ، فأقبل الحسن والحسين ، فجعل يقبلهما ويضمهما . فقالا له أنتهى أن تؤذن في السحر ؟ فعلا سطح المسجد ، فلما قال : الله أكبر الله أكبر ، ارتجت المدينة ، فلما قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، زادت رجتها . فلما قال : أشهد أن محمداً رسول الله ، خرج النساء من خدورهن ، فما رثى يوم أكثر باكياً وباكية من ذلك اليوم . وتوفي بلال بدمشق ودفن بباب الصغير سنة ٢٠ وهو ابن بضع وستين سنة . وقيل مات بحلب ودفن على باب الأربعين ولم يقب ، وكان آدم ، شديد الأدمة ، نحيفاً ، طويلاً ، أخنى خفيف المارضين .. وروى أن بلالاً قال آخر الأذان : « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

خدمته ﷺ

أشهر بخدمته ﷺ من الرجال ، أنس بن مالك الأنصاري رضى الله عنه ، كان من أخص خدامه ، خدمه من حين قدم المدينة إلى وفاته ﷺ عشر سنين . خدمه في السفر والحضر ، توفي بعد أن جاوز المائة ، وعبد الله ابن مسعود رضى الله عنه ، كان صاحب سواكه ونعله إذا قام ألبسه إياها وإذا جلس جعلهما في ذراعيه حتى يقوم ، وكان يمشى بالمصا أمامه حتى يدخل الحجرة . وممقيب الرومى ، كان صاحب خاتمه ، وعقبة بن عامر الجهنى ، كان صاحب بقلته ، يقودها في الأسفار وكان عالماً بكتاب الله وبالقرائض ، فصيحاً شاعراً وهو من الأنصار ، ولى مصر لمعاوية وتوفي بها . وأسقع بن شريك ، صاحب راحلته ، وبلال مؤذنه كان على نفقاته . ومن النساء أمة الله بنت رزينة ، وخولة جدة حفص بن سعيد ، ومارية أم الرباب ، ومارية جدة للثني بن صالح بن مهران ، قالت مارية : ما مسست شيئاً قط ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

خيله وبناله وإبله

كان له ﷺ سبعة أفراس وكان له ست بنال وكان له من الجر اثنتان ، وكان له من الإبل المدة للركوب ثلاثة .

فأما أفراسه ، ففرس يقال له (السَّكْب) شبه بسكب الماء وانصبابه ، لشدة جريه ، وهى أول فرس ملكه ﷺ اشتراه من أعرابي وكان اسمه عند الأعرابي الفرس ، وكان أغر ، أى له غرة ، وهى بياض فى وجهه محجلاً ، طلق اليمين ، كميئاً ، أى بين السواد والحمره .

وفرس يقال له (المرتبج) سمي به لحسن مهيبله ، مأخوذ من الرجز الذى هو ضرب من الشعر . وكان أبيض .

وفرس يقال له (اللحييف) أهداه له ﷺ فروة بن عمرو من أرض البلقاء بالشام .

وفرس يقال له (الزاز) أهداه له المقوقس .

وفرس يقال له (الظرف) الكريم الجيد من الخيل ، (والورد) وهو بين السكيت والأشتر . أهداه له تميم الدارى وأهداه صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب (وسَبْحَة) أى سريع الجرى وقيل : كان له فرس يسمى اليعسوب سمي به لأنه كان أجود خيله .

أما بناله صلى الله عليه وسلم ، فبغلة شهباء يقال لها (دُلْدُل) أهداها له المقوقس . والدلدل فى الأصل ، القنفذ . وهذه أول بغلة ركبت فى الإسلام وكان صلى الله عليه وسلم يركبها فى المدينة وفى الأسفار وعاشت حتى ذهبت أسنانها فكان يدق لها الشعير وعصيت . وقاتل عليها على كرم الله وجهه الخوارج بعد أن ركبها عثمان رضى الله عنه ، وركبها بعد على ابنه الحسن ثم الحسين ثم محمد بن الحنفية .

وبغلة يقال لها (فضة) أهداها له عمرو بن عمرو الجذامى ووهبها ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه . وبغلة أهداها له كسرى وأخرى من دومة الجندل وأخرى من عند النجاشى .

أما حمرة ﷺ ، فحمار يقال له (يعفور) وكان أشهب ومات فى حجة الوداع .

أما إبله صلى الله عليه وسلم التى كان يركبها ، فناقبة يقال لها (القَصْواء) وهى التى اشتراها من أبى بكر وهاجر عليها وناقبة يقال لها (الجلدعاء) وناقبة يقال لها (العضباء) وهى التى كانت لا تسبق ويقال إنها لم تأكل ولم تشرب بعد وفاة رسول الله حتى ماتت وقد قيل إن هذه الأسماء الثلاثة اسم لناقبة واحدة .

أسماء أسلحته

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من السيوف تسعة ومن الدروع سبعة ومن القسي خمسة ومن الأتراس ثلاثة ومن الرماح اثنان ومن الحراب خمسة ومن الخوذ اثنان .

السيوف

(١) مأثور ، ورثه عن أبيه وقدم به للذينة (٢) المصّب أي القاطع ، أرسل به إليه سعد بن عبادة رضي الله عنه عند توجيهه صلى الله عليه وسلم إلى بدر (٣) ذو الفقار ، كان في وسطه مثل قنطرة الظهر ، غنمه يوم بدر ، كان للعاص بن وائل . وكان لا يفارقه صلى الله عليه وسلم في حرب من الحروب (٤) الصمصامة وهو سيف عمرو بن معد يكرب ، أهدها النبي صلى الله عليه وسلم لخالد بن سعيد بن العاص حيث استعمله صلى الله عليه وسلم على الين (٥) القلعي نسبة إلى برج القلعة ، موضع بالبادية (٦) الحنف وهو الموت (٧) الرسوب ، أي الذي يرسب ويستقر في الضربة ، وهو أحد السيوف التسعة التي أهدتها بلقيس لسليمان عليه السلام (٨) المخذم ، أي القاطع . وهما كانا معلقين على صنم طى الذي يقال له الفلّس (٩) التضيّب ، من قضب الشيء : قطعه .

الدروع

(١) ذات الفضول ، لطولها ، أرسل بها إليه ﷺ سعد بن عبادة حين سار إلى بدر . وكانت من حديد . وهي التي رهنها صلى الله عليه وسلم عند أبي الشحم اليهودي على ثلاثين صاعاً من الشعير ، وكان الدين إلى سنة (٢) ذات الوشاح (٣) ذات الحواشي (٤) السفرية ، والسفرة موضع يصنع به الدروع ويقال اسمها السعدية (٥) الفضة وهي من دروع بني قينقاع (٦) البتراء ، قيل لها ذلك لقصرها (٧) الخرنق ، قيل لها ذلك لتعومتها .

القسي

(١) قوس يقال لها « البيضاء » من شوحط وهو من شجر الجبال ، يتخذ منه القسي ، وهو من سلاح بني قينقاع (٢) الروحاء (٣) الصفراء ، من نبع ، وهو شجر يتخذ منه القسي ومن أغصانه الأسهم كسرت يوم أحد (٤) الزوراء ، ويقال لها الكتوم لانخفاض صوتها إذا رمى عنها . قيل وهي التي اندقت سيبتها يوم أحد (٥) قوس يقال لها السداد .

- ٣٩٣ -

الآراس

(١) ترس يقال لها « الأزلق » . لأن السلاح يزلق عنها (٢) فُتَقَ (٣) تمثال عقاب أو كبش . فكرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أذهب الله عز وجل ، وقيل وضع يده الشريفة عليه فذهب .

الرماح

(١) الرُنْجُ (٢) الرُنْجُ ، من الرنوى وهو الإقامة ؛ لأن الطمون به يقيم موضعه ولا ينتقل .

الحراب

(١) حربة يقال لها « النبعة » (٢) البيضاء (٣) حربة صغيرة تشبه الكاز يقال لها « العنزة » ، قيل جاء بها الزبير رضى الله عنه من أرض الحبشة أعطاها له النجاشي وقاتل بها بين يدي النجاشي عدواً للنجاشي وظهر النجاشي على ذلك العدو، شهد بها الزبير بدرأً وأحداً وخيبر ثم أخذها منه النبي صلى الله عليه وسلم منصرفه من خير فكانت تحمل بين يديه يوم العيد ، يحملها بلال رضى الله عنه فتركز بين يديه ﷺ ويصلي إليها وكذا كان يصلي إليها في أسفاره ويمشى بها وهي في يده (٤) المهر (٥) النمر .

الخوذ

الخوذ جمع خوذة وهي ما يجمل على الرأس من الزرد مثل القانسوة . نفوذة يقال لها « الموشح » وخوذة يقال لها « السبوغ » أو ذات السبوغ .

تأديب الله تعالى

لرسول الله صلى الله عليه وسلم

قال صلى الله عليه وسلم : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » وقد جاء في القرآن الكريم آيات فيها تأديب للنبي ﷺ . فكان عليه الصلاة والسلام يعيها ويعمل بها ويتجنب النواهي ويتبع الأوامر . وهو وإن كان معصوماً إلا أن الله سبحانه وتعالى كان يحفظه ويعظه ويأمره وينهاه ويعاتبه ويرشده إلى الصراط المستقيم ويبصره بكل شيء . هذه العناية من الله تعالى بهذه صلى الله عليه وسلم وإرشاده ، وتمسك الرسول بطاعة الله تعالى باتباع أوامره واجتناب نواهيه بكل دقة ، جعلته سيد الخلق وأعظم قدوة للناس أجمعين . وقد أثنى عليه الله تعالى فقال ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا ثناء ليس بعمد ثناء فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بُعِثْتُ لِأَتَمَّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ » فكان هو ممثلاً لهذه المكارم ولا شك أنه وصل إلى هذه المرتبة العظيمة بتأديب الله تعالى .

إن الله سبحانه وتعالى علم رسوله عليه السلام كيفية الدعوة إلى سبيل الله وهداية الخلق وكيف يعدل بين الناس ومشاورة أصحابه وعلمه أن يصبر على أذى الناس ويصفح عن السيئ ويجازي الحسن وكيف يخاطبهم ويجادلهم الخ وهذه التعاليم المذكورة في القرآن في عدة مواطن عند المناسبات . ولم يكتم رسول الله شيئاً من هذه الأوامر والنواهي ، فكان أميناً على إثبات كل ما نزل به الوحي .

وقد رأيت أن أذكر الآيات التي أحب الله تعالى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتدبرها المسلمون ، إذ منها ما هو خاص بالرسول ومنها ما هو عام لجميع المؤمنين .

الشورى

أمر الله تعالى رسول الله بمشاورة أصحابه ، فقال في سورة آل عمران ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ . فالشرعية الإسلامية أول شريعة أمرت بالشورى وقد كان الملوك قبل ذلك يستبدون برعاياهم ولا يرون الشورى واجبة عليهم . وقد أمر الرسول بمشاورة أصحابه وإن كان ليس في حاجة إليهم ، ليقترن به غيره في المشاورة وتصير سنة في أمته .

اليقين والسائل

قال تعالى في سورة الضحى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

أى لا تمس وجهك إلى اليتيم وعامله بمثل ما عاملتكَ به . وروى أنها نزلت حين صاح النبي صلى الله عليه وسلم على ولد خديجة ، وقوله فلا تنهر أى فلا تزجر ، والمراد مطلق السائل .
ولقد عاتب الله رسوله في القرآن في شأن الفقراء في ثلاثة مواضع :
(أحدها) أنه كان جالساً فجاءه عثمان بمذق من تمر - أى بشماريح من تمر - فوضعه بين يديه . فأراد أن يأكل ، فوقف سائل بالباب ، فقال : رحم الله عبداً يرحنا . فأمر بدفعه إلى السائل . فكره عثمان ذلك إذ أراد أن يأكله النبي صلى الله عليه وسلم ففرج واشترى من السائل ثم رجع السائل ففعل مثل ذلك ثلاث مرات ، وكان يعطيه النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى أن قال له صلى الله عليه وسلم : أسائل أنت أم بائع ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ .

(والثاني) أنه كان جالساً وحوله صناديد قريش ، إذ جاء ابن أم مكتوم ، الضريع . فتخطى رقاب القوم حتى جلس بين يديه ، وقال : علمني مما علمك الله ، فشق ذلك عليه ﷺ ، فعبس وتولى .
(والثالث) حين قالت له قريش ، لو جعلت لنا مجلساً للفقراء مجلساً آخر . فهم أن يفعل ذلك . فنزل قوله تعالى ، واصبر نفسك مع الذين يدعون . . . الآية .

الصبر والعبادة

قال تعالى في سورة الإنسان : ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كَيْفُورًا . وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ .
أمر الله رسوله بالصبر في كل ما حكم به وتحمل المشاق في العبادات والطاعات وأداء الرسالة والألا يطيع الكفار والأتمين . وللمقصود بيان أن الناس محتاجون إلى مواصلة التنبيه والإرشاد . وقال تعالى ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ .

هجز الرُّجْز

قال تعالى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ والرجز اسم للقبیح المستفذر . وهو معنى الرُّجْس . وقوله : والرجز فاهجر ، كلام جامع لمكارم الأخلاق . كأنه قال له ، اهر الجفاء والسفه وكل شيء قبيح ولا تخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز . والمراد للداومة على ذلك المهجر . وقال : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ أى ، ولا تمنن بهذه الأعمال الشاقة على ربك .

النهي عن تحريم ما أحله الله

قال الله جل شأنه في سورة التحريم :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ينهاه الله تعالى عن تحريم ما أحله الله له مرضاة لأزواجه عليه السلام . قال في الكشف ، روى أنه عليه الصلاة والسلام خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة . فقال لها : اكتسى علي . وقد حرمت مارية على نفسي وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدى أمر أمتي . فأخبرت به عائشة وكاتتا متصادقتين ، وقيل خلا بها في يوم حفصة ، فأرضاها بذلك واستكنتمها فلم تنكمت ، فطلقها واعتزل نساءه ، ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية ، وروى أن عمر قال : لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك ، فنزل جبريل عليه السلام ، وقال راجعها فإنها صوامة قوامة ، وإنها من نسائك في الجنة . وروى أنه ما طلقها وإنما نوه بطلاقها . وروى أنه عليه السلام شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش ، فتواطأت عائشة وحفصة ، فقالتا له : إنا نشم رائحة المغابير ^(١) وكان رسول الله يكره النفل من الطعام ، فحرم العسل ، فعناه لم تحرم ما أحل الله لك من ملك اليمين أو من العسل ؟ قال مسروق : حرم النبي عليه السلام أم ولده ، وحلف ألا يقربها . فأنزل الله هذه الآية . فقيل له : أما الحرام فالحلال ، وأما اليمين التي حلفت عليها فقد فرض الله لكم تحلة أيمانكم . قال الشعبي ، كان مع الحرام يمين ، فعوتب في الحرام ، وإنما يكفر اليمين . فذلك قوله تعالى : ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ الآية . وقوله ، لم تحرم ، استفهام بمعنى الإنكار . والإنكار من الله تعالى نهى . والحلال لا يحرم إلا بتحريم الله تعالى . والمراد من هذا التحريم هو الإمتناع عن الانتفاع بالأزواج .

العفو والإعراض عن الجاهلين

قال تعالى في سورة الأعراف :

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ العفو لغة ، التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه . وأصله الحو والطمس وكل من استحق عقوبة فتركها قد عفوت عنه . وعفا عن ذنبه عفواً : صفح . وقوله ، خذ العفو ، قيل الفضل الذي يجيء بغير كلفة . والمعنى ، اقبل للبسور من أخلاق الناس ولا تستقص عليهم . وفي حديث ابن الزبير ، أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس . قال هو السهل اليسر ، أي أمره أن يحتمل أخلاقهم ويقبل منها ما سهل ويسر ولا يستقص عليهم . ويدخل في ذلك التساهل وعدم التشديد في كل ما يتعلق

(١) نوع من الصمغ يسيل من شجر العرفط ، شجر البضاه ، غير أن رائحته كريهة وطعمه حار وهو يؤكل .

بالحقوق المالية ، ويدخل فيه أيضاً التخلق مع الناس بالخلق الطيب وترك الغفلة والنفاضة . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأُنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ . وأما ما لا يجوز دخول المساهلة والمساهمة فيه ، فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف . وقال أيضاً : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ . وأمره الله تعالى أن يصل من قطعه ويفضل من حرمه ويعفو عنه ظله . وهذا مطابق لهذه الآية .

التواضع للمؤمنين

قال تعالى في سورة الحجر :

﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ التَّمَنَاتِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

السبع التمانى هي فاتحة الكتاب ، وهو قول عمر وعلى وابن مسعود وأبي هريرة والحسن وأبي العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قرأ الفاتحة وقال : هي السبع للثاني - رواه أبو هريرة .

قال ابن عباس : « لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ » أى لا تمن ما فضلنا به أحدا من متاع الدنيا . وروى أنه نظر إلى نم بنى المصطلق . وقيل وافت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود بنى قريظة والنضير فيها أنواع من البز أى الثياب والطيب والجواهر ، وسائر الأمتعة . قال للمسلمون ، لو كانت هذه الأموال لنا ، لتقوينا بها ولأنفقناها في سبيل الله تعالى . فقال الله تعالى لهم : لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع . والحاصل أن قوله : ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ، نهى له عن الالتفات إلى أموالهم . وقوله : ولا تحزن عليهم ، نهى له عن الالتفات إليهم . ثم قال : واخفض جناحك للمؤمنين ، خفض معناه فى اللغة تقيض الرفع ، وجناح الإنسان : يده . وخفض الجناح ، كناية عن اللين والرفق والتواضع . والمقصود أنه تعالى لما نهاه عن الالتفات إلى أولئك الأغنياء من الكفار ، أمره بالتواضع لفقراء المسلمين . ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

المجادلة بالحسنى

قال تعالى في سورة النحل :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، أمر الله رسوله

- ٣٩٨ -

أن يدعو الناس بإحدى هذه الطرق الثلاث : وهي الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالطريق الأحسن .

إيتاء ذي القربى والمساكين

قال تعالى في سورة الإسراء :

﴿وَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ جَهْدًا وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ . وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا . إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ .

أمره الله تعالى أن يؤتي أقاربه الحقوق التي وجبت لهم في النى . والغنيمة وأوجب عليه أيضاً ، إخراج حق للمساكين وأبناء السبيل من هذين المتالين . والتبذير في اللغة ، إفساد المال وإفراقه في السرف إلا أنه لا سرف في الخير .

معاملة المدو

قال تعالى في سورة فصلت :

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ . ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ، . يعنى ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق الذى هو أحسن الطرق ، فإنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد مرة ولم تقابل سفاهتهم بالنضب ولا إضرارهم بالإيذاء والإيحاء ، استحيوا من تلك الأخلاق للذمومة وتركوا تلك الأفعال القبيحة ، ثم قال فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، يعنى إذا قابلت إساءتهم بالإحسان وأفعلهم القبيحة بالأفعال الحسنة ، تركوا أفعالهم القبيحة واقتلبوا من العداوة إلى المحبة ومن البغضاء إلى اللودة .

الاقتصاد فى الإنفاق

الاقتصاد وسط بين التقتير والتبذير وكل فضيلة وسط بين رذيلتين ، قال الشاعر :

خير الأمور الوسط حب التناهى غلط

وقد ذم الله تعالى للقترين والبخلاء ، وذم المبذرين . والناس إما مقترون أو مبذرون ، وقليل منهم المتقصدون وترى البخليل يبل ويبرر تقتيره ويزع أن الحكمة تقضى بالتقتير وادخار الأموال لإنفاقها فى وقت المسر ويبقى هكذا مقترراً طول حياته ويخشى أن ينفق حتى فى أوقات المسر والشدة . كذلك يطل المبذر تبذيره

ويبرره فينفق أمواله في المحرمات والكساليات حتى يأتي عليها ويصبح فقيراً لا يجد قوت يومه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ وقال في حق الذين يكتزون للمال : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُكَّوْا مِنْهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ . هَذَا مَا كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَعُوزًا لَكُمْ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ والسر في ذلك أن كان يحق لهم أن ينفقوا ما كسبوا من أموالهم في سبيل الله ، ولكنهم لم يفعلوا ، فاستحقوا العذاب .

وقد أمرنا الله تعالى بمراعاة الاقتصاد في النفقة فإن ذلك سبيل السعادة ، قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا . إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطَ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ . إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ وقد شرح الله تعالى وصف عباده المؤمنين في الإنفاق في سورة الفرقان فقال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ ، فهنا أمر رسوله بمثل ذلك الوصف فقال : ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، أى لا تمسك عن الإنفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات . والمعنى : لا تجعل يدك في احتباسها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط ولا تبسطها كل البسط ، أى ولا تتوسع في الإنفاق توسعة مفرطة بحيث لا يبقى في يدك شيء . ثم قال تعالى : فتقعد ملوماً محسوراً - أى يلوم نفسه ، وأصحابه أيضاً يلومونه على تضيق المال بالكفاية وإبقاء الأهل والولد في الضر والحاجة .

هذا مثل من الأمثلة العديدة لتأديب الله تعالى لرسوله ﷺ وقد ذكرنا الآيات التي وردت في هذا الصدد مع تفسيرها تفسيراً مجملًا ليتعظ بها المسلمون وليعلموا عناية الله برسوله عليه الصلاة والسلام .

منزلة رسول الله ﷺ في القرآن

ذكرنا فيما تقدم ما كان من تأديب الله تعالى لرسول الله ﷺ تارة بالأمر وتارة بالنهي أو العتاب وقد وردت الآيات القرآنية بذلك . ونحن هنا نثبت منزلة الرسول في القرآن الكريم .

طاعة الله وطاعة الرسول

جعل الله سبحانه وتعالى طاعته مقرونة بطاعة رسول الله . وهذا تشریف له عليه الصلاة والسلام قال تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ . فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ وقال : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ . وقال ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ فطاعة الله هي طاعة الرسول . وقال تعالى ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَوَازِلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ﴾ أى من أطاع الرسول لكونه رسولاً مبليفاً إلى الخلق أحكام الله ، فهو في الحقيقة ما أطاع إلا الله .

الثناء على أخلاقه

قال تعالى يثني على أخلاقه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خُلِقَ عَظِيمٌ ﴾ وليس بعد ذلك ثناء فإن حسن الخلق أعظم ما يعطى به الإنسان . فكان رسول الله هو المثل الأعلى وقدوة الخلق في محاسن الأخلاق التي لا يبد لها شيء . وقال رسول الله « بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » وقال تعالى ﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَتَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ فكان رسول الله لين الجانب ، حسن الأخلاق ، جميل السجايا بعيداً عن الغلظة ، يعدل بين الناس ولا يظلم أحداً وبذلك اجتذب إليه المؤمنين . ولو كان فظاً لفرّوا منه ونبتذوه وانفضوا من حوله .

بعثة الرسول إحساناً إلى كل العالمين

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنِي ضَالِّينَ مُبِينِينَ ﴾ قوله تعالى من أنفسهم أى من أهل

— ٤٠١ —

بلدم ومن أقاربهم . وقد منَّ الله عليهم ببعثة الرسول ، أى أنهم عليهم وأحسن إليهم بذلك . وهذا الإحسان عام في حق العالمين لأنه مبعوث إلى كل العالمين كما قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ إلا أنه لم ينتفع بهذا الإنعام إلا من أسلم . فلهذا خص تعالى هذه اللمة بالمؤمنين .

الصلوة على النبي صلى الله عليه وسلم

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ الصلاة : الدعاء . يقال في اللمة صلى عليه ، أى دعا له . وهذا اللمنى غير معقول في حق الله تعالى فإنه لا يدعو له . لأن الدعاء للغير طلب نعمة من ثالث . لكن صلاة الله على رسوله ، رحمته وحسن ثنائه عليه . والصلوة من الملائكة : دعاء واستغفار ، ومن الله رحمة وفيه تعظيم النبي ﷺ وقد سئل النبي عليه السلام : كيف نصلى عليك يا رسول الله ؟ فقال : قولوا : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم . إنك حميد مجيد » .

التأدب في حضرة الرسول

قال تعالى يعلم المؤمنين أن يتأدبوا في حضرة رسول الله لعظم شأنه وعلو مرتبته ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ۚ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ .

نهى الله تعالى المؤمنين أن يرفعوا أصواتهم في حضرة رسول الله فوق صوته ﷺ ، لأن من يرفع صوته عند غيره ، يجعل لنفسه اعتباراً زائداً وعظمة ، وقد يكون المراد المنع من كثرة الكلام عنده لأن ذلك لا يليق في مجلس الرسول لعظم قدره ، والمنع من رفع الصوت لا يكون إلا للاحترام وإظهار الاحتشام ومراعاة الأدب ، وقوله أن تحبط أعمالكم ، أى تبطل أو تفسد ، وهذا إنذار لمن يرفع صوته .

وقال تعالى يثني على الذين يلتزمون الأدب وينفضون أصواتهم إجلالاً واحتراماً لرسول الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْعُضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ۚ يَقَالُ غَضَّ صَوْتَهُ أَى خَفَضَهُ وَلَمْ يَرْفَعَهُ .

- ٤٠٢ -

تحكيم رسول الله

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّوْا تَسْلِيمًا ﴾ شجر أى اختلف واختلط ، والخرج : الضيق . وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم رسول الله ، لا يكون مؤمناً .

عاقبة مشاققة رسول الله

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ .

فمشاققة الرسول موجبة لهذا الوعيد . ودلت هذه الآية على وجوب عصمة محمد صلى الله عليه وسلم عن جميع الذنوب . فلو صدر الذنب عن الرسول ، لوجب مشاققته لكن مشاققته صلى الله عليه وسلم محرمة بهذه الآية . فوجب أن لا يصدر الذنب عنه ودلت أيضاً على أنه يجب الاقتداء بالرسول في أفعاله . إذ لو كان فعل الأمة غير فعله ﷺ ، لزم كون كل واحد منهما في شق آخر من العمل فتحصل المشاققة لكن المشاققة محرمة ، فيلزم وجوب الاقتداء به في أفعاله .

هذا بعض ماورد في القرآن الكريم خاصاً بمنزلة رسول الله وعظيم قدره ورفعة شأنه . فقد أمر الله أن يطيعه المؤمنون ، وقرن طاعته تعالى بطاعته ونهى عن عصيانه وأنذر من عصاه بنار جهنم لأن عصيانه من عصيان الله جل شأنه . ونهى عن مشاققته لأنه معصوم عن الذنوب . ومن كان معصوماً ، حرمت مشاققته . وأمر المؤمنين بالترام الأدب في حضرته صلى الله عليه وسلم ونهى أن ترفع الأصوات في مجلسه فإنه ليس كأحدكم ، فلا يليق أن يرفعوا أصواتهم وأن يكثروا من الكلام أمامه . وإذا كانت مراعاة الأدب واجبة أمام الملوك والحكام فهي أوجب أمام الرسول لأنه سيد الخلق وأقربهم إلى الخالق وأعظمهم خالقاً . وقد من الله تعالى على الناس برسالاته وجعلها رحمة لهم . قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ وكان رسول الله يراعى الأدب مع أصحابه وكانوا يتقربون به بجليل صفاته ويقتدون به ، وقد أمرنا الله أن نصلى عليه ﷺ فاللهم وفقنا إلى طاعتك وطاعة رسولاك ، واهدنا الصراط المستقيم . إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

الأحاديث النبوية

وتدوينها

روى البخارى ، أن عمر بن عبد العزيز هو الذى أمر بتدوين الحديث . قال إن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبى بكر بن حزم الأنصارى المدنى : « انظر إلى ما كان من حديث رسول الله ﷺ فكتبه . فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء . ولا يقبل إلا حديث رسول الله ﷺ ولتفشوا العلم حتى يعلم من لا يعلم . فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرّاً » .

وابن حزم هذا ، ولاء عمر بن العزيز لإمرة المدينة وتوفى سنة ١٢٠ هـ فجمع شيئاً من الآثار النبوية . ثم تتابع العلماء فى التدوين والتصنيف . وتفرد بالكوفة أبو بكر بن أبى شيبه بتكثير الأبواب وجودة الترتيب وحسن التأليف . ولكن هذه الآثار لما كانت فى مبدأ الأمر تؤخذ من الأفواه ، كان المصنف إذا روى له أحد حديثاً ، طالبه بإسناده وعن أخذه فيذكر له سنده حتى ينتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم إن كان من كلامه ، أو إلى الصحابى أو إلى التابعى إن كان من كلامهما . وكان قد تسرب إلى تلك الآثار أشياء من الوضع فاحتاج المصنفون إلى تدوين قانون مخصوص يجعل به السمين من النث ، وجعلوا ذلك القانون على أعمدة (العمود الأول) فى فن التاريخ ليعلم منه تاريخ الراوى ووفاته حتى إذا قال حدثنى فلان ولم يكن مدركاً لزمه ، علموا أنه كاذب عليه . ولهذا قال الإمام أحمد ، لما استعمل الرواة الكذب ، استعملناهم التاريخ .

(والعمود الثانى) فن الجرح والتعديل . كقولهم فلان « ثقة » فلان « وضاع » (العمود الثالث) النظر فى كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة وتفاوت رتبها . وما للعلماء فى ذلك من خلاف بالقبول والرد . ثم أتبعوا ذلك بكلام فى ألقاظ تقع فى متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق منها أو مختلف وما يناسب ذلك أيضاً بالناسخ والنسوخ من الحديث . وهو من أهم علومه وأصعبها . وقد دوت علماء الحديث كتباً فى مصطلحه . فمنهم القاضى أبو محمد الرامهرمزي . فإنه ألف كتابه الحديث الفاضل . والحاكم أبو عبد الله النيسابورى ، ثم تلاه أبو نعيم الأصفهاني ، ثم جاء بعدهم الخطيب البغدادي ، صاحب تاريخ بغداد ، وألف فى قواعد الرواية كتاباً سماه « الكفاية » ، وفى آدابها كتاباً سماه « الجامع لأدب الشيخ والسامع » . وقل من فنون الحديث إلا وقد صنف فيه كتاباً حتى إن كل من أنصف يعلم أن الحديثين بعد الخطيب عيال على كتبه ، ثم جاء من تأخر عن الخطيب ممن أخذ نصيباً من هذا الفن فألف فيه . فجمع القاضى عياض كتاباً لطيفاً سماه « الإلماع » وجمع أبو حفص الليثي جزءاً سماه . « مالا يسع الحديث جهله » ثم كثرت المصنفات فى ذلك إلى أن جاء الفقيه

الحافظ للسنة ، عبد الرحمن الشهرزورى المعروف بابن الصلاح نزيل دمشق ، فجمع لما ولى تدريس الحديث بالمدرسة الأشرقية ، كتابه المشهور فى مصطلح الحديث ، فهدب فنونه وأمله شيئاً بعد شيء ، ثم تلاه محيى الدين النووى والحافظان : العراقى وابن حجر .

ثم إنه من المعلوم ، أنهم قسموا السنن المضافة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو صفة إلى ثلاثة أقسام (١) الصحيح (٢) الحسن (٣) الضعيف . وقسموا كلا منها أقساماً . فالأول الصحيح وهو ما اتصل بسنده بالرجال العدول ، الضابطين من غير شذوذ ولا علة . فالعدل : هو من له ملكة تحمله على ملازمة التقوى والروعة . والضابط : من ثبت ماسمعه فى صدره بحيث يتمكن من استحضاره متى شاء . ومن يضبط . كتابه أى بصونه عنده منذ سمع فيه وصححه إلى أن يؤدى منه ، وقوله من غير شذوذ معناه أن لا يشذ الراوى فىخالف فى روايته . من هو أرجح منه . وأن يكون خالياً من علة فادحة فيه كإرسال المرفوع ورفع المرسل . ولهذا يتفاوت الصحيح فى القوة بحسب ضبط رجاله واشتهارهم بالحفظ والورع وتحرى نخرجه واحتياطهم . ولهذا اتفقوا على أن أصح الحديث ما اتفق على إخرجه ، البخارى ^(١) ومسلم ^(٢) . ثم ما انفرد به البخارى ، ثم مسلم ، ثم ما كان على شرطهما ، ثم شرط البخارى ، ثم شرط مسلم ، ثم شرط غيرهما . القسم الثانى ، الحسن ، وهو ما كان رجال سنده معروفين ، مشهورين بالعدالة والضبط ، اشتهاراً دون اشتهار رجال الصحيح . والغريب ، ما استغربه أهل الحديث لمان . فرب حديث يكون غريباً ، لا يروى إلا من وجه واحد كأن تدور روايته على واحد وإن كان الحديث مشهوراً عند أهل العلم لكثرة من روى عن ذلك الواحد . ورب حديث إنما يستغربه لزيادة تكون فى الحديث . وإنما تصح إذا كانت الزيادة ممن يعتمد على حفظه . وأعلم أن قولهم هذا حديث صحيح أو ضعيف ، إنما هو بالنظر لظاهر الإسناد وليس هذا منهم على سبيل القطع . القسم الثالث الضعيف وهو ما ناقصر إسناده عن أن يصل إلى رتبة الحسن ، فعدم وصوله إلى درجة الصحيح ، من باب أولى . وللضعيف أقسام كثيرة ، منها ما له لقب خاص كالمضطرب والقلوب والموضوع والنكر ، ومنها ما ليس له ذلك .

(١) ولد البخارى سنة ١٩٤ هـ - ٨١٠ م وتوفى سنة ٢٥٦ هـ - ٨٧٠ م وقد اختار ٨٠٠٠ حديث فى صحيحه من ٦٠٠٠ و ٦٠٠٠ حديث جمعها فى ست عشرة سنة .

(٢) ولد مسلم سنة ٢٠٦ هـ وتوفى سنة ٢٦١ هـ وقد جمع ٤٠٠٠ حديث بإسقاط المكرر .

مختارات من الأحاديث النبوية

- (١) آية المنافق ثلاث ^(١) إذا حدث كذب . وإذا وعد أخلف . وإذا ائتمن خان .
(عن أبي هريرة . رواه الشيخان)
- (٢) أبغض الحلال إلى الله الطلاق .
(عن ابن عمر . رواه أبو داود وابن ماجه)
- (٣) اتقوا الله واعدلوا في أولادكم .
(عن النعمان بن بشير . أخرجه الشيخان)
- (٤) اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة . واتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم ^(٢) .
(عن جابر . أخرجه مسلم)
- (٥) اجتنبوا السبع الموبقات ^(٣) الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ^(٤) ، وقذف المحصنات الغافلات ^(٥) .
(عن أبي هريرة . أخرجه الشيخان)
- (٦) أحب الأعمال إلى الله ، أدومها وإن قل .
(عن عائشة . رواه الشيخان)
- (٧) أحب الناس إلى الله تعالى يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا ، إمام عادل . وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأبدهم منه مجلسا ، إمام جائر .
(عن أبي سعيد . أخرجه الترمذى)
- (٨) البر ^(٦) حسن الخلق . والإثم ما حاك في صدرك ^(٧) وكهرت أن يطلع عليه الناس .
(عن النوفاس بن سميان . أخرجه مسلم)
- (٩) إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها .
(عن سالم عن أبيه . رواه مسلم)
- (١٠) إذا التقى المسلمان بسيفيهما قتل أحدهما صاحبه ، فقاتل والمقتول في النار . قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال ، إنه كان حريصاً على قتل صاحبه .
(عن أبي بكر . رواه الشيخان)

(١) المنافق ، الذى يظهر غير ما فى الباطن (٢) الشح ، البخل (٣) الموبقات ، الماوى لأنهن مهلكات (٤) التولي يوم الزحف ، أى الفرار يوم القتال فى سبيل الله (٥) قذف المحصنة ، رماها بالفاحشة . والمحصنة : العفيفة (٦) الخير والفضل (٧) ما حاك فى صدرك : أى مارسخ .

- (١١) إذا أمَّ أحدكم الناس ، فليخفف . فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والليليخ . وإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء .
(عن أبي هريرة . رواه الشيخان)
- (١٢) إذا تقاضى إليك رجلان ، فلا تقض للأول حتى تسمع كلام الآخر . فسوف تدري كيف تقضى .
(عن علي رضي الله عنه . رواه أحمد وأبو داود والترمذي)
- (١٣) إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب ، فله أجران . وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر .
(عن عمرو بن العاص . متفق عليه)
- (١٤) إذا رأى أحدكم جنازة ، فإن لم يكن ماشياً معها ، فليقم حتى يخلفها أو تخلفه أو توضع من قبل أن تخلفه .
(عن عامر بن ربيعة . رواه البخاري)
- (١٥) إذا مات ابن آدم ، انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له .
(رواه مسلم عن أبي هريرة)
- (١٦) أربع من كنّ فيه ، كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خلة^(١) منهن ، كانت فيه خلة من ففاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر .
(عن عبد الله بن عمر . رواه الشيخان)
- (١٧) ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وقول الزور .
(عن علي رضي الله عنه . رواه الشيخان)
- (١٨) الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك .
(عن أبي هريرة . رواه الشيخان)
- (١٩) الأرواح جنود مجنّدة^(٢) . فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .
(عن أبي هريرة . رواه الشيخان)
- (٢٠) إنا لن نستعمل على عملنا من أراده .
(عن أبي موسى . رواه الشيخان)
- (٢١) انظروا إلى من هو أسفل منكم . ولا تنظروا إلى من هو فوقكم . فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم .
(عن أبي هريرة . متفق عليه)
- (٢٢) إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنبأ وهات . وكره لكم قيلا وقال ، وكثرة السؤال وإضاغة المال .
(عن المغيرة بن شعبه . رواه الشيخان)

(٢) الجنود المجنّدة ، أي المجموعة .

(١) الخلة مثل المصلة وزنا ومعنى .

- (٢٣) إن الله تعالى قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله .
 (عن عتبان بن مالك . رواه الشيخان)
- (٢٤) إن الدعاء هو العبادة .
 (عن أبي هريرة . رواه الأربعة)
- (٢٥) إن الدين يسر ولن يشاد الدين^(١) أحد إلا غلبه . فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستمعينا بالنذوة والرحمة وشيء من الدلجة^(٢) .
 (عن أبي هريرة . أخرجه البخاري)
- (٢٦) إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة ، الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر سرها .
 (عن أبي سعيد الخدري . رواه مسلم)
- (٢٧) إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة ، هو من تركه الناس اتقاء خشفه^(٣) .
 (عن عائشة . رواه الشيخان)
- (٢٨) إنكم ستحرضون على الإمارة ، وستكون ندامة يوم القيامة . فنعمت للرضعة وبئست الفاطمة .
 (عن أبي هريرة . رواه البخاري)
- (٢٩) إن الميت ليعذب ببكاء الحي .
 (عن عمر . رواه الشيخان)
- (٣٠) إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هجر إليه .
 (عن عمر . رواه الشيخان)
- (٣١) إنما الطاعة في المعروف .
 (عن علي رضي الله عنه . رواه الشيخان)
- (٣٢) إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت .
 (عن ابن مسعود . أخرجه البخاري)
- (٣٣) إن من الشعر لحكمة .
 (عن أبي بن كعب . أخرجه البخاري)
- (٣٤) لا تؤمن بالله من كالبنيان يشد بعضه بعضاً .
 (عن أبي موسى . رواه البخاري)
- (٣٥) إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز^(٤) في صلاتي كراهية أن أشق على أمه .
 (عن قتادة . رواه البخاري)

(٢) الدلجة : سير السحر .

(١) يشاد الدين ، أى يتشدّد فيه ويكلف نفسه من العبادة فوق طاقته .

(٣) الفحش : القول السيئ .

(٤) تجوز في الصلاة : ترخص فأتى بأقل ما يمكن .

- (٣٦) إياكم والحسد . فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .
(عن أبي هريرة . أخرجه أبو داود . ولابن ماجه من حديث أنس مثله)
- (٣٧) الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه وبرسله . وتؤمن بالبعث في اليوم الآخر .
(عن أبي هريرة . رواه الشيخان)
- (٣٨) الإيمان بضع وستون شعبة . والحياء شعبة من الإيمان
(عن أبي هريرة . رواه البخاري)
- (٣٩) بُنِيَ الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان .
(عن ابن عمر . رواه البخاري)
- (٤٠) بُاسِ الطعام . طعام الوليمة ، يُدعى إليه الأغنياء ، ويُترك الفقراء ، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله .
(عن أبي هريرة . رواه الشيخان)
- (٤١) تجردون من شر الناس عند الله تعالى يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه .
(عن أبي هريرة . أخرجه الستة)
- (٤٢) اسموا باسمي ولا تكونوا بكفيتي . ومن رآني في المنام ، قد رآني . فإن الشيطان لا يشتمل في صورتي .
ومن كذب على معتمداً فليتبوأ مقعده من النار .
(عن أبي هريرة . أخرجه البخاري)
- (٤٣) تهادوا تحابوا .
(عن أبي هريرة . رواه البخاري)
- (٤٤) ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم . قال أبو معاوية ، ولا ينظر إليهم . ولهم عذاب أليم :
شيخ زان . وملك كذاب . وعائل مستكبر .
(عن أبي هريرة . أخرجه مسلم)
- (٤٥) حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه . وإذا دعاك فأجبه . وإذا استنصحتك فانصحه . وإذا عرض
فحمد الله فشمته . وإذا مرض فعده . وإذا مات فاتبعه .
(عن أبي هريرة . رواه مسلم)
- (٤٦) الحياء لا يأتي إلا بخير .
(عن عمران بن الحصين . رواه الشيخان)
- (٤٧) الحياء من الإيمان .
(عن ابن عمر . متفق عليه)
- (٤٨) الخلة بمنزلة الأم .
(عن البراء . رواه الشيخان)
- (٤٩) خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك . قاله لهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان .
(عن عائشة . رواه الشيخان)
- (٥٠) خياركم ، أحاسنكم أخلاقاً .
(عن ابن عمر . رواه الشيخان)

(٥١) دخلت امرأة النار في هرة ربطتها . فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت
(خشاش الأرض : هوامها)
(عن أبي هريرة . رواه الشيخان)

(٥٢) الدين النصيحة . قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .
(عن تميم الداري . أخرجه مسلم)

(٥٣) الساعى على الأرملة والمسكين ، كالجاهد في سبيل الله أو القائم الليل ؛ الصائم النهار .
(عن أبي هريرة . رواه الشيخان)

(٥٤) سباب المسلم فسوق وقتاله كفر
(عن ابن مسعود . رواه الشيخان)

(٥٥) السَّخِيُّ ، قريبٌ من الله ، قريبٌ من الناس ، قريبٌ من الجنة ، بعيدٌ من النار . والبخیل بعيدٌ من الله بعيدٌ من الجنة بعيدٌ من الناس قريبٌ من النار . ولجاهل سخى ، أحب إلى الله تعالى من عابدٍ بخيل .
(عن أبي هريرة . أخرجه الترمذی)

(٥٦) السمع والطاعة حق مالم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة .
(عن ابن عمر . أخرجه البخاری)

(٥٧) العائد في هبته . كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه
(عن ابن عباس . متفق عليه)
(٥٨) عليكم بالصدق . فإن الصدق يهدي إلى البر . وإن البر يهدي إلى الجنة . وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً .
(عن ابن مسعود . متفق عليه)

(٥٩) قد أذن الله لكن أن تخرجن لحوائجكن
(عن عائشة . رواه الشيخان)

(٦٠) كل شراب أسكر فهو حرام
(٦١) كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته . والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها . والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته
(عن ابن عمر . أخرجه التلمیة)

(٦٢) كل مسكر خمر . وكل مسكر حرام
(عن ابن عمر . أخرجه مسلم)

(٦٣) كل معروف صدقة
(عن جابر . أخرجه البخاری)

- ٤١٠ -

- (٦٤) لا ترغبوا عن آبائكم . فن رغب عن أبيه ، فهو كفر (عن أبي هريرة . رواه مسلم)
- (٦٥) لا تسبوا الأموات . فإنهم قد أفضوا إلى ماقدّموا . (عن عائشة . رواه البخاري)
- (٦٦) لا تمنعوا النساء المساجد إذا استأذنكم إليها (عن عبد الله بن عمر . رواه مسلم)
- (٦٧) لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة . فهو يقضي بها ويعلمها (عن عبد الله بن مسعود . أخرجه البخاري)
- (٦٨) لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان (عن أبي بكر . متفق عليه)
- (٦٩) لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني . والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة (عن ابن مسعود . متفق عليه)
- (٧٠) لا يحل لرجل مسلم أن يعطى العطية ثم يرجع فيها إلا الوالد فيما يعطى ولده (عن ابن عمر وابن عباس . رواه أحمد والأربعة)
- (٧١) لا يتخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم (عن ابن عباس . رواه البخاري)
- (٧٢) لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر . (عن عبد الله بن مسعود . رواه مسلم)
- (٧٣) لا يدخل الجنة قتات - أى نمام (عن حذيفة . متفق عليه)
- (٧٤) لا يرث المسلم الكافر ، ولا يرث الكافر المسلم (عن أسامة بن زيد . متفق عليه)
- (٧٥) لا يرحم الله من لا يرحم الناس (عن جرير . أخرجه الشيخان والترمذي)
- (٧٦) لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن . ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن (عن أبي هريرة . رواه مسلم)
- (٧٧) لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . (عن أبي هريرة : أخرجه البخاري)
- (٧٨) لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (عن أنس . رواه البخاري)
- (٧٩) لم يبق من النبوة إلا المبشرات . قالوا وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة (عن أبي هريرة . رواه البخاري)
- (٨٠) ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب (عن أبي هريرة . متفق عليه)
- (٨١) ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فيمنى خيراً أو يقول خيراً (عن أم كلثوم بنت عقبة . أخرجه البخاري)

- (٨٢) ليس الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير .
(عن أبي هريرة . متفق عليه) وفي رواية لمسلم - والراكب على المائى
- (٨٣) ليس المسكين الذى يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمر والتمران . ولكن للمسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يُفطن له فيُتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس .
(عن أبي هريرة . رواه البخارى)
- (٨٤) ليس منأ من ضرب الخلدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية .
(عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق ، عن عبد الله . رواه مسلم والبخارى)
- (٨٥) ما من أمير بلى أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة .
(عن معقل . رواه مسلم)
- (٨٦) ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة .
(عن معقل . رواه مسلم)
- (٨٧) ما من مولود إلا يولد على الفطرة^(١) . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه .
(عن أبي هريرة . رواه البخارى)
- (٨٨) المسلم من سلم للمسلمون من لسانه ويده . والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه
(عن عبد الله بن عمر . رواه البخارى)
- (٨٩) من أحب أن يُيسط له في رزقه وأن يُنسا في أثره ، فليَصِل رحمه
(عن أبي هريرة . أخرجه البخارى)
- (٩٠) مَنْ بَدَّل دينه فاقتلوه
(عن ابن عباس . رواه البخارى)
- (٩١) من حُسِّن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه
(عن أبي هريرة . رواه الترمذى)
- (٩١) مَنْ حَمَلَ علينا السلاح فليس منا
(عن ابن عمر . متفق عليه)
- (٩٣) من قتل نفسه بحديدة ، فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن شرب سماً فقتل نفسه ، فهو يشرب سماً في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً . ومن تردى من جبل فقتل نفسه ، فهو يتردى ، فهو يتردى
(عن أبي هريرة . رواه مسلم)
- في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً
(٩٤) من كانت له امرأتان فال إلى إحداها دون الأخرى ، جاء يوم القيامة وشقه مائل .
(عن أبي هريرة . رواه أحمد والأربعة وسنده صحيح)

(١) الفطرة يعنى الملقحة التى فطر عليها فى الرحم من سعادة أو شقاوة .

- (٩٥) من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً أو ليصمت . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره .
ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه . (عن أبي هريرة . رواه مسلم)
- (٩٦) من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن يسر على مُعسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة . ومن ستر مسلماً ، ستره الله في الدنيا والآخرة . والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .
(عن أبي هريرة . أخرجه مسلم)
- (٩٧) من ولّاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب عن حاجتهم وقديرهم ، احتجب الله دون حاجته .
(عن أبي مريم الأزدي . أخرجه أبو داود والترمذي)
- (٩٨) من يقل على ما لم أقل ، فليتبوأ مقعده من النار . (عن سلمة بن الأكوع . رواه البخاري)
- (٩٩) المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذامهم ، خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذامهم .
(عن ابن عمر . أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن)
- (١٠٠) والذي نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره ، خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله ، أعطاه أو منعه .
(عن أبي هريرة . رواه البخاري)
- (١٠١) يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة^(١) فليتزوّج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء^(٢) .
(عن عبد الله بن مسعود . متفق عليه)

(١) الباءة ، النكاح (٢) وجاء : الحياء . أراد أن الصوم يقطع شهوة النكاح كما يقطعها وجاء .

- ٤١٣ -

جدول

بتواريخ الحوادث المشهورة

في السيرة النبوية

السنة الميلادية	
٥٤٥	ميلاد عبد الله والد رسول الله
٥٧٠	حادثة القيل
» - ٢٠ أغسطس	مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، فجر الاثنين من شهر ربيع الأول
٥٧٣	ميلاد أبي بكر الصديق
٥٧٥ - ٥٧٦	وفاة أمينة ، أم النبي صلى الله عليه وسلم
٥٧٨	وفاة جده عبدالمطلب
٥٨١	ميلاد عمر بن الخطاب
٥٨٢	رحلة النبي الأولى إلى الشام مع عمه أبي طالب
٥٨٠ - ٥٩٠	حرب الفجار
٥٩٥	الرحلة الثانية إلى الشام في تجارة لخديجة
»	زواجه بخديجة
٦٠٠ - ٦٠١	ميلاد علي بن أبي طالب
٦٠٥	تجديد بناء الكعبة
٦١٠	بدء الوحي
٦١٣ - ٦١٤	ميلاد عائشة
٦١٥	الهجرة الأولى إلى الحبشة « شهر رجب سنة خمس من النبوة »
٦١٧	مقاطعة قريش لبني هاشم وبني المطلب
٦٢٠	وفاة أبي طالب ووفاة خديجة

السنة لليلادية	
٦٢٠	سفره إلى الطائف
٦٢١	الإسراء والمراج « قبل الهجرة بسنة - ليلة الاثنين ٢٧ رجب »
»	فريضة الصلاة
»	بيعة العقبة الأولى « سنة ١٢ من النبوة »
٦٢٢ - ٢٨ يوتيه	هجرته إلى المدينة « ١٢ ربيع الأول - يوم الاثنين وهو يوم وصوله إلى المدينة »
٦٢٣	صرف التيلة إلى الكعبة
»	بعث حمزة « شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة »
»	سرية عبيدة بن الحارث « شهر شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة »
٦٢٣ يونيه	غزوة الأبواء « شهر صفر على رأس اثني عشر شهراً من الهجرة »
٣٢٣ يوليه	غزوة بواط « شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة »
٦٢٣ أكتوبر	غزوة العشيرة « جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة »
٦٢٣ نوفمبر	سرية عبد الله بن جحش « شهر رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة »
٦٢٤ يناير	غزوة بدر الكبرى « رمضان على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة »
٦٢٤ فبراير	غزوة بني قنقاع « شوال من السنة الثانية من الهجرة »
٦٢٤ أبريل	غزوة السويق « في ذى الحجة من السنة الثانية »
٦٢٤ يوليه	قتل كعب بن الأشرف « ربيع الأول من السنة الثالثة »
٦٢٤ سبتمبر	سرية زيد بن حارثة « جمادى الآخرة من السنة الثالثة »
٦٢٥ يناير	غزوة أحد « شوال سنة ثلاث »
٦٢٥	غزوة حمراء الأسد « شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً »
٦٢٥ مايو	بعث الرجيع « صفر من السنة الرابعة »
٦٢٥ مايو	سرية بئر معونة
٦٢٥ يونيه	غزوة بني النضير « ربيع الأول سنة أربع » وتحريم الخمر
٦٢٦ يوليه	غزوة دومة الجندل « ربيع الأول سنة خمس »
٦٢٦ ديسمبر	غزوة بني المصطلق « شعبان سنة خمس »

السنة الميلادية	
٦٢٧	فبراير غزوة الخندق « شوال سنة خمس »
٦٢٧	إبريل غزوة بنى قريظة « في ذى القعدة سنة خمس »
٦٢٧	يونيه - يوليه غزوة بنى لحيان « ربيع الأول سنة ست »
٦٢٧	يوليه غزوة ذى قرد « ربيع الأول سنة ست »
٦٢٧	أغسطس سرية الفهر « ربيع الثاني سنة ست »
٦٢٧	سبتمبر سرية زيد بن حارثة إلى العيص « جمادى الأولى سنة ست »
٦٢٧	أكتوبر سرية أخرى لزيد بن حارثة إلى حسمى « جمادى الآخرة سنة ست »
٦٢٧	ديسمبر سرية عبد الله بن عتيك « رمضان سنة ست »
٦٢٨	يناير سرية عبد الله بن رواحة « شوال سنة ست »
٦٢٨	فبراير الحديبية « في ذى القعدة سنة ست »
٦٢٨	مايو إيفاد الرسل إلى الروم وفارس « سنة سبع »
٦٢٨	أغسطس زواج رسول الله بأم حبيبة بنت أبي سفيان « جمادى الأولى سنة سبع »
٦٢٨	أغسطس غزوة خيبر « شهر المحرم سنة سبع »
٦٢٩	فبراير عمرة القضاء « في ذى القعدة سنة سبع »
٦٢٩	سبتمبر سرية مؤتة « جمادى الأولى سنة ثمان »
٦٢٩	أكتوبر سرية ذات السلاسل « جمادى الثانية سنة ثمان »
٦٢٩	نوفمبر سرية الخطب « شهر رجب سنة ثمان »
٦٢٩	ديسمبر سرية أبي قتادة إلى نجد « شعبان سنة ثمان »
٦٣٠	يناير فتح مكة وهدم الأصنام « رمضان سنة ثمان »
٦٣٠	فبراير غزوة حنين « ١٠ شوال سنة ثمان »
٦٣٠	فبراير غزوة الطائف « شوال سنة ثمان »
٦٣٠	إبريل مولد إبراهيم « في ذى الحجة سنة ثمان »
٦٣٠	إبريل سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى تبم « المحرم سنة تسع »
٦٣٠	يوليه سرية علقمة بن مجزز المدلجي إلى الحبشة « ربيع الآخر سنة تسع »
٦٣٠	يوليه سرية علي بن أبي طالب إلى الفلاس « صم طي » « ربيع الآخر سنة تسع »

— ٤١٦ —

السنة الميلادية	
٦٣٠	أكتوبر
٦٣١	مارس
٦٣١	يونيه
٦٣١	يونيه
٦٣١	ديسمبر
٦٣٢	مارس
٦٣٢	مايو
٦٣٢	٧ يونيه

غزوة تبوك « رجب سنة تسع »

حجة أبي بكر الصديق « في ذى الحجة سنة تسع »

سرية خالد بن الوليد إلى بنى الحارث بن كعب بنجران « ربيع الأول سنة عشر »

وفاة إبراهيم ابن رسول الله « ربيع الأول سنة عشر »

بعث على رضى الله عنه إلى اليمن « رمضان سنة عشر »

حجة الوداع « في ذى الحجة سنة عشر »

استعداد جيش أسامة للسفر إلى الشام « صفر سنة إحدى عشرة »

وفاة رسول الله يوم الاثنين « شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة »

فهرسالموضوعات

صفحة	صفحة
٣٦ سوق عكاظ	٣ إهداء الكتاب
٣٧ حلف الفضول	٥ مقدمة الكتاب
٣٧ هل سافر النبي إلى اليمن؟	٧ كلمة عن بلاد العرب
٣٨ ابتداءه ﷺ عن معائب الجاهلية	٨ أشهر تنور بلاد العرب
٣٨ وأد البنات	٩ ود ، وسواع ، وبنوث ، ويعوق ، ونسر (أصنام)
٣٨ الرحلة الثانية إلى الشام	١٠ نسبة الشريف ﷺ
٣٩ تزوج رسول الله خديجة رضي الله عنها	١١ مناقب أجداده ﷺ
٤١ تجديد بناء الكعبة	١٢ السدانة والسقاية
٤١ سيدنا إسماعيل	١٤ نذر عبد المطلب ، جد النبي صلى الله عليه وسلم
٤٢ تسميته بالأمين ﷺ ، والرد على من انحرف بهذه التسمية	١٦ زواج عبد الله
٤٣ خلقه ﷺ في طفولته وشبابه	١٧ أصحاب الفيل - كنيسة صنعاء
٤٥ رسالة محمد صلى الله عليه وسلم - إثباتها من التوراة والإنجيل	١٩ مولده ﷺ
٤٨ إنذار يهود برسول الله صلى الله عليه وسلم	٢١ الاحتفال بمولده ﷺ
٥٠ سلمان الفارسي وقصة إسلامه	٢٢ أسماؤه ﷺ
٥١ بيع الفرق	٢٣ مرضعته ﷺ - إخوة النبي من الرضاع
٥٢ من تسمى في الجاهلية بمحمد	٢٤ شق الصدر
٥٣ عبادة الأصنام والأوثان	٢٥ دحض مفتريات بعض المستشرقين
٥٦ الأربعة الباحثون عن دين إبراهيم	٢٥ الحفص على قتله صغيراً
٥٦ الرد على مستر كانون سل	٢٦ وفاة أمينة - أم أيمن
٥٧ ترجمة زيد بن عمرو	٢٦ عبد المطلب يهني سيف بن ذي يزن
٥٩ بدء الوحي	٣٠ وفاة جده عبد المطلب وكفالة عمه أبي طالب له
٦١ النبي المنتظر	٣٢ السفر إلى الشام - الرد على مستر موير
٦٣ النبي الأُمي	٣٥ من هو بحيرا؟
	٣٦ حرب الفجار

صفحة	صفحة
١٠٨ حصار الشعب وخبر الصحيفة	٦٧ فترة الوحي
١١٠ الطفيل بن عمرو الدوسي ، شاعر يحكم عقله ويسلم	٦٩ أبو بكر الصديق وإسلامه
١١١ وفاة أبي طالب	٦٩ أسماء الأصنام
١١٢ وفاة خديجة	٧٤ علي بن أبي طالب وإسلامه
١١٢ سفر رسول الله إلى الطائف	٧٦ زيد بن حارثة وإسلامه
١١٤ الإسراء والمعراج	٧٧ الدعوة إلى الإسلام خفية
١١٧ تأثير خبر الإسراء في قريش - للمعراج	٧٩ الرد على مستر مرجوليوت
١٢٠ هل رأى رسول الله ربه ليلة الإسراء ؟	٨٠ إيذاء للمشركين لأبي بكر الصديق
١٢١ فريضة الصلاة	٨٢ إظهار الإسلام
١٢٢ عرض الرسول نفسه على قبائل العرب	٨٤ عبد الله بن مسعود ، أول من جهر بالقرآن
١٢٣ بدء إسلام الأنصار - بيعة العقبة الأولى -	٨٤ وصف عبد الله بن مسعود
إسلام سعد بن معاذ	٨٤ الضرب والشتم حيلة الجهال المتعصبين
١٢٤ بيعة العقبة الثانية	٨٥ القرآن يحير أبواب العرب
١٢٤ نداء الأوس والخزرج الذين بايعوا النبي	٨٦ قريش تفاوض أبا طالب في أمر رسول الله ﷺ
صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة	٨٨ تهذيب المسلمين
١٢٥ دار الندوة	٩٠ ما عرضته قريش على رسول الله ﷺ
١٢٦ القرآن وما نزل منه بمكة	٩٣ حماقة أبي جهل
١٢٧ الهجرة إلى المدينة - وصول رسول الله إلى المدينة	٩٤ قريش تتمحن رسول الله
١٣١ أبو أيوب الأنصاري	٩٤ التضمر بن الجارث
١٣٢ ذكر الهجرة في القرآن	٩٦ إسلام جابر بن عبد الله
١٣٣ خطبة رسول الله في أول جمعة صلاها بالمدينة	٩٧ الهجرة الأولى إلى الحبشة
١٣٤ معاهدة رسول الله ، اليهود	٩٨ شقاعة الترانيق - اقتراء الزنادقة على رسول الله
١٣٦ الخزرج والأوس وما كان بينهما وبين اليهود	١٠٤ إسلام حمزة رضى الله عنه
١٤١ مدينة يثرب	١٠٥ عمر بن الخطاب وسبب إسلامه
١٤٢ مرض المهاجرين بحمى المدينة	١٠٥ فاطمة بنت الخطاب
	١٠٨ الهجرة الثانية إلى الحبشة

صفحة	صفحة
مسير الجيشين ونزول المطر - بناء حوض	١٤٣ مسجد رسول الله
على القلب - بناء العريش - عتبة بن ربيعة	١٤٣ الجحفة
ينصح قريشاً بالرجوع - تعديل صفوف	١٤٥ تزويج النبي صلى الله عليه وسلم بمائشقرضى
المسلمين ودعاء رسول الله - اقتحام الخوض -	الله عنها
المبارزة - تعديل صفوف المسلمين والحث على	١٤٦ صرف القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة
الجهاد - ألوية المسلمين والمشركين - تراخى	١٤٧ الأذان
الناس والتحام القتال - إمداد المسلمين	١٤٧ فرض صيام شهر رمضان وزكاة الفطر
بالملائكة يوم بدر - سيماء للملائكة يوم بدر -	١٤٧ عبدالله بن زيد
إلقاء القتلى في القلب - الأسرى وقداؤهم -	١٤٨ فريضة الزكاة
رأى أبى بكر رضى الله عنه في الأسرى - رأى	١٤٩ للوإخاة بين المهاجرين والأنصار
عمر بن الخطاب في الأسرى - تأخير الانتصار	١٥١ إسلام عبدالله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي
في المدينة - رجوعه صلى الله عليه وسلم إلى	١٥٢ عداء اليهود ومناقشتهم
المدينة وتقسيم النخيلة - وقع خبر الانتصار	١٥٤ أهل الصفة
على قريش	١٥٦ الإذن بالقتال
١٨٧ أسباب انتصار المسلمين في موقعة بدر	١٥٧ بعث حمزة
١٧٨ فضل أهل بدر	١٥٧ أبو سفيان بن حرب
١٧٩ وفاة رقية بنت رسول الله	١٥٧ سرية عبيدة بن الحارث
١٧٩ زواج فاطمة بنت رسول الله	١٥٨ سعد بن أبى وقاص
١٨١ غزوة بنى سليم	١٥٨ غزوة ودان أو غزوة الأبواء
١٨١ ابن أم مكتوم	١٥٩ غزوة بواط
١٨١ غزوة بنى قينقاع	١٥٩ غزوة بدر الأولى أو غزوة سفوان
١٨٣ غزوة السويق	١٥٩ غزوة العشيرة
١٨٤ غزوة ذى أمر ، وهى غزوة غطفان	١٦٠ سرية عبد الله بن جحش الأسدى
١٨٥ زواج أم كلثوم بنت رسول الله	١٦١ سرية (غزوة بدر الثانية أو بدر الكبرى)
١٨٥ زواج خنصة	قوة قريش - قوة المسلمين - رسول الله يستشير
١٨٥ سرية زيد بن حارثة	أصحابه - الخلاف بين أبى سفيان وأبى جهل

صفحة	صفحة
٢٢١ غزوة للربيع أو غزوة بنى المصطلق	١٨٦ قتل كعب بن الأشرف
٢٢٢ قتل هشام بن صبابه	١٨٨ قتل ابن سُنينة
٢٢٣ آية التيمم	١٨٨ مناقشة بعض المستشرقين في قتل كعب
٢٢٣ عائشة وحديث الإفك	١٨٩ غزوة أحد - الكرة على المسلمين - ثبات
٢٢٧ غزوة الخندق وهي الأحزاب - تحزب	رسول الله - للنهزمون من المسلمين - رسول
الأحزاب - أي الدين خير - خروج	الله ومن ثبت معه - شجاعة امرأة وثباتها مع
الأحزاب وقواديم - حفر الخندق - سلمان	رسول الله - إحدى معجزات رسول الله -
منا أهل البيت - اعتراض صخره بيضاء	قتل أبي بن خلف - إصابة رسول الله - المثلة
ومعجزة الرسول - عدد الجيش - نقض العهد	بالمسلمين وبمحزة رضى الله عنه
اشتداد الحصار - اقتحام الخندق - حسان	٢٠١ أسباب انهزام المسلمين في موقعة أحد - نداء
ابن ثابت يخشى القتال - استمرار القتال	أبي سفيان - استشهاد سعد بن الربيع
وفوات الصلاة - إن الحرب خدعة - حرب	الأنصاري - قتل غيبريق - اقتحام قزمان -
الطبيعة - خطبة أبي سفيان - خسائر	دفن القتلى - رجوع رسول الله إلى المدينة -
المسلمين - خسائر المشركين .	شهادة اليهود والمناقين - نزول للملائكة
٢٣٥ غزوة بنى قريظة - حكم سعد بن معاذ -	يوم أحد
غنائم المسلمين - وفاة سعد - خسائر المسلمين	٢٠٦ ذكر غزوة أحد في القرآن
في غزوة بنى قريظة .	٢٠٧ غزوة حمراء الأسد
٢٤٠ منازل من القرآن في أمر الخندق وبنى قريظة	٢٠٩ بعث الرجيع
٢٤١ يهود المدينة وما آل إليه أمرهم	٢١١ سرية بئر معونة
٢٤٢ سكرية القرطاء وإسلام ثمامة بن أثال الحنفي	٢١٢ غزوة بنى النضير
٢٤٣ غزوة بنى لحيان	٢١٥ تحريم الخمر - الإصلاح الاجتماعي العظيم -
٢٤٣ إمارة عيينة بن حصن	حد الخمر
٢٤٤ غزوة ذي قرد وهي غزوة الغابة	٢١٧ غزوة ذات الرقاع
٢٤٤ سرية النمر، أو سرية عكاشة بن محصن الأسدي	٢١٨ غزوة بدر الأخيرة
٢٤٥ سرية محمد بن مسلمة الأنصاري إلى ذي القصة	٢١٨ غزوة دومة الجندل
٢٤٥ سرية زيد بن حارثة	٢١٩ تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش

صفحة	صفحة
٢٧٢ ٥ - كتاب رسول الله إلى النجاشي أصحمة -	٢٤٦ سرية أخرى لزيد بن حارثة
إسلام النجاشي . .	٢٤٧ سرية عبدالرحمن بن عوف إلى دومة الجندل -
٢٧٤ زواج أم حبيبة بنت أبي سفيان برسول الله	إسلام الأصمغ بن عمرو الكلبي .
٢٧٥ ٦ - كتاب رسول الله إلى هوزة بن علي	٢٤٧ سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر
الحنفي ، صاحب اليمامة .	٢٤٧ سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة
٢٧٦ ٧ - كتاب رسول الله إلى المنذر بن ساوى التميمي	٢٤٨ سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلام بن
٢٧٦ ٨ - كتاب رسول الله إلى ملكي عمان	أبي الحقيق .
٢٧٧ نتيجة إرسال الرسل إلى الملوك والأمراء	٢٥٠ سرية عبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام
٢٧٨ غزوة خيبر - حصون خيبر - تحريم لحوم	٢٥١ سرية كرز بن جابر القهري
الجرم الأهلية - إصابة الصحابة بالحج في خيبر	٢٥٢ أمر الحديبية
٢٨٤ صلح أهل فذك	٢٥٧ بيمعة الرضوان - تأثير البيعة في قريش -
٢٨٤ غزوة وادي القري	الصلح - مزايا هذا الصلح - تنفيذ المعاهدة
٢٨٥ خمس سرايا في خريف وشتاء السنة السابعة	٢٦٢ رسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء
الهجرية .	يدعوم إلى الإسلام - خاتم رسول الله -
٢٨٦ عمرة القضاء	كتب رسول الله
٢٨٧ زواج رسول الله بيمونة	٢٦٤ ١ - كتاب رسول الله إلى هرقل
٢٨٨ ما قيل في سرية مؤتة من الحوادث	٢٦٥ سؤال هرقل لأبي سفيان بشأن رسول الله
٢٨٩ إسلام عمرو بن العاص	صلى الله عليه وسلم
٢٩٤ خالد بن الوليد وإسلامه	٢٦٦ ٢ - كتاب رسول الله إلى الحارث بن
٢٩٦ سرية مؤتة لمحاربة الروم	أبي شمر الغساني .
٢٩٧ وصية رسول الله للجيش قبل رحيله إلى مؤتة	٢٦٧ ٣ - كتاب رسول الله إلى كسرى عظيم
٢٩٨ عبد الله بن رواحة هو عبد الله بن ثعلبة	الفرس - إسلام باذان - الرد على المستشرق
٢٩٩ مواساة رسول الله لآل جعفر	نورث .
٣٠٠ إسلام فروة بن عامر الجذامي	٢٦٩ ٤ - كتاب رسول الله إلى القوقس عظيم
٣٠٠ سرية عمرو بن العاص أوسرية ذات السلاسل	القبط - مارية القبطية - إبراهيم ابن
٣٠٢ سرية أبي عبيدة بن الجراح	رسول الله .

صفحة	صفحة
٣٣٣ سرية عيينة بن حصن الزناري إلى تميم	٣٠٢ غزوة فتح مكة - قريش تبعث أباسفيان إلى
٣٣٣ سرية الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق	المدينة - استعداد رسول الله للزحف على مكة -
٣٣٤ » قطبة بن عامر إلى خثعم	كتاب حاطب إلى مكة - رسول الله يأذن
٣٣٤ » الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب	لأصحابه بالإفطار في رمضان - عقد الألوية
٣٣٥ » علقمة بن مجزز المدلجي إلى الحبشة	والرايات - نيران جيش المسلمين - المحكوم
٣٣٥ » علي بن أبي طالب إلى القلنس	عليهم بالقتل - دخول الكعبة - بيعة أهل
٣٣٦ غزوة تبوك أو العُسرة - إخلاص الصحابة	مكة - هدم الأصنام - أذان بلال على ظهر
وصدقاتهم - البكاءون - المتخلفون -	الكعبة - إسلام أبي قحافة والد أبي بكر
المعذرون - عدد جيش المسلمين	الصديق
٣٣٨ بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر	٣٠٩ ترجمة أبي سفيان
٣٣٩ المعجزات وخوارق العادات	٣٢٢ سرية خالد بن الوليد إلى العزى
٣٤٠ هدم مسجد الضرار بقاء	٣٢٣ سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة
٣٤١ لماذا بنى مسجد الضرار؟	٣٢٣ سرية عمرو بن العاص إلى سِوَاع
٣٤١ موت عبد الله بن أبي ابن سلول ، رأس	٣٢٤ سرية خالد بن الوليد إلى جذيمة
المنافقين	٣٢٥ غزوة حنين - قوة العدو واستعداده - قوة
٣٤٢ حجة أبي بكر الصديق	جيش المسلمين واستعدادهم - ترتيب صفوف
٣٤٣ سرية خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن	المسلمين وتوزيع الرايات - جواسيس العدو -
كعب بنجران	جاسوس المسلمين - القتال - الانتصار بعد
٣٤٥ وفاة إبراهيم ابن رسول الله	المزينة - تقسيم الغنائم ورد السبي - الغنائم
٣٤٦ أبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل ، بعثهما	والأنصار - رجوع رسول الله إلى المدينة -
إلى اليمن	٣٢٩ للثؤلفة قلوبهم
٣٤٧ بعث علي بن أبي طالب إلى اليمن	٣٣٠ سرية عامر الأشعري أو سرية غزوة أوطاس
٣٤٧ حجة الوداع	(هوازن)
٣٤٩ بعث أسامة بن زيد إلى الشام	٣٣٠ سرية الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفنين
٣٤٩ عدد الغزوات والبعوث	٣٣١ غزوة الطائف
٣٥٠ الوفود	٣٣٢ بعث قيس بن سعد إلى صداء

صفحة	صفحة
٣٨٧ حراسه ﷺ	٣٥٢ أبى بن كعب الأنصارى
٣٨٨ أمناء رسول الله	٣٥٢ وفاة رسول الله
٣٨٨ شعراؤه صلى الله عليه وسلم	٣٥٥ رثاء أبى بكر - رثاء حسان بن ثابت
٣٨٩ مؤذنه .	٣٥٨ ما نزل من القرآن بالمدينة
٣٩٠ خدمه	٣٥٨ مراتب الوحي والرد على المستشرقين
٣٩١ خيله وبغاله وإبله	٣٦٠ زوجات رسول الله
٣٩٢ أسماء أسلحته : السيوف . الدروع . القسي	٣٦١ تعدد زوجات رسول الله
٣٩٣ الأتراس . الرماح . الحرايب . الخوذ	٣٦٣ للزواة فى الإسلام
٣٩٤ تأديب الله تعالى لرسوله ﷺ . الشورى -	٣٦٣ حكمة تعدد الزوجات
اليتيم والسائل	٣٦٦ بنوه وبناته ﷺ
٣٩٥ الصبر والمباداة . هجر الرجز	٣٦٧ صفته عليه السلام
٣٩٦ النهى عن تحريم ما أحله الله . العفو والإعراض	٣٦٩ الشرائع الحميدة
عن الجاهلين	٣٧٢ عفو وحلمه
٣٩٧ التواضع للمؤمنين . المجادلة بالحسنى	٣٧٣ كرمه
٣٩٨ إيتاء ذى القربى والمساكين . معاملة العدو -	٣٧٤ شجاعته
الاقتصاد فى الإنفاق .	٣٧٥ اتباع التعاليم الإسلامية
٤٠٠ منزلة رسول الله فى القرآن . طاعة الله وطاعة	٣٧٦ الاقتداء بأخلاق رسول الله
الرسول . الثناء على أخلاقه . بشة الرسول	٣٧٨ معزات رسول الله
إحسان إلى كل العالمين . الصلاة على النبى	٣٧٩ معجزة القرآن
صلى الله عليه وسلم . التأديب فى حضرة الرسول -	٣٨١ انشقاق التمر
تحكيم رسول الله . بمقابلة مشاقة رسول الله .	٣٨٣ نبع الماء من بين الأصابع
٤٠٣ الأحاديث النبوية وتدوينها	٣٨٤ تكثير الطعام . حنين الجذع . إبراء للرضى
٤٠٥ مختارات من الأحاديث النبوية	وذى العاهات الخ .
٤١٣ جدول بتواريخ الحوادث المشهورة فى السيرة	٣٨٥ خصائصه ﷺ
النبوية	٣٨٥ موالى رسول الله

خاتمة الكتاب

أما بعد ، فيقول المبد الفقير إلى الله جلّ شأنه ، الراجي عفوه ومثوبته (محمد رضا) :
لقد انتهيت من تأليف هذا الكتاب الذي قضيت شطراً كبيراً من حياتي في جمعه وتصنيفه وتحقيق
موضوعاته ومسائله ؛ لأقدم للعالم الإسلامي كتاباً يعتمد عليه في السيرة النبوية الشريفة . على أني أعترف
أن الإنسان مهما تحرى الصواب ، فهو عرضة للخطأ والزلل . وحسب المؤلف أن يبذل وسعه
ويفرغ جهده :

فأرجو القارئ الكريم أن يفتقر ما قد يعثر عليه من هفوات وسقطات ، قد لا يخلو منها كتاب .
فقوق كل ذي علم عليم . وما أوتينا من العلم إلا قليلاً . وقد قيل : « من ألف ، فقد استهدف » والله أسأل
أن يوفقنا إلى ما فيه رضاه ويهديننا سواء السبيل ويرينا الخير خيراً فنقتبعه ، والشر شراً فنجتنبه ، ويهيننا
الصدق في القول والإخلاص في العمل ، وينفع بهذا الكتاب طلاب العلم وأن يصلح به النفوس
ويهدي الأمم الإسلامية إلى الاقتداء بسيد الخلق ، والعمل بسنته ، حتى يعيدوا مجدهم ويرفعوا قدرهم .
اللهم آمين ؟

محمد رضا



